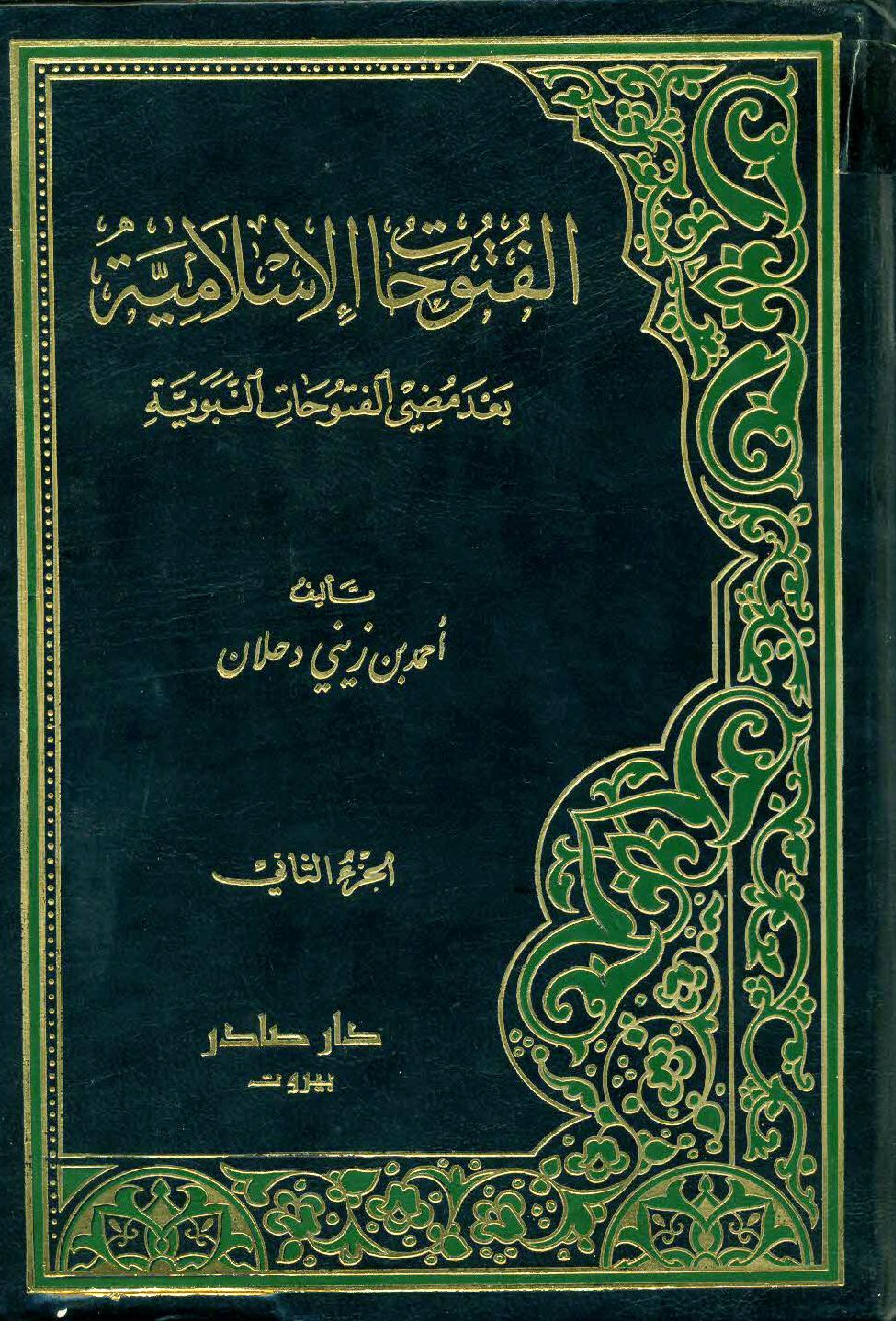

الفتوحات الإسلامية
بعد مضي الفتوحات النبوية
تأليف
أحمد بن زيني دحلان
الجزء الثاني
دار صادر
بيروت

الفتوحات الإسلامية

بعد مضي الفتوحات النبوية

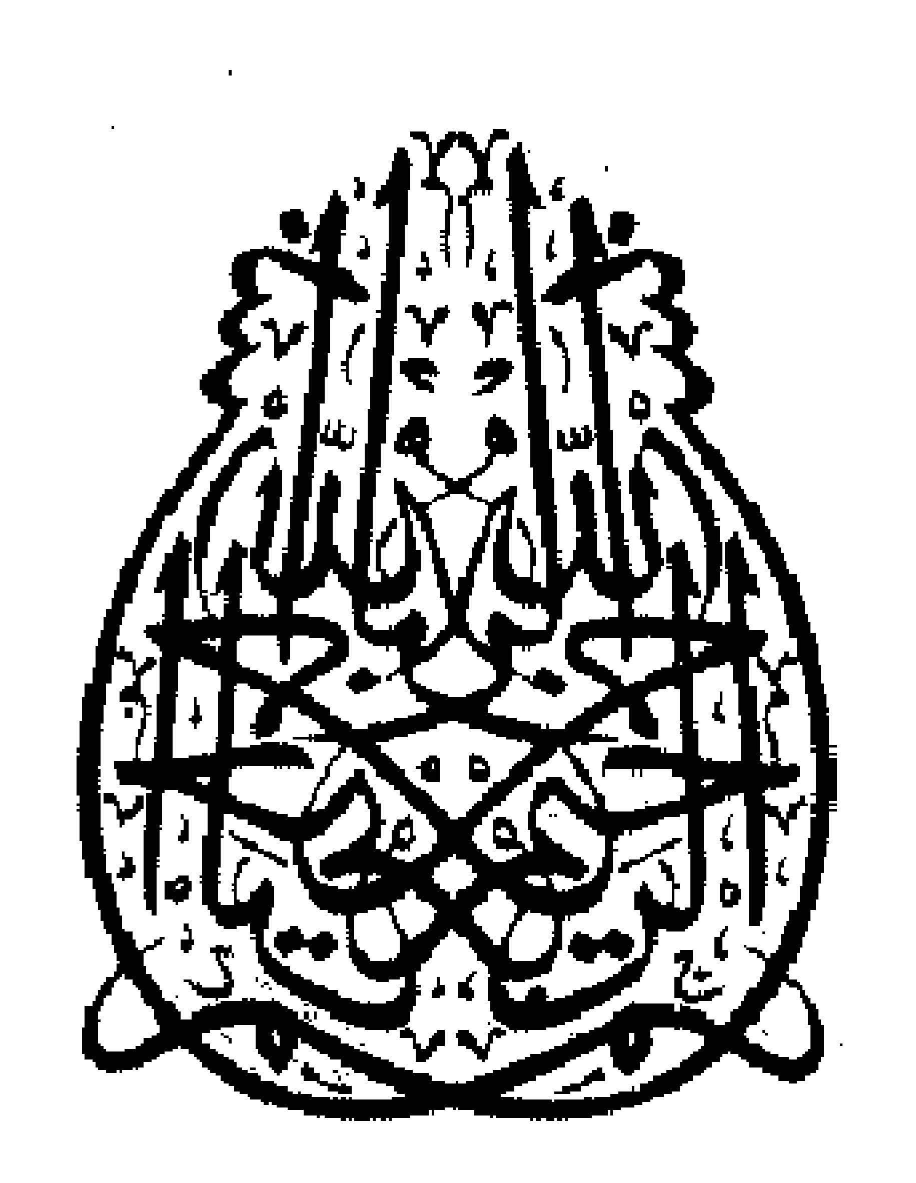
تأليف

أحمد بن زيني دحلان

الجزء الثاني

دار صادر

بيروت





ذكر ملك الفرنج القسطنطينية

في سنة ستمئة ملك الفرنج مدينة القسطنطينية في شعبان وانتزعوها من الروم وأزالوا ملك الروم عنها ، وكان سبب ذلك أن ملك الروم تزوج أخت ملك الفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج ، فرزق منها ولداً ذكراً ، وكان لملك الروم أخ فوثب الأخ على الملك فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه ، فهرب ولد الملك إلى خاله ملك فرنسيس مستنصراً به على عمه ، فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام لإستنقاذ بيت المقدس ، فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصداً لإصلاح الحال بينه وبين عمه ، ولم يكن له طمع في سوى ذلك ، فلماوصلوا خرج عمه في عساكر الروم محارباً لهم فوقع القتال بينهم في ذي القعدة سنة خمسمئة وتسعة وتسعين ، فانهزمت الروم ودخلوا البلد ، فدخل الفرنج معهم فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد .

وقيل إن ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وإنما حصروه فيها ، وكان في الروم من يريد الصبي فألقوا النار في البلد ، فاشتغل الناس بذلك ففتحوا باباً من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هارباً ، وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبي وليس له من الحكم شيء ، وأخرجوا أباه من السجن ، إنما الفرنج هم الحكام في البلد ، فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالاً عجزوا عنها ، وأخذوا أموال البيَع وما فيها من ذهب وغير ذلك حتى ما على الصلبان وما هو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الأناجيل من ذلك أيضاً ، فعظم ذلك على الروم وتحملوا منه خطباً عظيماً ، فعمدوا إلى ذلك الصبي الذي تملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب واستحضروا الملك ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ستمئة ، فأقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم ، وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلاً ونهاراً .

وكان الروم قد ضعفوا ضعفاً كثيراً فأرسلوا إلى السلطان زكي الدين السلجوقي صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يُجْدِ ذلك سبيلاً ، وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفاً ، ولعظم البلد لا يظهر أمرهم ، فتواطؤوا والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد ، وفتحوا الأبواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالرُوم قتلاً ونهباً ، فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئاً ، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى أيا صوفيا ، فجاء الفرنج إليها ، فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بها إلى الفرنج ليبقوا عليهم ، فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة .

وكان رؤساء الفرنج الذين ملكوا القسطنطينية ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية ، وكان شيخاً أعمى إذا ركب تقاد فرسه ، والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الأفرنسيس ، والثالث يقال له كندافلند وهو أكثرهم عدداً ، فلما استولوا على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند ، فأعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه ، فَمَلَّكوه ، والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء .

فلما خرجت القرعة ملّكوه عليها وعلى ما يجاورها ، وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة إقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ، ويكون لمركيس الأفرنسيس البلاد التي هي في الخليج مثل أزنيق ولازيق ، ولكن لم يحصل لأحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية ، وأما الباقي فلم يسلم له من به من الروم ، بل دافعوا عما بأيديهم وبقي لهم ، وأما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين السلجوقي ومن جملتها ، أزنيق فإنه تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه كسكرى وبقيت بيده ، ولم تزل القسطنطينية بأيدي الفرنج من هذا التاريخ إلى سنة ستين وستمئة ، فتجمع الروم وقصدوها وقاتلوا الفرنج وانتزعوها منهم وعادت لملكهم .

ولما ملك الفرنج القسطنطينية في السنة المذكورة ، أعني سنة ستمئة تَقَوّى ملكهم

بالشام ، فخرج كثير منهم من القسطنطينية في البحر إلى الشام وأرسوا بعكا ، وعزموا على قصد بيت المقدس حرسه الله ، فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيراً من بلاد الإسلام بنواحي الأردن وسبوا وفتكوا في المسلمين ، وجاء أسطول منهم إلى قوة من الديار المصرية فاستولوا عليها ونهبوها خمسة أيام وعساكر مصر في مقابلتهم وبينهم النيل ليس لهم وصول إليهم ، لأنهم لم تكن لهم سفن .

وكان الملك العادل بدمشق ، فأرسل في جمع العساكر من الشام ومصر ، فساروا ونزل بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام ، ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على بعض الأطراف منها فأخذوا كل من بها ، ودام الأمر في إغارات بينهم وبين المسلمين إلى أن انقضت السنة .

ودخلت سنة إحدى وستمئة ، فانعقد صلح بينهم وبين الملك العادل على أن دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام يبقى له ، ونزل لهم عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها ، وأعطاهم ناصرة وغيرها ، وسار نحو الديار المصرية ، فقصد الفرنج مدينة حماة ، فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين ابن أخي صلاح الدين شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم ، وكان في قلة فهزموه إلى البلد ، فخرج العامة إلى قتال الفرنج فقتلوا منهم جماعة ، ثم عاد الفرنج إلى عكا بعد أن انعقد صلح بينهم وبين صاحب حماة .

وفي سنة ثلاث وستمئة ملك غياث الدين السلجوقي أنطالية ، باللام ، مدينة للروم على ساحل البحر ، وهي غير أنطاكية بالكاف ، وكان تملكه لها بعد قتال وحصار لأهلها ، ثم قتل من كان فيها من الفرنج .

ذكر غارات الفرنج بالشام وحصن الأكراد

في سنة أربع وستمئة كثر الفرنج الذين بطرابلس الشام ، وأكثروا الإغارة على بلد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيراً ، فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه قوة ولا قدرة على دفعهم ومنعهم ، فاستنجد بالملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وغيره من ملوك الشام ، فلم ينجده أحد إلا الظاهر غازي ، فإنه سيّر له عسكراً أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ، ثم إن الملك الغازي

خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا ، فحاصرها وأغار على أطرافها ، فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من إطلاق أسرى من المسلمين ، وخرج ذلك ، ثم سار إلى حمص ، ثم إلى طرابلس وحاصر موضعاً منها يسمى القلعات ، ثم ملكه صلحاً وأطلق صاحبه وإنم ما فيه من دواب وسلاح ، وخربه وتقدم إلى طرابلس ، فنهب وأحرق وسبى وغنم ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح فلم يتم ودخل الشتاء ، فجعل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها ، وعاد إلى دمشق فشتى بها .

وكان سبب خروج الملك العادل من مصر بالعساكر أن أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة قطع من أسطول مصر وأسروا من فيها ، فأرسل العادل إلى صاحب عكا في رد ما أخذوه ، ويقال له نحن في صلح فَلِمَ غدرتم بأصحابنا ؟ فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لي عليهم حكم ، وأن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية ، ثم إن أهل قبرس ساروا إلى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم وتعذرت عليها الأقوات ، وعاد حكم قبرس إلى صاحب عكا فأعاد العادل مراسلته ، فلم ينفصل بينهما ، فسار بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا ، فأجابه حينئذ صاحب عكا إلى ما طلب وأرسل الأسرى ، ثم لم تزل الوقائع تتوالى وتتتابع والصلح يتم تارة وينقطع أخرى إلى أن دخلت سنة أربع عشرة وستمئة ، فحصلت وقائع شتى .

ذكر ظهور الفرنج إلى الشام
ومسيرهم إلى مصر وملكهم دِمْيَاط

كان من أول هذه الحادثة إلى آخرها أربع سنين غير شهر ، وحاصلها أنه في سنة أربع عشرة وستمئة وصلت أمداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج في الغرب والشمال ، إلا أن المتولي لها كان صاحب رومية البابا ؛ لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم ، فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمي الفرنج وأمر كل ملك من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشاً ، ففعلوا ما أمرهم ، فاجتمعوا بعكا ، وكان الملك العادل بن أيوب بمصر ، فسار منها إلى الشام ، فوصل إلى الرملة ومنها إلى الدويرز ، وسار الفرنج من عكا ليقصدوه ، فسار العادل نحوهم فوصل إلى نابلس

عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم ، فساروا هم فسبقوه ، فنزل على بيسان من الأردن ، فتقدم الفرنج إليه في شعبان عازمين على محاربته لعلمهم أنه في قلة بالنسبة إليهم ، لأن عساكره كانت متفرقة في البلاد ، فلما رأى الملك العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفاً من هزيمة تكون عليه وكان حازماً كثير الحذر ، ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد في تجمّع العساكر ، فوصل إلى مرج الصُّفَّر فنزل فيه ، وكان أهل بَيْسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنّوا فلم يفارقوا بلادهم ظناً منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه ، فلما أقدموا كان إقدامهم على غفلة من الناس ، فلم يقدر على النجاة إلا القليل ، فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة ، وغنموا شيئاً كثيراً ، ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس ، وبثوا السرايا في القرى فوصلت إلى خسفين ونوى وأطراف السواد ، ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والأسرى ما لا يحصى كثرة سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا ، فأقاموا أياماً واستراحوا فيها ، ثم جاؤوا إلى صور وقصدوا بلد الشقيف ، ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين ، فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا إلى عكا ، وكان هذا من نصف رمضان إلى العيد ، والذي سلم من تلك البلاد وكان مخفاً قدر على النجاة ، ولما سار العادل إلى مرج الصُّفَّر رأى رجلاً في طريقه يحمل شيئاً وهو يمشي تارة ويقعد تارة ويستريح ، فعدل العادل إليه وحده فقال له : يا شيخ لا تعجل وارفق بنفسك ، فعرفه الرجل فقال : يا سلطان المسلمين أنت لا تعجل فإنا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل ؟!

قال ابن الأثير : وبالجملة فالذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر ، ولما نزل العادل على مرج الصفر سيَّر ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة صالحة من الجيش إلى نابلس يمنع الفرنج عن بيت المقدس ، ولما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا آلة الحصار من مجانيق وغيرها ، وقصدوا قلعة الطور وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل بناها عن قريب ، فتقدموا إليها وحصروها وزحفوا إليها وصعدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها وكادوا يملكونه ، فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض

ملوك الفرنج فعادوا عن القلعة وتركوها وقصدوا عكا ، وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوماً ، ولما فارقوا الطور أقاموا قريباً ، ثم ساروا في البحر إلى ديار مصر ، فتوجه الملك المعظم إلى قلعة الطور فخربها إلى أن ألحقها بالأرض ؛ لأنها قريبٌ من عكا يتعذر حفظها .

ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمئة ، فساروا في البحر إلى دمياط ، فوصلوا في صفر ، فأرسوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل ، فإن بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط ، وقد بنى المسلمون في النيل برجاً كبيراً منيعاً وجعل فيه سلاسل من حديد غلاظاً ومدوها في النيل إلى سور دمياط ، لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالك أن تصعد في النيل إلى ديار مصر ، ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها من أقاصي ديار مصر وأدانيها .

فلما نزل الفرنج على برّ الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سوراً وجعلوا خندقاً يمنعهم ممن يريدهم ، وشرعوا في قتال من بدمياط ، وعملوا آلات وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج مشحوناً بالرجال ، وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ، ليمنع العدو من العبور إلى أرضها ، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشيء ، وكسرت آلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ، ثم بعد ذلك ملكوا البرج ، فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل بهم مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكموا في البر ، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل ، ثم إنهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً حتى قطعوه ، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وحَرَّقها وغَرّقها في النيل فمنعت المراكب من سلوكه ، فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك يعرف بالأزرق ، وكان النيل يجري عليه قديماً ، فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح

وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال لها بورة على أرض الجيزة أيضاً مقابل المنزلة التي كان فيها الملك ليقاتلوه ، فإنهم لم يكن لهم طريق يقاتلونه فيها ، وكانت دمياط يحجز بينهم وبينه ، فلما صاروا في بورة حاذوه فقاتلوه في الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ، ولم يتغير على أهل دمياط شيء ، لأن الميرة والأمداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج ، فهم ممتنعون ولا يصل إليهم أذى ، وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر .

فاتفق لما يريد الله عز وجل أن الملك العادل ولد الملك الكامل توفي بالشام في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمئة ؛ فلما جاء خبر وفاته لابنه الملك الكامل ضعفت نفوس الناس ؛ لأن الملك العادل هو السلطان في الحقيقة ، وأولادُه وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم تحت حكمه والأمر إليه وهو الذي ملّكهم البلاد ، فاتفق مَوْته والحال هكذا من مقاتلة العدو ، وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد بن أحمد بن علي ويعرف بابن المشطوب وهو من الأكراد الهكّارية ، وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير ، وجميع الأمراء ينقادون له ويطيعونه ولا سيما الأكراد ، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء أن يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملّكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد ، فبلغ الخبر الملك الكامل ففارق المنزلة ليلاً مع بعض أصحابه وسار إلى قرية يقال لها أشمون طناح ، فنزل عندها فأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم ، فركب كل إنسان منهم هواه ولم يقف الأخ على أخيه ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذي يخف حمله ، وتركوا الباقي بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل ، وأما الفرنج فإنهم أصبحوا من الغد فلم يروا أحداً من المسلمين على شاطىء النيل كجاري عادتهم ، فبقوا لا يدرون ما الخبر ، وإذ قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته ، فعبروا حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع ، وكان عبورهم في العشرين من ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمئة ، فغنموا ما في عسكر المسلمين فكان عظيماً يعجز العادين .

وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لأنه لم يثق بأحد من عسكره ، وكان الفرنج قد ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة ، فاتفق من لطف الله بالمسلمين أن الملك

المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس وابن الملك العادل بعد هذه الحركة بيومين وصل إلى أخيه الكامل والناس في أمر مريج فقوي به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته ، وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام فاتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر ابن العادل ولم يمهل الله تعالى ابن المشطوب بل أخذه أخذة رابية ، فإنه بعد اتصاله بالملك الأشرف والتحاقه بجنده وقعت منه خيانة فقبض عليه وحبسه إلى أن مات .

ولما عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط ، وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا في الإفساد ، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج ، وكان أضر شيء على أهل دمياط أنها لم يكن بها من العسكر أحد ، لأن السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر .

وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها براً وبحراً وعملوا عليها خندقاً يمنعهم ممن يريد من المسلمين ، وكانت هذه عادتهم ، وأداموا القتال واشتد الأمر على أهلها وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته ؛ لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم ، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ، ومع هذا صبروا صبراً لم نسمع بمثله ، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض ، ودام الحصار عليهم نحو ثمانية أشهر من أواخر ذي القعدة إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمئة ، فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم ، فسلموا البلد من هذا التاريخ بالأمان ، فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة ، فتفرقوا أيدي سبا .

ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا السرايا في كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون ، فجلا أهلها عنها ، وشرع الفرنج في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى إنها بقيت لا تكاد ترام ، وأما الملك الكامل فإنه أقام بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها ، ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل

فج عميق وأصبحت دار هجرتهم ، وعاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرب بيت المقدس في ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمئة ، وإنما فعل ذلك لأن الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الإسلام وكل أهله وبلاده على حطة الخسف في شرق الأرض وغربها ، لأن التتر أقبلوا من المشرق حتى وصلوا إلى نواحي العراق وأذربيجان وإيران وغيرها ، وأقبل الفرنج من الغرب فملكوها مثل دمياط في الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء ، وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تملك وخافهم الناس كافة وصاروا يتوقعون البلاء صباحاً ومساء ، وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو ولات حين مناص ، والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ، ولو مكنهم الملك الكامل من الجلاء لتركوا البلاد خاوية على عروشها ، وإنما منعوا منه فثبتوا ، وتابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه الملك المعظم صاحب دمشق والملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما ، فإن لم يمكن فيرسلان العساكر إليه ، فسار الملك المعظم بنفسه إلى الملك الأشرف ، فرآه مشغولاً بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن يطيعه فعذره وعاد عنه ، وبقي الأمر كذلك مع الفرنج إلى سنة ثمان عشرة وستمئة ، ثم إن الملك الأشرف زال عنه الخلاف ورجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه واستقامت له الأمور والملك الكامل مقابل الفرنج .

فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمئة علم الملك الكامل بزوال المانع للأشرف عن إنجاده ، فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق ، فسار الملك الأشرف بعساكره إلى دمشق ثم سار إلى مصر ، وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله ، بينهما خليج من النيل يسمونه بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجراخ إلى عسكر المسلمين ، وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية ، فلما سمع الملك الكامل بقرب أخيه الملك الأشرف فرح بذلك ، فلما وصل إلى مصر توجه إليه فلقيه واستبشر هو والمسلمون كافّةً باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصراً وظفراً .

وأما الملك المعظم صاحب دمشق فإنه سار إلى دمياط ظناً منه أن أخويه وعسكريهما قد نازلوا دمياط ، وقيل بل أخبر في الطريق أن الفرنج قد توجهوا إلى

دمياط فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم ، ولما اجتمع الأشرف بالكامل استقر الأمر بينهما على التقدم إلى الخليج من النيل يعرف ببحر المحلة ، فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنج ، وازدادوا قرباً ، وتقدمت شواني المسلمين من النيل وقاتلوا شواني الفرنج ، فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال والسلاح ، ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم ، والرسل مترددة بينهم وبين الفرنج في تقرير قاعدة الصلح ، وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط ، فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمئة ألف دينار عوضاً عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها ، فلم يتم بينهم أمر ، وقالوا لا بد من الكرك ، فبينما الأمر في هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون إلى قتالهم ، وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ؛ ظناً منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم ولا تقدر على مقابلتهم ، وأن القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لأمر يريده الله تعالى بهم .

فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنج ففجروا النيل وخرقوا مواضِع منه حتى خرج منه ماء كثير وسال كالبحر ، فركب الماء أكثر تلك الأرض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق ، فنصب الملك الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون وعبر العساكر عليها ، فملك الطريق الذي يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط فلم يبق لهم خلاص ، واتفق في تلك الحال أنه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب ، وحوله عدة حراقات تحميه ، والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون إليه ، فوقع عليه شواني المسلمين وقاتلوهم ، فظفروا بالمركب المذكور وما معه من الحراقات وأخذوها ، فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقتهم دمياط في أرض يجهلونها ، هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم ، فلما اشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف على المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط ، فرأوا ما أملوه بعيداً ، أو حيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الأوحال والمياه حولهم ، والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد

ملكه المسلمون ، فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم ، وأن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها ، وأن المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها ، ذَلّت نفوسهم وتنكّست صلبانهم وضلّ عنهم شيطانهم ، فراسلوا الملك الكامل يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض .

فبينما المراسلات مترددة إذ أقبل جيش كبير له وهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا ، وإذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل إليهم ، وكان قد جعل طريقه على دمياط كما تقدم ، فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلاناً ووهناً وتمموا الصلح على تسليم دمياط ، واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمئة ، وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط ، وكان أولئك الملوك الذين صاروا رهائن كثيرين منهم فيليب ملك الفرنسيس ونائب بابا صاحب رومية وملك عكا وكندريش وغيرهم ، وأرسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط في تسليمها ، فلم يمتنع من بها وسلموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور ، وكان يوماً مشهوداً ، ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة في البحر فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليمها ، ولكن سبقهم المسلمون ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ومما اتفق أنه لما انعقد الصلح وحضر ملك الفرنسيس وملوك الفرنج عند الملك الكامل محمد ، وكان في مجلس الكامل أخواه الملك المعظم عيسى والملك الأشرف موسى وكثير من ملوك الإسلام ، قام راجح الحِلّي وأنشد قصيدة بليغة تهنئة للملك الكامل محمد ، وفيها بيت ظريف وهو قوله :

أَعُبّادَ عيسى إنّ عيسى وحزبَه ومـوسـى جميعاً يخدمون محمداً

وأشار إلى الملك المعظم عيسى والملك الأشرف موسى والملك الكامل محمد ، ولما كان ملوك الفرنج الحضور عند الملك الكامل طلبوا منه رهينة تكون عندهم ، فأرسل لهم ولده الملك الصالح أيوب وعمره خمس عشرة سنة ، ثم لما تم الصلح وتسلم المسلمون دمياط ارتحل ملك الفرنسيس فيليب ومن معه من الملوك إلى

بلادهم ، وكانت مدة ملك فيليب على الفرنسيس ثلاثاً وأربعين سنة ، وهلك سنة ستمئة وعشرين هجرية .

ولما دخل المسلمون دمياط رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصيناً عظيماً بحيث لا ترام ولا يوصل إليها ، وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ورده إلى أربابه وأُعْطِي المسلمون ظفراً لم يكن في حسابهم ، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التي بالشام ليعيدوا لهم دمياط ، فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد التي بالشام بأيديهم على حالها ، فالله تعالى هو المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو ، وكفاهم أيضاً شر التتر كما سيأتي .

ذكر وفاة الملك العادل التي تقدمت الإشارة إليها

قد تقدم أن الفرنج لما دخلت سنة خمس عشرة وستمئة ساروا في البحر إلى دمياط ووصلوها في صفر ، وكان الملك العادل بالشام في مرج الصُّفَّر ، ثم انتقل إلى عالقين ومرض وتوفي سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمئة ، ونقل إلى دمشق ودفن بها ، وكان ابنه الملك الكامل أقامه هو ملكاً في مصر نيابة عنه ، وكان وقت وفاة أبيه مشتغلاً بقتال الفرنج النازلين على دمياط كما تقدم ، وكان عمر الملك العادل لما توفي خمساً وسبعين سنة ، لأن ولادته كانت سنة أربعين وخمسمئة ، وقيل ثمانية وثلاثين وخمسمئة ، وكان ملكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامة بالأمور ، قد حَنَّكته التجارب ، حسن السيرة جميل الطوية ، وافر العقل حازماً للأمور صالحاً ، محافظاً على الصلوات في أوقاتها ، متبعاً لأرباب السنة ، مائلاً إلى العلماء حتى صنف له فخر الدين الرازي كتاب : تأسيس التقديس ، وذكر اسمه في خطبته وسيّره إليه من بلاد خراسان ، وكان الملك العادل في حياة أخيه صلاح الدين تابعاً له تحت طاعته ينقله في الولايات ، وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ وقع بينه وبين أولاد أخيه صلاح الدين أمور يطول الكلام بذكرها إلى أن استقل بمملكة الديار المصرية والشامية ، وكان استقلاله بمملكة الديار المصرية سنة ست وتسعين وخمسمئة ، واستقلاله بمملكة الديار الشامية سنة ثمان وتسعين وخمسمئة ، وملك بلاد اليمن سنة اثنتي عشرة وستمئة ، وسير إليها ولد ولده المسعود ابن الملك الكامل ، ثم إن الملك العادل لما انتزع الملك من أولاد أخيه

صلاح الدين واستقل به قسم ممالكه بين أولاده ، وكان رجلاً مسعوداً وكذا أولاده ، ولم يخلف أحد من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم ، ودانت لهم العباد ، وملكوا خيار البلاد ، وكان يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى ، وكان بالغالب يصيف بالشام لأجل الفواكه والثلج والمياه الباردة ، ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد ، وعاش في أرغد عيش ، وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد حتى يقال كما في تاريخ ابن خلكان : إنه كان يأكل وحده خروفاً لطيفاً مشوياً ، وخَلَّف ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات رحمه الله تعالى .

ذكر خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا وتملكهم بيت المقدس

لما توفي الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس ابن الملك العادل ، طمع الفرنج في الشام ، وكانت وفاة الملك المعظم سنة أربع وعشرين وستمئة في ذي القعدة ، وصار ملك دمشق لولده الناصر داود ، ثم انتزعها منه عمه الكامل وأعطاه الكرك بدلاً عن دمشق ، وبعد وفاة الملك المعظم خرج كثير من الفرنج من بلادهم القاصية إلى بلادهم التي ملكوها في الشام عكا وصور وغيرهما ، فكثر جمعهم ، وكان معهم إمبراطور الألمان واسمه فردريك ، وقيل بل هو صاحب جزيرة صقلية ، ومعنى الإمبراطور بلغة الفرنج ملك الأمراء ، فاستولوا على صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين ، فملكوها وعمروا سورها وكان خراباً ، وأزالوا عنها حكم المسلمين ، فعظمت شوكتهم وقوي طمعهم ، واستولى في طريقه على جزيرة قبرس وكانت عند ملك إنكلترة ، ولما بلغ الملك الكامل أنهم يقصدون دمشق وبيت المقدس خرج بعساكره من مصر ، وترددت الرسل بينه وبين الإمبراطور واستقرت القاعدة بينهما على الصلح ؛ أن المسلمين يسلمون الفرنج بيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من أعماله ، ويكون باقي البلاد للمسلمين مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية ، وكان سور بيت المقدس قد خربه الملك المعظم كما تقدم ، فلما تسلم الفرنج بيت المقدس شرط عليهم عدم عمارة السور ، واستعظم المسلمون تملك الفرنج بيت المقدس وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه ، وكان تسلمهم إياه سنة ست وعشرين وستمئة .

وفي سنة ثمان وعشرين وستمئة انتهى تاريخ ابن الأثير المسمى : بالكامل ، وتوفي مؤلفه سنة ثلاثين ببلاده الموصل .

وفي سنة ثمان وعشرين أيضاً قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهي من المدن المضافة إلى حلب ودخلوا إليها ، وكانت حلب بيد شهاب الدين أتابك تابع الملك العزيز بن الظاهر غازي بن صلاح الدين ، وكان شهاب الدين الأتابك مملوكاً للسلطان الظاهر غازي ، فلما بلغه دخول الفرنج مدينة جبلة سيّر إليهم العساكر ، فقاتلوا الفرنج وقتل كثيراً منهم وأخرجهم واسترد الأسرى والغنيمة .

وفي سنة ٦٣٤ أغار الفرنج على ربض دير ساك وهي لصاحب حلب ، فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين ، وكثر فيهم القتل والأسر ، وعاد عسكر حلب بالأسرى ورؤوس الفرنج ، وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع .

وفي سنة ٣٥ توفي الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف موسى ، وكثر الاختلاف بين أولاد الملك الكامل ، وليس هذا محل ذكره ، وكان الملك الكامل من أعظم الملوك ، وله مشاركة في العلوم ، وملك مصر أربعين سنة ؛ عشرين نيابة عن أبيه ، وعشرين استقلالاً ، وتوفي وعمره ستون سنة .

ذكر استرجاع بيت المقدس للمسلمين

في سنة ٦٣٧ قصد الناصر داود بن الملك المعظم القدس وحاصرها وفتحها ، وكان الناصر داود بن الملك المعظم له ملك الكرك أعطاه إياه عمه الملك الكامل بعد أن انتزع منه دمشق ، كما تقدم ، فصار بيت المقدس له أيضاً لما فتحه ، وتقدم أن تسليم بيت المقدس للأفرنج كان سنة ست وعشرين ، فتكون مدة بقائه تحت أيديهم إلى أن استرجعه الناصر داود إحدى عشرة سنة .

ومن غريب الاتفاق أن الناصر صلاح الدين استخلص بيت المقدس أولاً ، والناصر داود استخلصه ثانياً ، ولذلك قال جمال الدين بن مطروح :

المسجد الأقصى له آيةٌ سارتْ فسارتْ مثلاً سائرا
إذْ قَدْ غَدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصرا

فناصِرٌ طَهّرَهُ أَوّلاً ونَاصِرٌ طَهّرَه آخِرا

وفي سنة اثنتين وأربعين وقع اختلاف بين صاحب دمشق وهو الصالح إسماعيل بن الملك العادل وبين ابن أخيه صاحب مصر وهو الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل ، وأدى ذلك الاختلاف إلى القتال ، فلما كان القتال بينهما استعان صاحب دمشق بالفرنج الذين في عكا ووعدهم بجزء من بلاد مصر ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا بعسكر دمشق ، ووصل لقتالهم عسكر مصر مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب ، والتقى الفريقان بظاهر غزة ، فانهزم الفرنج وعسكر دمشق ، واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وبيت المقدس انتزعه من الناصر داود ، ووصلت الأسرى والرؤوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام .

ثم استولى الملك الصالح أيوب على دمشق سنة ثلاث وأربعين وستمئة ، وانتزعها من عمه الصالح إسماعيل بن الملك العادل .

وفي سنة خمس وأربعين وستمئة فتح الملك الصالح عسقلان وطبرية بعسكر جهزه مع فخر الدين بن الشيخ ، وقد كان تسليمها للفرنج سنة إحدى وأربعين وستمئة ، استمرتا إلى الآن ففتحتا .

ذكر ملك الفرنج دمياط مرة أخرى غير المرة السابقة

في سنة ٦٤٧ سار لويز ملك الفرنسيس في خمسين ألفاً ، وقصد دمياط وحاصرها ، ثم ملكها في شهر صفر ، وكان ذلك في مدة سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، فركب في عصائب المسلمين لقتالهم فحاصرهم ، واستمر محاصراً لهم إلى أن توفي في شعبان ، وكان ولده توران شاه غائباً بحصن كيفا ، فقام بالأمر شجرة الدر زوجة أبيه الملك الصالح إلى أن حضر ابنه توران شاه ، فقام مقام أبيه ، وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة ، وجرى بينهم وبين المسلمين في مستهل رمضان وقعة عظيمة ، ثم نزل الفرنج شرمساح ، ثم قربوا من المسلمين ، ثم كبسوا المسلمين على المنصورة ، ثم اشتد القتال بينهم وبين المسلمين براً وبحراً ، فكان النصر أخيراً للمسلمين بعد أن كان أولاً للفرنج ، وكانت لهم مراكب كثيرة بالبحر .

وفي (حُسْن المحاضرة) للجلال السيوطي أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان مع عسكر المسلمين ، فقال بأعلى صوته مشيراً إلى الريح : يا ريح خذيهم ، فجاءت ريح قوية على مراكب الفرنج فكسرتها ، وحصل الفتح والنصر للمسلمين وغرق أكثر الفرنج ، وصرخ صارخ في المسلمين قائلاً : الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلاً سخّر الله له الريح ، وحمل المسلمون على الفرنج فردوهم على أعقابهم ، وأخذ المسلمون من مراكبهم ٣٢ مركباً منها ٩ شواني ، فضعف الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض السواحل الشامية ، ويتركون دمياط ، فلم تقع الإجابة إلى ذلك ، وكانوا قد فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط ، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم فلم يبق لهم صبر على المقام ، فرحلوا متوجهين إلى دمياط ، فركب المسلمون أكتافهم وبذلوا فيهم السلب فلم يسلم منهم إلا القليل ، وبلغت عدة القتلى ٣٠ ألفاً ، وانحاز ملكهم ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي ، ثم أحيط عليهم وأحضروا إلى المنصور ، وقيد ملكهم وأركب على جمل وطيف به ، ثم حبس في دار ابن لقمان ووكل به الطواشي صبيح ، ثم انعقد الصلح معه على تسليم دمياط وأن يطلق ويدفع ثمانمئة ألف دينار ، وقيل إنه افتدى نفسه بقناطير من الذهب تبلغ ٧ ملايين فرنك فأطلق ورجع إلى بلاده ، فلما وصلها أخذ في الاستعداد ونودي الرجوع لحرب المسلمين ، فندم المسلمون على إطلاقه ، فأنشأ جمال الدين بن مطروح قصيدة كتبت وأرسلت إليه ، وأنشدها القاصد بين يديه وهو قائم ، منها قوله :

قـــل للفــــرنسيــــس إذا جئتـــــه	مقـــال صـــدق عـــن قـــؤول نصيـــحِ
أتيـــت مصـــــراً تبتغــــي ملكهـــــا	تحســب أن الـــزمـــر يـــا طبـــل ريـــحِ
وكـــــل أصحـــــابـــك أوردتهـــــم	بحُسْـنِ تـــدبيـــرك بطـــن الضَّـــريـــحِ
خمســـون ألفـــاً لا يُـــرى منهـــم	غيـــرُ قتيـــلٍ أو أسيـــرٍ جـــريـــحِ
وقـــل لهـــم إن أضمـــروا عـــودةً	لأخـــذِ ثـــارٍ أو لفعـــلٍ قبيـــحِ
دارُ ابـــن لقمـــانَ علـــى حـــالهـــا	والقيـــدُ بـــاقٍ والطـــواشـــي صبيـــحِ

فلما سمع المقالة ذلّت نفسه ونأى عن العودة إلى مصر ، ثم أراد أن يأخذ ثأره من تونس لأمر جرى بينه وبين ملكها وهو أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي الملقب بالمستنصر بالله .

وحاصل ما كان بينه وبين ملك الفرنسيس المذكور أنه جرى ذكره يوماً عند المستنصر ، فهضم من جانبه وقال هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه ، وأشار إلى بعض الأتراك الذين كانوا يخدمون بين يديه ، وكان قد استخدم منهم جماعة ، فبلغت مقالة المستنصر ملك الفرنسيس فحقد عليه وتجهز بجنوده يريد أخذ تونس ، وذلك سنة ٦٦٨ ، فسار ومعه ٣٠ ألفاً وأساطيله ٣٠٠ بين كبار وصغار ، وحاصر تونس ستة أشهر ، فقال بعض أدباء تونس :

يا فرنسيس هذه أختُ مِصْرَ فتهيَّأ لما إليه يصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

فقدّر الله هلاك ملك الفرنسيس وهو محاصر تونس ، قيل أصابه سهم فقتله ، وقيل أصابه مرض الوباء فقتله ، وذلك سنة ٦٦٩ ، وهلك كثير من جنده بالوباء ، وتملك بعده ابنه فعقد صلحاً مع أهل تونس وارتحل عنهم ، وكفى الله شرهم .

وذكرنا قصة تونس قبل مجيء الموضع الذي ينبغي أن نذكر فيه أعني سنة تسع وستين لتتصل هذه القصة بالقصة السابقة لما بينهما من التناسب .

ذكر خروج التتر وتملكهم بغداد
وانقراض الدولة العباسية من بغداد

قال ابن خلدون : إن التتر من شعوب الترك ، وإن الترك كلهم من ولد كومر بن يافث بن نوح عليه السلام ، ومساكنهم بلاد الصين مما وراء نهر سيحون ، وهم أمم كثيرة ، وسيحون نهر مما وراء النهر قريب خجند بعد سمرقند وهو في حدود بلاد الترك ، ويطلق أيضاً على نهر الهند ، وأما جيحون فهو نهر خوارزم ، وجيحان نهر الشام .

وفي سنة ست وخمسين وستمئة كان استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية ، وينبغي قبل ذلك أن نذكر ابتداء أمر التتر وكيف كان خروجهم على أهل الإسلام .

ذكر كثير من المؤرخين أن حادثة التتر حادثة عظمى ومهيبة كبرى عمت الخلائق وخصت المسلمين بشدة بلائها ، فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى وقت خروج التتر لم يُبْتَلَ بمثلها لَصَدَقَ ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس ، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا ، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل !؟ ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فإنه يُبقي من اتبعه ويهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا أحداً ، بل قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام والنساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها ، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح ، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين وعبروا نهر سيحون فقصدوا بلاد

تركستان مثل كاشغر وبلاسغون ، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما ، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما سنذكره ، ثم تعبر منهم طائفة إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وقتلاً وتخريباً ونهباً ، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرمينية وغيرهما ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة ، هذا ما لم يسمع بمثله ، ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرمينية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ، ولم يسلم غير القاعة التي بها ملكهم ، وعبروا عندها إلى بلاد اللادن واللزك ومن كان هنالك من الأمم المختلفة ، فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً ، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً ، فقتلوا كل من وقف لهم ، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم ، واستولى هؤلاء التتر عليها ، فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بقدر مسيرهم لا غير ، ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسيحان وكرمان ففعلوا فيها مثلما فعل هؤلاء وأشد .

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله ، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة وإنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتلْ أحداً إنما رضي من الناس بالطاعة ، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمورة من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة ، ولم يبت أحد من أهل البلاد التي يطرقونها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه ، ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم ، بل كان معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير ، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير ، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج ، وأما دياناتهم فهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً ، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير والحشرات وبني آدم ، ولا يعرفون نكاحاً ، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه ، ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في مدتهم بمصائب لم يُبْلَ بها أحد من الأمم ، فهؤلاء التتر - قبحهم الله - أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها ، وكانوا

كلما ملكوا مدينة قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام وخربوا الجوامع وأحرقوا المصاحف وفعلوا أشياء لم يسمع بمثلها ، وفي مدتهم أيضاً كان خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ من المغرب إلى الشام ، ثم قصدوا ديار مصر ، وانتشرت الفتن في ممالك الإسلام فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قال ابن الأثير : نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده ، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم قال تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد : ١١] .

وهؤلاء التتر نوع من الترك ، ومساكنهم كانت جبال طمغاج من جبال الصين ، وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستة أشهر ، ومملكة الصين متسعة دورها ستة أشهر ، وهي منقسمة ستة أجزاء ، كل جزء مسيرة شهر ، وعلى كل جزء ملك يقال له عندهم خان ، وواحد منهم رئيس على الجميع ، ولما انتهت الرئاسة إلى واحد منهم يقال له جنكزخان كان ابتداء خروجهم على بلاد الإسلام ذلك سنة ست عشرة وستمئة في خلافة الناصر لدين الله العباسي بن المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله والقائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المعتضد ، وكانت مدة خلافة الناصر ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر ؛ لأنه كانت ولايته الخلافة سنة خمس وسبعين وخمسمئة ووفاته سنة ثنتين وعشرين وستمئة ، فكان أكثر فتنة التتر في مدته .

وكان سبب خروجهم أن ملكاً من ملوك الإسلام كان مالكاً لخراسان وما وراء النهر يقال له خوارزم شاه كان بينه وبينهم فتنة فاقتتلوا معه واتسع أمرهم حتى كان منهم ما كان ، وكان خوارزم شاه منتسباً إلى شخص يقال له أنوش تكين وهو مملوك لبعض أمراء السلجوقية ، وكان حسن الطريقة ، فترقى إلى أن صار مقدماً مرجوعاً إليه ، فولد له ابن يقال له محمد خوارزم شاه ، وانتشأ عارفاً أديباً ، واشتهر عنه العقل وحسن التدبير ، فقدر الله أن وقعت فتنة في خوارزم سنة أربعمئة وتسعين ، وقتل أمير خوارزم ، وكانت تحت حكم السلاطين السلجوقية والخلفاء العباسية ، فولوا ملك خوارزم لمحمد خوارزم شاه بن أنوشتكين ، ثم توارث الملك بنوه واتسع ملكهم وعظم أمرهم ، وصار كل ملك منهم يقال له خوارزم شاه ، ولم يزل ملكهم يقوى ويتسع حتى

تغلبوا على الممالك ، وصار ملكهم من حد العراق إلى تركستان ، وملكوا خراسان جميعه وغزنة وكابل وبعض الهند وسجستان وكرمان وطبرستان وبلاد الجبل وبعض فارس ، فلم يزالوا يتوارثون الملك إلى سنة خمسمئة وست وتسعين ، فكان الملك منهم في التاريخ المذكور لمحمد خوارزم شاه بن أنوشتكين بن أرسلان بن أطسز بن محمد خوارزم شاه بن أنوشتكين ، فاتسع ملكه غاية الاتساع حتى صار يتطلب تملك بغداد .

قال الجلال السيوطي في (تاريخ الخلفاء) في وصف خوارزم شاه المذكور : إنه أباد الملوك وأخذ الممالك وعزم على قصد الخليفة ، فلم يتهيأ له مدة ، وكان خوارزم شاه قسم ممالكه بين أولاده وكانوا أربعة ، وضرب لكل منهم نوبة مثل نوبته ، وكان تحته سبع وعشرون ملكاً تضرب نوبة لكل واحد منهم في أوقات الصلوات ، وانفرد هو بنوبة في القرنين تضرب وقت طلوع الشمس وغروبها ، وكانت سبعاً وعشرين دبدابة ، والدبداب هو الطبل الكبير ، وكانت هذه السبع والعشرون من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر ، فلما انتهى أمر ملكه إلى هذا الحد احتقر أمر التتر سكان الصين ، وصار يغازيهم ويغير على بلادهم ، وهم أيضاً يغازونه ويغيرون على بلاده ، ثم انعقد صلح بينهم وبينه ومهادنة ، وصار تجارهم يأتون إلى بلاده ، ثم إن عامل خوارزم شاه على آخر مملكته مما يليهم كانت له قوة ومعه عشرون ألف فارس ، وكان خال خوارزم شاه ، فشرهت نفسه إلى أموال التجار ، واتفق أنه دخل في محل ملكه كثير من التجار الأتراك معهم أموال للتجار من التتر وأموال لملك التتر ، فكتب ذلك العامل إلى خوارزم شاه يقول له : إن هؤلاء القوم قد جاؤوا بزي التجارة وما قصدهم إلا التجسس وإن أذنت لي فيهم قبضت عليهم ، فأذن له فقبض عليهم وأخذ أموالهم .

ثم وقعت مكاتبات بين ملك التتر وخوارزم شاه في إطلاقهم ، وكتب ملك التتر لخوارزم شاه يتهدده إن لم يطلقهم ، فغضب وأمر بقتلهم ، فقتلهم ذلك العامل وسيّر إليه ما كان معهم من الأموال وكان شيئاً كثيراً ، ففرقه خوارزم شاه على تجار سمرقند وبخارى وأخذ منهم قيمة تملكهم ، فلما بلغ الخبر جنكزخان أرسل جماعة إلى خوارزم شاه يتهدده ويقول : أنت قتلت جماعتي فاستعد للحرب فإني واصل إليكم بجمع لا قِبل لكم به ، فقتل خوارزم شاه أكثر هؤلاء الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم إلى جنكزخان ، فقالوا له : إن خوارزم شاه يقول لك : أنا صائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا حتى أنتقم منك

وأفعل بك كما فعلت بأصحابك ، وتجهز خوارزم شاه وسار بعد الرسول مبادراً لسبق خبره ويكبسهم ، وأدمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل إلى بيوتهم فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية .

وكان سبب غيبة الكفار أنهم ساروا لمقاتلة ملك من ملوك الترك ، فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا ، فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه بمخلفتهم ، فجدّوا السير وأدركوه قبل أن يخرج من أرضهم وتصافّوا للحرب واقتتلوا قتالاً لم يسمع مثله ثلاثة أيام بلياليها ، وجرى الدم في الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته ، وأحصي من قتل من المسلمين فكانوا عشرين ألفاً ، وأما الكفار فلا يحصى من قتل منهم ، ثم رجع الكفار إلى بلادهم ورجع المسلمون إلى بخارى واستعدوا لمجيء جنكزخان إليهم .

ذكر تملك جنكزخان بخارىٰ

ثم جاء جنكزخان بعد خمسة أشهر بجيوشه وحاصر مدينة بخارى وفيها خوارزم شاه ، واقتتلوا ثلاثة أيام متتابعة ، ولم يكن لعسكر خوارزم شاه قوة لمقاومة جنكزخان ، ففارق خوارزم شاه بعساكر بخارى وسار إلى خراسان ، فأرسل أهل بخارى الشيخ بدر الدين قاضي خان إلى التتر ليطلب الأمان للناس فأعطوهم الأمان ، وكان قد بقي من عسكر خوارزم شاه طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة ، فلما أجابهم جنكزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة ، وكان ذلك رابع ذي الحجة سنة ست عشرة وستمئة ، فدخل الكفار بخارى ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم : كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه إلينا وساعدونا على قتال من بالقلعة ، وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ، ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى في البلد : أَنْ لا يتخلف أحد ، ومَنْ تَخَلَّف قُتل ، فحضروا جميعهم ، فأمرهم بطمّ الخندق فطموه بالأخشاب والتراب ، حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن ويلقونه في الخندق فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربعمئة من المسلمين فبذلوا جهدهم ، ومنعوا القلعة اثني عشر يوماً يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد ، ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم ووصل النقابون

إلى سور القلعة فنقبوه ، واشتد حينئذ القتال ، ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام ، فغضب اللعين جنكزخان ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدّوا في القتال ، وقد تعب من في القلعة وجاءهم ما لا قِبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة ، وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم .

فلما فرغ من القلعة أمر أن يكتب له رؤساء البلد ففعلوا ذلك ، فلما عرضت أسماؤهم عليه أمر بإحضارهم فحضروا ، فقال : أريد منكم الأموال التي باعكم خوارزم شاه التي كانت مع التجار الذين قتلهم خوارزم شاه في أول ابتداء الأمر كما تقدم ذكرهم ، وقال لهم : إنها لي ومن أصحابي أُخِذَت وهي عندكم ، فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه ، ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه ، ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه ، وأحاط بالمسلمين الذين أخرجهم من البلد فأمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم ، وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا كل ممزّق ، واقتسموا النساء أيضاً ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا مع النساء الأمر العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم ، ومنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك ، فقاتل حتى قتل .

وممَّن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده ، فإنهما لما رأيا ما يُفْعَل بالحُرَم قاتلا حتى قُتِلا ، وكذلك فعل القاضي صلاح الدين خان ، ومن استسلم أخذ أسيراً ، وألقوا النار في البلد والمساجد والمدارس ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب لطلب المال .

ذكر مسير جنكيزخان إلى سمرقند

لما انقضى أمر بخارى ارتحل جنكزخان وجنوده نحو سمرقند ، وقد تحققوا عجز خوارزم شاه عن مقاتلتهم ، وكان هو بمكان بين ترمذ وبلخ ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى ، فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ، فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل ، فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والأثقال ، ومع كل

عشرة أسارى عَلَم ، فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة ، وأحاطوا بسمرقند وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية ، وأما عامة أهل البلد فلا يحصون كثرة ، فخرج إليهم شجعان أهله وأهل القوة والجَلَد رَجّالة ، ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين ، فقاتلهم الرجّالة بظاهر البلد ، فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم ، وكان الكفار قد كمنوا لهم كميناً ، فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولاً فبقوا في الوسط ، وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد ، وقتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم وكانوا سبعين ألفاً .

فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك ، فقال الجند ـ وكانوا أتراكاً ـ : نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا ، فطلبوا الأمان ، فأجابوهم إلى ذلك ، ففتحوا أبواب البلد ولم تقدر العامة على منعهم وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم ، فقال لهم الكفار : ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيّركم إلى مأمنكم ، ففعلوا ذلك ، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم ، وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم ، فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد : أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه ، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد ، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا ما في البلد على حاله ، وافتضّوا الأبكار ، وعذّبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال ، وقتلوا من لم يصلح للسبي ، وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمئة ، وكان خوارزم شاه بمنزلته كلما اجتمع إليه عسكر سيّره إلى سمرقند ، فيرجعون ولا يقدرون على الوصول إليها نعوذ بالله من الخذلان ، وسيّر مرة عشرة آلاف فارس فعادوا ، وسيّر مرة عشرين ألفاً فعادوا أيضاً .

ذكر سير التتر إلى خوارزم شاه وانهزامه وموته

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان ، لعنه الله ، وسيّر عشرين ألف فارس ، وقال لهم : اطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلّق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه ، وهذه الطائفة تسميها التتر المغرّبة بتشديد الراء المكسورة ؛ لأنها سارت نحو غرب

خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لأنهم هم الذين أوغلوا في البلاد ، فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا ، وقصدوا موضعاً يسمى بنجاب ومعناه خمس مياه منها نهر جيحون ، فوصلوا فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل في الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم ، فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة ، فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة ، وكان المسلمون قد ملئوا خوفاً ورعباً منهم وقد اختلفوا فيما بينهم فإنهم كانوا قبل ذلك ثابتين متماسكين بسبب أن نهر جيحون بينهم ، فلما عبروه إليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا ، وطلب طائفة منهم جهة ، ورحل خوارزم شاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته ، وقصدوا نيسابور ، فلما دخل اجتمع إليه بعض العسكر ، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها وكانوا لم يتعرضوا في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل ، بل يجدّون السير في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم جموعاً ، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى مازندران وهي له أيضاً ، فرحل التتر المغرّبون في أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه ، فكان كلما رحل من منزلة نزلوها ، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان تعرف بباب سكون وله هناك قلعة في البحر ، فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر ، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر ، فلما آيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا ، فهم الذين قصدوا الري وما بعد ، كما سنذكر .

وقيل إن خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل إلى الري ثم منها إلى همذان ، والتتر في أثره ، ففارق همذان في نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره ، وعاد إلى مازندران وركب في البحر إلى هذه القلعة ، ثم لما وصل إلى القلعة المذكورة قدر الله تعالى انقضاء أجله فتوفي بها ، وكان رحمه الله عالماً فاضلاً بالفقه والأصول وغيرهما ، مكرماً للعلماء محباً لهم ، محسناً إليهم ، يكثر مجالستهم ويحب مناظرتهم بين يديه ، وكان صبوراً على التعب وإدمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات إنما همه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه ، وكان معظماً لأهل الدين مقبلاً عليهم ببركاتهم ،

ومناقبه رحمه الله تعالى كثيرة ، وكان قد اتسعت ممالكه من جهة العراق إلى تركستان ، وملك بلاد غزنة وبعض الهند .

ذكر استيلاء التتر المغرّبة على مازندران

لما آيس التتر المغربة من إدراك خوارزم شاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها ، فإنها لم تزل ممتنعة في قديم الزمان وحديثه ، حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة جميعاً من العراق إلى أقاصي خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد إلى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين ، وهؤلاء الملاعين ملكوها صفواً عفواً لأمر يريده الله تعالى ، ولما ملكوا مازندران قتلوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ، ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الري فرأوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة ، وكان سبب ذلك أن والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الري لتصل إلى أصفهان وهمذان وبلاد الجبل تمتنع فيها ، فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها الري ، فكان فيما معها ما ملأ عيونهم وقلوبهم ومما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع والنفيس من الجوهر وغير ذلك ، وسيروا الجميع إلى جنكزخان بسمرقند .

ذكر وصول التتر إلى الري وهمذان

في سنة سبع عشرة وستمئة وصل التتر لعنهم الله إلى الري في طلب خوارزم شاه محمد ، لأنه بلغهم أنه مضى نحو الري منهزماً منهم ، فجدّوا السير في أثره وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك أيضاً من المفسدين الذين يريدون النهب والشر ، فوصلوا إلى الري على حين غفلة من أهلها ، فلم يشعروا إلا وقد وصلوا إليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الأطفال وفعلوا الأفعال التي لم يسمع بمثلها ، ولم يقيموا ، بل مضوا مسرعين في طلب خوارزم شاه فنهبوا في طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها ، وفعلوا في الجميع أضعاف ما فعلوا في الري وأحرقوا وخربوا

ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال ، فلم يبقوا على شيء ، وتموا على حالهم إلى همذان ، فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الجمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك جعله هدية لهم ليطلب الأمان لأهل البلد فأمنوهم ، ثم فارقوها ، وسار إلى زنجان ففعلوا أضعاف ما فعلوا من قبل ، ثم وصلوا إلى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدّوا في قتالهم ودخلوها عَنْوة بالسيف ، فاقتتلوا هم وأهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتلون بالسكاكين ، فقُتل من الفريقين ما لا يحصى ، ثم فارقوا قزوين ، فَعُدَّ القتلى من أهل قزوين فزادوا على أربعين ألف قتيل رحمهم الله تعالى .

ذكر وصول التتر إلى أذربيجان

لما هجم الشتاء على التتر في همذان وبلد الجبل رأوا برداً شديداً وثلجاً متراكماً ، فساروا إلى أذربيجان ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من فتوحات القتل والنهب مثلما تقدم منهم ، وخربوا وأحرقوا ووصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان ، فلم يخرج إليهم ولا حدَّث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلاً ونهاراً لا يفيق ، وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع إليهم ، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لأنه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعي به كثيرة لأجل دوابهم ، فوصلوا إلى موقان وتطرقوا في طريقهم إلى بلاد الكرج ، فجاء إليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل ، فقاتلوهم والكرج فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم ، وأرسل الكرج إلى أوزبك صاحب أذربيجان يطلبون منه الصلح وإزالة ما كان بينهم وبينه وأن يتوافق معهم على دفع التتر ، فاصطلحوا على أن يجتمعون إذا انحسر الشتاء ، وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل صاحب خِلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم ، وظنوا جميعهم أن التتر يصيرون من الشتاء إلى الربيع ، فلم يفعلوا كذلك ، بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج ، وانضاف إليهم مملوك تركي من مماليك أوزبك صاحب أذربيجان اسمه أقوش ، وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم ، فاجتمع معه خلق كثير ، وأرسل التتر في الانضمام إليهم فأجابوه إلى ذلك

ومالوا إليه للجنسية ، فاجتمعوا وساروا في مقدمة التتر إلى الكرج فملكوا حصناً من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم ، حتى وصلوا إلى قريب تفليس ، فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها إليهم ، فلقيهم أقوش فيمن اجتمع إليه فاقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه كلهم ، وقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وأدركهم التتر ، وقد تعب الكرج من القتال ، وقتل منهم كثير ، فلم يثبتوا للتتر وانهزموا أقبح هزيمة ، وركبهم السيف من كل جانب ، فقتل منهم ما لا يحصى كثرة ، وكانت الواقعة في ذي القعدة من هذه السنة أعني سنة سبع عشرة وستمئة ، ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ، ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه أن طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنةٌ حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان .

قال ابن الأثير في الكامل ، وكان هو موجوداً في ذلك العصر مطلعاً على تلك الأحوال ، قال : وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده ، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سَطَّرْنا نحن ، وكل من جمع التاريخ في زماننا هذا في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها ، يسّر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد أدفعوا من العدو إلى أمر عظيم ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ، ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي ﷺ إلى هذا الوقت مثلما دفعوا إليه الآن هذا العدو الكافر التتر ، وقد وطئوا بلاد ما وراء النهر وخربوها ، وناهيك به سعة بلاد ، وتعدت طائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ، ثم إلى الري وبلاد الجبل وأذربيجان ، وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم ، والعدو الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين المغرب والشمال ، ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط ، وأقاموا فيها ، ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها ، وباقي ديار مصر على خطر فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومن أعظم الأمور على المسلمين أن سلطانهم خوارزم شاه محمد قد عدم ، ولم يعرفوا حقيقة خبره ، فتارة يقال مات عند همذان وأخفي موته ، وتارة يقال إنه دخل

أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفي موته ، وهذا أمر عظيم حتى أصبح مثل خراسان وعراق العجم وغيرهما سائباً لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه ، والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد ، على أنهم لم يبقوا على مدينة إلا خربوها كُلّ ما مروا عليه نهبوه وما لا يصلح أحرقوه ، فكانوا يجمعون الأبْرِيسم تلالاً ويلقونه في النار ، وكذلك غيره من الأمتعة .

ذكر تملك التتر مَرَاغة

في صفر سنة ثمانية عشر وستمئة تملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان ، وسبب ذلك أننا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمئة ما فعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكرج ، فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمئة ساروا من ناحية الكرج لأنهم رأوا أن بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج إلى قتال وصدام فعدلوا عنهم ، وهذه كانت عادتهم إذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعاً عدلوا عنها ، فوصلوا إلى تبريز وصالحهم صاحبها بمال وثياب ودواب ، فساروا عنه إلى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعهم لأن صاحبها كانت امرأة وكانت مقيمة بقلعة رويفذ ، وقد قال النبي ﷺ : « لَنْ يُفْلِحَ قومٌ وَلَّوا أَمْرَهُم امرأةً » .

فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا إليها ، فكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون ، فإن عادوا قُتلوا فكانوا يقاتلون من أمامهم كرهاً ، فكانوا كما قيل كالأشقر إن تَقَدَّم يُنْحَر وإن تأخَّر يُعْقَر ، وكان التتر يقاتلون وراء المسلمين ، فيكون القتل أولاً في المسلمين الأسارى وهم بنجوة منه ، فأقاموا على المدينة عدة أيام ثم ملكوها عنوة وقهراً رابع صفر ووضعوا السيف في أهلها ، فقتل منها ما يخرج عن الحد والإحصاء ، ونهبوا كل ما يصلح لهم ، وما لا يصلح لهم أحرقوه ، واختفى بعض الناس عنهم ، وكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم : نادوا في الدروب أن التتر قد رحلوا ، فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل .

قال ابن الأثير : ويلغني أن امرأة من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلاً ، فوضعت السلاح وإذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيراً .

قال : وسمعت من بعض أهل مَرَاغة أن رجلاً من التتر دخل درباً فيه مئة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ولم يمد أحد منهم يده إليه بسوء ، ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً نعوذ بالله من الخذلان .

ثم رحلوا من مراغة قاصدين نحو مدينة إربل ، قال : ووصل الخبر إلينا بذلك في الموصل فخفنا حتى إن بعض النّاس هَمَّ بالجلاء خوفاً من السيف ، وجاءت كتب مظفر الدين صاحب إربل إلى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر ، فسيَّر جمعاً صالحاً من عسكره وأراد أن يمضي إلى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق فلا يجوزها أحد ، فإنها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أحد أن يجوزها إلا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز إليه ، ووصلت كتب الخليفة الناصر ورسله إلى الموصل وإلى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دَقُوقا ليمنعوا التتر ، فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل لصعوبتها إلى هذه الناحية ويطرقون العراق ، فسار مظفر الدين من إربل في صفر ، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير ، وأرسل الخليفة أيضاً للملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم ، فاتفق أن الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج ، فاعتذر الملك الأشرف إلى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج وإن لم يتداركها خرجت هي وغيرها ، وشرع يتجهز للمسير إلى الشام ليدخل مصر ، ففعل ذلك واستنقذوا دمياط كما ذكرناه فيما سبق .

فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدَقُوقا سيّر الخليفة إليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الأمراء في نحو ثمانمئة فارس ، فاجتمعوا هناك ليتصل بهم في عسكر الخليفة ، وكان المقدم على الجميع مظفر الدين ، فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر ، وحكى مظفر الدين قال : لما أرسل إليَّ الخليفةُ في معنى قصد التتر قلت له : إن العدو قوي وليس لي من العسكر ما ألقاه به ، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد ، فأمرني بالمسير ووعدني بوصول العسكر ، فلما سرت لم يحضر عندي عدد لم يبلغوا ثمانمئة طواش ، فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي

وبالمسلمين ، ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظناً منهم أن العسكر يتبعهم ، فلما لم يروا أحداً يطالبهم أقاموا وأقام العسكر الإسلامي عند دقوقا ، فلما لم يروا أن العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا إلى بلادهم .

ذكر تملك التتر همذان وقتل أهلها

وهمذان بفتح الميم وبالذال المعجمة بعدها ألف ونون : اسم مدينة بناها همذان بن الفلوج بن سام بن نوح ، وأما هَمْدَان بسكون الميم وبالدال المهملة بعد ألف ونون فاسم قبيلة باليمن .

لما تفرق العسكر الإسلامي عاد التتر إلى همذان فنزلوا بالقرب منها ، وكان لهم بها شحنة أي حاكم يحكم فيها ، فأرسلوا إليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالاً وثياباً وكانوا قد استنفذوا أموالهم في طول المدة ، وكان رئيس همذان شريفاً علوياً وهو من بيت رئاسة قديمة لهذه المدينة وهو الذي يسعى في أمور أهل البلد من التتر ويوصل إليهم ما يجمعه من الأموال ، فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه إليهم ، فحضروا عند الرئيس ومعه إنسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفار قياماً مرضياً ، فقالوا لهما : هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا ولم يبق لنا ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم أموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان ، وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره ، فقال الشريف : إذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة ، فليس لنا إلا مصانعته بالأموال ؟ فقالوا له : أنت أشد علينا من الكفار وأغلظوا له في القول ، فقال : أنا واحد منكم فاصنعوا ما شئتم ، فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر ، فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد ، فتقدم التتر إليهم وحصروهم .

وكانت الأقوات متعذرة في تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلاً ، وأما التتر فلا يبالون بعدم الأقوات لأنهم لا يأكلون إلا اللحم من أي حيوان كان ولو من الحشرات والوحوش وبني آدم ، ولا يأكل دوابهم إلا نبات الأرض ، حتى إنها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها ، فلما حضروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم ، فقُتِل من التتر

خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ، ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الأول وقتل من التتر أكثر من اليوم الأول وجرح الفقيه أيضاً عدة جراحات وهو صابر ، وأرادوا أيضاً الخروج في اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب ، وطلب الناس الرئيس العلوي فلم يجدوه ، وكان قد هرب في سرب صنعه إلى ظاهر البلد هو وأهله إلى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها ، فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون ، إلا أنهم لما اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه ، وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم ، فلما لم يروا أحداً خرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا بذلك على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم ، وذلك في رجب من سنة ثمان عشرة وستمئة ، ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس في الدروب ، فبطل السلاح للزحمة واقتتلوا بالسكاكين ، فقتل من الفريقين ما لا يحصيه إلا الله تعالى ، وقوي التتر على المسلمين وأفنوهم قتلاً ، ولم يسلم إلا من كان عمل نفقاً يختفي فيه ، وبقي القتل في المسلمين عدة أيام ، ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوه ورحلوا عنها إلى مدينة أردبيل ، وكان السبب في ملكها أعني همذان أن أهل البلد لما شكوا إلى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ إليهم عسكراً مع أمير يجمع كلمتهم ، فاتفقوا على ذلك ، فكتب إلى الخليفة ينعي إليه ما هم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصَّغَار والخزي ، ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه ، فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال إلى التتر يعلمهم ذلك ، فأرسلوا إلى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال فجحد فأرسلوا إليه كتبه وكتب الجماعة فسقط في أيديهم ، وتقدم إليهم التتر حينئذ وقاتلوهم ، وجرى القتال كما ذكرنا إلى أن ملكوهم .

ذكر مسير التتر إلى أذربيجان وملكهم أردبيل وغيرها

لما فرغ التتر من همذان ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى أردبيل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا القتل وخربوا أكثرها ، وساروا منها إلى تبريز ، وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي وجمع كلمة أهلها وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان ،

وكان أميراً متخلفاً لا يزال منهمكاً في الخمر ليلاً ونهاراً ، يبقى الشهر والشهرين لا يظهر وإذا سمع هيعةً طار مجفلاً ، وله جميع أذربيجان وإيران وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها ، فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز وقصد نقجوان وسيَّر أهله ونساءه إلى خويّ ليبعدَ عنهم ، فقام هذا الطغرائي بأمر البلد وجمع الكلمة وقوّى نفوس الناس على الامتناع ، وحذَّرهم عاقبة التخاذل والتواني ، وحَصَّن البلد بجهده وطاقته ، فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهلُ البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم وأنهم قد حصنوا المدينة وأصلحوا السور والخندق ، أرسلوا يطلبون منهم مالاً وثياباً ، فاستقر الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك ، فسيروه إليهم فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سرار فنهبوها وقتلوا كل من فيها ، ورحلوا منها إلى بَيْلَقان من بلاد إيران فنهبوا كل ما مرّوا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها .

فلما وصلوا إلى بَيْلَقان حصروها فاستدعى أهلها منهم رسولاً يقررون معه الصلح ، فأرسلوا إليهم رسولاً من أكابرهم ومقدّميهم فقتله أهل البلد ، فزحف التتر إليهم وقاتلوهم ، ثم إنهم ملكوا البلد عَنْوة في شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة ، حتى كانوا يشقون بطون الحبالى ويقتلون الأَجِنَّة ، وكانوا يَفْجُرون بالمرأة ثم يقتلونها ، وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحداً بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمدّ أحدهم منهم إليه يداً ، فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب ، وساروا إلى مدينة كنجة وهي أم بلاد إيران ، فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة ذريتهم بقتال الكرج وحصانتها ، فلم يقدموا عليها ، فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا إليهم ما طلبوا فساروا عنهم .

ذكر وصول التتر إلى بلاد الكرج

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان وإيران بعضه بالتمسك وبعضه بالصلح ، ساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضاً ، وكان الكرج قد أعدوا لهم واستعدوا وسيّروا جيشاً كبيراً إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها ، فوصل إليهم التتر فالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولّوا منهزمين ، فأخذهم السّيف ، فلم يسلم منهم إلا الشريد .

قال ابن الأثير : ولقد بلغني أنهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفاً ونهبوا ما وصلوا إليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم ، فلما وصل المنهزمون إلى تفليس وبها ملكهم جمع جموعاً أخرى وسيرهم إلى التتر أيضاً ليمنعوهم من توسط بلادهم ، فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك ، فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس فأخذوا البلاد ، ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ، ورأوا بلاداً كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها ، فعادوا منها ، وداخل الكرج منهم خوف عظيم ، قال ابن الأثير : حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولاً أنه قال : من حدّثكم أن التتر انهزموا أو أسروا فلا تصدقوه وإذا حدثتم أنهم قتلوا فصدقوا ، فإن القوم لا يفرون أبداً ، ولقد أخذنا أسيراً منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلّم نفسه للأسر .

ذكر وصولهم إلى دربند شروان وما فعلوه

لما عاد التتر من بلاد الكرج قصدوا دربند شروان ، فحصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ، ثم إن التتر صعدوا سورها بالسلالم ، وقيل بل جمعوا كثيراً من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتل الناس منهم وممن قتل من غيرهم ، وألقوا بعضه فوق بعض ، فصار مثل التل ، وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها ، فصبروا تلك الليلة فأنتنت تلك الجِيَف وانهضمت ، فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب ، فأعادوا الزحف وملازمة القتال ، فضجر أهلها ومسّهم التعب والكلال والإعياء ، فضعفوا ، فملك التتر البلد وقتلوا فيه كثيراً ونهبوا الأموال واستباحوها ، فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك ، فأرسلوا رسولاً إلى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل إليهم رسولاً يسعى بينهم في الصلح ، فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه ، فأخذوا أحدهم فقتلوه ، ثم قالوا للباقين : إن أنتم عَرَّفتمونا طريقاً نعبر فيه فلكم الأمن ، وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا ، فقالوا لهم : إنّ هذا الدربند ليس فيه طريق ألبتة ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق ، فساروا معهم إلى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلّفوا الدربند وراء ظهورهم .

ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق

لما عبر التتر دربند شروان ساروا في تلك الأعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك ، فنهبوا وقتلوا من اللكز كثيراً وهم مسلمون وكفار ، وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ، ووصلوا إلى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم ، فجدّوا وجمعوا عندها جمعاً من قفجاق فقاتلوهم فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى ، فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون : نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ولا دينكم مثل دينهم ، ونحن نعاهدكم أننا لا نتعرض إليكم ونحمل إليكم من الأموال والثياب ما شئتم وتتركوا بيننا وبينهم ، فاستقر الأمر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك ، فحملوا إليهم ما استقر وفارقهم قفجاق .

فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا ، وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم إلا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقع بهم الأول فالأول وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم ، وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وأبعدوا ، فمنهم من اعتصم بالغياض ومنهم من اعتصم بالجبال ، ومنهم من لحق ببلاد الروس ، وأقام التتر في بلاد قفجاق وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف ، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى ، وهي غياض على ساحل البحر ، ووصلوا إلى مدينة سوداق وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم فإنها على بحر خزرية والمراكب تصل إليها ، وفيها الثياب فتشتري منهم وتبيع عليهم الجواري والمماليك والبرطاس والفندر والسنجاب وغير ذلك مما هو في بلادهم ، وبحر خزرية هذا متصل بخليج القسطنطينية .

ولما وصل التتر إلى سوداق ملكوها وقتلوا أهلها ، وتفرق أهلها الذين سلموا من القتل ، فمنهم من صعد الجبال بأهله وماله ، ومنهم من ركب البحر وسار إلى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان السلجوقي .

ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس

لما استولى التتر على أرض قفجاق وتفرق أهل قفجاق كما ذكرنا ، سارت طائفة كثيرة منهم إلى الروس وهي بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم ، وأهلُها يدينون

بالنصرانية ، فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتر إن قصدوهم ، وأقام التتر بمدينة قفجاق مدة ، ثم إنهم ساروا سنة عشرين وستمئة إلى بلاد الروس ، فسمع الروس بقفجاق وخبرهم وكانوا مستعدين لقتالهم ، فساروا إلى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها ، فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين ، فطمع الروس وقفجاق فيهم وظنوا أنهم عادوا خوفاً منهم وعجزوا عن قتالهم ، فجدّوا في اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقْفُون أثرهم اثني عشر يوماً ، ثم إن التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم إلا وقد لقوهم على غِرّة منهم لأنهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم ، فلم يجتمعوا للقتال إلا وقد بلغ التتر منهم مبلغاً عظيماً فصبرت الطائفتان صبراً لم يسمع بمثله ، ودام القتال بينهم عدة أيام ، ثم إن التتر ظفروا واستظهروا ، فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر وكثر القتل في المنهزمين ، فلم يسلم منهم إلا القليل ونهب جميع ما معهم ، ومن سلم وصل إلى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة ، وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها ، فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا ما يعزّ عليهم وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام في عدة مراكب ، فلما قربوا من المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق إلا أن الناس نجوا ، وكانت العادة جارية أن السلطان له المركب الذي ينكسر ، فأخذ من ذلك شيئاً كثيراً وسَلِمَتْ باقي المراكب ، وأُخبر من بها بهذه الحال .

ذكر عود التتر من بلاد قفجاق والروس إلى ملكهم

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمئة ، فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع وخرجوا إليهم فلقوهم واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء ، فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم وأخذوهم بالسيف من كل ناحية ، فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل ، فساروا إلى سقسين عائدين إلى ملكهم جنكزخان ، وخلت أرض قفجاق منهم ، فعاد من سلم من قفجاق إلى بلادهم ، وكان الطريق منقطعاً منذ دخلها التتر فلم يصل منهم شيء من البرطاس والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل إلى تلك البلاد ، فلما فارقها التتر وعاد القفجاق إليها اتصل الطريق وحملت الأمتعة كما كانت .

هذه أخبار التتر المغرّبة ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع .

ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند

قد ذكرنا ما فعله التتر المغرّبة التي سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله إلى خوارزم شاه ، وأما جنكزخان فإنه بعد أن سيّر هذه الطائفة إلى خوارزم شاه وبعد انهزام خوارزم شاه من خراسان ، قسم أصحابه عدة أقسام ، سير قسماً منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها ، وسيّر قسماً آخر إلى ترمذ ، وسير قسماً آخر منها إلى كلابة وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وأمنع الحصون ، فصارت كل طائفة إلى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلها واستولت عليها ، وفعلت من القتل والأسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع العذاب مثلما فعل أصحابهم ، فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند ، فجهز جيشاً آخر ، فعبروا جيحون إلى خراسان .

ذكر تملك التتر خراسان

لما سار الجيش المنفذ إلى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ ، فطلب أهلها الأمان فأمنوهم ، فسلم البلد ، وكان ذلك سنة سبع عشرة وستمئة ، ولم يتعرضوا إليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ، وساروا وقصدوا الزوزان وميمند وأندخوي وفارياب ، فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا إلى أهلها بسوء ولاً أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ، حتى وصلوا إلى الطالقان وهي ولاية تشتمل عدة بلاد ، وفيها قلعة حصينة يقال لها منصور كوه لا ترام علواً وارتفاعاً ، وفيها رجال يقاتلون شجعان ، فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلاً ونهاراً ولا يظفرون منها بشيء ، فأرسلوا إلى جنكزخان يعرفونه عجزهم عن تملك تلك هذه القلعة لكثرة ما فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها ، فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم وحصرها ، ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى ، فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم ، فقاتلوا معه ، وأقام عليها أربعة أشهر أخرى ، فقتل من التتر عليها خلق كثير ، فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه ، ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفاً من خشب وفوقه صفاً من تراب ، فلم يزالوا كذلك

حتى صار تلاً عالياً يوازي القلعة فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها وحملوا حملة رجل واحد ، فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب ونجوا ، وأما الرجالة فقتلوا ، ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال والأمتعة .

ثم إن جنكزخان جمع أهل البلاد الذين أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو ، فدخلوا إليها ، وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين ما يزيد على مئتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو ، وهم عازمون على لقاء التتر ، ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم ، فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا وصبر المسلمون ، وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة ، حتى إن بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين : إن قيل إن التتر يقتلون فصدقوا ، وإن قيل إنهم ينهزمون فلا تصدقوا ، فلما رأى المسلمون صبر التتر وإقدامهم ولّوا منهزمين ، فقتل التتر منهم وأسروا الكثير ، ولم يسلم إلا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم ، وأرسل التتر إلى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو ، فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا إلى مرو ، وحصروها وجدّوا في حصرها ولازموا القتال ، وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والأسر فيهم ، فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذي بها مقدماً على من فيها يقولون له : لا تهلك نفسك وأهل البلد واخرج إليها فنحن نجعلك أمير هذه البلد ونرحل عنك ، فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد فأمنوهم ، فخرج إليهم ، فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له : أريد أن تعرض علي أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه إقطاعاً ويكون معنا ، فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبضوا عليهم وعلى أميرهم فكتفوهم ، فلما فرغوا منهم قال : اكتبوا إلى تجار البلد ورؤسائه وأرباب الأموال في جريدة ، واكتبوا إلى أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى ، واعرضوا ذلك علينا ، ففعلوا ما أمرهم ، فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهلهم ، فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد ، فجلس على كرسي من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم ، فأحضروا وضربت أعناقهم صبراً والناس ينظرون إليهم ويبكون ، وأما العامة فإنهم قسموا الرجال والنساء

والأطفال والأموال فكان يوماً مشهوداً من كثرة الصراخ والبكاء والعويل ، وأخذوا أرباب الأموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال ، فربما مات أحدهم من شدة الضرب ولم يكن بقي له ما يفتدي به نفسه ، ثم إنهم أحرقوا البلد وأحرقوا تربة السلطان سنجر السَّلجوقي ونبشوا القبور طلباً للمال ، فبقوا كذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة ، وقال : هؤلاء عصوا علينا ، فقتلوهم أجمعين ، وأمر بإحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمئة ألف قتيل ، فيهم العلماء والصلحاء والزهاد والعباد ، كما كان ذلك من التتر المغرّبة فيما أخذوه من البلاد كما تقدم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما جرى على المسلمين وسبحان من يدبر ملكه كيف يشاء ولا يُسْأل عما يفعل .

ثم ساروا إلى نيسابور فحصروها خمسة أيام وبها جمع صالح من العسكر الإسلامي فلم يكن لهم بالتتر قوة ، فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو ، وأقاموا خمسة عشر يوماً يخرجون ويفتشون المنازل على الأموال ، وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم إن قتلاهم سلم منهم كثير لكونهم لم يتمموا قتلهم حتى تزهق أرواحهم وإن كثيراً منهم نجوا إلى بلاد الإسلام ، فأمروا بأهل نيسابور أن تقطع رؤوسهم لئلا يسلم من القتل أحد ففعلوا ذلك ، فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم إلى طوس ففعلوا كذلك أيضاً وخربوها وخربوا المشهد الذي فيه علي الرضا بن موسى الكاظم والذي فيه هارون الرشيد ، وجعلوا الجميع خراباً .

ثم ساروا إلى هراة وهي من أحصن البلاد فحصروها عشرة أيام ثم ملكوها وأمنوا أهلها وقتلوا منهم البعض ، وجعلوا عند من سلم منهم شحنة ، وساروا إلى غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزم شاه ، لأنه كان متملكاً ذلك القطر ، فقاتلهم وهزمهم كما سنذكره ، فلما سمع بذلك أهل هراة وثبوا على الشحنة فقتلوه ، فلما عاد المنهزمون إلى هراة وجدوا عسكراً جاءهم مدداً من جنكزخان فانضموا إليهم ، ودخلوا هراة قهراً وعنوة وقتلوا كل من فيها ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها ، وعادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان يرسل السرايا إلى بلاد خراسان ، ففعلوا بخراسان مثلما فعلوا في غيرها ، ولم يسلم من شرهم وفسادهم شيء من البلاد ، وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة وستمئة .

ذكر تملكهم خوارزم وتخريبها

وأما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان إلى خوارزم فإنها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد ، فساروا حتى وصلوا إلى خوارزم وفيها عسكر كبير من المسلمين وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة ، فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس ، ودام الحصر لهم خمسة أشهر ، فقتل من الفريقين خلق كثير ، إلا أن القتلى من التتر كانوا أكثر لأن المسلمين كان يحميهم السور ، فأرسل التتر إلى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير ، فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفاً متتابعاً فملكوا طرفاً منه ، فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوها فلم يقدروا على إخراجهم ، ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة ، وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم ، فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون ، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ، ثم إنهم فتحوا السد الذي كان يمنع ماء جيحون عن البلد ، فدخل الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الأبنية وبقي موضعه ماء كالبحر ، ولم يسلم من أهله أحد ألبتة ، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله ، منهم من يختفي ، ومنهم من يهرب ، ومنهم من يخرج ثم يسلم ، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فيظنون أنه مقتول فينجو ، وأما أهل خوارزم فمن اختفى منهم من التتر غَرَّقَهُ الماء أو قتله فأصبحت يباباً :

كَأَنْ لَمْ يَكنْ بين الحُجونِ إلى الصفا   أنيسٌ ولَمْ يَسْمَرْ بمكةَ سامِرُ

فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قال ابن الأثير : وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه ، نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر ، فلقد عمت هذه المصيبة الإسلام وأهله ، فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لأن القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرين ، ومضى الجميع تحت السيف ، ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا إلى ملكهم بالطالقان .

ذكر تجهيز جنكزخان الجيوش إلى غزنة
لقتال جلال الدين بن خوارزم شاه

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا إلى ملكهم جهز جيشاً كثيفاً وسيره إلى غزنة وفيها جلال الدين بن خوارزم شاه مالكاً لها ، وقد اجتمع إليه من عسكر أبيه نحو ستين ألفاً ، وذلك غير من كان عنده من عسكر مملكته ، فلما وصل التتر إلى أعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع جلال الدين بن خوارزم شاه ، فالتقوا في موضع يقال له بلق ، فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً وبقوا كذلك ثلاثة أيام ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر ، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا ، ومن لم يقتل منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان .

فلما سمع أهل هراة بذلك ساروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه ، فسيّر إليهم جنكزخان عسكراً فاجتمعوا مع المنهزمين من غزنة ودخلوا هراة وملكوا البلد ، وقتلوا أهله وخربوه ، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم ، ثم إن جلال الدين بن خوارزم شاه بعد أن هزم جيش جنكزخان أرسل رسولاً إلى جنكزخان يقول له : أي موضع تريد يكون فيه الحرب حتى تأتي إليه ، فجهز جنكزخان عسكراً كثيراً أكثر من الأول مع بعض أولاده ، وسيره إليه ، فوصل إلى كابل فتوجه العسكر الإسلامي إليهم ، وتصافّوا هناك ، وجرى بينهم قتال عظيم ، فانهزم التتر ثانياً ، وقتل منهم كثير ، وغنم المسلمون ما معهم وكان عظيماً ، وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير ، فاستنقذوهم وخلصوهم .

ثم إن المسلمين جرى بينهم فتنة مع بعضهم لأجل الغنيمة ، وسبب ذلك أن أميراً منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الأتراك ، كان شجاعاً مقداماً ذا رأي في الحرب ومكيدة ، واصطلى الحرب مع التتر بنفسه ، وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعباً ، وهو الذي كسر التتر على الحقيقة ، وكان من المسلمين أيضاً أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزم شاه نسب ، وهو صاحب هراة ، فاختلف هذان الأميران في الغنيمة فاقتتلوا ، فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق : أنا أهزم الكفار ويقتل أخي لأجل هذا السحت ، فغضب وفارق العسكر وسار إلى الهند ، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفاً ، كلهم يريدون أن يكونوا تبعاً له ، فاستعطفه جلال الدين

بكل طريق ، وسار بنفسه إليه وذكّره الجهاد وخوّفه من الله تعالى وبكى بين يديه ، فلم يرجع وسار مفارقاً ، فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا ، فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر أن جنكزخان قد وصل في جموعه وجيوشه ، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقهم من العسكر عزم على مفارقة غزنة ولم يقدر على المقام ، فسار نحو بلاد الهند فوصل إلى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن ما يعبر فيه ، وكان جنكزخان يقص أثره مسرعاً ، فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكزخان بجيوشه ، فاضطر المسلمون حينئذ إلى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا في ذلك كالأشقر إن تأخر ينحر ، وإن تقدم يعقر ، فتصافوا واقتتلوا أشد قتال ، اعترفوا كلهم أن ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال ، وبقوا كذلك ثلاثة أيام ، فقتل الأمير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير ، وكان القتل في الكفار أكثر ، والجراح أعظم ، فرجع الكفار عنهم فأبعدوا ونزلوا ، فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم وقد ازدادوا ضعفاً بمن قتل منهم وجرح ، ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك ، فأرسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمون إلى الهند ومعهم جلال الدين ، وقيل إنهم عبروا بغير سفن وإن جلال الدين اقتحم النهر العظيم هو وعساكره وما نجا منهم إلا أربعة آلاف حفاة عراة ، ورمى الموج جلال الدين مع ثلاثة من خواصه إلى موضع بعيد وفقده أصحابه ثلاثة أيام ثم وجدوه واعتدوا بمقدمه عيداً ، ثم أجري بين جلال الدين وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين وملك إلى لهاور من الهند ، وأما جنكزخان وعساكره فإنهم عادوا إلى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين إلى الهند وبعدهم عنهم ، فلما وصلوا غزنة ملكوها لخلوها من العساكر والمحامي ، فقتلوا أهلها ونهبوا الأموال وسبوا الحريم ، ولم يبقوا أحداً من العلماء والصلحاء وغيرهم ، وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها وما حولها من المدائن والقرى كذلك ، فأَصْبَحَتْ تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، ثم رجع جنكزخان بجيوشه إلى بلاده ، وأما الممالك التي ملكها وخربها فترك الكثير منها ولم يجعل له عملاً فيها ، فرجع إليها أهلها وتملكها ملوكها الذين كانوا فيها .

(غريبة عجيبة) لما وصل جلال الدين إلى حافة نهر السند ولم يجد من السفن ما يعبر فيه وجنكزخان خلفه يقص أثره ضاقت الأرض بما رحبت على جلال الدين ومن

معه ، ورأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يبكين ويصحن يقلن له : بالله عليك اقتلنا أو خلّصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن في النهر ، وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب والرزايا .

ذكر عود التتر إلى الري وهمذان وغيرهما

في سنة إحدى وعشرين وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان ، وهؤلاء غير الطائفة الغربية التي ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الري ، وكان من سلم من أهل الري قد حادوا إليها وعمروها ، فلم يشعروا بالتتر إلا وقد وصلوا إليهم ، فلم يمتنعوا عنهم ، فوضعوا في أهلها السيف ، وقتلوهم كيف شاؤوا ، ونهبوا البلد وخربوه ، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك ، ثم إلى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من التتر الأولين فإنهم لم يقربوهما ولا أصيب أهلهما بأذى ، فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلها وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ، ثم ساروا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون .

ثم قصدوا همذان ، وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلاً وأسراً ونهباً وخربوا البلد ، وكانوا لما وصلوا إلى الري رأوا بها عسكراً من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم ، وانهزم الباقون إلى أذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا إلاّ والتتر أيضاً قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين ، فوصل طائفة منهم إلى تبريز وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون له : إن كنت موافقنا وعلى طاعتنا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية ، وإلاّ فعرّفنا أنك غير موافق لنا ولا في طاعتنا ، فعمد ابن البهلوان إلى من عنده من الخوارزمية فقبض عليهم ثم قتل بعضهم وجعل بعضاً منهم أسرى وأرسل رؤوس من قتلهم إلى التتر وأرسل معها الأسرى ، وأنفذ مع الجميع من الأموال والثياب والدواب شيئاً كثيراً ، فعادوا عن بلاده وساروا نحو خراسان ، وفعل التتر هذا كله في هذه العودة وليسوا في كثرة ، بل كانوا نحو ثلاثة آلاف ، وكان الخوارزمية الذين انهزموا عنهم نحو ستة آلاف فارس ، ولكن وقع الرعب في قلوبهم من التتر وإن كانوا قليلاً ، وكان عسكر ابن البهلوان أكثر من ذلك كله ، ومع هذا فلم يحدّث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم .

قال ابن الأثير : فنسأل الله أن ييسّر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم ، فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الأموال واسترقاق الأولاد وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد .

ذكر وصول جلال الدين بن خوارزم شاه إلى خوزستان والعراق

في أول سنة اثنتين وعشرين وصل جلال الدين بن خوارزم شاه إلى بلاد خوزستان والعراق ، واستناب نواباً في ممالك الهند ، واستولى على كرمان وأصفهان وباقي عراق العجم وفارس ، وقاربت جيوشه بغداد فخاف أهل بغداد منه ، ثم سار إلى تبريز وأذربيجان ، وكثرت عساكره واستفحل أمره وصار ينتزع الممالك من يد الملوك الذين كانت الممالك بأيديهم ، والكلام على ذلك طويل ، وصار يفعل في كثير من البلاد التي يتملكها من القتل والأسر والنهب مثلما يفعل التتر .

وفي هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافته قريباً من سبع وأربعين سنة ، قيل إن أصل قيام التتر كان بمكاتبته لهم يأمرهم بقتال خوارزم شاه ليشغلوه عن تطلبه ملك العراق والله أعلم بحقيقة الحال ، وولي الخلافة بعد الناصر ولده الظاهر بأمر الله ، ومكث تسعة أشهر وتوفي ، وولي ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ، ثم المستعصم ختام خلفائهم كما سيأتي ، ولما قوي أمر جلال الدين بن خوارزم شاه واستفحل ملكه بلغه سنة أربع وعشرين وستمئة أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا إلى دمغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الإسلام ، فسار إليهم وحاربهم واشتد القتال بينه وبينهم ، فانهزموا منه فأوسعهم قتلاً وتبع المنهزمين مدة أيام يقتل ويأسر .

فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفاً من جمع آخر للتتر إذ أتاه الخبر بأنّ كثيراً منهم واصلون إليه ، فأقام ينتظرهم ، فوصلوا إليه في سنة خمس وعشرين ، وجرى بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر لهم عليه ، وفي الأخير كان الظفر له عليهم فهزمهم ، وهؤلاء التتر الذين جاؤوه في هذه المرة كانوا قد سخط جنكزخان على مقدمهم وأبعده وأخرجه من بلاده ، فقصد خراسان هو وجيوشه فرآها خراباً ، فقصد الري ليتغلب على تلك النواحي والبلاد ، فلقيه بها جلال الدين واقتتلوا أشد

القتال إلى أن كانت آخر هزيمة على التتر كما ذكرنا ، وجاءت مكاتبة من طولي بن جنكزخان لجلال الدين يقول له : إن هؤلاء ليسوا من أصحابنا إنما نحن أبعدناهم ، فلما أمن جانب ابن جنكزخان لأنه هلك سنة أربع وعشرين وستمئة وكانت مدة ملكه نحو ثلاث وعشرين سنة ، ولما أَيِس من الحياة جمع أولاده وقسم بينهم الممالك ، وجعل التخت للرئيس عليهم وهو ولده الصغير طولي خان ، ثم هلك عن قرب ، وتولى مكانه ولده هلاكو الذي كان على يده أخذ بغداد .

ذكر خروج التتر إلى أذربيجان وما كان منهم

أول سنة ثمان وعشرين وصل التتر من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان ، وكان جلال الدين قد ضعف ملكه لأنه كان سيء السيرة قبيح التدبير ، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك ، ووقع بينه وبينهم حروب وهزموه في آخر الأمر في كثير منها فضعفت شوكته ، وكتب إلى التتر بعض الملوك الذين كان يحاربهم يحثونهم على المجيء لاستئصال جلال الدين ويعرفونهم ضعفه عن لقائهم ، فهذا كان أيضاً من أسباب مجيئهم ، فلما أقبل التتر في هذه المرة لم يقدم جلال الدين على لقائهم وقتالهم ، فدخلوا بلاده واستولوا على الري وهمذان وما بينهما من البلاد ، ثم قصدوا أذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به ، وجلالُ الدين لا يقدر على منعهم ، وقد مليء رعباً وخوفاً ، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلفوا علّيه ، وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر ، وكان السبب في ذلك أن أمراً غريباً فعله جلال الدين أخذ من قلة عقله ما لم يسمع بمثله ، وذلك أنه كان له خادم خصي ، وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج ، فاتفق أن ذلك الخادم مات فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله ولا مجنون ليلى ، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجالة ، وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ ، فمشى الناس رجالة ومشى جلال الدين بعض الطريق راجلاً ، فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب ، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقي تابوت الخادم ، ففعلوا ، فأنكر عليهم حيث لم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا ، وأراد معاقبتهم فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ، ثم لم يدفن ذلك الخصي وإنما كان يستصحبه معه أين ساروا وهو

يلطم ويبكي ، وامتنع من الأكل والشرب ، وكان إذا قدم له طعام يقول : احملوا من هذا إلى قلج ، ولا يتجاسر أحد أن يقول إنه مات ، فإنه قيل له مرة إنه مات فقتل القائل له ذلك ، إنما كانوا يحملون إليه الطعام ويعودون يقولون إنه يقبل الأرض ويقولون إنني الآن أصلح مما كنت ، فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز مع وزيره ، فبقي حيران لا يدري ما يصنع ولا سيما لما خرج التتر هذه المرة فحينئذ دفن الغلام الخصي وأرسل إلى الوزير واستماله إلى أن حضر عنده ، فلما وصل إليه بقي أياماً ثم قتله جلال الدين ، وهذه نوادر غريبة لم يسمع بمثلها تدل على الخذلان .

ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانهزامه عندها وما كان منه

في سنة ثمان وعشرين أيضاً حصر التتر مراغة من أذربيجان ثم ملكوها بالأمان وقتلوا في البلد ، إلا أنهم لم يكثروا في القتل ، واشتد خوف الناس منهم بأذربيجان ، فلما رأى جلال الدين ما يفعله التتر بأذربيجان ، ورأى ما هو عليه من الضعف والوهن فارق أذربيجان يريد الخليفة وملوك الأطراف ليعضدوه على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم ، فلم يشعر وهو بالقرب من آمد إلا وقد كبسه التتر ليلاً وخالطوا مخيمه ، فهرب جلال الدين ، ثم لم يزل ينتقل في الهرب من موضع إلى موضع وهو بغاية الذل بعد ذلك العز إلى أن دخل قرية من قرى ميافارقين ، فلحقه التتر في تلك القرية ، فهرب إلى جبل هناك فيه أكراد يتخطفون الناس ، فأخذوه وشلحوه وأرادوا قتله ، فقال جلال الدين لأحدهم : إني أنا السلطان فاستبقني أجعلك ملكاً فجعله الكردي عند امرأته ومضى إلى الجبل ، فحضر كردي آخر معه حربة ، فقال للمرأة : لم لا تقتلون هذا الخوارزمي ؟ فقالت المرأة : قد أمَّنه زوجي ، فقال الكردي : إنه السلطان وكان قد قتل كاخا بخلاط خيراً منه ، وضربه بالحربة فقتله ، وكان ذلك منتصف شوال سنة ثمان وعشرين وستمئة ، فسبحان من لا يزول ملكه وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار .

ومما ينبغي أن يذكر في هذه الأخبار العجيبة الدالة على كمال قدرة الله تعالى وأنه يتصرف في عباده كيف يشاء ، قصة الصناديق التي كانت لأبيه محمد خوارزم شاه ، وذلك أن خوارزم شاه لما هرب من التتر ـ كما تقدم تفصيل ذلك ـ والتترُ تتبعه ، نزل لما

وصل عراق العجم عند بسطام وأحضر خوارزم شاه كاتباً كان معه عشرة صناديق ، ثم قال : إنها كلها جواهر لا تعلم قيمتها ، ثم أشار إلى صندوقين منها وقال : إن فيهما من الجواهر ما يساوي خراج الأرض بجملتها ، ثم أمر بحمل العشرة الصناديق إلى قلعة أزدهن وهي من أحصن قلاع الأرض ، وأخذ خط النائب بها بوصول الصناديق المذكورة مختومة ، فلما استولى جنكزخان على تلك البلاد حملت إليه الصناديق بختومها فأخذ جميع ما فيها ولم ينتفع خوارزم شاه الذي جمعها بشيء منها ، وقد تقدم أنه مات في مهربه ذلك .

قال ابن الأثير : فسبحان من بدّل أمنهم خوفاً وعِزَّهم ذُلّاً وكثرتهم قلة ، فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون .

ولما دخل التتر ديار بكر والجزيرة يطلبون جلال الدين وقع منهم من الفساد والنهب والقتل والتخريب شيء كثير ، ونهبوا سواد آمد وأرزن وميافارقين ، وقصدوا مدينة سعرد فقاتلهم أهلها ، فبذل لهم التتر الأمان فوثقوا منهم واستسلموا ، فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم ، فلم يسلم منهم إلا من اختفى وقليل ما هم .

قال ابن الأثير : وحكى لي بعض التجار وكان قد وصل من آمد أنهم حرروا القتلى ، فكانوا يزيدون على خمسة عشر ألف قتيل ، وكان مع هذا التاجر جارية من سعرد فذكرت أن سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لها ولد سواه فلم يصغ إلى قولها فمشت معه قليلاً فقتلا جميعاً ، وورثها ابن أخ للأم فباعها من هذا التاجر ، وذكرت من كثرة القتلى أمراً عظيماً وأن مدة الحصار كانت خمسة أيام ، ثم ساروا منها إلى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك ، وساروا من طنزة إلى وادي القريشية ، وكان فيه طائفة من الأكراد وفيه مياه جارية وبساتين والطريق إليه ضيق ، فقاتلهم الأكراد فمنعوهم عنه ، وقتل منهم كثير ، فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضاً ، وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم ، فوصلوا إلى ماردين فنهبوا ما وجدوا في بلدها ، واحتمى صاحب ماردين بقلعة ماردين ، ثم وصلوا إلى نصيبين والجزيرة ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به ، وأغلقت أبوابها فعادوا عنها ، ومضوا إلى سنجار ، ووصلوا إلى الجبال من أعمال سنجار فنهبوا ، ودخلوا إلى الخابور فوصلوا إلى عرابان

فنهبوا وقتلوا ، ومضت طائفة منهم إلى الموصل فوصلوا إلى قرية تسمى المونسة من الموصل فنهبوها ، واحتمى أهلها بخان فيها فقتلوا كل من فيه .

قال ابن الأثير : وحُكِيَ لي عن رجل منهم أنه قال : اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بي وكنت أراهم من نافذة في البيت ، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول لا بالله فيقتلونه ، فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم ويقولون : لا بالله .

ومضى نصف طائفة منهم إلى نصيبين الروم فنهبوها وقتلوا من فيها ، ثم عادوا إلى آمد ، ثم إلى بلد بدليس فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيراً وأحرقوا المدينة .

قال ابن الأثير : وحكى لي إنسان من أهلها : قال ولو كان عندنا خمسمئة فارس لم يسلم من التتر أحد ، لأن الطريق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير .

ثم ساروا من بدليس إلى خلاط ، فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكرى وهي من أحصن البلاد ، فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها ، وقصدوا مدينة أرجيش من أعمال خلاط وهي مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك ، وكان هذا في ذي الحجة من سنة ثمان وعشرين وستمئة .

قال ابن الأثير : ولقد حُكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم ، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده إلى ذلك الفارس ، ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التتري ما يقتله به ، فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ، فوضع رأسه على الأرض ومضى التتري وأحضر سيفاً فقتله به .

وحكى لي رجل قال : كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا مقالاً يأمرنا فيه أن يكتّف بعضنا بعضاً ، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم ، فقلت لهم : هذا واحد فَلِمَ لا نقتله ونهرب ؟ فقالوا : نخاف ، فقلت : هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله ، فلعل الله يخلصنا ، فوالله ما جسر أحد يفعل

ذلك ، فأخذت سكيناً وقتلته وهربنا فنجونا ، وأمثال هذا كثير ، فهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها ، فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد العدو عنهم .

والعجب أن هذا العدد فعلوا هذه الأفعال في هذه المرة وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف في وجههم فارس ، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء يعز من يشاء ويذل من يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

ولما وصل التتر إلى بلاد أذربيجان أطاعهم أهلها جميعاً ، وحملوا إليهم الأموال والثياب الخطابي والخابي والعتابي وغير ذلك ، وسبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم إلى آمد من التتر تفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق ، وتخطفهم الناس ، وفعل التتر بديار بكر والجزيرة وإربل وخلاط ما فعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف في وجههم فارس ، وملوك الإسلام متحجزون في الأنقاب ، وانضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدين ، فإنه لما لم يظهر له في ذلك الوقت خبر ، ولا علموا له حالاً سقط في أيديهم ، وأذعنوا للتتر بالطاعة ، وحملوا إليهم ما طلبوا من الأموال والثياب ، من ذلك مدينة تبريز التي هي أصل بلاد أذربيجان ومرجع الجميع إليها وإلى من بها ، فإن ملك التتر نزل في عساكره بالقرب منها وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته ويتهددهم إن امتنعوا عليه ، فأرسلوا إليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب والأبريسم وغيرها وكل شيء حتى الخمر ، وبذلوا له الطاعة ، فأعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدمهم عنده ، فقصده قاضي البلد ورئيسه وجماعة من أعيان أهله ، وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائي ؛ وهو الذي يرجع الجميع إليه إلا أنه لا يظهر شيئاً من ذلك ، فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائي ، فقالوا : إنه رجل منقطع ماله بالملوك تعلق ونحن الأصل ، فسكت ، ثم طلب أن يحضروا عنده من صناع الثياب الخطابي وغيرها ما يستعمل لملكهم الأعظم ، فإن هذا هو من أتباع ذلك الملك ، فأحضروا الصناع فاستعملهم في الذي أراد ووزن أهل تبريز الثمن ، وطلب منهم خركاه أي خيمة لملكهم أيضاً ، فعملوا له خركاه لم يعمل مثلها ، وعملوا غشاءها من الأطلس الجيد المزركش ، وعملوا من داخلها السمور والقندز ، فجاءت عليهم بجملة كثيرة ، وقرر عليهم من المال كل سنة شيئاً ومن الثياب كذلك ، وترددت رسلهم إلى ديوان الخلافة وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم

لا ينصرون جلال الدين بن خوارزم شاه .

قال ابن الأثير : ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الري كان قد انتقل إلى الموصل وأقام بها هو ورفقاء له ، ثم سافر إلى الري في العام الماضي قبل خروج التتر ، فلما وصل التتر إلى الري أطاعها أهلها ، وساروا إلى أذربيجان وسار هو معهم إلى تبريز ، فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول إن الكافر لعنه الله ما يقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين فإن الأمر عظيم ، ولا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور والطائفة الأخرى التي وصلت إلى إربل ودقوقا كان قصدهم النهب إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا ؟ فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من ممانع ومدافع ، وأن البلاد خالية من ذلك ومن العساكر ، فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام إلا إن كان في بلد الغرب فإن عزمهم على قصد البلاد جميعاً ، فانظروا لأنفسكم .

هذا مضمون الكتاب فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وفي هذه السنة أعني سنة ٦٢٨ كان انتهاء ما في الكامل تاريخ ابن الأثير ، وكانت وفاته سنة ٦٣٠ ، وهو الإمام عِزّ الدين علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجَزَرِيّ ، ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥ ، ثم سار إلى الموصل وسمع من كثير من الأشياخ المقيمين بالموصل ، ثم رحل إلى بغداد ، ثم إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ، ثم عاد إلى الموصل وانقطع في بيته عاكفاً على العلم تعليماً وتصنيفاً ، وكان إماماً في علم الحديث حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم ، وله تصانيف كثيرة ، منها : أسد الغابة في أخبار الصحابة ؛ وهو كتاب جليل ، ومنها التاريخ الكبير المسمى بالكامل وله غير ذلك ، ومن تلامذته الذين أخذوا عنه ابن خلكان صاحب التاريخ المشهور ، ونسبت الجزيرة إلى ابن عمر قيل هو رجل من أهل بَرْقَعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر ، بنى هذه المدينة فأضيفت إليه .

ثم إن العساكر الخوارزمية الذين كانوا عند جلال الدين تفرقوا في ديار بكر والموصل وحلب ، وأكثروا العبث والفساد ، وفعلوا مثل أفعال التتر من الزنا

والفواحش والقتل ، وكذلك التتر أكثروا العبث والفساد فيما استولوا عليه من البلاد ، ولم يزل يشتد بالمسلمين ، وشرحُ ما جرى في تلك السنين من الخوارزمية والتتر يطول ، والقصد الاختصار .

وفي سنة ٦٤١ قصدت التتر بلاد غياث الدين كينخسرو السلجوقي صاحب بلاد الروم ، فأرسل واستنجد بالحلبيين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارس ، وجمع العساكر من كل جهة ، والتقى مع التتر فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة ، وقتل التتر منهم خلقاً كثيراً وأسروا كثيراً ، وتحكمت التتر في البلاد واستولوا أيضاً على خِلاط وآمد ، وهرب غياث الدين كينخسرو إلى بعض المعاقل ، ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان ودخل في طاعتهم .

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمئة قصدت التتر بغداد وخرجت عساكر بغداد للقائهم ، ولم يكن للتتر بهم طاقة فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل ، ثم لما قدر الله وأراد من الأزل أنه لا بد من استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية قدر سبحانه وتعالى لذلك أسباباً ، وجعل لذلك علامات ومقدمات ، أما الأسباب فأعظمها خروج المسلمين عن كمال الاستقامة وانهماكهم في المعاصي والشهوات ، وأما العلامات والمقدمات فقد أوجد الله في تلك السنين علامات ومقدمات كان الناس يظنون عند مشاهدتها أن القيامة تقوم في تلك السنين ، ثم تبين بعد ذلك أنها مقدمات وعلامات لانقراض الدولة العباسية وضعف أهل الإسلام .

وقال الجلال السيوطي في حسن المحاضرة : كان لانقراض الخلافة ببغداد وما جرى على المسلمين بتلك البلاد مقدمات نبه عليها العلماء ، منها : أنه في يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وستمئة هبت ريح عاصفة شديدة بمكة فألقت ستارة الكعبة المشرفة ، فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد ، ومكثت إحدى وعشرين يوماً ليس عليها كسوة .

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير : وكان هذا فَألاً على زوال دولة بني العباس ومنذراً بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى .

ومنها قال ابن كثير : في سنة سبع وأربعين طغى الماء على بغداد حتى أتلف شيئاً

كثيراً من المحال والدور الشهيرة ، وتعذرت إقامة الجمعة بسبب ذلك .

وفي هذه السنة هجمت الفرنج على دمياط فاستحوذوا عليها وقتلوا خلقاً من المسلمين .

وفي سنة خمسين وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمئة دار ، فيقال إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيها قصداً .

وفي سنة اثنتين وخمسين ظهرت نار في أرض عدن في بعض جبالها بحيث إنه يطير شررها إلى البحر في الليل ويصعد منها دخان عظيم في أثناء النهار ، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد ، وشرعوا في أفعال الخير والصدقات .

وفي سنة أربع وخمسين زادت دجلة زيادة مهولة فغرق خلق كثير من أهل بغداد ومات خلق تحت الهدم ، وركب الناس المراكب واستغاثوا بالله وعاينوا التلف ، ودخل الماء من أسوار البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلاثمئة وثمانون داراً ، وانهدم مخزن الخليفة يعني موضع خزانة أموال المسلمين ، وهلك شيء كثير من خزانة السلاح .

قال السبكي في الطبقات : وكان ذلك من جملة الأمور التي هي مقدمة لواقعة التتار .

وفي هذه السنة في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة وقع بالمدينة الشريفة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة ، وأقام على هذه الحالة يومين ، فلما كان ليلة الأربعاء تعقب الصوت زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان واضطرب المنبر الشريف واستمرت تزلزل ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة خامس الشهر ، فظهر من الحرة نار عظيمة وسالت أودية ، منها سيل الماء ، وسالت الجبال ناراً وسارت نحو طريق الحاج العراقي ، فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلاً ، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى ضحوة النهار ، واستغاث الناس بنبيهم ﷺ وأقلعوا عن المعاصي ، واستمرت النار فوق الشهر ، وخسف القمر ليلة الاثنين منتصف الشهر ، وكسفت الشمس في غدوة وبقيت أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور ، واشتد فزع الناس ، وصعد علماء البلد إلى الأمير يعظونه فطرح المكس ورد على الناس ما كان تحت يده من أموالهم ، ولما جاء النجاب إلى بغداد بخبر هذه النار قال له الوزير إلى أي الجهات

ترمي شررها ؟ قال : إلى جهة الشرق .

وفي ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق المسجد الشريف النبوي ؛ ابتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال ، وكان قد دخل أحد خدمة المسجد إلى خزانة هناك ومعه نار ، فعلقت في الآلات واتصلت بالسقف مُسْرِعة ، ثم دبت في السقوف فأعجلت النار عن قطعها ، فما كان إلا ساعة حتى احترق سقف المسجد أجمع ووقف بعض أصاطينه وذاب رصاصها ، واحترق سقف الحجرة النبوية الشريفة واحترق المنبر الذي كان النبي ﷺ يخطب عليه ، وعُدَّ ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من الآيات ، وكانت كلها منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات ، انتهى ما ذكره الجلال السيوطي في حسن المحاضرة .

وذكر السيد السمهودي في (خلاصة الوفا) زيادة إيضاح لسبب ذلك الحريق ، فقال : احترق المسجد النبوي ليلة الجمعة أول شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمئة أول الليل لدخول أبي بكر بن أوحد الفراش الحاصِلَ الذي في الزاوية الغربية الشمالية لاستخراج قناديل لمنائر المسجد ، وترك الضوء الذي كان في يده على أقفاص القناديل فيه مشاق ، فاشتعلت النار فيه وأعجزه طفؤها وعلقت ببسط وغيرها مما في الحاصل ، وعلا الالتهاب حتى علقت بالسقف مسرعة أخذت قبلة وأعجلت الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة واجتمع معه غالب أهلها فلم يقدروا على إطفائها ، وما كان إلا أقل من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد وما احتوى عليه من المنبر النبوي والأبواب والخزائن والمقاصير والصناديق ، ولم يبق خشبة واحدة أي كاملة ، وكذا الكتب والمصاحف ، ووقع السقف الذي كان على الحجرة على سقف بيت النبي ﷺ وقعا جميعاً في الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة ، ولم يكن في ذلك الزمن قبة على القبور المقدسة وإنما كان سقف فقط ، وأول من جعل ذلك السقف قبة السلطان المنصور قلاوون الصالحي سنة ثمان وسبعين وستمئة ، فجعلت قبة صغيرة مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السواري المحيطة بالحجرة الشريفة ، ولما كانت عمارة السلطان قايتباي للمسجد النبوي سنة سبع وثمانين وثمانمئة جعلت القبة المشرفة متناهية في العلو وجعلت من الآجر ، وأسس لها دعائم عظام في أرض المسجد ، وقد بسط العلامة السمهودي في (خلاصة الوفا) الكلام على

النار التي ظهرت بالحرم ؛ لأنها من معجزات النبي ﷺ من حيث إنه أخبر عنها قبل وقوعها .

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تظهر نار » وفي رواية البخاري « تخرج نار في أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » .

وفي (مسند الفردوس) و(كامل) ابن عدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يسيل وادٍ من أودية الحجاز بالنار تضيء له أعناق الإبل ببصرى » .

ثم أطال الكلام في بيان ذلك ، ثم قال : قال النووي : تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام ، وكانت في زمنه أي النووي ، وكان ابتداء ذلك زلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمئة لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها ، واشتدت في يوم الثلاثاء وظهرت ظهوراً عظيماً ، ثم ليلة الأربعاء ثالث الشهر في الثلث الأخير من الليل حدثت زلزلة عظيمة جداً أشفق الناس منها ، واستمرت تزلزل بقية الليل ، ثم إلى يوم الجمعة ولها دوي أعظم من الرعد فتموج الأرض وتتحرك الجدران حتى وقع في يوم واحد دون ليلته ثمان عشرة حركة .

ونُقِل عن أبي شامة عن القاشاني قال : تزلزلت الأرض يوم الجمعة زلزلة عظيمة إلى أن اضطربت منائر المسجد وسمع لسقفه صرير عظيم ، فلما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار ، فثار من محل ظهورها في الجو دخان متراكم غشى الأفق سواده ، فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطع شعاع النور فظهرت مثل المدينة العظيمة في جهة المشرق .

وقال القرطبي : كانت ترى على صفة البلد العظيمة عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومنائر ويرى رجال يقودونها ، لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته ، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر أزرق له دَوِيّ كدَوِيّ الرعد يأخذ الصخور بين يديه ، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم ، فانتهت النار إلى قرب المدينة ، ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد ، وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر ، قال : وقال لي

بعض أصحابنا رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام ، وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بُصْرى .

وقال القطب القسطلاني : وكان موجوداً في ذلك العصر ـ وهو جد القسطلاني شارح البخاري ـ وأن ضوءها استولى على ما بطن وظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران ، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة ولونها هي يعتريه حمرة ، والقمر كأنه كسف .

وقال أبو شامة : إنها رؤيت من مكة ومن الفلاة جميعها ومن ينبع ، قال : وأخبرني من أثق به ممن شاهدها بالمدينة أنه بلغه أنه كتب بتيما على ضوئها الكتب ، وتيما اسم موضع الشمس والقمر في مدتها ما يطلعان إلا كاسفين ، قال أبو شامة : وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور على الحيطان وكنا حيارى من ذلك إلى أن بلغنا خبرها .

وقال القطب القسطلاني : وقد أخبرني جماعة أنهم شاهدوها من جبال ساية ، وجاء من أخبر أنه أبصرها بتيما وبصرى هي منهما مثل ما هي من المدينة في البعد .

وقال العماد ابن كثير : أخبرني قاضي القضاة صدر الدين الحنفي ، قال : أخبرني ولدي الشيخ صفي الدين مُدرّس مدرسة بصرى ، أنه أخبره غير واحد من الأعراب صبيحة الليلة التي ظهرت فيها هذه النار ، أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم فيّ ضوء تلك النار ، فظهر أنها الموعود بها ، وتمت بذلك المعجزة لحصول ما أخبر به ﷺ ، وأنارتها بتلك الأماكن البعيدة ليتم الإنذار ، واختصاص ظهورها بيوم الجمعة لا يخفى ، وكانت نعمة في صورة نقمة ؛ أي لأنه نعمة من كونها معجزة للنبي ﷺ دالة على كمال صدقه ﷺ ، وكانت أيضاً سبباً لتوبة الناس والتجائهم إلى الله تعالى ، ونقمة من حيث الإنذار والتخويف ، فوجفت القلوب منها وأشفقت ، وأعتق أمير المدينة وهو عز الدين منيف بن شيخة جميع مماليكه ، وردّ على الناس مظالمهم وأبطل المكس ، وهبط للنبي ﷺ وبات في المسجد ليلة الجمعة والسبت ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار وأهل النخل يتضرعون ويبكون كاشفين رؤوسهم مقرين بذنوبهم مستجيرين بنبيهم ﷺ ، فصرف الله تعالى عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال ، فمالت

من وادي أحيلين إلى جهة الشمال ، واستمرت مدة ثلاثة أشهر ، فطالت مدتها ليشتهر أمرها وينزجر عامة الخلق بها ، وعظم أمرها ليشاهد منها عنوان نار الآخرة ، وأرسل أمير المدينة عدة من الفرسان إليها فلم تجسر الخيل على القرب منها ، فترجل أصحاب الخيل وقربوا منها فذكروا أنها ترمي بشرر كالقصر ولم يظفروا بجلية أمرها ، فجرد الأمير عزمه لذلك فوصل منها إلى قدر غُلْوتين بالحجر ، ولم يستطع أن يجاوز موقفه من حرارة الأرض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابله ما يتصاعد من اللهب ناراً كالجبال الراسيات والتلال المجتمعة السائرات تقذف بزبد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج ، وعقد لهيبها في الأفق قتاماً حتى ظن الظان أن الشمس والقمر كسفا إذ سلبا بهجة الإشراق في الآفاق .

وقال القطب القسطلاني : إنها لم تزل مارة على سبيلها وهي تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى ، وأن طرفها الشرقي آخذ بين الجبال فحالت دونه ثم وقفت ، وأن طرفها الشامي وهو الذي يلي الحرم اتصل بجبل يقال له عير على قرب من شرقي جبل أحد ، ومضت في الشظاة التي في طرفها وادي حمزة رضي الله عنه حتى استقرت تجاه حرم النبي ﷺ ، فطفئت .

قال : وأخبرني شخص أعتمد عليه أنه عاين حجراً ضخماً من حجارة الحرم كان بعضه خارجاً عن حد الحرم فعلقت بما خرج منه ، فلما وصلت إلى ما دخل منه في الحرم طفئت وخمدت .

وقال أبو شامة : إن سيل هذه النار انحدر مع وادي الشظاة حتى حاذى جبل أحد ، وكادت النار تقارب حرة العريض ثم سكن قتيرها الذي يلي المدينة ، وطفئت مما يلي العريض ورجعت تسير في المشرق .

وقال كثير من المؤرخين : إنها سالت سيلاً ذريعاً ، في واد يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال ، وعمقه قامة ونصف وهي تجري على وجه الأرض ، والصخر يذوب كما يذوب الرصاص ، ولم يزل يجتمع منه في آخر الوادي عند منتهى الحرم أي في المشرق حتى قطعت في وسط وادي الشظاة إلى جهة جبل عير فسدت الوادي المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار .

قال السيد السمهودي : وآثار ذلك السد موجودة اليوم هناك ويسمى المحبس ، وانقطع وادي الشظاة بسبب ذلك ، وصار السيل ينحبس خلف السد المذكور حتى يصير بحراً مد البصر عرضاً وطولاً ، وأما ما ذكره بعضهم من أن تلك النار ليس لها حر فلعل ذلك كان آخر أمرها .

فهذه الآيات كلها مقدمات لأخذ التتر بغداد وانقراض الدولة العباسية وظهور الضعف والخلل لأهل الإسلام .

وذكر الإمام القرطبي في تذكرته أن هؤلاء التتر هم الذين ذكرهم النبي ﷺ في قوله : « يقاتلونكم قوم صِغارُ الأعينِ كأنَّ وجوههم المَجَانُّ المُطَرَّقةُ » بفتح الراء المشددة ، وفي رواية « عراض الوجوه ذلف الأنوف غلاظها » .

وأطال في بيان روايات الحديث ، وقال : إن هذا الأمر الذي أخبر عنه النبي ﷺ قد وقع كما أخبر ، ونقل مثل ذلك عن الحافظ ابن دحية وغيره ، وأطال في بيان ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر أخذ التتر بغداد وقتلهم الخليفة

قد تقدم ما تملكه التتر من ممالك الإسلام في السنين المتقدمة ، وصاروا بعد ذلك يدبرون الأمر في أخذ بغداد ويتخوفون من كثرة العساكر الموجودة عند الخليفة ، وعزموا على أخذها في سنة ثلاث وأربعين وستمئة فانهزمت عساكرهم وضعف عزمهم ، ولما كان أخذهم إياها مقدراً في علم الله تعالى محدوداً بأيام مخصوصة سهل لهم الأسباب التي توصلهم إلى ذلك عند مجيء وقته ، فمن ذلك أن وزير الخليفة كان رافضياً ، ويحب نقل الخلافة من بني العباس إلى العلويين ، وسوّلت له نفسه أن ذلك يسهل إذا قويت شوكة التتر ، وأنه يعقد معهم صلحاً وينقل الخلافة للعلويين على زعمه ، فصار يكاتب التتار ويظهر لهم أنه يُحبُّ استيلاءهم ، وأن أمر المسلمين يكون تابعاً لأمرهم ، وكان الخليفة المستعصم بالله مفوضاً أمور الخلافة إلى الوزير المذكور ، وكان صحيح العقيدة يعتقد مذهب أهل السنة ويميل إلى الخير والصلاح ويحب أهل الخير والصلاح ، لكنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك مهملاً للأمور المهمة محباً لجمع المال ، فأهمل أمر التتار وانقاد إلى وزيره محمد بن محمد بن العلقمي حتى كان في ذلك هلاكه وهلاك الرعية .

فإن ابن العلقمي كتب كتاباً إلى هُلاكو ملك التتر وهو ابن طولي بن جنكزخان : إنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك ، وكان من جملة الأسباب التي حملته على ذلك وقوع فتنة في تلك الأيام بين الرافضة وأهل السنة في بغداد ، أدت تلك الفتنة إلى نهب عظيم وخراب ، وقتل عدة من الرافضة ، فغضب لذلك ابن العلقمي وجَسَّرَ التّتار على العراق ليتشفى من أهل السنة ، فلما كتب لملك التتار يحثه على الحضور كتب ملك التتار أن عساكر بغداد كثيرة فإن كنت صادقاً فيما قلته وداخلاً في طاعتنا فَرّقْ عساكر بغداد ونحن نحضر ، فلما وصل كتابه إلى الوزير دخل على الخليفة المستعصم ، وقال له : إن جندك كثيرة وكانوا أكثر من مئة ألف وعليك كلفة كثيرة والعدو قد رجع ، والصوابُ أنك تعطي دستور الخمسة عشر ألفاً من العساكر ليتوفر معلوفهم ، فأجابه المستعصم لذلك ، فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ، ثم نفاهم من بغداد ومنعهم

من الإقامة بها ، ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفاً من الديوان ، ثم كتب إلى ملك التتر بما فعل ، وكان تدبير الوزير أن التتر إذا قدموا بغداد يقتلون الخليفة ويضعفون شوكة بني العباس ، ثم يعودون إلى سبيلهم فيبقى هو على ما هو عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة ، فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير ممانع ، ثم يضع السيف في أهل السُّنَّة ، هكذا كان يقصده .

ولما بلغ ملك التتر ما فعل الوزير ابن العلقمي من محو العساكر وإضعاف أمر الخلافة سار بجيوشه في أول سنة ست وخمسين وستمئة ومعه أيضاً الكرج وعسكر الموصل وخلائق لا يحصون ، وقصد بغداد ونزل عليها وصار الخليفة المستعصم يستدعي العساكر ويتجهز لحرب التتر ، وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال التتر وخرجوا إلى ظاهر بغداد وقاتلوا التتر قتالاً عظيماً كثرت الجراحات والقتلى في الفريقين إلى أن نصر الله عساكر بغداد وانكسر التتر أقبح كسرة ، وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالأسرى ورؤوس القتلى إلى ظهر بغداد ، ونزلوا بخيامهم مطمئنين بهروب العدو وانهزامه ، فأرسل الوزير ابن العلقمي في تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط الدجلة ، فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيلهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقي فرساً يركبها ، وأرسل الوزير إلى ملك التتر يعرفه بما فعل ويأمره بالرجوع إلى بغداد فرجع بعساكره إلى ظاهر بغداد فلم يجدوا هناك من يردهم ، فلما أصبحوا خرج لهم طائفة من عسكر المسلمين وعليهم الدويدار فالتقوا مع طلائع التتر فانهزم المسلمون لقلتهم وأحاطت عساكر التتر ببغداد ، فقال الوزير ابن العلقمي للخليفة المستعصم بالله : إني أخرج إلى تلافي هذا الأمر ، وأعقد الصلح وأقرره ، فأذن له في ذلك ، فخرج وتوائق لنفسه ورجع وأخبر الخليفة أن ملك التتر رغب أن يزوج بنته بابنك وأن تكون الطاعة له كما كانت للملوك السلجوقية ويرحل عنك ، فخرج المستعصم في أعيان دولته وأعيان العلماء وأكابر أهل الوقت ليحضروا العقد ، فلما حضروا عند ملك التتر أمر بالقبض عليهم وضربت أعناقهم وقتلوا الخليفة بوضعه وولده في عِدْلَيْن ، وأمر التتار برفسهما إلى أن ماتا ، وقيل أغرقهما ، ودخلت التتر بغداد واقتسموها ، وكلٌّ أخذ ناحية ، وبقي السيف يعمل أربعة وثلاثين يوماً وقلَّ من سلم ، ولم يرحموا شيخاً كبيراً لكبره ، ولا صغيراً لصغره ، ولا عالماً لعلمه ،

ونهبت دار الخلافة ومدينة بغداد حتى لم يبق فيها لا ما قَلَّ ولا ما جَلَّ ، ثم أحرقت بغداد بعد أن قتل أكثر أهلها ، قيل إن عدة من قتل يزيد على ألفي ألف وثلاثين ألف إنسان ، ثم نادوا بالأمان ، وانقرضت الخلافة من بغداد بقتل المستعصم ، هذا وبقيت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة ، وكانت مدة خلافة المستعصم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً ، وعمره نحو ٤٧ سنة .

وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد فلم يلبث أن أمسكه ملك التتر بعد قتل المستعصم بأيام ووبخه بألفاظ شنيعة معناها أنه لم يكن له خير في مخدومه ولا في دينه فكيف يكون له خير في ملك التتر ؟! ثم إنه قتله شر قتلة .

قيل إن ابن العلقمي قتل بعد المستعصم وقبل قتله هو بقي يركب أكديشاً فنادته عجوز : يا ابن العلقمي أهكذا كنت تركب في أيام المستعصم ؟ فلم يجبها ، وكان بعد أن قتل الخليفة يظن أن رئاسته تبقى له ، فأبقوها له أياماً إلى أن قتلوه ، قيل إنه في تلك الأيام التي أبقوا له فيها بعد قتل الخليفة دخل عليه بعض التتر ممن ليس له وجاهة راكباً فرسه فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد ، وبال الفرسُ على بساط الوزير وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده ، ولما انعكست عليه الأمور ندم حيث لا ينفعه الندم ، وكان يقول بعد ذلك : جرى القضاء بعكس ما أَمَّلْته ؛ لأنه عومل بأنواع الهوان من أراذل التتار والمرتدة ، وقال له بعض أهل بغداد : يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حمية وحميت الشيعة ، وقد قتل من الأشراف الفاطميين ما لا يحصى ، وكان دخول التتر بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم في العشرين من المحرم سنة ٦٥٦ ، وبقي الوزير ابن العلقمي إلى أوائل المحرم سنة ٥٧ ، فتكون المدة التي بقي فيها بعد قتل الخليفة سنة واحدة ، وقيل إنما مكث بعد قتل الخليفة أياماً قلائل وإن التتر لم يقتلوه وإنما مات غماً وكمداً لما انعكست عليه الأمور ، وعض يده ندماً .

وفي تاريخ ابن كثير عن الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال أحد الزهاد قال : كنت بمصر فبلغني ما وقع ببغداد من القتل الذريع ، فأنكرته بقلبي وقلت : يا رب كيف هذا وفيهم أطفال ومن لا ذنب له ؟ فرأيت في المنام رجلاً وفي يده كتاب فأخذته فإذا فيه :

دع الاعتـــراضَ فمـــا الأمـــرُ لـــك ولا الحكـــمُ فـــي حَـــرَكَـــاتِ الفَلَـــكْ
ولا تســـــألِ الله عـــــن فعلـــــهِ فَمَـــنْ خـــاضَ لُجَّـــةَ بَحْـــرٍ هَلَـــكْ

قال الجلال السيوطي في حسن المحاضرة بعد ذكره ذلك : قلت : أجرى الله عادته أن العامة إذا زاد فسادها وانتهكوا حرمات الله ، ولم تقم عليهم الحدود أرسل الله عليهم آية في إثر آية ، فإن لم ينجع ذلك فيهم أتاهم بعذاب من عنده وسلط عليهم من لا يستطيعون له دفاعاً ، ثم قال الجلال : وقد وقع في هذه السنين ما يشبه الآيات الواقعة في مقدمات واقعة التتار وأنا خائف من عقبى ذلك ، فاللهم سلّم سلّم . انتهى .

وإذا كان هذا في زمانه وهو القرن التاسع فما بالك بزماننا وهو القرن الرابع عشر ؟! فنسأل الله السلامة وحسن الاستقامة ، فقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في بعض خطبه : والله لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

فائدتان

الأولى : استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية من بغداد قد جاء الإخبار به قبل وقوعه مأثوراً عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، فإنه كان يقول : « إن الخلافة تصير إلى ولده حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم » ، فكان كما قال ، والظاهر أن مثل هذا الخبر لا يقال بالرأي ولا بالحدس والتخمين وإنما يكون بتوقيف من النبي ﷺ فيكون الإخبار بذلك قبل وقوعه من معجزاته ﷺ ، وهذا الذي ذكرنا أنه مأثور عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ذكره كثير من المؤرخين منهم الملك المؤيد صاحب حماة في تاريخه ، وكذلك ابن الوردي وغيرهما ، وعبارة ابن الوردي : بلغ بعض خلفاء بني أمية عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه يقول : إن الخلافة تصير إلى ولده ، فأمر الأموي بعلي بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضربه ، وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفتري ويقول : إن الخلافة تكون في ولده ، فكان علي بن عبد الله يقول : أي والله لتكونن الخلافة في ولدي ، ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فكان كما قال . والعلج المذكور هلاكو .

وفي تاريخ ابن خلكان أن الأموي الذي أمر بضربه وحمله على جمل هو الوليد بن عبد الملك .

ثم قال ابن الوردي : قلت : قال ابن خلكان في تاريخه : إن علياً رضي الله عنه افتقد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يوماً وقت صلاة الظهر ، فقال لأصحابه : ما بال أبي العباس لم يحضر الظهر ؟ فقالوا : ولد له مولود ، فلما صلى علي رضي الله عنه قال : امضوا بنا إليه ، فأتاه فقال شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب ما سميته ؟ فقال : أو يجوز أن أسميه حتى تسميه ؟ فأمر به فأخرج إليه فأخذه فحنكه ودعا له ثم ردّه إليه وقال : خذ إليك أبا الأملاك قد سميته علياً وكنيته أبا الحسن . ودخل علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يوماً على هشام بن عبد الملك ومعه ابنا ابنه محمد ، وهما السفاح والمنصور ابنا محمد بن علي المذكور ، فأوسع له هشام على سريره وسأله عن حاجته ، فقال : ثلاثون ألف درهم عليّ دَيْن ، فأمر بقضائها ثم قال عليّ لهشام : وتستوصي بابنيَّ هذين خيراً ، ففعل فشكره ، وقال : وصلت الرحم ، فلما ولّى علي بن عبد الله بن عباس قال هشام لأصحابه : إن هذا الشيخ قد اختلَّ وأسنَّ وخلط فصار يقول إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده ، فبلغ ذلك علي بن عبد الله بن عباس ، فقال والله ليكونن ذلك وليملكن هذان يعني السفاح والمنصور .

فكان الأمر كذلك ، وكان علي بن عبد الله هذا عظيم المحل عند أهل الحجاز وكان يلقّب بالسجّاد ، كان يصلي كل يوم ألف ركعة لأنه كان له خمسمئة أصل زيتون يصلي في كل يوم إلى كل أصل ركعتين ، وكان أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمهم ، وكان إذا قدم مكة حاجاً أو معتمراً عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلسه إعظاماً وإجلالاً وتبجيلاً له ، فإن قعد قعدوا ، وإن نهض نهضوا ، وإن مشى مشوا خلفه وحوله ، ولا يزالون كذلك حتى يخرج من الحرم ، وكان إذا طاف كأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله ، وكان مع هذا الطول يكون إلى منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس ، وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب .

نظرت عجوز إلى علي بن عبد الله بن عباس وهو يطوف فقالت : من هذا الذي فرع

الناس ؟ (فرع بالعين المهملة أي علا عليهم) فقيل لها علي بن عبد الله بن عباس ، فقالت : (لا إله إلا الله) إن الناس ليرذلون عهدي بالعباس يطوف بهذا البيت كأنه فسطاط أبيض ، وذكر هذا كله المبرّد في الكامل ، وذكر أن العباس كان عظيم الصوت ، وجاءتهم مرة غارة وقت الصباح فصاح : واصباحاه ، فلم تسمعه حامل في الحي إلا وَضَعَتْ ، والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ .

وتوفي علي بن عبد الله المذكور سنة سبع عشرة ومئة وعمره ثمانون سنة ، وكانت مدة خلافة بني العباس خمسمئة سنة وأربعاً وعشرين سنة ؛ لأن ابتداء دولتهم سنة اثنتين وثلاثين ومئة ، وانتهاؤها سنة ست وخمسين وستمئة ، وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة ، فسبحان الملك الحق الذي لا يزول ملكه وهو الباقي بعد فناء خلقه .

الفائدة الثانية

أول خلفاء بني حرب بن أمية معاوية رضي الله عنه وآخرهم معاوية ، وأول خلفاء بني الحكم مروان بن الحكم وآخرهم مروان بن محمد ، وأول خلفاء بني العباس عبد الله السفاح وآخرهم عبد الله المستعصم ، وأول ملوك بني الأحمر الذين تداولوا ملك الأندلس في آخر المدة محمد بن يوسف بن نصر وآخرهم محمد بن سعد ، وأول ملوك بني مرين ملوك المغرب الأقصى عبد الحق وآخرهم عبد الحق ، فانظر كيف توافقت أسماء ملوك هذه الدول وأسماء ملوك آخرها ، وذلك بتقدير الله وتدبيره فإنه سبحانه وتعالى له في كل شيء حكمة ، بل ما من ذرة في العالم إلا وهي مشتملة على حكمة ، بل على حِكَم كثيرة ، وكلُّ ذلك بتقدير العزيز العليم ، وسيأتي ذكر ما تملكه التتر بعد بغداد .

وهلك هلاكو بن طولي بن جنكزخان سنة ثلاث وستين وسبعمئة ، وترك خمسة عشر ابناً ، وملك بعده ابنه أبغا البلادَ التي كانت بيد أبيه وهي إقليم خراسان وكرسيه نيسابور ، وإقليم عراق العجم ويعرف ببلاد الجبل وكرسيّه أصفهان ، وإقليم عراق العرب وكرسيّه بغداد ، وإقليم أذربيجان وكرسيّه تبريز ، وإقليم خوزستان وكرسيّه تُسْتَر وتسميها العامة تشتر ، وإقليم فارس وكرسيّه شيراز ، وإقليم ديار بكر وكرسيّه الموصل ، وإقليم الروم وكرسيّه قونية ، وغيرها مما ليس في الشهرة مثل هذه الأقاليم العظيمة ، ومدة ملك هلاكو عشرون سنة .

قال ابن الوردي : قلت مات هلاكو على دينه بعلة الصرع وبنوا على قبره قبة بقلعة تلا ، وفي تاريخ الذهبي أنه هلك سنة ٦٦٤ ، اهـ كلام ابن الوردي .

وفي تاريخ القرماني ما نصه : ذكر الذهبي في تاريخه أن هلاكو سفك دم ألف ألف أو يزيدون ، فهل يقدر المؤرخون أن يجمعوا ويصفوا سوء أفعاله ؟ ومع هذا فإن الله تعالى قد وفّقه للإسلام ، إلا أن الكفار المغولية ميّلوه إلى دين المجوسية فانقاد إليهم ، وقصد الممالك الإسلامية بالسوء ، ثم نزل القرماني .

ذكر البيضاوي في تاريخه أن الله تبارك وتعالى ألهم إلى بعض أوليائه بفيض فضله أن يظهر شيئاً من الكرامات المحمدية عند هلاكو ، منهم أبو يعقوب ومحمد خواجا دَرْبندي قدس الله سرهما ، فحضرا عند هلاكو ، ودخلا النار وشربا السموم والنحاس المذاب ، فلما عاين هلاكو ذلك رجع عن الكفر والزندقة وخاف من الأولياء وعظّم الملة الإسلامية وأهلها ، وأسلم ومات بعلة الصرع في بلد مَرَاغة ، ونقل إلى قلعة تلا ودفن بها وبني عليه قبة .

ولم يذكر إسلامه ابن خلدون ولا الملك المؤيد ولا ابن الشحنة فليحرر ذلك ، وإنما الذين ذكروا إسلامَ أحمد بن أبغا بن هلاكو ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء : ولما فرغ هلاكو من قتل الخليفة وأهل بغداد أقام على العراق نوابه ، وحَسَّنَ لهم ابن العلقمي أن يقيموا خليفة علوياً ، فلم يوافقوه وأطّرحوه وصار لهم في صورة بعض الخدام والغلمان ، ومات كمداً لا رحمه الله ولا عفا عنه ، ثم بعد تملكهم بغداد كتب هلاكو للملك الناصر صلاح الدين بن أيوب ، وكان ملك دمشق الملك الناصر المذكور ، فكتب له هلاكو ثلاث مرات يأمره بالدخول في طاعته ويتهدده ويذكر له تملكه لأكثر البلاد وما فعله بأهل الإسلام ، فكاتبه الملك الناصر وصانعه وأرسل له هدايا ليعلمه بعجزه عن ملتقى التتر .

ذكر مسير التتر إلى مَيَّافارقين في البلاد الشامية

وفي سنة ٥٥ أيضاً قصدت التتر ميافارقين بعد استيلائهم على بغداد ، وكان صاحب ميافارقين حينئذ الملك الكامل محمد بن الملك المظفر غازي بن الملك العادل

أبي بكر بن أيوب ، فحاصره التتر وضايقوا ميافارقين مضايقة شديدة ، وصبر أهل ميافارقين مع الملك الكامل على الجوع الشديد ، ودام ذلك سنتين ، حتى عجزوا وسلموا ، فملك ميافارقين والبلاد والجزيرة ، وسيّر هلاكو جيوشه إلى حلب والديار الشامية ، وارتجت الأرض منهم وتزلزلت الناس في جميع الأرض ، وسار في سنة سبع وخمسين إلى خدمة هلاكو عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان ابنا كيخسرو السلجوقي صاحب الروم ، وأقاما معه مدة ، ثم عادا إلى بلادهما ، وكذلك صانع هلاكو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وحمل إليه الأموال ، ووصل إلى خدمة هلاكو بعد أخذ بغداد .

وفي سنة ٥٧ أيضاً نازل هلاكو شرقي الفرات وحران وملكهما وأرسل ولده سموط بن هلاكو إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب في أواخر ذي الحجة من سنة ٥٧ ، وكان الحاكم في حلب الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين نائباً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف ، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ، ولم يكن من رأيه الخروج ، وأكمن لهم التتر عند الباب المعروف بباب الله ، وتقاتلوا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد ثم عادوا عليهم ، وهرب المسلمون ، وخرج كمين التتر ، فطلب المسلمون دخول حلب هاربين ، والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين ، ثم رحل التتر إلى أعزاز فتسلموها بالأمان .

وفي تاسع صفر من سنة ثمان وخمسين استولت التتر على حلب ، وذلك أن هلاكو حصرها بجيوشه إلى أن ملكوها ، وقُتِل من المسلمين خلق كثير ، وصعد إلى القلعة خلق ، ودام القتل والنهب نحو أسبوع ، ثم نادى هلاكو بالأمان ، ولم يسلم من القتال إلا جماعة كانت بأيديهم فرامانات بالأمان من التتر ، ولما فتحت حلب وصل كبراء حماة إلى حلب بمفاتيح حماة وحملوها إلى هلاكو فأمنهم وأرسل إليهم بشِحنة ، والشِّحْنة بالكسر : ضابط البلد ، وفي الفارسي بالفتح .

ولما بلغ الناصر وهو بدمشق أخذُ حلب رحل بعساكره إلى الديار المصرية ومعه المنصور صاحب حماة ، ثم وصل التتر إلى نابلس واستولوا عليها ، ثم استولوا على دمشق وسائر الشام إلى غزة ، وشحنوا البلاد ، وقدم على هلاكو صاحب حمص فقبله

وأعادها إليه ، ثم رحل هلاكو إلى حارم ، فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب ، فأحضر وسلمت إليه ، فغضب هلاكو وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم وسبى النساء ، ثم عاد هلاكو إلى الشرق .

وتقدم أن ميافارقين ملكوها بعد محاصرتها سنتين وصاحبها الكامل محمد بن المظفر غازي الصابر ثابت حتى ضعف من عنده عن القتال ، فاستولوا عليها في هذا الوقت وقتلوه وطافوا برأسه في البلاد بالمغاني والطبول ، وعلق رأسه بباب الفراديس من أبواب دمشق ، فلما عادت دمشق للمسلمين دفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس .

وأما دمشق فملكوا المدينة بالأمان فما نهبوا ولا قتلوا وعصت قلعتها فنصبوا عليها المجانيق ، ثم تسلموها بالأمان ونهبوا ما فيها وخربوا سور القلعة وأحرقوا آلاتها وزردفاناتها ، ثم نازلوا قلعة بعلبك ، ثم ملكوها وخربوا قلعتها ، وكانوا اعتقلوا نقيب قلعة دمشق وواليها ، ثم بعد شهرين ضربوا أعناقهما ، ثم إن العساكر الإسلامية اجتمعت بمصر ، وسار بهم الملك المظفر قطز ملك مصر يريدون الشام لقتال التتر ، وبلغ ذلك كتبغا نائب هلاكو على الشام ، فجمع من الشام من التتر وسار إلى قتال المسلمين ، فالتقوا عند عين جالوت واقتتلوا ، فانهزمت التتر هزيمة قبيحة ، وأخذتهم سيوف المسلمين ، وقتل مقدمهم كتبغا ، وقدر الله كمال النصر للمسلمين بهذه الهزيمة ، واسترجع المسلمون دمشق وغيرها مما ملكوه من الديار الشامية بعد حصول اليأس من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه ، وكان النصر والفتح العظيم يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمئة .

ولما أراد الملك قطز أن يتجهز من مصر للخروج لقتال التتر بالشام أراد أن يأخذ من الناس شيئاً من المال يستعين به على قتالهم ، فجمع العلماء فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقال : لا يجوز أن يؤخذ من الرعية شيء حتى لا يبقى في بيت المال شيء ، وتبيعوا ما لكم من الغوائص والآلات ، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتساووا في ذلك هم والعامة ، وأمّا أَخْذُ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا ، ذكره في حسن المحاضرة للجلال السيوطي .

وذكر الإمام النووي أنه أفتى بيبرس المتولي بعد قطز بمثل ما أفتى به العز بن عبد السلام ، وأرسل له الفتوى من الشام ونص المقصود من ذلك ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع أو غير ذلك ، قال : وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا .

قال الجلال السيوطي : فلما أراد السلطان الظاهر بيبرس الخروج إلى الشام لقتال التتر أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ، فكتب له فقهاء الشام بذلك ، فقال : هل بقي أحد ؟ فقيل نعم بقي الشيخ محيي الدين النووي ، فطلبه فحضر ، فقال : اكتب خطك مع الفقهاء ، فامتنع ، فقال : ما سبب امتناعك ؟ فقال : أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ، ثم مَنَّ الله عليك وجعلك ملكاً ، وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كلٌّ مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مئة جارية ، لكل جارية حق من الحلي ، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً عن الحوائص وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي ، أفتيتك بأخْذِ المال من الرعية ، فغضب السلطان الظاهر بيبرس من كلامه ، وقال : اخرج من بلدي يعني دمشق ، فقال : السمع والطاعة ، وخرج إلى نَوى ، فقال الفقهاء : إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ممن يُقْتدى به فأعِدْه إلى دمشق ، فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ ، وقال : لا أدخلها والظاهر فيها ، فمات الظاهر بعد شهر .

قال الحافظ الذهبي : كان الظاهر بيبرس خليقاً للملك لولا ما كان فيه من الظلم ، قال : والله يرحمه ويغفر له فإن له أياماً بيضاً في الإسلام ومواقف مشهودة وفتوحات معدودة .

وقال أيضاً في حسن المحاضرة في موضع آخر : وكان في الظاهر بيبرس محاسن وغيرها وظلم أهل الشام غير مرة ، وأفتاه جماعة بموافقة هواه ، فقام الشيخ محيي الدين النووي في وجهه وأنكر عليه ، وقال : أفتوك بالباطل ، وكان بمصر متقمعماً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره ، حتى إنه قال لما مات الشيخ عز الدين : ما استقر ملكي إلاّ الآن .

ومن محاسنه ما حكاه ابن كثير في تاريخه أنه حضر إلى دار العدل في محاكمة في بئر بين يدي القاضي تاج الدين بن بنت الأعز ، فقام الناس له لما جاء سوى القاضي فإنه أشار إليه أن لا يقوم ، فقام هو وغريمه بين يدي القاضي وتداعيا ، وكان الحق بيد السلطان وله بينة عادلة به ، فانتزعت البئر من يد الغريم وهو أحد الأمراء .

ومن محاسن الظاهر بيبرس أنه أكمل عمارة المسجد النبوي من الحريق المتقدم ذكره ، وصنع منبراً للمسجد النبوي وحج في سنة سبع وستين ، فغسل الكعبة بيده بماء الورد ، وزاد المدينة الشريفة فرأى الناس يلتصقون بالقبر ، فقاس ما حوله بيده وأرسل في العام الذي يليه دربزان من خشب ، فأدير حول القبر الشريف .

ذكر عود التتر إلى الشام

لما وصل الخبر إلى التتر بانهزام عساكرهم من الشام وخروجه من تحت أيديهم ، جهزوا جيشاً من سنتهم تلك ، ووصلوا إلى حلب في آخر السنة أعني سنة ثمان وخمسين وستمئة ، وملكوها وبذلوا السيف في أهلها وأفنوا غالبهم وسلم القليل منهم ، واجتمع كثير من عساكر الإسلام بحمص ، وسار إليهم التتر فالتقوا بظاهر حمص خامس المحرم من سنة تسع وخمسين وستمئة ، وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير ، ففتح الله على المسلمين بالنصر وولى التتر منهزمين ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاؤوا ، وسار من سلم من التتر إلى أفامية ، فقاتلهم المسلمون عندها ، فرحلوا وتوجهوا إلى الشرق .

مبايعة شخص بالخلافة وإثبات نسبته

في شهر رجب من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وستمئة قدم شخص إلى مصر من بني العباس الذين سلموا في بغداد من قتل التتر واسمه أحمد بن الظاهر بن الناصر ، فعقدوا له مجلساً بمصر حضره العز بن عبد السلام وغيره من العلماء والسلطان الظاهر بيبرس ، وأثبتوا نسبه ، وعلى هذا يكون عَمَّ المستعصم ، وجاء جماعة من العرب العارفين به فشهدوا بنسبه ، فبايعه الملك السلطان بيبرس والعلماء والناس بالخلافة ، واهتم الملك الظاهر بأمره واحتفل به وجهز معه عساكر كثيرة ، ووجههم لقتال التتر

طمعاً أنه يستولي على بغداد ، ثم جاءت الكتب منه أنه استولى وعساكره على عانة والحديثة ، وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم ، ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليها التتر وقاتلوا الخليفة المذكور وقتلوه وقتلوا غالب أصحابه ونهبوا ما كان معهم ، وجاءت الأخبار إلى مصر بذلك في آخر السنة المذكورة .

وفي آخر سنة ستين من ذي الحجة حضر أيضاً شخص آخر من بني العباس الذين سلموا من قتل التتر اسمه أيضاً أحمد بن حسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر ، فأثبتوا نسبه ، وبايعه السلطان بيبرس والعلماء ولقبوه الحاكم بأمر الله ، وأشركه السلطان في الدعاء لا غير ، وبقي عقبه بمصر يبايعهم السلاطين وليس بيده من الملك والتصرف شيء ، بل الأمر بيد السلاطين المتملكين مصر ، واستمر ذلك إلى دخول السلطان سليم بمصر سنة تسعمئة واثنتين وعشرين .

وفي سنة إحدى وستين وستمئة جهز الملك الظاهر عساكره من مصر ، وغاروا على عكا وأعمالها وهي بيد الفرنج ، فغنموا وعادوا ، ثم ركب الملك الظاهر بنفسه ومعه جماعة اختارهم وأغار ثانياً على عكا وبلادها وهدم برجاً كان خارج البلد وهدم الكنيسة المسماة بالمناصرة ، وكانت من أكبر مواطن عبادات النصارى ؛ لأن منها خرج دين النصرانية ، وتوجه عسكر كثير إلى أنطاكية وبلادها وهي أيضاً بيد الفرنج ، فساروا إليها وأغاروا على أطرافها وضايقوها وعادوا ومعهم ما ينوف على ثلاثمئة أسير .

وفي سنة ثلاث وستين سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره المتوافرة إلى جهاد الفرنج بساحل الشام ، ونازل قيسارية وضايقها وفتحها بعد ستة أيام ، وأمر بها فهدمت ، ثم سار إلى أَرْسُوف وفتحها .

وفي سنة أربع وستين سار من مصر بعساكره المتوافرة إلى الشام وجهز عسكره إلى ساحل طرابلس الشام ، وكانت بيد الفرنج ، ففتحوا القليعات وعرقا ، ونزل هو على صفد وضايقها بالزحف وآلات الحصار ، ولاصق الجند القلعة ، وكثر القتل والجراح في المسلمين ، ثم فتحها وقتل أهلها عن آخرهم ، ثم بعث كثيراً من العساكر إلى بلاد سيس يقتلون ويأسرون كيف شاؤوا .

وفي سنة ثلاث وستين هلك هلاكو بن طولي بن جنكزخان واستقر ولده أبغا على

ما كان بيده من الممالك ، واستمر إلى سنة إحدى وثمانين وهلك ، واستقر بعده أخوه تكدار بن هلاكو ، ثم أسلم وتسمّى أحمد ، وخاطب بذلك الملوك الكثيرة في عصره وأرسل إلى مصر يخبرهم ويطلب المساعدة ، وسار يأمر التتر بالإسلام ، فثار لذلك فتنة بين التتر مع بعضهم إلى أن قتلوا أحمد المذكور سنة اثنتين وثمانين وستمئة ، وتملّك أرغو بن أبغا ، وعدل عن دين الإسلام وأحب دين البراهمة من عبادة الأصنام وانتحال السحر والرياضة ، وأصابه داء الصرع ، وهلك سنة تسعين ، وتملّك كتخاتوا بن أبغا إلى سنة ثلاث وتسعين فقتل ، وتملّك بيدوا بن طرغاي بن هلاكو ، وقتل سنة خمس وتسعين ، وتملّك ابن أرغو بن أبغا بن هلاكو سنة ثلاث وسبعمئة ، فولي بعده أخوه خربند بن أرغو ، وابتدأ أمره بالدخول في الإسلام وتسمى بمحمد وتلقب غياث الدين ، ثم صحب الروافض وساء اعتقاده ، وحذف ذكر الشيخين من الخطبة ، ونقش أسماء الأئمة الاثني عشر على سِكَّتِهِ ، ثم أنشأ مدينة قزوين وهمذان وسماها السلطانية ، ونزلها ، واتخذ فيها بيتاً لطيفاً بلِبْنٍ من الذهب والفضة ، وأنشأ بإزائها بستاناً جعل فيه أشجار الذهب بثمر اللؤلؤ والفصوص ، وأجرى اللبن والعسل أنهاراً ، وأسكن فيه الغلمان والجواري تشبيهاً له بالجنة ، وأفحش في التعرض لحرمات قومه ، وهلك مسموماً سنة ست عشرة وسبعمئة ، وخَلَّف ابنه أبا سعيد طفلاً ابن ثلاث عشرة سنة ، فبويع له وأظهر الإسلام واستقامت الأمور بواسطة وزير لأبيه يسمى جوبان ، واستمر أبو سعيد إلى أن مات سنة ست وثلاثين وسبعمئة ، وكان قد انعقد صلح بينه وبين ملك مصر الملك الناصر قلاوون سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة ، وحج الأكابر من قرابة أبي سعيد ملك التتر بالعراقيين ، واتصلت المهاداة بينه وبين الملك الناصر ، ولما مات أبو سعيد لم يعقّب ، واختلف أهل دولته وانقرض الملك من بني هلاكو ، وافترقت الأعمال التي كانت في ملكهم وأصبحت طوائف في خراسان وفي عراق العجم وفارس وأذربيجان ، وكذلك في بلاد الروم .

ولما هلك أبو سعيد سنة ست وثلاثين نصب أمراء قومه الوزير غياث الدين والملك موسى خان من أسباطهم ، وقام بدولته الشيخ حسن بن حسين بن بيبقا بن أملكان وهو ابن عمة السلطان أبي سعيد ، فتغلّب وتمكن الشيخ حسن ، وصار الملك والحل والعقد بيده إلى أن توفي سنة سبع وخمسين وسبعمئة ، فولي مكانه ولده أويس ،

وتوفي سنة ست وسبعين وسبعمئة ، وتملك ابنه حسين بن أويس ، ثم تغلب عليه أخوه أحمد بن أويس إلى سنة خمس وتسعين وسبعمئة ، فجاء تيمورلنك بجموعه وملك العراق وبغداد ، فقدم أحمد بن أويس على سلطان مصر السلطان برقوق مستجيراً به مستصرخاً به على طلب ملكه ، وكان ذلك في ربيع سنة ست وتسعين وسبعمئة ، فأجاب صريخه في عسكره بالتجهيز ، وسيأتي إتمام الكلام على ذلك عند ذكر تيمورلنك ، وذكرنا ملوك التتر متتابعين إلى آخرهم ليتصل الكلام ببعضه .

ولنرجع إلى ذكر بقية فتوحات الملك الظاهر مع بقية محاربات التتر وملوك مصر بالشام .

ذكر فتح يافا وأنطاكية وعكا

في سنة ست وستين وستمئة توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة إلى الشام ، وفتح يافا وأخذها من الفرنج ، ثم توجه إلى أنطاكية ونازلها وشدد الحصار عليها إلى أن ملكها بالسيف ، وقتل أهلها وسبى الذراري والنساء ، وغنم أموالاً جليلة ، ثم توجه إلى بغراس فملكها .

وفي سنة تسع وتسعين نازل حصن الأكراد إلى أن ملكه ، ثم رحل إلى حصن عكا ونازله وجدّ في قتاله إلى أن ملكه ، ثم توجه إلى حصن القرين ونازله وملكه .

وفي سنة سبعين وستمئة أغارت التتر على عينتاب وعلى سروج وقميطلون وأمينهوا إلى قرب أُفاقّة ، ثم رجعوا ثم نازلوا البيرة ونصبوا عليها المجانيق وضايقوها ، فسار إليهم الملك الظاهر بيبرس وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة ، فقاتله التتر على المخاضة ، فاقتحم الفرات وهزم التتر ، فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار فصارت للمسلمين .

وفي سنة ثلاث وسبعين توجه الظاهر بيبرس إلى بلاد سيس فدخلها بعساكره المتوافرة فغنموا ، ثم رجعوا إلى دمشق .

وفي سنة ٦٧٤ قصد التتر البيرة ونازلوها ، فتوجه إليهم الملك الظاهر بعساكره ، فلما سمعوا به ارتحلوا .

وفي سنة ٧٥ غزا الملك الظاهر بلاد الروم بعساكره المتوافرة ، والتقى في طريقه بجيش من التتر فقاتلهم وهزمهم وقتل كثيراً منهم وقتل مقدمهم ، وأسر كثيراً منهم ، ثم سار إلى قيسارية فملكها ، ثم سار إلى عمق حام يقتل ويأسر ، ثم عاد إلى دمشق .

وفي سنة ٧٥ أيضاً كان ابتداء عمل المحمل في مدة الملك الظاهر بيبرس يطوفون به في مصر قبل خروجه لترغيب الناس في الحج وتهييجهم ، ثم يسافرون به مع كثير من الحجاج من طريق البر ، وعند رجوعهم يزورون النبي ﷺ .

وفي سنة ٦٧٦ حج الملك الظاهر بنفسه وزار النبي ﷺ ، وتصدق بصدقات كثيرة

على أهل الحرمين ، وغسل الكعبة بيده ، ثم رجع ، ثم توفي في الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦ ، ومدة ملكه نحو ١٧ سنة ، وولي بعده ولده الملك السعيد بركة ، وخلع سنة ٨٧ ، وولي ولده الآخر سلامش وخلع بعد شهرين ، وولي الملك المنصور قلاوون الصالحي ، وكل هؤلاء يقال لهم المماليك البحرية ، ويقال لدولتهم الدولة التركية ، والذين بعدهم يقال لهم الجراكسة إلى أن تملك مصر السلطان سليم .

والحاصل أن ملوك مصر بعد الفاطميين الملوك الأيوبية ، وأولهم السلطان صلاح الدين ، وآخرهم الملك الأشرف موسى بن يوسف بن الملك المسعود قسيس بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، والملك العادل أخو السلطان صلاح الدين توارث الملك بنوه بعده إلى سنة ٦٤٨ ، وكانوا استكثروا من المماليك البحرية فتغلبوا على الملك وصار فيهم بعد ساداتهم ، وبقي الملك في المماليك البحرية ١٣٦ سنة من سنة ٦٤٨ إلى ٧٨٤ ، وعدد ملوكهم ٢٤ وكان لهم مماليك من الجراكسة فتغلبوا على الملك ، وأول ملوك المماليك البحرية عز الدين أيبك ، وآخرهم الملك الصالح شعبان بن الحسين بن الناصر قلاوون .

وملوك الجراكسة هم مماليك المماليك البحرية ، وأولهم الملك الظاهر برقوق ، وآخرهم قانصوه الغُوري ، ومدة ملك الجراكسة ٨٨ سنة من سنة ٧٨٤ إلى سنة ٨٨٢ ، وعدد ملوكهم ٢٣ .

والسبب الجاري بتقدير الله تعالى لتملك المماليك البحرية أنه في آخر الدولة الأيوبية كان هجوم الفرنسيس على دمياط وتملكهم إياها ، وكان ملك مصر بيد الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ، فمرض ومات وأوصى بالملك لولده توران شاه وكان غائباً في قلعة حصن كيفا ، وكانت زوجة الملك الصالح شجرة الدُر أم ولده خليل مدبرة للأمور ، فأخفت موت الملك الصالح وأقامت على ذلك مدة وهي قائمة بالأمر والنهي ، إلى أن حضر ولده توران شاه وقاتل الفرنسيس وهزمهم وقتل منهم أكثر من مئة ألف ، وأسر ملكهم كما تقدم ذلك كله ، ثم شرع في إبعاد مماليك أبيه وإهانتهم ، وكانوا هم الأمراء ، فاتفقوا على قتله وقتلوه ، ثم اتفقوا على إعطاء السلطنة لشجرة الدر ، فكانت تعلم على المناشير ويدعى لها على المنابر ، فكان الخطيب يقول بعد الدعاء للخليفة : واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين

عصمة الدنيا والدين أم المستعصم صاحبة السلطان الملك الصالح ، ويكتب اسمها على السكة ٨٠ يوماً ، وجعلت النائب عنها في الأحكام عز الدين أيبك وهو من مماليك الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ، ثم أطلقت ملك الفرنسيس بشروط كما تقدم ، ثم تزوجت بنائبها ، فجاءهم مكتوب من بغداد من الخليفة العباسي يوبخهم فيه على تمليك امرأة ، ويقول لهم : إن لم يكن عندكم رجل نرسل إليكم رجلاً يتولى عليكم ، فاتفقوا على أن يملّكوا رجلاً من بني أيوب ، فملّكوا الملك الأشرف موسى المتقدم ذكره ، وكان صغيراً وأشركوا معه شجرة الدر ونائبها عز الدين أيبك ، ثم خلعوا الملك الأشرف وجعلوا السلطنة لعز الدين أيبك استقلالاً ، ثم إنه أراد أن يتزوج ببنت ملك الموصل فشقّ ذلك على زوجته شجرة الدر ، فاتفقت مع الطواشي محسن الجوهري على قتل عز الدين أيبك فهجموا عليه في الحمام فقتلوه ، فلما سمع مماليكه بقتله عزموا على قتل شجرة الدر فسبقتهم زوجة عز الدين أم ولده ، فدخلت هي وجواريها على شجرة الدر فقتلوها بالقباقب وأقاموا في السلطنة نور الدين ولد عز الدين أيبك وعمره عشر سنين ، وجعلوا النائب عنه أحد مماليك أبيه وهو الأمير قطز ، ثم لما هجم التتر على الأقطار الشامية استحسن أهل الحل والعقد أن يخلع الملك الصغير نور الدين وأن تكون السلطنة استقلالاً للأمير قطز يستقل بتدبير الملك والقيام بقتال التتر ، فأقاموا قطز في السلطنة ولقبوه الملك المظفر ، وخلعوا نور الدين بن عز الدين أيبك ، ثم خرج الملك المظفر قطز بالعسكر إلى الشام لقتال التتر ، فالتقى معهم عند عين جالوت من أرض كنعان فقاتلهم قتالاً شديداً إلى أن هزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً ، وتعلق المنهزم منهم برؤوس الجبال وأخذتهم سيوف المسلمين ، وقتل مقدمهم وأسر ابنه ، وأرسل قطز خلفهم بيبرس ومعه عسكر ، فتبعهم إلى أطراف البلاد ، وأتم المظفر قطز السير بالعساكر إلى دمشق ، وتضاعف شكر العالم لله تعالى على هذا النصر العظيم من بعد اليأس من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، لأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه ، وكان القتال مع التتر وهزيمتهم يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمئة .

وفي يوم دخول قطز دمشق شنق جماعة من المسلمين المنتسبين للتتر ، ولما قرر قطز أمر الشام وحلب وغيرها سار من دمشق بالعساكر راجعاً إلى مصر ، وكان الأمير

بيبرس سأله أن يوليه حلب فامتنع ، فاتفق مع بعض الذين كانوا مع قطز على قتله وساروا معه إلى دمشق يترقبون الفرصة ، فلما وصل إلى موضع بينه وبين الصالحية مرحلة ، وقد خرج النائب بمصر مع العساكر الذين بمصر لاستقبالهم من الصالحية ، فبينما الملك قطز سائر إذ ثارت أرنب بين يديه فساق جواده خلفها ، وساق معه بيبرس والذين تواطؤوا معه على قتل قطز وأبعدوه عن العساكر السائرة معهم ، ثم وقفوا فتقدم واحد منهم وشفع عند قطز في إنسان ، فأجابه إلى ذلك ، فأهوى ليقبل يديه وقبض عليها فحمل عليه بيبرس وضربه بالسيف ، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه ، وكان ذلك سابع ذي القعدة من السنة المذكورة .

ثم سار بيبرس ومن معه حتى وصلوا الصالحية فوجدوا العساكر التي خرجت من مصر لاستقبالهم ومعهم نائب السلطنة فارس الدين أقطاي ينتظرون قدوم الملك قطز ، فلما علم نائب السلطنة الخبر منهم سألهم من قتله منكم ؟ فقال له بيبرس : أنا . فقال نائب السلطنة : يا خوند اجلس في مرتبة السلطنة ، ومعنى خوند : الكبير الشأن ، فجلس واستدعى العساكر للتحليف فحلفوا له واستقر الملك لبيبرس ، ثم ساق وسبق العساكر إلى قلعة الجبل ففتحت له ودخلها ، وكانت مصر قد زينت لقدوم قطز ، فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس ، فسبحان من يدير ملكه كيف شاء ولا يسأل عما يفعل فإن له في كل شيء حكمة .

وكان بيبرس في الأصل مملوكاً لأيدكين البندقدار الصالحي ، ثم اشتراه الملك الصالح نجم الدين بن أيوب .

قال ابن الوردي في تاريخه : إن الملك الظاهر بيبرس كان على قدم الديانة ، وكان ملازماً للخمس في أوقاتها وألزم حاشيته بها ، وحكي عنه أنه ما شرب خمراً قط ومنع كل مسكر ، وكان يحصل من مكس المسكر بمصر كل يوم ألف دينار فأبطله ، ولما حج رؤي بباب الكعبة محرماً يأخذ بأيدي ضعفاء الرعية ليصعدوا ، وعمل الستور الديباج للكعبة والحجرة النبوية ، وخطب مرة المجد إسماعيل الواسطي والسلطان بيبرس حاضر ، فقال في الخطبة : أيها السلطان إنك لن تدعى يوم القيامة يا أيها السلطان ، لكن تدعى باسمك ، وكلٌّ منهم يُسأل عن نفسه إلا أنت فإنك تُسأل عن رعاياك ، فاجعل كبيرهم أباً وأوسطهم أخاً وصغيرهم ولداً ، فاستعذب وعظه وأجزل عطاءه وكان

له في السنة عشرة آلاف إردب تفرق على الفقراء والمساكين ، ووقف أوقافاً على جهات عديدة ، واستن سنن المعمرين ، ونصب للناس خيمة ، وفتح أنطاكية وبغراس والقصير وحصن الأكراد وحصن عكا والهرين وصافيتا ومرقبة ، وأمنت لهيبته السبل ويكفيك فعله بالتتر بعين جالوت وخوضته إليهم غمرات الموت مرات فشكر الله سعيه

وإنما ذكرت مبدأ دولة المماليك البحرية والجراكسة إلى آخر ما تقدم استطراداً ، وإن كان خارجاً عما التأليف بصدده تكثيراً للفوائد ، ولما في ذلك من الاعتبار لذوي الأبصار ، والله ولي التوفيق . ولنرجع إلى ما نحن بصدده .

في سنة ثمانين وستمئة جاءت جيوش من التتر إلى البلاد الشامية ، وكان ذلك في مدة سلطنة الملك المنصور قلاوون بمصر ، فخرج لقتالهم فكان المصافّ العظيم بين المسلمين والتتر بظاهر حمص ، فنصر الله المسلمين بعدما كانوا أيقنوا بالبوار ، وانهزم التتر هزيمة قبيحة ، وكثر القتل والأسر فيهم ، وكان عدة جيش التتر ثمانين ألفاً ، وعاد السلطان إلى دمشق والأسرى والرؤوس بين يديه . .

وفي سنة أربع وثمانين وستمئة سار الملك المنصور قلاوون بعساكره ونازل حصن المرقب وهو حصن في غاية العلو والمتانة والحصانة ، لم يطمع به أحد من الملوك الماضين في فتحه ، فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجارون في النقب ونصبت عليه عدة مجانيق ، فلما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الأمان فأجابهم السلطان رغبة في إبقاء عمارته لو أخذه بالسيف لهدمه ، فيحصل التعب في إعادة عمارته ، فأعطى أهله الأمان على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح ، وتسلم الحصن وقرر أمره ورتبه وارتحل إلى الوطأة بالساحل ، وأقام سنة ست وثمانين ، ونزل تحت حصن الأكراد ، ثم سار ونزل على بحيرة حمص . وفي بمروج .

ثم سار بين سار إلى قلعة صهيون ونصب عليها المجانيق وضايقها بالحصار فأجابه صاحبها إلى تسليمها بالأمان فتسلمها ، ثم سار إلى اللاذقية وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع الجهات فركب طريقاً إليه في البحر بالحجارة وحاصر البرج المذكور ، ثم تسلمه بالأمان وهدمه ، ثم رجع إلى مصر وأرسل جيشاً إلى النوبة فغنموا وعادوا .

وفي سنة ثمان سار السلطان بعساكره ونازل طرابلس الشام ، وكانت بيد الفرنج ، ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار ، وشدد عليها القتال حتى فتحها بالسيف ، ودخلها العسكر عنوة ، فهرب بعض أهلها إلى المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم ونساؤهم ، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة ، وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة فهرب إليها كثير من الفرنج رجالاً ونساء ، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة ، فقتلوا من فيها من الرجال ، وسبوا من فيها من النساء والصغار ، وغنموا ما فيها من الأموال ، وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس الشام سنة ثلاث وخمسمئة ، فبقيت في أيديهم إلى هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وستمئة ، فتكون مدة لبثها مع الفرنج مئة سنة وثمانين سنة وشهوراً ، وتوفي الملك المنصور قلاوون سنة تسع وثمانين ، وأقيم في السلطنة بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل .

ذكر فتح عكا

في سنة تسعين وستمئة جهز السلطان صلاح الدين خليل بن قلاوون عساكره الوافرة لتفتح عكا وصحب معه المجانيق وآلات الحصار ، فنازلها وشدد عليها القتال ، ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها ، واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى ظهر يوم الجمعة السابع عشر من شهر جمادى الآخرة بالسيف ، ولما هجمها المسلمون هرب جماعة ممن كانوا فيها من الفرنج إلى المراكب وقتل المسلمون من بقي منهم بعكا ، وكانوا كثيرين ، وغنموا ما يفوت الحصر ، ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من السلطان صلاح الدين الأيوبي ظهر الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمئة واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم ، فبقيت تحت أيديهم مئة سنة وثلاث سنين ، فقدر الله في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان صلاح الدين ، فكان فتحها في مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه ، وكذلك لقب السلطانين إذ كل منهما يلقب صلاح الدين ، وتقدم التنبيه على ذلك عند ذكر أخذ الفرنج لها .

ذكر فتوح عدة حصون

لما فتحت عكا ألقى الله الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام ، فأخلوا صيدا وبيروت وتسلمها المسلمون وهرب أهل مدينة صور ، فأرسل السلطان من تسلمها ، ثم تسلم عتليت ثم أَنْطرسوس ، واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب ، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام ، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام ، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق والشام ، فَلِلَّه الحمد والمِنّة على ذلك .

وقد تقدم فتح حلب سنة أربع وستين ، وكان التتر قد خربوا قلعتها فأمر السلطان بعمارتها ، فتمت في سنة إحدى وتسعين ، وكان تخريبها في سنة ثمان وخمسين ، فكان لبثها على التخريب نحو ثلاث وثلاثين سنة .

ذكر فتح قلعة الروم

هي قلعة على جانب الفرات في غاية الحصانة ، سار إلى فتحها السلطان صلاح الدين قلاوون في سنة إحدى وتسعين بكثير من الجيوش ونصب عليها المجانيق ، واشتدت مضايقتها ، ودام حصارها وفتحت بالسيف ، وقتل أهلها وسبيت ذراريهم ، واعتصم جماعة من أهلها بالقلعة ، فحوصروا ورمي عليهم بالمنجنيق ، فطلبوا الأمان فلم يؤمنهم إلا على أرواحهم خاصة وأن يكونوا أسرى ، فأجابوا إلى ذلك ، ثم أمر السلطان بعمارة القلعة ورجع إلى دمشق .

وفي سنة ثلاث وتسعين قُتِل السلطان صلاح الدين قتله بعض مماليك أبيه ، وتسلطن بعده أخوه الملك الناصر .

وفي سنة سبع وتسعين وستمئة تجهزت العساكر من مصر ، ثم ساروا إلى الشام ، ثم ساروا إلى بلاد سيس وشنوا عليهم الغارات وكبسوهم وغنموا وعادوا ، ثم ساروا مرة أخرى ونزلوا على حمص وحاصروها وضيقوا على أهلها ، وكان بها من الأرمن جمع كثير ، فقلَّ عليهم الماء واشتد بهم العطش ، وهلك النساء والأطفال ، فأخرج

أهل حمص منها نحو ألف ومئتين من النساء والأطفال ، فتقاسمهم العساكر ، واستمر الحصار فضاقت على الأرمن الأرض وهلكوا من كثرة من قتل منهم ، وغنم منهم المسلمون غنائم كثيرة ، فطلبوا الأمان وسلموا حمص وحماة وجميع البلاد التي في جنوبي نهر جيحان ، ثم سلمت تل حمدون بعدها ثم باقي الحصون في شتاء سنة سبع وتسعين وستمئة ، فرتب المسلمون فيها من يقوم بها ويحميها .

وفي سنة تسع وتسعين وستمئة أقبلت التتر بجموع كثيرة وعبروا الفرات إلى حلب ثم إلى حماة ، فخرجت لهم جموع المسلمين والتقوا بمجمع الروم من شرقي حمص واقتتلوا قتالاً شديداً وانهزمت جيوش المسلمين وساق التتر خَلفَهم إلى غَزّة والقدس وبلاد الكرك وغنموا من المنهزمين شيئاً كثيراً ، وأخذ أهل دمشق الأمان ، وملكه التتر وعصت عليه القلعة فحصروها ، فصبر المسلمون على الحصار ولم يسلموها ، وأحرقت الدور التي حول القلعة والمدارس ، ثم إن عساكر مصر لما وصلوا إلى مصر رسم لهم بالنفقة ، فأنفق السلطان عليهم أموالاً جليلة وأصلحوا أحوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم وخرجوا من مصر في العشر الأول من رجب من سنة تسع وتسعين ، وكاتبوا المسلمين الذين بالشام في السر وصاروا معهم ، فلما خرجت العساكر من مصر بلغ ذلك التتر فخافوا وساروا من وقتهم إلى الديار الشرقية ، وخلا الشام منهم ، فوصلت العساكر الإسلامية إلى الشام ، ورتبوا أمراءها وغيرهم وفعلوا مثل ذلك بحلب وحماة وغيرهما ، ولما استولى التتر على الشام طمع الأرمن في البلاد التي افتتحها المسلمون منهم ، وعجز المسلمون عن حفظها فتركها الذين كانوا بها وأخلوها من العسكر والرجال ، فاستولى الأرمن عليها وارتجعوا حموص وتل حمدون وكوبر وسرفندكار والنقير وغيرها ، ولم يبق مع المسلمين من جميع تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان ، واستولى الأرمن أيضاً على غيرها من الحصون والبلاد التي كانت جنوبي نهر جيحان .

وفي سنة سبعمئة عادت التتر وقصدت الشام وعبروا الفرات في ربيع الآخر ، وجفلت المسلمون منهم وخَلَتْ بلاد حلب ، وأقامت التتر ببلاد سرمين والمعرة وتبرلمين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون ، وكان ذلك في مدة السلطان الناصر قلاوون ، فسار السلطان والعساكر الإسلامية لقتالهم من مصر ، ووصلوا إلى

العوجاء ، واتفق في تلك المرة تتابع الأمطار إلى الغاية ، واشتدت الوحول حتى تقطعت الطرقات وتعذرت الأقوات وعجزت العساكر عن المقام على تلك الحال ، فرحل السلطان والعساكر ، وعادوا إلى الديار المصرية ، فوصلوا مصر في عاشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وأما التتر فإنهم أقاموا يتنقلون في بلاد حلب وأعمالها نحو ثلاثة أشهر ، ثم إن الله تعالى تدارك المسلمين بلطفه ورد التتر على أعقابهم بقدرته فعادوا إلى بلادهم وعبروا الفرات في أواخر جمادى الآخرة من هذه السنة ، ورجع عساكر حلب إلى حلب وتراجعت الجفال إلى أماكنهم .

ولما كانت هذه القصة وجاءت الأخبار إلى مصر بعود التتر إلى الشام ، أخرج غالب الأغنياء من أهل الشام ومصر ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة وإعانتهم .

وفي سنة إحدى وسبعمئة خرجت العساكر الإسلامية لقتال الأرمن وانتشروا في بلاد سيس وحرقوا الزروع وقتلوا من وجدوه وغنموا شيئاً كثيراً .

وفي سنة اثنتين وسبعمئة غزا المسلمون جزيرة أرواد وهي جزيرة في بحر الروم قبالة أنطرسوس قريباً من الساحل ، اجتمع فيها كثير من الفرنج وبنوا فيها حصوناً وسوروا وتحصنوا في هذه الجزيرة ، وكان يطلعون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين في ذلك الساحل ، فاتخذ المسلمون أسطولاً وساروا إليها من الديار المصرية في بحر الروم ووصلوا إليها في المحرم من هذه السنة ، وجرى بينهم وبين الفرنج قتال شديد ، ونصر الله المسلمين وملكوا الجزيرة المذكورة ، وقتلوا وأسروا جميع أهلها ، وخربوا أسوارها ، وعادوا إلى الديار المصرية بالأسرى والغنائم .

ذكر دخول التتر إلى الشام وكسرتهم مرة بعد أخرى

في سنة اثنتين وسبعمئة عاودت التتر قصد الشام ، وساروا إلى الفرات وأقاموا عليها مدة في أزوارها ، وسارت منهم طائفة قدر عشرة آلاف وأغاروا على القريتين وتلك النواحي ، وكانت العساكر الإسلامية قد اجتمعت بحماة وأرسلوا جماعة من العسكر لقتال الذين أغاروا على القريتين ، فالتقوا بالتتر سابع شعبان في موضع يقال له الكوم واقتتلوا وصبر الفريقان ، ثم نصر الله المسلمين وولى التتر منهزمين ، وترجل

بينهم جماعة كثيرة عن خيلهم وأحاط بهم المسلمون بعد فراغهم من الواقعة ، وبذلوا لهم الأمان فلم يقبلوا ، وقاتلوا بالنشاب ، وعملوا سروج الخيل ستائر ، وناوشهم العساكر من الضحى إلى انفراك الظهر ، ثم حملوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم ، فكان هذا النصر عنوان النصر الثاني على ما نذكره ، ثم عاد المسلمون إلى حماة منصورين ثامن عشر شعبان .

ذكر المصافّ الثاني والنصرة العظيمة

ثم بعد وقعة الكوم سار التتر بجموعهم العظيمة ووصلوا إلى حماة في الثالث والعشرين من شعبان من السنة المذكورة ، وجاء كثير من العساكر الإسلامية من دمشق ومصر وجاء السلطان الناصر بباقي العساكر الإسلامية ، والتقى الفريقان في ثاني رمضان واشتد القتال بينهم ، واستشهد من المسلمين خلق كثير ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهزموا التتر وأكثروا القتل فيهم فولوا منهزمين لا يلوي بعضهم على بعض ، وحال الليل بين الفريقين ، فنزل التتر على جبل هناك بطرف مرج الصُّفّر ، وأشعلوا النيران ، فأحاط المسلمون بهم ، فلما أصبح الصباح ، وشاهد التتر كثرة المسلمين انحدروا من الجبل يبتدرون الهرب ، فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وكان طريقهم أرض متوحلة ، فتوحل فيها عالم كثير من التتر ، فأخذ بعضهم أسرى وقتل بعضهم وساق كثير من العساكر الإسلامية في أثر التتر المنهزمين إلى القريتين ، ووصل التتر إلى الفرات وهي في قوة زيادتها ، فلم يقدروا على العبور ، والذي عبر فيها هلك ، فساروا على جانبها إلى جهة بغداد فانقطع أكثرهم على شاطىء الفرات وهلك من الجوع ، وأخذ منهم العرب جماعة ، وأخلف الله تعالى بهذه الواقعة ما جرى على المسلمين في المصاف الذي كان ببلدة حمص سنة تسع وتسعين وستمئة .

وفي سنة ثلاث وسبعمئة خرجت العساكر من مصر ودخلوا بلاد سيس ، وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالأمان ، وارتجعوها من الأرمن ، وهدموها إلى الأرض .

ذكر إغارة عسكر حلب على بلاد سيس

عند الدروب المجاورة لحلب وكانت كرسي ملك الأرمن ، والأرمن قوم دخلوا في الملّة النصرانية ، وكانت مواطنهم أرمينية ، ثم لما ملك المسلمون بلادهم وضربوا عليهم الجزية وأخذوا منهم خلاط وكانت كرسي ملكهم ، فانتقل ملكهم إلى سيس وكانوا يؤدون الضريبة للمسلمين ، ولما ظهر التتر دخلوا في طاعتهم وأجلبوا معهم في غزواتهم إلى الشام ، ثم صار ملوك مصر يغزون بلادهم ويغيرون عليهم ، ففي أوائل المحرم من سنة خمس وسبعمئة خرجت عساكر من حلب للإغارة على بلاد سيس فدخلوها ، وكان أمير العسكر ضعيف العقل قليل التدبير مشتغلاً بشرب الخمر ، ففرط في حفظ العسكر ، ولم يكشف خبر العدو واستهان بهم ، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتر وانضم إليهم الأرمن والفرنج ، ووصلوا على غرة إلى عسكر حلب فالتقوا بالقرب من إياس فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق ، وتمكنت منهم التتر والأرمن فقتلوا وأسروا غالبهم ، واختفى من سلم من تلك الجبال ولم يصل إلى حلب منهم إلا القليل عرايا بغير خيل .

وفي هذه السنة سار عسكر من دمشق إلى جبال الظّنّين وكانوا مارقين من الدين ، فأحاطت بهم العساكر الإسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم ، وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات ، وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظّنّيّن وغيرهم من المارقين ، وطهرت تلك الجبال منهم ، وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس ، وأمنت الطرق بعد ذلك ، فإنهم كانوا يقطعون الطرق ويتخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار .

وفي سنة ثمان وسبعمئة ملك الفرنج مدينة رودس وأخذتها من الروم ، قال الحافظ ابن حجر في تاريخ مصر : فتحت رودس في خلافة معاوية رضي الله عنه وأمر جماعة من المسلمين بالإقامة بها ، فلما ولي يزيد أمرهم بالتحول خشية عليهم ففعلوا وتركوها ووضع الجزية والخراج على أهلها ، ثم ملكها الروم واستولوا عليها وتغلبوا ، ثم أخذتها الفرنج منهم .

وفي سنة ثنتي عشرة وسبعمئة أقبل التتر بجموعها وجفل أهل حلب وبلادها عند سماعهم الأخبار بإقبال التتر ، ثم وصلت التتر إلى بلاد سيس وكذلك وصلوا إلى الفرات ، ثم نازلوا الرحبة وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وأخذوا فيها الثقوب ، فقام أهل الرحبة بحفظ القلعة أحسن قيام وصبروا على الحصار وقاتلوا أشد القتال ، فتجهزت العساكر الإسلامية من كل ناحية لإنجادهم وأصاب التتر شدة جوع وغلاء وفناء وتعذرت عليهم الأقوات ، وسمعوا بإقبال جيوش الإسلام فارتحلوا خائبين بعد حصار نحو شهر ، وتركوا المجانيق وآلات الحصار على حالها ، فنزل أهل الرحبة واستولوا عليها ونقلوها إلى الرحبة ، ورجعت عساكر الإسلام ، وكفى الله المؤمنين القتال .

ذكر فتح مَلَطْية وكانت بيد الأرمن

في سنة ٧١٥ فتحت مَلَطْية ، وهي مدينة مشهورة بأرض الروم ذات أشجار وأنهار وهي قاعدة الثغور ويحف بها جبال ، قيل إنه كان بها اثنا عشر ألف نول يعمل الصوف ، وسبب تجهز الجيوش لفتحها أنه كان بها جماعة من المسلمين اختلطوا بالنصارى ، حتى إنهم زوّجوا الرجل النصراني بالمسلمة ، وكانت الأجناد من المسلمين لا ينقطعون عن الإغارة على العدو ببلاد الروم وغيرها ، وكانت طريقهم في غالب الأوقات تكون قريب ملطية ، فاتفق أن أهل مَلَطْية ظفروا ببعض الغُيّار المذكورين ، فأسروهم وقتلوا جماعة من المسلمين ، فلما جرى ذلك أرسل السلطان ناصر الدين قلاوون عسكراً ضخماً من الديار المصرية ، فساروا إلى دمشق ، ورسم السلطان لجميع عساكر الشام بالمسير معه وكذا عسكر حماة وحلب ، وسار الجميع حتى وصلوا ملطية ونازلوها في الثاني والعشرين من المحرم من السنة المذكورة فأحدقوا بها وحاصروها ، وخرج جماعة منها وطلبوا الأمان لأنفسهم فأمنوا ، واتفق أن الباب الذي فتح لخروجهم قبالة عسكر حماة ، فهجموا على المدينة من الباب المذكور ، وخرج الأمر عن الضبط لكثرة العساكر الطماعة ، فنهبوا جميع ما فيها من أموال المسلمين والنصارى حتى لم يدعوا فيها إلا ما كان مطموراً ولم يعلموا به ، وكذلك استرقوا جميع أهلها من المسلمين والنصارى ، ثم بعد ذلك وقع الإنكار التام على من استرق مسلماً أو مسلمة ، وعرضوا الجميع ، فأطلق جميع المسلمين من الرجال

والنساء ، وأما أموالهم فإنها ذهبت ، واستمرت النصارى في الرق عن آخر ، ثم لما كان من نهب ملطية ما ذكرناه ألقى العسكر فيها النار فاحترق غالبها ، وخرب العسكر ما أمن من أسوارها وأقام جيش المسلمين يوماً واحداً وليلة ، ثم ارتحلوا عائدين إلى بلادهم ، وبعثوا رسلاً إلى صاحب سيس في إعادة البلاد التي في جنوبي جيحان وزيادة القطيعة ، فزاد القطيعة حتى جعلها نحو ألف درهم .

ذكر الإغارة على سيس وبلادها

في سنة عشرين وسبعمئة برزت المراسيم السلطانية من السلطان الناصر قلاوون بتجهيز العساكر والإغارة على بلاد سيس ، فخرجت عساكر من مصر والشام وحماة وحلب ، ودخلوا بلاد سيس في منتصف ربيع الآخر ، ونازلوا قلعة سيس ، وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور ، وغنموا غنائم كثيرة وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشي وكانوا شيئاً كثيراً ، وأقاموا ينهبون ويخربون ، ورجعوا سالمين منصورين .

ذكر فتوح إياس من بلاد سيس

في سنة اثنتين وعشرين وسبعمئة توجهت العساكر حتى نازلوا إياس من بلاد سيس وحاصروها وملكوها بالسيف ، وعصت عليهم القلعة التي في البحر ، فأقام المسلمون عليها منجنيقاً عظيماً وركب المسلمون إليها طريقين في البحر إلى أن قاربوا القلعة ، فهربت الأرمن وأخلوها وألقوا في القلعة ناراً ، فملك المسلمون القلعة وهدموا ما قدروا على هدمه وعاد كل عسكر إلى بلاده .

وفي سنة سبع وعشرين وسبعمئة في رمضان ورد إلى دمشق مئة وأربعون أسيراً من بلاد الفرنج ؛ وذلك أن قاضي القضاة جلال الدين أشهد أنه جعل لكل من يحضر أسيراً مبلغاً عينه وكتب بذلك مكتوباً ، وعرف الفرنج ذلك فجعلوا الأسرى من تجاراتهم وأحضروهم ، فأعطوا من وقف الأسرى ستين ألف درهم ، وأطلقوا الأسرى بحمد الله تعالى .

غزوة عساكر حلب بلاد سيس

في سنة خمس وثلاثين وسبعمئة غزا عسكر حلب بلاد سيس وخربوا أذنة وطرسوس وأحرقوا الزرع واستاقوا المواشي وأتوا بمئتين وأربعين أسيراً ، وما عدم من المسلمين سوى شخص واحد غرق في النهر ، وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم ، فلما علم إياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم في خان ثم أحرقوه فقلَّ من نجا ، فعلوا ذلك بنحو ألفي رجل من التجار البغاددة وغيرهم في يوم عيد الفطر ، فلِلّه الأمر من قبل ومن بعد .

وفي سنة ٧٣٧ توجهت العساكر المصرية والشامية لغزو بلاد الأرمن فنزلوا في ثاني شوال على ميناء إياس وحاصروها ثلاثة أيام ، ثم قدم رسول الأرمن دمشق ومعه كتاب من نائب الشام بالكف عنهم على أن يسلموا القلاع والبلاد التي في شرقي نهر جيحان ، فتسلموا منهم ذلك وهو شيء كثير وملك كبير كالمصعبة وكويرا والهارونية وسرفندكار وإياس وباناس ونجيمة والنقير ، فخرب المسلمون برج إياس الذي في البحر واستنابوا في البلاد نواباً وعادوا سالمين ولله الحمد ، وهذا فتح اشتمل على فتوح وترك الأرمن جسداً بلا روح .

وفي سنة ٧٤١ توفي السلطان الملك الناصر محمد قلاوون وأقيم بعده ولده الملك المنصور أبو بكر .

وفي سنة ٤٤ أغارت التركمان مرات على بلاد سيس فقتلوا ونهبوا وشفوا الغليل من الأرمن .

وفي سنة ٤٠ ملكت التركمان قلعة كابان بالحيلة وهي من أمنع قلاع سيس وقتلوا رجلها وسبوا النساء والأطفال ، فبادر صاحب سيس لاستنقاذها ، فصادفه ابن دلقاذر فأوقع بالأرمن وقتل منهم خلقاً وانهزم الباقون .

واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧ سبع وستين وسبعمئة

قال ابن خلدون : كان أهل قبرس من أمم النصرانية من بنايا الروم ، وإنما ينسبون هذا العهد إلى الأفرنج لظهور الأفرنج على سائر الأمم النصرانية ، وكان على أهل قبرس

جزية معلومة يؤدونها إلى صاحب مصر وما زالت من لَدُنْ فتحها على يد معاوية ، وكانوا إذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون في سواحلها حتى يستقيموا لأداء الجزية ، وكان الظاهر بيبرس بعث إليها سنة تسع ٦٦٩ أسطولاً من الشواني فطوقت مرساها ليلاً فتكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها في كل ناحية ، ثم غلب لهذه العصور أهل جفوة من الأفرنج على جزيرة رودس حازتها من يد اليشكري صاحب القسطنطينية سنة ٧٨ ، وأخذوا مخنقها وأقام أهل قبرس معهم بين فتنة وصلح وحرب إلى آخر أيامهم . .

وجزيرة قبرس هذه على مسافة يوم وليلة في البحر قبالة طرابلس منصبة على سواحل الشام ومصر ، فأطلعوا في بعض الأيام على غرة في الإسكندرية فأخبروا حاجبهم فعزم على انتهاز الفرصة فيها ، فنهض في أساطيله واستنفر من سائر الأفرنج ووافى مرساها سابع عشر من المحرم سنة ٧٦٧ في أسطول عظيم يقال إنه بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدد والعدد ومعه الفرسان المقاتلة بخيولهم ، فلما أرسى بها قدمهم إلى السواحل وعَبّأ صفوفه وزحف وقد غص الساحل بالنظارة وبرزوا من البلد على سبيل النزهة لا يلقون بالاً لما هم فيه ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب ، وحاميتهم يومئذ قليلة ، وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية ، ونائبها القائم بمصالحها في الحرب والسلم خليل بن عوام غائب يومئذ في قضاء غرضه ، فما هو إلا أن رجعت تلك الصفوف على التعبئة ونضحوا القوم بالنبل فأجفلوا متسابقين إلى المدينة وأغلقوا أبوابها وصعدوا إلى الأسوار ينظرون ، ووصل القوم إلى الباب فأحرقوه ، واقتحموا المدينة واضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض ، ثم أجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم ، وسالت بهم الطرق والأباطح ذاهبين في عروجه حيرة ودهشاً ، وشعر بهم الأعراب أهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم ، وتوسط الأفرنج المدينة ، ونهبوا ما مروا عليه من الدور وأسواق البر ودكاكين الصيارفة ومقاعد التجار ، وملؤوا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت ، واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والأسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء ، ثم تسايل إليهم الصريخ من العرب وغيرهم فانكفأ الأفرنج إلى أساطيلهم ومكثوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد .

وسار الخبر إلى كافل الدولة بمصر الأمير بيبقا لأن السلطان الأشرف شعبان كان

صغيراً وكان بيبقا كافل دولته وقائماً بتدبير أمر دولته ، فقام في ركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعه ابن عوام نائب الإسكندرية منصرفاً من الحج ومعهم كثير من الأمراء والعساكر ونياتهم في الجهاد صادقة ، حتى بلغهم الخبر في طريقهم بإقلاع العدو فلم يثنه ذلك ، واستمر إلى الإسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الحرب وآثار الفساد ، فأمر بهدم ذلك وإصلاحه ، ورجع إلى دار الملك وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً على أهل قبرس ، فأمر بإنشاء مئة أسطول معتزماً على غزو قبرس بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية ، واحتفل في الاستعداد لذلك واستكثر من آلات الحصار ومن السلاح وكمل غرضه من ذلك كله ، ثم لم يقدر على إنجاز غرضه إلا في سنة ثمانمئة وتسع وعشرين كما سيأتي إن شاء الله ، وسبب هذا التأخير كثرة الفتن الواقعة بين أمراء مصر مع بعضهم .

انقراض دولة الأرمن والاستيلاء على سيس

في سنة ست وسبعين وسبعمئة في دولة الملك الأشرف شيبان بن حسن بن الناصر قلاوون ، تجهز جيش للمسلمين لغزو بلاد سيس ، وكان قائد الجيش المارديني نائب حلب ، فحاصرهم شهرين ونصب عليها المجانيق واستدعى أصناف التركمان للقتال ، فلما طال الحصار عليهم واشتد الضيق بهم نزل رئيسهم تكفور بالأمان فأرسله إلى مصر ودقت البشائر بذلك .

قال ابن خلدون : وفر نائب حلب سنة ست وسبعين بالعساكر إلى بلاد الأرمن ففتح سائر أعمالها واستولى على ملكها تكفور بالأمان ، فوصل بأهله وولده إلى الأبواب السلطانية ورتبت لهم الأرزاق ، واستولى السلطان على سيس ، وانقرض منها ملك الأرمن وجعل السلطان نيابة سيس ليعقوب شاه ، ثم أضيف إليها طرسوس وأذنة وإياس وغيرها .

وفي سنة ثمانين وسبعمئة نازل الأفرنج طرابلس الشام ، فجهز السلطان عدة مراكب صحبة يلبغا الناصري فالتقى بهم فهزمهم ، ثم أمر العساكر أن يتأخروا ، فطمع فيهم الفرنج إلى أن بعدوا عن البحر ، فرجع عليهم بالعساكر فهزمهم وقتل كثيراً منهم ، وفر من بقي وطلعوا إلى المراكب .

وفي سنة خمس وثمانين وسبعمئة نازل الفرنج بيروت في عشرين مركباً ، فراسل

المسلمون نائب الشام فتقاعد عنهم واعتل باحتياجه إلى مرسوم من السلطان ، فنادى إينال اليوسفي بالغزو والجهاد ، فنفر معه جماعة فجال بين الأفرنج والبحر وقتل كثيراً منهم ونزل إليه بقية الأفرنج من المراكب يقاتلونه فهزمهم وقتل كثيراً منهم ، وغنم من مراكبهم ستة عشر مركباً قبضها واستولى عليها ، فكان للمسلمين بذلك سرور عظيم .

وفي سنة سبع وثمانين وسبعمئة أنشأ المسلمون شواني كثيرة لغزو الأفرنج في البحر الرومي واجتهدوا في عملهم ، وسيروا الشواني إلى دمياط ، فوجدوا بساحل دمياط غراباً للأفرنج فكبسوا عليه واستولوا عليه وأسروا من فيه .

وفي سنة تسعين وسبعمئة كانت وقعة عظيمة بناحية سيواس بين المسلمين والتتر كان النصر فيها للمسلمين .

وفي هذه السنين كان ظهور تيمورلنك بالديار الهندية وخراسان والعراق ، وكان ظهوره من أشد المحن والبلايا على هذه الأمة ، أفسد في الأرض وأهلك الحرث والنسل ، ولنذكر تلخيص وقائعه ، ثم نعود إلى إتمام الكلام على فتوحات ملوك مصر والروم والله المستعان ، وسيأتي أن مسير تيمور إلى الشام كان سنة ثلاث وثمانمئة وحل إنذار من الله بذلك المسير الذي كان فيه البلاء قبل وقعه ، وذلك أن أول إنذار هو الحريق الذي وقع في المسجد الحرام سنة ثنتين وثمانمئة .

قال النجم ابن فهد : وتحدث أهل المعرفة بأن هذا ينذر بحادث جليل يقع في الناس وكان كذلك ، فقد وقعت المحن العظيمة بقدوم تيمورلنك إلى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبي ذرياتهم ونهب أموالهم أو حرق مساكنهم ودورهم ، وكان ذلك الحريق الواقع في المسجد الحرام المنذر بذلك في أواخر شوال سنة ثمانمئة واثنتين ، في مدة سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وكان الحريق من جهة الجانب الغربي واتصل منه بالسقف وعم الحريق الجانب الغربي وبعض الرواقين المقدمين من الجانب الشامي إلى محاذاة باب الباسطية بما كان من السقوف والأساطين ، وكانت السقوف كلها من الخشب الساج ، وصار التعمير لهذا كله بعد ذلك وأعيد السقف خشباً كما كان ، وفرغوا من التعمير سنة ثمانمئة وأربع ، وكان أمير مكة الشريف حسن بن عجلان .

ذكر ظهور التيمور

إنما ذكرنا التيمور وقتاله وإن كان يدعي الإسلام لأن قتاله مثل قتال الكفار ، لأنه فعل أفعالاً مع المسلمين أكثر مما تفعله الكفار من القتل والأسر والتخريب ، وكان رافضياً شديد الرفض ، وسبب خروجه أن ملوك التتر اقتسموا الممالك وانتشرت الفتن بينهم مع بعضهم وكثر عليهم الثوار والخارجون ، وكان ذلك كله سبباً لضعف دولة التتر وموجباً لقيام تيمور وغيره ، واختلفوا في نسب تيمور ، فقيل إن نسبه ينتهي إلى جنكزخان ملك التتر .

وفي تاريخ ابن خلدون أن تيمور ينسب هو وقومه إلى جغطاي بن جنكزخان ، وجزم بعضهم بأن نسبه إلى جغطاي بن جنكزخان إنما هو من جهة أمه لا من جهة أبيه ، وكان أول ظهوره سنة سبعمئة وثلاث وسبعين ، وأرخه بعضهم بقوله (عذاب) ٧٧٣ ، وهو أحد الدجالين الموعود بهم في الأخبار النبوية ، فإنه تغلب على الممالك الإسلامية وأكثر القتل وأفسد الأرض وأهلك الحرث والنسل ، وكان مبدأ أمره وأمر أبيه أنهما كانا فقيرين وكان أبوه إسكافياً من قرية من أعمال كش ، وهي مدينة من مدائن ما وراء النهر ، ونشأ ولده تيمور جَلْداً قوياً ذا جسم غليظ ، فكان لشدة فقره يسرق كثيراً ، فسرق في بعض الليالي شاة واحتملها فشعر به الراعي فرماه بسهمين أصاب بأحدهما فخذه وبالآخر كتفه فأعابهما ، فكان أعرج اليمناوين ، ولذلك كان يقال له نصف إنسان ، ومع هذا لم يترك السرقة فما زال كذلك حتى اشتهر أمره وإفساده ، فظفر به السلطان حسين ملك هراة فأمر بضربه ، ثم بصلبه فضرب ، ثم تشفع في ترك صلبه الأمير غياث الدين بن السلطان حسين المذكور ، فقال له أبوه السلطان حسين : هذا أصل مادة الفساد لئن بقي ليهلكن العباد والبلاد ، فقال له ابنه غياث الدين : وما عسى أن يصدر من نصف آدمي وقد أصيب بالدواهي ، فما زال يراجع أباه حتى قبل شفاعته ووهبه له وعفا عنه .

ثم إن غياث الدين اصطحبه معه وقربه وأدناه وجعله من خواصه وزوّجه أخته ، ورقّاه حتى صار من وزرائه ، فلما صار الملك لغياث الدين بعد موت أبيه حسين ازدادت منزلة تيمور وصار مقدماً على كثير من الجند فطغى وبغى على مولاه

غياث الدين ، ومبدأ ذلك أن زوجة تيمور وهي أخت السلطان غياث الدين وقع بينها وبين تيمور شيء أغضبه فقتلها ولم يراع حرمة مولاه ، ثم لم يسعه الأمر إلا بالخروج على السلطان غياث الدين وخلع الطاعة ولبس التمرد والطغيان ، فتملك بما كان تحت يده من الجند كثيراً من الممالك حتى استصفى ممالك ما وراء النهر وذلت لأوامره ملوك الدهر ، وشرع في استخلاص بقية البلاد واسترق العباد ، فكان يجري في جسد العالم مجرى الشيطان من بني آدم ، ويدب في البلاد دبيب السم في الأجساد ، ثم أرسل إلى مخدومه سلطان هراة الملك غياث الدين يطلب منه الدخول في طاعته ليجازيه على إحسانه بإساءته فيتحقق بذلك قول النبي ﷺ : « كَتَبَ اللهُ على كلِّ نَفْسٍ خبيثةٍ ألاّ تخرجَ منَ الدُّنيا حَتّى تسيءَ إلى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها » فأرسل غياث الدين يقول له : أما كنت خادماً لي وأحسنت إليك وأسبلت ذيل نعمتي عليك ، وذلك بعد أن نجيتك من الضرب والصلب ، فإن لم تكن إنساناً يعرف الإحسان فكن كالكلب ، فلم يصغ لذلك بل عبر جيحون بمن معه من الجند وتوجه إلى محاصرة مولاه غياث الدين بهراة ، ولم يكن لغياث الدين قوة إلى قتاله والوقوف بين يديه فحصن نفسه في القلعة فحاصره وضيق عليه ، ثم أمنه وقبض عليه وحبسه ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات جوعاً وعطشاً ، ثم عاد إلى خراسان فانتقم أولاً من أهل سجستان فوضع السيف فيهم وأفناهم عن آخرهم ، ثم خرب المدينة ورحل عنها ، ولم يزل هذا دأبه حتى تخلص له جميع ممالك العجم ، ودانت له ملوكهم والأمم .

ووصفه بعضهم بقوله : كان رجلاً ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والرأس ، شديد القوة والبأس ، أبيض اللون مشرّباً بحمرة ، عظيم الأطراف عريض الأكتاف ، مستكمل البنية مسترسل اللحية أعرج اليمناوين ، وعيناه كشمعتين ، جهير الصوت لا يهاب الموت ، وكان من أبهته وعظمته أن ملوك الأطراف وسلاطين الأكتاف مع استقلالهم كانوا إذا قدموا عليه وتوجهوا بالهدايا والتقاديم إليه يجلسون على أعتاب العبودية والخدمة نحواً من مد البصر من سرادقاته ، وإذا أراد هو منهم واحداً أرسل من الخدمة نحوه قاصداً فينادي ذلك الواحد باسمه ، فينهض في الحال يعدو نحوه ممتثلاً أمره ، ودخل تحت طاعته ملوك السلجوقية أصحاب قونية كما كانوا داخلين تحت طاعة التتر .

ولما ملك أصبهان والعراق والعجم والري وفارس وكرمان بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم وخربت ديارهم وسبيت نساؤهم ، خافه السلطان أحمد بن أويس المتملك بغداد بعد التتر كما تقدم ، فجمع عساكره وأخذ في الاستعداد له ، ثم عدل إلى مصانعته ومهاداته فلم يغن ذلك عنه ، وما زال تيمور يخادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزمه وفرق عساكره فنهض إليه يسرع السير في غفلة عنه حتى انتهى إلى دجلة وسبق النذير إلى السلطان أحمد فأسرى بغلس ليلة وحمل ما أَقَلَّتْهُ رواحله من أمواله وذخائره ، وترك سفن دجلة ومرَّ بنهر الحلة وصبح مشهد علي رضي الله عنه .

ووافى تيمور وعساكره دجلة في حادي عشر من شهر شوال سنة ٧٩٥ ، ولم يجد السفن فاقتحم بعساكره النهر ونازل بغداد وبعث عساكر في اتباع السلطان أحمد ، فساروا إلى الحلة وقد قطع جسرها فخاضوا النهر عندها وأدركوا السلطان أحمد بمشهد علي ، واستولوا على أثقاله ورواحله فكرَّ عليه في جموعه وقتل الأمير الذي كان عليهم ، فرجع بقية عسكرهم ونجا السلطان أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها ، وأرسل النائب بالرحبة يخبره بالسير إلى سلطان مصر السلطان الظاهر برقوق ، فسرح بعض خواصه فتلقوه بالنفقات والأزواد ، ثم قدم السلطان أحمد إلى مصر ، وخرج السلطان الظاهر برقوق إلى ملاقاته وأمر الأمراء بالمشي في خدمته ، وأكرمه ، وأخبره السلطان أحمد أن تيمور أخذ بلاد العجم والعراق وأنه أرسل قصاده إلى السلطان برقوق ، فكتب السلطان برقوق إلى نائب الرحبة أن يقتل قصاد تيمور ففعل ذلك ، وأخبر السلطان أحمد الملك الظاهر برقوق بأنه جاء مستنصراً مستصرخاً به على من أراد انتزاع الملك منه ، فأجاب الملك الناصر صريخه ووعده بالنصر وتجهيز الجيوش ، وكان قدوم السلطان أحمد على الملك الظاهر في شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وسبعمئة ، لأنه كان أصابه مرض في طريقه تأخر بسببه عن سرعة الوصول ، وكان السلطان أحمد ترك نائباً له على بغداد ، ثم جاءتهم الأخبار بأن تيمورلنك حاصر بغداد ثم تملكها وعاث فيها ، وكان دخوله بغداد يوم عيد الأضحى فتقرب على زعمه بأن جعل المسلمين قرابين ، وقتل خلقاً كثيراً ، ثم أمر عسكره بأن يأتيه كل واحد برأسين من أهل بغداد فأتوا بالرؤوس ، فجمعها وأمر أن يُبْنَى منها مآذن على صور المنائر ،

وعجز بعض الجند عن المجيء برؤوس الرجال فقطع رؤوس النساء والأطفال ، واستصفى ذخائر السلطان أحمد واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة وأقفرت جوانب بغداد من العيش .

ثم إن تيمور بعد أن استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً ، فحاصرها حتى نزلوا على حكمه ، فقتل من قتل منهم ، ثم خربوها وأقفرها وانتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها ، ووقفوا عليها ساعة من النهار فملكوها وانتسفوا نعمها وافترق أهلها .

فبلغ الخبر إلى الملك الظاهر برقوق فنادى بالتجهيز إلى الشام وأفاض العطاء واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند ، وارتحل إلى الشام ومعه السلطان أحمد بن أويس ، وكان العدو تيمور قد شغل بحصار ماردين ، فأقام عليها أشهراً وملكها ، وعاثت عساكره فيها واكتسحت نواحيها وامتنعت عليه قلعتها ، فارتحل عنها إلى بلاد الروم ومر بقلاع الأكراد وأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها ، وفي هذه المدة جهز السلطان برقوق عساكر كثيرة وبعثها مع السلطان أحمد إلى بغداد فملكها وضرب السكة باسم السلطان برقوق كما ذكر ذلك العلامة ابن الشحنة في تاريخه ، وبقي السلطان برقوق بالشام مستجمعاً لعساكره مترقباً لقتال تيمور والوثبة به متى استقبل جهته ، فبلغ ذلك تيمور فلم يتجرأ على الإقدام ، بل رجع إلى بلاد خراسان ولم يقدر على الرجوع ودخول الديار الشامية إلا بعد وفاة السلطان برقوق كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ذكر كتاب تيمور إلى السلطان برقوق

كتب تيمور إلى الملك الظاهر السلطان برقوق كتاباً يقول فيه بعد البسملة : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اعلموا أننا جند الله في أرضه مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه ، لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة باك ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ، قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد ، خيولنا سوابق ، وسيوفنا صواعق ، وسهامنا خوارق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، ملكنا لا يرام

وجارنا لا يضام ، من سالمنا سلم ومن رام حربنا ندم ، فإن أنتم قبلتم شرطنا وأطعتم أمرنا فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم وذلك بما كسبت أيديكم ، فالحصون لا تمنع ، والعساكر لا ترد ولا تدفع ، ودعاؤكم لا يسمع لأنكم أكلتم الحرام وأضعتم الجمعة وارتكبتم الآثام ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ، وتقولون إنه قد صح عندكم أننا كفرة ، فقد ثبت عندنا أنكم فجرة ، وقد سلطنا عليكم من بيده أمور مدبرة وأحكام مقدرة ، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل ، وقد أوضحنا لكم الخطاب فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطا ويدخل علينا منكم الخطا وترمي الحرب نارها وتلقي أوزارها وتدهون منا بأعظم داهية ، ولا يبقى لكم باقية ، وينادي عليكم منادي الفناء : هل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ، الآن قد أنصفناكم إذ راسلناكم ، فردوا رسلنا بجواب هذا الكلام والسلام .

فلما سمع السلطان برقوق هذا الكتاب اغتاظ غيظاً عظيماً وأمر بكتابة الجواب ، فكتب الجواب بإنشاء ابن فضل الله العمري وصورته بعد البعدية والإصدار :

قد حصل الوقوف على كتاب ورد ، فقولكم إنكم مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه وإنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك وقد نزع الرحمة من قلوبكم ، فذلك من أكبر عيوبكم ، وهذه صفات الشياطين لا صفات السلاطين ، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ففي كل كتاب لعنتم ، وعلى لسان كل رسول بالسوء ذكرتم ، وبكل قبيح وصفتم ، وعندنا العلم بكم من حين خلقتم وأنتم الكفرة كما زعمتم ألا لعنة الله على الكافرين ، نحن المؤمنون حقاً لا يدخلنا عيب ولا يخامرنا ريب ، القرآن على نبينا نزل والرب بنا رحيم لم يزل ، إنما النار لكم خلقت ، ولجلودكم أضرمت إذا السماء انفطرت ، ومن أعجب العجاب تهديد الرتوت باللتوت والسباع بالضباع والكماة بالكراع ، ونحن خيولنا برقية وسهامنا يمنية ، وسيوفنا شديدة المضارب وذكرنا في المشارق والمغارب ، إن قتلناكم فنعم البضاعة ، وإن قتلنا فبيننا وبين الجنة ساعة ، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، وقولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فالقَصَّاب لا يبالي بكثرة الغنم ،

وكثير الحطب يكفيه قليل من الضرم ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، الفرار الفرار من الرزايا لا من المنايا ، ونحن من الطمأنينة على عادة الأمنية ، إن قتلنا فشهداء وإن عشنا كنا سعداء ، ألا إنّ حِزبَ الله هم الغالبون ، أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ـ يعني الخليفة العباسي الذي كان إذ ذاك بمصر ـ تطلبون منا الطاعة لا سمعاً لكم ولا طاعة ؟! وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن يكشف الغطا ويدخل علينا منكم الخطا هذا الكلام في نظمه تركيك وفي سلكه تفكيك ، لو كشف لبان بعد التبيان أكفراً بعد إيمان واتخاذ ربٌ ثاني ، لقد جئتم شيئاً إدّاً ، تكاد السمواتُ يتفطّرن منه وتنشقّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبال هدّاً ، قل لكاتبك الذي وضع رسالته ووصف مقالته وصل كتاب كسرير الباب أو كطنين الذباب ، فسنكتب ما يقول ونمدّ له من العذاب مدّاً .

فلما وصل الكتاب إلى تيمور غضب غضباً شديداً وقدر الله بوفاة السلطان برقوق بعد ذلك بقليل ، وكان تيمور ألقى الله الرعب في قلبه من السلطان برقوق ، فلما بلغه خبر وفاته استبشر وأنعم على مخبره بجملة مستكثرة ، وكانت وفاته في سنة ٨١ ، وأقيم بعده في السلطنة ولده الناصر فرج ، فأخذ تيمور في التجهيز بالجيوش لقصد بلاد الشام والروم ، وكان في نفسه من قتل السلطان برقوق قصادة من إعانته السلطانَ أحمدَ بنَ أويس على تملك بغداد ، وكان في نفسه أيضاً على السلطان بايزيد العثماني لأنه تملك بلاداً كثيرة كانت للسلطان السلجوقي وقرابته تملكها السلطان بايزيد بعد وفاته ، وكان السلطان السلجوقي قد كاتب تيمور وأعطاه الطاعة خوفاً من السلطان بايزيد ، وكانت تلك البلاد لبني قلج أرسلان من ملوك السلجوقية ، وهم الذين افتتحوها وأقاموا فيها دعوة الإسلام وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل قسطنطينية ، وأضافوا إليها كثيراً من أعمال الأرمن ومن ديار بكر ، فانفسحت أعمالهم وعظمت ممالكهم ، وكان كرسيهم بقونية ومن أعمالها أقصرا وأنطاكية والعلايا وطغرل ودمرلو وقرا حصار ، ومن ممالكهم أذربيجان ، ومن أعمالهم آقشهر وكامخ وقلعة كغونية ، ومن ممالكهم قيسارية ومن أعمالها نكرا وفلبة ومنال ، ومن ممالكهم أيضاً سيواس وأعمالها ، ومن أعمالها نيكسار وأماسية وتوقات وكنكرة كورية وسامول وصفوي وطرخو وبرلو ، ومما استضافوه من بلاد الأرمن ، خلاط وأرمينية الكبرى ووان وسلطان وأرجيس ، وأعمالها

من ديار بكر خربوط وملطية وسميساط ومسارة .

فكانت لهم هذه الأعمال وما يتصل بها من الشمال إلى مدينة بروسة ، ثم إلى خليج القسطنطينية ، واستفحل ملكهم فيها وعظمت دولتهم وكان ملوك مصر ينازعونهم في بعضها ، ثم طرق دولة السلجوقية الهرم والفشل كما يطرق الدول ، ولما استولى التتر على ممالك الإسلام استولوا أيضاً على كثير من هذه الممالك ، ولحق غياث الدين السلجوقي مع عياله بقونية ثم استقر في طاعة التتر هو وإخوته واقتسموا ممالكهم عمالاً للتتر ، ثم بقيت بيد بنيهم بعدهم يتوارثونها إلى ظهور تيمورلنك ، وكان في ذلك الوقت ظهور قوة السلطان بايزيد العثماني ، فاستولى على كثير من تلك الممالك فأرسل الباقون من ملوك السلجوقية إلى تيمور يعطونه الطاعة ليحتموا به من السلطان بايزيد ، فقدر الله تلك الأيام موت بعض ملوكهم وظهور الضعف فيهم ، فاستولى السلطان بايزيد أيضاً على بعض ممالكهم ، هذا هو السبب في أن تيمور كان له قصد قوي في التوجه إلى قتال السلطان بايزيد ، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله .

ذكر تجهيز تيمور الجيوش لقصد الشام

قد ذكرنا أن تيمور فرح واستبشر بوفاة السلطان برقوق ، ثم إنه في سنة ثلاث وثمانمئة أخذ في التجهيز للمسير إلى الديار الشامية ، فجمع عساكر كثيرة تبلغ ٨٠٠ ألف ، فاجتاز أولاً على سيواس فحاصرها وأخذها ، وكان فيها عامل السلطان بايزيد ، قيل إنه أمن أهلها وحلف لهم ألّا يضع السيف فيهم ، فلما تمكن منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء ، وكانوا ٣٠٠٠ مسلم ، ثم حرقها وخربها ، وتوجه نحو البتين فوجد أهلها قد رحلوا عنها فخربها وأحرقها ، ثم توجه إلى ملطية فهرب منها من كان بها قبل أن يصل إليها فخربها ، ثم اجتاز على بهسنا فحاصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ، ثم أخذها صلحاً ، ثم نازل حلب تاسع ربيع الأول من السنة المذكورة ، وكان فيها من العساكر الإسلامية جمع كثير من دمشق وطرابلس وحماة وصفد وغزة وغيرها ، فاختلفت آراؤها بين قائل دخلوا المدينة وقاتلوا من الأسوار ، وقائل خرجوا ظاهر البلد بالخيام ، وكان الأمير على حلب نائب السلطان هو الأمير دمرداش الخاصكي ، لما رأى اختلافهم أذن للناس في إخلاء البلد والتوجه حيث

شاؤوا ، وكان نعم الرأي لو فعلوا به ، فلما لم يفعلوا برأيه ضربوا خيامهم بظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد مرسل من تيمور فقتله الأمير القائم على عسكر دمشق قبل أن يسمع كلامه وبئس ما فعل .

وفي اليوم العاشر من ربيع الأول وقع قتال يسير ، وفي الحادي عشر زحف تيمور بجيوشه وفيلته فدهم المسلمين خلق كأمواج البحر فولوا على أدبارهم منهزمين نحو البلد وازدحموا في الأبواب ومات منهم خلق كثير والعدو وراءهم يقتل ويأسر ، وتعلقت أمراء عساكر المسلمين بالقلعة ومعهم خلق كثير فاقتحمت عساكر تيمور المدينة وامتدت أيديهم في أقطارها وجالت خيولهم بأرجائها سفكاً ونهباً وأسراً ، واحتمى بالمساجد خلق كثير من النساء المخدرات والكواعب وغيرهم فمالوا عليهم وقبضوهم أسرى في الحبال وأسرفوا في قتل كثير من الرجال والأطفال ونهب الأموال وتخريب المنازل وافتضاض الأبكار وانتهاك الستور ، واستمر الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام وهم مع ذلك مشتغلون بنقب القلعة وهدم الخندق .

وكان المسلمون قد جعلوا أكثر أموالهم بالقلعة ، ثم اعتصم بها الأمراء وخلق كثير ، فلما رأى دمرداش أمير حلب اشتداد الأمر نزل مع طائفة من الأمراء من القلعة يطلبون الأمان فأجابهم تيمور وخلع عليهم ، فاطمأن خاطرهم فنزل بقية أصحابهم من القلعة كل أمير مع طائفة فنظم تيمور كل رجلين في قيد وفرقهم في قومه ثم أذن لهم في النهب .

قال ابن الشحنة : أخذ القلعة بالأمان والأيمان التي ليس معها إيمان ، وفي ثاني يوم صعد بنفسه إلى القلعة وأقام بحلب نحواً من شهر وأصحابه تعدو في نهب المدينة والقرى وتعيث بقطع أشجارها وهدم أحجارها ، وأمر أن يبنى من رؤوس الرجال شبه المآذن فبنيت مرتفعة في الهواء نحو عشرة أذرع ودورها نيف وعشرون ذراعاً والوجوه بارزة تسفي عليها الرياح ، وعدةُ تلك المنائر المتخذةِ من الرؤوس عشر ، وسلم من قتله كثير من العلماء وغيرهم واختفوا ، ثم أعطاهم الأمان .

قال ابن الشحنة : ولما طلع القلعة في ثاني يوم كان طلوعه في آخر النهار فطلب علماء حلب فحضرنا إليه فأوقفنا ساعة ، ثم أمر بالجلوس ناس وطلب من معه من أهل

العلم ، فقال لأمير من أمراء دولته وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين المذكور من العلماء المشهورين بسمرقند قل لهم إني سائلكم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التي افتتحها ولم يوضحوا لي الجواب فلا تكونوا مثلهم ، ولا يجبْني إلا أعلمكم وأفضلكم ليعرف ما يتكلم به ، فإني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وألفة ولي في طلب العلم طلب قديم .

قال ابن الشحنة : وكان قد بلغنا عنه أنه يعنت العلماء في الأسئلة ويجعل ذلك سبباً لقتلهم أو تعذيبهم ، فقال الشيخ القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي : هذا شيخنا يعني الشيخ محمد بن الشحنة وهو مدرّس هذه البلاد ونقيبها وإليه المرجع سلوه والله المستعان ، فقال عبد الجبار مخاطباً ابن الشحنة مترجماً مقالة تيمور : سلطاننا يقول إنه بالأمس قتل منا ومنكم فمن الشهيدُ قتيلُنا أم قتيلكم ؟ فوجم الجميع وقالوا في أنفسهم هذا الذي بلغنا عنه من التعنت ، فسكت القوم وفتح الله بالجواب على ابن الشحنة فاستحضر جواباً سريعاً جواباً بديعاً ، فقال : هذا السؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأجاب عنه ، وأنا مجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله ﷺ ، فقال له القاضي شرف الدين موسى الأنصاري بعد أن انقضت الحادثة : والله العظيم إنك لما قلت : هذا السؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأجاب عنه اختلَّ عقلي ، مع أن القاضي شرف الدين كان محدث زمانه وهو معذور بما شاهد من الأهوال في تلك الأيام ، ومثل هذا السؤال لا يمكن عنه الجواب في هذا المقام لشدة سطوة تيمور بمن خالف مرامه ؛ ووقع في نفس الأمير عبد الجبار مثل ذلك ، فقال لابن الشحنة يسخر من كلامه : كيف سئل رسول الله ﷺ وكيف أجاب ؟ وألقى تيمور سمعه وبصره إلى ابن الشحنة ، فقال ابن الشحنة : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله إن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليعرف مكانه فأينا في سبيل الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « من قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

فمن قاتل منا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد ، فقال تيمور : خوب (يعني طيب) ، واستحسن ذلك الجواب ، وقال عبد الجبار : ما أحسن ما قلت وانفتح باب المؤانسة ، فقال تيمور : إني رجل نصف آدمي وقد أخذت بلاد كذا وكذا وعدَّدَ سائر ممالك العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتر ، فقلت : اجعلْ شكر هذه النعمة عفوك

عن هذه الأمة ولا تقتل أحداً ، فقال : والله إني لم أقتل أحداً قصداً وإنما أنتم قتلتم أنفسكم في الأبواب يعني الازدحام ، ووالله لا أقتل منكم أحداً يعني الآن وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ، وتكررت الأسئلة منه والأجوبة من العلماء وطمع كل واحد من الفقهاء الحاضرين في التقدم وجعل يبادر إلى الجواب ويظن أنه في المدرسة بين طلبته والقاضي شرف الدين ينهاهم ويقول : اسكتوا ليجاوب هذا الرجل يعني ابن الشحنة فإنه يعرف ما يقول ، وآخر سؤال سأل عنه : ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد ؟ فأسرّ القاضي شرف الدين إلى ابن الشحنة وكان إلى جانبه وقال : اعرف كيف تجيبه فإنه شيعي ، فلم يفرغ من كلامه إلا وقد قال القاضي علم الدين القفشي الصيفي المالكي كلاماً ما معناه أن الكل مجتهد ، فغضب تيمور غضباً شديداً وقال عليٌّ على الحق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق وأنتم حلبيون تَبَعٌ لأهل دمشق وهم يزيديُّون قتلوا الحسين ، فأخذ ابن الشحنة في ملاطفته بالاعتذار عن المالكي بأنه أجاب بشيء وجده مكتوباً في كتاب لا يعرف معناه ، فعاد إلى ما كان عليه من البسط ، وأخذ عبد الجبار يباسط ابن الشحنة والقاضي شرف الدين ، فقال عن ابن الشحنة : هذا عالم مليح ، وقال عن القاضي شرف الدين هذا رجل فصيح ، فسأل تيمور ابن الشحنة عن عمره فقال : مولدي سنة تسع وأربعين وسبعمئة وقد بلغت الآن أربعاً وخمسين سنة ، وقال للقاضي شرف الدين : كم عمرك ؟ فقال : أنا أكبر من هذا يعني ابن الشحنة بسنة ، فقال تيمور : أنتم في عمر أولادي فإن عمري اليوم بلغ خمساً وسبعين سنة ، وحضرت صلاة المغرب فأمّنا عبد الجبار وصلى تيمور إلى جانب ابن الشحنة قائماً يركع ويسجد ثم تفرقوا ، وفي اليوم الثاني غدر بكل من في القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال والأقمشة والأمتعة مما لا يحصى حتى قيل إنه لم يكن أخذ من مدينة قط مثلما أخذ من هذه القلعة ولا ما يقاربه ، وعاقب غالب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه ، ونزل تيمور من القلعة بدار النيابة ، وصنع وليمة على زي المغل ووقف سائر الملوك والنوابين في خدمته وأدار عليهم كؤوس الخمر ، والمسلمون في عقاب وعذاب وسبي وقتل وأسر ، وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب .

ولما كان آخر شهر ربيع الأول طلب ابن الشحنة والقاضي شرف الدين وأعاد

عليهما السؤال في حق علي ومعاوية ويزيد ، فقال ابن الشحنة : الحق كان مع علي وليس معاوية من الخلفاء فإنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة » وقد تمت بعلي والحسن .

فقال تيمور : عليٌّ على الحق ومعاوية ظالم ، فقال ابن الشحنة : قال صاحب الهداية : يجوز تقلد القضاء من ولاة الجور فإن كثيراً من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية وكان الحق مع علي في نوبته ، فانسرّ لذلك وطلب الأمراء الذين عينهم للإقامة بحلب وقال لهم موصياً على ابن الشحنة والقاضي شرف الدين : إن هذين الرجلين نزلا عندكم فأحسنوا إليهما وإلى أصحابهما ومن ينضم إليهما ولا تمكنوا أحداً من أذيتهما ، ورتبوا لهما علوفة ولا تدعوهما في القلعة ، بل اجعلوا إقامتهما في المدرسة يعني السلطانية التي تجاه القلعة ، وفعلوا ما أوصاهما به إلا أنهم لم ينزلونا من القلعة ، وقال لهما الذي ولي الحكم بحلب : إني أخاف عليكما ، قال ابن الشحنة : والذي فهمته من نسق تيمور في ملكه أنه إذا أمر بسوء فعلوه بسرعة ولا محيد عنه ، وإذا أمر بخير فالأمر لمن وليه ، وفي أول ربيع الآخر برز إلى ظاهر البلد متوجهاً نحو دمشق ، وفي ثاني يوم أرسل يطلب علماء حلب فحملوا إليه والمسلمون في أمر مريج وفي قطع رؤوس ، فقال العلماء لما طُلِبوا : ما الخبر ؟ فقيل لهم إن تيمور طلب من عسكره أن يأتوه برؤوس من المسلمين على عادته التي كان يفعلها في البلاد التي يأخذها ، فخاف العلماء أن تقطع رؤوسهم وتحمل إليه مع ما وقع لهم من الأمان منه ، فلما وصلوا إليه أرسلوا له رسولاً يقول له إنهم قد حضروا ، وهو قد حلف ألا يقتل أحداً منهم صبراً ، فجاء الرسول وهم ينظرون إليه من بعد وهو يأكل من لحم سليق بين يديه في طبق فتكلم معه يسيراً ، ثم أرسل إليهم بشيء من ذلك اللحم ليأكلوه فلم يفرغوا من أكله إلا وزعجة قائمة وتيمور صوته عال وساق شخصاً هكذا وآخر هكذا وجاء أمير يتعذر إلى العلماء وقال لهم : إن سلطاننا لم يأمر بإحضار رؤوس المسلمين إنما أمر بقطع رؤوس القتلى وأن يجعل لنا قبة إقامة لحرمته على جاري عادته ففهموا منه غير ما أراده وأنه أطلقكم فامضوا حيث شئتم .

وركب تيمور من ساعته وتوجه نحو دمشق ، فعاد علماء حلب إلى القلعة ورأوا أن المصلحة في الإقامة بها ، وأخذ الأمير موسى في الإحسان إليهم وقبول شفاعتهم وتَفَقُّدِ

أحوالهم مدة إقامته بحلب .

وأما تيمور فإنه توجه قاصداً دمشق ، وكان الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق قد جاء من مصر بعساكره لتحصين حمايتها من تيمور وجاء معه الخليفة العباسي الذي كان بمصر وهو المتوكل على الله ، فلما دخل الملك الناصر فرج دمشق أقام بها يومين ، ثم خرج في اليوم الثالث وخيم بقبة يلبغا .

ذكر دخول تيمور دمشق

في اليوم العاشر من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ جاءت عساكر تيمور بأطراف دمشق ، وظهر بعض عسكر تيمور على جبل مما يلي عقبة دمّر وهم مقدار ألف فارس ، فخرج إليهم من عسكر الناصر فرج دون المئة ، فاقتتلوا معهم فانهزم أصحاب تيمور هزيمة قوية ، ثم رجعوا على عسكر الملك الناصر وقبضوا على ثلاث فوارس وجاؤوا بهم إلى تيمور فأمر عساكره تلك الليلة أن يضرموا ناراً عظيمة في مواضع متعددة ، فتخيل للسلطان الملك الناصر فرج بن برقوق أن عسكر تيمور ملؤوا الأرض بقدر أماكن النار ، وأخذ تيمور اثنين من الأسارى وأدخلهما في أسياخ وشواهما على النار كالغنم ، وأطلق الثالث فرجع وأخبر السلطان فرج بذلك ، وسمعت العسكر بذلك فانقطع قلوب العسكر ، ففي تلك الليلة ارتحل السلطان فرج ورجع إلى الديار المصرية هارباً ، وصحبه الخليفة والأمراء مع كل أمير مملوكان أو ثلاثة ليس معهم خيل ولا قماش ، وتشتت بقية العسكر حفاة عراة .

وأما أهل دمشق فلم يعلموا برجوع السلطان فأصبحوا ورأيهم جميعاً المناصبة للحرب فركبوا الأسوار وأعلنوا بالنداء يستحث بعضهم بعضاً على الجهاد ، فتراموا مع التتر عسكر تيمور وقتلوا منهم وغنموا من خيلهم وكانت بينهم مقاتلة هائلة حتى قتلوا من التتر نحواً من ألف ، وفي آخر النهار حضر اثنان من أصحاب تيمور ينادي أحدهم بطلب الصلح وأن يحضر أحد ممن يعقل حتى يكلمه الملك ، فوقع الاختيار على إرسال القاضي ابن مفلح الحنبلي فغاب ، ثم رجع وأخبر أنه اجتمع بتيمور وتلطف معه حتى قال له تيمور : بلد الأنبياء وقد أعتقتها صدقة عن أولادي ، وأخذ ابن مفلح يحل عزائم أهل البلد حتى صاروا فرقتين : فرقة ترى ما يراه ابن مفلح من بذل الطاعة وهم الفقهاء ونحوهم ،

وفرقة باقية على المحاربة وهم سواد الناس ، فباتوا تلك الليلة على ذلك ثم أصبحوا وقد غلب رأي ابن مفلح ، ومن عادة تيمور إذا أخذ بلداً صلحاً أن يخرج إليه أهل البلد من كل نوع تسعة أشياء ويسمّون ذلك : الطقزات ، فطلب منهم تجهيز ذلك وهمّوا بإخراجه من باب النصر فمنعهم نائب القلعة وهددهم بإحراق البلد ، فأعرضوا عن ذلك وتدلوا من أعلى السور ، فباتوا في مخيم تيمور ، ورجعوا وقد تقرر منهم قضاة ووزير ومستخرج للأموال ومعهم فرمان ومرسوم فيه تسعة أسطر يتضمن الأمان لأهل دمشق خاصة ، فقرىء ذلك على المنبر وفتحوا الباب الصغير وقعد أمير من أمراء تيمور ، ثم شرعوا في جباية الأموال التي قرروها عليهم وهي ألف ألف دينار وحملت إليه ، فلما وضعت بين يديه غضب وأمر أن يحمل إليه ألف ألف تومان ، والتومان عشرة آلاف دينار ، فرجعوا يأخذون في جباية الأموال فتزايد البلاء ، وفي أثناء الجباية حرقوا ما بين الجامع والقلعة بالنار ، وذلك نحو من ثلث البلد ، ثم سلم الناس الذين كانوا محاصرين في القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً من الاستيلاء على البلد ، وجمعت الأموال التي قرروها ثانياً وحضرت بين يديه ، فقال لابن مفلح وأصحابه هذه ثلاثة آلاف دينار ببلادنا وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف ألف أراكم عجزتم عن الاستخلاص ، ثم طلب منهم ما تركه العسكر من كل شيء ، ثم طلب جميع ما في البلد من الأموال والدواب فكان عدتها نحو اثني عشر ألفاً ، ثم طلب جميع ما فيها من السلاح ، فلما انقضى ذلك كله أمر باستكتاب خطط دمشق وكتب بها أوراقاً وفرقها على أمرائه ، فحينئذ طمت الأمواج فنزل كل أمير في خط ، وطلب سكان ذلك الخط ، فكان الرجل يطالب بالمال الثقيل الذي لا يقدر عليه فإذا امتنع عوقب بأنواع العذاب ، ثم تخرج نساؤه وبناته فيوطأن بين يديه ، فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوماً ، فلما علموا أنهم قد أتوا على ما في البلد خرجوا منها وهجم عليهم بعد خروج الأمراء بقية عساكرهم كالجراد المنتشر فانتهبوا ما بقي وسبوا النساء والثياب والرجال وتركوا الأطفال ، وأطلقوا النار في الجامع والبلد فاحترقت حتى صارت ترمي بشرر ، واستمر ذلك ثلاثة أيام حتى اندرست رسومها .

وفي ثالث شعبان ركب تيمور وسار نحو حلب راجعاً بلاده ، وكانت إقامته بدمشق أربعة وسبعين يوماً ، ثم بعد رحيله كان كل من بقي يعدو عليهم ويعريهم ؛ الباديةُ والفلاحون ، وجرى عليهم منهم ما لا يجري من تيمور .

وفي السابع عشر من شعبان وصل تيمور إلى الجبول شرقي حلب ولم يدخل حلب ، بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريب القلعة وإحراق المدينة وقتل كثير من الناس ، ففعلوا ونزلوا من القلعة .

قال ابن الشحنة : فبقيت الناس تضرم في أرجائها ، وبعد ثلاثة أيام ارتحل عنا من كان بحلب من أصحاب تيمور ولم يبق من التتر أحد ، ولم يقدر منا أحد على الإقامة ببيته من النتن والوحشة ، ولا يمكن السلوك في الأزقة من ذلك ، ثم عمرت حلب وتراجع الناس وجاءها أمير من السلطان .

وفي سنة أربع وثمانمئة كان مسير تيمور لقتال السلطان بايزيد بن مراد .

ذِكْرُ القتال الواقع بين تيمور والسلطان بايزيد بن السلطان مراد

سبب مسير تيمور لقتال السلطان بايزيد أن جماعة من ملوك الطوائف ببلاد الروم الذين اقتلع ممالكهم السلطان بايزيد ساروا إلى تيمور يشكون إليه من السلطان بايزيد ويرغبونه إلى الروم ويستنجدونه به عليه في رد ممالكهم ، فأجابهم تيمور إلى سؤالهم ، فساروا في سنة أربع وثمانمئة إلى بلاد الروم وأرسل للسلطان بايزيد في الصلح على عادته من المكر والدهاء ، وكتب للسلطان بايزيد : إنك رجل مجاهد في سبيل الله وأنا لا أحب قتالك ، ولكن اُنظر أي البلاد التي كانت مع أبيك وجدك فاقتنع بها وسلّم إليَّ البلاد .

فلما وقف السلطان بايزيد على كتابه قال لرسله : أيخوفني بهذه الترّهات ويستفزني بهذه الخزعبلات ، أويحسب أني مثل ملوك الأعاجم أو التتر الدشت الأغنام ، أومايعلم أنَّ أخباره عندي وأن أول أمره حرامي سفاك الدماء نقاض العهود ؟ إلى غير ذلك من أمثال هذا الكلام ، وكتب له الجواب على هذا المنوال .

وكان السلطان بايزيد في تلك السنة محاصراً مدينة القسطنطينية وقد قارب أن يفتحها فتركها وتوجه لقتال تيمور وأجرى عساكره كالسيول الهامرة ، وكان قد استخدم عنده كثيراً من عسكر التتر حتى صاروا أكثر جنده ، فأرسل تيمور إلى زعمائهم ورؤسائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، فوعدوهُ بالمعاونة .

وكان تيمور قد نزل أنكورية فجاءه السلطان بايزيد بجيوشه ووقع القتال الشديد بينهما ، ثم اندفع التتر من عسكر السلطان بايزيد واتصلوا بعسكر تيمور كما وعدوه ، واستمر القتال من الضحى إلى العصر فانهزمت بقية عساكر السلطان بايزيد ، وصار القبض عليه أسيراً بيد تيمور وأكثروا القتل والفساد ، وكان ذلك يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجة سنة أربع وثمانمئة ، ورجع به تيمور معه إلى تبريز ، فمرض هناك وتوفي هناك رابع شعبان سنة خمس وثمانمئة ، وقسم تيمور بلاد الروم على الملوك الذين استنصروا به وزعموا أن السلطان بايزيد انتزعها منهم ، ثم إن السلطان محمد بن السلطان بايزيد استرجع ذلك إلى ملكه لما استقر في السلطنة كما سيأتي .

وفي سنة خمس وثمانمئة انعقد صلح بين تيمور وسلطان مصر وحصل بينهما مودة ، وأرسل تيمور إلى سلطان مصر هدية وفيلاً .

وفي سنة ست وثمانمئة عدا قرا يوسف حاكم أذربيجان على السلطان أحمد بن أويس وانتزع بغداد منه ، ورحل السلطان أحمد إلى حلب ودخلها في زي فقير ، ثم مشى عسكر تيمور على بغداد وكبسوا بها قرا يوسف ونهبوه وأخذوا بغداد ، وتوجه قرا يوسف هارباً إلى الشام فأمسك وحبس حسب مرسوم سلطان مصر ، ثم ورد مرسوم بطلب السلطان أحمد من حلب وإرساله إلى دمشق ، ثم ورد مرسوم آخر بإمساكه واعتقاله بها ، فأمسك .

وفي سنة سبع وثمانمئة كان هلاك تيمور بمدينة نزار وحملوه إلى سمرقند ودفنوه بها وعمره قد جاوز ثمانين سنة ، ومدة ملكه نحو ست وثلاثين سنة ، وتملك بعده حفيده خليل بن أمير شاه بن تيمور ، ومكث قليلاً وهلك ، وتفرق ملكهم بأيدي المتغلبين ، وتغلب على بغداد من التركمان إلى أن انتزعها منهم إسماعيل شاه سلطان العجم ، ثم انتزعها منه الدولة العثمانية والبقاء لله وحده ، وبقي لتيمور عقب كان منهم سلاطين في الهند .

ولنرجع إلى إتمام الكلام على فتوحات سلاطين مصر ، ثم نذكر ابتداء الدولة العثمانية وفتوحاتها .

اعلم أن سلاطين مصر بعد السلطان برقوق كثرت بينهم الفتن لأجل طلب

السلطنة ، واستمر الحال إلى سنة خمس وعشرين وثمانمئة ، فتسلطن الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي ، فجهز جيوشاً لقتال أهل قبرس .

ذكر تجهيز الجيوش لقتال أهل قبرس

قال العلامة القرطبي : قبرس بالسين لا بالصاد كما يغلط فيه العوام ، وهي جزيرة في البحر الشامي مقدارها مسيرة ستة عشر يوماً ، وبها قرى ومزارع وأشجار ومواش ، وبها معدن الزاج القبرسي ، ومنها يُجلب إلى سائر الأقطار ؛ بها ثلاث مدن ، ومن قبرس إلى طرابلس الشام مجريان في البحر ، وقد تكرر استيلاء المسلمين عليها وانتزاع الكفار إياها ، وقد تقدم أن أول من غزاها معاوية رضي الله عنه وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار فنقضوا ، ثم غزاهم ثانية فقتل وسبى سبياً كثيراً .

روي أنه لما افتتحت مدائن قبرس واشتغل المسلمون بتقسيم السبي فيها بينهم بكى أبو الدرداء رضي الله عنه وتنحى عنهم ثم احتبى بحمائل سيفه ودموعه على خديه ، فقيل له أتبكي في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله وأذل الكفر وأهله ؟ فضرب على منكبيه وقال : ويحك ما أهون الخلق على الله تعالى إذا تركوا أمره ، فبينما هي قوة ظاهرة وقوة قاهرة لهم على الناس إذ تركوا أمره فصار حالهم على ما ترى من السبي والإهانة ، ويريد بذلك أن رغبتهم في السبي وحب المال دليل على تهاونهم بالقيام بأمر الله فيرجع أمرهم إلى الذل والهوان .

وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام وبينها وبين جزيرة رودس مسيرة يوم واحد وإنما سميت جزيرة قبرس بوثن هناك كان يسمى قابرس يعظمه الكفار ويعظمون لأجله جزيرة قبرس ، وهي جزيرة رخاؤها شامل والخير بها كامل وأهلها موصوفون بالغنى واليسار ، وبها معادن الصفر ويجمع منها اللاذن الحسن الرائحة وبعض منه يغلب رائحة العود في طيبه وهو الذي يجمع من على الشجر خاصة ، وكان يحمل إلى ملك القسطنطينية لأنه أفضله وما يتساقط على وجه الأرض يبيعونه للناس .

وكان الأوزاعي يقول : إنا نرى هؤلاء ، يعني أهل قبرس ، أهل عهد وإن صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم ، وشرط عليهم وأنه لا يسعهم نقضه إلا بأمر عنيف عندهم .

ورأى عبد الملك بن صالح في حدث أحدثوه أن ذلك نقض لعهدهم ، فكتب إلى عدة من الفقهاء يشاورهم في أمرهم منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو إسحٰق الفزاري ومحمد بن الحسن ، فاختلفوا عليه ، وأجاب كل واحد بما ظهر له ، وانتهى خراج قبرس الذي يؤدونه إلى المسلمين بعد المئتين من الهجرة إلى أربعة آلاف ألف وسبعمئة ألف وأربعين ألفاً ، وقد كان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي سلطان مصر كثير الغزو إلى طرف الفرنج ، وتسلطن سنة ٨٢٦ .

ففي سنة ست وعشرين وثمانمئة كثرت الأخبار بأن الفرنج تحركوا على المسلمين ، فجهز عدة أجناد إلى السواحل فندب عدة إلى دمياط وعدة إلى الإسكندرية وعدة إلى غيرها ، وجهز مركبين أحدهما من بيروت والآخر من صيدا ، فنازلوا جزيرة الماغوص سنة ٨٢٧ ، فانتهبوها وأحرقوا ما بها من القرى وما بساحلها من المراكب ، وقتلوا وأسروا وقدموا سالمين غانمين ، وكان عدد الأسرى ألفاً وستمئة نفس .

وفي سنة ٢٨ جهز جنداً كثيراً وتوجه صحبتهم عدد كثير من المتطوعة وسافروا إلى دمياط ، وكان ملك قبرس بعث تسعة أغربة يقفون على فم دمياط لمنع الأغربة من الدخول في البحر المالح ، فلما أبصروا مراكب المسلمين وجيوشهم انهزموا بغير قتال ، ثم توجه المسلمون من جهة طرابلس فوصلوا إلى الماغوصة ، فطلع الخيالة وأكثر المشاة إلى البر وضربوا خيامهم ، وأرسل صاحب الماغوصة يطلب الأمان فأعطوه ثم ركبوا في الحال وداسوا من قدروا عليه وأوسعوهم تحريقاً وتخريباً ، وأوقع الله الرعب في قلوب الكافرين حتى كان الثلاثة من المسلمين ينتصرون على أكثر من مئة كافر ، وجاء أخو صاحب قبرس في ألف فارس وثلاثة آلاف راجل فلم يقدر أن يقدم فرجع من غير قتال ، فلما تمت للمسلمين هذه الحالة في الماغوصة قصدوا الممالحة وأحرقوا ما مروا عليه إلى مكان يقال له رأس العجوز ، فخيموا هناك وجهزوا من الغنائم شيئاً كثيراً ، ثم ساروا في مراكب وحاصروا الحصن الذي هناك إلى أن أخذوه عنوة وملؤوا أيديهم من الغنائم والأسرى وأحرقوا الحصن ، وكان عدة من قتل من الفرنج في شهرين خمسة آلاف ، ولم يقتل من المسلمين في هذه الغزوة إلا ثلاثة عشر نفراً ، ثم رجعوا .

ثم بلغ الأشرف أن صاحب قبرس أرسل إلى ملوك الفرنج يستنصر بهم على المصريين يشكو عليهم ما جرى على بلاده ، فأرسل كلٌّ منهم له نجدة من المراكب والفرسان ، فأمر الملك بزيادة تجديد المراكب وبذل الأموال حتى كان عدة تلك المراكب مئة قطعة وأزيد ، وندب الناس لجهاد الكفار ، فأجابه إلى ذلك كثير من الأمراء والعساكر والمتطوعة ، وساروا متوجهين في شعبان سنة ٨٢٩ تسعٍ وعشرين وثمانمئة ، فلما وصلوا إلى اللمسون وجدوا الحصن الذي كانوا خربوه قد عمر وشحن بالمقاتلة ، فأحاطوا به وصعدوا على السلالم فملكوا البرج الأول وهزموا الفرنج ، ثم أحاطوا بقرية من قرى قبرس ، فطلب أهلها الأمان فأمنوهم ، ثم أرسلوا الرسل إلى ملك قبرس يدعونه إلى الطاعة فأبى وقتل الرسول ، فهاج المسلمون لقتاله والتقوا بجنوده فقاتلوهم واشتد الأمر ، فاتفق أن ملك قبرس أراد الهرب فركب ثم وقع عن فرسه فأركبوه ، فوقع ثانياً فأركبوه فكبا به الفرس فاندهش قومه من ذلك وانهزموا وولوا الأدبار ، فرآه بعض الأتراك فأراد قتله فصاح : أنا الملك ، فأسروه ، واستمر المسلمون خلف الأفرنج ورشقوهم نبلاً فلم يزالوا كذلك إلى أن غربت الشمس ، وكان جملة من قتل من الأفرنج في ذلك اليوم ستة آلاف ، وقيد ملك قبرس وقتل أخوه ، ولم يسلم من الأفرنج إلا من بادر إلى البحر وركب وهرب ، وملك المسلمون كثيراً من مراكبهم ، ثم حمل ملك قبرس إلى مصر وطيف به ، ثم قرروا عليه مئتي ألف دينار يحمل منها وهو بمصر النصف ويرسل النصف إذا رجع ، وألزم بحمل عشرين ألف دينار كل سنة وألف ثوب صوف ، وكان الفرنج قد طمعوا في تملك السواحل ، فلما وقع هذا الفتح عظم فرح المسلمين وانقطعت أطماع الفرنج من تملكهم بلاد المسلمين .

قال بعض المؤرخين : ومن مناقب السلطان برسباي أنه أخذ بلاد قبرس وأسر ملكها ، وهو في تخت مملكته بمصر لم يتحرك .

ذكر الغزو إلى رودس

في سنة ٨٤٤ جهز الملك الظاهر جقمق سلطان مصر ستة عشر غراباً مشحونة بالمقاتلة للغزو إلى بلاد رودس .

وفي سنة ٨٤٥ اهتم لذلك اهتماماً كثيراً .

وفي سنة ٨٤٧ سارت المراكب المجهزة لغزو رودس في جمع كثير ونزلوا على قشتيل ، ووقع بينهم وبين من فيه من الكفار قتال وقتل جمع من الطائفتين ، واشتغل بعض المسلمين بما لا يليق من الفساد كالزنا ونحوه ولم يحصلوا على طائل ، وقتل من المسلمين أكثر من مئة وجرح أكثر من خمسمئة .

قال البدر العيني : كانت سفرتهم هذه ملعبة وارتد منهم عدة مماليك ، ولما وصل المسلمون إلى رودس وجدوا أهلها مستعدين استعداداً هائلاً وهي محصنة بآلات الحصار والقتال بكل ما أمكنت قدرتهم ، ثم حصل القتال بينهم فعادوا من غير أن ينالوا طائلاً .

وفي تاريخ القرماني غير هذا فإنه ذكر أن في سنة خمس وأربعين انتصر الجيش المجهز إلى رودس ، ورجعوا ومعهم بنت الملك وكثير من الأسرى ، ومن السبي من النساء والصبيان ، وصحبتهم من الذهب العين ثمانية عشر صندوقاً يبلغ ما فيها نحو ثلاثة قناطير من الذهب ، ومعهم أيضاً اثنتا عشرة جرة من النحاس مختومة الفم بالرصاص في كل جرة قنطار ونصف من الذهب وغير ذلك من الجواهر واليواقيت والتحف ، أخذ ذلك كله من قلعة قشتيل من أعمال رودس وهدمت القلعة في هذه الغزوة .

وفي سنة ٨٦٦ بعث الملك الظاهر خوش قدم سلطان مصر تجريدة من العسكر إلى قبرس لتقرير الملك لصاحبها القائم بها ودفع المتغلبين عليه ، ففعلوا ذلك وعادوا سالمين .

وفي هذه السنين انتشرت فتن كثيرة بمصر زيادة عما كان قبل ذلك وكلها كانت بين الأمراء بمصر لطلب السلطنة ، فضعف أمر الغزو والجهاد منهم وظهرت قوة للدولة العثمانية بأرض الروم ، وأكثروا الغزو والجهاد وفتحوا كثيراً من البلاد ، فلنذكر ما حصل الوقوف عليه من ذلك على سبيل الاختصار .

ذكر الدولة العثمانية وفتوحاتها
ثبت الله ملكهم ووفقهم لما يحبه ويرضاه

اتفق العلماء على أن من وقف على سير الدول الإسلامية ، يعلم علماً قطعياً أن الدولة العثمانية من أحسن سير الدول الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين ؛ لأنهم متمذهبون بمذهب أهل السنة ، صحيحو العقيدة ناصرون لأهل السنة ، قائمون بتعظيم الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ، ليس عندهم شيء من الزيغ والابتداع ، ولهم الفتوحات الشهيرة والجهاد والغزوات الكثيرة ، قائمون بشعائر الإسلام ، ولا سيما في الحرمين الشريفين ، فإن لهم فيها الصدقات والخيرات الكثيرة ، وقائمون أيضاً بشعائر الحج وتأمين الطرق للحجاج والزوار ، فيجب على كل مسلم أن يدعو لهم بالتثبيت والتأييد ، والإعانة والنصر والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه ، واشتهر أنهم من التركمان ، وإن كان نسبهم ينتهي إلى يافث بن نوح عليه السلام ، وقيل إن أصلهم من العرب ، فقد ذكر العلامة السنجاري في تاريخه نقلاً عن صاحب درر الأثمان في أصل منبع آل عثمان أن أصلهم من عرب الحجاز وأنهم من المدينة المنورة ، وأن جدهم الأعلى هاجر من بلاد الحجاز .

قال مؤرخ الدولة العثمانية الشهير بخير الله أفندي : لا نريد أن ندخل في هذا البحث لكن غاية ما نقول : إن هذه العائلة الشريفة هي أشرف العشائر الإسلامية ، ثم ذكر أن جدهم هو أول من تسلطن منهم بالروم وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه ، وسليمان شاه سلطان في بلاد ماهان بالقرب من بلخ ، فلما ظهر التتر أفسدوا في الأرض وخربوا البلاد ، وكان من جملة ما خربوه بلخ وأعمالها ، فترك سليمان شاه البلاد مع من تركها من الملوك وغيرهم وقصد بلاد الروم ، وكان قد سمع بدولة السلجوقية التي في الروم وعظم شوكتهم وكثرة غزوهم إلى الكفار فخرج وتبعه في ذلك خلق كثير ، فلما وصلوا إلى أذربيجان تقاتلوا مع الكفار وغنموا منهم شيئاً كثيراً ، ثم قصدوا ناحية حلب فوصلوا إلى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر ، فعبروا النهر فغلب الماء ، فغرق سليمان شاه ، ومات غريقاً شهيداً فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وقبره

هناك مشهور يُزار ويتبرك به ، وكان مع سليمان شاه أولاده الثلاثة وهم سنقور وكون طوغدي وأرطغرل ، فلما وصلوا إلى موضع يقال له ياسين أو مسي رجع سنقور وكون طوغدي أبناء سليمان شاه إلى بلاد العجم وتخلّف أرطغرل جد الملوك العثمانية مع أبنائه الثلاثة وهم كوندزالب وصاروريني وعثمان ، ومكث أرطغرل في ذلك الموضع يجاهد الكفار ، ثم أرسل ابنه صاروريني إلى صاحب قونية وسيواس السلطان علاء الدين السلجوقي يستأذنه في الدخول إلى بلاده ويطلب منه موضعاً ينزل فيه ، فعين له جبال طومالح وجبال أرمنك وما بينهما موضعاً للسكنى ، فأقبل أرطغرل مع أربعمئة بيت من قومه فتوطنوا في قره جه طاغ .

وفي سنة خمس وثمانين وستمئة نازل السلطان علاء الدين السلجوقي بعساكر كثيرة ومعه الأمير أرطغرل قلعة كوتاهية وهي يومئذ بيد الكفار ، ففوض أمر القلعة إلى الأمير أرطغرل وسار هو إلى قتال التتر بسبب تعرضهم لبعض بلاده ، ولم يزل الأمير أرطغرل يجتهد حتى فتحها عنوة وغنم من الأموال شيئاً كثيراً فازداد عند السلطان علاء الدين قرباً ومنزلة ، ولم يزل الأمير أرطغرل يجاهد في سبيل الله حتى توفي في سبيل الله سنة سبع وثمانين وستمئة ، فتأسف عليه وعين مكانه ولده الأمير عثمان ، فلما رأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده في الجهاد وعلم نجابته في فتح البلاد فأكرمه وأمده بأنواع الإضافة والأمداد ، وجعله سلطاناً مشاركاً للسلطان علاء الدين في السلطنة ، وأرسل إليه الراية السلطانية ، والخلع السنية والطبل والزمر ، فلما ضرب الطبل بين يدي (السلطان عثمان) نهض قائماً على قدميه إعظاماً للسلطان علاء الدين وما زال قائماً حتى فرغوا ، فمن ذلك اليوم كان بين العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل السلطنة في الأسفار والأعياد ، وكانت سلطنة السلطان عثمان سنة تسع وتسعين وستمئة ، وكانت سلطنته على البلاد التي افتتحها أبوه والتي افتتحها هو قبل أن يتسلطن منها مدينة قرا حصار ، وحصن قرا ، وقصبة ، ويني كوي ، وقلعة بيله جك ، ومدينة يني شهر وغير ذلك ، ولما تسلطن جعل كرسي سلطنته قرا حصار ، ثم نقله إلى يني شهر ، وكان كثير من التتر تغلبوا على بعض ممالك السلجوقية فقاتلهم أبوه ثم قاتلهم هو وأبادهم وانتزعها منهم قبل أن يتسلطن ، وكان ذلك من جملة أسباب محبة السلطان علاء الدين له .

قال بعض المؤرخين : إن الوقوف على ترجمة هؤلاء السلاطين وفتوحاتهم العجيبة يستوجب أن يعتقد أنهم أعظم ملوك الإسلام ، فإن كل واحد منهم فعل أفعالاً باهرة وغزا غزوات قاهرة يستحق أن تخلد في بطون الأسفار لكي يقتدي بهم الملوك الذين يأتون بعدهم ، ويعلمون أن أفعال هؤلاء السلاطين تستحق أن تقدم على أفعال الأكاسرة والقياصرة وبقية الملوك والسلاطين الذين تدونت أسماؤهم في كتب التواريخ ، ومن طالع تواريخ هؤلاء السلاطين تظهر له عظمة أفعالهم وبطشهم وشجاعتهم التي قاوموا بها جميع الدول المحيطة بهم ، فكانوا يفتحون المدن العظيمة والحصون المشيدة ، ويقهرون الجبابرة العظام ويتسلطون على الممالك براً وبحراً إلى أبعد مكان ، فكانت ترتعد من سطوتهم قلوب جميع الدول الأفرنكية ويعطونهم الطاعة والخضوع .

وكان السلطان عثمان جدهم واسطة عقدهم ومؤسس دولتهم ، وكان السلطان علاء الدين قد كبر وشاخ وطعن في السن حين أن أشرك معه السلطان عثمان لأنه تولى السلطنة سنة ٦٥٤ أربع وخمسين وستمئة ، واستمر إلى أن توفي سنة ٧٠٠ ، وبقي بعض ممالكهم تحت يد بنيه وأبناء عمه مع ضعفهم عن حفظها ، وآخر من بقي في السلطنة منهم السلطان مسعود بن كيكاوس ، وتوفي مسعود سنة ٨١٨ فاضمحلت دولتهم ، وكان لهم من التتر عساكر كثيرة كانوا متغلبين عليهم فاستولى عليهم السلطان عثمان وبنوه من بعده ، وصارت الممالك كلها بأيديهم ، ومن الممالك التي افتتحها السلطان بعد سلطنته حصن الصفصاف المعروف بقلعة بيلجك ، وكان الخليفة هارون الرشيد غزا بنفسه الروم ففتح هذا الحصن ، ثم استولى عليه الكفار ، واستمر بأيديهم إلى أن افتتحه الغازي السلطان عثمان المذكور ، وسيأتي ذكر بقية فتوحاته .

وكان السلطان عثمان المذكور عادلاً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة ، شجاعاً مرابطاً في سبيل الله ، مجاهداً يراعي الأبطال ويحسن للأيتام والأرامل ، ومن زهده في الدنيا أنه توفي لم يترك من المال شيئاً وإنما ترك بعضاً من الخيل وشيئاً من الغنم التي ترعى في نواحي بروسة باسم السلاطين العثمانية وهي من نسل تلك الأغنام ، فهو سلطان مبارك خرج من صلبه السلاطين العظام الذين شيدوا الإسلام ، وكان صحيح العقيدة على عقيدة أهل السنة ، يحب الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ويحسن إليهم ويعظمهم ويقوم بحقوقهم ، وكان شديد التعظيم لشعائر الدين وللقرآن العظيم .

يحكى أنه قبل أن يتسلطن سافر إلى موضع نزل في طريقه ضيفاً عند إنسان ، فلما أراد النوم هيأ له صاحب المنزل موضعاً لينام فيه ، فلما دخل ذلك الموضع رأى مصحفاً معلقاً في جدار ذلك الموضع فكبر عليه أن ينام وذلك المصحف مُعَلّق بذلك الموضع ، ورأى أن ذلك يخل بتعظيم القرآن فوقف على قدميه قائماً إلى الصباح مستقبلاً للمصحف ويداه على صدره ، وذلك دليل على قوة إيمانه وصحة اعتقاده رحمه الله تعالى .

وكان كثير التردد على الشيخ العارف بالله تعالى أدبالي القرماني ، فرأى السلطان عثمانَ ليلة في منامه أن قمراً خرج من حضن الشيخ المذكور ، فدخل في حضنه ثم نبتت من سرته شجرة عظيمة ملأت أغصانها الآفاق ورأى تحتها جبالاً راسيات وتجري عندها عيون وأنهار والناس يشربون من تلك المياه ويملؤون منها وينتفعون من تلك المياه ، فلما استيقظ السلطان عثمان قصد الشيخ المذكور وقص رؤياه عليه فقال الشيخ ، وكان من المكاشفين : لك البشرى بمنصب السلطنة وسيعلو أمرك وينتفع الناس بك وبأولادك وإني زوّجتك ابنتي هذه ، فَقَبِلَها السلطان عثمان وتزوج بها ، فولدت له أولاداً منهم السلطان أورخان وهو جد سلاطين آل عثمان أيد الله دولتهم على ممر الزمان ، وبسط الكلام على فتوحات السلطان عثمان الغازي وغزواته مذكورة في التواريخ المبسوطة ولا سيما التواريخ التي باللسان التركي ، وكذلك مناقبه وبقية سيرته كل ذلك شيء طويل مذكور في التواريخ المذكورة ، وإنما الذي يمكن ذكره هنا من ذلك شيء يسير من مناقبه وغزواته وفتوحاته .

فمن غزواته وفتوحاته قرا حصار وجعلها كرسي ملكه كما تقدم ، إلى أن فتح يني شهر فنقل كرسي ملكه إليها ، ثم فتح حصن يار حصار وقصبة إينه كول ويني شهر وأظهر فيها شعار الإسلام .

وفي سنة ٧٠٠ اشتغل بقتال الكفار في طرف أزنيق حتى أعجزهم أمره مقدار خمس سنين ، فأرسل صاحب أزنيق إلى ملك الروم صاحب القسطنطينية يستنجد به ، فأمده بجيوش كثيرة في سفائن عديدة ، فلما وصلوا إلى الساحل من طرف يلاق أوه كمن لهم المسلمون فكبسوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فلم ينج منهم إلا الشاذ النادر ، وفي

غضون ذلك توفي السلطان علاء الدين السلجوقي سنة سبعمئة وكثر الهرج والمرج في بلاده ، فالتحق أكثر عساكره بالغازي السلطان عثمان كذلك .

وفي سنة ٧٠٧ فتح السلطان عثمان مرمرة ، وفي هذه السنة اتفق كثير من ملوك الروم على قتال السلطان عثمان المذكور ، فاجتمعوا في جحافل كثيرة نحو ثلاثين ألفاً فقاتلوا المسلمين أمام قيسون حصاري ، فكان يوماً شديداً على الكفار ، قتل فيه كثير من الكفار ومن رؤسائهم وهرب الباقون وتحصنوا بحصن من أعمال بروسة ، وفاز المسلمون بالغنائم واستولوا على حصن كستل ، ثم ساروا إلى أولو بار فغلبوا عليها واصطلح مع صاحبها على خراج يؤديه .

وفي هذه السنة أيضاً استولى على حصن كتة والبلاد الملحقة بها ، وقسم البلاد على أولاده وأقطعهم إياها واستقر هو في يني شهر ، وتمكن بها وجعلها دار الأمان ، وبنى فيها البقاع ، وأشاد القلاع وأسكن فيها الجند .

وفي سنة ٧٠٨ فتح حصن لفكة وحصن آق حصار وحصن توق حصار ، وأسكن فيها المسلمين وأظهر شعائر الدين .

وفي هذه السنة أعني سنة ٧٠٨ كان أول حدوث البارود ، وأما حدوث المدافع فكان سنة ٧٦٢ .

وفي سنة ٧١٢ افتتح حصن كيوة وحصن طرقلويني جه سي وحصن تكور بيكاري وغيرها .

وفي سنة ٧١٣ افتتح حصن أونوس وبلادها وعينه كلي وراويناس حصار وغير ذلك .

وفي سنة ٢٢ نازل الغازي السلطان عثمان المذكور مدينة بروسة وحاصرها مدة ، ثم لما اشتد الحصار أمر ببناء قلعتين في طرف المدينة وأسكن فيها الجند ، وأمرهم بالتضييق على أهل البلد وقطع الميرة عنهم ، وجعل في إحدى القلعتين أحد بني عمه ، وفي القلعة الأخرى أحد الشجعان من عبيده ، ثم رجع السلطان إلى يني شهر .

وفي سنة ٧٢٣ فتحت قلعة قدكرية وبلادها وبلاد ملارني وبلاد آقبازي .

وفي سنة ٢٠ فتحت بلاق باد وحصن قاندري ، وهذه البلاد تعرف الآن بقوجه نسبة إلى فاتحها ؛ لأن الأمير الذي فتحها يقال له قوجه ، ومعناه باللغة التركية شيبة .

وفي هذه السنة فتحت حصون كثيرة منها حصن بولي وحصن صحانوني وما ينضم إليها ، وفيها فتحت بلاد قره مرسل على يد الأمير قره مرسل فسميت تلك البلاد باسم فاتحها ، وهي بلاد كثيرة يخرج منها الفواكه الكثيرة تجلب فواكهها إلى القسطنطينية .

ولما توفي كان بيده الممالك التي افتتحها هو وأبوه والممالك التي افتتحها السلجوقية ، فكانت بأيديهم ، وكان ملكهم لها على التدريج في سنين متعددة ، وهي قونية ووان وآقصرا وقيسارية وسيواس وبلاد آيدين ومنيسا وصاروخان وحميد وكرسان وبرقسطموني وأنكورية وملطية ومرعش والبستان وتوقات وأماسية ونيكسار وأرزنجان وسامسون وجانيق وعينتاب ، وتسلطن بعده ولده أورخان في ابتداء سنة سبع وعشرين ، ولما توفي السلطان عثمان جاء الخبر لابنه السلطان أورخان وهو محاصر مدينة بروسة كما تقدم .

ذكر فتح بروسة

ثم إنه بالغ وبذل جهده في حصار أهلها وقتالهم حتى افتتحها واستولى على القلعة وأسكنها المسلمين وجعلها داراً للإسلام بعد أن كانت معقلاً لأهل الأوثان والأزلام ، ونقل كرسي ملكه إليها وجعلها دار السلطنة ، وبنى بها جامعاً ومدرسة وتكية يطبخ فيها الطعام للفقراء والأيتام والغرباء ، وهذه المدينة من أعظم المدن الإسلامية وأعمرها ، وهي مدينة كثيرة الثمار والعيون .

ذكر فتوحاته في بلاد اليونان

ولما نقل السلطان أورخان كرسي الملك إلى مدينة بروسة أخذ في الاهتمام والاستعداد لافتتاح مدن جديدة ، فجهز الجيوش وجند الجنود وهاجم بلاد اليونان فافتتح أكثر بلدانها وعامل أهلها بالشفقة والرحمة ، حتى إن كثيراً من النساء الروميات اللاتي فقدن أولادهن ورجالهن في تلك الحروب كن يستغثن به ويقعن على قدميه ويطلبن المساعدة والرعاية ، فكان يلاطفهن بالكلام وينعم عليهن بما يسر خواطرهن ،

فمالت إليه قلوب الناس ، وما زال يتقدم في فتوحاته حتى أشرف على خليج القسطنطينية وبوغاز كليبولي ، واجتاز ابنه سليمان بوغاز شنق قلعة وفتح مدينة كليبولي وهي مفتاح القسطنطينية .

وفي سنة ٧٣١ سار السلطان أورخان بعساكره ففتح حصون قيسون حصاري وفتح أزميد وفتح مدينة أزينوب ، وكانت من أعظم مدائن الكفار ومجمع عظمائهم فغنم المسلمون منها غنائم كثيرة ، وفتح حصوناً كثيرة .

وفي سنة ٧٥٨ أمر السلطان أورخان ولده الأمير سليمان أن يجتاز البحر الأبيض إلى طرف روم إيلي للجهاد ، ولم يكونوا يملكون السفن فعملوا ألواحاً شبه السفن فركبوا عليها في الليل من موضع يقال له كمر ، فوصلوا إلى ذلك البر فصادفوا حصناً يسمى جمنا فاستولوا عليه بما فيه ، ثم هجموا على قلاع أخرى فاستولوا عليها قهراً .

ذكر القتال مع كليبولي

وكان الأمير سليمان بن أورخان المذكور على جانب عظيم من الشهامة والعدالة ، فلما رأى الكفار حسن سيرته ونشر عدله وضبط جنده أطاعوه ورضوا به ، فصار أمر المسلمين ينمو وصِيتُهم يسمو ، فخرج لقتالهم صاحب كليبولي في عسكر كبير ، وكان المسلمون في عسكر قليل فتوكلوا على الله وتوسلوا برسول الله ﷺ ، فقاتلوهم قتالاً شديداً فانتصر المسلمون واستولوا على عدة حصون منها مدينة كليبولي وهي مدينة جليلة على شاطىء البحر وبينها وبين القسطنطينية ٨٦ ميلاً ونصف ميل ، ومنها قلعة قره جك وقلعة خيره بول وهي بلاد متسعة ، ومنها قلعة دركور ومنها تكفور طاغي وغير ذلك ، وخرب الكنائس والبِيَع وبنى مكانها مساجد ومعابد .

وفي سنة ٧٦٠ خرج الأمير سليمان المذكور للصيد فكبا به الفرس فمات لوقته ، فجزع عليه أبوه جزعاً شديداً .

وفي هذه السنة عبر الأمير مراد الغازي بن السلطان أورخان إلى طرف روم إيلي من خليج كليبولي ، ففتح مدينة جورلي وهي من القسطنطينية مسيرة ثلاث مراحل ، ولم يزل مراد الغازي يحاصر البلاد ويقاتل الكفار حتى فتح مدينة ديمتوقة وهي من كبار البلاد الإسلامية .

وفي سنة ٧٦١ توفي السلطان أورخان وعمره ٨٣ سنة ودفن بمدينة بروسة ، ومدة ملكه ٣٥ سنة وكان ملكاً جليلاً ذا سيرة مرضية وكرم وافر وعدل متكاثر طاهر الاعتقاد سليم الفؤاد عدواً لأهل الكفر والإلحاد ، وكان كثير الغزو والجهاد ، وبنى كثيراً من الجوامع والمدارس وأجرى فيها الخيرات الكثيرة رحمه الله تعالى ، وتسلطن بعده ولده (السلطان مراد الأول) ، فلما جلس على سرير الملك وحاصر مدينة أنكورية وكانت عصت عليه ففتحها عنوة وكانت من أمنع الحصون ، فلما سمع بخبره ابن قرمان صاحب مدينة لارندة خشي على بلاده فجمع جموعاً من التتر وورشق وطور عود والتركمان وغيرهم ، وسار بجموع لا تحصى لقتال السلطان مراد المذكور ، فجرى بينهما قتال شديد وحرب أكيد ، ثم انجلى الأمر عن هزيمة ابن قرمان وانتصار السلطان مراد .

ذكر فتح أدِرْنة

وفي هذه السنة أيضاً جهز السلطان مراد جيشاً وأرسله لفتح أدِرْنة ، وجعل عليه شاهين لالا الأتابك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً وعجزوا عن أخذها ، وسألوا السلطان مراداً أن يقدم عليهم بنفسه ، فسار السلطان مع جيوش الموحدين وغزاة المجاهدين فاجتاز البحر ، فلما سمع الكفار بقدومه تزلزلت أركانهم وهرب سلطانهم ، فلما سمع المسلمون بذلك هجموا على المدينة فأخذوها وأرسلوا السلطان فحمد بذلك الله وأثنى عليه وجاء فدخل المدينة ، وهي من أعظم مدن الدنيا تجري من تحتها ثلاثة أنهار ، وبينها وبين القسطنطينية سبعون ميلاً ، ثم أرسل لالا شاهين الأتابك ففتح مدينة فلبه ، ثم فتح زغرة بنواحيها وعادوا إلى مدينة بروسة .

ومن غزاته أنه سار إلى إقليمي الصرب والبلغار وفتح فيها فتوحات وأثخنهم قتلاً وأسراً ، وكان بِبَرّ الأناضول جملة من أمراء الأتراك لم يزالوا باقين على الاستقلال فحاربهم وأخضعهم ، واستولى على مقاطعة كرميان وغيرها من الولايات ثم على مدينة كوتاهية ، وخضع لسلطنته معظم مقاطعة مكدونية وبلاد الأرناؤوط ، وفتح كثيراً من بلاد اليونان ، وعبر بحر مرمرة وفتح مدناً وقلاعاً جهة تاسالية .

ذكر ابتداء اختراع عسكر الإنكشارية

وفي سنة ثلاث وستين وسبعمئة أشار خليل باشا على السلطان بأن يأخذ خمس الأسارى من الغانمين على زقاق كليبولي ، وكان الغزو والجهاد في بلاد الروم إيلي متتابعاً ، فكانت تسبى الأسارى وتأتيه كالسيل الهامي والبحر الطامي ، فاجتمع منهم عند السلطان طائفة كثيرة ، فأمرهم السلطان بتعليم علم الرمي بالبندق فتعلموا ، ثم ميزهم وأرسلهم إلى خدمة الشيخ العارف بالله تعالى الحاج بكتاش ليعلمهم بعلامة ويسميهم باسم ويدعو لهم بالخير والظفر ، فلما اجتمعوا عند الشيخ قطع كُمّ قبائه وكان من لبد فألبسه رأس رئيسهم ودعا لهم بالبركة وسماهم ينك جري والجاري على الألسن إنكشاري ، ومعناه العسكر الجديد ، لأن السلطان عثمان كان أكثر عساكره من فرسان التركمان ولم يكن لهم معرفة بالضبط والربط العسكري ولا انتظام لهم حال القتال ، فاستصوب السلطان أورخان ترتيب عساكره على هذا الوجه فأحدث وجاق الإنكشارية إلى زمن السلطان محمود الثاني فأبطله وأبادهم ، كما سيأتي ، سنة إحدى وأربعين ومئتين وألف وأحدث النظام الجديد الموجود الآن .

وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة اشترى السلطان مرادخان من صاحب بلاد حميد خمس قلاع ، وهي بلواجويني شهر وآق شهر وقره أغاج وسيدي شهر .

وفي سنة إحدى وتسعين وسبعمئة خرج السلطان مراد المذكور إلى قتال رئيس الكفار ابن لازقا ، وكان قد تجمع لقتاله أهل اليونان والصرب والأفلاق والبغدان وأهل الماعن والمجر والبلغار ، وتحزبوا جميعاً عليه ، فاتفق موافاته بعسكر الكفار بموضع يقال له قوصو ببلاد الروم إيلي ، فالتحم بين الفريقين القتال إلى أن هبت رياح النصر للمسلمين وقتل رئيس القوم الكافرين ، وانقلب الكفار على أدبارهم صاغرين .

ذكر استشهاد السلطان مراد الأول

ثم إنه لما انهزم الكفار أقبل من أمرائهم أمير يقال له يلواش في خيله ورجله مظهراً للطاعة ، فلما هَمَّ بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر كان في كُمّه ، فمن ذلك سَنّ العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان أن يمسك أحد من طرف كُمّه وآخر من كُمّه

الآخر احترازاً من ذلك ، فمات السلطان سنة سبعمئة واثنتين وتسعين من ضربة ذلك الخنجر وخرجت أمعاؤه فدفنوا أمعاءه هناك وحملوا جسده ودفنوه بمدينة بروسة ، وقتلوا ذلك الكافر الذي ضربه وقطعوه بالخناجر ، وكان السلطان مراد المذكور رحمه الله ملكاً جليلاً عارفاً ، وكان أفنى عمره في الجهاد وكان شجاعاً مقداماً عالي الهمة ، توفي وعمره خمس وستون سنة ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة ، وتسلطن بعده ولده (السلطان السعيد يِلْدِرِمْ بايزيد خان) وبعد جلوسه أخذ في محاربة الصرب الذين كان أبوه يحاربهم ، وتقوت عساكره إلى أن وصلت إلى ودين ، وتملكوا مدينة أسكوب ، والتزم ملك الصرب أن يزوج أخته للسلطان المذكور وأن يدفع خراجاً سنوياً ، ومن فتوحاته أنه استولى على جزيرة رودس وكانت للمسلمين ، فتملكها النصارى وتكرر انتزاعها منهم مرة بعد أخرى ، وآخر الأمر انتزعها هذا السلطان منهم .

وفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة فتح السلطان المذكور قرطوة وهي معدن الفضة الخالصة التي لا نظير لها ، وفتح بلاد أسكوب وهي من أجلّ البلاد الإسلامية ، وفتح قلعة ودين فخاف ابن آيدين من السلطان المذكور وسلم مفاتيح قلاعه إليه ، وفيها أطاع السلطان أهل بلاد قرسي وصاروخان ، وفيها هرب صاحب قسطموني وهو ابن منتشا ، فأرسل السلطان من يضبط تلك القلاع ، ولما نقض العهد علاء الدين صاحب بلاد قرمان وبلغ السلطان أنه أغار على بعض بلاد أناضولي هجم عليه السلطان فانهزم فلحقه بموضع يقال له آق جاري ، فأسر هو وابناه فنازل السلطان مدينة قونية وهي كرسي مملكته وحاصرها ، وكان وقت إدراك الغلال فرسم السلطان بألّا يتعرض أحد لشيء من الغلال وألّا يظلموا أحداً ، وأذن لأهل القلعة بأن يخرجوا ويشتغلوا ويبيعوا على مقدار ما شاؤوا ، فخرج أهل القلعة وأصلحوا شأن غلالهم وحصادهم وباعوها من العسكر على أبلغ وجه أرادوا ، فلما شاهدوا ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إن ملكاً بلغ منا هذا المبلغ لا ينبغي أن نعصيه ، ونخرج عن طاعته ، فحضروا برمتهم طائعين وسلموه مفاتيح القلعة وقالوا : أنت أحق بها وأهلها ، فلما رأى أهل سائر القلاع ما فعل أهل قونية ، وهي عمدة بلاد قرمان ، رغبوا في المتابعة بمفاتيح قلاعهم وهي بلدة آق سراي ونيكدة وقيصرية ودولي قرا حصار وسلموها إلى السلطان المذكور ، ثم رجع إلى مقر مملكته بروسة بعدما قتل علاء الدين بن قرمان وحبس ولديه بمدينة بروسة ، وبَقِيا إلى أن أطلقهما الخارجي تيمور .

وفي سنة خمس وتسعين وسبعمئة استولى السلطان المذكور على سيواس وأماسية ومدينة توقات ونيكسار وجانيك وصامسون ، وكلها كانت بيد السلجوقية وعمالهم .

وفي آخر هذه السنة بلغه أن صاحب قسطموني أغار على بعض البلاد التي بيد السلطان بايزيد وعاث فيها نهباً وتخريباً ، فلما بلغه ذلك ، وكان قد جاز البحر لغزو الكفار إلى طرف روم إيلي ، فترك الغزو ورجع لقتال صاحب قسطموني ، فمات قبل أن يصل إليه السلطان بايزيد ، وتملك ابنه وأرسل إلى السلطان يستعطفه ويسترضيه ويقول إن أبي قد جنى وقد مات وأنا مطيع لأوامر مولانا السلطان ، ومن جملة مماليكه ، فالمناسب لعدله ألّا يؤاخِذ أحداً بذنب غيره ، وأرجو من مكارمه أن يترك لي مدينة سينوب وهي مدينة أبي ومسقط رأسي ويجعلني فيها نائباً عنه ، فأجابه السلطان إلى سؤاله وعاد إلى مدينة بروسة .

ثم أرسل السلطان بايزيد إلى صاحب القسطنطينية يقول له : إما أن تخرج من البلاد وتسلمها ، وإما سرتُ إليك فأتيتك في أعز مساكنك ، فخاف منه ملك القسطنطينية وتراسَل معه إلى أن قر الأمر بينهما بأنه يدفع خراجاً في كل سنة عشرة آلاف ذهب ، وأن يبني للمسلمين في داخل المدينة محلة يسكنون فيها ، ويكون لهم فيها مسجد وجامع وقاض يقضي لهم الخصومات ، فرضي بذلك وفعله ، واستمر ذلك إلى وقعة تيمور ، فنقض العهد وأخرب الجامع ، وأخرج المسلمين من البلد وساقهم إلى الروم .

قال الحافظ ابن حجر في كتابه أنباء الغمر في أبناء العمر : واشتهر يِلْدِرِم بايزيد بالجهاد في الكفار حتى بَعُدَ صيته ، وكاتبه الظاهر برقوق صاحب مصر وهاداه ، ووفد إليه أمير بعد أمير بالهدايا ، ولم يبق أحد من ملوك الأرض حتى كاتبه وهاداه ، قال الحافظ : وسمعت شيخنا ابن خلدون يقول إنما نخاف أن تتملك مصر من ابن عثمان . وكذا كان يقول الظاهر برقوق : أنا لا أخاف من الكفار فإن كل أحد يساعدني عليهم وإنما أخاف من ابن عثمان .

والحاصل أن هذا السلطان افتتح إيالات كثيرة في الأناضول وروم إيلي ، واستولى على مدينة سلانيك ، ثم شن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنج ، ثم وجه عزمه وهمته لفتح القسطنطينية ، وأخذ في تدبير ذلك وشرع في محاصرتها ، ثم

قدر الله بمسير التيمور إلى قتاله .

وفي سنة ٨٠٢ اجتمع كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملكهم السلطان يلدرم بايزيد وساروا إلى تيمور مستغيثين به ، يشكون إليه من السلطان بايزيد ويرغبونه في المسير إلى الروم ، ويستنجدون به عليه في رد ممالكهم ، فأجاب تيمور سؤالهم وسار بجيوش كثيرة ، ووقع بينه وبين السلطان بايزيد مكاتبات كثيرة فلم يرجع عن قصده ، والكلام على ذلك قد تقدم عند ذكر تيمور مبسوط .

وكان السلطان بايزيد محاصراً القسطنطينية ، وقد قارب فتحها وأشرف عليه ، فتركها وتوجه بعساكره لقتال تيمور ، وكان غالب عسكر السلطان من التتر ، فأرسل تيمور إلى زعمائهم والكبار من رؤسائهم وأمرائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، فوعدوه بالمعاونة ، وكان تيمور قد نزل أنكورية فقصده السلطان والتقت الجيوش بقرب أنكورية واشتد القتال فانهزم التتر الذين مع السلطان بايزيد فتبعهم كثير من العسكر في الانهزام فانهزموا ، وبقي السلطان بايزيد يقاتل بنفسه إلى أن وصل إلى تيمور وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطاً وأمسكوه أسيراً ، وكان رحمه الله من خيار الملوك ، وكان مجاهداً مرابطاً قد فتح من بلاد الكفار ومدنهم الكبار ما لم يمسها من المسلمين خُفٌّ ولا حافر ، وكان قوي النفس شديد البطش عالي الهمة ، ولما أخذ السلطان بايزيد أسيراً صحبه تيمور معه إلى بلاد العراق قاصداً خراسان ومكث في إثره إلى أن توفي في تبريز سنة ٨٠٥ .

ثم وقعت فتن كثيرة في أراضي الروم بين أولاد بايزيد مع بعضهم ، واستمرت إلى سنة عشرة وثمانمئة ، فتم الملك والسلطنة (للسلطان محمد الأول بن بايزيد) وكان أصغر إخوته فالله سبحانه وتعالى يؤتي الملك من يشاء ولا يُسأل عما يفعل ، وكان دأبه الاشتغال بالحروب .

وكان من جملة من خرج عليه وحارب (قره دولقشاه) من التتر في نواحي أماسية ، فسار عليه وهزمه وبدد شمله ، ثم قصد قتال صاحب سينوب وجرى بين الفريقين قتال شديد انتصر فيه السلطان محمد وانهزم صاحب سينوب أقبح هزيمة ، واستولى السلطان محمد على جميع ممالكه ، ثم بعد ذلك صفا له الدهر وانتظم له الأمر ولم يبق من ينازعه

في ملكه ، وفتح مدينة إزمير ونقل كرسي السلطنة إلى أدرنة ، وأتته رسل ملوك الأفرنج بالهدايا وبالتهاني ، وعقدوا معه صلحاً خوفاً منه ، وأعاد رونق السلطنة ووسع نطاقها .

ثم لما بلغه أن ابن قرمان نقض العهد وتعرض لأخذ بعض البلاد سار إليه بجيش عظيم فقاتله فهزمه وتبعه حتى أسره وولديه فأحضر بين يدي السلطان فعاتبه على سوء صنعه ثم عفا عنه وعن ولديه وأطلقهما وعين لهما بعض بلادهما وأخذ عليهما العهد والميثاق ألاّ يخونا بعد ذلك ، واستولى على عدة قلاع لابن قرمان فيها قلعة صوري حصار وقلعة قير شهر وقلعة نيكدة وقلعة آق شهر وقلعة سيدي شهر وقلعة أوغازي وقلعة يني شهر وقلعة سعيد إيلي .

ثم سار واستولى على صامسون وغالب هذه البلاد وكانت قد افتتحها السلطان بايزيد ، ثم لما قدم تيمور إلى بلاد الروم ردها إلى أصحابها ، فارتجعها منهم السلطان محمد المذكور ، وكان السلطان محمد المذكور ملكاً جليلاً مهاباً محباً للعلماء والصلحاء ، وهو أول من عَيَّن الصُّرّة لأهل الحرمين ، واستمر في ملكه ثمانية أعوام وعشرة أشهر ، وتوفي سنة أربع وعشرين وثمانمئة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وعهد بالسلطنة لولده مراد الثاني ، وكان ولده المذكور إذ ذاك غازياً في أقصى بلاد روم إيلي فأخفى الوزراء موت السلطان محمد مدة إحدى وأربعين يوماً حتى وصل ولده (السلطان مراد) إلى مدينة بروسة واستقر على التخت ، ثم بعد ذلك أظهروا موت السلطان .

وفي سنة خمس وعشرين وثمانمئة ظهر رجل ادّعى أنه مصطفى بن السلطان يلدرم بايزيد ، وكان مصطفى المذكور فُقِد في محاربة التيمور ، فادّعى أنه هو وأقام في نواحي سلانيك فاجتمع عليه خلق كثير واستولى على جميع بلاد الروم إيلي وعلى مدينة أدرنة ، ثم اجتاز البحر إلى طرف أناضول ليقاتل السلطان مراداً ، وكان السلطان مراد بعث قبل ذلك وزيره بايزيد باشا وصحبته عساكر كثيرة إلى أدرنة لقتال الخارجي المذكور ، فقاتلوه بقرب أدرنة فانتصر الخارجي وانهزم عسكر مراد وأسروا الوزير بايزيد باشا وقتله الخارجي ، فسار السلطان مراد بنفسه لقتاله بعساكر وافرة ، فقدر الله أن الخارجي المذكور أصابه الرعاف واستمر به ثلاثة أيام حتى ضعف جداً وجعل يخلط في الكلام واختل عقله ، فلما تحقق ذلك أركان دولته ووجوه عسكره تيقنوا خذلانه ، فداخلهم الخوف فتفرقوا شَذَر مَذَر ، وهرب الخارجي مع ضعفه إلى طرف روم إيلي ،

فلماشاهد ذلك عسكر السلطان مراد اجتازوا خلف المنهزمين فأسروا منهم خلقاً كثيراً وقتلوا غالبهم وغنموا منهم أموالاً ودوابَّ كثيرة ، ثم أمر السلطان بعض أمرائه حتى لحق الخارجي بقرب أدرنة فظفر به فقتله ، وانتظم الأمر للسلطان مراد وارتجع جميع ممالكه وكان حريصاً على فتح القسطنطينية ، فأقام بمئتي ألف مقاتل وحاصرها حصاراً شديداً فقاومه أهلها أشد مقاومة ، ثم رفع الحصار عنها ورجع إلى دار ملكه لتسكين الفتن التي أضرمها الروم بتلك النواحي ، فقاتلهم حتى أخمد تلك الفتن واستخلص تلك المدن ، وما زال يتقدم حتى داخل بلاد المورة .

فلما ذاع عند الفرنج خبره نهض البابا وعقد عهوداً بين ملوك الفرنج على محاربته فأجاب إلى ذلك الفرنسيس وجرمانية والمجر وبولونية ، فكان بينه وبينهم حروب كانت الغلبة في بعضها لهم وفي بعضها له ، ثم عقد معهم صلحاً سنة ٨٤٧ ، وفي سنة ٤٩ نزل السلطان مراد عن السلطنة لولده السلطان محمد وخلع نفسه عن السلطنة واختار لنفسه مدينة مغنيسية ، فانتقل إليها واعتزل عن الملك ، وشاع هذا الخبر في الآفاق ، وقال ملوك الكفار بعضهم لبعض إن ملك المسلمين قد صار شيخاً كبيراً فاعتزل الملك وجعل منصبه لولده وهو صبي صغير لا يخشى منه ، فاتفق قرال أنكروس وقرال الألمان وقرال جه وقرال له وأمير طين وأمير بوسنة وصاحب أفلاق وبغدان وطوائف الأفرنج على قتال المسلمين وألاّ يَدَعوا من بلادِ الإسلام حجراً على حجر ، فلما بلغ ذلك أركان الملك خافوا واستصوبوا أن يدعوا السلطان مراداً من مغنيسية ليكون معهم لأنه سلطان شاع بذكره الأخبار وطالما أنكى الكفار ، فأرسلوا يطلبونه ، فامتنع وقال : سلطانكم دونكم فخذوه وخلّوني ، فلم يزالوا يدخلون عليه حتى رضي .

ذكر غزوة عظمى

سار مع ولده السلطان محمد إلى طرف العدو ، فلما تصافَّ الطائفتان والتقى الجمعان تكاثر كل من الفريقين على الآخر وانهزم المسلمون وجعل الكفار يطردونهم ويقتلونهم ولم يبق إلا السلطان مرادخان في القلب ، فلما شاهد ذلك الحال رفع يده إلى الله تعالى وسأله النصر والعون وتوسل بالنبي ﷺ ، فلم تمض ساعة حتى اغترّ قرال أنكروس وهو كبيرهم فبرز من بين عسكره فانفرد وجعل يدعو السلطان مراداً للمبارزة ،

ثم هجم على المسلمين فتقنطر به فرسه ، فسار إليه المسلمون فقتلوه وحزّوا رأسه ورفعوه على رمح ، وجعلوا يصيحون هذا رأس قرال الملعون ، فلما رأى الكفار ذلك انهزموا عن آخرهم وساق المسلمون خلفهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وكان يوم غم ثم سرور والعاقبة للمتقين ، وأما الغنائم والأسرى فلا تحصى ولا تحصر ، ثم إن السلطان مراداً لما رجع من الغزو وأمضى سلطنة ولده السلطان محمد خان على ما عليه ، وسار هو إلى طرف مغنيسية ، واستمر الحال إلى أن تحرك طائفة الينكجرية وعادوا وكبسوا بيوت الأمراء والوزراء ونهبوها ، وكان ذلك في سنة ٨٥٠ .

ذكر غزوة أخرى

فعند ذلك رأى الوزراء وسائر أركان الملك أن يعيدوا السلطان مراداً إلى الملك ليسترهبوهم ، فطلبوه وأجلسوه على سرير الملك ، وعاد ابنه السلطان محمد إلى مكان أبيه مغنيسة ، وبقي فيها إلى أن توفي أبوه ، فجلس بعده على تخت السلطنة ، واستمر السلطان مراد يغزو حتى استولى على معظم بلاد الكفار ، وسار إلى بلاد المورة وباقي الأقاليم المجاورة لها ، فأخضعهم ورتّب عليهم الخراج ، وجرت على آثار ذلك حروب كثيرة بينه وبين الأرناؤوط والمجر إلى أن توفي سنة ٨٥٥ وعمره تسع وأربعون سنة ، ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة ، وكان ملكاً جليلاً صالحاً يعتني بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء ، مهد الممالك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين ، وكان مقداماً فاتكاً شجاعاً كريماً واسع العطاء ، عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمئة دينار ، وللشرفاء من خزينته في كل عام مثل ذلك ، رحمه الله تعالى ، وأوصى ابنه محمداً أن يهتم بفتح القسطنطينية ويوجه إليها جنوده ، فتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثاني) فاتح القسطنطينية وهو السلطان الظليل الفاضل النبيل أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداماً واجتهاداً وأكثرهم توكلاً على الله واعتماداً ، وهو الذي أسس ملك بني عثمان ، وقنّن لهم قوانين وصارت كالطوق في أجياد الزمان ، وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام ، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام ، ولما تسلطن كان عمرهُ ١٩ سنة ، فخرج إلى قتال صاحب قرمان ، فخاف منه صاحب قرمان وصالحه ، فعاد إلى مقر ملكه .

ذكر فتح القسطنطينية

ثم لم يكن له هم إلا فتح القسطنطينية فشرع في مهماتها ومقدماتها ، وهي من أعظم البلدان وأكبرها وأمنعها حصناً ؛ لأنها أحاط بها البحر من كل صوب إلا الطرف الغربي وهو طرف يسير ، وقد حصنوه بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجري فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع ، فأظهر السلطان مسالمة صاحب القسطنطينية ، وذلك في سنة ست وخمسين وثمانمئة ، ثم طلب من طرف بلاده أرضاً مقدار جلد ثور يهبها له ، فاستقلَّ ذلك صاحبُ القسطنطينية ، وقال : سبحان الله ما يفعل به ، فهو له ، فأرسل السلطان المزبور جماعة من البنائين والصناع فاجتازوا الخليج الداخل من بحر نيطش وهو البحر الأسود إلى بحر الروم ، فقدّوا جلد الثور قدّاً رقيقاً ، فبسطوه على وجه الأرض على أضيق محل من فم الخليج ، فبنوا على القدر الذي أحاط ذلك الجلد سوراً منيعاً شامخاً وحصناً رفيعاً باذخاً ، فركب فيه المدافع الرعدية والمكاحل الشهابية ، ثم بنى السلطان في مقابلة ذلك الحصن في بر أناضولي حصناً آخر وهو في طرف بلاده ، فشحنه بالآلات النارية والمرامي الرعدية حتى ضبط فم الخليج ؛ فلم يقدر يسلكه بعده شيء من مراكب البحر الأسود إلى القسطنطينية وإلى بحر الروم ، ثم وجّه عزمه إلى مدينة أدرنة ، فأمر بإنشاء دار السعادة الجديدة ، فشرعوا في بنائها ، ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل المكاحل لأجل فتح القسطنطينية ، فأكثروا منها .

ثم لما تكاثرت الآلات وتكاملت الأسباب المتعلقة بالقتال قدر الله أن انتقضت المسالمة التي كانت بينه وبين ملك القسطنطينية لأسباب جرت ، فأرسل ملك القسطنطينية يتهدده بكلام غليظ ، فكان ذلك سبباً للاستعداد لقتاله وقوة عزمه على ذلك .

ولما علم ملك القسطنطينية بعزمه على قتاله أرسل إلى ملوك الأفرنج يستنجد بهم ووعدهم بضم الكنيسة الرومية الشرقية إلى الكنيسة الرومانية الغربية ، ففرح البابا بهذا الخبر وكان يتمناه ، وأرسل له نجدة من عساكر ملوك الأفرنج ، فلم يُجْدِ ذلك نفعاً ؛ إذ لم يكن للروم اهتمام بهذا الحرب لكراهيتهم ضم الكنيستين معاً ، ومن ذلك الوقت

جرت البغضاء في قلوبهم لملك القسطنطينية وتخلوا عنه في المدافعة والمحاماة حتى قال بعض أكابرهم : أحب أن أرى في القسطنطينية تاج السلطان ولا أرى إكليل البابا .

فنهض في أوائل شهر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمئة بعسكر كثير وجيش كبير يبلغ مئتين وستين ألفاً بعزم صارم ورأي حازم في أسعد أوقات الحركات متوكلاً على فائض الخيرات ، فخيم على القسطنطينية ونازلها من طرف الشمال ، وكان له أربعمئة غراب قد أنشأها هو وأبوه قبل ذلك التاريخ ، فأرسلها عند الحصن الذي أنشأه على مقدار جلد الثور المرسوم ببغاز كسن ، فأمر بتلك الأغربة فسحبت إلى البر بعد أن جعلت تحتها دواليب تجري عليها كالعجلة ، وشحنها بالرجال والأبطال ، ثم أمر بنشر قلاعها ، فنُشِرتْ في ريح شديدة موفقة ، فساروا في البر على هذه الهيئة حتى أنصبوا إلى الخليج الواقع شمالي البلد من طرف مدينة غَلَطة ، فامتلأ الخليج من تلك الأغربة ، ثم قربوا بعضها من بعض وربطوها بالسلاسل ، فصار جسراً ممدوداً ومعبراً لطيفاً ، وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصنوها ، وإنما كان خوفهم من جهة البر ، فكانوا حَصَّنوها وغفلوا عن هذه الجهة لأمر يريده الله تعالى ، فشرع المسلمون في الحصار والقتال من جهة البر والبحر مدة واحد وخمسين يوماً حتى أَعْيَا المسلمين أمرُها ، وما زالوا مثابرين الحصار والقتال ، فجمع ملك القسطنطينية أعيان الأمراء والقواد ، لما اشتد عليهم الأمر وأخذ يحرضهم على القتال ، وبعد خطاب طويل أخذوا بالبكاء والعويل وعانق بعضهم بعضاً بقصد الوداع ، ثم قصدوا الأسوار وتحصنوا فيها .

ذكر دخول المسلمين القسطنطينية بعد فتحها

فلما كان اليوم الذي فتحت فيه وهجم العساكر العثمانية ودخلوها ، قاتل ملكهم قتالاً شديداً إلى أن قتل في المعركة ، وقتل معه خلق كثير ، فدخلها المسلمون وأسروا أهلها وأحرقوا مكاتبها ، يقال إن عدد ما فقد منها مئة وعشرون ألف مجلّد ، وكان السلطان محمد قد أرسل وزيره أحمد باشا بن ولي الدين باشا قبل هذا التاريخ إلى خدمة العارف بالله الشيخ آق شمس الدين وإلى خدمة الشيخ آق بيق يدعوهما للجهاد والحضور معه في فتح القسطنطينية فحضروا ، وبشر الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر وقال : ستفتح إن شاء الله تعالى قسطنطينية على يد المسلمين في هذا العام وأنهم سيدخلونها من الموضع الفلاني في اليوم الفلاني من هذا العام وقت الضحوة الكبرى ، وأنت تكون حينئذ واقفاً عند السلطان محمد ، فبشر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح ، فلما كان ذلك الوقت الموعود به ولم تفتح القلعة حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان ، فذهب إلى الشيخ فمنعوه من الدخول إليه لأنه أوصى جماعته ألّا يدخلوا عليه أحداً ، فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فإذا الشيخ ساجد على التراب ورأسه مكشوف وهو يتضرع ويبكي ، فما رفع الوزير رأسه من أطناب الخيمة إلا وقد قام الشيخ على رجليه وكبّر وقال : الحمد لله الذي منحنا فتح هذه المدينة ، قال الوزير : فنظرت إلى جانب المدينة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ، ففتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت الذي كان أشار به ، وكانت دعوته تخرق السبع الطباق ، فلما دخل السلطان محمد خان المدينة نظر إلى جانبه فإذا وزيره ابن ولي الدين واقف عنده ، فقال : هذا ما أخبر به الشيخ ، وقال : ما فرحي بهذا الفتح ، وإنما فرحي بوجود مثل هذا الشيخ في زماني .

ومن مناقب هذا الشيخ أنه كان طبيباً يداوي الأبدان كما هو طبيب لدواء الأرواح ؛ يحكى أن الأعشاب كانت تناديه وتقول له أنا أنفع للمرض الفلاني .

وكان فتح مدينة القسطنطينية نهار الأربعاء لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمئة ، وكانت أيام محاصرتها واحداً وخمسين يوماً ، فغنم المسلمون من

الأموال والأسباب والدواب ما لم يسمع بمثله في عصر من الأعصار ، لأن السلطان لما شاهد العي والفتور من العسكر في الحصار أمر بأن ينادىٰ أن الغنائم كلها لهم ، ويكفيني فتح المدينة ، فلما بلغهم ذلك بذلوا جهدهم واجتهدوا حتى يسر الله فتح المدينة ، فلما شاع خبر هذا الفتح في الآفاق هابه ملوك العالم ، فأرسل إليه صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب الغرب بالمكاتبات والمراسلات يهنّؤونه بالفتح ، ولا شك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة ، وكم من الخلفاء والملوك من رام فتح هذه المدينة وصرفوا هممهم وبذلوا جهدهم وأموالهم وأفنوا أعمارهم وعساكرهم فلم ينالوه ، إنما حباه الله تعالى لهذا السلطان الجليل والملك الجميل لكونه أخلصهم نية وطوية ، وأحسنهم سيرة ، وضمّن بعضهم هذا المعنى في تاريخ الفتح ، فقال :

رامَ أَمْرَ الفتحِ قومٌ أولُون ... حازَهُ بالنصرِ قومٌ آخرون

وقع لفظ آخرون تاريخاً بفتح المدينة المذكورة بعدد حساب الحروف ٨٥٧ ، وقيل في تاريخها أيضاً بلدة طيبة ٨٥٧ بحساب كل تاء مربوطة بأربعمئة ، وذلك جائز عند بعضهم ، وهي كذلك في طيب الهواء .

ولما دخل السلطان مدينة القسطنطينية سارع بالتوجه إلى كنيستها العظمى أيا صوفيا فدخلها وطهرها من خبائث الكفر وصلى فيها ودعا الله تعالى وحمده وأثنى عليه ، وجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين وعين له أوقافاً ومرتبات .

ثم إن السلطان محمداً التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، فقال الشيخ : إني شاهدت في موضع نوراً لعل قبره هناك ، فجاء إليه وتوجه زماناً ، ثم قال : اجتمعت مع روحه فهنأني بهذا الفتح ، وقال : شكر الله سعيكم الذي خلصتموني به من ظلمة الكفر ، فأخبر السلطان بذلك ، فحضر بنفسه إلى هناك ، وقال : ألتمس منك يا مولانا الشيخ أن تريني علامة أراها بعيني ويطمئن بذلك قلبي ، فتوجه الشيخ ساعة ، ثم قال : احفروا في هذا الموضع ، وهو من جانب الرأس من القبر ، مقدار ذراعين يظهر لكم رخام عليه خط عبراني ، فلما حفروا ظهر رخام عليه خط عبراني فقرأه من يعرفه وفسره فإذا هو قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، فغلب على السلطان محمد حال حتى كاد يسقط لولا أن أمسكوه ، ثم أمر ببناء قبة عليه .

وقد روى الإمام أحمد بإسناد حسن في مسنده ، والحاكم عن بِشر الغَنَوي « لَتُفْتَحَنَّ ـ بالبناء للمفعول ـ القسطنطينية ، ولَنِعْمَ الأميرُ أميرُها ولَنِعْمَ الجيشُ جَيْشُها » .

وهذا الحديث معجزة من معجزات النبي ﷺ وعلم من أعلام نبوته لأن فيه الإخبار بالغيب ، ووقع كما أخبر ﷺ وهو صادق على السلطان محمد خان هذا وعلى جيشه ، وإن كان الغزو إلى القسطنطينية وقع في زمن الصحابة ومن بعدهم وافتتحوا طرفاً منها في خلافة معاوية رضي الله عنه في الغزوة التي استشهد فيها أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، ثم استرجع الروم الطرف الذي افتتح في ذلك الزمن ، فالفتح التام إنما هو هذا الذي في زمن السلطان محمد الفاتح ، ففي الحديث منقبة عظيمة له .

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم : عن أم حرام بنت مِلْحان رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتي يَغْزونَ مدينةَ قيصرَ مغفورٌ لهم » .

فهذا يحمل على أول غزوة وُجِّهَتْ إلى القسطنطينية ، وهي التي كانت في زمن معاوية رضي الله عنه سنة اثنتين وخمسين من الهجرة ، وكان فيها كثير من الصحابة ، منهم : ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم رضي الله عنهم ، وكان في ذلك الجيش يزيد بن معاوية ، قيل كان هو أمير الجيش ، وقيل كان الأمير سفيان بن عوف ، وقوله مغفور لهم مشروط بكون المغفور له منهم من أهل المغفرة بأن يموت مؤمناً ، فلو ارتد واحد والعياذ بالله من ذلك الجيش ، ومات كافراً كان خارجاً من عموم تلك المغفرة ، وهكذا يقال في كل حديث يذكر فيه ، أن من فعل كذا يغفر له أو دخل الجنة فإن ذلك مشروط بالوفاة على الإيمان ، ومثل ذلك قد يرد في كلام بعض الأولياء بأن يقول أحدهم مثلاً من رآني دخل الجنة ، أو من أكل طعامي دخل الجنة ، فإن ذلك مشروط بالوفاة على الإيمان ، فلا يشكل عليك شيء من ذلك .

وبنى السلطان محمد عند قبر أبي أيوب جامعاً عظيماً ، وبعد تمام بنائه ذهب إليه بموكب عظيم وأقام الصلاة فيه ، وقلده الشيخ شمس الدين سيفاً بيده ، ومن ذلك الوقت جرت العادة أن السلطان الذي يجلس على تخت الملك يذهب إلى هذا الجامع ويتقلد بالسيف ، وهو بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى .

ذكر الغزو إلى بوسنة

وفي سنة ثمان وخمسين وثمانمئة غزا السلطان محمد بلاد بوسنة بعسكر كثير ، وقاتلهم أشد قتال واستولى على عامة بلادهم ، ولم يقم للكفار قائم بعد ذلك هناك .

وفي سنة إحدى وستين وثمانمئة وجّه هِمَّته إلى افتتاح جزيرة رودس ، فهدد أهلها وطلب منهم الخراج ، فامتنعوا وأرسلوا إلى البابا صاحب رومية يستنجدون به ، فأخذ يحث ملوك الأفرنج على محاربة الدولة العثمانية ، فلما بلغ السلطان محمداً هذا الخبرُ نهض بمئة وخمسين ألف مقاتل وحاصر مدينة بلغراد ، وضيق عليها براً وبحراً حتى كاد يفتحها ، فأخذ أحد الرهبان غيرة شديدة وصار يحث المسيحيين على المدافعة عن ملك المدينة ، فاستمال نحو أربعين ألفاً من العساكر النمساوية ، وقادهم قائد من المجر ، فأضرَّ بالسفن العثمانية بواسطة هذه النجدة ، واستمر السلطان محمد أربعين يوماً ، وهو يكرر الهجمات على المدينة المذكورة ثم ارتحل عنها ، وأما قائد جيشهم الذي هو من المجر فجرح جرحاً بليغاً هلك به ، وبعد هذه الغزوة زحف السلطان محمد على ولاية أثينا من بلاد اليونان ، ففتح دوكة وأثينا وهي المدينة الشهيرة فيها .

ذكر الغزو إلي بلاد الصرب والبوسنة والأرناؤوط

وفي سنة ثلاث وستين وثمانمئة توجه إلى بلاد الصرب وفتح فيها فتوحات .

وفي سنة ست وستين فتح إيالة طرابزون وولاية سينوب ، وأتى بصاحبها أسيراً إلى القسطنطينية فقتله السلطان محمد ، وكان له أولاد ثمانية فقتلهم معه ، وكان صاحب سينوب يكاتب ملك العجم ويعينه على السلطان محمد .

وفي سنة سبع وستين وثمانمئة توجه إلى إتمام تملك إقليم بوسنة ، وشن الغارات على ولاية الأفلاق والبغدان والصقالبة ، ثم صوب عزيمته إلى فتح بلاد الأرناؤوط وهم صنف من النصارى يتصبرون على المحن ويتكلفون الأعمال الشاقة ، قيل أصلهم من عرب الشام من بني غسان ارتحلوا من الشام بعدما أتى الله بالإسلام فقدموا من الشام وتوطنوا هذه البلاد ، وقيل أصلهم من البربر عبروا البحر من المغرب إلى هذا الصوب ، ثم غلب عليهم الجهل فتنصّروا ، فدخل السلطان بلاد الأرناؤوط فنهبها واستولى على

عدة قلاع هناك ، وأمر ببناء قلعة حصينة في ثغر عظيم هناك كالسد بينها وبين الكفار ، وشحنها بالرجال وسماها آق حصار ، وأودع فيها من المدافع والمكاحل ما يقيها .

وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمئة غضب السلطان محمد على صاحب قونية ولارندة ، فانتزع منه ولاية قرمان وجعل فيها ابنه السلطان مصطفى ، ثم استولى على قلاع عاصية هناك مثل قلعة أركلي وقلعة آق سراي وقلعة كولك وقلعة بولي ، وجعل الجميع لابنه المذكور .

وفي سنة خمس وسبعين فتح جزيرة أرغبوز من أعمال البندقية بعد أن أوقع بأهلها وقتل أكثرهم ، ثم استولى على بقية بلاد الأرناؤوط بأسرها .

ذكر إغراء العجم والتتر على الإغارة والنهب

وفي سنة ٨٧٦ بعث صاحب العجم حسن بك الطويل ويوسفجه بك مع عسكر التتر إلى نهب بلاد العثمانيين فجاؤوا ونهبوا مدينة توقات وأضرموا فيها النار وأغاروا عليها ، ثم اغتر يوسفجه بك فهجم على بلاد قرمان وأغار عليها ، وكان واليها يومئذ السلطان مصطفى بن السلطان محمد ، وكان في غاية من الشجاعة ، فقاتل العدو فهزمه وأسر رئيسهم يوسفجه بك وكبله في الحديد وأرسله مع عدة من الأسارى إلى أبيه السلطان محمد ، فكان ذلك عنوان الفتح ومقدمة النصر .

وفي سنة ٨٧٧ وقع قتال بين السلطان مصطفى بن السلطان محمد وبين زينل شاه ولد حسن الطويل ، فانتصر عليه السلطان مصطفى وانهزم جيشه ، وصارت الجيوش العثمانية يطردونهم ويقتلونهم ويأسرونهم ، وظفر بزينل شاه فقتله ، ثم سار مصطفى إلى قره حصار الشرقي وهو من بلاد حسن الطويل ، فاستولى عليها وأدرجها في جملة ممالكه .

وفي هذه السنة بعث السلطان محمد وزيره كدك أحمد باشا لفتح بلاد كفة ، فحاصرها حتى غلبها ، وفتحها ، ثم افتتح هناك عدة حصون وقلاع .

ذكر الغزو إلى بغدان

وفي سنة ٧٩ سار السلطان محمد إلى قتال كفار البغدان ، فخاف منه كبيرهم أستفان ، فهرب إلى أقصى بلاده ، فدخل السلطان بلاد بغدان وتوغل فيها وقتل من قدر

عليه ، فكانوا خلقاً لا يحصى وأسر وسبى ونهب ، حتى أذعن رئيسهم أستفان المذكور بالطاعة ، وأعطى الجزية .

وفي سنة ٨٨٥ صمم السلطان محمد على افتتاح جزيرة رودس ، فأرسل إليها أساطيل بحرية مشحونة بمئة ألف مقاتل ، فحاصر الجزيرة المذكورة ثلاثة أشهر ، فلم يتيسر فتحها ؛ لأنها كانت حصينة ، ثم ارتحلوا عنها .

وفي سنة ٨٦ جهز جيشين عظيمين أحدهما لمحاربة جزيرة قبرس ، والآخر لقتال العجم ، وأدركته الوفاة قبل تمام الأمر ، فتوفي ليلة الجمعة آخر شهر ربيع الأول من سنة ٨٨٦ وعمره إحدى وخمسون سنة ، ومدة ملكه استقلالاً بعد وفاة أبيه ٣١ سنة وشهران ، وكان ملكاً جليلاً يعجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه ، وكانت همته لا تكل ولا تعجز ولا تفتر عن الفتوحات رحمه الله تعالى .

قال العلامة القطبي عن بعض أوصاف السلطان المذكور : وللمرحوم المقدس قلادات منن لا تحصى في أعناق المسلمين ، لا سيما العلماء الأكرمين قلدها في أجيادهم فهي باقية إلى يوم الدين ، ولو ذكرت مناقبهُ لشحنت بها مجلداً ، أسكنه الله تعالى فسيح الجنان ، وأنزل على قبره سحائب الرحمة والرضوان .

وتسلطن بعده ولده السلطان بايزيد الثاني ، ونازعه أخوه السلطان جم ، ووقع بينهما حروب يطول الكلام بذكرها ، وكان الانتصار للسلطان بايزيد ، واستقر الملك له ، وكان رحمه الله ملازماً للغزو في سبيل الله مظفراً على أعداء الله محباً لعمل الخيرات ، مكرماً للعلماء والصلحاء .

وفي سنة ٨٨٨ سار بعساكره إلى بلاد قره بغدان ، فافتتح قلعة كلي وقلعة آق كرمان .

وفيها أيضاً فتحت قلعة ملوان وقلعة متون وقلعة طرسوس وقلعة نقشة وقلعة كولك ، والحاصل أنه استولى على كثير من بلدان البغدان وغيرها مما في تلك الأطراف .

وفي سنة ٨٩٧ توجه الوزير يعقوب باشا لغزو بلاد البوسنة فظفر بملكها درنجيل ، وقيده في وثاق وأرسله إلى السلطان بايزيد .

وفي سنة تسعمئة وثلاث بعث جيوشاً إلى بلاد الأرناؤوط براً وبحراً ، وخرج في أثرها بنفسه ومعه أيضاً جيوش كثيرة قاصداً الصرب وبلاد الأرناؤوط ، وحارب في تلك

الغزوة بولونية ، وأوقع بها واستولى على جانب عظيم منها ، وأخذ منها عشرة آلاف أسير ، ثم عاد إليها مرة ثانية فنكبها نكبة عظيمة .

وفي سنة خمس وتسعمئة سار السلطان بايزيد بعساكره ، فاستولى على قلعة إينه بختي ، وعلى قلعة قرون ، وكان السلطان بايزيد بن السلطان محمد من المجاهدين في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، فما زال غازياً في سبيل الله مظفراً على أعداء الله ، فكانت به كلمة الإسلام مجموعة وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة ، وكان محباً لنيل الخير مثابراً على بذل الإنعام والصدقات ، محباً للعلماء والمشايخ والأولياء من أهل الكرامات ، ودخل في طريق السادة الصوفية ، ودخل الخلوة ، وجلس الأربعين ، وارتاض مثل الصلحاء السالكين ، ولما دخل الخلوة كان والد مولانا أبي السعود المفسر وهو مولانا الشيخ محيي الدين أفندي .

وبنى السلطان بايزيد المذكور الجامع والمدارس ، والعمارات ، ودار الضيافات ، والتكيات والزوايا ، والخانقاه ودار الشفاء للمرضى ، والحمامات والجسور ، ورتّب للمفتي الأعظم ومن في رتبته من العلماء العظام في زمنه في كل عام عشرة آلاف عثماني ، ولكل واحد من مدرس الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد في كل عام سبعة آلاف عثماني ، ولمدارس شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثماني ، وكل واحد من مدرس شرح التجري ألفي عثماني ، وكذلك رتب لمشايخ الطريق إلى الله تعالى من أهل الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته واستحقاقه ، وهذا غير كسوة الصيف من الأصواف ونحوها ، وغير كسوة الشتاء من الفرو والجوخ لكل واحد على قدر مرتبته ، وصار ذلك قانوناً جارياً مستمراً .

وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم إحساناً كثيراً ، ورتب لهم صُرَراً في كل عام غير ما كان مرتباً من آبائه الكرام ، وكان يجهز إلى فقراء الحرمين الشريفين في كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهباً يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها الآخر على فقهاء المدينة ، ولم يكن حكم الحرمين في ذلك الوقت عنده ، فكانوا يتسعون بها ويرتقون بها ويدعون له ، فكان ذلك من أسباب تسهيل دخول أهل الحرمين تحت طاعة ولده السلطان سليم كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وكان إذا ورد عليه أحد من أهل الحرمين يكرمه ويحسن إليه ويرجع من عنده بصِلاتٍ عظيمة ومواهب جزيلة .

ذكر ظهور إسماعيل شاه سلطان العجم

مما كان من العجائب في زمن السلطان بايزيد بن السلطان محمد ظهور إسماعيل شاه في بلاد العجم ، وكان ظهوره واشتهار أمره سنة ٩٠٥ ، وكان له ظهور عجيب واستيلاء على ملوك العجم يعدّ من الأعاجيب ، فانتشر أمره وفتك في البلاد وسفك دماء العباد وأظهر مذهب الرفض والإلحاد وغيّر اعتقاد كثير من الخلق ، وصار يدعو الناس إلى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد ، وأزال من قلوبهم حسن الاعتقاد ، واللهُ تعالى يفعل في ملكه ما أراد ، وظهر من أتباع إسماعيل شاه شيطان تولى بالروم أهلك الحرث والنسل وعمّ الفساد والقتل ، وقويت شوكته وعظمت على المسلمين فتنته ، فأرسل السلطان بايزيد وزيره الأعظم علي باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغي ، فاستشهد علي باشا في ذلك القتال ، ولكن قتل الله ذلك الباغي ، وانهزم من كان معه من الجنود وقتل كثير منهم ، وكفى الله شر أولئك الأشرار ، وذلك سنة ٩١٥ .

وإسماعيل شاه المذكور هو إسماعيل بن حيدر بن جنيد بن إبراهيم بن سلطان خواجه بن علي بن صدر الدين موسى بن صفي الدين إسحاق الأردبيلي ، وكان أهل هذا البيت يقال لهم الصفويون نسبة إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي المذكور آنفاً ، وكانوا من أهل السنة والجماعة ومن أهل الألوية والصلاح والمشايخ أرباب الطريق والسلوك والزوايا ، وسلسلةُ طريقهم تنتهي إلى الإمام أحمد الغزالي أخي الإمام أحمد حجة الإسلام الغزالي ، وقيل إن لهم نسباً ينتهي إلى موسى الكاظم ، وكان جدهم الشيخ صفي الدين له شهرة كبيرة في مشيخة الطريق وتوفي بسنة ٧٣٥ ، ثم صارت المشيخة إلى ولده صدر الدين ، ثم في ولده علي ، ثم في ولده سلطان خواجه ، ثم في ولده إبراهيم ، ثم في ولده جنيد ، ثم في ولده حيدر ، ولما كانت المشيخة في جنيد كثر أتباعه ومريدوه واشتهر أمره وانتشر صيته ، وصار يجاهد الكفار بمن معه من المريدين والأتباع ، وكان جهان شاه التركماني صاحب شروان وأذربيجان متغلباً على ملك العراق وبغداد ، فتوهّم من جنيد وكثرة أتباعه ، وخشي أنه يتغلب عليه وينتزع الملك منه ، فأخرج جنيداً ومن معه من أردبيل ، فتوجهوا إلى ديار بكر ، ثم قوي

أمرهم فقاتلوا سلطان شروان ، فانهزم الشيخ جنيد ، ثم قتل وتفرق مريدوه ، ثم اجتمعوا بعد مدة على ابنه حيدر فقاتلوا أيضاً سلطان شروان ، فقتل الشيخ حيدر وأسر بنوه ومنهم ابنه إسماعيل شاه ، وكان صغيراً ، واستمر محبوساً هو وإخوانه ، وهرب بعض إخوانه من الحبس سنة ٨٩٦ ، ثم هرب إسماعيل شاه سنة ٩٠٦ وعمره ١٣ سنة واجتمع عليه خلق كثير بعد خروجه من الحبس كانوا يعتقدون الخير في أبيه حيدر ، فغير اعتقادهم إلى مذهب الرافضة فقصد بجموعه الأخذ بثأر أبيه وجده ، وكان قد رفض مذهب آبائه وأهل بيته وتمذهب بمذهب الرافضة ، تعلّم ذلك وسرى إليه وهو صغير حين كان في الحبس ، قيل في تاريخ ظهور مذهبنا حتى ٩٠٦ سمع ذلك بعض أهل السنة ، فقال مذهبنا : حق على النفي فإنّ : « نا » في الفارسي أداة نفي ، فقاتل بمن اجتمع معه شروان شاه ، وكان كلما سار منزلاً كثرت جنوده ، فنازلوا شروان شاه وقاتلوه فهزموه ، ثم أسروه فأتوا به إلى إسماعيل شاه فأمرهم أن يضعوه في قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ، ففعلوا كما أمرهم وأكلوه ، ثم قاتل بمن معه من الجند ملوك العراق وخراسان الذين كانوا متغلبين على الممالك في تلك الأزمان من التركمان وغيرهم ، فما كان يهزم له جيش ولا يتوجه إلى بلاد إلا ويفتحها ويقتل جميع من فيها وينهب أموالهم ، إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب وخراسان ، وتعاظم أمره حتى كاد يدّعي الربوبية ، وكان ظالماً غشوماً أفنى وأباد من الأمم بالقتل ما لا يحصى من العدد ، وكان عسكره يسجدون له إذا خرج إليهم ، ويأتمرون بأمره .

قال العلامة القطبي في تاريخه : قتل خلقاً لا يحصون ينوفون على ألف ألف نفس بحيث لا يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية من القتلى ولا في الأمم السابقة مثلما قتله إسماعيل شاه ، وقتل من أعاظم العظماء خلقاً كثيراً ، ولم يُبْقِ أحداً من علماء أهل السنة الذين كانوا في بلاد العجم ، وأحرق كتبهم ومصاحفهم لأنها مصاحف أهل السنة ، وكان كلما مَرَّ بقبر من قبور العلماء والمشايخ يأمر بنبشه وإخراج عظامه ثم يحرقها ، وإذا قتل أميراً من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر .

ومن جملة خرافاته المضحكة الدالة على سخافة عقله الناشئة عن تكبره وتجبره ، أنه جعل كلباً من كلاب الصيد أميراً ورتب له ترتيب الأمراء من الخدم والكواخي

والسماط والأطواق والفراش الحرير ، وجعل له سلاسل من ذهب ومرتبة ومستندة يستند إليها كالأمراء ، وأقام لخدمة ذلك الكلب جملة من خواص خدمه .

ومن تكبره وطغيانه أنه أسقط مرة من يده منديلاً إلى البحر وفعل ذلك قصداً ، وكان في جبل شاهق مشرف على البحر المذكور ، فصار عسكره وأتباعه وخدمه يلقون أنفسهم في البحر خلف المنديل ليأتوه به تقرباً إليه وليلتمسوا بركة المنديل الذي مسته يده ، حتى أحصي من رمى نفسه منهم فكانوا نحو ألف ، صاروا يتخبطون في البحر حتى غرقوا ، قيل إنهم كانوا يعتقدون فيه الألوهية وأنه لا ينهزم له جيش ، إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التي كانوا يعتقدونها فيه .

ومما يحكى عن إسماعيل شاه سلطان العجم أنه كان في ابتداء أمره تنهزم جيوشه ولا يثبت هو أيضاً للقتال بل ينهزم معهم ، فاتفق أنه اجتاز مرة بامرأة وهو متنكر فأضافته هو ومن معه وقدمت لهم طعاماً حاراً في صفحة ، فشرع الشاه إسماعيل يأكل من وسط القصعة وهي حارة والمرأة تنظر إليه ، فقالت له : ما أَشْبَهَكَ أيها الرجل إلا بإسماعيل شاه الذي ظهر في هذا الزمان ، فإنه يريد أن يقصد وسط الدولة محل الشوكة والقوة فيأخذه ذلك ، فينبغي له أن يأخذ أطراف البلاد ليبرد الوسط ، فأنت كُلْ من الأطراف حتى يبرد الوسط ، ثم كُلْ منه ، فتنبه من قولها وعمل بإشارتها فصار يقاتل أطراف الممالك حتى صار له ما صار وملك جميع إقليم العجم ، وبواسطته انتشر التشيع وظهر في العجم ، وسلاطينُ العجم الموجودين إلى وقتنا هذا من ذريته .

وسيأتي ذكر ما وقع بينه وبين السلاطين العثمانيين من القتال ، وكذا ما وقع بينهم وبين ذريته ، وإنما أطلت الكلام في بيان أحوال إسماعيل شاه وأصوله ليعلم من ذلك أن كثرة بغيه وطغيانه من جملة الأسباب التي دعت السلطان سليماً إلى قتاله الذي سنذكره مع ما انضم إلى ذلك مما كان بينه وبين السلطان سليم من العداوة التي سنذكر أسبابها .

ذكر الحرب والقتال الذي كان بين السلطان بايزيد وولده سليم

لا بد قبل ذلك من ذكر الأسباب الإلهية الخفية التي كانت بتقدير الربوبية ، ليعلم بذلك أن الأسباب الظاهرية لا بد معها من أسباب خفية قدرها الله تعالى من الأزل .

قال العلامة القطب في تاريخه : إن منجماً حاذقاً كان في عصر السلطان بايزيد فأخبره به وهو أن هلاكه وذهاب ملكه يكون على يد مولود يولد له ، وكان السلطان بايزيد قد ولد له أولاد قبل إخبار المنجم ، وكان إخباره له بذلك قبل أن يولد السلطان سليم ، فطلب السلطان بايزيد امرأة كانت معتمدة عنده بيدها أمر جواريه الموطوآت وهي قابلة لمن تضع حملها منهن وكانت من الصالحات ، فقال لها : إذا وضعت إحدى الجواري بعد الآن صبياً فاقتليه ولا تبقيه حياً ، وإذا ولدت أنثى اتركيها لتعيش مع بناتي ، وأكّد كلامه في ذلك غاية التأكيد ، فاستمرت على ذلك إلى أن ولدت واحدة منهن صبياً ، فلما رأته أمه التي ولدته حزنت عليه لكونه تخنقه القابلة ، فلما تناولته القابلة لتخنقه رأته صورة جميلة ووقع حبه في قلبها فرقّت له وقالت في نفسها : بأيّ وجه ألقى الله تعالى إذا قتلت هذا الطفل والله لا أقدم على قتله ؟ فأظهرت أنه بنت وقالت للسلطان بايزيد : إنه حصل له من فلانة بنت جميلة حسنة الصورة ، فلما أخبرته بذلك سماها سليمة ، واستمر الأمر على ذلك والحال مكتوم لا يعلمه إلا الله تعالى والقابلة وأم الولد ، وصار كلما كبر وانتشأ تظهر عليه أوصاف الذكور من الاستيلاء والغلبة والقهر ، وإذا اجتمع البنات وجلس بينهن لطم من كان منهن إلى جانبه ونهب ما وجد بأيديهن من معلومات الأطفال وغير ذلك ، وكنّ يحذرن منه ، فدخل السلطان بايزيد يوماً إلى داخل السراية ، وكان يوم عيد واستدعى بناته وأجلسهن بين يديه وأمر أن يوضع بين يدي كل واحدة منهن أنواع الحلوى والفواكه ، وحضر معهن ذلك الغلام المسمى سليمة ، فشرع في فعل ما كان يفعله مع البنات من الخطف والنهب والضرب وكلهن خائفات منه هائبات له ، فعجب السلطان بايزيد وصار يتأمله جيداً ويفكر في أمره ، وفي أثناء ذلك دار بينهن يَعْسُوب كبير وأَرَدْنَ أن يمسكنه فعجزن وهو يلسع من يريد إمساكه فهربوا منه فهابوه ، فمد الغلام المسمى سليمة يده إليه وهو طائر فأمسكه ومرسه وعقصه ورماه من يده ، فازداد تعجب السلطان بايزيد منه ، وقال للنساء الواقفات : هذا لا يكون أنثى اكشفوا لي عنه ، فبادرت القابلة وقالت : نعم هذا صبي وليس ببنت ، فقال لها : كيف خالفت أمري وما قَتَلْتِه ؟ فقالت : خفت من الله رب العالمين وخلصت ذمتك وذمتي من قتل معصوم لا ذنب له ، فتفكر طويلاً ثم قال : ما قدره الله فهو كائن لا مفر عنه ، وأمر بتربيته وأن يلبسوه لباس الذكور ، وسماه سليماً

إلى أن كان من أمره ما كان والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، والله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً .

ولما أراد الله براز ما أراده وقدّره من الأزل من ذهاب ملك السلطان بايزيد على يد ولده سليم ، أنشأ سبحانه وتعالى أسباب الحرب والقتال بينهما بإيجاد أسباب لا يحكم العقل فيها بأنها ينشأ عنها الحرب والقتال ، وذلك أن السلطان بايزيد شاخ وكبر سنه وتعطلت رجله عن الحركة بعلة النّقْرس ، فأراد النزول عن الملك لولده أحمد ، وكان أكبر أولاده وأحبهم إليه ، وقد جعله قبل ذلك أمير أماسية ، ثم جمع الوزراء وأعيان الدولة وعهد إليهم بأن ولده أحمد ولي عهده ، فاغتاظ سليم من ذلك وعزم على الخروج على أبيه وعلى خلع طاعته وقتاله ، وكان قد ولاه أبوه أدرنة ، فجمع العساكر وتوجه بهم إلى القسطنطينية مظهراً أنه يريد زيارة أبيه وتقبيل يده وأنه راضٍ بما يصنعه أبوه من جعل أخيه أحمد ولي العهد ، وأنه ليس له غرض في الملك ، واطّلَع أبوه بقرائن الأحوال على مراد ولده سليم ، وأنه إنما يريد السلطنة والملك ، فنهض السلطان بايزيد من القسطنطينية بعساكره وخرج مستقبلاً ولده المذكور ، فلاقاه بين القسطنطينية وأدرنة ، والتقى الجيشان ووقع القتال بينهما بقرب أدرنة وجرى بينهما حرب شديد ، ثم انجلى الأمر عن هزيمة سليم وانتصار أبيه عليه ، وأراد العسكر أن يطردوا خلف سليم ليقبضوا عليه ، فمنعهم أبوه السلطان بايزيد ، وقال : اتركوه لعله ينصلح ، وتوجه سليم هارباً وركب البحر وقصد بلاد كفة ، فبينما هم فيه إذ بعث السلطان بايزيد إلى ولده أحمد يدعوه إلى أن يقلده الملك وينزل عن السلطنة حالاً ، فامتنع وقال إنه لا يمكن أن يقبل ذلك في حياة والده تعظيماً لوالده ، وقال أيضاً إنه يخاف من عسكر الإنكشارية لأن هواهم ورغبتهم في سليم ، فلما علم أبوه أنه ليس لابنه أحمد نصيب في الملك وأن الملك لله يؤتيه من يشاء ، وخاف على الملك أن يتغلب عليه أجنبي أرسل إلى ولده سليم يدعوه لينزل عن الملك ويسلمه له ، فقدم سليم بالرأي الحازم والسيف الصارم حتى قرب من القسطنطينية ، فأمر السلطان بايزيد العساكر ووجوه الأمراء والوزراء ، فاستقبلوه وهَنّؤوه بالملك ، ولما دخل على أبيه قَبّل يده فدعا له بخير وسلّمه الملك وأوصاه بأشياء تليق بالسلطنة ، ثم أمر من يومه بتجهيز أسباب السفر لأبيه للإقامة بمدينة ديمتوقة ، وقال السيفان لا يجتمعان في قراب واحد ،

فلما كان السلطان بايزيد ببعض الطريق رام أن يتوضأ لصلاة الظهر فوضعوا له السم في الماء ، فلما توضأ تساقط شعر لحيته فأحس بذلك ، فقال رُدّوني فردوه ، فتوفي قبل أن يصل إلى القسطنطينية ، ثم حمل إليها ودفن أمام مدرسته التي أنشأها بالمدينة المذكورة ، وكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياماً ، لأن وفاته سنة ثمان عشرة وتسعمئة ، وولايته كانت سنة سبع وثمانين وثمانمئة وعمره اثنتان وستون سنة ؛ لأن مولده سنة ست وخمسين وثمانمئة ، وله رحمه الله مناقب كثيرة تقدم بعض منها .

ومن مناقبه أنه كان يجمع في كل منزل حَلَّ فيه من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه ، فلما دنا أجله أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر بأن توضع معه في القبر تحت خده الأيمن ، ففعلوا ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله ﷺ : « من اغبرّتْ قدماه في سبيل اللهِ حَرَّمَ الله عليه النار » .

ولما توفي السلطان بايزيد المذكور واستقر ابنه سليم (على تخت الملك) نازعه في ذلك أخوه أحمد ، وقصد كل منهما الآخر سنة تسع عشرة وتسعمئة بجيش عظيم ، فتقاتلا أمام مدينة يِني شهر فانتصر السلطان سليم وأمر بأخيه أحمد فخنق ، وكان إسماعيل شاه سلطان العجم المتقدم ذكر ترجمته يتعصب للسلطان أحمد ويحامي له ، فلما خنق أحمد هرب بعض أولاده والتجؤوا إلى السلطان الغوري وبعضهم إلى إسماعيل شاه ، فأرسل له السلطان سليم يطلب منه أن يبعثهم إليه ، فامتنع ، فكان ذلك من أسباب قيام الحرب والقتال بين السلطان سليم وإسماعيل شاه مع ما تقدم من انتشار ظلم إسماعيل شاه وسفكه الدماء وإهلاكه الحرث والنسل ، وكان للسلطان بايزيد أيضاً أولاد غير أحمد نازعوا سليماً وقاتلوه فانتصر عليهم ولا حاجة بنا إلى ذكر ذلك .

ذكر الحرب بين السلطان سليم وإسماعيل شاه سلطان العجم

ذكر كثير من المؤرخين أن السلطان سليماً كان سلطاناً قاهراً قوي البطش عظيم القتل ، كثير الفحص عن أخبار الناس ، شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسس عن أخبار الممالك عارفاً بمسالك الطرق والمهالك ، يغيّر زِيَّهُ ولباسه ويتجسس في الليل والنهار ، ويطلع على الأخبار ويستكشف الأسرار ، وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة ، وفي الأسواق والجمعيات والمحافل ، ومهما سمعوا

به ذكروه له في مجلس المصاحبة ، فيعمل بمقتضى ما يسمعه بعد الوثوق منهم ، ولما استقر له الملك بعد قتال إخوته وانتصاره عليهم شرع في قهر الملوك والاستيلاء على الأقاليم والملك ، وبدأ بقتال شاه إسماعيل بن حيدر الصفوي ، وكان ذلك سنة عشرين وتسعمئة ، وكان السبب في قتاله أن بعض أولاد أخي السلطان سليم التجأ إلى إسماعيل شاه فأرسل يطلبه منه فامتنع ، مع ما انضم إلى ذلك من بغي إسماعيل شاه وطغيانه وإفساده في الأرض حتى أهلك الحرث والنسل ، كما تقدم بيان ذلك في ترجمة إسماعيل شاه .

فتوجه السلطان سليم من مقر سلطنته بعسكر كثيف ، وسار نحو الشرق لقتال إسماعيل المذكور ، فالتقيا في مكان يقال له جالدران ، وكان جيش السلطان مئة وأربعين ألفاً في أول خروجه من مقر سلطنته ، ثم أردفها بأربعين ألفاً ، ولما التقى الجيشان واشتد القتال ثم انهزم عسكر العجم واستولى عسكر السلطان على خزائنهم وأكثروا القتل فيهم ، ولم ينج منهم إلا القليل وفر إسماعيل شاه وتحصن بشوامخ الجبال ، واستولى السلطان سليم على خزائنه وأمواله وخيمه ونسائه ومنع العسكر من المسير خلف المنهزمين .

ودخل السلطان سليم مدينة تبريز وهي كرسي مملكة العجم وصلى فيها الجمعة وخطب باسمه ، وكان مراده أن يطيل الإقامة ببلاد العجم ليفتح جميع بلادهم ويدخلها في ملكه ويرتبها ، ولكن اشتد عليه الغلاء لأن السلطان الغوري قطع الميرة عن السلطان سليم ومنع السائرين بها إليه لأنه كان بينه وبين إسماعيل شاه صداقة ومحبة ومكاتبة ، حتى إن بعضهم اتهم السلطان الغوري بأنه يعتقد مذهب الرافضة .

وكان من أسباب الغلاء على جيش السلطان سليم أن إسماعيل شاه كان تحت يده كثير من الغلال والذخائر ، فلما تحقق الهزيمة عليه أمر بحرقها فأحرقت .

قال القطبي : وكان من أمر اشتداد الغلاء أن العليقة بيعت بمئتي درهم ، وبيع الرغيف بمئة درهم ، وقد أدركت جماعة ممن كانوا مصاحبين لمولانا السلطان سليم ، وكانوا يكثرون مجالسته ، وسمعت منهم حسن مصاحبة السلطان سليم معهم ولطف معاشرته لهم وشدة تيقظه وذوقه وفهمه وتحفّظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرّسه في

اللغة الفارسية والرومية بحيث فاق فيه فصحاء الطائفتين ، ثم قال العلامة القطبي : ورأيت بيتين بالعربي بخطه الشريف كتبهما في علو المقياس في الكشك الذي أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة ، والبيتان هما هذان :

الملك لله من يظفر بنيل منى يرده قسراً ويضمن بعده الدركا
لو كان لي أو لغيري قَدْرُ أُنْمُلَةٍ فوق التراب لكان الأمرُ مُشْتَرَكا

وتحتهما ما صورته : وكتبه سليم .

قال العلامة القطبي : ولعمري إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية في البراعة ونهاية في التمكن من الصناعة ، فيدل على مَلَكَتِهِ رحمه الله في اللسان العربي أيضاً ، لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربي الفصيح البليغ المنسجم ، وإن كان قد تمثل بهما وهما لغيره فهذه رتبة عالية في حسن التمثل ولطف الاستحضار وفهم الأشعار العربية وذوقه بها ، وهذا القدر يستعظم ويستكثر على عظماء العجم المكبين على العلوم العربية فضلاً عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها .

ولما فرغ السلطان من قتال إسماعيل شاه واشتد عليهم الغلاء رجع إلى الروم وشتى في مدينة أماسية ، ولما دخل الربيع رجع إلى بلاد الشرق وافتتح قلعة كماخ وهي أمنع الحصون ، ثم افتتح مدينة بيبورد ، وأرسل وزيره فرهاد باشا بعسكر كثير إلى قتال ملك مرعش البستان ، فانتصر فرهاد باشا واستولى على تلك البلاد .

وفي هذه السنة أَحَبَّ أهل آمد أن يدخلوا في طاعة السلطان سليم ، فأخرجوا إليهم الذي كان من قبل سلطان العجم وأغلقوا أبواب المدينة وأرسلوا يطلبون أميراً من السلطان ، فعين لهم بيقلو محمد بيك الآمدي ، فوصل إلى تلك البلاد ، ثم حاصر مدينة ماردين مدة أربعين يوماً وافتتحها ، ثم افتتح بلاد الموصل وجانة وحديثة وهيت وسنجار وحصن كيفا وجمشزك حصن سوارن ، وسائر بلاد الأكراد وعامة جزيرة الأكراد ، فدخلت هذه البلاد كلها في طاعة السلطان سليم ، ولم تكن قبل من الممالك العثمانية ، بل كان بعضها عند العجم وبعضها عند ملوك من غير العجم تغلبوا عليها .

ذكر محاربة السلطان سليم للسلطان الغوري

وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة قصد السلطان سليم محاربة السلطان الغوري صاحب مصر والشام وحلب ، لأنه كان متواطئاً مع سلطان العجم على محاربة السلطان سليم ، وقد تقدم أنه قطع الميرة عنه ، فخرج من القسطنطينية بجيش مقداره مئة وخمسون ألفاً ، وخرج الغوري من مصر بجيش كثيف لمحاربته ، والتقى الجيشان في مرج دابق بقرب حلب ، واقتتل العسكران فانهزم جيش مصر وقتل الغوري في المعركة ، ودخل السلطان سليم مدينة حلب واستقبله أهلها بعلمائهم وصلحائهم حاملين المصاحف على رؤوسهم يستقبلون السلطان ويهنؤونه بالفتح ويسألونه الرفق والصفح ، فقابلهم بالجميل ، ودخل مدينة حلب وخطب له فيها ، وكان الخطباء يقولون في أوصاف سلاطين مصر خادم الحرمين الشريفين ، فلما خطب الخطيب بحلب قال في وصف السلطان سليم خادم الحرمين الشريفين ، ففرح بذلك السلطان واستبشر وعلم أن الله تعالى ينصره على الغوري حتى تكون خدمة الحرمين الشريفين له ، وخلع على الخطيب حُلَّتَهُ التي كانت عليه ، وكانت تساوي خمسين ألف غرش .

ثم سار إلى الشام فاستقبله أهلها بالإكرام والاحترام وسألوا منه اللطف والإنعام ، فعاملهم بالجميل ، وصلى عندهم الجمعة وخطب باسمه ومكث بالشام ثلاثة أشهر ونصفاً .

ثم سار يريد البلاد المصرية وافتتح في مسيره مدينة بيت المقدس ، ثم سار وفتح مدينة غزة وطبرية وصفد واللجون والرملة ، ووصل إلى مصر في الثالث عشر من المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة ، وكان قد تسلطن بعد مقتل الغوري السلطان الأشرف طومان باي ، قيل إن الغوري خاله ، وكان معه أربعون ألفاً من الجراكسة ، فخرج لقتال السلطان سليم ليمنعه من دخول مصر ، فوقع القتال بين العسكرين فانهزم طومان باي وعسكره وقتل منهم خلق عظيم ، ثم قبض عليه وبعد عشرة أيام صلبه السلطان سليم في باب زويلة ، وأقام السلطان بمصر نائباً عنه خير الدين بك الجركسي ، وخرج السلطان سليم من مصر في شعبان من السنة المذكورة ، وقدم إلى دمشق وعيّن لأمارتها مع أمارتها الأمير جان بردي ، فاستولى على مدينة ملطية

وديوركي ودارنوه وبهسنا وكركر وكاختة إلبيرة وعينتاب وأنطاكية وقلعة الروم ، وأطاعته قبائل العرب المجاورون للشام ومصر .

ولما رجع السلطان سليم إلى القسطنطينية أخذ في تكثير المهمات والاستعداد لحروب وغزوات جديدة ، فطلع له دمّل في جنبه ولم يزل يتعاظم هذا الدمّل حتى اتسع وصار جرحاً عظيماً ، واتسع الخرق على الراقع ، وتعطل السلطان عن الحركة ، وعجزت حذاق الأطباء في علاجه ، وكانت توضع الدجاجة في جرحه فتذوب ، واستطال به ذلك المرض إلى أن توفي سنة سبع وعشرين وتسعمئة تاسع شوال ، وعمره أربع وخمسون سنة ، ومدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر .

فائدتان استطراديتان لهما تعلق بالفتوحات المذكورة هنا

الأولى : ذكر كثير من المؤرخين أن العلامة ابن كمال باشا استخرج من القرآن العزيز الإشارة إلى الدولة العثمانية وانتصار السلطان سليم وظهور أمره من بعد سنة تسعمئة وعشرين ، وأن الدولة العثمانية من عباد الله الصالحين ، وأن السلطان سليماً منهم ، فقال ابن كمال باشا : إن ذلك كله يستخرج بطريق الرمز والإيماء والإشارة من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] وبيان ذلك أن قوله : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ إذا حسبت على قاعدة الحساب بحروف أبجد يخرج عدده مئة وأربعين ويقابله لفظ سليم ، فإن حساب عدد حروفه يبلغ مئة وأربعين وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ إشارة إلى أن ذلك بعد تسعمئة وعشرين ؛ لأنه عدد حروف ذكر بعد إسقاط أداة التعريف على قاعدتهم في ذلك ، فتكون الإشارة في ذلك سليم بعد تسعمئة وعشرين مكتوب في الزبور أنه يرث الأرض وأنه من عباد الله الصالحين ، قيل إن السلطان سليماً لما أخبروه بهذا الاستخراج فرح واستبشر ، وكان ذلك من أقوى الأسباب لخروجه لقتال الغوري ، وقد حقق الله له النصر فظهر بذلك صحة هذا الاستخراج ، ولله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أسرار كثيرة ، وله في كل شيء حكمة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه وبغيرها .

الفائدة الثانية

إن مولانا السلطان سليماً لما استقر بمصر وتم له تملك الديار المصرية كما تم له تملك الديار الشامية اشتاقت نفسه إلى تملك الأقطار الحجازية ليقوم بخدمة الحرمين الشريفين ، فأراد أن يجهز جيشاً ويسيره إلى الحجاز وينتزعه من عمال السلطان الغوري ، وكان أمير مكة في ذلك الوقت الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ، وقد كان في سنة ٩١٨ أرسل ولده الشريف أبا نمي إلى مصر لمقابلة السلطان الغوري ، فأكرمه وأشركه مع أبيه في إمارة مكة ، وكان عمر أبي نمي في ذلك الوقت ثمان سنين ، وكان السلطان الغوري حبس بمصر جماعة من أعيان أهل مكة ، منهم العلامة القاضي صلاح الدين بن أبي السعود بن ظهيرة ، وكان سبب حبسه مع من معه أن الغوري طلب منهم مالاً مصادرة وظلماً مبلغه عشرة آلاف دينار ، فعجزوا عن تحصيله فأمر بحملهم إلى مصر واعتقلهم في الحبس ، ولما قتل الغوري وتسلطن طومان بك أطلقهم ، وقيل إنما أطلقهم السلطان سليم ، فلما عزم السلطان سليم على تجهيز جيش إلى الحجاز اجتمع القاضي صلاح الدين بن ظهيرة بوزير مولانا السلطان سليم ، وقال له : لا حاجة إلى تجهيز جيش فإن الشريف بركات يكفيكم هذا الأمر ويحصل لمولانا السلطان المطلوب ، وعَرَّفَهُ عظمة الشريف بركات ومنزلته من الشرف والعلم ، وأنه أول من يطيع مولانا السلطان ويأخذ البيعة له من أهل الحرمين والأقطار الحجازية ، ويكفي بدلاً عن الجيش أن تبعثوا له توقيعاً شريفاً من مولانا السلطان ، فعرض الوزير ذلك على مولانا السلطان سليم فاستحسنه ، وأمر بكتابة التوقيع الشريف للشريف بركات وأن يكون ولده أبو نمي مشاركاً له كما كان في مدة السلطان الغوري ، وكتب القاضي صلاح الدين للشريف بركات الإخبار بذلك .

ووجّه مولانا السلطان ذلك التوقيع الشريف ومعه خلعتان عظيمتان واحدة للشريف بركات والأخرى لولده الشريف أبي نمي ، وجعل ذلك صحبة الأمير مصلح بك وبعث معه محملاً وكان ذلك على إقبال شهر الحج .

فلما قدم الأمير مصلح مع المحمل ومعه الخلعتان والتوقيع الشريف وخلعة للكعبة المعظمة خرج لمقابلته إلى الزاهر الشريفُ بركات وولده أبو نمي وكثير من الأشراف

وغيرهم في موكب عظيم ، ولبس الشريف وولده الخلعتين ودخلوا مكة وأخذوا البيعة لمولانا السلطان سليم ودعوا له في الخطبة ، وحصلت طاعة الناس وانقيادهم بالرضى والقبول .

ثم أرسل الشريف ولده الشريف أبا نمي سنة ٢٣ إلى مصر لمقابلة مولانا السلطان سليم ، فقابله وأكرمه وأبقاه على مشاركة أبيه بركات ، ثم توفي بركات سنة ٩٣١ واستقل ولده أبو نمي بالإمارة وجاءه التأييد من مولانا السلطان سليم ، واستمر الشريف أبو نمي مستقلاً بإمارة مكة إلى أن توفي سنة ٩٩٢ ، وعمره ٨٩ سنة ، لأن ولادته كانت سنة ٩١١ ، وكانت مدة ولايته إمارة مكة مشاركة لأبيه واستقلالاً ٧٣ سنة ، ولم يعهد ذلك لغيره من أمراء مكة الذين قبله والذين جاؤوا بعده وهو جد سادتنا أشراف مكة .

ولما ورد الأمير مصلح بك إلى مكة صحبة المحمل والتوقيع والخلعتين وكسوة الكعبة أقام بعد الحج بمكة بأمر من مولانا السلطان سليم وأجرى له خيرات كثيرة يرجع ثوابها إليه ، منها أنه قرر لمولانا الشريف صاحب مكة خمسمئة دينار زيادة على ما كان له من سلاطين مصر قبل ذلك ، وكتب دفتراً قرر فيه أسماء جماعة من المجاورين ، ورتب لكل شخص منهم مئة دينار تؤخذ من خزينة مصر ، وقرر ثلاثين نفراً يقرؤون كل يوم ختمة وعيّن لكل واحد اثني عشر ديناراً ، وقسم الأمير مصلح أيضاً الذخيرة وهي صدقة كانت تخرج من خزينة مصر تخرجها سلاطين مصر للعربان أصحاب الإدراك وفقراء أهل مكة فأبقاها السلطان سليم ، ورتب مولانا السلطان سليم سبعة آلاف إردبّ حَبّ لأهل الحرمين الشريفين منها خمسة آلاف لأهل مكة وألفان لأهل المدينة ، وجاء الأمر للأمير مصلح بك أن يوزع ذلك ، فجلس في الحرم الشريف وطلب حضور المفتين وبقية العلماء والأعيان ، وقرأ عليهم المرسوم السلطاني واستشارهم في توزيع ذلك ، فقالوا له : لا بد من عرض ذلك على شريف مكة مولانا الشريف بركات ، فكتبوا صورة الأمر السلطاني وأرسلوه إلى مولانا الشريف واستدعوا رأيه العالي في ذلك ، فكتب إليهم الجواب يأمرهم بالمبادرة إلى امتثال الأمر الشريف السلطاني وأن يوزع ذلك على المستحقين بحسب الآراء من أعيان المجلس ، فاجتمعوا ثانياً بعد وصول الجواب من مولانا الشريف ، واتفق رأيهم على بيع شيء من ذلك القمح ليصرف في نقله من جدة إلى مكة ، وبأن يكتب أسماء الناس على العموم ويصرف لكل واحد ما يخصه ، فكتبوا بيوت كل محلة وما في بيوت

كل بيت من عدد الأنفار رجالاً ونساء وأطفالاً وخدماً ما عدا التجار والسوقة والعسكر ، فبلغ عدد الأنفار الذين كتبوهم اثنا عشر ألفاً ، فخصّ كل نفر ست رباعي بكيل الربع الكبير الذي هو أربع كيل من أربع وعشرين قدحاً بالكيل المصري ، ودفعوا لكل نفر ديناراً من قيمة القمح الذي باعوه لأجل نقله من جدة إلى مكة ، وجعلوا لكل واحد من المفتين الأربعة ثلاث أرادب ، وزيد في أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت .

قال العلامة القطبي : وهذه الصدقة أول صدقات الحب الشريف السلطاني ، ثم قال : فيجب على المسلمين كافة عموماً ، وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصاً ، الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان خلّد الله سلطنتهم مدى الزمان ، فإن دولتهم الشريفة عماد الإسلام وإحسانهم ما زال متواصلاً إلى كافة الأنام ولاسيما جيران بيت الله الحرام وجيران نبيه الأطهر عليه أفضل الصلاة والسلام ، فإنهم فازوا بالإنعامات الوافرة في أيام هذه الدولة الزاهرة ، وحازوا من الصدقات المتكاثرة في نوبة هذه السلطنة القاهرة ما لم يتصوروه من الدول الماضية الغابرة ، فالله تعالى يديم سلطانهم كما أدام علينا إحسانهم اهـ كلام القطبي .

وقال العلامة ابن علان : إن السلطان سليماً كان كثير المحبة لأهل الحرمين من قبل أن يأخذ مصر ، وهو أول من بعث إليهم صدقة الحب انتهى .

ثم إن السبعة آلاف الأرادب المذكورة لم يزل أبناؤه من السلاطين يزيدون فيها حتى صار لأهل مكة اثنا عشر ألف إردب ، ولأهل المدينة سبعة آلاف إردب ، فالله تعالى يديم العز والبقاء لهذه السلطنة العثمانية السنية ويوفق كل قائم منهم بها لكل خصلة حميدة مرضية .

ومما فعله الأمير مصلح بك من الخيرات لمولانا السلطان سليم أنه جدد بناء مقام الحنفي بمكة فإنه وسعه وجعله قبة بعد أن كان مسقفاً على أربعة أعمدة في صدره محراب ، وكان صنعة التسقيف المذكورة سنة ثمانمئة وثنتين في مدة سلطنة السلطان فرج بن برقوق ، واستمر كذلك إلى أن جعله الأمير مصلح قبة سنة تسعمئة وثلاث وعشرين ، واستمر على ذلك خمساً وعشرين سنة ، ثم هدمت القبة وبني المقامُ مربعاً وجعلت الطبقة العليا للمكبرين .

وموضع هذا المقام كان في الجاهلية موضع دار تجتمع فيها قريش للمشورة ويسمونها دارالندوة ، ثم اشتراها معاوية رضي الله عنه في زمن خلافته ، وصارت ينزلها الخلفاء إذا قدموا للحج ، ويخرجون منها إلى المسجد للصلاة والطواف ، ثم خربت وتهدمت وعمرت في خلافة المعتضد سنة مئتين وثمانين ، وأدخلت في المسجد ، وفتحت جوانبها إلى المسجد ، وجعلت سقوفها على أساطين ، ثم غُير هذا البناء وأعيد على وضع أحسن منه سنة ثلاثمئة وست ، ثم سنة ثمانمئة وثنتين ، إلى أن كانت عمارة الأمير مصلح ، ثم غُيرت عمارته بعد خمس وعشرين سنة وسيأتي ذكر ما يكون بعد ذلك .

وقد كانت مذاهب الأئمة الأربعة عليها العمل والاعتماد في الحرمين وغيرهما من أول ظهور الأئمة الأربعة إلى ما بعدهم ، وقد كان الأئمة المجتهدون كثيرين ، ولكن لم يقدر الله بقاء مذاهبهم ، وإنما بقيت مذاهب الأئمة الأربعة وتحررت ، وتوارد عليها أنظار العلماء ، حتى إن أهل السنة والجماعة أوجبوا تقليد مذهب منها لمن لم يكن فيه أهلية الاجتهاد وحرموا الخروج عنها .

نقل العلامة السنجاري عن التقي الفاسي أن صلاة هذه الأئمة على هذه الصفة قديمة ، لكن قال : لا أعلم في أي وقت كانت ، ثم نقل ما يدل على أن الحنفي والمالكي كانا موجودين مع الشافعي سنة أربعمئة وسبع وتسعين ، وأن الحنبلي لم يكن موجوداً وإنما كان إمام الزيدية ، ثم قال : ووجدت على ما يدل على أن الحنبلي كان موجوداً في عشر الأربعين وخمسمئة .

وفي البحر العميق : وكان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمئة ، وأما كيفية الصلاة في هذه المقامات فإنهم يصلون مرتين الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي ، وكلام ابن جبير يقتضي أن المالكي كان يصلي قبل الحنفي ، ثم تقدم عليه الحنفي من بعد سنة تسعين وتسعمئة ، واضطرب كلام ابن جبير في الحنفي والحنبلي ؛ لأنه ذكر ما يقتضي أن كلاً منهما يصلي قبل الآخر ، وهذا كله في غير صلاة المغرب أما فيها فإنهم يصلون جميعاً في وقت واحد ، ثم بطل ذلك كله في موسم سنة إحدى عشرة وثمانمئة بأمر الملك الناصر بن برقوق ، وصار الشافعي يصلي بالناس المغرب وحده ، واستمر ذلك إلى أن ورد أمر من الملك المؤيد صاحب مصر بأن يصلي

المغرب الأئمة الثلاثة في وقت واحد كما كانوا يصلون قبل ذلك ففعلوا ذلك ، وأول وقت فيه ذلك ليلة السادس من ذي الحجة سنة عشر وثمانمئة انتهى .

والحاصل أن الأمر كان مختلفاً في تقدم بعضهم وتأخر بعضهم ، واستقر الأمر في عصرنا هذا بعد خروج الوهابي من مكة وجريان أحكام الدولة العلية بالحجاز من سنة ألف ومئتين وثمان وعشرين أن الشافعي يصلي في الصبح أولاً ثم المالكي ثم الحنبلي ثم الحنفي ، وأما بقية الأوقات فيصلي أولاً الحنفي ثم الشافعي ثم المالكي ، لكن لا يصلي في المغرب إلا الحنفي ثم الشافعي فقط ، وكان الحنبلي لا يصلي في مقامه إلاّ الصبح فقط .

وفي سنة إحدى وثلاثمئة وألف صدر الأمر من سيدنا الشريف يدعون الرفيق ابن المرحوم سيدنا الشريف محمد بن عون ومن والي ولاية الحجاز السيد عثمان نوري باشا بأن الحنبلي يصلي أيضاً بقية الصلوات غير المغرب وتكون صلاته بعد أن يصلي المالكي ، واستحسن الناس ذلك لأن مكة قد كثر فيها الخلق المجاورون بها فصار كثير من الناس لا يدركون صلاة الأئمة الثلاثة فيصلون جماعة متفرقة ، فلما صار الحنبلي يصلي أيضاً صاروا يصلون معه .

ومما يدل على أن الناس قد كثروا بمكة وزادوا عما كانوا عليه قبل ذلك ما ذكره العلامة القطبي في تاريخه ، حيث ذكر أن عمارة مكة زادت وكثر الناس فيها بوجود دولة الدولة العثمانية خلد الله ملكهم إلى أن قال : وكنت أشاهد في الصبا خلو الحرم الشريف وخلو المطاف من الطائفين ، حتى إني أدركت الطواف وحدي من غير أن يكون معي أحد مراراً كثيرة كنت أترصده خلياً لكثرة نوابه بأن يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده في جميع الدنيا وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط ، وأما الملائكة فلا يخلو منهم المطاف الشريف بل يمكن ألاّ يخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا تظهر صورته ويطوف خافياً عن أعين الناس ، ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يثابر على هذه العبادة كثير من الصلحاء ؛ لأنه ليس معنى عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد في جميع الدنيا ولا يشاركه غيره في تلك العبادة بعينها إلا الطواف فإنه يمكن أن ينفرد به شخص واحد بحسب الظاهر والله أعلم بالسرائر ، حتى حكى لي والدي رحمه الله أن ولياً من أولياء الله تعالى رصد الطواف الشريف أربعين عاماً ليلاً

ونهاراً ليفوز بالطواف وحده فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف فتقدم يشرع وإذا بحية تشاركه في ذلك الطواف ، فقال لها : من أنت من خلق الله تعالى ؟ فقالت له : إني من الجن وإني أرصد ما رصدته قبلك بمئتي عام ، فقال لها : حيث كنت أنت من غير البشر فإني فزت بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر وأتم طوافه .

قال : وحكى لي شيخ في معمر من أهل مكة أنه شاهد الظباء تنزل من جبل أبي قبيس إلى الصفا وتدخل من باب الصفا إلى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندي ، وكنا نرى سوق المسعى وقت الضحى خالياً من الباعة ، وكنا نرى القوافل تأتي بالحنطة من بجيلة فلا يجد أهلها من يشتري منهم جميع ما جاؤوا به ، فكانوا يبيعون ما جاؤوا به بالأجل اضطراراً ليعودوا بعد ذلك ويأخذوا أثمان ما باعوه .

وكانت الأسعار رخيصة جداً لقلة الناس وعزة الدراهم ، وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون في ظلال السلطنة الشريفة ، خائضون في بحر إنعامها وإحسانها ونعمتها الوريفة ، أدام الله هذه السلطنة الزاهرة وخلد دولتها القاهرة وخلافتها الباهرة .

وأما بناء المقامات في المسجد الحرام فأما مقام الحنفي فقد علمت بناءه مما سبق ، وأما الشافعي فيصلي في مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأما مقام المالكي والحنبلي ، ففي البحر العميق : كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمئة ، وفي تاريخ القطبي : بعد أن ذكر عمارة الحريق الواقع في زمن سلطنة السلطان فرج بن برقوق ، ذكر أن فراغ العمارة كان سنة سبع وثمانمئة في مدة إمارة مكة للشريف حسن بن عجلان ، وأنهم في تلك العمارة عمروا ما في صحن المسجد من المقامات الأربعة التي وضعت للمذاهب الأربعة على الهيئة القديمة اهـ .

ومقتضى قوله على الهيئة القديمة أنها كانت موجودة قبل هذا التعمير ، ولم أقف على كتاب فيه ذكر هذا البناء السابق ولا على فعله ولا على تاريخ فعله ، وعبارة البحر العميق تقتضي أن التعمير الواقع سنة سبع وثمانمئة هو أول إحداث مقام المالكي والحنبلي ، حيث قال : كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمئة ،

ومقام المالكي بين الركن اليماني والركن الغربي ، ومقام الحنبلي على حذاء الركن الذي فيه الحجر الأسود في سنة ١٣٠٠ ، قال كثير من الناس إن المقام المذكور منحرف ، وبسبب انحرافه يحصل انحراف لصفوفه فيكون سبباً لعدم تحقق استقبال القبلة لبعض الصفوف ، وسبباً لانحراف صف الشافعي الأول خلف مقام إبراهيم عليه السلام ، فإن الصف الأول المذكور عند محاذاته مقام الحنبلي يحصل فيه انحراف وعدم استقامة ، فلو جعل مقام الحنبلي متوسطاً بين الركن اليماني والركن الذي فيه الحجر الأسود بوضع ليس فيه انحراف لكان أولى ، ورفع الأمر إلى أمير مكة سيدنا الشريف عون باشا ووالي ولاية الحجاز دولتلو السيد عثمان نوري باشا ، ثم وقع الإشراف على ذلك بحضورهما وحضور جمع من العلماء والمهندسين ، فاتفق الجميع على استحسان جعله متوسطاً ، فأنهي الأمر إلى باب السلطنة السنية ، وجاء الإذن بذلك من مولانا السلطان عبد الحميد الثاني ، فهدم المقام المذكور سنة ٣٠٠ وجعل متوسطاً كما هو موجود الآن فجاء في غاية الحسن .

هذا وقد طال الكلام الاستطرادي لارتباط تناسب الكلام مع بعضه تكثيراً للفوائد ، فلنرجع إلى إتمام الكلام الأول فنقول : إن الأمير مصلح بيك لما أتم ما كان مأموراً بإجرائه بمكة من الخيرات ، توجه إلى المدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام ، وقسم الصدقات التي لأهل المدينة المنورة ، وأجرى كثيراً من الخيرات ، ثم توجه إلى دار السلطنة السنية .

ذكر ولاية مولانا السلطان سليمان

ولما توفي السلطان سليم كان ولده السلطان سليمان ولي عهده ، وكان غائباً في سروخان والياً عليها ، فأخفى الوزراء موت السلطان سليم إلى أن حضر ولده السلطان سليمان ، فأجلسوه على تخت السلطنة ثم أظهروا موت السلطان سليم ، وكان جلوسه على تخت السلطنة من غير مخالف ولا منازع ، وكان محباً للجهاد ولنصرة دين الله ومرغماً أنوف أعدائه بلسان سيفه ولسان قناه ، وكان مؤيداً في حروبه ومغازيه ، مشهوداً في وقائعه ومراميه ، أيّان سلك ملك وأين توجه فتح وفتك ، وأين سافر سفر وسفك ، وصلت سراياه وجيوشه أقصى الشرق والغرب ، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب ، وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب ، وأيّد الدين

الحنيف بحدود سيفه الباتر ، وأقام الملة الحنيفة وأحيا ما لها من مآثر ، ونصر مذهب السنة السنية ، وأظهر شعائر الشرائع ، ودفع أهل الإلحاد وقمعهم فما لهم من ناصر ، وكان رحمه الله سلطاناً رفيع القدر حسن الطبع في الحرب والسلم موصوفاً بالعلم والحلم والحزم .

قال العلامة القطبي في وصفه : وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في القرن العاشر ، فقد ورد أن لكل قرن مجدداً شأنه ظاهر ، هذا مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والأدب الغض الذي يقصر عن شأوه كل أديب وشاعر ، وكان يعرف الألسنة الثلاثة العربية والتركية والفارسية ، وينظم نظماً بارعاً حسناً ، وكان دائم الفكر في أحوال الرعية والمملكة ، وله ديوان فائق بالتركي، وآخر عديم النظير بالفارسي ، وكان رؤوفاً شفوقاً صادقاً صدوقاً إذا قال صدق وإذا قيل صدق ، ولا يعرف الغل والخداع ويتحاشى عن سوء الطباع ، ولا يعرف المكر والنفاق ولا يألف مساوىء الأخلاق ، بل هو صافي الفؤاد صادق الاعتقاد منور الباطن كامل الإيمان سليم القلب خالص الجنان ، لا يرتاب أحد في كمال ديانته ، ولا يشك في صلاحه وولايته ، قال القطبي بعد ما ذكر :

وما تناهيتُ في بثي محاسِنَهُ ... إلا وأكثرُ مِمّا قلتُ ما أَدَعُ

ولد رحمه الله سنة تسعمئة ، وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وتسعمئة في شوال ، وأطال الله عمره وطول مدته حتى بلغت ثمانياً وأربعين سنة وشهوراً ، وعاش أربعاً وسبعين سنة ، وكان رحمه الله شجاعاً كريماً حسن الخلق والخلقة فإنه كان ذا صورة جميلة ظاهراً وباطناً ، وهو الذي أسس قواعد الدولة العثمانية ، ومهد الملك لهم وسهل الأمور ، وفتح البلاد ووضع كثيراً من القوانين الموافقة للشرع النافعة للعباد رحمه الله رحمة واسعة ، وكان شديد المحبة للغزو والجهاد للكفار ، فأكثر الغزوات وفتح الفتوحات .

ذكر أول انتصار

أولُ فتح وانتصار لمولانا السلطان سليمان انتصارُه على والي دمشق لما خلع طاعته عند سماعه بموت أبيه ، وأراد أن يكون سلطاناً وهو الأمير جان بردي بيك الغزالي ، وأصل ذلك أن المرحوم السلطان سليماً استخدم من أصحاب الغوري أميرين وهما

خير الدين بيك وجان بردي بيك الغزالي وكلاهما من الجراكسة ، وكان بينهما وبين الغوري عداوة وكان يكرههما وهما يكرهانه ، فلما كان القتال بين الغوري والسلطان سليم بمرج دابق أمرهما الغوري أن يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما مع عسكرهما حجاباً أمامه ، ووقف الغوري مع خواص عسكره الذين يعتمد عليهما متأخرين عنهما ، وأراد بذلك أن يُقتلا بالبنادق في أول القتال فيسلم هو ومن معه ، فتفطّن خير الدين بيك والغزالي لذلك ، فأرسلا إلى السلطان سليم وطلبا منه الأمان ، فأرسل السلطان سليم لهما بالأمان وتعهد لهما بما يطيّب خاطرهما وأن يوليهما مصر والشام ، فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك القتال ، فلما تلاقى العسكر فرّ خير الدين بيك بمن معه من الميمنة وفرّ الغزالي بمن معه من الميسرة ، وبقي السلطان الغوري ومن معه في القلب ، فهلك من هلك وهرب من هرب ، وقُتل الغوري تحت سنابك الخيل ، فلما تم الأمر للسلطان سليم واستقر له ملك الشام ومصر قرّب خير الدين بك والأمير جان بردي وأدناهما ، ثم ولّى الأمير جان بردي دمشق والأمير خير الدين مصر ، فعلا شأنهما وانتشر ذكرهما ، فلما بلغ الأمير جان بردي والي دمشق وفاة السلطان سليم خلع الطاعة وأراد أن يتسلطن بدمشق ونواحيها ، فجمع جموعاً وسار إلى مدينة حلب ليستولي عليها ، فحاصرها مدة فلم يقدر عليها ، وكان نائب حلب إذ ذاك قرجه أحمد باشا ، فجدّ في دفعه واجتهد ، فرجع جان بردي إلى دمشق وزاد في تحصين القلعة وترميمها ، فأرسل إليه السلطان سُليمان وزيره فرهاد باشا في عسكر كثير ، فالتقوا مع عسكر جان بردي في موضع يقال له المصطبة بأرض القابون وذلك في صفر سنة ٩٢٧ ، فانهزم جان بردي وعسكره وذهبوا تحت أرجل الخيل ، ولم يبق له ولا لجنوده أثر .

وقال القطبي : إنهم قبضوا عليه وقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى الباب العالي ، فدخل فرهاد باشا الشام ورتب أمورها ورجع إلى دار السلطنة ، فخلع عليه السلطان وزاد في قدره ورتبته .

ذكر غزوات مولانا السلطان سليمان

الغزوة الأولى قتال قرال أنكروس لارش ويقال لهم المجر ، كان من سعودات السلطان سليمان بن سليم ، أنه في أول ولايته كان بين دول الأفرنج اختلاف واضطراب

وفتن بين الفرنسيس وإسبانية وإيطالية ، فاغتنم السلطان سليمان هذه الفرصة وزحف بعسكر جرار سنة ٩٢٧ ، وكان رحمه الله محباً للجهاد في سبيل الله باذلاً نفسه وخزائنه لإعلاء كلمة الله ، لم ترتفع راية الإسلام على رأس أحد من السلاطين العظام أكثر منه جهاداً ونصرة للدين ، فبرز بجيوشه بنفسه من القسطنطينية براً لإحدى عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وتسعمئة بعسكر جرار وجيش كثير ، وأمر بتجهيز أساطيل كثيرة بحراً ، فجعل منها ٥٠ للمجاهدين وأربعمئة للدواب والأثقال وسيرهم حتى دخلوا في نهر الطونة فَأَرْسَوْا بقرب بلغراد وهي مدينة حصينة لها سور منيع وقد أحاط بها نهران عظيمان وهما نهر الطونة ونهر منارة .

وقيل إن السبب في هذه الغزوة أن المجر قتلوا المباشر الذي كان عندهم من طرف السلطان لجمع الخراج ، فكان ذلك سبباً لغضب السلطان ، وجعل السلطان خروجه على طريق وارنة ومعه عساكر كثيرة وبعث جيشاً حاصروا قلعة بوكر دلوه وهي قلعة حصينة على شاطئ نهر صاوة ، فحاصروها حتى ملكوها ، ثم توجهوا إلى بلغراد ثم لحق بهم السلطان وصاروا جميعاً محاصرين بلغراد ، ولم يزل يشتد الأمر ويعظم القتال حتى فتح الله على المسلمين وقتلوا كثيراً من الكفار وفازوا بغنائم لا تحصى ، واستولى السلطان على بلادهم بعد أن أخرب كثيراً منها ، فلما شاهد الكفار هذا الفتح العظيم جاؤوا له بمفاتيح ثمان قلاع منيعة هناك ، ثم أمر السلطان بتعمير ما تهدم من قلعة بلغراد وعين لها أميراً وقاضياً ، ورجع إلى كرسي سلطنته سالماً غانماً في شهر ذي القعدة الحرام من سنته .

الغزوة الثانية غزوة رودس

وهي جزيرة في وسط البحر ما بين القسطنطينية ومصر وبنى الكفار بها حصناً حصيناً فكان في غاية الاستحكام مكيناً جعلوه لأخذ المسلمين وأتقنوه في غاية الإتقان والتمكن بحيث رسخ أساسه إلى تخوم الأرضين وارتفع رأسه إلى نجوم الشرطين والبطين ينظرون من أعلى القلعة إلى السفائن التي تمر في البحر من مسافة بعيدة فيتهيؤون للتحصن إن كان ذلك عسكراً من المسلمين ، ويأخذونهم إن كانوا من سفار البحر ، واتخذته النصارى معبداً يجهزون أموالهم إليه لتصرف في استحكام بنائه وإتقانه ،

وجعلوا من أعلاه إلى أسفله من جميع جوانبه ثقوباً وضعوا فيها المدافع الكبيرة ترمي على من يقصدها من الخارج فتصيب كل من قصدها من جميع الجهات ، ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة في وسط البحر تمنع المراكب من الوصول إلى الباب ، ويهيؤون أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع والمقاتلة إذا أَحَسُّوا بسفينة في البحر من الحجاج أو التجار أخرجوا إليها تلك الأغربة وأخذوها وغنموا ما فيها من الأموال وأسروا المسلمين ، فيقطعون الطريق على هذا الأسلوب ويجمعون الأموال ويصرفونها على مقاتلتهم .

وكان هذا دأبهم ، وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم وعم أذاهم المسلمين ، وقد تكرر غزو المسلمين بلاد رودس وتكرر انتقاضهم وقد تقدم بعض ذلك ، فلما تحقق السلطان سليمان كثرة الأذى الحاصل للمسلمين من أهل رودس تجهز بنفسه لغزوهم وقتالهم ، وكان سفره الميمون إليها ونزوله ومخيمه الشريف في أَسْكُدار متوجهاً إلى هذا الغزو لعشر بقين من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وتسعمئة ، وكان وصوله إلى رودس ونزوله عليها في شهر رمضان من السنة المذكورة ، وكان عدة الجيش الذي جهزه مؤلفاً من مئتي ألف مقاتل وسفائن بحرية تبلغ أربعمئة سفينة ، فأحاطت الجيوش براً وبحراً بجزيرة رودس وحاصرها ، فأرسل ملكها يستنجد بملك الفرنسيس وملك إسبانية فلم يجيباه لما كان بين ملوكهم من الفتن ، فأرسل البابا صاحب رومة إليهما يحثهما على المدافعة والمحاماة عن تلك الجزيرة ، لأنها من الحصون المانعة للمسيحيين من مصادمة العثمانيين ، فلم يلتفتا إلى كلام البابا .

وفي رابع رمضان طلع السلطان سليمان على محل رفيع مشرف على حصن رودس فرآها قلعة حصينة كان بانيها ماهراً في الهندسة بحيث إنه بنى سور القلعة تحت الأرض وعمل لها خندقاً عريضاً عميقاً ، وجعل للبلد سورين في عرض سبعة أذرع ، وملأ ما بينهما وهو مقدار عشرة أذرع بالتراب والحجارة ، ولها من جانب البحر ميناء عظيم مدور كالحوض ، ولها باب مخصوص جعلوا عليه سلسلة من حديد ، ولها بعض بروج تناغي في الرفعة والإحكام سمك السماء ، وحضر خير الدين بك صاحب مصر في أربعة وعشرين غراباً أمداداً للمسلمين ، واستمروا في أمر الحصار يقاتلونهم بالبنادق والمدافع مدة تزيد على ثلاثين يوماً وقيل بل ستة أشهر فلم يغنوا شيئاً .

قال العلامة القطبي : وما أمكن من في البحر أن يقرب من حصار رودس للخندق العظيم الذي حولها مع صونه بالمدافع العظيمة ، ولا أمكن أيضاً القرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد في البحر والرمي على من يقربها بالمدافع الكبار ، فصاروا يصيبون المسلمين بالمدافع ولا يصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصن وعدم تأثير المدافع فيه ، فتأخرت عساكر البر قليلاً وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبل وتترسوا بها ، وصاروا يقدمونها قليلاً قليلاً إلى أن وصل التراب في الخندق وامتلأ به وقرب من الجدار وارتفع عليه ، فصار الكفار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون فطبق الخنادق ونقب الأسوار من تحت الأرض ، ثم إنهم ملؤوا الثقوب بالبارود وأضرموها بالنار ، فانفتح بسبب ذلك عدة من مواضع يمكن العبور منها إلى القلعة ، فلما شاهد الكفار ذلك طلبوا الأمان فأمنهم السلطان ، ثم رجعوا عن ذلك لأنه أتاهم مدد من الكفار في عدة مراكب في الليل ، فشرع المسلمون في الحرب ثانياً ، قيل إنهم ضربوا على رودس أكثر من مائتين وعشرين ألف مدفع ، فصارت خراباً حتى اضطر الكفار وطلبوا الأمان وأرسل أمير القلعة خمسين نفراً من كبارهم بالرسالة ، فقبل السلطان سؤالهم فأمنهم وأذن لهم في المسير مع جماعة ، وأمرهم أن يطلقوا أسارى المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا عدداً كثيراً مأسورين عندهم من الأشراف والأعيان والعبّاد من مدة مُتطاولة في سلاسل وأغلال ، فأطلقوهم ، وخرج صاحب رودس وتبعه أربعة آلاف من أهل رودس فأعطاهم البابا مدينة ويتسربة من بلاد إيطالية ، فأقاموا فيها إلى أن نقلهم الملك شركان إمبراطور إسبانية إلى جزيرة مالطة فنسبوا إليها ، فكانوا يقال لهم شفالرية مالطة ، وصارت من ذلك العهد دار إقامتهم إلى أن استخلصها منهم بونابرت وهو آت إلى مصر سنة ألف ومئتين وثلاث عشرة ، ثم دخل المسلمون عسكر السلطان سليمان مدينة رودس وأخربوا الكنائس وجعلوها جوامع ، ثم رتب السلطان أمور رودس وجعل الجزية على من بقي بها ، وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير سنة تسعمئة وتسع وعشرين ، وحصل لأهل الإسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم ، وعمل الناس بذلك تواريخ ألطفها ﴿يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ ٩٢٩ ، وفتحت عدة قلاع في ذلك العام ، ورجع السلطان إلى القسطنطينية كرسيّ ملكه سالماً غانماً .

ذكر عصيان أحمد باشا والي مصر وخلعه السلطان
وأخذه البيعة من الناس لنفسه

كان السلطان سليمان له وزير مقرب تربّى معه ونشأ في خدمته وملازمته اسمه إبراهيم باشا ، وكان لوالده السلطان سليم وزير آخر يسمى أحمد باشا ، فظن أن وزارة الصدارة لا تتعداه إلى غيره لكونه من خواص مماليك السلطان سليم ووزرائه ، فأعطى السلطان سليمان الصدارة لإبراهيم باشا ، فزاحمه أحمد باشا وصار يخدم السلطنة في كثير مما يتعلق بالصدارة ، فشكاه إبراهيم باشا إلى السلطان ودبر في إزالته من ذلك المكان ، فطلبه السلطان سليمان وجعل له ولاية مصر وأعطاه أقطاعاً كثيرة يستجلب بها خاطره ، فمضى إلى مصر والياً وصار يتعقبه إبراهيم باشا في أشياء كثيرة للعداوة السابقة ويرميه عند السلطان بما يوجب قتله ، فبرز الأمر لجماعة من الأمراء المستحفظين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه في محله بالأمر الشريف السلطاني ويتولى أحدهم مكانه إلى أن يرد الأمر الشريف بإقامة من يختاره السلطان ، وأرسلت هذه الأحكام إلى الأمراء المذكورين ، فوقعت تلك الأحكام بيد أحمد باشا قبل أن تصل إلى الأمراء المذكورين ، فجمعهم في ديوانه وذكر لهم أن الأمر الشريف السلطاني ورد إليه بقتلهم فأذعنوا للأمر الشريف .

فقتلهم ، ثم سَوّلت له نفسه العصيان وظن أنه يأوي إلى جبل يعصمه من السلطان وأنه يقابل ويقاتل بجيش يلفقه من مصر ، فأبدى الطغيان وادعى السلطنة لنفسه وأمر الناس أن يبايعوه ، وأمر أن يخطب باسمه على المنابر في أيام الجمع ، ورتب عسكراً بمصر من العوانية ، وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير ، وصادر الناس وجمع المال الكثير ، وعصى أهل قلعة الجبل وجمع عليهم الشطار فأخذوها بالحيل وقتلوا من فيها من عسكر السلطان ، وأوقد نيران الفتنة والعصيان ، وكان ممن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوي ومحمود بك وأراد قتلهما وقد أخر الله أجلهما ، فسمعا أنه دخل الحمام فكسرا الحبس وبرزا ونصبا صنجقاً سلطانياً ونادیا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه ، فاجتمع تحت الصنجق السلطاني خلق كثير وجمع غفير ، وصار سردارهم محمود بك وجانم الحمزاوي بمثابة الوزير ، وتوجها بالعسكر إلى الحمام فكبسا أحمد

باشا وقد حلق نصف رأسه وأعجل النصف الثاني هجوم العسكر السلطاني عليه ، فهرب إلى السطح وتخلص من مكان إلى مكان وخلص إلى البر والتجأ إلى شيخ من مشايخ العرب بناحية الشرقية يسمى عبد الدائم ، وقوي العسكر السلطاني ونهبوا ما جمعه من الأموال بالظلم والمصادرة وخرجوا إليه يطلبونه وخوفوا عبد الدائم وحذروه من عصيان السلطنة فأتاهم ، فقطعوا رأسه وطافوا بها مصر وعلقوها في باب زويلة ثم جهزوها إلى الأعتاب السلطانية ، وذلك في سنة تسع وعشرين وتسعمئة وضبط مصر محمود بك وجانم الحمزاوي إلى أن جاء قاسم باشا من دار السلطنة مُتَولياً مصر ، واستمر إبراهيم باشا في وزارته العظمى ، ثم أرسله السلطان وهو وزير أعظم إلى مصر لإصلاحها ، فجاء إليها بغاية العظمة والإقبال ونظر في أحوالها وأموالها وولى على مصر قاسم باشا ، ورجع إبراهيم باشا إلى دار السلطنة فكان مقبولاً معظماً عند السلطان نافذ الأمر والنهي إلى أن أفرط في الدلال وزاد في الإدلال ، فاستبد بالأمور واستقل بمصالح الجمهور ، فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله وما تحملت زيادة عجبه وإدلاله وكثر حاسدوه فوشوا به إلى السلطان سليمان وقالوا له : إنه يريد قتل السلطان والجلوس على تخت السلطنة ، فلما بلغ السلطان سليمان ذلك أراد أن يختبر حقيقة الأمر فقال يوماً لإبراهيم باشا وهما في مجلس أُنْس : إني أريد أن أجعل السلطنة لك ، فقال : العفو يا مولانا السلطان فإن العبد لا يبلغ مرتبة السيد ، فقال له السلطان : لا بد من ذلك ، فقال إبراهيم باشا : يكفي أن يتفضل مولانا السلطان عليّ بأن يأمر في دار الضرب أن يجعلوا على وجه السكة اسم مولانا السلطان وعلى الوجه الآخر اسمي فإني أكتفي بالمشاركة في السكة ، فلما اطَّلع السلطان على صحة ذلك الأمر بالقرائن التي ظهرت له أمر بقتله ، فطلبه السلطان في ليلة من ليالي أواخر رمضان إلى عنده وأنعم عليه على جاري عادته بنفائس وإنعامات وافرة ووهب له جميع ما كان في مجلسه من أواني الذهب المرصعة بالجواهر العالية وطيب خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغالية ، وأمره أن يبيت عنده في مجلس خاص به كان عادته أن يبيت فيه ، وصبر عليه إلى أن غلب سلطانُ النوم على مقلته وأماقيه ، فأمر بذبحه فذبح ، وأخطأ الذابح نحره فصار مستجيراً ، وكان السلطان قريباً من موضعه وقد صمم في أمر قتله فأمر أن يكمل ذبحه فقطع رأسه وأطفئ نبراسه وأخمدت أنفاسه ، ولعل كثرة إحسانه إلى الناس ونشر

مكارمه التي زادت على الحد والقياس نفعته عند الله تعالى في الدار الآخرة ، ولعله صدقت نيته في بعضها فصادفت قبولاً وصارت له عند الله ذخراً ، فكم من عمل صالح يكون سبباً للنجاة من النار ويدخل به صاحبه الجنة مع الشهداء الأبرار ، وما ربك بظلام للعبيد ، وكان قتله في الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة تسعمئة وإحدى وأربعين ، وفي قصته وقصة أحمد باشا خصمه عبرة للناظرين وأولي الأبصار والمستبصرين ، ورحم الله القائل :

ومصاحِبُ السلطانِ مثلُ سفينةٍ   في البحر تَرْعُدُ دائماً مِنْ خوفِهِ
إنْ أَدْخَلَتْ مِنْ مائها في جوفها   أَدْخَلَها وماءَها في جَوْفِهِ

وفي سنة ثلاثين وتسعمئة هلك سلطان العجم إسماعيل شاه وقام بالملك بعده ولده طُهماسب شاه .

ذكر استغاثة ملك الفرنسيس بالسلطان سليمان

في سنة اثنتين وثلاثين حضر إلى دار السلطنة رسل من ملك الفرنسيس ومعهم مكاتبة لمولانا السلطان سليمان ، مضمونها الشكاية إليه من تغلب بعض الملوك أعدائه على مملكته فهو يستغيث بمولانا السلطان سليمان ويطلب منه أن ينجده بمدده ، وذكر في تلك المكاتبة تفخيماً وتبجيلاً وتعظيماً كثيراً لمولانا السلطان يستعطفه به ، فأجابه إلى مطلبه وأنجده وجهز له جيوشاً كثيرة براً وبحراً ، فكانت تلك الجنود مع الفرنسيس إلى أن انقضى مرامه ودفع المتغلب عليه بل غلبه وقهره ، فمن ذلك الوقت صار الفرنسيس يعدون أنفسهم خدماً وأتباعاً للدولة العثمانية .

الغزوة الثالثة إلى الأنكروس

في سنة اثنتين وثلاثين وقيل أربع وثلاثين بلغ مولانا السلطان أن طائفة الأنكروس وهم المجر كثر بغيهم وفسادهم وطغيانهم ، وتكرر ذلك منهم المرة بعد المرة ، ولم ينجع فيهم التخويف والموعظة ، فتجهز مولانا السلطان لقتالهم وجهز لهم جيشاً يبلغ مئتي ألف مقاتل ، وقيل ثلاثمئة ألف ، وخرج بنفسه ، فلما وصل إلى بلغراد لم يزل مشغولاً بفتح الحصون والقلاع جاء أكثر أهلها يطلبون الأمان وسلموا مفاتيح القلاع ،

ثم سار مولانا السلطان حتى انتهى إلى نهر صاوة وهو من أعظم أنهار الدنيا ، فأمر مولانا السلطان فاتخذوا عليه جسراً ممدوداً أمام قلعة هرسك ، فاجتاز العسكر منه إلى بلاد الكفار ، ثم أمر السلطان برفع الجسر فرفع ، فبقي المسلمون في بلاد الكفار ، وذلك يدل على شهامته وقوة عزمه وقطع أطماع العسكر من الفرار إلى بلادهم .

ولما سمع القرال لارش ويقال له أيضاً لارس وهو رئيس كفار أنكروس ، أعني المجر ، جمع جنوده وسار بهم من كرسي مملكته إلى طرف عسكر المسلمين نحو خمس منازل يريد مهاجمة المسلمين وأن يبادرهم في القتال اغتراراً بمن معه من الجند ، وخيم في مفازة هناك تسمى صهارج ، وأشرف المسلمون على محل الكفار وربوة القتال فرتبوا الميمنة والميسرة والقلب وأخذوا أهبة الحرب ، وتضرع السلطان إلى الله تعالى وسأله النصر وتوجه إليه بالنبي ﷺ ، وجعل أمام العسكر في هيئة الحاجزين العسكرين مئة وخمسين عجلة كانت تجر المدافع الكبار ، وركبوا عليها المدافع وقيدوا بعضها ببعض بالسلاسل ، ووقف عساكر السلطان الإنكشارية تسع صفوف كما هي عادتهم في الحرب ، وهجم الكفار بأجمعهم على القلب فرأوا أنه لا سبيل إلى العبور بسبب العجلات ، فانحازوا إلى طرف اليمين ، فوقع بينهم وبين عسكر المسلمين أهل روملي مقتلة عظيمة ، فلما علم الكفار أنهم لا طاقة لهم بهم انحازوا إلى طرف عسكر أناضولي فاقتتلوا أيضاً معهم قتالاً شديداً ، وكان قد أصاب رئيس الكفرة لارش مدفع من جهة المسلمين كان به هلاكه وتلفه ، فتضعضعت جنوده عن المقاومة ، وامتد القتال إلى غروب الشمس ، ثم انتصر المسلمون وانهزم الكافرون وصاروا كحُمرٍ مستنفرة فرّت من قَسْورة ، فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، حتى صارت أجساد الكفار كالتلال وجرت الدماء كالسيل ، وغنم المسلمون من الأموال والدواب شيئاً لا يحصى ، قيل إن القتلى من الكفار عشرون ألفاً ، ثم أغار الجند على بلاد أنكروس وتوغلوا فيها مسيرة عشرة أيام وجاؤوا بالأسرى والغنائم ، واستولى مولانا السلطان على الحصون والقلاع الواقعة في الجهة الجنوبية من تلك المملكة ، ثم رجع قافلاً إلى القسطنطينية في أواخر شهر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة .

الغزوة الرابعة إلى النمسة وقرادنز

كانت هذه الغزوة سنة ٩٣٥ ، وسببها أنه اجتمع كفار النمسة والألمان وقرادنز ، وأغار على قلعة للمسلمين تُسمّى بدون أخذوها من المسلمين بحيلة وعلى غرة وغفلة ، فلما بلغ الحضرة السلطانية ما فعلوه استشاط غيظاً وأمر بالتجهيز للغزو ليحصل قمعهم ، فبرز من دار السلطان إلى حلقة لوبكار لليلتين مضتا من رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمئة ، واستمر راحلاً بجيوش كثيرة إلى أن وصل إلى المخيم العالي ، فجاءته امرأة من ملوك أنكروس تطلب الأمان لجماعة من قومها والتزمت بخراج أنكروس كل عام ، فقوبلت من الحضرة الشريفة السلطانية بالقبول وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها بالأمان ، وعادت إلى بلادها ، واستمر الوطاق السلطاني ، وتوجه كثير من العساكر إلى محاصرة قلعة بدون التي كانوا أخذوها ، فحاصروها وضيقوا على من فيها إلى أن فتحها الله كما فتح سائر البلاد وخذل أهل الكفر والعناد ، وكان فتحها بعد حرب شديد ، ثم ولّوا هاربين مأسورين مقتولين لأربع مضين من محرم سنة ست وثلاثين ، ثم فتحت قلعة تياق حصاري ، ثم توجه العساكر إلى محاصرة قلعة أخرى قريب تخت النمسة كانت من أعظم قلاع الكفار ، فأحاط الجند بها وحاصروها ، فطلب أهل القلعة الأمان وأتوا بمفاتيحها إلى حضرة مولانا السلطان ، ولما كانت القلعة المذكورة بعيدة عن حدود الإسلام غير مأمونة من هجوم الكفار أمر حضرة مولانا السلطان بهدمها فهدمت وأخربت ، ونهبوا من كانوا نازلين بأطرافها وحواليها ، وسبيت أولادهم ونساؤهم ، وعاد السلطان إلى تخت ملكه بالنصر والتأييد أوائل شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وتسعمئة .

الغزوة الخامسة إلى بلاد النمسة أيضاً

في سنة سبع وثلاثين وتسعمئة غزا مولانا السلطان سليمان بنفسه من القسطنطينية بمئة وعشرين ألف مقاتل وأربعمئة مدفع لحرب النمسة ونازل مدينة فيينا عاصمة مملكة النمسة ، وأقام عليها الحصار فقاتلوا أشد القتال ، وحصلت أمطار شديدة تأذى المسلمون منها ، وفاض النهر وأخذ الخيام وجملة من العسكر وصعد بعضهم على الأشجار هرباً من الماء ومكثوا يومين وليلتين وهم في مشقة شديدة حتى انكشفت المياه ، ولما رأى السلطان ذلك تحول وارتحل عن المدينة وقتلت عسكرُ الإنكشارية

الأسرى الذين كانوا تحت أيديهم ، ولما وصل مولانا السلطان إلى مدينة موهكز من بلاد المجر أتاه حاكمها وبذل الطاعة فقبله وأكرمه وأجلسه عن يمين كرسيه ، ولما أراد الانصراف خلع عليه خلعة ثمينة وأعطاه ثلاثة أفراس من جياد الخيل عليها سروج مرصعة ، ورجع السلطان إلى مقر سلطنته سالماً .

الغزوة السادسة إلى بلاد الألمان

لما كانت سنة ثمان وثلاثين وتسعمئة وصلت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن قرال النمسة جمع طائفة من كفار الألمان وأراد الإفساد والطغيان ، فتوجهت همة مولانا السلطان سليمان إلى المبادرة إلى قتال هذا اللعين ، فجهز الجيوش براً وبحراً وأرسل في شعبان من طريق البحر أحمد باشا القبودان لحفظ وجه البحر من النصارى ومعه عشرون غراباً مشحونة بالعساكر الأبطال ، فافتتح عدة قلاع من بلاد الفرنج وأرعبهم غاية الرعب وقتل وسبى كثيراً منهم ، وتوجه مولانا السلطان براً من دار السلطنة في رمضان من السنة المذكورة ، فوصل بجيوشه إلى مملكة الألمان ، وأحاط بما فيها من الحصون والقلاع بعساكره ، وضيقوا عليها ونهبوا قراها وضياعها المعمورة وسبوا كثيراً من ذراري الكفار ، وغنموا ما لا يحصى من الأموال وقتلوا من الرجال ما لا يخطر بالبال ، وهرب ملوكهم وتركوا صعلوكهم وبذلوا ما بقي معهم من الأموال والذخائر على بذل الأمان لهم ثلاثة أعوام ، فأجيبوا من جانب السلطة السنية إلى سؤالهم ، وكتب لهم توقيع الأمان ، وعاد مولانا السلطان إلى دار ملكه المسعود مظفر الجنود سعيد الجدود في أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمئة .

الغزوة السابعة إلى بلاد الصرب

في سنة تسع وثلاثين خرج مولانا السلطان سليمان بمئتي ألف مقاتل لمحاربة الصرب ، فافتتح في طريقه أربع عشرة قلعة واستولى على أكثر حدود بلاد النمسة ، ثم رجع إلى القسطنطينية سالماً غانماً .

وفي سنة أربعين عقد صلحاً مع ملوك الفرنج أهل أوروبة ليتفرغ لمحاربة العجم لكثرة الخلاف الحاصل بينهم .

الغزوة الثامنة إلى بلاد العجم

في سنة أربعين وتسعمئة توجهت همة مولانا السلطان سليمان إلى محاربة العجم ، فجهز جيوشاً كثيرة وأرسلها مع الصدر الأعظم في أوائل شهر ربيع الأول ، فافتتح كثيراً من القلاع والحصون والمدائن ، ثم خرج مولانا السلطان سليمان بنفسه في ثامن ذي القعدة حتى انتهى إلى تبريز ، فاستقبل الصدر الأعظم قبل وصوله إلى تبريز بمن معه من العساكر وتوجها بجميع العساكر لاستئصال مملكة العجم ، وهرب سلطان العجم وصار يتنقل في الجهات والأطراف حتى انتهى في هربه إلى خراسان ، ولما وصل مولانا السلطان إلى تبريز استقبله أهلها وهنوه بالقدوم .

فلما جاء الشتاء توجه إلى مدينة بغداد وكانت بيد سلطان العجم وكان له نائب بها وهو بكلو محمد خان ، فلما سمع بقدوم مولانا السلطان بعث إليه بالطاعة ثم هرب إلى بلاد العجم ، فدخل مولانا السلطان بعساكره مدينة بغداد وقصد زيارة الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه ، وكان إسماعيل شاه نقض تربته وهدمها ، فجددها مولانا السلطان وجعل عليه مشهداً عظيماً وبنى فيه تكية يطبخ فيها الطعام ، وبنى في بغداد قلعة حصينة وشحنها بالمدافع والعساكر ، وكان دخول مولانا السلطان بغداد في ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وتسعمئة .

ولما أقبل الربيع نزل منزلاً يقال له صاروجة قمش ، ثم نهض بعساكره يريد سلطان العجم فتوغل في بلاده حتى وصل إلى مدينة دركزين ، فجاءته رسل سلطان العجم وتكرر مجيئهم يطلبون الصلح ، وكتب إليه سلطان العجم أنه لا يقاتل أبداً ويرجوه من كرم السلطان أن يرحم الرعايا فقد خربت ديارهم وهلكت دوابهم ويسأله العفو وأن يعود مولانا السلطان إلى بلاد الروم ، وأعطى العهود أنه لا يخون وتكون البلاد التي أخذها السلطان تحت حكمه لا ينازع السلطان فيها أبداً وأنه يكون تحت خدمته يلبيه كلما دعاه .

فلما تحقق السلطان منه ذلك عقد معه صلحاً وأمر العساكر بالرجوع ، فرحل بهم ورجع إلى مقر سلطنته فدخل دار السلطنة رابع عشر رجب سنة إحدى وأربعين وتسعمئة ، وزينت المدينة واستبشروا بقدومه ، وألطف تاريخ قيل في ذلك : فتحنا العراق .

الغزوة التاسعة إلى مملكة إسبانية وجزائر المغرب

كانت هذه الغزوة في سنة ثلاث وأربعين وتسعمئة كما في التاريخ القبطي ، وذكر بعض المؤرخين أنها كانت في سنة خمس وأربعين .

وحاصلها أن مولانا السلطان توجه بنفسه الشريفة من طريق البر ومعه عساكر كثيرة وأرسل من طريق البحر خمسمئة غراب مشحونة بالعساكر والذخائر والسلاح وعليها خير الدين باشا ، فافتتح عساكر البر والبحر قلاعاً وحصوناً كثيرة بعد حروب كثيرة ، وتملكوا أربعة وثلاثين حصناً وخمساً وعشرين جزيرة من جزائر البندقية وهم طائفة من النصارى خليفتهم البابا ، وضربوا مراكب البندقية وكانت مئة وسبعة وستين فشتتوها ، وسلمت البندقية لمولانا السلطان قلاع نابولي ورومانية وغيرهما ، ودفعت لمولانا السلطان ثلاثمئة ألف ريال ، ورجع سالماً منصوراً مظفراً ، وكانت غنيمة المسلمين من أموال الكفار وسباياهم مما لا يحصى .

الغزوة العاشرة إلى البغدان

وكانت هذه الغزوة في سنة أربع وأربعين وتسعمئة ، توجه مولانا السلطان بنفسه الشريفة ومعه كثير من عساكره المنصورة إلى بلاد البغدان وقتل فيها وأسال الدماء وسفك وافتتح القلاع وغنم أموالاً كثيرة وأسر نفوساً عديدة غير محصورة ، وعاد إلى تخت ملكه الشريف مؤيداً من عند الله سبحانه وتعالى بالنصر والتأييد والفتح الجديد ، فوصل إلى دار السلطنة لست بقين من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وتسعمئة .

الغزوة الحادية عشرة إلى أسطبور من بلاد أنكروس

سبب هذه الغزوة أن مولانا السلطان كان قد أنعم على امرأة من أبناء ملوكهم يقال لها أردل بانو بتلك البلاد ، ثم توفيت فأراد قرال النمسة أن يتملك تلك البلاد ، فتوجه مولانا السلطان بعساكره المنصورة سنة ثمان وأربعين وتسعمئة إلى قتال قرال النمسة ، فلما أحس بوصول العسكر المنصور السلطاني فر هارباً إلى الجبال وتقهقر عن القتال ، فتبعته الأبطال ففر منهم ، فجالت العساكر المنصورة في تلك البلدان وقتلوا أهل البغي

والعدوان وسبوا الأولاد والأطفال والنساء وتركوا ديار الكفر قاعاً صفصفاً ، وغنموا مغانم كثيرة وفتحوا قلعة أسطبور وفتحت أيضاً قلعة رشوة ، وقتلوا من الكفار ما لا يحصى ، وعاد مولانا السلطان بعساكره إلى مقر سلطنته منصورين مؤيدين .

الغزوة الثانية عشرة غزوة أسترغون

كانت هذه الغزوة سنة ٩٥٠ ، وذلك أن مولانا السلطان توجهت همته لتنظيف بلاد الروملي من طوائف الكفار بالغزو والجهاد ، فتوجه من دار سلطنته بالجيوش المتواترة وسار إلى أن أحاط بقلعة واليوه وقلعة شقلا ولاشور وهما من أحكم القلاع وأعظم الحصون ، فحاصرهما إلى أن فتحهما في غرة ربيع الأول من العام المذكور ، ثم افتتح قلعة أسترغون وهي قلعة في غاية الاستحكام مشحونة بالذخائر والأموال مملوءة بالعُدد والعَدد الوافر ، فحاصروها وألقى الله الرعب في قلوب أهلها ، ثم افتتحها وأخذ من فيها أخذاً وبيلاً وأسروا وقتلوا تقتيلاً ، ونهبت الأموال وسبيت النساء والأولاد والأطفال ، وأخذوا ما حولها من البلاد والبقاع والقلاع ، وكذلك فتحت قلعة إستولين ببلغارد وهي قلعة سامية العماد ، وعين لها ولغيرها من القلاع الأمراء الحفاظ النبلاء الأيقاظ ، ونصب لكل منها قاضياً يجري الأحكام الشرعية وسنجقاً للاستحفاظ ، وصارت من الممالك المحروسة السلطانية ، وصارت البِيَعُ والكنائس مساجد للصلاة والعبادات ، ورجع مولانا السلطان إلى كرسي ملكه مظفراً منصوراً .

الغزوة الثالثة عشرة سنة ٩٥٤

هذه الغزوة كانت إلى الهند لكن لم يخرج فيها مولانا السلطان بنفسه وإنما جهز الجيوش وأرسلها ، وسببها أن طائفة من الفرنج يقال لهم البرتغال كانوا يغيرون بمراكبهم وعساكرهم في بحر الهند ، فأرسل سلطان الهند إلى مولانا السلطان سليمان يستغيث به ويشكو إليه بأن الطائفة المذكورة تغلبوا على ممالكه ، ويطلب نجدة من مولانا السلطان ، فجهز إليه عساكر في مراكب بحرية وبعثهم مع الوزير سليمان باشا ، فوصل بها إلى الهند ودفع البرتغال ، فصار سلطان الهند من جملة المنتسبين إلى السلطنة السليمانية الداعين لها القائمين بخدمتها ، ورجع سليمان باشا إلى اليمن ثم إلى دار السلطنة غانماً سالماً .

الغزوة الرابعة عشرة إلى بلاد العجم

كانت هذه الغزوة أيضاً سنة أربع وخمسين وتسعمئة إلى بلاد العجم ، وسببها أن سلطان العجم طهماسب كان له أخ يسمى القاسب ميرزا كان قد ولاه مدينة شروان ، ثم وقع بينهما اختلاف آل الأمر منه إلى القتال ، ولم يكن للقاسب طاقة لمقاومة أخيه وجيوشه ففر هارباً مع جماعة من خواصه إلى الروم ملتجئاً إلى مولانا السلطان سليمان ، فلما وصل دار السلطنة السنية أكرمه مولانا السلطان سليمان ووهب له من الذهب الأحمر شيئاً كثيراً ووهب له عدة أحمال من الأقمشة وعدة خيول وأعطاه الطبل والعلم ووعده بالنصر ، ثم تجهز مولانا السلطان بنفسه إلى المسير لقتال طهماسب وأمر أخاه القاسب ميرزا بالتقدم وقواه بطائفة من العسكر ، وفي الثامن من شهر صفر سنة خمس وخمسين وتسعمئة توجه السلطان سليمان بنفسه قاصداً بلاد العجم ، فلما قرب من حدود أذربيجان نزل ببرهان واستخلص شروان من يد جماعة طهماسب .

وفي عشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة وصل إلى تبريز وفوض أمرها إلى القاسب ميرزا أخي سلطان العجم وأعطاه من العسكر والمدافع الكبار ما يكفيه ، فلما تولى القاسب إمارة تبريز جعل يصادر الرعايا والبرايا ويظلمهم على عادة ملوك العجم ، فلما تحقق السلطان سليمان منه ذلك استصحبه معه ، وكان قصد السلطان أن يسير على مدينته وأن يخلصها منه لأنه ملكها من نواب السلطان بعد أن ملكوها فوصله إليها في عاشر رجب ، وكان طهماسب شحنها بالرجال والأبطال وأحصنها غاية الإحصان ، ولم تزل العساكر يعالجون الحصار بضرب المدافع وعمل النار حتى أخربوا أكثرها ، فلما تيقن من بالقلعة أنهم مأخوذون تدلى بعضهم من القلعة بحبل واجتمع بالقاسب ميرزا وتضرع إليه واستشفع به ، فشفع القاسب عند السلطان سليمان في إعطائهم الأمان والعفو عنهم ، فقبل شفاعته فخرجوا من القلعة وسلموها لصاحبها ، فدخلها أهل السنة والجماعة ونصبوا عليها الأعلام الإسلامية ، وولى السلطان إسكندر باشا الدفتري أمير الأمراء بها .

ولما قرب الشتاء قصد السلطان أن يسير إلى طرف ديار بكر فسار يشتي حتى وصل إلى مدينة آمد ، فبينما هو مُخيّم فيها إذْ ورد أن العجم لما بلغهم عَوْد السلطان دخلوا

مدينة أذربيجان وأحرقوها وشردوا أهلها وقتلوا من قدروا عليه وأحرقوا الزروع ، فلما بلغ ذلك السلطان أمر الوزير أحمد باشا بالمسير إليهم وعضده بجماعة من العسكر ، واستخبروا بأن جماعة سلطان العجم مخيمون بقرب مدينة تبريز ، فساروا وكبسوهم بالليل وقاتلوهم وشردوهم ، ثم إن القاسب أخا سلطان العجم تضرع إلى السلطان سليمان أن يعطيه جماعة من العسكر ليسير بهم إلى بلاد أصفهان وقُمّ وقاشان لأن بها معظم أموال أخيه سلطان العجم وخزائنه ، فأجابه السلطان سليمان سؤاله وعضده بطائفة من عساكر الأكراد والأعجام ، واجتاز السلطان سليمان بنهر الفرات ووصل إلى حلب ، ووصل القاسب بمن معه إلى حدود عراق العجم فتوغل بها وبدأ بالنهب والتحريق والتخريب حتى وصل إلى حدود فارس وأخرب ضياعهم وأحرق بيوتهم وأسر أولادهم وأزواجهم ، ثم عاد إلى بغداد وشتى بها ، ووقع بينه وبين الوزير محمد باشا المتولي بغداد من طرف مولانا السلطان سليمان وحشة اقتضت أن عرض محمد باشا إلى السلطان سليمان بأن القاسب ترفّض ورفض طاعة السلطان ، ولم يكن الأمر على حقيقته وإنما هي مكيدة فعلها في حقه بغضاً وعداوة ، فلما اطلع القاسب على ذلك خاف على نفسه من صولة السلطان فهرب إلى بلاد الأكراد ، ولم يزل بها حتى قدر عليه أخوه طهماسب سلطان العجم فقتله قتلة شنيعة .

الغزوة الخامسة عشرة إلى بلاد العجم أيضاً

وفي سنة ٩٦٠ كثرت مخالفات سلطان العجم لطاعة مولانا السلطان وكثر ظلمه وكثرت الشكايات فيه من جماعته وغيرهم ، فقصد مولانا السلطان سليمان التوجه لمحاربة العجم ، فسار بعساكر كثيرة ودخل حلب في غرة ذي الحجة ، ولما وصل إلى أذربيجان كتب إلى سلطان العجم يدعوه للمبارزة ويعيره على ترك الحرب والاختفاء في الكون ، ثم توجه مولانا السلطان سليمان حتى وصل إلى مدينة وَان وهي من أحسن مدن الدنيا وأنزهها فأخربها العسكر جميعاً ، وكان دأبهم كذلك من حين دخلوا بلاد العجم ، ثم لم يزالوا كذلك حتى وصلوا في سادس عشرين شعبان من سنة إحدى وستين وتسعمئة إلى مدينة نخجوان مقر سلطان العجم وفيها دور وقصور شامخة الأركان رفيعة البنيان ودور أولاده وأحفاده ووزرائه وسائر أعيان دولته ، فلما دخلها

العسكر وجدوها خالية فقطعوا أشجارها وخربوا قصورها ، فصارت البلد كأنها أرض قفراء ما عمرت قط ، وأغار بعض العسكر على مدينة تبريز فنهبوها وقتلوا من قدروا على قتله ، ثم أغاروا على مراغة فنهبوا وأحرقوا ، واقتتلوا مع ألوف من جماعة سلطان العجم فانتصروا عليهم وأخذوا تيجانهم المرصعة وأعلامهم وطبولهم ، وفي أثناء ذلك وصل وفد من جانب سلطان العجم ومعه مكتوب ، محصله أنه ندم على ما أظهر من عداوة ، وأظهر التذلل والاستغفار والتجأ إلى عتبة السلطان يطلب منه الصلح ، فأجابه إلى مسؤوله وخلع على الوافد ، ثم توجه السلطان وشتى بمدينة أماسية ، ثم رجع إلى كرسي مملكة القسطنطينية .

الغزوة السادسة عشرة إلى سلطان المغرب

لهذه الغزوة خبر عجيب غريب لم يذكره تواريخ أهل المشرق ، وهو يدل على ضخامة ملك مولانا السلطان سليمان وقوة سلطنته وعلوّ همته فيستحق أن يلحق بالغزوات وإن لم يخرج فيها السلطان بنفسه ، فينبغي ذكره لغرابته تتميماً للفوائد ، وهو ما ذكر في تواريخ أهل المغرب ، منها التاريخ المسمى نزهة الحادي في أخبار أهل القرن الحادي ؛ وهو تاريخ مخصوص بذكر ملوك المغرب للعلامة الشيخ محمد بن عبد الله الأفراني المراكشي ، وذلك أنه ذكر هذا الخبر في ترجمة السلطان الملقب بالشيخ أبي عبد الله محمد المهدي بن أبي عبد الله القائم ثالث الخلفاء السعديين الذين ملكوا مراكش وفاس .

وحاصل ذلك الخبر أن السلطان المذكور لما تم له ملك المغرب ودانت له حواضره وبواديه ، تلقّب بالمهدي وتاقت همته إلى بلاد المشرق ، فكان يقول : لا بد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج الأتراك من أحجارهم وأنازلهم في ديارهم ، فبلغت مقالته مولانا السلطان سليمان العثماني ، وكان أبو عبد الله لا يسمّي سلطان العثمانيين إلا سلطانَ الحواتة لكون الغالب على الأتراك سفرهم في السفاين ، فأنهي ذلك للسلطان سليمان العثماني ، فبعث له أناساً برسالة فلم يحتفل بهم ، بل قال : أخبروا صاحبكم أني مقتحم عليه بلاده ومتوجه للقائه ، فلما رجعت الرسل للسلطان سليمان وأخبروه بمقالة أبي عبد الله الشيخ وما قاله لهم بعث السلطان سليمان لبعض وزرائه الذين

بالجزائر أن يأتوا برأس أبي عبد الله ، فبعثوا رجلاً من أبطال جندهم في شرذمة من الأجناد مظهرين أنهم هربوا من السلطان العثماني ورغبوا في خدمة أبي عبد الله ونيتهم المكيدة به والاغتيال له حيث أمكنهم ذلك ، فلما قدموا على السلطان أبي عبد الله فرح بهم غاية الفرح وأظهر السرور لمقدمهم عليه ، وكان عنده جماعة من الأتراك استخدمهم قبل ذلك وكان يركب معهم ويدنيهم ويأمن بهم ، فلما حضر هؤلاء الأتراك فرح بهم الأولون إذ كلُّ غريب للغريب نسيب وأن من الغريب يعجب الغريب ، فلم يزل الأتراك القادمون قائمين بخدمته مختصين به يتربصون الفرصة ويترقبون المكيدة للفتك بأبي عبد الله ، فسافر لقتال بعض العصاة عليه ، فلما كان بجبال درنة بموضع يقال له أثلاثة دخلوا عليه خباءه ليلاً على حين غفلة من العسكر وبقية الخدم ، فضربوا رأسه بشاقور ضربة واحدة أماتوه بها ، واحتملوه في مخلاة وذهبوا به في الظلماء عامدين إلى جهة سلماسة كأنهم رسل إلى تلمسان لئلا يفطن بهم أحد ، ثم أُدركوا في بعض المواضع فقاتل معهم طائفة حتى هلكوا ، وهرب بعضهم بالرأس إلى أن أبلغوه السلطان سليمان بالقسطنطينية ، فلم يزل الرأس معلقاً بها إلى أن تلاشى ، وكان قتله في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمئة ، وحمل جسده إلى مراكش ودفن في قبور الأشراف انتهى .

الغزوة السابعة عشرة لم يخرج فيها السلطان بنفسه

في سنة أربع وستين أيضاً سارت جيوش السلطان سليمان إلى اليمن لإصلاح اليمن وتملكه ، ودَفْع المتغلبين عليه ، فكان لهم غاية النصر والاستيلاء والتمكن وتمام الإصلاح ، دفعوا البرتغال التي كانت تقطع البحر وتُغِيْرُ على بلاد الإسلام بعد امتداد الفتن إلى سنة ثمان وستين وتسعمئة .

الغزوة الثامنة عشرة

وفي سنة سبع وستين وتسعمئة توجه القبطان سنان باشا بعمارة عظيمة إلى جزيرة جربا في إفريقية وتملكها بعد حصار ثلاثة أشهر وأخذ حاكمها أسيراً وأتى به إلى القسطنطينية ، فلما بلغ ذلك ملك إسبانية ركب على بلاد الجزائر وأخذ بعض قلاع

ومراكب تخص الدولة ، فغضب السلطان من ذلك وعزم على فتح مالطة .

ففي سنة ثلاث وسبعين وتسعمئة خرج القبطان سنان باشا من ميناء القسطنطينية بعمارة تحتوي على مئة وإحدى وثمانين مركباً ومعه السر عسكر مصطفى باشا ، فلما وصلوا إلى الجزيرة المذكورة خرجت العساكر وأخذوا في عمل خنادق أمام القلعة وأقاموا عليها الحصار الشديد إلى أن أخذوها وأخذوا أسرى كثيرين ، وسمروا على أخشاب وطرحوا في البحر أمام المدينة وهي محاصرة ، وكان قد وقع في يد حاكم المدينة أسرى من الإنكشارية ، فلما رأى ذلك أمر بقطع رؤوسهم ووضعها في المدافع وضرب بها المحاصرين ، ووقع عشر هجمات على المدينة وفقد عساكر كثيرة ، فلم يمكن أخذ المدينة فرفعوا الحصار عنها وارتحلوا .

الغزوة التاسعة عشرة

وفي أثناء هذه المدة كان قد وقع الحرب بين الدولة والمجر ، وأخذت عساكر الدولة جملة بلدان من ممالك المجر ، فأرسلوا يطلبون الصلح ولم يرسلوا الخراج المنكسر عندهم ، فغضب السلطان وأمر بحبس رسولهم وعزم على السفر إليهم بنفسه ، فبلغهم الخبر فخضعوا وأعطوا الطاعة وبذلوا المنكسر وضاعفوه بأضعاف كثيرة ، فعفا عنهم وأمنهم .

الغزوة المكملة للعشرين

وفي سنة أربع وسبعين وتسعمئة نهض مولانا السلطان سليمان خان لفتح مدينة لنصارى المجر تسمى أسكدار ، والحال أنه قد شاخ وكبر وهرم وازدادت عليه علة النِّقْرس ؛ وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، فمنعه الأطباء عن السفر فلم يقبل منهم لمحبته الجهاد ، وقال : أريد أن أموت غازياً ، فخرج لتسع مضين من شوال سنة أربع وسبعين وتسعمئة ، فسار بعسكر كثير متزاحم الأفواج متلاطم الأمواج ، وبعث وزيره برتو باشا إلى فتح قلعة كولة فلم يلبث إلا قليلاً حتى فتحها ، وأما السلطان فإنه وصل إلى بلغراد بعد مشقة عظيمة بسبب المرض الذي به وكثرة الأمطار ، وسار منها إلى سملين فتسلمها ، وفتح جملة قلاع وبلدان .

وأما قلعة أَسْكُدار فهي قلعة في غاية الحصانة واسعة شاسعة مكينة راسخة البناء في حضيض الماء شامخة الارتفاع إلى عنان السماء مشحونة بآلات الحرب والمدافع مملوءة بجيش النصارى وأبطالهم ، فكانت في المتانة إلى حد الغاية ، وقد أحاطت بها المياه والأوحال من كل جانب فلم يزدد أمر القلعة إلا استعصاباً ، واشتد مرض السلطان وهو محاصر لها حتى أحس بالموت فدعا الله أن يعجل بالفتح ونصر المؤمنين ، وقال قد تحقق عندي القلعة ، يتيسر إن شاء ويكتب في التواريخ أن سليمان افتتح هذه القلعة العظيمة وهو ميت ، فاستجاب الله دعاءه وحقق أمله ، وقد أوصى بالسلطنة لولده السلطان سليم الثاني ، ثم انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ، وأخفى الوزير الأعظم محمد باشا وفاته شفقة بجيوش المسلمين أن يصيبهم فشل ، ودعا رئيس الأطباء فشق بطنه وملأه بالأجزاء الحارة ودفن أمعاءه هناك ، ثم لم يزالوا يجدّون في أمر الفتح حتى فتحوها بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام وقتلوا صاحبها وقتلوا ثلاثة آلاف ممن معه .

وكان من جملة أسباب فتحها أن النار اشتعلت في خزينة بارود الكفار وهي مخزونة في القلعة المذكورة ، فأخذت جانباً كبيراً من القلعة رفعته إلى عنان السماء وزلزلت الأرض زلزلة هائلة ، وتطايرت جلاميد الصخور إلى الهواء ، ورمت شرراً ولهباً ودخاناً إلى أن امتلأ الفضاء وقتلت كثيراً من الكفار الذين كانوا بالقلعة فضعفت قلوب من بقي منهم ، فتزاحم المسلمون على دخولها والهجوم على من فيها فاقتلعوها من أيدي الكفار ووضعوا السيف في جميع الكفار وقتلوهم عن آخرهم وساقوهم إلى جهنم وبئس القرار .

وما ذكرنا من أن الفتح إنما كان بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام هو ما في بعض التواريخ ، وفي تاريخ القطبي أن الفتح كان قبل وفاة السلطان ، وأنه لما جاءه خبر الفتح وهو في غاية المرض فرح وحمد الله تعالى على هذه النعمة واستسلم لربه وقال طاب الموت الآن ، ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى ، وكان فتحها يوم السبت سابع شهر صفر الخير سنة ٩٧٤ ، ولم يزل العسكر هناك في ترميم القلعة وإصلاحها حتى بعث محمد باشا إلى السلطان سليم يدعوه إلى أسكدار ، وكان يومئذ على إمارة كوتاهية ، فلما جاء الخبر دخل القسطنطينية على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك في التاسع من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وتمت له البيعة واطمأن الناس ، ثم خرج في

اليوم الثالث وتوجه إلى أسكدار فلحق العسكر ، ولم يختل عليهم شيء ، فحملوا السلطان سليمان رحمه الله تعالى في العجلة ونقلوه إلى القسطنطينية ، ودفن بها وعمره أربع وسبعون سنة ، ومدة سلطنته ثمان وأربعون سنة ، وكان قدوم ولده السلطان سليم إلى القسطنطينية من أَسْكُدار في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وكان الحرب لم يزل قائماً بين العساكر العثمانية وملك النمسة .

ومن العجائب التدبير الذي حصل من الوزير الأعظم محمد باشا عند وفاة مولانا السلطان سليمان ، فإنه بعد وفاته كتم وفاته وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والإنعامات ، وأعطى الأمراء الترقيات وأمر بإرسال البشائر إلى سائر الأطراف والجهات بحصول النصر والظفر ، وأرسل سراً يستدعي ولي العهد السلطان سليمان الثاني ويستعجله في سرعة الوصول ، وكتم ذلك عن جميع العسكر والأمراء والوزراء والأنام وأحسن التدبير في هذا الكتم ، واستمرت أمور المملكة في غاية الانتظام وهو في ديار الكفار ، وذلك من كمال العقل التام والرأي الصائب ، إلى أن وصل حضرة السلطان سليم والحرب قائم ووقع الصلح على الهدنة ثمان سنين ، ودفع ملك النمسة لخزينة السلطان ثلاثمئة ألف ريال ، ورجع مولانا السلطان سليم إلى مقر تخت سلطنته وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع إلى أوطانها ، ورثت الشعراء مولانا سليمان بقصائد كثيرة .

ذكر خبر عجيب

يدل على قوة ديانة مولانا السلطان سليمان وشدة ورعه وخوفه من الله تعالى ، أنه قبل وفاته أحضر بُقْشة وأوصى أن تجعل معه في القبر ، فلما أخبر بذلك شيخ الإسلام المولى أبو السعودي العمادي رحمه الله قال : لا بد من الاطلاع على ما في هذه البُقْشة قبل أن نجعلها معه في القبر ، فلما فتحوها وجدوا فيها الأسئلة التي كان مولانا السلطان يسأل عنها شيخ الإسلام المذكور وعلى كل سؤال الجواب منه ، فبكى شيخ الإسلام المذكور وقال : إن مولانا السلطان أراد ليبرىء ذمته عند السؤال عن هذه الأحكام وجعل السؤال متوجهاً إلى من كتب ما فيها ، فأسأل الله النجاة والخلاص .

الغزوة الحادية والعشرون من غزوات مولانا السلطان سليمان

التي لم يحضرها بنفسه

هذه الغزوة وكانت في الحجاز وهي مما ينبغي أن تلحق بغزوات مولانا السلطان سليمان وإن كان المباشر لها مولانا الشريف أبا نمي .

وحاصلها أن طائفة البرتغال من طوائف الفرنج قد تقدم أنهم كانوا يقطعون البحر ويغيرون على كثير من ممالك الإسلام ، فمن ذلك أن نفوسهم الخبيثة سولت لهم الاستيلاء على الحرمين وجزيرة العرب ، وكان ذلك في أواخر سنة ثمان وأربعين وتسعمئة ، فدخلت طائفة عظيمة من الفرنج المذكورين كثيراً من بنادر الإسلام وخربت وأفسدت فيها ، ثم قصدت بندر جدة المعمورة ونزلت بالمرسى المعروف بأبي الدوائر في خمسة وثمانين برشة مشحونة بالرجال والسلاح والذخائر ، فقاتلهم مولانا الشريف أبو نمي أمير مكة بنفسه ، وترك الحج ونزل إلى جدة في جيش عظيم بعد أن أمر بالنداء بالجهاد في نواحي مكة .

وقال : من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة ، فبلغ المبادرون للجهاد مبلغاً عظيماً لا يحد ولا يعد ، ونفقة مولانا الشريف شاملة للجميع وعيون الكفار تدور عليهم كل حين فتشاهدهم يزيدون عدداً وعيشاً رغداً وخدم مولانا الشريف أبي نمي يتوجهون إلى أطراف البلاد ويحضرون بأنواع الطعام ويشترونه بأغلى الأثمان حتى فرغت الحبوب والأقوات وكادت تعدم ، فأقبلوا على نحر الإبل ، فكان مولانا الشريف يأمرهم بأن ينحر لكل مئة نفس بعيرٌ أو ناقة ، واستمر الأمر على ذلك مدة ، فقال له بعض الناس : إن هذا الفعل يستأصل ما عندك من الإبل ، فأجابه بأني نويت أن أنحر ما عندي من الإبل ، فإذا فنيت أمر بنحر الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله ، فلما قرب وقت الحج برز أمره الشريف لابنه الشريف أحمد أن يقابل بمكة ويلبس الخلعة الواردة ويحج بالناس على عادة أجداده الكرام .

فلما وصل أمراء الحج قابلهم وفعل مثلما أمره والده ، وحج بالناس ، فلما قضوا الحج توجهوا إلى جدة لمقابلة مولانا الشريف أبي نمي وإلباسه الخلع الواردة ، فلاقاهم

وهو شاكي السلاح لابساً درعه في هيئة المقاتل ، ولما قدموا عليه أمر بإطلاق المدافع فأطلقت لمقابلتهم نحو ثلاثمئة مدفع ، فكان مشهداً عظيماً ، فألبسوه الخلع الواردة وأضافهم وأكرمهم غاية الإكرام وانصرفوا راجعين ، ولما رأى الكفار صبره وحصاره لهم انقلبوا خاسئين .

ولما بلغ حضرة مولانا السلطان سليمان ذلك زاد في إكرام مولانا الشريف أبي نمي ، وسمح له بنصف معلوم جدة وأوصل إليه غير ذلك من الإنعامات التي لا تحصى ، وهذه القصة فيها منقبة عظيمة لسيدنا الشريف أبي نمي تدخله في عداد الغزاة المجاهدين في سبيل الله ، ولم تكن لأحد غيره من أسلافه وأحفاده وأمراء مكة ، فرحم الله الجميع رحمة واسعة .

تنبيه

ذكر العلامة الفاسي في الإعلام بأخبار بلد الله الحرام أن الحبشة جاءت إلى جدة في خلافة الرشيد سنة ١٨٣ فأوقعوا بمن فيها فخرج الناس هاربين إلى مكة ، فخرج معهم أهل مكة مجاهدين وأميرهم حينئذ عبد الله بن محمد بن إبراهيم المخزومي ، فلما رأت الحبشة ذلك هربوا إلى المراكب فجهز وراءهم صاحب مكة غزاة في البحر ، وقيل إن هذه القصة كانت سنة ١٧٣ .

وقد ورد في فضل ثغر جدة أحاديث كثيرة ، منها ما ذكره شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه المسمى : لسان الميزان عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إذا كان على رأس السبعين والمئة فالرباط بجدة من أفضل الرباط » .

وفي رواية عن ابن عمر أيضاً : « يأتي على الناس زمان يكون أفضل الرباط بجدة » .

ورُوي أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعة من أبواب الجنة في الدنيا : الإسكندرية وعسقلان وقزوين وعبادان ، وفضل جدة على هؤلاء كفضل بيت الله على سائر البيوت » .

وفي شفاء الغرام للعلامة الفاسي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال

رسول الله ﷺ : « مكةُ رِباطٌ وجدّة جهاد » .

وكان عطاء يقول : إنما جدة خزانة مكة وكل ما يؤتى به إلى مكة لا يخرج إلا منها .

ورُوي عن ابن جريج « أن فضل مرابطي جدة على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان » .

وعن فرقد السنجي « أنه يكون في آخر الزمان بجدة شهداء ليس على وجه الأرض مثلهم شهداء » .

وقال الإمام حجة الإسلام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين : إن بعض الأولياء كوشف فرأى أن جميع الثغور تسجد لعبادان ، وعبادان تسجد لجدة ، اهـ .

قال صاحب السلاح والعدة : ينبغي لمن دخل هذا الثغر المبارك أن ينوي الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئاً لدفع أهل الكفر والعنادة بالنية يحصل له ثواب ما ينويه من الجهاد ، إذ العبادات متوقفة على النية لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » .

ذكر فتوحات معنوية لمولانا السلطان سليمان

اعلم أن الخيرات والمبرات والمساجد والعمارات والمدارس والخانقات وإجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات الجارية للمسلمين في كل الجهات ، كلّ ذلك معدود من الفتوحات ، وفتوحات مولانا السلطان سليمان في ذلك كله كثيرة ، وأعظمها ما كان بالحرمين الشريفين ، فمن ذلك أنه جدد عمارة مولد النبي ﷺ سنة ٩٣٥ .

وفي سنة ٩٥٦ أرسل منبراً من الرخام لمكة وهو الموجود الآن وهو من تحف الدنيا ، ومكتوب عليه : إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعث مثله للمدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام .

وفي سنة ٦٠ جدد ميزاب الكعبة وجدد للمسجد الحرام منارتين واحدة عند باب علي والأخرى بين باب الدريبة وباب الزيادة ، وكل من المنارتين تسمى بالسليمانية ،

وهما أحسن منائر المسجد الحرام ، وبنى أربع مدارس للمذاهب الأربعة بين باب الدريبة وباب الزيادة ، وعمر تعميراً كثيراً في الكعبة المعظمة وجدد سقفها ، وأمر بتصفيح باب الكعبة بالذهب وبإصلاح رخام المطاف ، ثم في سنة أربع وستين أمر بتجديد باب الكعبة فجدد .

وفي سنة ٩٦٧ أمر بعمارة عين زبيدة فعمرت حتى دخلت مكة وعم الانتفاع بها ، وكان الناس قبل ذلك يقاسون غاية المشقة في تحصيل الماء ، وكان تمام هذا التعمير في مدة سلطنة ابنه مولانا السلطان سليم ، والكلام على هذه التعميرات كلها طويل مبسوط في التواريخ ، وبالجملة فمفاخر الدولة العثمانية وفتوحاتها وخيراتها لا تعد ولا تحصى ولا سيما ما كان من ذلك لمولانا السلطان سليمان فهو واسطة عقدهم الفريد ، أدام الله سلطنتهم على الأنام ووفقهم لما يحبه ويرضاه على الدوام .

ومن فتوحات مولانا السلطان سليمان في الحرمين الشريفين تضعيف الصدقات والصرر لأهل الحرمين وهي مادة الحياة لهم وبها معايشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم ، فهي وإن كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام إلا أنه هو الذي ضاعفها وزادها وأنماها وأضاف عليها من خزينته الخاصة مبلغاً كبيراً ، وقد تقدم أن صدقة الحب أول من أرسلها والده السلطان سليم ، فاعتنى بها مولانا السلطان سليمان وزادها وأفرد لها قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل ريعها لأهل الحرمين ، وجعل من ريعها لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف إردب ، ولأهل المدينة ألفي إردب ، وكتب عند شرائه تلك القرى كتاب وقف حكم بصحة قضاة العسكر بالديوان الشريف العالي .

ومن فتوحاته وخيراته صدقات الجوالي وهي جمع جالية ، ومعناها ما يؤخذ من أهل الذمة في مقابلة استمرارهم في بلاد الإسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها ، وهي من أجل الأموال إذا أخذت على وجهها المشروع ولأجل حلها جعلت للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء ، فلما كانت أيام مولانا السلطان سليمان ، نوّر الله مرقده وحفه بالرحمة والرضوان ، بحث عنها وتحرى فيها ووجد سلاطين الجراكسة كانوا يخرجون القليل منها ، فاجتهد في تحريرها وضبطها واستوعب صرف جميعها للمذكورين وزاد على ذلك قدراً كثيراً وأخرجه من خزائنه الخاصة به ، واستوعب

بالضبط جوالي مصر والشام وحلب وغير ذلك من الممالك الإسلامية ، واستوعب العلماء والصلحاء والفقراء الموجودين في الممالك الإسلامية ، وجعل لكل واحد ما يليق به ، وجعل عمارات وتكيات تطبخ فيها الأطعمة للفقراء ، وناهيك بكثرة هذه المصاريف في وجوه الخيرات ، فالله تعالى يبقي هذه الدولة الشريفة القاهرة والسلطنة الزاهرة الفاخرة إلى أن تنقضي الدنيا وتقوم الآخرة .

ومن خيرات مولانا السلطان سليمان وفتوحاته أنه وقف أوقافاً كثيرة متفرقة في ممالك الإسلام ، وجعل وظائف للمدرسين والطلبة في جميع ممالك الإسلام ، ورتب لهم معلوفات جليلة صرف من ريع تلك الأوقاف ، والكلام على ذلك طويل مبسوط في التواريخ ، وجعل لهم المرتبات متفاوتة على حسب مراتب من جعلت لهم وعلى قدر ترقيهم في العلوم ، ولو استوفينا ما فعله من الحسنات لاحتجنا إلى عدة مجلدات ، فالله تعالى يجعل سعيه مشكوراً وعمله مبروراً .

ذكر فتوحات مولانا سليم الثاني
ابن مولانا السلطان سليمان

كان جلوسه على تخت السلطنة بعد والده سنة ٩٧٤ ، وكان دخوله القسطنطينية لتسع مضين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة يوم الاثنين ، ورجوعه من أسْكُدار موضع وفاة والده في شهر جمادى الآخرة كما تقدم ، وكان مولانا السلطان سليم المذكور شهماً شجاعاً ذكياً مائلاً إلى التقوى ووجوه الخير ، مهاب الشكل جميل الصورة جليل القدر ، صحيح العقيدة حنفي المذهب كبقية أسلافه ، مكرماً للعلماء والصالحين محباً لهم ، مواظباً على الصلوات الخمس في الجماعات ، وكان إحسانه يصل إلى أهل الحرمين الشريفين قبل أن يتسلطن ، فلما جلس على كرسي السلطنة ضاعف لهم الخيرات والعطيات .

ذكر أول غزوة من غزواته

شاع في أول مدة جلوس مولانا السلطان سليم الثاني على تخت السلطنة عصيان بني عليان من سكان الجزيرة وخروجهم عن الطاعة ، فجهز عليهم عساكر كثيرة ، وجرت حروب وخطوب يطول ذكرها ، حتى استولوا على معظم قلاعهم وأخربوا أماكنهم وعادوا سالمين في أواخر سنة خمس وسبعين وتسعمئة .

وفي سنة ست وسبعين سارت جيوش للسلطان سليم إلى اليمن لإتمام الإصلاح ودفع المتغلبين صحبة عثمان باشا ، ثم أردف بستان باشا وغيره ، فانتصروا وأزالوا المتغلبين والمتمردين من البرتغال ، وملكوا صنعاء وغيرها .

الغزوة الثانية إلى قبرس

وهي تتضمن غزوات لا يزال أهل قبرس يتمردون ويخرجون عن الطاعة مرة بعد أخرى ، فتوجهت همة مولانا السلطان سليم المذكور إلى التجهيز على جزيرة قبرس ، فجهز عساكر كثيرة في البحر ثلاثمئة وستين مركباً ، وجعل عليها الوزير مصطفى باشا

سنة ثمان وسبعين وتسعمئة ، فلما وصلت العساكر إلى الجزيرة المذكورة استقرت الآراء على حصار قلعة لفقوسة أولاً ؛ إذ هي مدينتهم الكبرى وقاعدة مملكتهم ، فحاصروها مدة شهر ثم افتتحوها ، وقتلوا كثيراً من عظماء أهل لفقوسة وبعثوا برؤوسهم في أطباق من فضة إلى أهل قلعة كرينة ، فلما شاهدوها خافوا وذلوا فطلبوا الأمان وبعثوا بمفاتيح القلعة فتسلمها .

ثم مهد الوزير المذكور قواعد مدينة لفقوسة وبنى ما خرب منها وتوجه إلى حصار قلعة ماغوسة ؛ وهي من أمنع الحصون وأصعب المعاقل ، وقد حصنوها بكثير من المدافع والمكاحل ، وشحنوها بالرجال ، وقد أحاط بها خندق واسع عميق بسور عرضه مئة ذراع وعشرة أذرع ، وعمقه تسعة وعشرون ذراعاً ، وقد ركبت في هذه القلعة من المدافع سبعمئة وأربعة وستون مدفعاً كبيراً ، ومن البنادق ما لا يعلم عددها إلى الله تعالى ، فحاصرها العسكر حصاراً شديداً وقاتلوا أهلها بالآلات النارية والأحجار المنجنيقية ، وشقوا بطون الأرض شقاً وفتقوا قعورها فتقاً ، وبعث أهل قبرس إلى ملوك الفرنج يستنجدون بهم فلم ينجدوهم ، فلما أيسوا من الخلاص طلبوا الأمان فأمنهم الوزير المذكور ، وطلب كثير منهم المسير إلى بلادهم ، فمكنهم من ذلك ، وتسلم المسلمون ماغوسة ونصبوا فيها أعلام الإسلام ، وعمروا ما تخرب منها وغنم المسلمون غنائم كثيرة .

ثم سارت الجيوش الإسلامية إلى جزيرة كفالية فنهبوها وهدموا بنيانها ، ثم إلى جزيرة كورفس وهي مفتاح بلاد البنادقة فحاصروها بعض أيام وعاثوا فيها نهباً وتحريقاً ، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة جزائر هناك ، فلما طال مكثهم على وجه البحر ورأوا أن العدو ما قابلهم اغتروا ، فأذن الوزير برتو باشا بالتفرق فتفرق غالب العسكر ، وقد ملؤوا المراكب بأسباب الغنائم وشحنوها ، فسابقته العساكر مرسين في الميناء ، فوصل إليهم الخبر بأن الكفار استخبروا عن تفرقكم ، فهاهم أُوْلاءِ سائرون عليكم وواصلون إليكم في جموع كثيرة من ملل شتى وقبائل متفرقة .

واتحد البابا وملك إسبانية مع البندقية على حرب العثمانية ، فتشاور المسلمون بعضهم مع بعض ، فكان رأي الوزير الأعظم برتو باشا في ذلك ألاّ يقابلهم ولا يقاتلهم ، وكان ذلك مقتضى طبعه لأنه كان جباناً إلى الغاية ، وكان ما رآه هو الأنسب بمقتضى الحال ، وخالفه كاشف البحر علي باشا في ذلك ، وكان رجلاً شجاعاً

بطلاً مغواراً ، فقال : لا بد من لقاء الكفار فإن وهج العار أشد من وهج النار وقد أيدنا الله بالإسلام ، وزاد فينا قوة وبسطة ، فلو سارت أغربتنا وهي خالية من عسكر الإسلام لكفت قبائل الكفار وفينا من العسكر ما يفي بالمقابلة ، ولم يزل يناظرهم حتى غلب على رأيهم ، فاتفق الجميع على لقاء العدو ، فالتقى الجمعان في السابع عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وتسعمئة ، وتقابل الفريقان في طرف من بلاد المسلمين فهبت الرياح على المسلمين وألجأتهم إلى البر ، فانهزموا بعد قتال شديد دام من طلوع الشمس إلى الغروب ، وقتل المرحوم علي باشا المذكور وجماعة كثيرة لا تحصى ، وغنم الكفار ما معهم من الأموال والأسباب والأغربة والشواني وما فيها ، وقلّ من سلم من هذه الوقعة ، وكانت عند الأفرنج أفراحاً عظيمة ، وجعلوا زمان تلك الغلبة عيداً يعيدونه كل سنة ، فسبحان الحكيم الصمد القادر الذي يفعل ما يشاء .

الغزوة الثالثة إلى قبرس أيضاً

لما كان ما تقدم اهتم السلطان في إنشاء مراكب وسفائن أخرى مع ما يناسبها من المدافع ، فجدّوا حتى تم لهم ما راموا في مدة سبعة أشهر ، وما كان ذلك إلا عناية من الله تعالى كأن لم يمسسهم ضر ولا شر .

وفي سنة ثمانين وتسعمئة خرجت عمارة السلطان من فم الخليج القسطنطيني صحبة كاشف البحر قلج علي باشا القبودان في مئة وخمسين غراباً غير ما انضم إليهم من المراكب ، فسار يحمي البلاد عن هجوم العدو ، فلما كان ببعض أطراف البلاد صادف عمارة الأفرنج ، فوقع بين الفريقين بعض مقاتلة ومناوشة ، فأصاب عدة مدافع بعض سفن العدو فأغرقها ، ثم انجلى كل من الفريقين نحو بلاده لمصادفة الشتاء .

وفي هذه السنة أرسلت مشايخ البندقية تطلب الصلح على شروط تعود إلى شرف الدولة ، فصدر الأمر بالقبول وتوقف الحرب .

الغزوة الرابعة إلى البغدان

في تلك الأيام كان حاكم البغدان قد أظهر العصيان وامتنع عن دفع الخراج ، فأرسلت إليه الجيوش والعساكر وأخذوه أسيراً ، ولما حضر ضربوا عنقه .

الغزوة الخامسة إلى تونس

كانت هذه الغزوة في سنة اثنتين وثمانين وتسعمئة ، خرجت عمارة عظيمة في سفن وأغربة وغلايين وشواني مشحونة بالرجال وآلات الحرب ، صحبة الوزير الشهير سنان باشا وصحبته كاشف البحر علي باشا قاصدين فتح حلق الواد وتخليص مدينة تونس ، فساروا وحاصروا حلق الواد وهو من أمنع الحصون ، فافتتحوها بعد قتال قتل فيه من الطرفين ناس كثير ، فقتلوا من بها من الكفار واستولوا عليها وأسروا صاحبها الأفرنجي وأسروا صاحبها الأصلي محمد الحفصي ، وكان قد تَحصَّن فيها خوفاً من العثمانية واستعان بالأفرنج الإسبانيين فلم يغنوا عنه شيئاً ، فأسرته عساكر السلطنة السنية وجاؤوا به إلى القسطنطينية ، وصارت تونس من الممالك العثمانية .

وهذه الغزوة كانت عظيمة الشأن اختصرها بعض المؤرخين ، وبسط الكلام عليها العلامة القطبي فقال : إن سلاطين تونس كانوا آل حفص ، وقد تقدم أنهم من فروع دولة ابن تومرت المهدي ، وأن سلطنتهم كانت بتولية بني عبد المؤمن لهم من سنة ستمئة وثلاث ، واستمر إلى ظهور الدولة العثمانية ، قال القطبي : لما ضعف الحفصيون ووهنوا وقع بينهم الاختلاف وصار بعضهم يستعين على بعض بنصارى الأفرنج ، فيأتون بجنود من الكفرة ويقاتلون أهل تونس ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع في تلك البلاد ويواصلون جنود النصارى إلى بلاد المسلمين ، ويولي النصارى سلطاناً من الحفصيين يكون تحت حكمهم إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم للمسلمين وبنوا قلعة عظيمة محكمة الإتقان مشيدة البنيان بقرب تونس في موضع يقال له حلق الواد كأنه بناه شداد وشحنوها بالأبطال وملؤوها بآلات الحرب والقتال ، وصارت الفرنج تكمن للمسلمين ويرسلون منها الأغربة والمراكب في البحر على بلدان المؤمنين ويقطعون ويرسلون منها المسافرين ويأخذون كل سفينة غصباً ، وكبير ملوكهم صاحب إشبيلية جزيرة الأندلس بعد أن أخذوها من المسلمين أعادها الله دار الإسلام ببركة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقد كان خير الدين باشا لما تملك الجزائر استغاث به الرشيد أحد ملوك تونس ، فأجابه وسار معه بجنود إلى أن تملك تونس في قصة طويلة ، ففزع الحسن بن محمد

الحفصي إلى إسبانية فبعثوا معه جنوداً وأخرجوا خير الدين باشا وعساكره ، وقصة ذلك طويلة ، فلما كانت سلطنة مولانا السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان جهز الجيوش الكثيرة ، وبعثها مع سنان باشا في مئتي سفينة بالمدافع والآلات الكثيرة والذخائر الوفيرة سنة إحدى وثمانين وتسعمئة ، فأحاطوابتونس وحاصروها وضيقوا عليها ورموا عليها المدافع الكثيرة ، وقاتلوها قتالاً شديداً وطموا خندقها بالتراب بعد تعب شديد ، وكان عمق الخندق ستين ذراعاً وقعره متصل بالبحر ، ثم حمل الوزير ومن معه من الأبطال حملة واحدة تزلزلت منها الجبال ، ودخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال وقتلوا من فيها ، وكان هذا الفتح العظيم لست عشرة مضين من شهر جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمئة .

ومن أعجب الاتفاق أن هذه القلعة بنتها النصارى في سنة ثمان وثلاثين وتسعمئة ، وأحكموا بنيانها واستكملوه في ثلاث وأربعين سنة ، وافتتحها الوزير المذكور في ثلاث وأربعين يوماً من أيام محاصرتها ، فكانت الأيام بعدد السنين التي أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة ، ولما تم هذا الفتح رأى الوزير المذكور أن ترميمها وعمارتها وحفظها بالعساكر والآلات الحربية يحتاج إلى مؤنة كثيرة وخزائن من الأموال ، فأمر بهدمها وتخريبها حتى لا تصير ملجأ للنصارى المخذولين ، ولما فرغ الوزير من أمر حلق الواد توجه إلى تونس ،وبها قلعة أخرى حاصرها العساكر أيضاً إلى أن فتحوها وأسروا صاحبها الأفرنجي وصاحبها الحفصي ، وبعثوا بهما إلى دار السلطنة ، وصارت تونس من الممالك العثمانية ، وانقضت دولة الحفصيين بعد أن انقضى لهم فيها ثلاثمئة وثمان وسبعون سنة ، هذا حاصل هذا الفتح بغاية الاختصار .

ومن فتوحات مولانا السلطان سليم الثاني المعنوية إضعافه المبرات والخيرات لأهل الحرمين الشريفين وعمارته المسجد الحرام ، فإنه كان مسقفاً بالخشب وتوالى عليه الحريق والتعمير وصار في غاية من الخراب والوهن ، فبرز أمره السلطاني بتعميره وأن يتركوا تسقيفه بالخشب بل يجعلوه قبباً وطواجن كما هو مشاهد الآن ، وبرز الأمر بالتعمير سنة ٩٧٩ ، وكان الشروع فيه في منتصف المحرم سنة ٩٨٠ ، وتوفي مولانا السلطان سليم المذكور قبل كمال التعمير ، فأتمه ولده السلطان مولانا مراد ، فكان التمام سنة ٩٨٤ فجاء نزهة للناظرين ، والكلام على ذلك طويل مبسوط في التواريخ .

وتوفي مولانا السلطان سليم سنة ٩٨٢ وعمره اثنتان وخمسون سنة ، ومدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر ، وكان سبب وفاته أنه أنشأ حماماً بدار السعادة وأحكمه غاية الإحكام بحيث إنه لم يبصر أحد مثله ، فلما تم الحمام دخله السلطان المذكور فبينما هو يمشي فيه إذْ زلق قدمه فسقط سقطة عظيمة اسْوَدَّ منها جنبه الذي سقط عليه ، فمرض منها أياماً ثم توفي رحمه الله .

وأقيم في السلطنة بعده ابنه (السلطان مراد الثالث) ، وكان وقت وفاة أبيه غائباً في مغنيسية فأخفوا موت أبيه أحد عشر يوماً إلى أن حضر السلطان مراد وجلس على تخت السلطنة فأظهروا موت أبيه ، وكان مولانا السلطان مراد المذكور ملكاً جليلاً تربى في حجر السعادة واشتغل بالعلوم حتى حصلها ، وفاق كثيراً من أسلافه ، واشتغل بعلم التصوف ولم ينقل عنه أنه صدر منه شيء من الكبائر ، وكان مكرماً للعلماء والصالحين والفقراء محباً لهم كثير الإحسان إليهم ، وكان واقفاً عند مراد ربه لا يتعداه ، عاملاً في أمره بتقوى الله ، مراعياً للعدل والإحسان فيما استرعاه ، لم يزل قائماً بنصرة الدين وحماية بيضة الإسلام وتقوية جناح المسلمين ، ولو لم يكن من مناقبه إلا تكميل بناء المسجد الحرام لكان ذلك دليلاً على كرامة الله له بين الأنام ، وكان له نظم فائق باللسان العربي والتركي والفارسي .

ذكر أول غزوة من غزواته إلى بلاد العجم

كان أهم شيء عنده بعد جلوسه في السلطنة قتال سلطان العجم لكثرة ما يقع منه من الغدر ونقض العهود ، وهلك سلطان العجم طهماسب شاه سنة أربع وثمانين وتسعمئة وقام بعده ولده خدابنده ، فعين السلطان مراد الوزير مصطفى باشا فاتح بلاد قبرس ، فتوجه في سنة ست وثمانين وتسعمئة بعسكر كثير إلى بلاد الشرق فبنى قلعة فارس وشحنها بالمدافع والمكاحل ، ثم سار إلى تخوم بلاد العجم والكرج وحاصر قلعة الكرج إلى أن استولى عليها ، ثم التقى مع عسكر العجم وقاتلهم قتالاً شديداً فهزمهم وحصدهم بالسيوف واستولى على أموالهم وخيولهم واستولى على عدة قلاع وشحنها بالرجال ، ثم سار وحاصر قلعة تفليس إلى أن افتتحها وكان المسلمون افتتحوها قديماً وغلب عليها الكرج ، ولما فتحت مدينة تفليس أرسلت أم منوجهر الكرجي ملكة تلك

البلاد ابنها الوزير بالطاعة ومعه مفاتيح ثمان قلاع ، فَرَحَّب بالوزير وآنسه وعين له أمرة تلك البلاد بعد أن أسلم بين يدي الوزير ، ثم سار إلى طرف شروان بعد أن نصب أميراً على تفليس وبث سراياه إلى الأطراف وتمكن منها وترك فيها عثمان باشا بن أزدامر والياً بها ، فلما أقبل الشتاء توجه الوزير مصطفى باشا إلى طرف بلاد السلطان وشتى هناك للإغارة في الربيع على بلاد العجم ، ثم بلغه أن صاحب شروان القديم قصد بنحو اثني عشر ألفاً لقتال عثمان باشا ، فوقع بينهما قتال شديد وانتصر عثمان باشا وقتل صاحب شروان وأكثر عسكره ، ثم وقع بينه وبين عسكر الشاه هناك ما ينوف عن عشرين وقعة وكان النصر فيها دائماً لعثمان باشا ، ثم جاءه عسكر من العجم نحو ثلاثين ألفاً وقصدوه في شروان فقاتلهم أربعة أيام ، ثم انتصر عليهم وقتل أكثرهم ، ثم ترك في شروان جعفر باشا وتوجه إلى القسطنطينية بطلب ليكون صدراً أعظم وقاتل في مسيره عدة أمم اعترضوه بالحرب وغلب عليهم ، ولما وصل إلى بلاد كفة بلغه أن خاقان التتار أظهر العصيان على سلاطين آل عثمان فقاتله وانتصر عليه وقطع رأسه .

الغزوة الثانية إلى بلاد العجم أيضاً

وفي سنة ثمانٍ وثمانين وتسعمئة بعث مولانا السلطان مراد وزيره سنان باشا إلى قتال العجم فسار مع عسكر جرار ووصل إلى حدود بلاد العجم ، فأرسل إليه الشاه في الصلح وبعث للسلطان أحد وزرائه يدعى إبراهيم خان بتحف سنية وهدايا جليلة ، وظن سنان باشا أن هذه الحالة مما تعجب السلطان ، فلم يكن الأمر كذلك بل عزله السلطان وأقام مقامه فرهاد باشا .

وفي سنة إحدى وتسعين وتسعمئة توجه الوزير فرهاد باشا بالعساكر إلى بلاد العجم ، فسار وتوغل في بلاد أذربيجان واستولى على مدينة واكا وبنى بها حصناً حصيناً نصب فيه يوسف باشا والياً .

وفي سنة اثنتين وتسعين سار فرهاد باشا بعساكر وافرة إلى بلاد الكرج فبنى هناك عدة قلاع .

وفي هذه السنة أيضاً سار الوزير الأعظم عثمان باشا بعساكر كثيرة إلى قتال العجم فشتى ببلاد قسطموني ، وسار إلى بلاد العجم في سنة ثلاث وتسعين وتسعمئة ومعه من

العساكر ما لا يعلم عدده إلا الله ، فعارضه العجم في الطريق فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم دخل تبريز في أواخر رمضان من السنة المذكورة واستقبله أهل تبريز بمصاحفهم ووجوه الناس ، فقابلهم الوزير باللطف ، ثم شرع في بناء قلعة حصينة ثم بناء سور المدينة ، فأتم الجميع في مدة خمسة وثلاثين يوماً ، ثم ظهر من بعض أهل تبريز بعض الغدر في أمر العساكر فهجم عليهم العساكر وقتلوهم ونهبوا أموالهم ولم ينج منهم إلا النساء والأطفال ، ثم مرض الوزير وخرج متوجهاً إلى بلاد الروم بعد أن أبقى في مدينة تبريز نحو ثلاثين ألفاً صحبة جعفر باشا ، فلما كان اليوم الرابع من مسيرهم اعترض للوزير حمزة ميراز بن شاه محمد خدابنده سلطان العجم مع العسكر الكثير ، فتهيأ الوزير وهو مريض لقتالهم وركب بغلته الشهباء وهو آخر ركوبه على الدابة ، فاستمر الحرب من غلس الصبح إلى الظهر ، فلما رأى الوزير امتداد الأمر أمر برمي المدافع الكبار وكانت ثمانمئة مدفع ، فأصابت خلقاً كثيراً من عساكر العجم وانجلى الأمر عن هزيمتهم ، ثم نزل الوزير في ذلك المحل وفتح أبواب الوطاق لأجل إعطاء الترقي والعطية للعساكر ، فلما صار نصف الليل غلق أبواب الوطاق وانتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ، وأقام مقامه سنان باشا بمدينة وان ، فلما رحلوا اعترضهم العدو يميناً وشمالاً ووقع بينهما مناوشات ، فلما وصلوا إلى حدود المملكة العثمانية أمام قلعة سلماس هجم حمزة ميرزا المذكور في نحو ثلاثين ألفاً ، فوقع بين العسكرين قتال كثير ، وانجلى الحرب عن هزيمة العجم بعد أن حصد غالبهم بالسيف .

الغزوة الثالثة إلى بلاد العجم أيضاً

في سنة أربع وتسعين وستمئة جهز السلطان مراد فرهاد باشا مع عساكر عظيمة إلى بلاد العجم ، ووصلوا إلى مدينة تبريز وحصنوا قلعتها ورموا سورها ، وكانت الشاهية ، وحاصروها مراراً عديدة وقربوا من أخذها ، وبنى هناك بين وان وتبريز قلعتين وشحنها رجالاً وسلاحاً ، ولم يزل الوزير المذكور يشتي ببلاد الروم ويرجع في الصيف إلى بلاد العجم حتى مهد البلاد التي أخذت من الكرج وبنى قلاعاً وحصوناً كثيرة وقاتل قره باغ محمد خان فكسره وغنم أمواله وعاد إلى بلاد الروم ، والحاصل أن الحرب بين الدولة العثمانية والعجم كانت سجالاً ، ثم انعقد بينهما صلح وجعل لكل

منهم حد لا يتعداه أحد منهما ، وكان ذلك في مدة الشاه محمد خدابنده بن طهماسب بن إسماعيل ، وخلع محمد خدابنده سنة خمس وتسعين وتسعمئة ؛ لأنه كان أعمى ، وأقيم بعده ولده عباس شاه .

الغزوة الرابعة إلى بلاد المجر

في سنة إحدى بعد الألف عين السلطان الوزير سنان باشا لمحاربة كفار المجر وأرسل معه العساكر ، ففتح تلك السنة قلعة بتسريم وقلعة طاجة ، وشتى بمدينة بلغراد ، وفي السنة الثانية فتح قلعة قُران بضم القاف ، وقلعة بانق وهي من أحصن القلاع وأصعبها وقد أحاط بها ؛ وهي مدينة ماتت الملوك بحسرتها لحصانتها ومنعتها ومتانتها ، وكان فتحها عند النصارى بمنزلة المحال لصعوبة مراقبها واستعلاء مراميها ، وذلك بعد أن نال المسلمين شدةٌ عظيمة ، قيل إن النصارى رموهم بمدافع فجاء مدفع بصنجق النبي ﷺ فتلقَّاهُ رجل قبل السقوط فلم يسقط ، ثم بعد أيام لما اشتد بهم الحصار سلط الله عليهم موتاً فجعلوا يموتون في فرشهم من غير قتال ، فسلموا المدينة للمسلمين فدخلوها فوجدوها قد جافت من الموتى ، وسُرَّ المسلمون بذلك سروراً عظيماً .

وتوفي السلطان مرادخان الثالث سنة ثلاث بعد الألف ، وعمره خمسون سنة ، ومدة ملكه عشرون سنة وثمانية أشهر ، وتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثالث) .

قال في خلاصة الأثر عند ذكره : الملك الأعظم الباهر الشأن كان سلطاناً عظيم القدر ، مهاباً جواداً ، عالي الهمة مظفراً في وقائعه ، صالحاً عابداً ساعياً في إقامة الشعائر الدينية مراعياً لأحكام الشريعة ، مطيعاً لأوامر الله ، منقاداً لما يقرب إليه ، مداوماً للجماعة والأوقات الخمس ، قائماً للسنن والرواتب .

ومن عادته المرضية أنه كان إذا ذُكر النبي ﷺ نهض قائماً ، وبالجملة فأوصافه كلها حسنة فائقة .

وقال القرماني في تاريخه : كان كامل الأوصاف ، محباً للعدل والإنصاف ، محباً للعلماء والصلحاء مكرماً لهم بأنواع الإكرام ، شديد المحبة للجهاد ونصر الإسلام .

الغزوة الأولى من غزواته

كانت هذه الغزوة إلى البحر في أول مدة سلطنته ، خرج عن الطاعة ميخائيل ملك الأفلاق واجتمع ملك النمسة وبلاد الأردل وعاثوا في بلاد روم إيلي ، فبعث السلطان محمد جيشاً تحت قيادة فرهاد باشا الصدر الأعظم ، فكسره الأفرنج كسرة هائلة وقتل من جيشه خلق كثير ، فقتل السلطانُ فرهاد باشا ووَلّىٰ مكانه سنان باشا وكان شيخاً مسناً فلم ينجح بل كسر أيضاً ، فعزله السلطان وأعاده إلى الصدارة ، فأشار على السلطان أن يخرج بنفسه للحرب ، فخرج بنفسه في شوال سنة أربع بعد الألف بجيش غفير قاصداً بلاد المجر ، فوصل بلغراد وحاصر مدينة أكراد ففتحها ، وكان فيها قلعة في غاية المنعة والتحصين فنازلها بجنوده وأطلق أمره في ضربها بالمكاحل ، فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا منها طائعين وسلموها في أواخر صفر سنة خمس بعد الألف ، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد ؛ لأنها كنت عندهم من القلاع المعتبرة ، فكاتب ملوك النصارى فطلب الأمداد منهم بالعساكر والذخائر ، فاجتمع إليه ملك النمسة وحاكم الأردل وحاكم البغدان وحاكم الأفلاق وسواكن الجزائر من حكام البحر وكثير من ملوك الفرنج ، فجاؤوا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء .

وكان السلطان محمد سار بعسكره بعد الفتح السابق إلى القلعة التي بها المعدن ، فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به ، وكان عسكر الإسلام غير مستعدة والنصارى في غاية الكثرة جداً بحيث إن جمعهم المخذول لا يحصى ، فوقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا ، وكان ذلك يوم الخميس ثاني عشر ربيع الأول ، وأصبحوا يوم الجمعة متحاربين أيضاً ، واستعدت النصارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقاً في الفولاذ ، ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بدداً ، ووصلوا إلى مخيم السلطان فطلب السلطان إليه معلمه الخوجة سعد الدين وكان في صحبته ، فحضر بين يديه وجعل يثبته والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله تعالى ، فلم يكن بأسرع من أن قوي المسلمون وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم ، والتحم القتال وتراجع جميع العسكر مسعفين فكسروا النصارى وردوهم على أعقابهم

ووقع السيف فيهم وهم فارون حتى قتل بعضهم بعضاً من الزحام وغيره ، ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ، ولم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب ، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة ، وأحصيت قتلى المسلمين فكان الذي استشهد من القواد ما يقرب من أربعمئة ، ومن الصناجق أصحاب الألوية بضعة عشر رجلاً ، ومن الأمراء الكبار أربعة أنفار ، ومن العساكر كثير ، ومن الكفار ما لا يحصى ، والحاصل ما وقع له من النصر لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان ؛ وذلك إنما هو بمحض لطف إلهي وإمداد رباني غير متناهٍ ، ولقد حكي أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان صاحب القرال ، وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ في الشجاعة المرتبة التي لا تسامى وأنهم على عادتهم يصورون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا في التصوير على كل الملوك ؛ وذلك كله بسبب هذه النصرة التي رزقها .

وفي خلاصة الأثر أن بعض العلماء رأى أصحاب النبي ﷺ في منامه يتذاكرون أمر هذه الغزوة ، فقال الصديق الأكبر رضي الله عنه : إن انهزام المسلمين كان مقدراً لكن لما كان السلطان محمد سعيداً أكرمه الله تعالى فأمده بملائكة حتى حصل له الظفر والتأييد ، ودخل السلطان إلى مقر ملكه ثالث جمادى الآخرة سنة خمس وألف بموكب حافل .

الغزوة الثانية إلى بلاد الأنكروس

في هذه السنة عين محمد باشا السطورجي سرداراً على بلاد الأنكروس ، فتقابل مع الكفار بجيش جرار ووقع بينهما قتال ، ووقع من محافظ بوسنة حسن باشا الترياقي إهمال في مساعفته ولولا ذلك ما خلص أحد من الكفار .

الغزوة الثالثة جهز مولانا السلطان محمد جيشاً مع محمد باشا

في سنة سبع فتح محمد باشا المذكور قلعة واردار ، وفي هذه السنة استولى الكفار على قلعة يافق وبعض قلاع ، وفيها أيضاً كبس ميخائيل اللعين على غفلة قرب نيكبولي ففر محافظ الطونة أحمد باشا منهزماً ، فحاصر اللعين قلعة نيكبولي مدة ثم رحل عنها ، وفيها غضب السلطان على محمد باشا الساطورجي لإهماله في أمر المحاربة وإتعابه

العسكر وإسرافه في المصارف وانتزاع يافق في زمانه واقتلاع بعض قلاع ، فأرسل إليه السلطان من قتله .

الغزوة الرابعة جهز مولانا السلطان محمد جيشاً

في سنة ثمان بعد الألف فتحوا قلعة فانيسرة ، وكان فتحها على يد الوزير الأعظم إبراهيم باشا ، وكان فتحاً عظيماً يعادل فتح إكراي ، وسُرَّ بها المسلمون وزينت البلاد لهذا الفتح ثلاثة أيام ، وكان في أيام محاصرتها وقع اضطراب عظيم فرأى بعض الصلحاء في منامه شيخ الإسلام صنع الدين جعفر وهو يأمره بقراءة هذا الدعاء ، وهو : اللهم قَوِّ قلوب المؤمنين بقوة الكرام البررة ، وأَلْقِ الرعب في قلوب الكفرة الفجرة ، فشاع هذا الدعاء وداوم على قراءته الناس فظهر أثره ولله الحمد ، وفي هذه السنة استولى النصارى على أستون بلغراد ثم استرجعت منهم .

الغزوة الخامسة إلى بلاد المجر

في سنة عشر بعث مولانا السلطان سنان باشا ابن جفال لمحاربة المجر ، ففتح تلك السنة قلعة قنجة .

الغزوة السادسة إلى بلاد العجم

في سنة إحدى عشرة جاء الخبر بأن شاه العجم نقض الصلح واستأسر محافظ تبريز ، واضطرب أمر المسلمين فضمت تبريز إلى وان ووجهتا لكافل حلب نصوح باشا وعين السلطان عسكراً جرارة رأردف بهم نصوح باشا ، ثم توفي السلطان محمد قبل تمام الأمر ، وكان تمامه في مدة سلطنة ابنه (السلطان أحمد الأول) .

وكانت وفاة السلطان محمد سنة اثنتي عشرة بعد الألف ، وعمره تسع وثلاثون سنة ، ومدة سلطنته تسع سنين وشهران ، وتسلطن بعده ابنه السلطان أحمد الأول وهو الرابع عشر من سلاطين آل عثمان ، والقمرُ ليلة الرابع عشر يسمى بدراً ؛ فلذلك قال بعضهم : إن السلطان أحمد يستحق أن يسمى بدراً لأنه أضاء به الملك ، فإنه لما تسلطن كان البغاة والخارجون قد كثروا في كل ناحية من أواخر سلطنة والده ، فسعى

السلطان أحمد في إخمادهم وجَدَّ في قطع دابرهم حتى أبادهم ، وكان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر محباً للعلماء وآل البيت والصحابة ، متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل سمح الكف جواداً ، لا تزال إحساناته للفقراء واصلة وعطاياه لأرباب الاستحقاق مترادفة ، وجاء تاريخ جلوسه في السلطنة (هو خير السلاطين) ، ومن خيراته ومآثره أنه في سنة أربع وعشرين وألف أرسل إلى الحجرة الشريفة النبوية فصَّين من الألماس قيمتهما ثمانون ألف دينار فوضعهما فوق الكوكب الدري ، وهذا الكوكب هو الذي تجاه الوجه الشريف في الجدار وهو في مسمار الفضة مموه بالذهب في رخامة حمراء ، ومن استقبله كان مستقبلاً الوجه الشريف ، وله صدقات كثيرة في أهل الحرمين .

ذكر غزوة من غزواته

جهز جيشاً في ابتداء دولته وأرسله مع وزيره الأعظم علي باشا ، فمر إلى بلاد المجر فمات علي باشا وهو متوجه ، فأقام بدله محمد باشا الذي كان سرداراً في الروم إيلي ، ثم سعى مراد باشا بالصلح بين مولانا السلطان أحمد والمجر ، وبالهدنة عشرين سنة ، ودخل إلى دار السلطنة ومعه رسل المجر ومعهم الهدايا والتحف ، فقبل مولانا السلطان أحمد ذلك .

ذكر غزوة أخرىٰ

في سنة ثلاث عشرة بعد الألف جهز جيشاً وبعثه مع محمد باشا البوسنوي أحد الوزراء العظام لفتح قلعة أسترغون ، فسار إليها ولم يتمكن من فتحها تلك السنة ، ثم فتحها في سنة أربع عشرة .

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

في سنة ألف وأربع عشرة جهز جيوشاً إلى بلاد العجم ، وكان عليها سنان باشا بن جفال ، فوصل إليهم وقتلهم وانتصر في أول الأمر ، ثم خالف أمره بعض الوزراء الذين كانوا معهم فكان ذلك سبباً لانهزام الجيوش ، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير .

ذكر غزوة أخرى إلى بلاد العجم أيضاً

في سنة ست عشرة وألف جهز جيشاً عظيماً يقوده مراد باشا ، وكان قد كبر وشاخ ، فجعل الأمر لنصوح باشا وتأخر في ديار بكر ومرض ومات ، فتقدم نصوح باشا لمحاربة العجم فقاتلهم وقهرهم واستولى على تبريز ، فهرب سلطانهم عباس شاه والتجأ إلى بعض الجبال وأرسل يطلب الصلح فأجابهم نصوح باشا إلى ذلك بعد أن اشترط عليه أن يذكر اسم السلطان في بلاد العجم ويدعو له في الخطبة وأن يدفع الشاه عباس مصاريف الحرب ويقوم بالخسارة التي أحدثها في بلاد السلطنة العثمانية ، فقبل الشاه عباس ذلك ، وانعقد الصلح ، ورجعت العساكر العثمانية إلى بلادها .

ذكر غزوة أخرى إلى بلاد العجم أيضاً

في سنة خمس وعشرين وألف نقض الشاه عباس تلك العهود ولم يفِ بالشروط ، ففتحت الحرب ثانياً بين الدولتين وأرسلت الجيوش العثمانية مع نصوح باشا ، فغلب وانتصر واستولت الجيوش على بعض القلاع بعد حرب شديد ، ثم وقفت الحرب بسبب كثرة الثلج والبرد ، ومات من العسكر جانب عظيم ، وأشيع أن الشاه إنما نقض الصلح بمكاتبة جاءته من نصوح باشا وعده بالإعانة ، فأمر مولانا السلطان بقتل نصوح باشا فقُتل سنة خمس وعشرين وألف .

وفي سنة ست وعشرين توفي السلطان أحمد وعمره خمس وعشرون سنة ، ومدة سلطنته أربع عشرة سنة ، وأوصى بالسلطنة لأخيه مصطفى بن محمد لأن أولاد السلطان أحمد كانوا صغاراً وأخوه أكبر منهم ، وكان أبوه السلطان محمد أوصاه به ، فكان يرعاه فبويع أخوه (السلطان مصطفى) وخلع بعد ثلاثة أشهر لأنه كان صالحاً زاهداً متقشفاً ، فلم تظهر كفاءته للسلطنة لشدة بذله الأموال وكثرة ركوبه إلى المحلات البعيدة من غير تقيد بأمر مركوب ولا غيره لأنه تارك للدنيا وليس براغب فيها ، بحيث إنه كان في مدة سلطنته لبسه جوخة خضراء بأكمام عربية ، وأما أكله فإنه لم يأكل الدسم مطلقاً ، وإنما كان يأكل الكعك الناشف واللوز والبندق وأنواع الفواكه ، وأما أمره في النساء فإن والدته أحضرت له جواري عديدة فلم يقبل منهن واحدة ، وكان لا يدري من أحوال

الملك إلا ما يلقى إليه ، فلما رأى أركان الدولة أن الأمر به لا ينتظم ذهب المفتي المولى أسعد بن سعد الدين إلى أسكدار للشيخ محمود المعتقد الصالح العالم العامل يستشيره في خلعه ، فأشار بخلعه وأن يولي مكانه السلطان عثمان بن السلطان أحمد ، ثم جاء من عنده وأخبر قائم مقام الوزير مصطفى آغا ضابط الحرم قريب العشاء من ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول ، فأرسل القائم مقام إلى الصوباشي إذا جاءتك في غد ورقة مختومة فافعل بما فيها واحترس على الأبواب ، فقال : سمعاً وطاعة ، وكان الصدر الأعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم في مدة السلطان مصطفى .

وأما مصطفى آغا فإنه أول ما مضى من ليلة الأربعاء ست ساعات ذهب إلى أبواب السرايا وقفلها جميعاً وكذا أبواب الأمكنة التي فيها أكابر الخدم وأخذ المفاتيح وهيأ المحل الذي فيه تخت السلطنة وأوقد فيه الشموع وفرشه بأحسن الفرش وذهب من حينه إلى السلطان عثمان في مجلسه الذي هو فيه وهو محل عمه مصطفى الذي كان فيه في حياة السلطان أحمد وفتح عليه الأبواب فحصل له رعب وتخوف من أن يكون عمه أرسله إليه ليقتله ، فقال له : لا تخف أنت صرت سلطاننا ، فلم يصدق ذلك فصار يحلف له إن القول صحيح ، ولا زال يتلطف به إلى أن أدخله إلى محل التخت فألبسه ثياب الملك وأجلسه على التخت وقبل يده وصار يفتح أبواب السرايا باباً باباً ويدخل من كان داخل الأبواب للمبايعة حتى لم يبق أحد في السرايا بغير مبايعة ، هذا كله والسلطان مصطفى نائم عند والدته .

ثم أرسل مصطفى آغا للمفتي وقائم مقام الوزير فحضرا وبايعا ، ثم ذهبوا إلى السلطان مصطفى قبل الفجر فطلبوه من الداخل فخرج إليهم وقال لهم : ما جاء بكم في هذا الوقت ؟ فكان أول من تكلم شيخ الإسلام أسعد ، فقال له : إن أمر المملكة اختل وإن الأعداء تسلطت علينا ونحن نخشى ضياع الملك وأنت لست بلائق للسلطنة ، فأجابه بقوله : أنا ما طلبت منكم الملك ولا أردته وليس لي به مصلحة ، فقالوا جميعاً : لا نكتفي بقولك هذا ولا بد أن تذهب معنا وتبايع أخاك (السلطان عثمان) فإنّا قد أجلسناه على التخت ، فقال : جعله الله مباركاً وليس عندي مخالفة ، وذهب وبايع السلطان عثمان ، فقالوا : الآن نحضر جميع الوزراء وأركان الدولة وأَشْهِدْ على نفسك بالخلع ، فقال لهم : أفعل ذلك ، فأرسلوا وأحضروا الوزراء وقاضي العسكر

وكتبوا عليه حجة بخلع نفسه ، وأرسل القائم مقام الورقة الموعود بها إلى الصوباشي وفيها الأمر بالمناداة وتولية السلطان عثمان ، فنودي بذلك وتَمَّ الأمر وما انتطح في ذلك عنزان ، وكان ذلك يوم الأربعاء ثامن من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف ، وكان السلطان عثمان المذكور من أحسن السلاطين خَلْقاً وخلقاً وأجملهم سِيما وطبعاً ، له أدب وحياء وعرفان وفيه شجاعة وفروسية ، وكان ينظم الشعر التركي .

ذكر أول غزوة من غزواته

كان الصدر الأعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم في مدة السلطان مصطفى ، فلما بلغه خلعه رجع يطلب الانتقام ممن خلع السلطان مصطفى ، فلما وصل إلى دار السلطنة وعلم حقيقة الأمر قاد الوزير المذكور الجيش ثانية لمحاربة العجم في مدة السلطان عثمان سنة ثمان وعشرين وألف ، ونجح في هذه التجريدة كل النجاح ، وارتجع من العجم الممالك التي اختلسوها ، وأرسل عباس شاه سلطان العجم يطلب الصلح على شروط موافقة للسلطان ، فأجابوه إلى ذلك .

غزوة ثانية إلى البغدان

كان صاحب البغدان قد ألقى فتنة بين أهل بولونية والدولة وحرضهم على العصيان ، فأرسل السلطان عثمان إليهم إسكندر باشا ، فاستظهر عليهم وقتل منهم عشرين ألفاً وأسر عشرة آلاف ، ثم قتلهم وقطع رأس رئيسهم الذي حملهم على العصيان ، وأرسله إلى دار السلطنة ، وألزم أهل بولونية أن تدفع مئة ألف ريال ، وألزمهم أيضاً بمصاريف الحرب .

غزوة ثالثة إلى بولونية

في سنة ثلاثين خرج السلطان عثمان بنفسه لقتال أهل بولونية وهم القزاق ، وكان الذي خرج معه من الجيش ستمئة ألف مقاتل ، فأرسل أهل بولونية يستنجدون بملوك الأفرنج ، فأنجدتهم دولة الروسية وفرنسة والبابا والمجر والنمسة ، وبعد محاربة شديدة طويلة فقد فيها من الطرفين نحو مئتي ألف انتصر عليهم وأخذ عدة قلاع وغنم

غنائم كثيرة ، ثم عقد صلحاً معهم ورجع إلى مقر ملكه بعد أن أخذ منهم الجزية ، فهابته ملوك الآفاق وقويت شوكته واتسعت دائرة الملك في أيامه ، وكان فيه صلاح وتعطف وخشوع ، وأمر في أيامه بتعطيل خانات الخمر ودار عليها بنفسه وقفل أبوابها وطرد أصحابها .

ذكر إرادته الخروج للحج المؤدي إلى قتله

في شهر رجب من سنة إحدى وثلاثين وألف عزم السلطان عثمان على الحج من طريق البر وأراد التوجه إلى الشام وأخرج خيامه وسرادقه إلى أسكدار سابع رجب ، وصمم على هذا الأمر فحصل اللغط من العسكر في ذلك اليوم وقامت الفتنة واجتمعت العساكر واتفقوا على عدم السفر معه وأخرجوا فتوى أن السلاطين لا يكلفون بالحج ، فلما بلغ السلطان ذلك غضب غضباً شديداً ولم يتلفت إلى كلام المفتي ، فأخذ المفتي وأصحابه يهيجون العساكر ، ثم تجمعوا في المكان المعروف آتْ ميداني ، واتفقوا على قتل الوزير الأعظم دولار باشا وضابط الحرم السلطاني والدفتردار ومعلم السلطان المولى عمر ، بدعوى أنهم كانوا السبب لتحرك السلطان إلى السفر للحج ، ثم هجموا في ذلك اليوم بعد الظهر على بيت معلم السلطان ونهبوا أمواله وأرادوا قتله فما وجدوه ، ثم في وقت العصر اجتمع كبار العلماء بالسلطان وسألوه أن يسلم الوزير الأعظم وضابط الحرم أو يقتلهما هو حتى تسكن الفتنة ، وأبرموا عليه بالسؤال ، فامتنع ثم تفرق العسكر .

وفي ثاني يوم وهو يوم الخميس اجتمعوا أيضاً والعسكر كلهم بالأسلحة وآلة الحرب ، وذهبوا إلى الموالي وجمعوهم بالجامع الجديد الذي عمره السلطان أحمد ، وأرسلوا قاضي عسكر وقاضي دار السلطنة وبعض الموالي إلى السلطان بطلب الجماعة الذين اتفقوا على قتلهم المذكورين أولاً ، فامتنع من تسليمهم ، واستمروا في مراجعته إلى وقت الظهر وملَّ العسكر من الانتظار فهجموا على دار الخلافة فوجدوا السلطان مصطفى في الموضع المحبوس فيه نائماً على فراش بال وعنده خادمان أخرسان جالسان أمامه ومملوك يدعى درويش آغا ، فاستيقظ السلطان مصطفى ، فلما رآهم ظن أنهم يريدون قتله فمد لهم عنقه بكل خضوع ، فأكبوا على أقدامه يقبلونها قائلين له :

يا سلطاننا عساكرك ينتظرونك خارجاً قم فانهض بنا ، ورفعوا السلطان مصطفى وأنزلوه إلى فسحة الجنينة وأركبوه على حصان المفتي وساروا به إلى جامعهم ، ولما علم السلطان عثمان ذلك تحيّر في أمره فأخذ معه الوزير الأعظم السابق حسين باشا وذهب به إلى بيت ضابط الجند ليدبر أمره ، وقال له السلطان : يذهب ونأخذ خاطر العسكر ونجعل لكل إنسان منهم خمسين شريفياً وخمسة أذرع من الجوخ ، وألزمه بذلك ، فذهب إلى العسكر وكلمهم في ذلك ، فما كان جوابهم إلا أن قتلوه وذهبوا من وقتهم إلى بيته وقتلوا حسين باشا وقبضوا على السلطان وأحضروه بين يدي السلطان مصطفى فأرسله إلى يدي قلّه وأحضروا دولار باشا ضابط الحرم وقطعوا رأسيهما ، وعلقوا رؤوس الجميع على جامع السلطان بايزيد ، ووقعت البيعة العامة (للسلطان مصطفى) ، فجعل زوج أخته داود باشا وزيراً أعظم ، وبعد العصر من هذا اليوم ذهب داود باشا إلى يدي قله من غير علم السلطان مصطفى وخنق السلطان عثمان وغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه عند أبيه السلطان أحمد ، وذلك في اليوم الثامن من رجب ، وجرت أمور هائلة ونهبت دور كثيرة من دور أركان الدولة ، وقيل في تاريخ قتله :

مـــات سلطـــان البـــرايـــا	فهـــو فـــي الأخـــرى سعيـــد
قـــال لـــي الهـــاتـــف أرخ	إن عثمـــــان شهيــــــد

٥١ ٦٦١ ٣١٩

١٠٣١

وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة وألف ، ووفاته سنة إحدى وثلاثين ، ومدة خلافته أربع سنوات وشهر ، وعمره سبع عشرة سنة .

وبعد تمام البيعة للسلطان مصطفى بيومين جمهرت العساكر الصباحية أمام سرايا داود باشا وزير الصدارة يسألونه لماذا قتلت السلطان عثمان ، ونشأ من ذلك فتنة أخرى آل الأمر فيها إلى قتل داود باشا ، فقتل بعد عشرين يوماً ، وصار البحث عن الأشخاص الذين تداخلوا في قتل السلطان عثمان فقتلوهم ، واضطربت أمور السلطنة والوزارة وأقام أهل الأناضول وأمراؤها ونوابها على ساق لطلب دم السلطان عثمان ، وأظهروا الاستقلال التام في ولايتهم ، وامتنعوا من الدخول في بيعة السلطان مصطفى ، ولم يزل الأمر يزداد شدة إلى أن خلعوا السلطان مصطفى رابع ذي القعدة سنة ألف واثنتين

وثلاثين ، فمدة سلطنته سنة واحدة وأربعة أشهر ، وما عاش بعد ذلك كثيراً ، وكانت ولادته سنة ألف رحمه الله .

ولما خلعوه وأقاموا في السلطنة (السلطان مراد الرابع) أخا السلطان عثمان بن أحمد . قال في خلاصة الأثر : وكان عمره إحدى عشرة سنة وسبعة أشهر ، وجاء تاريخ ولايته (مراد خان العادل) ١٠٣٢ ، ومع صغر سنه كان ذا عقل ثاقب ورأي سديد ، وكانت تظهر عليه أمارات شجاعة وقوة القلب ، فكان من أعظم أبطال ذلك الزمان ، وكان إسكندر الثاني في تلك الأيام ، بل كان من أعلى السلاطين مقداراً وأوسطهم همة واقتداراً ، خضعت لعظمته رؤساء الأكاسرة ، وذلّت لحرمته وقهره ، تصلّب في قمع المفسدين ، سديد الرأي في أمره لأنه ابتدأ أولاً باستئصال الطغاة من العسكر الذين قتلوا أخاه ، فاهتم بأمر تحصيلهم من البلاد وتتبع قتلهم وأجاد وبلغ من قوته أنه رمى بقوس إلى درقة مطبقة إحدى عشرة طبقة فثبت العود فيها فلم يقدر أحد على انتزاع العود منها ، فأرسلها إلى مصر ، وبرز أمره إلى العساكر بإخراج العود منها وأن من أخرجه يزاد في علوفته ، فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك .

ذكر استيلاء العجم على مدينة بغداد

لما بلغ العجم قتل السلطان عثمان وإعادة السلطان مصطفى وعلموا اضطراب الدولة العثمانية ، وضعوا أيديهم على كثير من البلاد التي افتتحها العثمانيون وملكوها ، فمن ذلك مدينة بغداد ، وكانت بغداد في كفالة الوزير يوسف باشا ، فوقع بينه وبين واحد من كبار عسكره اختلاف يقال له بكر الصوباشي ، فحاصر بكر الوزير في قلعة بواسطة العسكر فأصاب الوزير رصاصة مات منها فتغلب بكر على بغداد ، فلما رأى اضطراب أمر الدولة أظهر العصيان والاستبداد ، فبعثت إليه الدولة جانباً من العسكر لتأديب هذا العاصي ، وجعلوا أمر هذا العسكر تحت رئاسة حافظ باشا ، فلما بلغه ذلك كتب إلى شاه العجم أن يحضر لكي يسلم له بغداد ، فأرسل من يستلم منه مفاتيح المدينة مع جانب من العسكر نحو ثلاثمئة ، وأنعم على بكر الصوباشي بعمامة قزل باش ، وقبل وصول العجم إلى بغداد وصلت عساكر الدولة وأقامت الحصار على بغداد ، فأرسل بكر الصوباشي لحافظ باشا يطلب أن يلقبه بكلس بك لكي يطرد

العجم ، فلم يقبل منه حافظ باشا ذلك .

وفي أثناء ذلك وصل رسول العجم إلى بغداد ، وأرسل يقول لحافظ باشا : إن بكر الصوباشي صار يخص شاه العجم ، فإذا كنت تريد حفظ الصداقة بيننا فارحل عن بغداد ، فغضب حافظ باشا من كلامه هذا وأجابه كلاماً غليظاً واشتبك القتال ، فلما رأى حافظ باشا أنه لا يمكنه فتح بغداد لأنها كانت حصينة وتكاثرت عليه عساكر العجم ، قام عنها وذهب على طريق الموصل بعد أن كتب إلى بكر الصوباشي أنه والي بغداد ؛ يريد بذلك ترغيبه ليمتنع من تسليمها للعجم ، ففرح بذلك بكر الصوباشي ورأى أنه بلغ غاية مرامه ، فقتل جماعة شاه العجم وعلّق رؤوسهم على شرافات السور ، وأخذ العمامة التي بعثها إليه الشاه عباس ووطئها برجليه ، وأرسل رسولاً إلى حافظ باشا يشكر فضله على ذلك .

وأما الشاه عباس فإنه لما بلغه ما فعله بكر من الانتقاض والخيانة حضر بنفسه ومعه جيش جرار وأرسل لبكر يطلب منه تسليم المدينة ، فامتنع وأجابه بأنه لا يسلمها ولا يقدر الشاه عباس على فتحها ولو أحضر لحصارها عشرة شاهات نظير الشاه عباس ، فجاءت جيوش الشاه عباس وأحاطت بأسوار مدينة بغداد فأمر بكر الصوباشي بإطلاق المدافع من الأبراج على العجم ، واشتبك القتال بين الفريقين ، وأرسل إلى حافظ باشا يخبره بقدوم جيش العجم ويستنجده ، فأنجدهُ بفرقة العساكر تحت رئاسة كور حسين باشا ، فلما وصل إلى قرب بغداد نزل بعساكره في موضع يقال له كروان سراي ، فلما علم قائد عسكر العجم بقدوم عساكر الدولة صنع خديعة وأرسل يطلب كور حسين باشا ليتحادث معه في أمر الصلح ، فذهب ومعه بعض كبار العسكر ، فبينما هم في أثناء الطريق وثب عليهم جماعة من العجم كانوا كامنين لهم في الطريق ، فقتلوهم وقدموا رؤوسهم لشاه عباس عوضاً عما فعله بكر بقتله العجم الذين علق رؤوسهم على شرافات السور ، ومكث الحصار على بغداد ثلاثة أشهر فكانت الأهالي تشكو من الجوع ، واشتد الحصار حتى أكل الآدميون بعضهم ، وخرج كثير منهم إلى معسكر العجم ، وكان لبكر ولد يقال له محمد وكان مثل أبيه في الخيانة ، وكان هو المتسلم محافظ قلعة بغداد ، فأرسل له الشاه عباس يغره ويعده ويمنيه بأن يجعله حاكم بغداد عوض أبيه ، فاغتر وقبل وعد الشاه ، وفي الليلة الثانية فتح أبواب القلعة ليلاً

للعجم ، فهجموا ودخلوا المدينة بضجة عظيمة ، وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وألف ، وكان بكر نائماً فانتبه مذعوراً من ذلك الضجيج وصراخ العجم ، وكانوا أصعدوا ناساً منهم إلى المنائر يصرخون بقولهم قد انتصر الشاه عباس وتملك بغداد فلتطمئن الأهالي وتفتح الأسواق وترجع إلى أشغالها ، وذهب منهم جماعة إلى بكر في منزله فقبضوا عليه وأتوا به إلى الشاه ، فلما وصل أمامه رأى ولده جالساً إلى جانب الشاه وأخذ الولد يوبخ أباه على الخيانة الأولى التي حصلت منه في حق الشاه ، ثم أمر الشاه أن تسلب جميع أموال بكر وتعطى لولده ، ثم إنهم أخذوه ووضعوه في قفص من حديد ووكلوا ولده بحراسته ، وفي اليوم السابع تركوا ذلك القفص الذي فيه بكر في موقد نار لكي يقرروه عن المكان الذي اختفى فيه الأموال ، ثم أخذوا ذلك القفص ووضعوه في قارب مشحون بالزفت والكبريت وأضرموا فيه النار ليلتهب في الدجلة أمام الناس .

وحصل في بغداد قتال بين أهل السّنّة والعجم بسبب هذه الفتنة ، ولما كان بينهم سابقٌ من العداوة حتى جرى الدم في أزقة المدينة ، وأخذ العجم خطيبين مشهورين من أهل السّنّة ؛ أحدهما يدعى نوري أفندي والآخر عمر أفندي ، وأمروهما أن يسبّا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فامتنعا فعلقوهما في نخلة وأطلقوا عليهما الرصاص فماتا من ذلك ، وأما الشاه عباس الذي كان قد وعد محمد بن بكر بالولاية في مكان أبيه فإنه أخذه وأرسله إلى خراسان وأمر بقتله هناك فقتل .

وبعد ذلك أقام الشاه عباس في بغداد مدة ، ثم سار بالعسكر لمقاتلة حافظ باشا ونزل على الموصل وأقام عليها الحصار مدة فلم ينجح فرجع إلى بغداد ، وذهب حافظ باشا إلى القسطنطينية ، ثم عاد بعساكر نحو عشرين ألفاً ، وسار لمحاصرة بغداد وتخليصها من العجم ، وانتشب فيهم القتال وطال الحصار فَسَئِم العساكر وقاموا على حافظ باشا فعزلوه وحبسوه في قلعة خارج بغداد ، وأقاموا عليهم مراد باشا ، ثم عزلوه وأرجعوا حافظ باشا ، ثم قاموا عليه أيضاً ليقتلوه فهرب منهم واختفى في موضع يقال له قلعة الأمام ، ثم اصطلح مع العساكر ونهض بهم راجعاً عن حصار بغداد ، فسيّر الشاه عباس خلفه جانباً من عساكره ليضربوه في الطريق ، فقاتلهم حافظ باشا وهزمهم هزيمة هائلة ، وقليلٌ منهم رجع إلى بغداد ، ثم قام على مراد باشا فقتله لأنه السبب في اختلال

الأمور ، ثم سار حافظ باشا بعسكره إلى الموصل فأقام مدة ، ثم جاءت الأوامر من الدولة أن يتقدم إلى حلب إلى أن تأتيه نجدة من العساكر ، وبعد مدة عزل حافظ باشا وأقيم مكانه خليل باشا ، ثم مات وولي بدله خسرو باشا ، وكان الجيش الذي مع خسرو باشا ١٥٠ ألف مقاتل ، فجاء وحاصر بغداد وحصل قتال شديد ولم تحصل نتيجة ، فرجع إلى الموصل وصنع وليمة لكثير من العساكر ، فلما حضروا قتلهم زاعماً أنهم السبب في اختلال الأمور ، وأرسل يطلب أربعين ألفاً ، وجرت أمور يطول الكلام بذكرها .

ومات الشاه عباس سنة ست وثلاثين وألف ، وبقيت بغداد بيد العجم إلى سنة ثمان وأربعين وألف ، ففتحها مولانا السلطان مراد بنفسه .

ذكر فتح بغداد

في سنة ثمان وأربعين وألف تجهز مولانا السلطان مراد وتوجه لفتح بغداد ومعه مئة ألف مقاتل ، ثم تتابعت الجنود حتى بلغت ثلاثمئة ألف ، ولما خرج من دار السلطنة كان لابساً لبس العرب القدماء وعلى رأسه خوذة من الفولاذ اللامع مخاطة بشال أحمر مسدولة أطرافها على أكتافه ، ولما وصلوا إلى بغداد أحاط العساكر بأطرافها ، ولما بلغ الشاه ذلك جاء من تبريز ومعه عساكر كثيرة لينجد بهم عساكره الذين في بغداد ، والتقى بعساكر الدولة على شاطىء الدجلة فقاتلوه قتالاً شديداً وهزموه هزيمة قبيحة ، وكان يوماً مهولاً مشؤوماً على العجم ، ثم شددوا الحصار على بغداد وضربت مدافع السلطان على الأبراج ، وكانت مئتي برج فخرقتها وهدمت كثيراً منها ، وأمر السلطان بحفر لغم عظيم ووضع فيه البارود وأطلقت فيه النار فهدم جانباً عظيماً من جدار السور .

فلما رأى أهل بغداد ما دهمهم بعثوا إلى الشاه أنهم يريدون التسليم ، فبعث الشاه إلى السلطان في طلب الصلح فلم يقبل ، ثم شدد السلطان الحصار ووالى القتال إلى أن يسَّر الله فتحها يوم الجمعة ثامن شعبان ، وكانت مدة حصارها أربعين يوماً ، ودخلها العسكر ومولانا السلطان مراد في أثرهم وقتلوا من العجم أكثر من عشرين ألفاً وأسروا كثيراً من رؤسائهم ، وقيل إن الذين قتلوا من العجم في هذا القتال خمسون ألفاً ، وبقي منهم ثلاثون ألفاً طرح البعض منهم نفسه في نهر بغداد والبعض تشتتوا في القفار ، وأمر

السلطان بقتل كل من يخفي عنده رجلاً عجمياً ، فجمعوا منهم بعد ذلك ألف رجل وأتوا بهم إلى السلطان فأمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم ، وكان الذي فقد من عسكر السلطان عشرة آلاف .

ثم أمر مولانا السلطان بتجديد عمارة مشهد الإمام الأعظم أبي حنيفة ، ومشهد الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما ، وأزال ما كان أحدثه الأعاجم في المشهدين ، وأمر ببناء ما تهدم من السور والقلعة وشحنها بالعساكر ، وترك في بغداد عشرة آلاف من العسكر ، وعين لكفالة بغداد وولايتها وزيراً ، ورجع إلى دار سلطنته ومقر ملكه سالماً غانماً منصوراً ، وكان لدخوله القسطنطينية احتفال عظيم ، فدخل وكان معه خمسون من خانات العجم مقيدين بالسلاسل ، وكان حاملاً بيده حزمة من السلاح وأكتافه مغطاة بجلد نمر كما فعل إسكندر لما فتح مدينة بابل ، وبالجملة فقد كان هذا السلطان من أعظم ملوك آل عثمان .

ومما كان في مدة سلطنته أنه أمر بتبطيل القهاوي في جميع ممالكه ، ومنع من شرب الدخان بالتأكيدات البليغة ، ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره إلى أهل الحرمين الشريفين ، وأمره لمتولي الجهات خصوصاً مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم ، فما من أمر يَرِدُ منه إلا وفيه الحث على ذلك ، ومن ذلك أيضاً التفاته إلى أخبار الرعية مطلقاً والبحث عن أحوال ولاة البلدان التفاتاً تاماً ، بحيث إن ولاة الجهات لا يجاوزون حداً ، ومن سعادته العظمى عمارته الكعبة المشرفة وتجديدها كلها ، وذلك أن في سنة تسع وثلاثين وألف جاء سيل عظيم بمكة ودخل المسجد الحرام وهدم بعض جوانب الكعبة ، واتفق العلماء والمهندسون أنه لا بد من تجديد الجميع ، فعرضوا الأمر إلى مسامع مولانا السلطان مراد المذكور ، فبرز أمره العالي بالتعمير فهدموا الباقي وعمروا الجميع ، فهذا البناء الموجود الآن من مفاخر مولانا السلطان مراد ، وتم التعمير في شعبان سنة أربعين ، وكان أمير مكة في ابتداء العمارة مولانا الشريف مسعود بن إدريس بن حسن بن أبي نمي ، وتوفي أثناء التعمير ، وولي إمارة مكة مولانا الشريف عبد الله بن حسن بن أبي نمي وهو جد مولانا الشريف محمد بن عون ، فكان تمام التعمير في مدته ، وجاء تاريخ ذلك : رفع الله قواعد البيت ، ولبعضهم :

مـــراد بنـــى بيـــت الإلـــه وزاده   سنـــاء بهـــاء يـــزدهـــي زيـــد مجـــده

٨٠٩ ٢٣٠ ١٠٣٩

ولما حصل هذا التعمير أبقوا باب الكعبة القديم على حاله .

ثم في سنة خمس سنة ١٠٢١ وتوفي تاسع شوال سنة ١٠٤٩ وعمره ٢٩ سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام رحمه الله تعالى .

ذكر ولاية مولانا السلطان إبراهيم بن أحمد
مع ذكر أول غزواته

لم يخلّف المرحوم مراد ولداً وبقي من إخوته السلطان إبراهيم ، فبويع بعد وفاة أخيه .

قال في خلاصة الأثر : كان ملكاً معظماً حسن النظر سمح الكف ، وكان زمانه أنضر الأزمان وعصره أحسن العصور ، وأطاعته جميع الممالك ، وسكنت بيمن دولته الفتن ، واعتدل به الزمن ، وبعد مُضي سنتين من ولايته جهز جيشاً لمحاربة القزاق ، فلم ينجحوا ، ثم أرسل عساكر وحاصروا أزوفة ، فلما تضايق أهلها أحرقوا المدينة وانهزموا ، فدخلتها العساكر السلطانية وعمرتها وأقامت فيها جانباً من العساكر للمحافظة .

غزوة أخرى لمحاربة جزيرة كريد

سنة خمس وخمسين وألف جهز السلطان إبراهيم جيشاً في مراكب بحرية نحو أربعمئة مركب لمحاربة جزيرة كريد بمئة ألف مقاتل ، وسبب ذلك أن مراكب مالطة كانت قد تعدّت على بعض مراكب الدولة ، ثم ذهبت فاحتمت عند مشيخة البندقية في كريد ، فلما وصلت عساكر الدولة العلية أقامت الحصار على مدينة قندية وهي من أعظم مدن هذه الجزيرة ، وفي أقرب زمن استولوا عليها وجعلوا كنائسها جوامع ورجعوا إلى القسطنطينية بعد أن تركوا فيها جانباً من العسكر ، فأرسلت لهم مشيخة البندقية عساكر فاستولوا على ما كان بأيدي العساكر السلطانية واستأسروا جانباً منهم ، فغضب السلطان من هذا وجهز عليهم تجهيزاً آخر فأخرجوهم واستولوا على المدينة المذكورة وحاصروا قلعة رتمو ، وكانت قلعة حصينة ، إلى أن ملكوها ، واستعانوا باللغم حتى أهلك خلقاً كثيراً ، ثم ملكوا بقية جزيرة كريد إلا قلعة قندية ، وطال أمره مدة طويلة فتركوها ، وسيأتي ذكر فتحها في مدة سلطنة السلطان محمد بن إبراهيم .

وجزيرة كريد من أعظم الجزائر وأكبرها ، تشمل على بلاد واسعة ورساتيق كثيرة ،

وذكر بعض من دخلها أن بها من القرى أربعاً وعشرين ألف قرية ، وأن دورها مسيرة خمسة عشر يوماً هي ذات رياض نضرة وبها أنواع الفواكه والثمار ، وخيراتها وافرة .

ثم إن رجال الدولة خلعوا السلطان إبراهيم سنة ثمان وخمسين وألف بسبب أنه كان منهمكاً في اللذات والشهوات مسرفاً في إنفاق الأموال ، وسلاطينُ آل عثمان إنما عظم شأنهم بزهدهم وعدلهم ، وقد حكي أن بعض سلاطينهم تواعد مع شيخ الإسلام الذي كان في وقته أن يجتمعا في جامع من جوامع دار السلطنة في وقت مخصوص بالخفية للتشاور في بعض القضايا ، فحضر السلطان في الوقت الذي تواعد فيه وأبطأ شيخ الإسلام في الحضور وما جاء إلا بعد مضي مدة ، فلما حضر سأله عن سبب تأخيره فقال : لما أردت الخروج رأيت عمامتي وسخة فكرهت أن أقابل بها مولانا السلطان فأمرت أهلي أن يغسلوها وانتظرتها حتى جفت فلبستها وجئت ، فهذا يدل على أنه ليس عند شيخ الإسلام غيرها ، فقال له السلطان : لو كان عندي غير هذه التي على رأسي لأعطيتك إياها .

فانظر إلى زهد هذا السلطان وزهد شيخ الإسلام ، فالأصل كله الزهد في الدنيا والعدل في بيت المال ، فالخلفاء الراشدون إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالزهد في الدنيا والعدل في بيت المال لا بكثرة الصلاة والصيام ، فالسلطان إبراهيم لما رأوه مسرفاً في الإنفاق رأوه مخالفاً لما عليه أسلافه فكانت أفعاله عندهم غير مرضية فخلعوه وأجلسوا في السلطنة محمداً ، فكانت مدة سلطنة السلطان إبراهيم ثمان سنين وتسعة أشهر ، وفي ثالث يوم من خلعه قتلوه وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، وكان ميمون النقيبة منصور الكتيبة طالعه سعيد ما جهز جيشاً إلى ناحية إلا انتصر ، ولا قصد فتح ناحية إلا افتتحها لولا ما نقموا عليه من الإسراف في بيت المال ، وجميع السلاطين الذين جاؤوا من بعده كلهم من ذريته .

فائدة

في خلاصة الأثر أنه اتفق للسلطان إبراهيم المذكور ما لم يتفق لغيره من السلاطين فيما أعلم ، وذلك أنه رأى سلطنة أبيه وعمه وأخويه ووالده ثم ذكر أنه استقرى من ولي السلطنة وكان اسمه إبراهيم فوجدوا لم يتم لأحدهم أمرها .

وقال الراغب في محاضراته : قال أبو علي النظام : كان المهدي يحب ابنه إبراهيم فقالت له أم إبراهيم : ألا تراه يلي الخلافة ؟ فقال : لا ولا يليها من اسمه إبراهيم إن إبراهيم الخليل أول نبي عذب بالنار وإن إبراهيم ابن النبي ﷺ لم يعش وبويع إبراهيم بن المهدي فلم يتم له الأمر وأحكم إبراهيم الإمام أمر الملك ليكون أول خلفاء بني العباس فقتل ، قتله مروان بن محمد بن مروان ، وطلب الخلافة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى فقتل ، وبايع المتوكل لابنه إبراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل ، فسبحان من دبّر الأمور على طبق علمه وأجراها بحكمته .

وفي مروج الذهب للمسعودي : قال إبراهيم بن المهدي : كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة وهو يرد نحو الموصل والمدادون يمدون الشطرنج بين أيدينا ، فلما فرغنا قال الرشيد : يا إبراهيم ما أحسن الأسماء ؟ قلت : اسم رسول الله ﷺ ، قال : فما الثاني بعده ؟ قلت : اسم هارون اسم أمير المؤمنين ، قال : فما أمجّها ؟ قلت : إبراهيم ، فزبرني وقال : ويلك يا إبراهيم خليل الرحمن عز وجل قلت : بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي من النمروذ وألقي في النار ، قال : وإبراهيم ابن رسول الله ﷺ ؟ قلت : لا جرم لما سمي بهذا الاسم لم يعش ، قال : فإبراهيم الإمام ؟ قلت : بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة ، وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد خلع وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل ، ولم أجد أحداً سمي بهذا الاسم إلا رأيته مقتولاً أو مضروباً أو مطروداً ، فما انقضى كلامي حتى سمعت ملاحاً على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته : يا إبراهيم يا عاضّ كذا وكذا من أمه أي بَظْرَها ، قال : فالتفت إليّ الرشيد فضحك حتى فحص برجله . ا هـ .

ولاية السلطان محمد الرابع بن إبراهيم

كانت ولايته سنة ١٠٥٨ بعد خلع أبيه ، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين ، وكانت أمور الدولة في ذلك الوقت مرتبكة عديمة الانتظام مزعزعة الأركان قد كثر حسادها وأعداؤها ، وكانت من جهة المالية في ضيق وعسر ، والعساكر غير منقادة لأوليائها ، وأصبح وكلاء الدولة في الولايات غير مبالين في تنفيذ أوامرها ، فمن هذه الأحوال نبعت الفتن وكثر الفساد وتقوى الضعفاء على الوزراء والأكابر ، فكان الوزير يتولى أياماً ثم يعزل أو ينفى ، واستمر الحال هكذا نحو عشر سنين والدولة في تعكير ، والسلطان مع صغر سنه لا يزال يبحث هو وأمه عن رجل فيه اللياقة لأن يتبوأ مسند الصدارة ، إلى أن عثروا على محمد باشا كوبرلي وكان مسناً حاذقاً ذا رأي وخبرة وسياسة كاملة ، لأن طول الأيام علمه ما لم يعلمه غيره ، فولي الصدارة سنة سبع وستين وألف ، وشرع في سد الخلل الذي أوقع الدولة في الانحطاط ، وببرهة قصيرة انتظمت أمور الدولة على أحسن نظام .

ذكر غزوة في أيام السلطان محمد لقتال المجر والقزق

كانت هذه الغزوة بتدبير الوزير محمد باشا كوبرلي ، جهز جيوشاً لقتال القزق والمجر وجميع العصاة الخارجين على الدولة حتى أهلكهم وأبادهم .

وفي سنة ثمان وستين وألف استولى على مراكب للبندقية ، وأخذ جزيرة بتفداس وجزيرة ليمنوس .

ذكر غزوة أخرى يتبعها أخرى

وجهز جيشاً لقتال الصرب فانتصر عليهم وقتل منهم مئة وخمسين ألفاً ، وخرج جماعة من الأروام في بلاد الأفلاق وأظهروا العصيان ، فأرسل إليهم عسكراً فقاتلوهم وانتصروا عليهم ، وجهز جيشاً لقتال البندقية فاخترمته الوفاة سنة اثنتين وسبعين وألف قبل إتمام الأمر ، فأسندت الصدارة لابنه أحمد باشا الفاضل ، وكان أكثر من أبيه في الحذق وحسن السياسة ، وكان أبوه أقرأه العلوم حتى مهر فيها ، وكان صائب الرأي

كامل الفراسة (فراسة عجيبة) ، مما ينسب إليه من الفطنة أنه جاءه يوماً شخص بتوقيع ، فتفرّس فيه أنه مصنوع فأعطاه لبعض أتباعه وأمره بحفظه حتى مضى على ذلك ست سنوات ، فجاءه يوماً شخص آخر برقعة ، فلما رآها طلب ذلك التوقيع فجيء به فقابله على الرقعة فإذا الخط واحد ، ثم سأل صاحبها عن كاتبها فأخبره به ، فلما مثل بين يديه أراه التوقيع وقال : أليس هذا بخطك ؟ فأقرّ فأمر بقطع يمينه وعين له من بيت المال ما يكفيه .

غزوة إيوار

ومن الغزوات التي وقعت في أيام وزارته غزوة إيوار عينه السلطان محمد لفتحها ، فسار بجميع العساكر وحاصرها ، ووقع بينه وبين كفار المجر وقعة عظيمة ، ومكروا بعسكره مرات وخلصهم الله تعالى بيمن تدبيره ، ثم افتتحها سنة أربع وسبعين وألف وهدم مما يليها قلعة تسمى القلعة الجديدة كان الكفار بنوها ليتحصنوا بها .

ذكر غزوة عظمى إلى كريد

وفي سنة سبع وسبعين توجه بجيش إلى جزيرة كريد لفتح بلدة قندية التي كانت بقيت في هذه الجزيرة من بين بلادها لم تفتح ، كما تقدم شرح ذلك ، فلما وصلها بنى بالقرب منها مكاناً كان متهدماً لتهيئة مهمات الحصار ، ثم نزلها بمن معه من العساكر ، وكان أهل قندية حصنوها بأشياء لا يمكن حصرها ، وأضافوا لسورها سوراً آخر عمروه من داخل السور القديم ، وطال الحرب بين الفريقين مدة ، وأرسل أهل قندية إلى فرنسة يستنجدونهم فأنجدوهم بعمارة بحرية فيها خمسة عشر ألف مقاتل ، وجاءهم أيضاً نجدة من مالطة ومن البابا ، فاجتمعت مع عساكر فرنسة ونزلوا إلى البحر وهجموا على العساكر العثمانية واقتتلوا قتالاً شديداً كان النصر فيه لعساكر الإسلام ، فقتلوا أكثرهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، فرجعت مراكب الفرنج بالخيبة ، ثم إن أهل قندية أرسلوا للوزير يطلبون منه الصلح ، فأجابهم إلى ذلك وأخرجهم منها ، ووضع فيها العساكر الإسلامية ، ورجع الوزير إلى مقر الملك ومعه جملة من مراكب مالطية وغيرهم غنيمة وكثير من الأسرى .

وفي غرة جمادى الأولى سنة ثمانين وألف وردت البشائر إلى الأطراف بالزينة ، وكثرت تباشير الناس بفتحها ، وأكثرت الشعراء من التواريخ لهذا الفتح ، ومن نوادرها التاريخ اللفظي المعنوي للفاضل الشيخ أحمد الصفدي وهو قوله : في عام ألف وثمانين عام .

غزوة إلى بلاد القرم يتبعها أخرى إلى بولونية

وفي سنة أربع وثمانين توجه الوزير بجيش لمحاربة القرم المعروفين باللية من النصارى ، فافتتح قلعة قنجة ، وفي سنة خمس وثمانين وألف توجه بالعساكر إلى بولونية وفتح مدينة كميناكرة الشهيرة في متانة قلعتها ، وفتح بعدها جملة بلاد وحصون ، ثم عقد صلحاً مع أهل بولونية ووضع عليهم خراجاً سنوياً ، ولما رجعت العساكر الإسلامية بلغهم أن أهل بولونية ، بدسائس النمسة والبابا ، تحركوا وأظهروا العصيان ، وانضم إليهم عصاة من الأفلاق والبغدان والقزق ، واتسع الأمر ، وتوفي الصدر أحمد باشا الفاضل سنة سبع وثمانين وألف ، وحزن السلطان وجميع الناس عليه ، وولي الصدارة مصطفى باشا ، وكان قد خدم الوزير محمد باشا وابنه أحمد باشا الفاضل وترقى في الخدم والمناصب ، وتعلم كثيراً من سياستهما وإن لم يكن مثلهما .

ذكر غزوة عظمى إلى جهرين

وكان أول سفرة باشرها بعد ولايته سفرة جهرين ، فتوجه بجيوش عظيمة وافتتحها واحتوى على المملحة التي بالقرب منها ، وهذه المملحة من أعظم مجالب النفع لبيت المال حتى إنهم يبالغون فيما يدخل منها حد المبالغة ، وسبب ذلك أن بلاد النصارى المعروفين بالمسكوف والقزق محتاجون إليها وليس في بلادهم غيرها ، ولما فتحت هذه القلعة سُرّ الناس سروراً عظيماً ، لأن فتحها كان في غاية الصعوبة ، وكان كثير من نصارى الروم يزعمون استحالة فتحها ويهزؤون بالوزير المذكور في قصدها ، وأشاعوا أخباراً في انكسار عسكر المسلمين وهزيمتهم ، وكانوا يظهرون الشماتة ، وسبب ذلك ما يعرفونه من أنها تابعة لملك الموسكوف أكثر ملوك النصارى جيوشاً وأكبرهم ملكاً ، وبالجملة فإن فتح هذه القلعة كان من أعظم الفتوحات ، وبعد فتحها زيّنت دار الخلافة

ثلاثة أيام ، وكان السطان محمد إذ ذاك ببلدة سلسترة بروم إيلي ، فكتب إلى قائمقام القسطنطينية أنه يريد القدوم إلى دار المملكة ، وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدة عمره ، وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخرى ، ثم قدم السلطان فشرعوا في الزينة وبذلوا جهدهم في التأنق فيها ، واتفق أهل ذلك العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة في دور من الأدوار ، ثم وقع بعدها حريق في القسطنطينية حرق فيه نحو اثني عشر ألف بيت ، ثم تراسل الحريق في كثير من المحلات حتى حسب ما وقع منه فكان تسعين حريقاً ، وكل ذلك في سنة واحدة ، فكان ذلك الفرح سبباً لهذا الترح ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ذكر غزوة إلى بلاد النمسة

ثم طلب الوزير مصطفى باشا من السلطان محمد الإذن بالسفر إلى بلاد الأنكروس وافتتاح مدينة فيينا قصبة بلاد النمسة ، فأذن له السلطان ، وشرع في تهيئة الأسباب من الذخائر ومكاتبة نواب البلاد والعساكر ، وجمع من الجيوش والجنود ما لا يدخل تحت حصر حاصر ، ولم يتفق جمع مثله من الزمان الغابر ، ثم طلع الوزير المذكور من القسطنطينية بأبهة عظيمة مصمماً على أخذ النصارى بالقوة الجسيمة ، ولم يزل بمن معه من العساكر سائرين إلى أن وصلوا إلى قلعة يالق يوم الخميس ثاني عشر رجب سنة ١٠٩٤ ، ثم توجه يوم السبت قاصداً قلعة بج وأطلق أمره في نهب القلاع والقرى التي على الطريق ، فما كان للعسكر مشغلة إلا نهبها وإحراقها وإتلاف زرعها ، فأحرقوا من القلاع المعلومة نحو مئة قلعة وما يتبعها من القرى أشياء كثيرة جداً ، وكل قرية من هذه القرى بمثابة بلدة تحتوي على ألف بيت أو أكثر ، وجميع هذه القلاع والقرى في نهاية الإحكام وحسن البناء ، والبيوت في غاية من إتقان الصنعة مسورات بالرخام ، وفيها من السماقي ما لا يوصف ، وأكثر بيوت هذه البلاد ثلاث طبقات ، الثالثة منها مصنوعة بالدق والخشب ، وعاثت العسكر في بلاد الكفار إلى قريب قِزِل آلْما التي هي محل الأنكروس المعروف بالبابا ، ونهبوا ما قدروا عليه وحرقوه .

ومن أغرب ما وقع في هذه الأثناء أن سوقة العسكر كانوا كلما يدخلون قلعة من القلاع المذكورة فيرون فيها أناساً قلائل من النساء والرجال العاجزين عن الحركة

فيقتلونهم ويستولون على القلعة ثم يطلقون فيها النار ، ففعلوا هذا في أكثر من أربعين قلعة ، وغنم المسلمون غنائم لا تحصر ، وأسروا نحو مئة ألف أسير ، بحيث بيعت الجارية مع ولدها بثلاثة قروش ، وهرب عسكر النصارى من بج ونواحيها وأخذوا معهم كثيراً من الأموال ، فلحقهم جماعة من العسكر فاستأصلوهم قتلاً ، ولما وصل الوزير المذكور إلى مدينة بج وهي مدينة فيينا ، وكانت النمسة قد حصنتها تحصيناً عظيماً ، وضرب مخيمه بها وهي قلعة عظيمة يحيط بها من جوانبها الثلاثة الدور والأبنية والعمارات والحدائق ، ومن جملة ذلك سبعة عشر مكاناً باسم الملك ، تحتوي هذه الأمكنة على عجائب الزخارف والفواكه والفساقي ومن السماقي والرخام .

وقد تقدم أن عسكر بج كانوا قد هربوا وكذلك هرب أهل الخارج من الرعية ، ولم يبق إلا عشرون ألف رجل وعشرة آلاف من العسكر وعشرة آلاف من الرعية في داخل القلعة ، فأمر الوزير بمجاهدة القلعة فنصب عليها المكاحل ، وشرع في رميها بآلات الحرب من المدافع والقلل حتى هدموا الدور والكنائس ، فضاق بمن فيها الخناق في أقل من قليل والتجؤوا إلى أن يسلموها طوعاً ، فأبى الوزير خوفاً من أن ينهب العسكر ما فيها من المال ، فراجعه الوزراء والعسكر في المبادرة إلى دخولها صلحاً خوفاً من أن يأتي أمر ، فقال : إن ضمنتم لي العسكر في ألّا يأخذوا شيئاً فعلت ، فأبوا ، فتمادى الأمر يومين أو ثلاثة وهو وبقية الوزراء في إعمال الفكر على أن يفتحوها عنوة وما لهم علم بما سيحدث ، وكان ملوك النصارى قد تكاتبوا لتجتمع جيوشهم ويستعين بعضهم ببعض على قتال المسلمين ، وكان ملك النمسة لما سمع بقدوم المسلمين بالجيوش فرَّ من مقر ملكه واحتمى ببعض القلاع من بلاده وأرسل يخاطب ملك بولونية في الاتحاد وقتال من يعاديهما ، فاتفقت النمسة وألمانية وكثير من الفرنج على قتال المسلمين ، وكان البابا يحرضهم على ذلك ويرغبهم فيه ، وكانت مدة الحصار ٤٥ يوماً ، فبينما الوزراء يدبرون في الفتح عنوة إذا بطلائع الكفار أقبلت وفي إثرها عسكر سد الفضاء ، وشبتْ نيران القتال لا يبالون بقتل ولا ضرب ، بل يقدمون على الموت بجنان من الصخر ، وهجموا دفعة واحدة والعسكر في غفلة عما يراد بهم واختلطوا بهم طامعين في قتلهم وسلبهم ، وأطلقوا السيوف وجردوا أسنة الحتوف ، ولم يكن أسرع مما انقلب العيان وجمدت في الوجوه العينان ، وكان المقدم من المسلمن من عمد إلى

الفرار ولم يقر له في تلك المعركة القرار ، فقتل من قتل ونجا من نجا ، واحتوت الكفار على السرادقات والخيول وفازوا بأمر كان يتعسر إليه الوصول ، وكر الوزير بمن معه هارباً ، وتفرق العسكر في تلك البراري والوهاد ، ونفد ما كان معهم من الزاد ، ونفذ أمر العلي الكبير وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ، ثم اجتمع كثير من العسكر مع الوزير ببلغراد وأظهرت نصارى الأفلاق والبغدان والأردل العصيان ، وزحف الكفار على بلاد الإسلام .

قال بعض المؤرخين في وصف اليوم الذي هجم فيه النصارى على المسلمين : وهجموا دفعة واحدة على صفوف العسكر العثمانية ، واشتبك بينهم قتال مهول دائر من الصباح إلى المساء ، حتى تخضبت الأرض بالدماء ، وتغطى من العجاج ودخان البارود كبد السماء ، وصُمّت الآذان من صوت المدافع والقنابل ، وكان يوماً مهولاً لم يسمع بمثله في زمان غابر ، وبقي الوزير مصطفى باشا في بلغراد في قلق واضطراب مترقباً لما يظهر في حقه من طرف السلطنة من الجزاء والعقاب ، فبرز الأمر السلطاني بقتله وتدميره جزاء على ما جناه من سُوء تدبيره ، فقتل في المحرم من سنة ألف وخمس وتسعين عليه رحمة المولى المعين ، وعيّن للصدارة بعده إبراهيم باشا .

وبعد تلك الوقائع الشديدة والحروب المهولة أخذ البابا يحرض أهل أوروبة على طرد المسلمين من قرة بلادهم ، فاجتمعت العساكر من كل الجهات وصمموا على إخراج المسلمين من أوروبة ، فتكفلت النمسة وتكلفت مقدونية ببلاد بولونية والبندقية وغيرهم من ساكني شواطىء البحر الأبيض في دلماسية بكثير من البلاد ، وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الأطراف ، فكانت عساكر الدولة تحارب الأفرنج من جملة أماكن ، والبابا يحرض الأفرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة ، فلم ينجح تدبير إبراهيم باشا الصدر ، فعزل وأقيم مكانه سليمان باشا سنة سبع وتسعين وألف ، وسار بالعساكر إلى بلاد المجر ، وكان هذا الصدر يريد أن يتمثل بمحمد باشا كوبرلي لكنه كان قاصراً في التدبير ، فأراد العساكر قتله فتركهم وهرب إلى القسطنطينية ، فقتله السلطان سنة ثمان وتسعين وألف ، وأقيم في الصدارة سياوس باشا ، وكان السلطان مشغولاً بالصيد واللهو وقد حفت المصائب بالدولة من كل جانب وكثر الجوع والغلاء والحرائق ، فتآمر أهل الحل والعقد من رجال الدولة وخلعوا

السلطان محمداً سنة تسع وتسعين ، وتوفي سنة أربع ومئة وألف ، وكانت مدة سلطنته أربعين سنة وخمسة أشهر .

لطيفة

لطيفة : في مدة السلطان محمد المذكور ظهر يهوديٌّ يدّعي أنه المسيح ، ومسلمٌ يدّعي أنه المهدي في عام واحد وهو عام ١٠٧٢ ، أما اليهودي فظهر في إزْمير زاعماً أنه المسيح ، وكان اليهود ينتظرون النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام وهو آخر الأنبياء عليهم السلام ، فلما بعث عيسى عليه السلام كذبوه ، ولما بعث محمد ﷺ كذبوه أيضاً ، ولم يزالوا ينتظرون النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام ، فإذا ظهر المسيح الدجال يتبعونه ويقولون إنه هو النبي المبعوث في آخر الزمان الذي وعدهم به موسى عليه السلام ، فلما ظهر هذا اليهودي بإزمير ادّعى أنه المسيح عيسى ليغتر به كل من المسلمين واليهود ويتبعوه ، وأظهر لليهود أنه هو النبي الذي وعدهم به موسى عليه السلام ، وكان فصيح اللسان جميل المنظر ، وزعم أنه يوحى إليه وأنه إنما يتكلم بالوحي ، فصار يعظ الناس ويجتمعون عليه ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وكاتب اليهود الذين هم في الممالك العثمانية ، فأجابوه وآمنوا به وصاروا يأتونه أفواجاً ليتبركوا به ، ويبالغون فيما يحكونه عنه من إظهار عجائب وخوارق عادات كان يوهم عليهم بها ويصنعها بالحيل كالحواة فيزعمون أنها معجزات ، فانتشر اسمه وكثر أتباعه وكان ذلك كله في مدة سلطنة السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم فاتح مصر ، فأراد الوزير المتولي أن يقبض على ذلك اليهودي المدّعي لهذه الدعوى لما رأى من كثرة أتباعه ، وكان اليهود الذين بالقسطنطينية قد كاتبوه وطلبوا منه أن يأتي إليهم ، فتوجه إليهم واستعدوا لملاقاته ليأخذوا بيده ويتبعوه ، فأرسل الصدر الأعظم وقبض على ذلك اليهودي وهو في المركب الذي جاء فيه ووضعه في السجن ، فكان اليهود يطلبون الإذن من الصدر الأعظم ليأذن لهم في زيارته في السجن وتقبيل أقدامه ، فكانوا يأتون لذلك من جميع الجهات ، فوضع الوزير على كل من جاء لزيارته مالاً جزيلاً يأخذه منهم ، وجمع من ذلك مالاً كثيراً ، فكان السجن يضيق عن هؤلاء الذين يأتون لزيارة مسيحهم ، ثم إن السلطان محمداً أحضر ذلك

اليهودي بين يديه فأخذ يتكلم باللسان التركي كلاماً ضعيفاً غير فصيح ، فقال له السلطان محمد : إن مسيحاً مثلك يجب أن يكون فصيح اللسان بكل اللغات ، ثم قال له السلطان : هل تصنع شيئاً من العجائب ؟ فقال : نعم في بعض الأوقات ، فقال له السلطان محمد : إني أريد أن أجرب فيك هذه العجيبة ، وأَمَرَ أن يجرد من ثيابه ويوقف في فسحة الميدان ويرمى عليه بالرصاص فإن نجا ولم يهلك علم صدقه فيما يدعيه ، فلما سمع هذا الكلام خَرَّ راكعاً على الأرض وقال : إن قوتي لا تقدر على هذه العجيبة فأمر السلطان بقتله ، فرمى نفسه على قدم السلطان يقبلها ويعترف بالتوبة وتكذيب نفسه والدخول في الإسلام ، فَقَبِل السلطان محمد منه ذلك فأسلم وحسن إسلامه ، وصار يعظ اليهود فأسلم خلق كثير .

وأما الرجل المسلم الذي ادّعى أنه المهدي فإنه رجل من الأكراد ، وظهر أيضاً في هذا العام في ناحية الموصل وتبعه خلق كثير ، فقبض عليه وأُتي به إلى السلطان محمد أيضاً فأحضره وعرض عليه مثلما عرض على اليهودي ، فأبت نفسه الشّقيّة أن يعترف بالتوبة ويكذب نفسه ، بل رضي أن ترمي العساكر عليه الرصاص ، فرموا عليه فمات من ذلك ، وبعده خلع السلطان محمد وأقيم في السلطنة أخوه السلطان سليمان الثاني بن إبراهيم .

ولاية السلطان سليمان الثاني

فولي السلطنة وأمورُ الدولة في غاية الارتباك ، وزيادةً على ذلك هاج العساكر الإنكشارية وقتلوا كبيرهم وقصدوا كثيراً من الوزراء ليقتلوهم ، وقتلوا الصدر الأعظم سيواس باشا ، وأقيم بعده إسماعيل باشا ، واستولى النمسة على كثير من ممالك الدولة وكذا البندقية ، وبعد ثلاثة أشهر عزل إسماعيل باشا عن الصدارة وأقيم مكانه تكفور طاغلي مصطفى باشا سنة ألف ومئة وواحدة .

وفي تلك السنة توجهت العساكر العثمانية إلى ناحية أدرنة ، وفي ذلك كانت عساكر النمسة محاصرة بلغراد ، ثم ملكوها في تلك السنة بعد حصار طويل .

ذكر غزوة السلطان سليمان الثاني

ولما بلغ الدولة أخذ بلغراد أمر السلطان بتجهيز العساكر لكي يخرج بنفسه ، وكانت الخزينة خالية من المال ، فعرضوا على أهل القسطنطينية أن كل عائلة تجهز خيالين ، وفي أثناء ذلك توجه من طرف الدولة إلى فيينا بلاد النمسة ذو الفقار أفندي لأجل المخاطبة في عقد الصلح ، فعرض عليه إمبراطور النمسة أنه عند دخوله يسجد أولاً عند باب القلعة ، وثانياً في وسطها ، وثالثاً أمام كرسيه ، ثم يقبّل ذيله ويضع كتاب السلطان بين يديه ويرجع ساجداً كذلك ، فأبى وأقام عشرة أشهر في هذه المنازعة ، ولما رأى السلطان أنه قد طال أمر هذه المخاطبة أمر بالذهاب إلى الحرب ، فتقدمت العساكر إلى بلاد المجر وحاربتهم وأخربت قلاعهم واستولت على أكثر البلاد ، وكان الجنرال درسكوفيس قد خرج على عساكر الدولة في نواحي بلاد اليونان وكسرهم ، وكان عددهم خمسين ألفاً ، وأما عساكر النمسة الذين كانوا في نواحي الطونة فقتلهم العساكر العثمانية وشتت شملهم ، فتركوا البلاد والقلاع وفر من بقي منهم .

ذكر غزوة إلى بلاد النمسة

ولما وصل ذو الفقار من بلاد النسمة إلى القسطنطينية وأعلم السلطان بما جرى له في بلاد النمسة ، لم يستحسن مصطفى باشا الصدر أن يتغاضى عن ذلك فعزم على

حرب النمسة ، فأمر بتجهيز العساكر وأخذ في استجلاب قلوب الناس الذين كانوا تحت حماية النمسة حتى احتموا بالدولة ، وأخذ جميع الآنية الفضية والذهبية التي كانت عنده وعند السلطان وأرسلها إلى دار الضرب فسبكها معاملة ، ثم توجه لمحاربة النمسة ومعه نحو مئة ألف ، ففتح بيساو ودين سمندريا وبلغراد ، ثم رجع إلى القسطنطينية مظفراً منصوراً .

ذكر غزوة أخرىٰ

وفي سنة ألف ومئة واثنتين بلغ الدولة تقدم النمسة ، فزحف عليهم مصطفى باشا بالعساكر المنصورة ، وتوفي السلطان سليمان في رمضان من هذه السنة بداء الاستسقاء ، وعمره خمسون ، ومدة ملكه ثلاث سنين وتسعة أشهر .

ذكر ولاية السلطان أحمد الثاني بن إبراهيم وأول غزوة من غزواته

وجلس على تخت السلطنة بعده أخوه السلطان أحمد بن إبراهيم ، وكان الصدر الأعظم مصطفى باشا سائراً بالعساكر لمحاربة النمسة ، وكانت عساكره تقدمت إلى قرب بزرذدين ، واشتبك الحرب والقتال بين الجيشين وانهزم من جيش المسلمين رئيس العساكر الأكراد ، فلما شاهد ذلك مصطفى باشا صرخ عليهم بصوت عظيم واقتحم في وسط المعركة يحرض العساكر على القتال والسيف بيده وإذا برصاصة أصابته في رأسه فوقع قتيلاً رحمة الله عليه ، وبموته تغلبت عساكر النمسة على العساكر الشاهانية ووقعت الهزيمة ، وقتل خلق كثير من المسلمين ، قيل إن عدد القتلى كان ٢٨ ألفاً ، وفي ذلك الوقت كانت عساكر المسلمين البحرية منصورة على الأفرنج نصراً شديداً ، وبعد موت الوزير أقيم مكانه عربجي علي باشا ، ثم عزل سنة أربع وأقيم بيقلو مصطفى باشا ، وحدث في هذه السنة حريقة في القسطنطينية أحرقت ربع المدينة .

ذكر غزوة في خلافة السلطان أحمد الثاني

في ذي القعدة من هذه السنة توجه الوزير إلى بلغراد لمحاربة النمسة وكانت محاصرة بلغراد ، فلما بلغ النمسة قدوم الوزير رفع الحصار وهربت من أمامه ، فأمر الوزير بترميم الأماكن التي أخربتها عساكر النمسة ورجع بعد ذلك إلى أدرنة وبقي جيش الدولة محافظاً هناك ، وكانت دولة إنكلترة تداخلت مع دولة هولاندة في إتمام الصلح مع الباب العالي والنمسة ولم يتم .

وفي سنة خمس ومئة وألف توجهت العساكر لمحاربة المجر ، وبسبب الأمطار الكثيرة رجعوا إلى بلغراد .

وفي سنة ست توفي السلطان أحمد ، وعمره أربع وأربعون سنة ، ومدة ملكه ثلاث سنين وثمانية أشهر .

ذكر ولاية السلطان مصطفىٰ الثاني
وغزوة يتلوها غزوات

وأقيم في السلطنة بعده السلطان مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع بن إبراهيم ، وبعد جلوسه عرض عليه قضية الصلح فلم يقبل بل أصدر فرماناً شريفاً يقول فيه : لا يجوز لعبيد الله أن يتمتعوا بالراحة وهم على تخت السلطنة ، فمن الآن وصاعداً أحتم أن التلذذ والكسل يهجر من دولتي العلية لأن الأعداء قد أحاطوا بمملكة الإسلام واستأسروهم وسوف آخذ بثأرهم إن شاء الله تعالى ، وأسير أمام جيوشي لأن جدي سليمان العظيم الذي تتصاعد رائحة الطيب من قبره لم يكن يرسل وزراءه فقط للجهاد ، بل كان يخرج بنفسه للمبارزة في الجهاد المقدس ، حتى إن فخره ومجده قد انتشر في جميع الأقطار المسكونة ، وأنا سوف أصنع نظيره ، فأطيعوا أمير المؤمنين والسلام .

وكان السلطان مصطفى المذكور محباً للعلوم والمعارف متديناً عادلاً وعلى جانب عظيم من الرقة والحذق ، ثم اجتمع رجال الدولة واتفقوا على أن السلطان لا ينبغي أن يخاطر بنفسه ، فلم يتلفت إلى كلامهم .

ذكر غزوة من غزوات السلطان مصطفى

ثم عزم على الخروج بالعساكر ، فأمر بجمع الجيوش وأرسل عمارة بحرية ، فضربت مراكب مشيخة البندقية بقرب ساقس وكسرتهم كسرة مهولة وشتتتهم في جهات البحر الأبيض ، وتملكت عساكر الدولة جزيرة ساقس ، وسار السلطان بنفسه مع العساكر وعبروا نهر الطونة وقاتلوا عساكر النمسة وملكوا جملة بلاد وقلاع وقطعوا رأس الجنرال فيتراني ، وكانت عساكره أكثر من عساكر الدولة بخمس مرات ، وأخذوا مدافعهم ومهماتهم وهدموا القلاع والحصون ، وعند دخول الشتاء ردع السلطان بجانب من العساكر إلى أدرنة وترك الباقي يحارب النمسة ، ثم دخل بالعساكر القسطنطينية في موكب حافل ومعه أسارى كثيرة ومدفع وبيارق من غنائم النمسة ، وفي أثناء ذلك حاصر ملك المسكوف قلعة أزوف ، فكسرته عساكر الدولة تحت أسوارها ، وقتلت من عساكره ثلاثين ألفاً ، ورجع عنها بعد حصار ثلاثة أشهر ، وتملك المسكوف بحر أزوف وبنى على سواحله قلاعاً .

ذكر غزوة عظمى

بلغ السلطان أن النمسة جمعت عساكر كثيرة وجعلت قائدها أوجين الفرنساوي وكان متدرباً في الحرب ، فسار السلطان سنة ثمان ومئة وألف بمئة ألف مقاتل إلى مدينة أدرنة ، وأرسل الجيوش منها لمحاربة النمسة فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، وكان النصر للمسلمين ، فقتلوا من النصارى عدداً كثيراً وشتتوهم في جميع الجهات ، ورجع السلطان إلى مقر ملكه .

غزوة أخرى

في سنة تسع بلغ الباب العالي رجوع عساكر النمسة مع الجنرال أوجين الفرنساوي ، فخرج السلطان بنفسه بالعساكر وصحب معه وزيره الصدر الأعظم محمد ألماس باشا ، واستولوا في طريقهم على عدة قلاع ، ثم التقوا بجيوش النمسة التي مع أوجين الفرنساوي ووقع بينهم وقعات ، ثم صارت الهزيمة على عساكر المسلمين وقتل الصدر الأعظم في ميدان الحرب وأقيم مكانه حسين باشا ، ثم انهزم ورجع إلى بلاد المجر ، وفي أثناء ذلك سعت دولة فرنسة وإنجلترة وهولاندة في الصلح واختاروا مدينة كرلوقر لانعقاد الجميعة بهذا الصدد ، والسبب أن الدولة كانت كلَّت وقلّت النقود من كثرة الحروب ، فحصل القبول لهذه الجمعية فاجتمعت عمد الدولة العلية ودولة فرنسة وإنكلترة والمسكوف والنمسة والبندقية وبولونية وهولندة ، وبعد ٣٦ جلسة في ٧٢ يوماً تمَّ الصلح في رجب سنة ١١١٠ وانعقدت شروطه باتفاق الجميع ، وتلك الشروط تُعرف بشروط كازلاويز ، وكان من جملة الشروط حصول الهدنة ومتاركة الحرب مع النمسة ٣٥ سنة ، وأمّا المسكوف فلم يقبل إلاّ بهدنة سنتين .

وبعد انعقاد الصلح هاجت الناس والعساكر بسببه وانتشر من ذلك فتنة عظمى وطالت إلى أن قاموا على السلطان وخلعوه وقتلوا شيخ الإسلام فيض الله أفندي ، قيل إن السلطان مصطفى لما بلغه أنهم يريدون خلعه دخل على أخيه أحمد وأخبره بذلك وترك له كرسي السلطنة ، فكانت مدة تملكه ٨ سنين و٤ أشهر ، وكان خلعه سنة ١١١٥ ، ومات في السنة التي بعدها ، فعمره ٤١ سنة .

ولاية السلطان أحمد الثالث

تسلطن بعده أخوه السلطان أحمد الثالث بن السلطان محمد الرابع بن إبراهيم ، وكان من الصالحين المحبين للجهاد وإقامة الحق ، ولما جلس على تخت السلطنة كان أهم شيء عنده أخذ القصاص من العصاة الذين كانوا سبباً في تلك الفتنة ، وقتل كثيراً منهم .

ذكر غزوة في زمن السلطان أحمد الثالث

ثم جهز عمارة بحرية لمحاربة البندقية في جهات المورة ، فملكوا أكثر الجزائر واستأسَروا كثيراً من البندقية واستولوا على مراكبهم .

وفي سنة ستّ عشرة ومئة وألْف قامت الحرب على قدم وساق بين قيصر الروسية بطرس وكارلوس ملك السويد ، واسترسلت إلى سنة ، فانكسر أخيراً كارلوس المذكور وفاز عليه قيصر الروسية بطرس الأكبر ، ولما انهزم ملك السويد دخل في حدود الدولة فأمر السلطان وقتئذ أن يكرم غاية الإكرام وأن تكون مصاريفه ومصاريف كل تبعته من خزينة الدولة ، ومكث في بلاد الدولة مداوماً الإلحاح عليها لمحاربة الروسية إعانة له ، فامتنعت الدولة من إجابته .

ذكر غزوة إلى الروسية

ثم أجابته في سنة ١١٢٣ وأشهرت الحرب على الروسية وجهزت جيشاً تحت قيادة محمد باشا البطلجي ، فاشتبك القتال بين الطرفين عند نهر برت ، وبعد كفاح شديد تقهقر جيش الروسية وأمسى القيصر في خطر مبين ، ولو لم تدارك الأمر زوجته كاترينا بحذاقتها ودرايتها لأصبح زوجها أسيراً ، فعقدت صلحاً مع الوزير الأعظم تحت شروط ، منها : ترجيع بحر أزوف إلى الدولة ، وهدم الحصون التي على سواحل هذا البحر ، ويترك للدولة المدافع التي فيها ، وعدم مداخلة الروسية فيما يخص القذف ، وأن تتعهد لملك السويد بحرية الرجوع إلى بلاده .

وبعد المصادقة على هذه العهود من الطرفين أرسل الوزير يعلم السلطان بالنتيجة ، فغضب وأمر بعزله ونفيه ، فمات بعد شهر وأقيم مكانه يوسف باشا ، وتم رأي رجال الدولة على إبطال ذلك الصلح مع الروسية وإشهار الحرب عليهم بعد قتل جملة أشخاص كانوا السبب مع ذلك الوزير في تلك العهود ، وكان يوسف باشا الصدر الجديد لا يريد الحرب ، فلذلك صار يؤخر في تجهيز المهمات الحربية واجتهد في تجديد الصلح مع الروسية على هدنة خمسة وعشرين سنة ، فلما بلغ السلطان ذلك أمر بعزل يوسف باشا وأقام مكانه سليمان باشا ، وذلك سنة أربع وعشرين ومئة بعد الألف .

ثم إن ملك السويد أراد الرجوع إلى بلاده وطلب من الدولة ألف كيس فأمرت له بها ، ثم طلب ألفاً أخرى فأمرت له بها ، فغضب الوزير وأراد إخراج ملك السويد بالعنف وجرى بينه وبينه أشياء يطول ذكرها ، فعزل السلطان الوزير سليمان باشا وأقيم مكانه إبراهيم باشا ، ثم بعد عشرين يوماً عزل وأقيم مكانه داماد علي باشا ، فعقد الصلح مع الروسية على ٢٥ سنة ، وفي أثناء ذلك حضر إلى ملك السويد كتاب من أخته تقول له : إن حضوره لازم لأجل راحة المملكة ، فعزم على الرحيل واستأذن الدولة في الرجوع فأمرت له بستمئة جاويش لأجل محافظته في الطريق ، وأهدته ثمانية أفراس من جياد الخيل ، وصيواناً مطرزاً بالذهب ، وسيفاً مرصعاً بالأحجار الثمينة ، فرحل من بلاد الدولة سنة ١١٢٦ ست وعشرين ومئة بعد الألف شاكراً أفضال الدولة على ما صنعته معه من الغيرة والمساعدة ونحو ذلك من الأعمال الممدوحة التي تستحق أن ترقم في صحائف التواريخ لتكون تذكاراً بين الملوك ، وأهلُ السويد لا ينسون هذا الجميل الذي فعلته الدولة العلية في حق ملكهم .

ذكر غزوة عظمىٰ

وفي سنة ست وعشرين أيضاً فتحت الدولة الحرب على البندقية ، واستولى العساكر العثمانية على أكثر بلاد المورة وعلى جزائر البنادقة ، وذلك سنة سبع وعشرين ومئة وألف ، وكانت مشيخة البنادقة استغاثت بملك النمسة وهو إذ ذاك إمبراطور ألمانية ، فلبى دعوتها وبعث إلى الدولة العلية يطلب منها أن ترسل معتمداً من طرفها

إلى حدود بلاد المجر لأجل المخابرة معه لجهة جمهورية البندقية ، وإن أبت عن ذلك فإنه مستعد أن يشهر الحرب عليها ، فلم تجب الدولة هذا الطلب .

ذكر غزوة أخرىٰ

بل أرسلت على الفور الصدر الأعظم بمئة وخمسين ألف مقاتل لمحاربة ألمانية ، فوافاهم ثمانون ألفاً من عساكر الألمان تحت قيادة الأمير أوجين الفرنساوي ، والتقى الجيشان عند كارلوفيتر ، والتحم القتال بين الفريقين مدة أيام ، وكان الصدر الأعظم داماد علي باشا من أحسن أبطال زمانه ، فكان ينزل في ميدان الحرب ويقاتل بنفسه أشد القتال ، فقدر الله أنه قتل في ميدان القتال ، فانهزمت الجيوش العثمانية انهزاماً مهولاً ، واستولى عساكر العدو على المهمات والمدافع ، ثم تقدموا إلى مدينة تميغار وحاصروها شهرين وملكوها .

ذكر غزوة أخرىٰ

وولي الصدارة خليل باشا ، فجهز جيشاً لقتال العدو ، وسار إلى أدرنة ومنها إلى بلغراد ، واشتبك القتال بين الجيشين سنة ١١٢٩ ، ولسوء تدبير هذا الوزير وقعت الهزيمة أيضاً على جيش المسلمين ، وملك العدو مدينة بلغراد ، فعزل الصدر وأقيم مكانه محمد باشا ، وعزل بعد ثمانية أشهر ، وأقيم مكانه داماد إبراهيم باشا ، وكان جانب من عساكر الدولة مشتغلاً بالحرب مع العدو في جهة بوسنة ، ولما بلغت هذه الأخبار ديوان السلطنة فتحت المخابرة في الصلح سنة ثلاثين ومئة وألف ، وكان السلطان يريد عقد الصلح مع كل من دولة ألمانية وجمهورية البندقية على حدة ، فأجاب الأمير أوجين بأن الإمبراطور لا يفتح المخابرة إلا تحت شرط عقد الصلحين سواء تحت نظره ، وأردف هذا الطلب بأن يعطي له ما عدا مصاريف الحرب ومدينتي بلغراد وتميغار وإقليمي بوسنة والصرب الواقعين في الجهة اليمنى من نهر الدانوب والأفلاق من حدود بغدان إلى نهر دنيستر ، وأن ترجع المورة إلى البندقية .

فعظمت هذه المطالب على السلطان أحمد ، وفضّل فقد التاج على التسليم بشروط مجلبة للعار ، فتداخلت أخيراً دولتا إنكلترة وهولندة في نقض الخلاف وصار القرار على

أن يبقى في يد كل من الدولتين الأملاك التي تكون في يدها عند إمضاء المعاهدة ، وأن تبقى إيالة المورة للدولة العلية .

وفي سنة ٣٣ حدث حريق مهول في القسطنطينية أحرق نحو ربعها ، وبعد نهاية الصلح جددت الدولة مع الروسية وملك بولونية شروط الصلح وروابط العهود .

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

في سنة ثمان وثلاثين جاء جماعة من أهل السنة يسكنون في حدود العجم إلى السلطان أحمد يشكون من المظالم والتعدي التي يجريها الشيعة عليهم ، ويستنجدون به ويطلبون خلاصهم من تلك المظالم ، فأجابهم السلطان أحمد ، وسيّر جيشاً إلى بلاد العجم ، وفتحوا جملة حصون ومدينة أرمقان ونهاوند وتبريز ، وشتتوا جموع الأعاجم قتلاً وأسراً ، وامتلأت أيديهم من غنائمهم ، فأرسل شاه العجم يخاطب الدولة في الصلح ، فقبلت بشروط أن يرجع إلى الدولة البلاد التي كان استولى عليها .

وفي أثناء ذلك مات شاه العجم حسين وملك ولده طهماسب ، فأرسل إلى الدولة يطلب ترجيع الأملاك التي أخذت من أبيه ، وحاصر تبريز وملكها واستولى على ستمئة حمل جمل من الأمتعة ، فصدر الأمر من السلطان أحمد بتجهيز العساكر لحرب الأعاجم ، وعندما كانوا على هيئة الذهاب ، وذلك سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف هاجت العساكر الإنكشارية وتمردوا وطلبوا من السلطان قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وشيخ الإسلام وقبطان باش وكتخدا بك لِشكاوى يشكون منها ، فلم يقبل السلطان منهم ذلك ، فقالوا : نسمح عن شيخ الإسلام فقط ، ثم قتلوا الصدر الأعظم إبراهيم باشا وكتخدا بك ، ثم إن بعض العسكر أنكروا أن المقتول إبراهيم باشا ، وقالوا إن المقتول رجل يشبهه وليس هو ، ورجعوا يطلبون من السلطان إحضار إبراهيم باشا وأخذوا يصرخون يعيش السلطان محمود ، وساروا يطلبون السلطان محموداً في المكان الذي هو فيه وأتوا به إلى الديوان وأجلسوه على كرسي السلطنة وبايعوه بعد أن خلعوا عمه السلطان أحمد ، فكان خلعه سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف ، وتوفي سنة تسع وأربعين ، وعمره ستون سنة ، ومدة ملكه سبع وعشرون سنة وأحد عشر شهراً .

ولاية السلطان محمود الأول

وأما ابن أخيه الذي أقيم في السلطنة بعده فهو السلطان محمود الأول بن مصطفى بن محمد بن إبراهيم ، هكذا ذكرت هذه القصة في كثير من التواريخ ، ورأيت في تاريخ مكة للرضي حكاية كيفية خلع السلطان أحمد المذكور وكيفية قتل الوزير إبراهيم باشا ، فقال : في تاسع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف كان جلوس السلطان الأعظم والخاقان الأكرام الأفخم السلطان محمود بن السلطان مصطفى بن محمد ، ورفع عمه السلطان أحمد بن السلطان محمد المتولي سنة ألف ومئة وخمس عشرة ، وكان هذا الرفع والجلوس لأسباب وأمور اقتضت وقوع هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم ، وهو أنه لما تكاثرت المظالم من وزير السلطان أحمد إبراهيم باشا ومن كيخيته حتى زاد الحال على المسلمين اجتمع من أطراف العسكر اثنا عشر نفراً لا زيادة ، واستمروا عشرة أيام وهم في كل يوم يخرجون ويجتهدون في أن يعضدهم أحد من العسكر ، فلم يحصل ذلك ، وفي اليوم الحادي عشر تكاثرت الأمة عليهم فغاب منهم أحد عشر لا يدرىٰ أين ذهبوا ولم يبق منهم إلا واحد ، فصار ذلك الواحد أمير تلك الأمة المجتمعة فأركبوه جواداً وامتثلوا له جميع ما أمر ، وصارت عدتهم فوق العشرة آلاف ، وفي أثناء ذلك والسلطان أحمد حافظ للوزير وكيخيته وأمير البحر المسمى بالقبطان ، وهو في غاية الذلة والهوان أرسل إليه أمير الأمة المذكور بأن ادْفَع إلينا الوزير والكيخيا ، نريد أن نقتص منهم مظالم الخلق ، فاضطرب حالهم اضطراباً انجلى عن قتل الوزير لكيخيته بيده ، ثم قتل القبطان أيضاً بيده ، ثم قتل الوزير بعض خدم السلطان وأرسل إليهم برؤوس الثلاثة بناء على أن ذلك مرض لهم ، فزاد الحال وكثر الجدال وقالوا إن قتل القبطان كان ظلماً لأنه لم يصدر منه ما يوجب ذلك ، وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، وأما قتل الوزير وكيخيته فلم يكن لنا به غرض بل كان مطلوبنا حضورهما حيين نطالبهما بحقوق العباد وما كان يصدر منهما في البلاد ، ثم صرحوا بعدم الرضا بالسلطان أيضاً ، فعرض عليهم تولية ابنه السلطان سليمان فامتنعوا عن ذلك ، فرأى هو ومن لديه من أهل الحل والعقد أنه لا يطفىء هذه

الثائرة إلا إخراج السلطان محمود من الحبس وتوليته السلطنة ، فقام السلطان أحمد بنفسه وذهب إليه في الحبس وأخرجه وأجلسه على التخت ، ثم أرسل إليهم بأن يتفرقوا فأبوا إلا بعزل بعض أشخاص عن مناصبهم وتولية غيرهم وقتل آخرين ونفي جماعة ، فتم لهم ما طلبوه ، ثم رغب منهم السلطان محمود التفرق فتوقفوا أيضاً ، فأرسل إليهم شيخ الإسلام بأنكم إذا لم تتفرقوا أخرجت لواء النبي ﷺ وأخذت عليكم فتوى ووجهت الجهاد عليكم ، فعند ذلك تفرقوا ، فطلب ذلك الرجل الذي كان أمير هذه الأمة المجتمعة فلم يوجد له خبر ولا أثر ولا يُدرىٰ أين ذهب ، واستقرت السلطنة للسلطان محمود الأول وصدرت منه الأوامر العلية إلى جميع ممالكه ، وزينت البلاد ، وكان من أغرب الاتفاق أن أخرج تاريخ ذلك قوله تعالى : ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر : ٢] .

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

وقد وقع في مدة السلطان محمود المذكور محاربات بينه وبين الروسية وألمانية عدة سنوات ، وكذا وقعت أيضاً محاربات بينه وبين العجم .

ذكر غزوة إلى العجم

فمنها أن العجم جهزوا جيوشهم وأغاروا على مواضع مما كانت في حكم الدولة وأخذوها وحاصروا بغداد ، فجهز السلطان محمود عليهم جيوشاً سنة ست وأربعين ومئة وألف وأزالهم عن محاصرة بغداد وشتتهم في الجهات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ورجع بعض جيوش الدولة إلى كردستان ليخلصها من أيدي العجم ، واشتبك الحرب وقتل رئيس العساكر العثمانية طوبال عثمان باشا في ميدان الحرب ، وقد كان في السنة التي قبلها عقد صلحاً مع العجم على أن تبريز تكون تحت أيدي العجم ، فغضب السلطان محمود ولم يرض بذلك ، ولما قتل طوبال عثمان باشا انهزمت عساكر الدولة ، فلما بلغ الخبر الباب العالي جهز السلطان جيشاً آخر لقتال العجم ، ولما وصل الجيش إلى شط نهر كوبال صدهم الموسكوف عن المسير فرجعوا ، ودخلت عساكر الموسكوف في بولونية فشكتهم الدولة إلى ملوك أوروبة لأن ذلك مخالف للشروط التي كانت بينهم ، فاعتذر الموسكوف بأن دخول عساكره في بولونية لمنع دولة فرنسة من

تسلم أحكام بولونية ، فلم تقبل الدولة هذا العذر وأشهرت الحرب على الموسكوف .

ذكر غزوة إلى بلاد الموسكوف

وسارت العساكر في سنة ١١٤٩ بعد أن عقدوا صلحاً مع العجم غير الصلح الذي تقدم ذكره على شرط رجوع حدود الدولة على ما كانت أيام السلطان مراد الرابع ، وفي مدة عقد هذا الصلح تقدمت عساكر المسكوف وأخذت بعض جهات من أراضي الدولة ، فلما تجهزت عساكر الدولة توجهت إلى القرم واقتتلوا مع الموسكوف ، فانتصرت عساكر الدولة وهزموهم ، ثم إن الموسكوف اتحدت مع النمسة وألمانية ، وكانت ألمانية تابعة للنمسة ، ورجعوا واستلموا قلعة أزوف ، وانهزمت عساكر الدولة أمام هذه القلعة ، واستولت عساكر النمسة على ثمان مدن من بلاد الصرب والأفلاق وعلى قلعة نيش .

غزوة أخرىٰ

فرجعت إليهم عساكر الدولة وهزمت عساكر النمسة قدام بنالوغا ، وتشتت في جهات البلاد ، وامتد الانتصار إلى أن طردت عساكر الدولة النمسة من الأفلاق والبغدان وأرصوفا واسترجعت قلعة نيش وأحرقت لهم ٧ مراكب حربية في البحر تجاه قلعة أليرابت ، وتوسطت فرنسة في الصلح فلم يقبل السلطان ، فلم تزل فرنسة تراجع السلطان إلى أن تم الصلح بشرط أن النمسة ترجع بلغراد للدولة وكل ما استولت عليه من الأفلاق والصرب وغير ذلك ، وأن يكون الحد الفاصل بين المملكتين نهر الطونة ، وعقدوا هدنة طويلة وهي ٢٧ سنة ، واشترطت الدولة على الموسكوف ألّا يكون لها مراكب حربية ولا تجارية في البحر الأسود وبحر أزوف ، وأنْ يُرْجِع الموسكوف الأماكن التي استولى عليها في مدة الحرب ، وأن يهدم قلعة أزوف .

وبعد هذا الصلح طلبت دولة السويد عقد معاهدة مع الدولة العثمانية بالاتفاق على حرب من يعاديهم ، فأجابتها الدولة إلى ذلك ، وعظم أمر السلطنة في تلك السنة .

هذا تلخيص ما كان في مدة السلطان محمود الأول ، وكان من أعظم سلاطين آل عثمان عقلاً وهمة وتدبيراً ومحبة للجهاد ، ونصرة الدين وإقامة الشريعة ، وتوفي رحمه الله سنة ١١٦٧ ، وعمره ٦٠ سنة ، ومدة ملكه ٢٤ سنة .

ولاية السلطان عثمان الثالث

وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عثمان بن السلطان مصطفى بن محمد بن إبراهيم ، ومكث قريباً من أربع سنين ، وتوفي سنة إحدى وسبعين ومئة بعد الألف .

ولاية السلطان مصطفىٰ الثالث

وأقيم بعده في السلطنة السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم ، فلما استقر في ملكه أخذ في تنظيم ملكه وتقوية ما وهن منه ، وكان ذلك بإسعاف وزيره الصدر الأعظم محمد راغب باشا المشهوربالعلم والتدبير وحسن السياسة .

وفي سنة ست وسبعين ومئة بعد الألف توفي راغب باشا ، وبعد وفاته شبت نيران الحرب بين الدولة والروسية .

وفي هذه السنة خلعت كاترينا امرأة ملك الموسكوف بعلها عن كرسي السلطنة ، وجلست مكانه وسجنته ثم أمرت بقتله فقتل ، وأخذت تسعى في إخراج اليونان عن طاعة الدولة العثمانية ، وحركت اليونان في المورة والأرناؤوط وأخذوا يستعدون لخلع الطاعة ، ونهض علي بك بمصر وتغلب عليها وعلى الشام وأراد الاستقلال ، وأرسلت الدولة من عساكرها أربعين ألفاً لحماية البلاد على شاطىء نهر الطونة ، وأرسلت اليونان إلى كاترينا ملك الموسكوف تستنجد بها ، فبعثت لهم جيشاً لم يغن عنهم شيئاً فهزمتهم عساكر الدولة ، غير أن عساكر الموسكوف في تلك الأيام انتصرت على عساكر الدولة التي كانت على حدود الطونة واستولوا على بندر وأكرمان وإسماعيل وقلاع على شاطىء هذا النهر ، ولما بلغ الباب العالي هذه الوقائع صدر الأمر بتكثير الجيوش .

وفي السنة الثانية تغلبت عساكر الدولة على عساكر الموسكوف فرجعت إلى بلادها بعد أن فقد منها عساكر كثيرة في الحرب وبالطاعون ، وحينئذ أخذت النمسة وبروسية

في التوسط في الصلح وتوقيف الحرب ، ولكن لما رأت الدولة أن مطالب الموسكوف غير مقبولة رفضت هذا الطلب وأشهرت الحرب .

ذكر غزوة إلى بلاد الموسكوف

وفي سنة ألف ومئة وست وثمانين سار الصدر الأعظم محسن باشا بالعساكر لمحاربة الموسكوف ، فضربهم على نهر الطونة وأخذ منهم ستمئة أسير ، وسار حسن باشا قبطان باشا بجانب من العسكر الشهانية وضرب عسكر الموسكوف على نهر الطونة أيضاً وأخذ مدافعهم وذخائرهم ، وفي أثناء هذه الغلبات توفي السلطان مصطفى سنة سبع وثمانين ومئة بعد الألف ، وعمره ثمان وخمسون سنة ، ومدة ملكه ست عشرة سنة .

ولاية السلطان عبد الحميد الأول

وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم ، وكان أخوه السلطان مصطفى قد ترك له نهاية الحرب الجسيم مع الروسية فأمر بإنجاز الجيوش وتكثيرها .

ذكر غزوة للسلطان عبد الحميد الأول

بعث مع الصدر الأعظم أربعمئة ألف مقاتل والتحم القتال بينهم وبين الجيوش الروسية ، فحصلت لهم هزيمة وانحصروا في شملة ووقعوا في صعوبة كلية ، فاجتهد السلطان في إرجاع قوة الدولة ، وكانت العساكر قد كَلّت من الحروب وحدث بين العساكر الإنكشارية شغب ، فتركوا الصدر الأعظم في ميدان الحرب بجانب قليل من العساكر ، فرجع إلى شملة وأرسل يعلم الباب العالي بذلك ، فصدر الأمر بعقد الصلح ، فتم على شروط تعرف بعهد كوجيك قينارجه ، وهي منطوية على استقلال التتر في بلاد القرم واليوجك والكوبان ، وعلى سير السفن الروسية في بحر الدولة ، وترك أزوف وكيل برون وبعض القلاع إلى الموسكوف ، وقبول الدولة انقسام بولونية ، والموسكوف يترك للدولة الأفلاق والبغدان والجزائر التي كانت في يدها في البحر الأبيض .

وبعد إمضاء هذه الشروط عاد الصدر الأعظم محسن باشا بمن معه من العساكر إلى دار السلطنة وتوفي في طريق مدينة أدرنة ، وأقيم مكانه محمد عزت باشا ، وأخذ السلطان عبد الحميد في إصلاح أمور السلطنة وقمع العصاة الذين في ممالكه .

ولم تقنع الروسية بما جرى من الصلح ولم تلتزم الشروط بل كانت تتعدّى من حين إلى حين على حدود الدولة ، حتى إنها أغارت على القرم واستولت عليها ، وكان السلطان عبد الحميد يتحمل تلك التعديات بمرارة عظيمة زماناً طويلاً ، ويرى سلطنته مشرفة على وَهْدة السقوط وهو غير قادر على أن يأتيها بالعلاج الشافي ، ولما رأى أن كثيراً من ممالكه وقعت في قبضة الأجانب شرع في استعدادات جديدة للحرب .

ذكر غزوة أخرىٰ

وبعث جيوشاً متعددة ، فمنها جيش سار به حسين باشا القبطان ، فقتل كثيراً من العصاة ، وبعث برأس ظاهر العمر الذي تغلّب في جانب سورية وبرأس حاكم البغدان الذي كان يحاكيه في الشقاوة .

غزوة أخرىٰ

ثم توجه حسين باشا المذكور لتأديب اليونان ساكني المورة ، فسار إليهم وقتل منهم أصحاب الفتن والدسائس ، فأرعب قلوبهم وكسر عزائمهم وألزمهم الطاعة وطلب العفو لهم من الباب العالي ، وكانت كاترينا ملكة الروسية تجتهد دائماً في تخفيض قوة الدولة العثمانية ، وما اكتفت بتملك القرم فأرسلت أناساً في كثير من الممالك يزرعون فيها الفتن ، فلما نظرت رجال الدولة تعدي الروسية على حقوق الدولة استشاطوا في ذلك ونادوا بالحرب ، وكانت الإنكليز تحرض الدولة على ذلك وتؤكد لها الإعانة ، وأن دولة أسوج وبلونية ينهضان معها لإسعاف الإسلام ، وأن بروسية تقاوم النمسة .

ذكر غزوة أخرىٰ

فصدر الأمر إلى الصدر الأعظم يوسف باشا ، فتوجه لحرب الروسية والنمسة ، وكانت كاترينا ملكة الروسية حضرت إلى بلاد القرم بجيش عظيم ، وحضر إمبراطور النمسة بجيش عظيم ، وكان قد تعاهد معها على محاربة الدولة ، وكانت فرنسة متفقة مع الروسية سراً ، فاقتتلت عساكر الدولة مع النمسة في محل يقال له فتح الإسلام والجزيرة الكبيرة ، فانتصرت العساكر الإسلامية واستولى على كثير من القلاع والحصون .

غزوة أخرىٰ

وتوجهت فرقة أخرى من عساكر الدولة لمحاربة الروسية تحت رئاسة شاهين علي باشا ، وعندما كانت العساكر العثمانية متغلبة على عساكر النمسة حتى كاد

إمبراطور النمسة يقع أسيراً ، تقدمت عساكر الروسية واستولت على البغدان وعلى كثير من القلاع والحصون ولم يحضر أحد من باقي الدول الذين وعدوا بالمساعدة والنصر ، فلما شاهد الصدر الأعظم ذلك كتب إلى الباب العالي يستأذن إلى السعي في عقد الصلح .

وفي أثناء ذلك توفي السلطان عبد الحميد سنة ألف ومئتين وثلاث ، وعمره ست وستون سنة ، ومدة سلطنته ست عشرة سنة .

ولاية السلطان سليم الثالث وغزوة من غزواته

وجلس على تخت السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث بن مصطفى الثالث بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم ، وبعد جلوس السلطان سليم وجه هِمّته إلى إصلاح حال العساكر وتقوية العمارة البحرية ، وأمر بجمع الجيوش من جهات البلاد لتكثير الجيوش المجتمعة قبل ذلك ، فاجتمع في وقت قريب نحو مئة وخمسين ألف مقاتل ، وكان اجتماعهم في مدينة صوفيا ، وكانت عساكر الروسية سارت مع عساكر النمسة لمحاربة العساكر الإسلامية التي كانت تحت رئاسة الصدر الأعظم يوسف باشا وقبطان باشا حسين باشا ، فانتشب القتال بينهم وبين عساكر الدولة في البغدان وبقي نحو شهرين ، فحصلت هزيمة لعساكر الدولة واستولوا على أكثر مدافعهم ومهماتهم ، وبسبب ذلك عزل الصدر الأعظم يوسف باشا وأحيلت رتبة الصدارة إلى كتخدا حسن باشا ، ثم عزل وصار بدله حجازي حسن باشا سنة ١٢٠٤ ، فتوفي وصار بدله شريف حسن باشا .

وأما عساكر الروسية فتقدموا أيضاً في البلاد واستولوا على قلعة بلغراد وقلعة بندر وإيالتي الأفلاق والصرب وكل المدن التي على شاطىء الطونة ، وكادوا يستولون على قلعة إسماعيل التي هي أعظم حصن في بلاد الدولة التي في تلك الجهات ، وبينما هم كذلك إذْ حضر الخبر بموت إمبراطور ألمانية ، وكان متعاهداً مع ملكة الروسية على محاربة الدولة ، وجلس في مكانه أخوه فانفصل عن معاهدة الروسية وعقد معاهدة مع الدولة العلية بواسطة إنكلترة وبروسية ، وشرطوا عليه أن يردّ للدولة ممالك الدولة التي افتتحها النمسة ، فرد لها كل الأراضي التي افتتحها النمسة وأبقى في يده روكزيم إلى حين تمام الصلح بين الدولة والروسية ، وسعى في عقد الصلح بين الروسية والدولة .

فلم تقبل ملكة الروسية كاترينا وكانت مواظبة على الحرب ، فتقدمت عساكرها إلى قلعة إسماعيل ، وأقامت الحصار عليها ، وكان في القلعة نحو ثلاثين ألفاً ، فقطعوا عنهم الزاد والمهمات وصرخوا على عساكرهم الموت وإلا قلعة إسماعيل ، وهجمت عساكرهم على تلك القلعة وافتتحوها ، واشتد القتال بين الجيشين حتى ملأ القتلى

خنادق تلك القلعة ، ولما هجم الليل صعدت العساكر على جثث القتلى ودخلوا القلعة وحاربوا فيها حرباً شديداً ، فكانت النساء والأولاد يجمعون سلاح القتلى ويهجمون على عساكر المسلمين وما زالوا كذلك حتى قتل رئيس العساكر مع كل الذين كانوا دخلوا القلعة ولم ينج منهم إلا رجل واحد طرح نفسه في النهر وذهب إلى القسطنطينية وأعلمهم بأن الغلبة وقعت على عساكر الدولة لأنهم مكثوا ثلاثة أيام وثلاث ليال والسيف دائر فيهم حتى إن الدم جرى كالسواقي ، وقتل من النساء والأطفال في تلك المعركة خمسة عشر ألفاً .

ولما وصل هذا الخبر إلى القسطنطينية هاجت العساكر هيجاناً عظيماً وطلبوا من الدولة رأس حسن باشا صدر أعظم قائد العساكر مع أنه كان من أعظم رجال زمانه في الحروب البرية والبحرية ، ولكن النصر من عند الله ولا رادَّ لقضاء الله وقدره ، ولأجل تسكين هذا الهيجان قتل حسن باشا وجيء لهم برأسه وأحيلت الصدارة إلى يوسف باشا الذي عزل سابقاً ، وبعد ذلك تقدمت عساكر الروسية وقاتلت العساكر الإسلامية في الجهة الثانية من نهر الطونة وذلك في سنة خمس ومئتين وألف ، فتوسطت دولة الإنكليز والبروسية في الصلح فتم سنة ست ومئتين وألف على شروط ، وهي : أن الروسية ترجع للدولة كل الأماكن التي فتحتها خلا أوكزاكوف والأراضي الواقعة بين بوغ وسليسترة حيث أقامت الملكة كاترينا مدينة أوديسا سنة ألف ومئتين وسبع تذكاراً لنصرها ، وهي مدينة شهيرة أكثر سكانها نصارى على البحر الأسود سكانها نحو أربعين ألفاً .

ثم سعى السلطان سليم في ترقية أسباب تقدم بلاده وعمرانها ، وأرسل يطلب من فرنسة مهندسين أو معلمي صنائع وضباطاً إلى غير ذلك ، فبعثت له بجانب عظيم ، ثم إن العلاقات الودادية تكدرت معها لما استولت على مصر سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف وأقاموا فيها إلى سنة ست عشرة ، فالتزمت الدولة العلية أن تشهر حربها إلى أن أخرجتها من مصر بمعاضدة إنكلترة ، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر غزوة في مدة السلطان سليم الثالث

وفي سنة ألف ومئتين وأربع عشرة وجه عمارة مع عمارة الروسية وفتحتا السبع الجزائر التي كانت لجمهورية البندقية ، وكانت فرنسة يومئذ متولية عليها وهذه هي

المرة الأولى التي اتحدت فيها هاتان الدولتان .

وفي سنة خمس عشرة صار الاتفاق أيضاً بين الدولتين المشار إليهما في صيرورة الجزائر المذكورة حكومة مستقلة خاضعة للسلطنة العثمانية تحت اسم جمهورية السبع الجزائر .

وفي سنة سبع عشرة ومئتين وألف عقدت معاهدة صلح بين الدولة العلية وفرنسة .

ذكر غزوة إلى بلاد الروسية

وفي سنة إحدى وعشرين اتفقت الدولة مع فرنسة على حرب الروسية فكان ذلك داعياً لتعكيرها مع إنكلترة ، إلا أنها كانت تسعى في ملاشاة شوكة نابليون إمبراطور فرنسة ، ولكن لم تستطع إنكلترة أن تمنع السلطان سليماً من محاربة الروسية ، لأن جيوش الروسية كانت تجاوزت الحدود ودخلوا الأفلاق والبغدان وذلك مخالف للعهود ، فاضطر السلطان سليم أن يحافظ على بلاده ويدافع عن حقوقه ، فجهز الجيوش وأرسلها تحت قيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا جلبي ومصطفى باشا البيرقدار إلى الإقليمين المذكورين ، فحاربوا الروسية ومنعوا تقويهم على الأراضي العثمانية ، ولما أيست إنكلترة من إيقاع المنافرة بين الدولة العلية وفرنسة سارت بمراكبها إلى الإسكندرية وتملكوها ، فأخرجهم منها محمد علي باشا حاكم مصر .

وكان من الأسباب في حضور الإنكليز لأخذ الإسكندرية أن الصناجق المماليك الذين كانوا متغلبين على مصر كان بينهم وبين محمد علي باشا محاربات وشتتهم في الأرياف ، فأرسل كبيرهم محمد بك الألفي للإنكليز يستنجد بهم ، فحضرت مراكبهم في ثغر الإسكندرية في أول محرم سنة اثنتين وعشرين ومئتين وألف ، وعدتها اثنان وأربعون مركباً مشحونة بالعساكر ، وضربوا على الإسكندرية بالقنابل والمدافع الهائلة من البحر فهدموا جانباً من البرج الكبير ، وكذلك الأبراج الصغار والسور ، فعند ذلك طلب أهل الإسكندرية الأمان فرفعوا عنهم الضرب ، ودخلوا البلد ثم سيّروا جيشاً منه إلى رشيد فدخلوها ، ثم ثار عليهم أهل رشيد وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فرجع الباقون إلى الإسكندرية منهزمين ، واستعد محمد علي باشا لمحاربتهم وإخراجهم من الإسكندرية وشرع في تعمير القلاع واستنفر الناس كافة لقتالهم ، واستمر الحال إلى أواخر جمادى

الآخرة من السنة المذكورة ، وتوجه محمد علي باشا بعساكره إلى جهة البحيرة والإسكندرية ، وحصل بينه وبين الإنكليز الذين في الإسكندرية مكاتبات ، ثم انعقد بينه وبينهم صلح على شروط ، فخرجوا من الإسكندرية وأخلوها في أوائل رجب السنة المذكورة أعني سنة اثنتين وعشرين ، وتفصيل القصة طويل وهذا حاصلها بالاختصار ، وكان محمد بك الألفي الذي استنجد بهم قد مات قبل مجيئهم إلى الإسكندرية .

وفي هذه السنة أيضاً كانت فتن كثيرة بدار السلطنة وخلعوا السلطان سليماً ، وقصة ذلك سنذكر ملخصها لكن ينبغي أن يقدم قبل ذلك ذكر أشياء كانت في مدة السلطان سليم المذكور ، منها فتنة الوهابية بالحجاز وفتنة الفرنسيس عند دخوله مصر ، ولنبدأ بذكر فتنة الوهابية لأن مبدأها متقدم على فتنة الفرنسيس وإن كان منتهاها متأخراً .

ذكر فتنة الوهابية وتملك الفرنسيس

اعلم أن السلطان سليماً الثالث حدث في مدة سلطنته فتن كثيرة ، منها ما تقدم ذكره ، ومنها فتنة الوهابية التي كانت في الحجاز حتى استولوا على الحرمين ومنعوا وصول الحج الشامي والمصري ، ومنها فتنة الفرنسيس لما استولوا على مصر من سنة ثلاث عشرة إلى سنة ست عشرة ، ولنذكر ما يتعلق بهاتين الفتنتين على سبيل الاختصار ، لأن كلاً منهما مذكور تفصيلاً في التواريخ ، وأفرد كل منهما بتأليف رسائل مخصوصة .

أما فتنة الوهابية فكان ابتداء القتال فيها بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب بن مساعد وهو نائب من جهة السلطنة العلية على الأقطار الحجازية ، وابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المئتين والألف ، وكان ذلك في مدة سلطنة مولانا السلطان سليم الثالث بن السلطان مصطفى الثالث بن أحمد .

وأما ابتداء أول ظهور الوهابية فكان قبل ذلك بسنين كثيرة ، وكانت قوتهم وشوكتهم في بلادهم أولاً ، ثم كثر شرهم وتزايد ضررهم واتسع ملكهم وقتلوا من الخلائق ما لا يحصون واستباحوا أموالهم وسبوا نساءهم ، وكان مؤسس مذهبهم الخبيث محمد بن عبد الوهاب ، وأصله من المشرق من بني تميم ، وكان من المعمرين فكاد يعد من المنظرين ، لأنه عاش قريب مئة سنة حتى انتشر عنه ضلالهم ، كانت

ولادته سنة ألف ومئة وإحدى عشرة ، وهلك سنة ألف ومئتين وأرخه بعضهم بقوله :

١٢٠٦ (بدا هلاك الخبيث)

وكان في ابتداء أمره من طلبة العلم بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وكان أبوه رجلاً صالحاً من أهل العلم وكذا أخوه الشيخ سليمان ، وكان أبوه وأخوه ومشايخه يتفرسون فيه أنه سيكون منه زيغ وضلال لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله ونزغاته في كثير من المسائل ، وكانوا يوبخونه ويحذرون الناس منه ، فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذي أغوى به الجاهلين ، وخالف فيه أئمة الدين ، وتوصل بذلك إلى تكفير المؤمنين ، فزعم أن زيارة قبر النبي ﷺ والتوسل به وبالأنبياء والأولياء والصالحين وزيارة قبورهم شرك ، وأن نداء النبي ﷺ عند التوسل به شرك ، وكذا نداء غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين عند التوسل بهم شرك ، وأن من أسند شيئاً لغير الله ولو على سبيل المجاز العقلي يكون مشركاً ، نحو نفعني هذا الدواء وهذا الولي الفلاني عند التوسل به في شيء ، وتمسك بأدلة لا تنتج له شيئاً من مرامه ، وأتى بعبارات مزورة زخرفها ولَبَّس بها على العوام حتى تبعوه ، وأَلَّف لهم في ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد ، واتصل بأمراء المشرق أهل الدرعية ومكث عندهم حتى نصروه وقاموا بدعوته وجعلوا ذلك وسيلة إلى تقوية ملكهم واتساعه وتسلطوا على الأعراب وأهل البوادي حتى تبعوهم وصاروا جنداً لهم بلا عوض ، وصاروا يعتقدون أن من لم يعتقد ما قاله ابن عبد الوهاب فهو كافر مشرك مهدر الدم والمال .

وكان ابتداء ظهور أمره سنة ألف ومئة وثلاث وأربعين ، وابتداء انتشاره من بعد الخمسين ومئة وألف ، وألف العلماء رسائل كثيرة للرد عليه حتى أخوه الشيخ سليمان وبقية مشايخه .

وكان ممن قام بنصرته وانتشار دعوته من أمراء المشرق محمد بن سعود أمير الدرعية ، وكان من بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ، ولما مات محمد بن سعود قام بها ولده عبد العزيز بن محمد بن سعود ، ثم ولده سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وكان كثير من مشايخ ابن عبد الوهاب بالمدينة يقولون :

سيضل هذا أو يضل الله به من أبعده وأشقاه ، فكان الأمر كذلك .

وزعم محمد بن عبد الوهاب أن مراده بهذا المذهب الذي ابتدعه إخلاص التوحيد والتبري من الشرك ، وأن الناس كانوا على شرك منذ ستمئة سنة ، وأنه جدد للناس دينهم ، وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف : ٥] وكقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس : ١٠٦] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثيرة .

فقال محمد بن عبد الوهاب : من استغاث بالنبي ﷺ أو بغيره من الأنبياء والأولياء أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه مثل هؤلاء المشركين ، ويدخل في عموم هذه الآيات ، وجعل زيارة قبر النبي ﷺ وغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين مثل ذلك ، وقال في قوله تعالى حكاية عن المشركين في عبادة الأصنام : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] إن المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] قال : فإن المشركين ما اعتقدوا في الأصنام أنها تخلق شيئاً بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزمر : ٣٨] فما حكم الله عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم : ﴿ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] فهؤلاء مثلهم .

ومما ردوا به عليه في الرسائل المؤلفة للرد عليه أن هذا استدلال باطل ، فإن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الأولياء آلهة وجعلوهم شركاء لله ، بل إنهم يعتقدون أنهم عبيد الله مخلوقون ولا يعتقدون أنهم مستحقون للعبادة ، وأما المشركون الذين نزلت فيهم هذه الآيات فكانوا يعتقدون استحقاق أصنامهم الألوهية ويعظمونها تعظيم الربوبية ، وإن كانوا يعتقدون أنها لا تخلق شيئاً ، وأما المؤمنون فلا يعتقدون في الأنبياء والأولياء استحقاق العبادة والألوهية ولا يعظمونهم تعظيم الربوبية ، بل يعتقدون أنهم عباد الله وأحباؤه الذين اصطفاهم واجتباهم وببركتهم يرحم عباده ، فيقصدون بالتبرك بهم رحمة الله تعالى ، ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنّة ، فاعتقاد المسلمين أن الخالق الضار النافع المستحق العبادة هو الله وحده ، ولا يعتقدون التأثير لأحد سواه ، وأن الأنبياء والأولياء لا يخلقون شيئاً ولا يملكون

ضراً ولا نفعاً ، وإنما يرحم الله العباد ببركتهم ، فاعتقاد المشركين استحقاق أصنامهم العبادة والألوهية هو الذي أوقعهم في الشرك لا مجرد قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر : ٣] لأنهم لما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تستحق العبادة وهم يعتقدون استحقاقها العبادة قالوا معتذرين : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] فكيف يجوز لابن عبد الوهاب ومن تبعه أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الأصنام ؟! فجميع الآيات المتقدمة وما كان مثلها خاص بالكفار والمشركين ولا يدخل فيه أحد من المؤمنين .

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ في وصف الخوارج : « أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فحملوها على المؤمنين » .

وفي رواية عن ابن عمر أيضاً أنه ﷺ قال : « أَخْوَفُ ما أخاف على أمتي رجلٌ يتأوّل القرآنَ يَضَعُهُ في غير موضعه » .

فهو وما قبله صادق على هذه الطائفة ، ولو كان شيء مما صنعه المؤمنون من التوسل وغيره شركاً ما كان يصدر من النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وخلفها ، ففي الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كان من دعائه : « اللهمَّ إنّي أسألك بحقّ السائلين عليك » وهذا توسل لا شك فيه ، وكان يعلّم هذا الدعاء أصحابَه ويأمرهم بالإتيان به ، وبَسْطُ ذلك طويل مذكور في الكتب وفي الرسائل التي في الرد على ابن عبد الوهاب ، وصح عنه أنه ﷺ لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما ألحدها ﷺ في القبر بيده الشريفة وقال : « اللهمَّ اغْفِر لأمي فاطمةَ بنتِ أَسد ، ووسِّعْ عليها مُدْخَلها بحق نبيكَ والأنبياءِ الذين من قبلي إنك أَرْحَمُ الراحمين » وصحّ أنه ﷺ سأله أعمى أن يردّ الله بصره بدعائه ، فأمر بالطهارة وصلاة ركعتين ثم يقول : « اللهمَّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لِتُقْضَىٰ اللهمّ شَفِّعْهُ فِيّ » ففعل فرد الله عليه بصره ، وصح أن آدم عليه السلام توسل بنبينا ﷺ حين أكل من الشجرة ، لأنه لما رأى اسمه ﷺ مكتوباً على العرش وعلى غرف الجنة وعلى جباه الملائكة سأل عنه فقال الله له : هذا ولد من أولادك لولاه ما خلقتك ، فقال : اللهمّ بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد ، فنودي : يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماء والأرض لشفعناك ، وتوسل عمر بن الخطاب بالعباس رضي الله عنه لما

استسقى الناس ، وغير ذلك مما هو مشهور ، فلا حاجة إلى الإطالة بذكره ، والتوسل الذي في حديث الأعمى قد استعمله الصحابة والسلف بعد وفاته الصحابة والتابعين يجد شيئاً كثيراً من ذلك كقول بلال بن الحارث الصحابي رضي الله عنه عند قبر النبي ﷺ : يا رسول الله استسقِ لأمتك ، كالنداء الوارد عن النبي ﷺ عند زيارة القبور .

وممن أَلَّف في الرد على ابن عبد الوهاب أكبر مشايخه وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردي مؤلف « الحواشي المدنية على شرح ابن حجر » فقال من جملة كلامه : يا ابن عبد الوهاب إني أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين ، فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله فعرّفه الصواب وأَبِنْ له الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله ، فإن أَبىٰ فكفّره حينئذ بخصوصه ، ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين ، وأنت شاذ عن السواد الأعظم فنسبة الكفر إلى من شذّ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية . اهـ .

وأما زيارة قبر النبي ﷺ فقد فعلها الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من السلف والخلف ، وجاء من فضلها أحاديث أفردت بالتأليف ، ومما جاء في النداء لغير الله تعالى من غائب وميت وجماد قوله ﷺ : « إذا أُفْلِتَتْ دابّةُ أحدكم بأرض فَلاةٍ فَلْيناد يا عباد الله آحْبسوا ، فإن لله عباداً يجيبونه » ، وفي حديث آخر : « إذا أَضلَّ أحدُكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني ، وفي رواية أغيثوني ، فإن لله عباداً لا ترونهم » ، وكان النبي ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال : « يا أرضُ ربي وربُّك الله » ، وكان ﷺ إذا زار قال : « السلام عليكم يا أهل القبور » وفي التشهد الذي يأتي به كل مسلم في كل صلاة صورة النداء في قوله : السلام عليك أيها النبي .

والحاصل أن النداء والتوسل ليس في شيء منهما ضرر إلا إذا اعتقد التأثير لمن ناداه أو توسل به ، ومتى كان معتقداً أن التأثير لله لا لغير الله فلا ضرر في ذلك ، وكذلك إسناد فعل من الأفعال لغير الله لا يضر ، إلا إذا اعتقد التأثر ومتى لم يعتقد التأثير فإنه يحمل على المجاز العقلي ، كقوله نفعني هذا الدواء ، أو فلان الولي فهو مثل قوله :

أشبعني هذا الطعام ، وأَرْواني هذا الماء ، وشفاني هذا الدواء ، فمتى صدر ذلك من مسلم فإنه يحمل على الإسناد المجازي ، والإسلامُ قرينة كافية في ذلك فلا سبيل إلى تكفير أحد بشيء من ذلك ، ويكفي هذا الذي ذكرناه إجمالاً في الرد على ابن عبد الوهاب ، ومن أراد بسط الكلام فليرجع إلى الرسائل المؤلفة في ذلك ، وقد لخصت ما فيها في رسالة مختصرة فلينظرها من أرادها .

ولما قام ابن عبد الوهاب ومن أعانه بدعوتهم الخبيثة التي كَفَّروا بها المسلمين ملكوا قبائل الشرق قبيلة بعد قبيلة ، ثم اتسع ملكهم فملكوا اليمن والحرمين وقبائل الحجاز وبلغ ملكهم قريباً من الشام ، فإن ملكهم وصل إلى المزيريب .

وكانوا في ابتداء أمرهم أرسلوا جماعة من علمائهم ظناً منهم أنهم يفسدون عقائد علماء الحرمين ويدخلون عليهم الشبهة بالكذب والمين ، فلما وصلوا إلى الحرمين وذكروا لعلماء الحرمين عقائدهم وما تملكوا به رد عليهم علماء الحرمين وأقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها ، وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم ووجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة ، ونظروا إلى عقائدهم فوجدوها مشتملة على كثير من المكفرات ، فبعد أن أقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم عند قاضي الشرع بمكة تتضمن الحكم بكفرهم بتلك العقائد ليشتهر بين الناس أمرهم ، فيعلم بذلك الأول والآخر ، وكان ذلك في مدة إمارة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد المتوفى سنة خمس وستين ومئة وألف ، وأمر بحبس أولئك الملحدة فحبسوا ، وفَرّ بعضهم إلى الدرعية ، فأخبرهم بما شاهدوا فازدادوا عتواً واستكباراً ، وصار أمراء مكة بعد ذلك يمنعون وصولهم للحج ، فصاروا يغيرون على بعض القبائل الداخلين تحت طاعة أمير مكة ، ثم انتشب القتال بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد ، وكان ابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المئتين والألف ، ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة قتل فيها خلائق كثيرون ، ولم يزل أمرهم يقوى وبدعتهم تنتشر إلى أن دخل تحت طاعتهم أكثر القبائل والعربان الذين كانوا تحت طاعة أمير مكة .

وفي سنة سبع عشرة بعد المئتين والألف ساروا بجيوش كثيرة حتى نازلوا الطائف ، وحاصروا أهله في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة ، ثم تملكوه وقتلوا أهله رجالاً

ونساءً وأطفالاً ، ولا نجا منهم إلا القليل ، ونهبوا جميع أموالهم ، ثم أرادوا المسير إلى مكة فعلموا أن مكة في ذلك الوقت فيها كثير من الحجاج ويقدم إليها الحاج الشامي والمصري فيخرج الجميع لقتالهم ، فمكثوا في الطائف إلى أن انقضى شهر الحج وتوجه الحجاج إلى بلادهم ، ساروا بجيوشهم يريدون مكة ، ولم يكن للشريف غالب قدرة على قتال جيوشهم فنزل إلى جدة ، فخاف أهل مكة أن يفعل الوهابية معهم مثلما فعلوا مع أهل الطائف ، فأرسلوا إليهم وطلبوا منهم الأمان لأهل مكة ، فأعطوهم الأمان ودخلوا ثامن محرم من السنة الثامنة عشر بعد المئتين والألف ، ومكثوا أربعة عشر يوماً يستتيبون الناس ويجددون لهم الإسلام على زعمهم ويمنعونهم من فعل ما يعتقدون أنه شرك كالتوسل وزيارة القبور ، ثم ساروا بجيوشهم إلى جدة لقتال الشريف غالب ، فلما أحاطوا بجدة رمى عليهم بالمدافع والقلل فقتل كثيراً منهم ، ولم يقدروا على تملك جدة فارتحلوا بعد ثمانية أيام ورجعوا إلى بلادهم وجعلوا لهم عسكراً بمكة وأقاموا لهم أميراً فيها وهو الشريف عبد المعين أخو الشريف غالب ، وإنما قبل أمرهم ليرفق بأهل مكة ويدفع ضرر أولئك الأشرار عنهم .

وفي شهر ربيع الأول من السنة المذكورة سار الشريف غالب من جدة ومعه والي جدة من طرف السلطنة العلية وهو شريف باشا ومعهما العساكر ، فوصلوا إلى مكة وأخرجوا من كان بها من عساكر الوهابية ، ورجعت إمارة مكة للشريف غالب ، ثم بعد ذلك تركوا مكة واشتغلوا بقتال كثير من القبائل وصار الطائف بأيديهم وجعلوا عليه أميراً عثمان المضايفي ، فصار هو وبعض جنودهم يقاتلون القبائل التي في أطراف مكة والمدينة ويدخلونهم في طاعتهم ، حتى استولوا عليهم وعلى جميع الممالك التي كانت تحت طاعة أمير مكة ، فتوجه قصدهم بعد ذلك للاستيلاء على مكة ، فساروا بجيوشهم سنة عشرين وحاصروا مكة وأحاطوا بها من جميع الجهات وشددوا الحصار عليها وقطعوا الطريق ومنعوا الميرة عن مكة ، فاشتد الحصار على أهل مكة حتى أكلوا الكلاب لشدة الغلاء وعدم وجود القوت ، فاضطر الشريف غالب إلى الصلح معهم وتأمين أهل مكة ، فوسط أناساً بينه وبينهم فعقدوا الصلح على شروط فيها رفق بأهل مكة ، فمن تلك الشروط أن إمارة مكة تكون له ، فتم الصلح ، ودخلوا مكة في أواخر ذي القعدة سنة عشرين ، وتملكوا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ،

وانتهبوا الحجرة وأخذوا ما فيها من الأموال وفعلوا أفعالاً شنيعة ، وجعلوا على المدينة منهم مبارك بن مضيان ، واستمر حكمهم في الحرمين سبع سنين ومنعوا دخول الحج الشامي والمصري مع المحامل مكة ، وصاروا يضعون للكعبة المعظمة ثوباً من العباء القيلان الأسود ، وأكرهوا الناس على الدخول في دينهم ، ومنعوهم من شرب التنباك ومن فعل ذلك واطّلعوا عليه عَزّروه بأقبح التعزير ، وهدموا القبب التي على قبور الأولياء .

وكانت الدولة العثمانية في تلك السنين في ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى وفي اختلاف في خلع السلاطين وقتلهم ، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، ثم صدر الأمر السلطاني لصاحب مصر محمد علي باشا بالتجهيز لقتال الوهابية ، وكان ذلك في سنة ١٢٢٦ ، فجهز محمد علي باشا جيشاً فيه عساكر كثيرة جعل عليهم بفرمان سلطاني ولده طوسون باشا ، فخرجوا من مصر في رمضان من السنة المذكورة ، ولم يزالوا سائرين براً وبحراً حتى وصلوا إلى ينبع فملكوه من الوهابية ، ثم لما وصلت العساكر إلى الصفرا والحديدة وقع بينهم وبين العرب الذين في الحربية قتال شديد بين الصفرا والحديدة ، وكانت تلك القبائل كلها في طاعة الوهابيين ، وانضم إليها قبائل كثيرة فهزموا ذلك الجيش وقتلوا كثيراً منهم وانتهبوا جميع ما كان معهم ، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٢٦ ، ولم يرجع من ذلك الجيش إلى مصر إلا القليل .

فجهز جيشاً غيره سنة سبع وعشرين ، وعزم محمد علي باشا على التوجه إلى الحجاز بنفسه ، وتوجهت العساكر قبله في شعبان في غاية القوة والاستعداد ، وكان معهم من المدافع ثمانية عشر مدفعاً وثلاثة قنابل ، فاستولت العساكر على ما كان بيد الوهابية وملكوا الصفرا والحديدة وغيرهما في رمضان بلا قتال ، بل بالمخادعة ومصانعة العرب بإعطاء الدراهم الكثيرة ، حتى إنهم أعطوا شيخ مشايخ حرب مئة ألف ريال ، وأعطوا شيخاً من صغار مشايخ حرب أيضاً ثمانية عشر ألف ريال ، ورتبوا لهم علائف تصرف لهم كل شهر ، وكان ذلك كله بتدبير شريف مكة الشريف غالب وهو في الظاهر تحت طاعة الوهابي ، وأما المرة الأولى التي هزموا فيها فلم يكونوا كاتبوا الشريف غالباً في ذلك حتى يكون الأمر بتدبيره ، ودخلت العساكر المدينة المنورة في أواخر ذي القعدة .

ولما جاءت الأخبار إلى مصر صنعوا زينة ثلاثة أيام وأكثروا من الشنك وضرب المدافع ، وأرسلوا بشائر لجميع ملوك الروم ، واستولت العساكر السائرة من طريق البحر على جدة في أوائل المحرم سنة ثمان وعشرين ، ثم طلعوا إلى مكة واستولوا عليها أيضاً ، وكل ذلك بلا قتال بتدبير الشريف سراً ، ولما وصلت العساكر إلى جدة فر من كان بمكة من عساكر الوهابية وأمرائهم ، وكان سعود أمير الوهابية حج في سنة سبع وعشرين ثم ارتحل إلى الطائف ثم إلى الدرعية ولم يعلم باستيلاء العساكر السلطانية على المدينة إلا بعد ذلك ، ثم لما وصل إلى الدرعية علم باستيلائهم على مكة ثم الطائف ، ولما وصلت العساكر إلى جدة ومكة فرَّ من الطائف أميرها عثمان المضايفي وفرَّ من كان بها من عساكر الوهابية وأمرائهم .

وفي شهر ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين أرسل محمد علي باشا مبشرين إلى دار السلطنة ومعهم المفاتيح وكتبوا إليهم أنها مفاتيح مكة والمدينة وجدة والطائف ، فدخلوا بها دار السلطنة بموكب حافل ووضعوا المفاتيح على صفائح الذهب والفضة وأمامهم البخورات في مجامر الذهب والفضة وخلفهم الطبول والزمور ، وعلموا لذلك زينة وشنكاً ومدافع ، وخلعوا على من جاء بالمفاتيح وزادوا في رتبة محمد علي باشا ، وبعثوا له أطواخاً وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده .

وفي شهر شوال سنة ثمان وعشرين توجه محمد علي باشا بنفسه إلى الحجاز ، وقبل توجهه من مصر قبض الشريف غالب على عثمان المضايفي الذي كان أميراً على الطائف للوهابية وكان من أكابر أعوانهم وأمرائهم ، فزنجره بالحديد وبعثه إلى مصر ، فوصل في ذي القعدة بعد توجه الباشا إلى الحجاز ، ثم أرسل إلى دار السلطنة فقتلوه ، ووصل محمد علي باشا في ذي القعدة إلى مكة وقبض على الشريف غالب بن مساعد وبعثه إلى دار السلطنة وأقام لشرافة مكة ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور بن مساعد .

وفي شهر محرم من سنة ٢٩ بعثوا إلى دار السلطنة مبارك بن مضيان الذي كان أميراً على المدينة المنورة للوهابية فطافوا به في القسطنطينية في موكب ليراه الناس ثم قتلوه وعلقوا رأسه على باب السرايا ، وفعل مثل ذلك بعثمان المضايفي ، وأما الشريف غالب فأرسلوه إلى سلانيك وبقي بها مكرماً إلى أن توفي سنة إحدى وثلاثين ودفن بها ، وبني عليه قبة تزار ، ومدة إمارته على مكة ست وعشرون سنة .

ثم إن محمد علي باشا وجّه كثيراً من العساكر إلى تربة وبيشة وبلاد غامد وزهران وبلاد عسير لقتال طوائف الوهابية وقطع دابرهم ، ثم سار بنفسه في أثرهم في شعبان سنة تسع وعشرين ، ووصل إلى تلك الديار وقتل كثيراً منهم وأسر كثيراً وخرب ديارهم .

وفي شهر جمادى الأولى سنة تسع وعشرين هلك سعود أمير الوهابية وقام بالملك بعده ولده عبد الله ، ورجع محمد علي باشا من تلك الديار التي وصلها من ديار الوهابية عند إقبال الحج وحَجَّ ومكث بمكة إلى رجب سنة ثلاثين ، ثم توجّه إلى مصر وترك بمكة حسن باشا ، ووصل الباشا إلى مصر في منتصف رجب سنة ثلاثين ومئتين وألف ، فتكون إقامته بالحجاز سنة وسبعة أشهر ، وما رجع إلى مصر إلا بعد أن مهد أمور الحجاز ، وأباد طوائف الوهابية التي كانت منتشرة في جميع قبائل الحجاز والشرق ، وبقي منهم بقية بالدرعية أميرهم عبد الله بن سعود ، فجهز محمد علي باشا لقتاله جيشاً وأرسله تحت قيادة ابنه إبراهيم باشا ، وكان عبد الله بن سعود قبل ذلك تكاتب مع طوسون باشا بن محمد علي باشا حين كان بالمدينة وعقد معه صلحاً على بقاء إمارته ودخوله تحت طاعة محمد علي باشا ، فلم يرض محمد علي باشا بهذا الصلح ، فجهز ولده إبراهيم باشا وجعل أمر العساكر إليه ، وكان ابتداء ذلك في أواخر سنة إحدى وثلاثين ، فوصل إلى الدرعية سنة اثنتين وثلاثين ونازل بجيوشه عبد الله بن سعود ، ووقع بينهما وقائع وحروب يطول ذكرها ، إلى أن استولى على عبد الله بن سعود في ذي القعدة سنة ٣٣ ، ولما جاءت الأخبار إلى مصر ضربوا لذلك ألف مدفع وفعلوا شنكاً وزينوا مصر وقراها سبعة أيام .

وكان محمد علي باشا له اهتمام كبير في قتال الوهابية وأنفق في ذلك خزائن من الأموال حتى أخبر بعض من كان يباشر خدمته أنهم دفعوا في دفعة من الدفعات لأجرة تحميل بعض الذخائر خمسة وأربعين ألف ريال ، هذا في مرة من المرات ، كان ذلك الحمل من الينبع إلى المدينة عن أجرة كل بعير ستة ريالات دفع نصفها أمير ينبع والنصف الآخر أمير المدينة ، وعند وصول الحمل من المدينة إلى الدرعية كان أجر تلك الحملة فقط مئة وأربعين ألف ريال ، وقبض إبراهيم باشا على عبد الله بن سعود وبعث به وبكثير من أمرائهم إلى مصر ، فوصل في سابع عشر محرم سنة أربع وثلاثين

وصنعوا له موكباً حافلاً يراه الناس وأركبوه على هجين وازدحم الناس للتفرج عليه ، ولما دخل على محمد علي باشا قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له الباشا : ما هذه المطاولة ؟ فقال : الحرب سجال ، قال : وكيف رأيت ابني إبراهيم باشا ؟ قال : ما قصّر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما قدره الله تعالى ، فقال له الباشا : أنا أترجّى فيك عند مولانا السلطان ، فقال : المقدّر يكون ، ثم ألبسه خلعةً وانصرف إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق ، وكان بصحبة عبد الله بن سعود صندوق صغير مصفح فقال الباشا له : ما هذا ؟ فقال : هذا ما أخذه أبي من الحجرة أصحبه معي إلى السلطان ، فأمر الباشا بفتحه فوجدوا فيه ثلاثة مصاحف من خزائن الملوك لم ير الراؤون أحسن منها ، ومعها ثلاثمئة حبة من اللؤلؤ الكبار وحبة زمرد كبيرة وشريط من الذهب ، فقال له الباشا : الذي أخذتموه من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا ، فقال : هذا الذي وجدته عند أبي فإنه لم يستأصل كل ما كان في الحجرة لنفسه بل أخذه العرب وأهل المدينة وآغاوات الحرم وشريف مكة ، فقال الباشا : صحيح وجدنا عند الشريف أشياء من ذلك ، ثم أرسلوا عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة ، ورجع إبراهيم باشا من الحجاز إلى مصر في شهر المحرم من سنة ٣٥ بعد أن أخرب الدرعية خراباً كلياً حتى تركوا سكناها .

ولما وصل عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة في شهر ربيع الأول طافوا به البلد ليراه الناس ثم قتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضاً في نواح متفرقة ، هذا حاصل ما كان في قصة الوهابي بغاية الاختصار ، ولو بسط الكلام في كل قضية لطال ، وكانت فتنتهم من المصائب التي أصيب بها أهل الإسلام ، فإنهم سفكوا كثيراً من الدماء وانتهبوا كثيراً من الأموال وعَمَّ ضررهم وتطاير شررهم فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وكثيرٌ من أحاديث النبي ﷺ فيها التصريح بهذه الفتنة ، كقوله ﷺ : « يخرج أُناسٌ مِنْ قِبَلِ المشرقِ يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، سِيماهُم التحليق » وهذا الحديث جاء بروايات كثيرة بعضها في صحيح البخاري وبعضها في غيره لا حاجة لنا إلى الإطالة بنقل تلك الروايات ولا لذكر من خرّجها لأنها صحيحة مشهورة .

ففي قوله « سيماهم التحليق » تصريح بهذه الطائفة لأنهم كانوا يأمرون كل من

اتبعهم أن يحلق رأسه ، ولم يكن هذا الوصف لأحد من طوائف الخوارج والمبتدعة الذين كانوا قبل زمن هؤلاء ، وكان السيد عبد الرحمن الأهدل مفتي زبيدة يقول : لا حاجة إلى التأليف في الرد على الوهابية ، بل يكفي في الرد عليهم قوله ﷺ : « سيماهم التحليق » فإنه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم .

واتفق مرة أن امرأة أقامت الحجة على ابن عبد الوهاب لما أكرهوها على اتباعهم ففعلت ، أمرها ابن عبد الوهاب أن تحلق رأسها ، فقالت له : حيث إنك تأمر المرأة بحلق رأسها ينبغي لك أن تأمر الرجل بحلق لحيته ، لأن شعر رأس المرأة زينتها وشعر لحية الرجل زينته ، فلم يجد لها جواباً .

ومما كان منهم أنهم يمنعون الناس من طلب الشفاعة من النبي ﷺ مع أن أحاديث شفاعة النبي ﷺ لأمته كثيرة متواترة وأكثر شفاعته لأهل الكبائر من أمته ، وكانوا يمنعون من قراءة دلائل الخيرات المشتملة على الصلاة على النبي ﷺ وعلى ذكر كثير من أوصافه الكاملة ، ويقولون إن ذلك شرك ، ويمنعون من الصلاة عليه ﷺ على المنابر بعد الأذان ، حتى إن رجلاً صالحاً كان أعمى وكان مؤذناً وصلى على النبي ﷺ بعد الأذان بعد أن كان المنع منهم ، فأتوا به إلى ابن عبد الوهاب فأمر به أن يقتل فقتل ، ولو تتبعت لك ما كانوا يفعلونه من أمثال ذلك لملأت الدفاتر والأوراق ، وفي هذا القدر كفاية ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر قتل الصناجق المماليك المتغلبين على مصر

اعلم أن المماليك المذكورين كانوا متغلبين على مصر ، فلما تمكن محمد علي باشا من المماليك المصرية احتال عليهم وقتلهم سنة ١٢٢٦ ست وعشرين ومئتين بعد الألف ، وكانوا هم وعساكرهم وأتباعهم كثيرين وما زالوا يعارضون محمد علي باشا في كثير من شؤونه وهو يداهنهم ويتحذر منهم ، فلما جاء الأمر السلطاني بتوجهه إلى الحجاز لمحاربة الوهابي طلب من الدولة أن يأتيه فرمان بولاية ولده طوسون باشا صاري عسكر على العساكر التي يريد أن يرسلها إلى الحجاز ، فجاءه فرمان سلطاني بذلك فجعل ذلك وسيلة إلى جمع الصناجق وعساكرهم في القلعة لقراءة الفرمان المذكور وخروجهم باللألاءِ الحافل مع ابنه المذكور إلى العرضي الخارج للحجاز إلى

القلعة في الثلث من شهر صفر في الساعة الرابعة من النهار ، ورتب في القلعة عساكر خاصة بهم وجعلهم في الأبراج والمكامن التي في القلعة ، وأمر البواب للقلعة أنهم إذا استكمل دخولهم يغلق الباب ، وأمر العساكر الخاصة به الذين رتبهم في القلعة أن يقتلوا كل من دخل منهم بعد غلق باب القلعة ، ففعلوا ذلك وصار القتل فيهم من وقت الضحى إلى غروب الشمس فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ثم تتبع الباقين منهم في مصر وبقية الأرياف بالقتل حتى أبادهم عن آخرهم ، وذلك شيء كثير وعدد وفير ، والقصة طويلة ، لكن هذا حاصلها ، وتم له انتظام ملكه من غير معارض بعد أن قتلهم ، وكانت ولايته مصر سنة ٢٠ ، واستمر فيها إلى سنة ١٢٦٤ ، وكان في الأصل من العساكر الذين جاؤوا مع يوسف باشا لما أخرج الفرنسيس من مصر سنة ١٦ ، وأصله من بلاد قوله ، وجنسه من الأرناؤوط ، فلما كان محاربة يوسف باشا قاتل مع من قاتل واشتهر بالشجاعة في تلك الحروب ، ثم ترقى في مدة قصيرة إلى رتبة قائم مقام إلى أن تقلد زمام أحكام الديار المصرية سنة ١٢١٩ ، ولما خرج الفرنسيس من مصر ودخلها يوسف باشا ثم سافر يوسف باشا وأقامت الدولة وزيراً لمصر والياً عليها الوزير محمد خسرو باشا ، واستمر إلى المحرم سنة ١٨ ، فوقع بينه وبين العساكر فتنة بسبب طلب مرتباتهم وجوامكهم ، واتسعت الفتنة حتى أخرجوا الوزير المذكور من مصر ، واتفق على تولية طاهر باشا قائم مقام بمصر إلى أن يأتي الأمر من الدولة بتولية غيره ، فألبسه القاضي فرواً سموراً وكان الرئيس الثائر في تلك الفتنة محمد علي باشا ، ثم بعد ٢٦ يوماً ثاروا على طاهر باشا فقتلوه ، وكان قد حضر من دار السلطنة إلى مصر أحمد باشا والياً على المدينة فولاه أهل مصر عليهم بعد قتل طاهر باشا فلم يذعن لذلك محمد علي وقال : إن أحمد باشا لم يكن والياً على مصر وإنما هو وال على المدينة المنورة وإنما ولينا قبله طاهر باشا لكونه كان محافظاً للديار المصرية من الدولة العلية فله شبهة في التولية ، وأما أحمد باشا فليس له تعلق بمصر فهو يخرج خارج مصر وتجهزه بالعساكر ويتوجه إلى محل ولايته ، ثم اشتدت الفتنة وانتشرت بين العساكر إلى أن أخرجوا أحمد باشا ، فكانت مدة ولايته بمصر يوماً وليلة ، ثم نادى مناد بتسكين الناس وتأمينهم وأن الأمر يكون لإبراهيم بك كبير الصناجق وحاكم الولاية وأشركوا معه محمد علي ، وقبضوا على الدفتردار وقطعوا رأسه ، ثم قامت العساكر على إبراهيم بك لطلب جوامكهم

وانتشرت الفتنة وأرادوا قتل إبراهيم بك ونهبوا داره فهرب ، فقوي أمر محمد علي وصار الحل والعقد بيده ، ثم جاءت الأخبار من دار السلطنة بولاية مصر لأحمد باشا خورشيد حاكم الإسكندرية ، ووصل مصر في ذي الحجة سنة ثمان عشرة ، وبعد وصوله طلب من الناس أموالاً جزيلة تكون معجلة عما يلزم الناس من خراج مصر ، فاشتد الأمر على الناس وارتفعت الأسعار وأغلقت الدكاكين والأسواق ، واجتمع الأطفال بالجامع الأزهر وصعدوا إلى المنابر يصرخون ويتضرعون ويقولون يا لطيف ، فسمعهم الباشا وهو في القلعة فأرسل إلى نقيب الأشراف إنا قد رفعنا عن الناس ما كنا طلبناه .

وأما إبراهيم بك ومن معه من الأمراء الذين أخرجوهم من مصر فإنهم جمعوا جموعاً من الأرياف وجاؤوا لقتال الباشا ومن معه بمصر ، فخرج إليهم بالعساكر ووقع القتال واشتد الأمر وتقطعت الطرق وشرح ذلك كله يطول ، ثم جاء أمر من الدولة لمحمد علي بولاية جدة فألبسه الباشا فرواً ، ولما خرج يريد الركوب ثارت على محمد علي العساكر وطلبوا منه العلوفة فقال لهم : ها هو الباشا عندكم . وركب هو إلى داره وصار ينثر الذهب على الناس في الطريق ، وأمسك العساكر أحمد باشا ومنعوه من الركوب إلى بعد المغرب ، ثم لاطفهم وركب ، وأشيع بين الناس أنهم حبسوه وهو قد ذهب إلى القلعة ، ثم أُشيع أنه يريد وضع فردة على الناس ، فهاج الناس واجتمع كثير من الناس عند بيت القاضي وصاروا يصرخون بقولهم : شر الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ، ومنهم من يقول : يا متجلي أهلك العثملي ، ومنهم من يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ومنهم من يقول : لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا لا بد من عزله ، وذهبوا إلى بيت محمد علي يقولون ذلك ، فقال لهم : ومن تريدون أن يكون والياً عليكم ؟ فقالوا : لا نرضى إلا بك لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولاً ، ثم رضي فأحضروا له كركاً وقام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوي فألبساه ونادوا بذلك في البلد وذلك يوم الاثنين سادس صفر سنة عشرين ومئتين وألف ، ونادوا في مصر بولايته وأرسلوا الخبر إلى أحمد باشا فقال : إني متول من السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطان ، فكتب الناس سؤالاً وكتب عليه المفاتي وحكموا بعزله وصحة تولية محمد علي باشا وحضروا في

بيت القاضي فحكم بمقتضى ذلك ، واستمر أحمد باشا في القلعة وأراد الحرب والقتال مع أهل مصر فحاصروه في القلعة أياماً إلى أن أخرجوه منها ، وحصل بينه وبين العلماء كلام كثير وقال لهم : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] فقالوا : أولي الأمر هم العلماء ، وجرت العادة من القديم أن أهل البلد يعزلون الولاة حتى السلطان إذا جار عليهم يخلعونه ، والقصة طويلة جداً يطول الكلام بذكرها .

وطال الأمر بينهم إلى أن جاء الأمر السلطاني بولاية محمد علي باشا وإقرار ما فعله العلماء وأهل مصر في شهر ربيع الثاني ، فتم الأمر لمحمد علي باشا حتى كان من أمره ما كان ، وأكثر ما تقدم ذكره من القيام على الباشوات الذين تولوا مدة هذه الفتنة كان بتدبير محمد علي باشا وترتيبه ، ولم يزل في ترقّ وعلو وارتفاع حتى حارب السلطان محموداً وملك عكا والشام ، فلما توفي السلطان محمود انعقد الصلح بينه وبين السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومئتين وألف ، وترك الشام والحجاز وأعطوه ولاية الأقطار المصرية مؤبدة له ولأولاده ، وجعلوا عليه خراجاً معلوماً يدفعه كل سنة ، واستمر إلى سنة أربع وستين فأصابه مرض اختلَّ به عقله ، فولي ابنه إبراهيم باشا في حياة أبيه ، فكانت مدة ولاية محمد علي باشا نحو خمس وأربعين سنة ، واستمر ابنه إبراهيم باشا نحو سنة ثم توفي ، فولي عباس باشا ابن طوسون باشا بن محمد علي باشا ، واستمر إلى سنة سبعين فتوفي مقتولاً ، ثم ولي سعيد باشا بن محمد علي باشا وتوفي سنة تسع وسبعين ، ثم ولي إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا وخلع سنة ست وتسعين ، وولي ابنه محمد توفيق باشا وهو الموجود الآن ، وإنما ذكرنا هذا كله استطراداً تتميماً للفائدة ليتصل الكلام بعضه ببعض .

ذكر استيلاء الفرنسيس على مصر

كانت مصر قبل أن تتملكها الدولة العثمانية بيد ملوك الجراكسة ، وكان لهم كثير من المماليك الذين هم أيضاً من الجراكسة ومن غيرهم من الترك ، فلما تملكت الدولة العثمانية مصر لم تزل المماليك باقية وفي كل وقت يزدادون حتى بلغوا غاية الكثرة ، وكان منهم أمراء ورؤساء ، فصارت لهم عصبية قوية ، فتغلبوا على الأملاك والأراضي والأطيان والمحصولات والخراجات والجمارك ، وكانوا إذا جاء الباشا المتولي على مصر من الدولة العلية ينقادون في الظاهر ، وفي الباطن هم متغلبون ، فكانوا يبقونه إذا أرادوا ويعزلونه إذا أرادوا ، ولا يصل إلى الدولة العلية من محصولات مصر إلا القليل والباقي بأيديهم ، وكان لهم رؤساء وعليهم أمير كبير تحت أمر الوزير المتولي من السلطنة صورة وظاهراً فقط ، فلما تغلبوا هذا التغلب كثر منهم الظلم والعدوان على المسلمين وغيرهم من طوائف النصارى واليهود ، فيتعدون كثيراً عليهم ولا سيما على تجارهم ، فكانت الدولة العلية مشتغلة عنهم بكثرة الحرب مع النصارى ، فطمع الفرنسيس في تملك مصر وإبعاد هؤلاء المماليك المتغلبين ، وأوهموا على المسلمين أنهم يريدون تخليص مصر منهم وبقاء الحكم فيها للدولة العلية ، فجهز الفرنسيس عليها جيوشه بالسر والكتمان من غير إطلاع أحد على ذلك وجاءهم بغتة فتملكها على الوجه الآتي ذكره ، وكان ذلك في شهر المحرم سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف ، وكان الوزير المتوليْ على مصر من السلطنة العلية في تلك السنة هو أبو بكر باشا الطرابلسي ، كانت ولايته من سنة إحدى عشرة ومئتين وألف .

وكان للمماليك المتغلبين على مصر أميران رئيسان على جميعهم وهما إبراهيم بك ومراد بك ، كان تحت طوعهما جميع الصناجق والعساكر ، فلما شاعت الأخبار بقدوم الفرنسيس للاستيلاء على مصر خرج من مصر الوزير المتوليْ من السلطنة العلية وهو أبو بكر باشا المتقدم ذكره ، وتوجّه إلى غزة ، ثم منها إلى دار السلطنة ، وتوجّه من مصر يوم السبت سابع شهر صفر من السنة المذكورة ، وبقيت مصر بيد إبراهيم بك ومراد بك وصناجقهما والأمراء والعساكر التي تحت أيديهما ، وكان أهل مصر عند

خروج أبي بكر باشا من مصر وقبل خروجه بأيام يسمعون إشاعات عن مسير الفرنسيس إلى تملك مصر ولم يقفوا على حقيقتها ، فلما كان العشرون من المحرم من سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف وصلت مراكب للفرنسيس مشحونة بالعساكر وآلات الحرب ، وتقاتل من كان فيها من العساكر مع أهل الإسكندرية ، ولم يكن أهل الإسكندرية مستعدين لقتالهم فلم يقدروا على دفعهم ولا سيما قد جاؤوهم بغتة ، فقاتلوهم قليلاً ثم طلبوا الأمان منهم فأمنوهم ، ودخلوا الإسكندرية وملكوها ، فلما جاء الخبر إلى مصر أخذ إبراهيم بك ومراد بك في الاستعداد لهم وأبرزوا جيشاً من العسكر إلى موضع يقال له الجسر الأسود وأخرجوا المدافع وآلات الحرب ، واضطربت الناس بمصر وكثر الهرج والمرج وتقطعت الطرق وارتفع السعر وكثر السراق ، ثم جاءهم مكتوب من الفرنسيس فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه وبعد ذلك كلام كثير ، من جملته أني أعبد الله وأحترم نبيه والقرآن العظيم وأنهم مسلمون (يعنون أنفسهم) مخلصون وإثبات ذلك أنهم نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة أهل الإسلام ، ثم قصدوا مدينة مالطة وطردوا منها الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة أهل الإسلام . وكل ذلك من الكلام الذي كانوا يوهمون به على أهل الإسلام أنهم موحدون لله تعالى ، وأنهم يحبون أهل الإسلام ويحبون سلطانهم ، وأنهم إنما جاؤوا لنصرة سلطان الإسلام وإبعاد المماليك المتغلبين على ممالكه ودفع ظلمهم عن الرعية ، ومن جملة ما في ذلك الكتاب خطاباً للمسلمين وما جئتكم لإزالة دينكم وإنما قدمت إليكم لأخلص حقكم من يد الظالمين الصناجق المماليك[*] الذين يتسلطون في البلاد المصرية ، ويعاملون الملة الفرنساوية بالذل والصغار ، ويظلمون تجارهم ويؤذونهم بأنواع الإيذاء والتعدي ، ويأخذون أموالهم ويفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله ، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم وإني أعبد الله سبحانه أكثر من المماليك وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله تعالى ، وإن الشيء الذي يفرقهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين

المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم من غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العلية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء منهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها ، وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتاجر المتكاثرة ، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك ، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، ومع ذلك فالفرنساويون في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ، ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم ، طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم ، طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب ، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً للخلاص ، ولا يبقى منهم أثر ، وأن جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا ، وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وأكحل وأحمر ، وأن كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار ، وأن كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضاً تنصب صناجق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه ، والواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل أحد من أهالي البلد أن يبقى في مسكنه مطمئناً وتكون الصلاة تامة في الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله تعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثماني ، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي ، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية ، وعلى المشايخ في كل بلد أن يختموا حالاً على جميع الأرزاق والبيوت

والأملاك التي للمماليك ، وعليهم الاجتهاد التام ألّا يضيع أدنى شيء منها .

وفي التاسع والعشرين من محرم قدموا إلى مصر فاستقبلهم عسكر مصر عند الرحمانية وهزموا إلى الجيزة والتقوا عند بشتيل ، وحصلت مقتلة عظيمة وقدر الله أن المسلمين هزموا ، ففر مراد بك ومن معه إلى الصعيد ، وفر إبراهيم بك ومن معه في البر الشرقي إلى الشام ، وقيل لم يقع قتال كثير ، وإنما هي مناوشة من طلائع العسكر بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين ، وكانت مراكب في البحر لمراد بك فاحترقت بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية واحترق ما فيها من المحاربين ، فلما عاين ذلك مراد بك دخله الرعب وولى منهزماً ، وترك الأثقال والمدافع التي في البر وتبعته العساكر ،وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق طرف البر الشرقي ، ورجع الناس منهزمين طالبين مصر ، فاجتمع الباشا والعلماء ورؤوس الناس يتشاورون في هذا الحادث العظيم ، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بك وكشافته ومماليكه ، وقد كانت العلماء عند ابتداء هذا الحادث يجتمعون بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخاري وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ الطرائق وأتباعهم ، وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء .

ويوم الاثنين حضر مراد بك إلى بر إنبابة وشرع في عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل ، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه ، وكان معه في ذلك علي باشا الطرابلسي ونصوح باشا ، وأحضروا المراكب الكبار والغلايين التي أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل إنبابة وشحنها بالعساكر والمدافع ، فصار البر الغربي والشرقي مملوءين بالعساكر والمدافع والمتاريس والخيالة والمشاة ، ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك فإنهم من وصول الخبر الأول لهم من الإسكندرية شرعوا في نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التي لا يعرفها أحد ، واستمروا طول الليالي ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف ، وأخذوا أيضاً في تشهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأسباب الارتحال ، فلما رأى أهل البلد منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع ، واستعد الأغنياء وأولو المقدرة للهرب ، ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك لما بقي بمصر منهم أحد .

وفي يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، فأغلق الناس

الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبولاق ، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياماً أو يجلسون في مكان خراب أو مسجد ، ويرتبون أمرهم فيمن يصرف لهم ما يحتاجون إليه من الدراهم التي جمعوها ويجعلون قَيِّماً عليهم يباشر ذلك ، وبعض الناس يتطوع على بعض في الإنفاق ، ومن الناس من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك ، بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح أحد في ذلك الوقت بشيء يملكه ، ولكن لم يسعفهم الدهر وخرجت الفقراء وأرباب الشعائر بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون بأذكار مختلفة ، وصعد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القلعة فأخرج بيرقاً كبيراً سمته العامة بيرق النبي ﷺ ، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك .

وأما مصر فإنها صارت خالية الطرق لا تجد بها سوى النساء في البيوت وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة ، وغلا سعر البارود والرصاص جداً ، بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفاً ، والرصاص بتسعين نصفاً ، وغلا جنس أنواع السلاح وقلَّ وجوده ، وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصي والمساوق ، وجلس مشايخ العلماء بزاوية علي بيك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى بالنصر ، وأقام غيرهم من الرعايا بالبيوت والزوايا والخيام ، ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق ، وأقام بها من حين أن نصب إبراهيم بك العرضي هناك إلى وقت الهزيمة ، سوى القليل من الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق ، وأرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا من المقدمة بنواح شبرا وما والاها ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجزيرة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد علي والقناوية وغيرهم ، وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوماً فيوماً ، لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد ، وانقطعت الطرق ، وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم ،

وكذلك العرب أغارت على الأطراف والنواحي ، وقامت الأرياف على ساق يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً ، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع ، وغير ذلك من أنواع الفساد التي لا تحصى ، وطلب أمراء مصر تجار الأفرنج الذين بمصر وحبسوهم في القلعة وفي بعض أماكن غير القلعة من بيوت الأمراء ، وساروا يفتشون في محلات الأفرنج على الأسلحة وغيرها ، وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأروام والأقباط والكنائس على الأسلحة ، والعامة لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود ، فيمنعهم الحكام عنهم ، ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت هذه الفتنة ، ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس في الجهة التي يجيئون منها ، فمنهم من يقول إنهم واصلون من البر الغربي ، ومنهم من يقول إنهم واصلون من الشرقي ، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين ، وليس لأحد من الأمراء همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل قربهم ووصولهم إلى فناء مصر ، بل كان من إبراهيم بك ومراد بك جمع عساكره ومكث في مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم ، وليس هناك قلعة ولا حصن ولا معقل ، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو .

ولما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود ، وأصبح يوم السبت فوصل أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون في ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون في رؤيتهم ، مغمورين في غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم ، وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين ، بل أشيع ذلك فلم يأتوا إلا من البر الغربي ، ولما كان وقت القيلولة ركب جماعة من العسكر التي بالبر الغربي وتقدموا إلى ناحية بشتيل بلدة مجاورة لإنبابة فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكرّوا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمي ، وأبلى الفريقان وقتل أيوب بك الدفتردار وكثير من كشاف محمد بك الألفي ومماليكهم ، وتبعهم طابور من الأفرنج نحو الستة آلاف ، وكان رئيسهم الكبير بونابارت ، لكنه لم يشهد الوقعة بل حضر بعد الهزيمة ، وكان بعيداً عن

هؤلاء بكثير ، ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع وكذلك العسكر المحاربون البحرية ، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرناؤوط من دمياط وطلعوا إلى إنبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس ، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضجت العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ، ورفعوا الأصوات بقولهم يا رب يا لطيف ويا رجال الله ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم ، فكان العقلاء من الناس يأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم : إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الصوت والصراخ والنياح ، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع ، وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضي الشرقي ومعهم إبراهيم بك الوالي وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب فتزاحموا على المعادي ، لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً ، فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين ، هذا وريح العاصفة قد اشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها ، والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار ، وكون الريح من ناحية العدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه ، ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم على تراتيب معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ، ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتابعة والمدافع ترمي ، واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار ، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح ، وصُمّت الأسماع من توالي الضرب ، بحيث خُيّل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلثي ساعة كانت الهزيمة على العسكر الغربي ، فغرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا ، والبعض وقع أسيراً في يد الفرنسيس ، وملكوا المتاريس وفرّ مراد بك ومن معه إلى الجيزة فصعد إلى قصره وقضى بعض أشغاله في نحو ربع ساعة ، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية ، وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر إنبابة تحت الأرض ، وألقى كثير نفسه في البحر ، ولما انهزم العسكر الغربي حَوّل الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقي وضربوها ، وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة فقامت فيهم ضجة

عظيمة ، وركب في الحال إبراهيم بك والأمراء والعسكر والرعايا وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هي لم يأخذوا منها شيئاً ، فأما إبراهيم بك والأمراء فساروا إلى جهة العادلية ، وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة ودخلوها أفواجاً أفواجاً وهم جميعاً في غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك ، وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله تعالى من شر هذا اليوم العصيب ، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ، وقد كان ذلك قبل الغروب .

فلما استقر إبراهيم بك بالعادلية أرسل يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الأمراء ، فَأرْكَبوا النساء على الخيول والبغال والحمير والجمال ، والبعض ماش كالجواري والخدم ، واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ، البعضُ بحريمه والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه ، فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلاً للقضاء متوقعاً للمكروه ، وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم في الغربة ، فاستسلم للمقدور ولله عاقبة الأمور .

والذي أزعج قلوب الناس بالأكثر أن في عشاء تلك الليلة شاع في الناس أن الأفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء ، والسبب في هذه الإشاعة بعض عسكر مراد بك الذين كانوا في الغليون لمرسى إنبابة لما تحقق الكسرة أضرم النار في الغليون الذي هو فيه ، وكذلك مراد بك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى الجهة القبلية فمشوا به قليلاً فوقف في الطين لقلة الماء ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضاً ، فلما صعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين ، فماجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع ، وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكبرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك واشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهرب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون أي جهة يسلكون ، وأي طريق يذهبون ، وأي محل يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا

وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه ، وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته وابنته ومشى هو على أقدامه ، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها ، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع .

فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون ، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته ، فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوق الحصر ، بحيث إن الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي فيها بلا شك ، لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم ، وغالب مساتير الناس وأهل المقدرة أخرجوا أيضاً ما عندهم ، والذي أعقده العجز وكان عنده ما يعجز عليه حمله من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل ، ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه ، وربما قتلوا من قدروا على قتله أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان ، فمنهم من رجع عن قريب وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين ، ومنهم من جاز متكلاً على كثرته وغزوته وخفارته فسلم أو عطب ، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة ، جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين ، قال الشاهد : فما راءٍ كمن سمعا .

ولما أصبح يوم الأحد المذكور ، والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ويتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ، ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من العُرْي والفزع ، فتبين أن الفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقي وأن الحريق كان في المركب المتقدم ذكرها ، فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الفرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم ففعلوا ذلك ، وأرسلوه صحبة شخص مغربي يعرف لغتهم وآخر صحبته ، فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة ، فقرأها عليه ترجمانه وأفهم أن مضمونها الاستفهام عن قصدهم ، فقال على لسان الترجمان : وأين عظماؤكم ومشايخكم لِمَ تأخروا عن

الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة وطَمْأَنهم وبشّ في وجوههم ؟ فقالا : نريد أماناً منكم ، فقال : قد أرسلناه لكم سابقاً يعنون الكتاب المذكور فيما تقدم ، فقالا : أيضاً نريد أماناً لأجل اطمئنان الناس ، فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها أننا أرسلنا لكم في السابق كتاباً فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا إلى البر الغربي خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا البعض ونحن في طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالقطر ، وأما العلماء والمشايخ وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين في مساكنهم مرتاحين ، ونحو ذلك من الكلام ، ثم قال لهم : لا بد أن المشايخ والشربجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور .

ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم ، وقال لهم : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا ، فقال : لأي شيء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديواناً لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة ؟ فكتبوا منه عدة مكاتيب بالحضور والأمان ، ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا إلى مصر واطمأن برجوعهم الناس وكانوا في وجل وخوف على غيابهم ، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ ، فحضر شيخ السادات ، والشيخ الشرقاوي والمشايخ ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية .

وأما عمر أفندي نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر وكذلك الروزنامجي والأفندية ، وفي ذلك اليوم اجتمعت الجعدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بك ومراد بك وأحرقوهما ، ونهبوا أيضاً عدة من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك ، وباعوه بأبخس الأثمان .

ذكر دخول الفرنسيس مصر

وفي يوم الثلاث عدت الفرنساوية إلى مصر وسكن بونابارته بيت محمد بك الألفي بالأزبكية الذي أنشاه الأمير المذكور في السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالاً

عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة ، وعند تمامه وسكناه حصلت هذه الحادثة فما دخلوه بل تركوه بما فيه فكأنه إنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس ، وكذلك حصل في بيت حسن كاشف بالناصرية ، ولما عدى كبيرهم وسكن بالأزبكية ، كما ذكر ، استمر غالبهم بالبر الآخر ولم يدخل بالمدينة إلا القليل منهم ومشوا في الأسواق من غير سلاح ولا تعديل ، وصاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن ، فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطي صاحبها في ثمنها ريالاً فرنسياً ويأخذ البيضة بنصف فضة قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم ، فلما رأى منهم العامة ذلك أَنِسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك من السكر والصابون والدخان والبن ، وصاروا يبيعون لهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوق والحوانيت والقهاوي ، واطمأن الناس .

ذكر ترتيب ديوان لفصل الخصومات

وفي يوم الخميس ثالث عشر شهر صفر أرسلوا يطلبون المشايخ والوجاقلية عند قائم مقام سر عسكر ، فلما حضروا تشاور معهم في تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الخصومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي والشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسي والشيخ مصطفى الدمنهوري والشيخ أحمد العريشي والشيخ يوسف الشبرخيتي والشيخ محمد الدواخلي ، وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتخدا والقاضي ، وقلدوا محمد آغا السلماني آغات مستحفظان وعلي آغا الشعراوي والي الشرط وحسن آغا أمين احتساب ، وذلك بإشارة أرباب الديوان فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم ، وهؤلاء المذكورين من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم ، وقلدوا ذو الفقار كتخدا بك كتخدا بونابارته ، وسأل أرباب الديوان المذكورين عما وقع من النهب للبيوت ، فقالوا : هذا فعل الجعدية وأوباش الناس ، فقالوا : لأي شيء يفعلون ذلك وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم عليها ؟ فقالوا : هذا أمر لا قدرة لنا على منعه وإنما ذلك وظيفة الحكام ، ثم

أمروا بالنداء بالأمان وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب ، فلم يسمعوا ولم ينتهوا ، واستمر غالب الأسواق والدكاكين معطلة والناس غير مطمئنين ، وفتح الفرنسيس بعض البيوت المُغْلَقة التي للأمراء ودخلوها وأخذوا منها شيئاً وخرجوا منها وتركوها مفتوحة ، فعندما يخرجون منها يدخلها طائفة الجعدية يستأصلون ما فيها ، ثم إن عسكرهم صارت تدخل المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منها الطرقات وسكنوا في البيوت ولم يشوشوا على الناس ، ويأخذون المشتريات بزيادة عن ثمنها ، وبعد أيام طلبوا سلفة خمسمئة ألف ريال من التجار ، فأخذوا في تحصيلها بعد مراجعتهم في تخفيفها فلم يفعلوا ، ونادوا بالأمان لنساء الأمراء ، وأمروا كل من عندها شيء من متاع زوجها تأتي به ، وصالحت زوجة مراد بك عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء بمئة وعشرين ألف ريال ، واستخرجوا من الخبايا شيئاً كثيراً ، ثم طلبوا من أهل الحرف والأسواق مبلغاً من المال يعجزون عنه ، فاستغاثوا بالمشايخ فتشفعوا عندهم فلطفوها لهم ، ولما جاء وقت مولد النبي ﷺ أمروا بصنعه على المعتاد وأعطوا من عندهم إعانة على ذلك ثلاثمئة ريال ، وصنعوا شنكاً ليلة المولد ، وجاءت مراكب الإنكليز وحاربت مراكب الفرنسيس وأحرقوا له مركباً كبيراً ، واستمر أياماً ثم ذهبوا .

وأما إبراهيم بك ومراد بك فذهبوا إلى غزة ، ثم رجعوا إلى جهة الفيوم ، وفي شهر ربيع الثاني طلبوا من الناس حجج أملاكهم وقيدوها عندهم ، ووضعوا عليها قدراً معلوماً من الدراهم ، وأمروا المشايخ أن يكتبوا للسلطان كتاباً مضمونه الثناء عليهم وحسن سيرتهم ، وأنهم من المحبين للسلطان ، وأنهم محترمون للقرآن والإسلام ففعلوا .

وفي عاشر جمادى الأولى جمعوا الناس وقرروا على الأملاك أموالاً زيادة عما كان قبل ذلك ، وهاج عامة الناس ونادوا بالجهاد ووقع قتال قتل فيه خلق كثير ، ثم صار النداء بالأمان ، ثم تتبعوا كثيراً ممن كان قائماً في تلك الفتنة فقتلوهم ، وأما كيفية مجالسهم وبقية الترتيب في نظامات دولتهم فهو طويل لا حاجة لذكره ، وكذا ما كان يجري من الحوادث .

ولما جاءت أخبار دخول الفرنسيس مصر إلى الحجاز قام شيخ عالم مغربي بمكة يقال له محمد الجيلاني واستنفر الناس للجهاد ، فاجتمع معه خلق كثير ووصلوا إلى

الصعيد وقاتلوا من وجدوه من الفرنسيس ولم يقدروا على استخلاص الأقطار المصرية منهم ، فقاتلوا حتى قتل أكثرهم ، ورجع القليل منهم ، ثم جهز الفرنسيس جيشاً لمحاربة أحمد باشا الجزار في عكا ، فملكوا كثيراً من قرى الشام وحاصروا أحمد باشا في عكا ، ثم عجزوا عن أخذها ، فارتحلوا عنها ، وأجروا عمل ما يعتاده أهل مصر من مولد السيد أحمد البدوي وغيره على حسب المعتاد ، وكذا إخراج المحمل والحج ، وحصل بينهم وبين أهل الأرياف محاربات كثيرة حتى ملكوهم كلهم ، وصاروا يتبعون الأمراء من المماليك ويقتلون من ظفروا به ، وحضرت مراكب إلى السويس فيها أموال وبضائع للشريف غالب فسمحوا عن عبورها وبينه وبينهم مكاتبات ومهاداة بهدايا عندهم ، ووضعوا الشيخ العريشي قاضياً للمسلمين يحكم بالشرع ، وتوجّه بونابرته إلى بلاد الفرنسيس سنة أربع عشرة وجعل صاري عسكرهم نائباً عنه بمصر ، ثم ترقى بونابرته حتى صار ملكاً على الفرنسيس كافة .

وفي شهر رجب من سنة ١٤ جاء جيش من السلطان سليم يقوده يوسف باشا ومعه نصوح باشا جعلوه والياً على مصر ، وهو الذي يقال له أيضاً ناصف باشا ، وساروا من جهة الشام حتى وصلوا إلى العريش ، فاستعد الفرنسيس بقتالهم وخرج بجنوده إلى الصالحية ، ثم توسط الإنكليز في الصلح على شروط كثيرة ، منها : أن الفرنسيس يتنحى عن الديار المصرية بعد ثلاثة أشهر ، ففي تلك المدة صار الناس يحتقرونهم ويسخرون بهم ويقول بعضهم لبعض : سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة ، كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وهم يحقدون بذلك عليهم ، وكشف همج الناس نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ، ولم يفكروا في عواقب الأمور ، حتى إن فقهاء الأطفال كانوا يجمعون الأطفال ويمشون فرقاً وطوائف وهم يجهرون ويقولون كلاماً مقفىً بأعلى أصواتهم بلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقولهم ينصر الله السلطان ويهلك فرط الزمان ، ولم يملكوا لأنفسهم صبراً حتى تنقضي الأيام المشروطة ، على أن ذلك لم يثمر إلا الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس ، وأخذ الفرنساوية في أهبة الرحيل وشرعوا في بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم ، وسلموا غالب القصور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس .

ثم إن العثمانيين تدرجوا في دخول مصر وصار كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة ، ووصل الوزير يوسف باشا إلى بلبيس والتقى بالأمراء المصريين ، وأخلى الفرنساوية قلعة الجبل وباقي القلاع التي أحدثوها ونزلوا منها ، فلم يطلع إليها أحد من العثمانيين ، وطلع كثير من العلماء والتجار للسلام على الوزير في مدينة بلبيس في رمضان فقابلوه وقابلوا والي مصر نصوح باشا وخلع عليهم خلعاً وانصرفوا .

ثم في شهر شوال وقعت حادثة كانت سبباً للنقض ، وذلك أن جماعة من عسكر العثمانيين تشاجروا مع جماعة من عسكر الفرنسيس فقتل بينهم شخص فرنساوي ، فثار من ذلك فتنة ، ثم قتلوا ستة أنفار كانوا سبب الفتنة فسكنت لكن لم تطب نفوس الفرنسيس ، ثم إن الفرنساوية طلبوا ثمانية أيام مهلة زيادة على المهلة السابقة لما قرب تمامها ، فأعطوهم مهلة الثمانية أيام ونصبوا وجاق عسكرهم وخيامهم بساحل البحر متصلاً بأطراف مصر ممتداً إلى شبرا ، وترددوا إلى القلاع ولم يكن بها أحد ، وشرعوا باجتهاد في رد الجبخانة والذخيرة وآلات الحرب والبارود والقلل والمدافع ، واجتهدوا في ذلك ليلاً ونهاراً ، والناس يتعجبون من ذلك ، وأشيع أن الوزير اتفق مع الإنكليز على الإحاطة بالفرنساويين إذا صاروا بظاهر البحر ، وكان الفرنساوية عندما تراسلوا وترددوا إلى جهة العرضي تفرسوا في عرضي العثمانيين وعسكرهم وأوضاعهم وتحققوا حالهم فعلموا ضعفهم عن مقاومتهم ، فلما حصل ما ذكر تأهبوا للمقاومة ونقض الصلح والمحاربة وردوا آلاتهم إلى القلاع ، فلما تمموا أمر ذلك وحصنوا الجهات وأبقوا من أبقوه من عساكرهم خرجوا بأجمعهم إلى ظاهر المدينة جهة قبة النصر ، وانتشروا في تلك النواحي ، ولم يبق منهم بالمدينة إلا من كان بداخل القلاع وأشخاص ببيت الألفي وبعض بيوت الأزبكية ، وغلب على ظن الناس أنهم برزوا للرحيل ، فلما كان اليوم الثالث والعشرون من شوال ركب صاري عسكرهم قبل طلوع الفجر بعساكره ، وصحبتهم المدافع وآلات الحرب ، وقسم عساكره طوابير ، فمنهم من توجه إلى عرضي الوزير ، ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم بالمدافع ، فلم يسعهم إلا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم ، وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلعوا جهة مصر فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين إلى جهة العرضي بعد أن نهبوا ما في عرضي ناصف من المتاع والأغنام وسَمّروا أفواه المدافع التي لنصوح باشا

وناصف باشا وتركوها ، وساروا إلى جهة العرضي ، فلما قاربوه أرسلوا للوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات ، فلم يسعه إلا الارتحال والفرنساوية في إثره ، وعساكره متفرقون ومنتشرون في البلاد والقرى والنواحي لجمع المال وظلم الفقراء .

وأما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال ، فهاجوا ورمحوا إلى أطراف البلد ، وخرج نقيب الأشراف وتبعه كثير من العامة وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدي الكثير منهم النبابيت والعصي والقليل معه السلاح ، وتحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات ، وجعلوا يطوفون بالأزقة ولهم صياح بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق ، ثم خرج الكثير منهم إلى خارج البلد بتلك الصورة ، فلما تضحى النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح ، وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم لجهلهم أيضاً حقيقة الحال ، ثم لم يزل الحال كذلك إلى العصر ، فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد ولهم صياح وخلفهم إبراهيم بك ثم بقية الأمراء ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من العساكر والسيد عمر نقيب الأشراف ، وصار نصوح باشا يقول للعامة : اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم . فعندما سمعوا قوله هاجوا وماجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم ، وساروا إلى حارات النصارى يقتلون ويأسرون وينهبون ، فتحزبت النصارى واحترسوا وجمعوا كل ما قدروا عليه من الفرنساوية والأروام ، فوقع الحرب بين الفريقين ، وصارت النصارى ترمي من طاقات البيوت على المجتمعين بالأزقة من العامة ، والعسكر يحامون على أنفسهم والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون البيوت ويتسورون عليها ، فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة فعالجوها حتى فتحوها ، وأمر الباشا بجر المدافع إلى الأزبكية وضربوا منها على بيت الألفي ، وكان به أشخاص مرابطون من عسكر الفرنساوية فضربوهم أيضاً بالمدافع والبنادق ، واستمر الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار ، فسكن الحرب وباتوا ينادون بالسهر .

وفي هذا اليوم وضع أهل مصر والعسكر متاريس بالأطراف كلها ، وشرعوا في بناء جهات السور واجتهدوا في تحصين البلد بقدر الطاقة ، وبات الناس في هذه الليلة خلف

المتاريس ، فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع ووالوا الضرب ، فأجمع رأي الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد في تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم آلات الحرب وعزة الأقوات ، لأن غالب قوت أهلها يجلب من قراها كل يوم بيوم وربما امتنع وصول ذلك إذا تجسمت الفتنة ، فاتفقوا على الخروج بالليل ، وتسامع الناس بذلك ، فتجهز المعظم للخروج وغصّت الطرق بالازدحام عند الخروج ، وازدحم الناس بالحمير والبغال والخيول والهجن والجمال ، وركب الناس بعضهم بعضاً ، ووقع للناس في هذه الليلة من الكرب والمشقة والخوف ما لا يوصف وأناس من أهل خان الخليلي جاؤوا إلى الجمالية ، وشَنَّعوا على من يريد الخروج ، وأغلقوا باب النصر ، وبات في تلك الليلة معظم الناس على مصاطب الحوانيت وأزقة الحارات ، فلما أصبح يوم السبت تهيأ كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ما عدا الضعيف الذي لا قوة له على الحرب ، وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية ، وسكن الكثير في البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس ، وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثلاثة المتقدمة ، وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التي يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضاً عن القلل للمدافع وصاروا يضربون بها بيت صاري عسكر بالأزبكية ، ثم فرقوا الناس في أطراف البلد والمتاريس للاحتراس ، وكان كل من قبض على نصراني أو يهودي أو فرنساوي ذهب به إلى كتخدا وأخذ البقشيش ، فيحبس البعض ويقتل البعض ، وأحضروا الحدادين لإنشاء مدافع وجعلوا معملاً لعمل البارود والقلل وغير ذلك من المهمات ، واهتموا لذلك اهتماماً زائداً وأنفقوا أموالاً جمة .

وأما الفرنساوية فإنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وبيت الألفي وما والاه ، وأما الوزير فإنه لما ارتحل بالعرضي ووصل إلى الصالحية تكلموا معه في الرجوع فاعتذر بعدم الاستعداد ، ثم ساروا إلى الشام فرجع طائفة من عسكر الفرنساوية الذين كانوا خلف الوزير إلى أصحابهم الذين بمصر نجدة لهم ، فقويت بهم نفوسهم ، ووقف جملة منهم بباب النصر ومنعوا الداخل والخارج ، وذلك كله بعد مُضي ثمانية أيام من ابتداء الحركة ، وقطعوا الجالب إلى البلد وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، فعظم الكرب وأكثروا من الرمي بالمدافع على البيوت من القلاع ، وعدمت الأقوات وارتفعت

الأسعار وهلكت البهائم وتهدمت البيوت وكثر صريخ النساء والصغار ، وفي كل ساعة تهجم الفرنساوية الذين هم خارج البلد على جهة من جهات مصر ويملكون بعض المتاريس ، واستمر الحال إلى عشرة أيام ، فرددوا الرسل للصلح فقال الفرنساوية : لا بد من خروج العثمانية من مصر ونعطيهم ما يحتاجون من المؤونة حتى يصلوا إلى جماعاتهم ، وخرج إليهم الشيخ الشرقاوي والمهدي والسرسي والفيومي وغيرهم وتمموا الصلح على ذلك ، فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه عساكر الإنكشارية العثمانية وسائر الناس قاموا على المشايخ وسبوهم وضربوا الشيخ الشرقاوي والسرسي ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون : هؤلاء المشايخ ارتدّوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين ، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس ، وتكلم السفلة والغوغاء بكثير من الفضول ، فأرسلوا للفرنسيس أن الباشا والعساكر والناس لم يرضوا بالصلح ، ثم جاء مطر شديد وتوحلت جميع السكك فاشتغل الناس بتخفيف المياه والأوحال ، فاغتنم الفرصةَ الفرنسيسُ ، وهجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ، وعملوا فتائل بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية معمولة بالنفط ملوية على أعناقها مشربة بمقطرات تشعل وتقوى لهبها ، وتابعوا رمي المدافع والبنبات من القلاع ، وصاروا يهجمون وأمامهم المدافع وخلفهم البواردية يرمون بالبندق المتتابع وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقائف والحوانيت وشبابيك الدور ، ويزحفون على هذه الصورة شيئاً فشيئاً ، والمسلمون بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وصرخت النساء والصبيان ونَطّوا من الحيطان والنار تأخذهم من كل جهة والأمطار متوالية بالليل والنهار ، ومثل ذلك كان في بولاق بل زيادة عن ذلك ، لأنهم في آخر الأمر قتلوهم وحرقوا بلادهم وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم وذراريهم .

والحاصل أن هذه الفتنة قد شاهد الناس فيها من الهول ما يشيب منه النواصي ، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة ، واحترقت الأبنية والدور والقصور وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالخذلان فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية ، ثم أحاطوا بالبلد واستولوا على الخانات والوكالات والحواصل والبضائع والودائع ، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخاوندات والصبيان والبنات

ومخازن الغلال وما لا تَسَعُهُ السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور .

وكان جماعة من المسلمين في هذه الفتنة يداهنون الفرنسيس وأخذوا منهم أماناً وهم مع المسلمين ، فاطلع المسلمون عليهم فآذوهم وعذبوهم بأنواع العذاب ، وقتلوا بعضهم واتهموا الشيخ البكري بموالاة الفرنسيس وأنه يرسل إليهم الأطعمة ، فهجم عليه طائفة من العسكر وبعض أوباش العامة فنهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة ، وحصلت له إهانة بالغة ، وسمع من العامة كلاماً مؤلماً وشتماً ، فلما مثلوه بين يدي الكتخدا أهاله ذلك واغتم غماً شديداً ووعده بخير وطيب خاطره وأخذه أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره وأكرمهم وكساهم ، وأقاموا عنده حتى انقضت الفتنة .

وكان جماعة من الأمراء والرؤساء يذهبون ويجيئون من الفرنسيس إلى المسلمين ومن المسلمين إليهم يسعون في الصلح بين الفريقين ، واستمر الحال إلى السادس والعشرين من الشهر حتى هلكت الناس وتمنوا دخول الفرنسيس وخروج العثمانيين ، ثم تم الصلح على وقف الحرب وخروج العثمانيين بعد مُهْلة ثلاثة أيام ، ثم خرجوا وارتحلوا وزودهم الفرنسيس وأعطوهم دراهم وجمالاً وغير ذلك ، وخرج أيضاً إبراهيم بك وأمراؤه ومماليكه وخرج معهم بعض الرؤساء منهم نقيب الأشراف والمحروقي رئيس التجار سنة ١٢١٥ ، وأما مراد بك فكان بالصعيد ، وكان قد انعقد بينه وبين الفرنسيس صلح ومهادنة ، وكانت مدة الحرب والحصر بالثلاثة الأيام الهدنة سبعة وثلاثين يوماً وقع فيها من الحروب والكروب وعظائم الأمور ما لا يحيط به إلا الله تعالى ، ودخل الفرنسيس مصر وضبطوها في أوائل ذي الحجة سنة ١٥ ، وأمنوا الناس واستولوا على ما كان اصطنعه العثمانيون وأعدوه من المدافع والقنابل والبارود وآلات الحرب ، وركب المشايخ في عصر ذلك اليوم وذهبوا إلى كبير الفرنسيس ، فلما جلسوا أبرز لهم ورقة مكتوب فيها : النصرة لله الذي يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس ، وبناء على ذلك يريد سر عسكر أن ينعم بالعفو العام على أهل مصر ولو كانوا يخالطون العثمانيين في الحروب ويأمرهم أن يشتغلوا بمعاشهم وصنائعهم ، ثم نبه عليهم بالحضور إلى قبة النصر بكرة تاريخه ، ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والأمان ، فلما كان الغد ذهبوا

إلى قبة النصر وصنع لهم سماطاً عظيماً ضيافة ، وزينت البلاد ثلاثة أيام ، ثم بعد أيام أمرهم بالحضور بدار الأزبكية ، فلما وصلوا جلسوا حصة طويلة في الديوان الخارج ، ثم أدخلوا وجلسوا حصة فخرج إليهم سر عسكر وصحبته ترجمانه وجماعة من أعيانهم فوضع له كرسي في وسط المجلس وجلس عليه ووقف الترجمان فكلمه السر عسكر بكلام طويل بلسانهم فالتفت الترجمان وأخبرهم بما قاله سر عسكر ، وملخص ذلك القول أن سر عسكر يقول : إننا لما حضرنا إلى بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ، ثم إنكم أظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم من غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور ، فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالإحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعي القول مقبولي الشفاعة ، وأوهمتمونا أن الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون ، فلما حضر العثملي فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم وثبت عند ذلك نفاقكم لنا ، فقالوا له : نحن ما قمنا مع العثملي إلا عن أمركم لأنكم عرفتمونا أنكم ونحن في حكم العثملي ، وأن البلاد والأموال صارت له وخصوصاً وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين ، وما شعرنا إلا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ، ووجدنا أنفسنا في وسطهم فلم يمكن التخلف عنهم ، فقال لهم : لأي شيء لم تمنعوا الرعية عما فعلوا من قيامهم ومحاربتهم ؟ فقالوا : لا يمكننا ذلك خصوصاً وقد وثقوا علينا بغيرنا وسمعتم ما فعلوه معنا من ضربنا وإهانتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح ، فقال لهم : وإذا كنتم لا يمكنكم تسكين الفتنة فما فائدة رئاستكم وأي شيء يكون نفعكم وحينئذ لا يأتينا منكم إلا الضرر لأنكم إذا حضر خصومنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا ، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين ، فكان جزاؤكم القتل وحرق البلاد وسبي الحريم والأولاد كما فعلنا بأهل بولاق ، ولكن حيث أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم وإنما نأخذ منكم الأموال ، فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف ألف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها ألف ألف فرانسة عنها خمس عشرة خزنة رومي بثلاث عشرة خزنة مصري ، منها خمسمئة ألف فرانسة على مئتين ، على شيخ السادات خاصة من ذلك خمسمئة وخمسة وثلاثون ألفاً ، وعلى الشيخ الجوسري خمسون ألفاً ، وعلى أخيه الشيخ فتوح خمسون ألفاً ، وعلى الشيخ مصطفى

الصاوي خمسون ألفاً ، وعلى الشيخ العناني مئتان وخمسون ألفاً ، جعلوا ذلك عليه وعلى الفارين مع العثملي مثل السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والمحروقي ، وما بقي من المبلغ المطلوب تقررونه وتوزعونه على أهل البلد وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصاً ، انظروا من يكون منكم عندنا رهينة حتى توفوا ذلك المبلغ ، وقام من كرسيه من فوره ودخل مع أصحابه وأغلق بينه وبينهم الباب .

ووقفت الحرسية على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين ، فبهت الجماعة وامتقعت وجوههم ونظروا إلى بعضهم وتحيرت أفكارهم ولم يخرج عن هذا الأمر إلا البكري والمهدي لكون البكري حصل له ما حصل في صحائفهم والمهدي كان يداهنه وحرق بيته بمرأى منهم ، ولم يكن فيه إلا الحصر لأنه كان قد نقل ما فيه بداره التي في الخرنفش ، ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم ، وتمنى كل واحد منهم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، ولم يزالوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان ، وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون في عرضهم ، فالذي كان معهم ولم يكن معدوداً من الرؤساء أخرجوه فخرجوا مسرعين حتى إن بعضهم ترك مداسه وخرج حافياً وما صدق بخلاص نفسه ، هذا والنصارى والمهدي يتشاورون في تقسيم ذلك وتوزيعه وتدبيره في قوائم حتى وزعوها على أصحاب الحرف وأهل البيع والشراء وجميع الناس حتى القراداتية جعلوا على كل طائفة مبلغاً له صورة مثل ثلاثين ألف فرانسة وأربعين ألفاً ، وجعلوا على أجرة الأملاك والعقار أجرة سنة كاملة ، ثم استأذنوا للمشايخ الخالص منهم الذي ليس عليه شيء يتوجه حيث أرادوا لمشبوك يلازمه جماعة من العسكر حتى يؤدي المطلوب منه ، وأما الصاوي وفتوح والجوهري فحبسوهم ببيت قائم مقام ، والعناني هرب فلم يجدوه وداره أحرقت فأضافوا غرامته على غرامة شيخ السادات ، وانفض المجلس على ذلك ، وركب صاري عسكر من يومه ذلك وذهب إلى الجيزة ، ووكل يعقوب القبطي يفعل بالمسلمين ما يشاء ، ونزل شيخ السادات وركب إلى داره فذهب معه عشرة من العسكر وأركبوه وجلسوا على باب داره ، فلما كان حصته من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان ، ثم تشفع له أناس وكفلوه لينزل إلى داره ويحصل له المطلوب منه ، فتحصل عنده من الدراهم ستة آلاف ريال ، وقاوموا

ما وجدوه من المصاغ والفراوي والملابس فبلغ خمسة عشر ألف ريال ، فكان الجميع واحداً وعشرين ألف ريال ، ثم صاروا يفتشون داره ويحفرون الأرض والخبايا حتى فتحوا الكنيف فلم يجدوا شيئاً ، ثم نقلوه إلى بيت قائم مقام وضربوه وأهانوه وأودعوا زوجته وابنه عند آغا الإنكشارية ، ثم إن المشايخ وهم الشيخ الشرقاوي والأمير والمهدي وغيرهم تشفعوا في نقل الزوجة إلى بيت الفيومي ، ثم وقعت المراجعة والشفاعة في غرامة الشيخ فتوح والصاوي ، فجعلوا على كل واحد خمسة عشر ألف ريال وردوا الباقي على الفردة العامة ، وأما الجوهري فاختفى فلم يجدوه فنهبوا داره .

ثم وكلوا بالفردة العامة يعقوب القبطي ، وأعطوه عسكراً لتحصيلها ، ودهى الناس بهذه المنازلة التي لا يصابون بمثلها ، وفرغت الدراهم من عند الناس ، وباعوا أمتعتهم وجميع ما عندهم ، ولم يجدوا من يشتري الأثاث والفرش والملبوس بأبخس الأثمان ، ودفعوا لهم أيضاً جميع ما يملكون من البغال والخيل والحمير ومنعوا المسلمين من ركوبها سوى خمسة أنفار ، وهم الشرقاوي والمهدي والأمير والفيومي وابن محرم ، وتطاولت النصارى من الشوام والقبط على المسلمين بالضرب والسب ، وفي كل وقت يشتد الطلب ، وتلبث المعينون والعسكر في طلب الناس ، وهَجْم الدور ، وجَرْجَرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبَهْدَلَتِهم وحبسهم وضربهم ، والذي لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره ، فإن لم يجدوا شيئاً ردوا غرامته على أبناء جنسه ، وأهل حرفته ، ونالوا من الناس أغراضهم ، وأظهروا حقدهم وصاروا يصرخون بانقضاء ملة الإسلام وأيام الموحدين ، هذا والكتبة والمهندسون والبناؤون يطوفون ويحررون أجرة الأملاك والعقارات والوكائل والحمامات ، ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها ، وخرج كثير من الناس من المدينة وأُجْلُوا عنها وهربوا إلى القرى والأرياف ، واستمرت الحوانيت مُقْفَلة والعقول مخبولة والمصائب عميقة والأمر عظيم والخطب جسيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود : ١٠٢] .

واستمر شيخ السادات محبوساً إلى غاية شهر صفر من سنة خمس عشرة فأفرجوا عنه ، ونزل إلى بيته بعد أن أغلق الذي عليه ، واستولوا على حصصه وأقطاعه وقطعوا مرتباته ، وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه ، وشرطوا عليه

عدم الاجتماع بالناس ، وألّا يركب بدون إذن منهم ويقتصد في أموره ومعاشه ويقلل أتباعه .

وفي شهر ربيع الأول من السنة المذكورة نادوا على الناس الفارين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوماً من وقت المناداة نهبت داره وأحيل بوجوده وكان من المذنبين ، واشتد الأمر بالناس وضاقت منافسهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ، ونزل بالمسلمين الذل والهوان ، وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد والأقباط والشوام والأروام حتى صاروا يأمرونهم بالقيام لهم عند مرورهم ، ثم شددوا في ذلك حتى كانوا إذا مر بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم إليه بعض الناس على أقدامه رجعت إليه الأعوان وقبضوا عليه وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة وضربوه ، واستمر عدة أيام في الحبس ، ثم يطلق بشفاعة بعض الأعيان ، وأما الأموال المطلوبة فأخذوها وما بقي شيء للناس إلا واستولوا عليه ، وما بقي جعلوه على الأطيان والفدادين ومشايخ القرى والبلدان ، وتفصيل ذلك كله طويل ، ولم يزل الناس معهم في شدة وكرب إلى أن قضى الله ما قدره وأذن بخروجهم وانقضاء دولتهم .

ذكر خروج الفرنسيس من مصر

في أواخر شوال سنة خمس عشرة برز الأمر من مولانا السلطان سليم بالتجهيز إلى مصر براً وبحراً ، أما العساكر التي من البر فهي بمعية يوسف باشا ، وأما البحر فتعهدت به الإنكليز ، ثم في أوائل ذي القعدة ورد جماعة من الإنكليز بمراكب إلى ثغر الإسكندرية وطلع جماعة منهم إلى البر وتحاربوا مع أمير الإسكندرية ومن معه من الفرنسيس ، ثم في أول ذي القعدة جاءت الأخبار إلى الفرنسيس بمصر بأن يوسف باشا وعساكره وصلوا إلى العريش ، فجمعوا المشايخ والأعيان بمصر وقالوا لهم إنه يحب المسلمين ويميل إليهم بالطبع وخصوصاً العلماء أهل الفضائل ، ويفرح لفرحهم ويغتم لغمهم ، ولا يحب لهم إلا الخير ، ولكن سياسة الأحكام تقتضي بعض الأمور المخالفة للمزاج ، والآن بلغنا أن يوسف باشا وعساكر العثمانية تحركوا إلى هذا الطرف فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان ، وذلك من قوانين الحرب عندنا بل عندكم ، ولا يكون عندكم تكدير ولا هم بسبب

ذلك ، فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم ، ثم انفض المجلس على تعويق أربعة أشخاص من المشايخ ، وهم : الشيخ الشرقاوي والشيخ المهدي والشيخ الصاوي والشيخ الفيومي ، فأصعدوهم إلى القلعة في الساعة الرابعة من الليل مكرمين ، وكان هؤلاء الأربعة من أهل الديوان المرتب في مصر لفصل القضايا ، وكان معهم في الديوان الشيخ الأمير والبكري والشربيني ، فأبقوهم في الديوان على حالهم السابق ، ثم وقع حرب أيضاً بالإسكندرية في البر بين الإنكليز والفرنسيس في الرابع عشر من ذي القعدة وكانت الهزيمة على الفرنسيس وقتل منهم كثير وانحازوا إلى داخل الإسكندرية ، وأرسل الفرنسيس من كشف عن متاريس الإنكليز فوجدوها في غاية الوضع والإتقان ، ثم وقع قتال آخر فقتل فيه من الفرنسيس خمسة عشر ألفاً ، ثم طلبوا عساكر من مصر نجدة لهم ، فأطلق الإنكليز حبوس المياه المالحة حتى أغرقت طرق الإسكندرية وصارت جميعاً لجة ماء ، ولم يبق لهم طريق مسلوك إلا من جهة العجمي إلى البرية ، وتترس الإنكليز قبالهم من جهة الباب الغربي ، ووقع في مصر في هذه السنة طاعون مات فيه خلق كثير ، منهم مراد بك مات في الصعيد رابع ذي الحجة من السنة المذكورة ، وكان قد اصطلح مع الفرنسيس وأعطوه إمارة الصعيد ، وهو من مماليك محمد بك أبي الذهب ، ومحمد بك مملوك علي بك ، وعلي بك مملوك إبراهيم بك كتخدا اشترى مراد بك سنة ١١٨٢ ثم أعتقه وترقى عنده وأكرمه وأنعم عليه بالإقطاعات الجليلة وقدمه على أقرانه ، ولما انفرد سيده محمد بك بإمارة مصر كان مراد بك وإبراهيم بك أكبر الأمراء المشار إليهما دون غيرهما ، واتسعت لهما الأموال والأملاك والضياع ، ثم لما مات محمد بك سنة ١١٨٢ صارت الرئاسة في ملك مصر لهما ، ولكن كان إبراهيم بك مقدماً وكان مراد بك منعكفاً على اللذات والملاهي ، وكان لكل منهما مماليك وهم الصناجق والأمراء ، وكانت وفاة إبراهيم بك بدنقلة سنة إحدى وثلاثين ومئتين وألف .

ذكر ما كان من استعداد الفرنسيس

في خامس المحرم من سنة ست عشرة ومئتين وألف أكثروا من نقل الماء والدقيق والأقوات إلى القلعة بمصر ، وكذلك البارود والكبريت والقلل والقنابل والبنب ، ونقلوا الأسوار والبيوت من الفرش والأمتعة والأسرّة إلى القلعة ، ولم يبقوا بالقلاع

الصغار الأمهات الحرب وطلبوا الزياتين وألزموهم بمئتي قنطار زيت ، وسمروا جملة من حوانيتهم لتحصيل ذلك ، واجتهدوا في وضع متاريس خارج البلد ، وحفروا خنادق وطلبوا الفعلة للعمل فكانوا يقبضون على كل من وجدوه ويسوقونه للعمل ، وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب ببحر إنبابة لتمنع المراكب من العبور ، وهدموا جانباً من الجيزة من الجهة البحرية ، وبلغهم أن عساكر الإنكليز القادمة من البر الغربي قريب ووصلت ترعة الفرعونية ، وأن العساكر الشرقية وصلت إلى بنها ، وأن طائفة من الإنكليز في جهة الإسكندرية ، وأن الحرب قائم بها ، وأن الفرنساوية محاصرون بداخل الإسكندرية ويحاربهم الإنكليز ومن معه من العثمانيين من الخارج ، وأن جماعة من الإنكليز قعدوا في الأماكن التي يمكن الفرنسيس النفوذ إليها ، وقطعوا عليهم الطرق من كل ناحية ، وأطلقوا المحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح منه إلىٰ الجسر المقطوع حتى سالت المياه وردمت الأراضي المحيطة بالإسكندرية ، وخرج عن طاعة الفرنسيس الأمراء الذين بالصعيد وردوا مكاتبهم التي أرسلوها لهم بعد مراد بك ، وحضرت لهم الأخبار المتواترة بوصول القادمين من الإنكليز والعثمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون ، وجاءتهم الأخبار أيضاً بأنهم تملكوا رشيد ودمياط .

وفي العشرين من المحرم يوم الاثنين جاءتهم الأخبار بأن الوزير وصل دجوة ، فطلبوا مشايخ الديوان عند قائم مقام ، فقال لهم : إن الخصم قد قرب منا ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيس ، وأن تنصحوا أهل البلد والرعية أن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوئهم ولا يتداخلوا في الشر والشغب ، فإن الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد الواجب على الوالد نُصْح ولده وتأديبه على الطريق المستقيم ، حتى يكون فيه الخير والصلاح ، فإنهم إن داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر ، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم وسبيت نساؤهم وتيتمت أولادهم وألزموا بالأموال والفردة التي لا طاقة لهم بها ، فقد رأيتم ما حصل في الوقائع السابقة ، فاحذروا من ذلك فإنكم لا تدرون العاقبة ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا ، وإنما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير ، فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقرأ عليهم ورقة بمعنى ذلك ، وأمروا

بالمناداة على الناس بذلك وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة فلا ينزعجوا من ذلك فإنه شنك وعيد لبعض أكابرهم ، وأمروا أن يجتمع بالديوان في الغد الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك ، فكان كذلك .

وفي غاية شهر محرم جاءتهم الأخبار بأن الوزير وصل إلى الشلقان وكذلك عساكر الإنكليز ، فجمعوا المشايخ بالديوان وأعلموهم أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فيلزم اعتقادكم ذلك وأركزوه في أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى ، ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم ، فإنهم لا يخرج من أيديهم شيء أبداً ، وهؤلاء الإنكليز ناس خوارج حرامية ، وصناعتهم إلقاء العداوة والفتن والعثمانلي مُغْتَرٌّ بهم ، فإن الفرنساوية كانت من الأحباب الخُلَّص للعثمانلي فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور ، وأن بلادهم ضيقة وجزيرتهم ضيقة ، ولو كان بينه وبين الفرنساوية طريق مسلوكة من البر لَا نُمحى أثرهم وانمحى ذكرهم من مكان مديد وتأملوا في شنهم وأي شيء خرج من أيديهم ، فإن لهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن ، لم يصلوا إلينا والفرنسيس عند قدومهم وصلوا في ثمانية عشر يوماً ، فلو كان فيهم همة أو شجاعة لوصلوا مثل وصولنا ، وكلام كثير من هذا النمط .

وفي ثالث صفر وصلت عساكر العثمانيين وانتصبوا إلى العادلية في الجهة الشرقية وإلى إنبابة في الجهة الغربية ، وجرى القتال بينهم وبين الفرنسيس ، وكان النصر لعسكر السلطنة العلية ، ثم انعقد الصلح على خروج الفرنسيس من مصر وتسليمها للدولة العلية ، فتجهزوا وخرجوا آمنين في أواخر صفر ، ولما انعقد الصلح أطلقوا المشايخ الذين كانوا بالقلعة رهائن وهم الشيخ الشرقاوي والمهدي والصاوي والفيومي ، وكانت مدة حبسهم في القلعة نحو مئة يوم ، وسافرت عساكر الفرنسيس على رشيد وأبي قير ، ودخل الوزير يوسف باشا مصر في التاسع والعشرين من شهر صفر بموكب حافل ، وكانت مدة تملك الفرنسيس لمصر ثلاث سنين وشهراً .

قال الشيخ الشرقاوي في تاريخه : وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى كاثوليكية ، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ويقولون إن الله واحد ، ولكن يقولون بالتعليل ويحكمون

العقل ويجمعون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ويضعونها بعقولهم ، ويسمونها شرائع ، ويزعمون أن الرسل محمد وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم هي قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ، ولذا جعلوا في مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، وكان في ذلك رحمة الله تعالى بأهل مصر فإنهم جعلوا من جملة ذلك ديواناً فيه جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع ، والسبب الذي أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم وعجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال ، وأنهم عند قدومهم كتبوا كتباً وفرقوها في البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث ، وأنهم يعظمون محمداً ويحترمون القرآن ، وأنهم يحبون العثملي ولم يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ، ولا يتعرضون للرعايا في شيء ، لكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة على البيوت ، وقتل منهم ما يقرب من الألف ، وهتكوا بعض الأعراض في مصر وقراها فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها ، وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً ، ودخلوا بجيوشهم الجامع الأزهر ، ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية ، وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه أموالاً كثيرة ، وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا تدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التي حول الجامع ، ونشروا الكتب التي في الخزائن يعتقدون أن بها أموالاً ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً ومصاحف نفيسة ، وكان خروجهم بهمة مولانا سلطان سلاطين أهل الأرض مولانا السلطان سليم خان لا زال محفوفاً برعاية الحنان المنان وبتدبير وزيره الأعظم ، وكان مكث بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية في مصر سبعة أشهر ، ثم ذهب لقتال أحمد باشا الجزار بعكا ، ثم توجه إلى بلاد الفرنسيس ، وجعل له نائباً منهم بمصر ، ولما وصل بونابرته إلى الفرنسيس ويقال له نابليون استعانوا به في إصلاح خلل كان حاصلاً ، ثم ساق جيوشاً لمحاربة إيطالية والنمسة وانتصر عليهم .

وفي سنة ١٢١٩ أقاموه إمبراطوراً على فرنسة كافة وشن الغارات على دول أوروبة

وحارب الروسية والنمسة والإنكليز والبروسية ، ووقائعه طويلة أفردت بالتأليف ، ثم تجمعت جميع ملوك أوروبة واتفقوا على حرب فرنسة ، فأصاب فرنسة من ذلك شدائد عظيمة ، وسئموا من كثرة الحرب ، فاتفقوا على خلع بونابرته ، ودعوا الوزير الثامن عشر ليملكوه عليهم ، فلما علم ذلك بونابرته استعفى وذلك سنة ١٢٣٠ ، فملكوا الوزير الثامن عشر ، وأعطوا بونابرته جزيرة الألب ليملك عليها ، ثم بعد سنة أتى باريس فهرب الوزير الثامن عشر وعاد إلى إنكلترة ، فنهضت الدول لمحاربة بونابرته وإعادة الوزير إلى ملك فرنسة ، وجرت أمور يطول ذكرها ، وآخر الأمر تنازل عن الملك إلى ابنه فلم تقبل الدول المتحدة أن يتبوأ الملك أحد من سلالته ، فذهب بونابرته إلى رشغورت وطلب من حكومة الإنكليز أن تقبله ضيفاً في بلاده فأجابته أولاً إلى ذلك فركب إلى أحد الموانىء الإنكليزية ، وقبل أن ينزل إلى البر ، أرسلت إليه الحكومة الإنكليزية تخبره أنه أسير الدول المتحدة ، ثم شيعوه إلى جزيرة هيلانة فبقي أسيراً إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين ومئتين وألف ، وعمره أربعة وخمسون سنة ، ولنرجع إلى إتمام الكلام على ما كان في بقية زمن السلطان سليم .

ذكر خلع السلطان سليم

سبب ذلك أن السلطان سليماً كان يرغب أن يلاشي وجاق الإنكشارية ويقيم مكانه عسكراً جديداً على الطريقة الأفرنكية ، لأن الإنكشارية كانوا قد زعزعوا أركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم ، وكان قد نظم في العام الماضي بعض الفرق من النظام الجديد ، فهاج الإنكشارية من ذلك وأثاروا في القسطنطينية شغباً عظيماً يطول الكلام بذكره ، واعتصبوا عصبة واحدة ، وكان موافقاً لهم على منع النظام الجديد عطاء الله أفندي شيخ الإسلام وقائمقام صدر أعظم ، فقوي أمرهم به وقال لهم : إنه لا يجوز أن تكون عساكر الإسلام متشبهة بالكفار ، وحيث أحدثوا النظام الجديد كانوا متشبهين بالكفار ، فقويت هذه الحجة في صدورهم ، وقالوا سيروا بنا لنلاشي النظام الجديد وننتقم من الوزراء الذين أفسدوا طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة ، وتحالفوا على ملاشاة وجاقات العساكر الإنكشارية الذين هم أعمدة مملكة الدولة العلية ، وبعد هذا الحادث أخرجوا ورقة فيها أسماء بعض أشخاص من رجال الدولة يريدون قتلهم أرسلها إليهم المفتي عطاء الله أفندي ، فأخذوا يتلونها ويسمعون الأشخاص الذين يريدون قتلهم ، ثم ساروا يفتشون عن أولئك الأشخاص فوجدوا بعضاً منهم فقتلوهم ، واختفى كثير من أولئك الأشخاص في بيوت النصارى واليهود ، وقتلوا خلقاً كثيراً وأحضروا ١٧ رأساً من أعظم رجال الدولة ، وظل الدم جارياً في القسطنطينية ٣ أيام ، ثم صمموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه ليخلعوه وصاروا يقولون : يا أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم نسيت أنك أمير المؤمنين وعوضاً عن اتكالك على الله القادر العظيم الذي يبدد بدقيقة واحدة الجيوش الكثيرة العدد وأردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله ، فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحامياً عن الدين ؟! فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لهم ثقة بك ، والمملكة أضحت مضطربة فيجب عليك أن تلاحظ وتفضل على كل شيء شرف الإيمان وسلامة الإسلام .

وبعد كلام كثير صارت قراءة الفتوى التي مضمونها أن السلطان الذي يخالف القرآن الشريف هل يترك على تخت السلطنة ؟ الجواب كلا ، ثم قال القارىء : قد صار

معلوماً عندكم أنه تحتم عزل السلطان فما قولكم الآن ، هل تسلمون له أن يفعل ما يخل بالإسلام ؟ فصرخت العساكر كلاّ ثم كلاّ لا نقبله سلطاناً علينا فليعزل ، وصرحوا باسم السلطان مصطفى بن السلطان عبد الحميد وقالوا : ليعش السلطان مصطفى ، وأرسلوا المفتي للسلطان سليم ليتنازل عن السلطنة من دون مقاومة ، فدخل عليه متذللاً منخفض الرأس قائلاً : يا مولانا إني قد حضرت بين يديك برسالة محزنة أرجوك قبولها لتسكين الهيجان ، وليس خافياً على مسامعكم الشريفة بأن العساكر الإنكشارية قد نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطاناً عليهم ، فالآن لا سبيل إلى المقاومة فالتسليم لأمر الله أوفق من كل شيء ، فلم تظهر على السلطان سليم كآبة من هذا الحديث وقَبِل كلام المفتي ونزل عن السلطنة ، وكان ذلك في ٢١ من ربيع الأول سنة ١٢٢٢ ، فمدة سلطنة السلطان سليم ثماني عشرة سنة وثمانية أشهر ، وإذْ كان ذاهباً يختلي في مكان منفرد عن السرايا التقى بالسلطان مصطفى قادماً ليجلس مكانه على تخت السلطنة ، فقال له : يا أخي أهبطني الله من العرش العتيد لأن تجلس عليه أنت لأنني أردت وضع تنظيمات لتقوية المملكة والدين وصلاح حال العسكر الذين جهلوا تعاليمهم وتركوا قوانينهم ، فهاجت عليَّ العساكر مع بعض رجال الدولة وأرسلوا يطلبون مني التنازل عن تخت السلطنة ونادوا باسمك وها أنا ذا ماضٍ بكل رضاً أعيش منفرداً ، وأما أنت فإنك سعيد أكثر مني فأرغب إليك أن تسلك معهم بالحكمة اللازمة الحسنى ، فلم يصغِ السلطان مصطفى لكلام السلطان سليم وأراد السلطان سليم أن يعانقه فلم يمكّنه من معانقته ، فلما وصل السلطان سليم إلى المكان الذي يريدون وضعه فيه وجد السلطان محموداً أخا السلطان مصطفى ماكثاً في ذلك الموضع عليه آثار الرقة والنباهة ، وعندما شاهد السلطان سليماً التقاه فقبل يده ذارفاً دموعاً غزيرة ، فحرك السلطان سليماً إلى البكاء وجلسا في ذلك الموضع ، وطالما كانا يتحدثان دائماً بالأمور المشيدة أركان الدولة والدين ، هذا ما كان من أمر السلطان سليم والسلطان محمود .

ذكر ولاية السلطان مصطفى بن عبد الحميد

وأما السلطان مصطفى فإنه بوصوله إلى أمام أولئك العسكر فرحوا به فرحاً عظيماً وأجلسوه على تخت السلطنة ، وبسبب هذه الحادثة العظمى والفتنة الظلماء حصل الخوف لجميع أهل القسطنطينية وقفلت الحوانيت ووقع الرعب في قلوب الجميع ، ثم أطلقت المدافع علامة على جلوس السلطان مصطفى ونودي في المنابر باسمه ، وتقدم المفتي شيخ الإسلام وقائمقام موسى باشا إلى الجموع التي كانت مجتمعة في فسحة آت ميداني وأخبروهم أن السلطان مصطفى قد وعد بإبطال ما كان مهتماً به السلطان سليم من موضع النظام الجديد وبإرجاع العوائد القديمة ، فلما سمع الجميع هذا الحديث تفرقوا ، وبعد أن جلس السلطان مصطفى على تخت السلطنة سلم زمام الأحكام بيد القائمقام كوسج موسى باشا وإلى المفتي شيخ الإسلام عطاء الله أفندي ، ولما بلغت هذه الأخبار الصدر الأعظم جلبي مصطفى باشا ، وكان رئيس الجيوش التي خرجت لقتال الروسية كما تقدم ، حزن لذلك وغضب غضباً شديداً هو ومن معه من العساكر ، وكان من جملتهم مصطفى باشا البيرقدار ، فعقدوا صلحاً مع الروسية ورجعوا بالعساكر ليتداركوا هذا الأمر وأرسلوا للعساكر الإنكشارية الذين بالقسطنطينية يقولون لهم إنهم قادمون لنجدتهم وإتمام رغبتهم ليطمئنوا بذلك ، وما دخلوا القسطنطينية إلا بعد مشاق ، وأراد البيرقدار مصطفى باشا إرجاع السلطان سليم والقبض على السلطان مصطفى ، وطلب من الصدر الأعظم المساعدة على ذلك ، فأنكر عليه ذلك مبيناً سوء عواقب الأمور ، فغضب البيرقدار غضباً شديداً وأمر بحبسه ، وبلغ الخبر السلطان مصطفى فأرسل أناساً يقتلون السلطان سليماً فدخلوا عليه وهو يصلي صلاة العصر فلم يمهلوه إلى أن يتم الصلاة بل وثبوا عليه وطرحوه إلى الأرض ، فنهض حالاً عليهم كالأسد وصرعهم وكان قوياً جداً ، ثم تغلبوا عليه وخنقوه حتى مات ، ورجعوا به إلى السلطان مصطفى مسرعين وطرحوه ميتاً أمامه ، وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين ومئتين وألف ، وعمر السلطان سليم ثمان وأربعون سنة ، ثم أرسل أناساً وأمرهم بخنق أخيه السلطان محمود ، وكان البيرقدار هجم بجماعة مسرعين لإنقاذ السلطان سليم فوجدوه

قد مات فاهتموا بأمر السلطان محمود ، وقال لهم البيرقدار : عليكم بنجاة السلطان محمود لأنه هو الوارث الوحيد لتخت السلطنة الباقي من سلالة آل عثمان ، فأخذت العساكر تطلب السلطان مصطفى وتبحث عن السلطان محمود ، لأن السلطان محموداً لما جاءه جنود السلطان مصطفى الذين يريدون قتله أراد الفرار فرشقه أحدهم بخنجر أصاب يده فهرب وصعد على سطوح السرايا ، فلما نظرته جماعة البيرقدار وضعوا له سلماً فنزل إلى صحن الدار حيث كان البيرقدار وعندما نظر إليه البيرقدار فرح فرحاً عظيماً وحمد الله تعالى على خلاصه من أخيه وصار يقبّل قدميه .

ذكر ولاية السلطان محمود بن عبد الحميد

ثم دخل به القاعة وأجلسه على تخت السلطنة وأرسل جنداً قبضوا على السلطان مصطفى وأمر بحبسه ، فلما تم جلوس السلطان محمود جعل مصطفى باشا البيرقدار صدراً أعظم وسلمه زمام الأحكام ، فأخذ يجتهد في أخذ الثأر من الذين قتلوا السلطان سليماً ، ثم شرع في تنظيم العسكر الجديد وطلب اجتماع أهل الحل والعقد من رجال الدولة ، فلما حضروا أخذ يبين لهم شدة الاضطرار لتعليم العساكر صناعة الحرب وإنفاذ أوامر السلطان طالباً رأيهم في ذلك ، فصادقوه مذعنين لأمر السلطان وتعهدوا بالمساعدة في كل ما يؤول لنجاح المملكة ، وفي الحال أخذ الصدر الأعظم في وَضْع ترتيبات جديدة أوجبت الملام عليه من كثيرين وأضمروا له السوء وصاروا يطعنون فيه جهاراً ويدعونه بالكافر ، وعلقوا أوراقاً في الأسواق وعلى باب داره مكتوباً فيها : قد قرب موت الصدر الأعظم ، وساروا بأسلحتهم يطلبون قتل العساكر الذين تعلموا التعليم الجديد ، فأخذوهم بغتة وشتتوهم وأحاطوا بمنزله وطرحوا فيه النار ، ووقعت أمور يطول الكلام بذكرها ، وانقسم الناس فريقين فريقاً يريد التعليم الجديد وفريقاً يكرهه ، وقتل بسبب هذه الفتنة خلق كثير ، وأحرقت دور كثيرة ، وحاصروا الصدر الأعظم في الدار التي كان فيها وأطلق عليهم الرصاص كثيراً منهم ، ثم ثار عليه صناديق بارود وكانت في داره فمات بسبب ذلك ، وكان قد أخرج جواريه ونساءه من الدار قبل ذلك ، فأحيلت الصدارة على يوسف باشا ، وكان ذلك في سنة ثلاث وعشرين ومئتين وألف ، وعزل شيخ الإسلام عطاء الله أفندي وأحيلت المشيخة على عرب زاده محمد عارف أفندي ، وكتب السلطان مصطفى وهو محبوس كتاباً لعساكر الإنكشارية يحرضهم على الغيرة وإرجاعه إلى السلطنة ، فوقع ذلك الكتاب في يد بعض العلماء ، فذهب إلى شيخ الإسلام فجمع كثيراً من العلماء وأخذوا يتحدثون في عواقب هذه الأمور ويتشاورون في إطفاء هذه الفتنة وأرادوا أنه إذا بقي السلطان مصطفى في قيد الحياة لا تنطفىء الفتنة ، فاختاروا رجلاً من بينهم يقال له منيب أفندي كان قاضي إسلامبول ليعرض على السلطان محمود رأي العلماء ويلتمس منه قتل السلطان مصطفى ، فسار منيب أفندي إلى السلطان محمود وعرض

عليه ذلك ، فأجابه السلطان محمود أن هذا أمر محال وكيف يتصور أن يصدر أمري بقتل أخي مع كوني قادراً على منعه من هذه الأعمال ؟ وصار بينه وبين السلطان محمود محاورة كثيرة في ذلك ، وقال له منيب أفندي في غضون تلك المحاورة : قد جاء في الحديث الشريف : « إذا اجتمع خليفتان فاقتلوا أحدهما » .

فَشَقَّ ذلك على السلطان محمود وحوّل وجهه إلى شباك هناك ولم يجبه بشيء لشدة أسفه على أخيه ، فقال منيب أفندي : إن السكوت إقرار ، ففي الحال أرسل منيب أفندي إلى كبير البستانجية وقال : إن مولانا السلطان قد صدر أمره الشريف بقتل أخيه السلطان مصطفى فاذهب وأتم أمره ، فذهب البستانجي باشا ومعه جماعة من أعوانه إلى الموضع الذي كان فيه السلطان مصطفى فأحس بهم السلطان مصطفى وعرف مقصدهم فاختبأ بين فرش كانت هناك فدخلوا فلم يجدوه ، ورأوا أمام تلك الفرش خُفَّيْهِ فقلبوا تلك الفرش إلى الأرض فوجدوا السلطان مصطفى تخبأ فيه فقتلوه خنقاً .

وكان العلماء الذين اجتمعوا عند شيخ الإسلام وأرسلوا منيب أفندي للسلطان محمود ينتظرون رجوعه إليهم بالجواب ، فلما أبطأ عليهم ظنوا أن السلطان محموداً لم يقبل ما رأوه ، فتوجهوا جميعاً للسلطان محمود تقوية لمنيب أفندي وتصديقاً له فدخلوا على السلطان محمود يلتمسون منه تمام ما عرضه عليه منيب أفندي ، فاتفق أنهم حين دخولهم قبل أن يبتدئوا بالحديث نظر السلطان محمود من الشباك فرأى إخراج جثة أخيه ميتاً ، فتألم من ذلك جداً والتفت إليهم وعيناه ممتلئتان بالدموع ، وقال لهم : أسرعوا واهتموا بتكثير الجيوش وإحضار المهمات وإرسال العساكر لأنني أنا اليوم بحزن عظيم على موت أخي ، فحينئذ علم العلماء موت السلطان مصطفى فتوقفوا عما كانوا يريدون عرضه عليه وأخذوا يدعون له بطول العمر ويُعَزّونه ويُسَلُّونه على فَقْد أخيه ، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومئتين وألف ، فمدة سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة وشهران ، وعمره ثلاثون سنة .

ولما استقرت السلطنة للسلطان محمود كانت أمور الدولة في غاية الارتباك والاضطراب ، فمن ذلك أن عساكر الروسية كانت تتقدم إلى جهة الطونة مسرعة ، فبعث السلطان جيشاً عظيماً لمصادمتهم فلم يقدر أن يوقف سيرهم ، فطلبت دولة فرنسة أن تتوسط في الصلح فرفض السلطان محمود مداخلتها لأنه تأثر جداً من الشروط السرية

التي عقدها نابليون ملك فرنسة مع إسكندر ملك الروسية في نيليست التي من شأنها اقتسام دول أوروبة فيما بينهم حتى بلاد الدولة العلية ، واستمر في مقاومة الروسية ومحاربتهم ، ولكن كانت الغلبة لهم ، فاستولوا على مدينة شملة وقلعة إسماعيل وعلى عدة مراكز حسنة ، وضايقوا العساكر العثمانية أشد مضايقة ، وبينما كانت المصائب محيطة بالدولة وإذا بطالع سعيد بزغ في أفقها ، وذلك أن نابليون الأول ملك فرنسة أشهر الحرب على الروسية سنة ألف ومئتين وثمان وعشرين ، وسار إليها بجيوشه الجرارة ، فألزم ذلك الروسية أن تخرج جيوشها من حدود الدولة العلية ، وعقدت صلحاً مع الباب العالي موافقاً جداً للدولة العثمانية ، فاغتنم السلطان فرصة هذا الصلح لتسكين الثورات في ولايتي بغداد وأيدين وغيرهما ، فإنه في سنة ألف ومئتين وست وعشرين أظهر سليمان باشا والي بغداد العصيان ، فأرسل إليه السلطان محمود من قتله .

ذكر حرب المورة

في سنة ألف ومئتين وسبع وثلاثين تحرك اليونان في المورة وجاهروا بالعصيان على الدولة ، وكانوا يهجمون بمراكبهم على سواحل البحر فيقتلون ويسلبون ويرمون الفتن في جميع الأطراف ، فشقّ ذلك على الدولة العلية ، وأرسلت العساكر لردعهم وإدخالهم في الطاعة ، فشبت الحرب بينهما وقامت على ساق وقدم ، وبعث الباب العالي محمد علي باشا والي ولاية مصر يأمره أن يرسل جيشاً لمحاربتهم ، فأرسل ولده إبراهيم باشا المشهور بخمسة وعشرين ألف مقاتل مع عمارة بحرية ، ولما وصل إلى المورة انضم بجيشه إلى جيش الدولة العثمانية ودارت نيران الحرب ، ولما أيس الأروام من النجاة ونوال الاستقلال استنجدوا بالدول الأوروبية ، فبادرت دولتا فرنسة وإنكلترة إلى التوسط في الأمر والسعي بالصلح ، فلم يجب السلطان محمود سؤالهما ، فانضمت إليهما العمارة الروسية ، وبعثوا إلى إبراهيم باشا أن يوقف الحرب فأجاب أنه لا يقدر على ذلك إلا بأمر من السلطان ، فعند ذلك أطلقوا النار على عمارتي الدولة ومحمد علي باشا فأحرقوهما ، وكان ذلك سنة ألف ومئتين وإحدى وأربعين ، ولما بلغ الخبر السلطان محموداً اضطر إلى إجابة سؤال الدول المتحدة وأمضى الصلح بشروط مخصوصة فيها إبطال الحرب واستقلال الأروام .

ذكر قتل العساكر الإنكشارية

وفي سنة إحدى وأربعين أيضاً شرع السلطان محمود في تعليم بعض العساكر التعليم الجديد ، وشرع في تدبير الأمر في تدمير الإنكشارية وإبطال وجاقهم ، فأبرز أمراً سلطانياً يتضمن القدح في وجاق الإنكشارية وبيان الخلل الواقع منهم وتقلبهم على الدولة وقتلهم بعض السلاطين ، وأمر سليم باشا الصدر الأعظم أن يجمع العلماء في بيت شيخ الإسلام ويتلو عليهم الأمر الشاهاني ، ففعل ذلك فأجابوا بالامتثال بما يصدر به الأمر السلطاني وتعهدوا بإنفاذه ، وكان مع الحاضرين جماعة يميلون إلى الإنكشارية فتعصبوا لهم سراً وأخبروهم بما صار عليه الاتفاق ، فهجموا على بيت الصدر الأعظم وبعض العظماء من رجال الدولة وأخذوا ينادون في شوارع إسلامبول ويقولون : اليوم قتل العلماء ورجال الدولة وكل من كان السبب في وضع النظام الجديد ، ويقتلون كل من صادفوه منهم وينهبون البيوت ويطرحون فيها النار ، ففر الصدر الأعظم منهم وجاء إلى السلطان محمود وأخبره بتلك الحوادث ، فأمره أن يجمع الطوبجية وسائر أهل الإسلام أمام باب السرايا ، فاجتمع في ذلك النهار جم غفير من العلماء ورجال الدولة ينتظرون خروج السلطان إليهم ، فلما خرج إليهم أخذ يحدثهم بكلام يهيج به نخوتهم ، فأقسموا جميعهم على أنهم يريقون دماءهم في صيانة أوامره وتنفيذها والتمسوا منه إخراج الصنجق الشريف النبوي ليهجموا على العصاة ، فأراد السلطان أن يكون معهم فتوسلوا إليه ألّا يتنازل إلى ذلك ، وأرسلوا ينادون في شوارع المدينة ويدعون أهل الإسلام للاجتماع تحت الصنجق الشريف ، فلما علم بعض الإنكشارية بذلك أرسلوا أناساً من جماعتهم ينادون لاجتماع الإنكشارية ، فلما قرعت أصوات المنادين آذان أهل الإسلام وأسرعوا إلى فسحة السرايا أفواجاً أفواجاً ففرقوا عليهم السلاح ، وسَلَّم السلطان الصنجق الشريف لشيخ الإسلام قاضي زاده طاهر أفندي ، وعاد إلى كرسيه الملوكي ، وكان يشرف على الجميع أمام السرايا ، وسار سليم باشا الصدر الأعظم أمام تلك الجموع التي كانت أكثر من خمسين ألفاً وشنوا الغارة على الإنكشارية صارخين الله أكبر على الأشقياء ، وهجموا عليهم وأطلقوا المدافع والرصاص ، وكان يوماً مهولاً عظيماً ، فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف والباقون فروا إلى قشلهم وتحصنوا فيها ، فهجم

عليهم العساكر والأهالي ، وطرحوا فيها النار فاحترق كثير منهم ومن بقي وَلّوا الأدبار ، ثم قبضوا على كثير منهم فقتلوهم وطرحوهم في فسحة آت ميداني ، وبعد ذلك عاد إلىٰ السلطان العلماء ووكلاء الدولة وأخذ يريهم أثواب السلاطين العظام الملطخة بالدماء الذين قتلهم العصاة الإنكشارية طالباً ثمن دم السلاطين ، فأجاب العلماء أن ثمن دم كل سلطان خمسة وعشرون ألف نفس ، فصدرت الأوامر بتدمير الإنكشارية في الآستانة العلية وفي جميع الجهات ، فقتل منهم عدد كثير وارتاحت الدولة والناس من مظالمهم ، وألحق بهم بعض الدراويش من البكطاشية لكونهم يميلون إليهم ، ويساعدونهم ويفعلون في تكياتهم أفعالاً شنيعة محرمة ، وبدعاً مسترذلة ، فأمر السلطان بقتل أكثرهم ، وهدم تكياتهم ، وأخذت الدولة في تكثير العساكر النظامية والجد في تعليمهم وأبطلت وجاق الإنكشارية ، وفي أثناء تلك المدة غيّر السلطان محمود لبسه ، ونزع العمامة والجبة ، وتزيّا بزي العسكر الجديد على هيئة الأوروباويين وبالطربوش الصغير ولم يبال بأقوال المعترضين .

ذكر القتال مع الروسية

في سنة ثلاث وأربعين ومئتين وألف زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة العلية عند نهر الطونة ، وسار جيش إلى جهة الأناضول ، فأرسلت الدولة عساكر لمصادمتهم تحت قيادة الصدر الأعظم سليم باشا ، فوقع بين الفريقين حرب شديد ، وتغلبت عساكر الروسية وهزموا عساكر الدولة ، واستولوا على جملة أماكن ، وتقدمت عساكرهم إلى شوملة ، وأقاموا الحصار على سليسترة ، واستولوا على مدينة وارنة ، فعزل السلطان الصدر الأعظم سليم باشا ، وأمر بنفيه وأقيم في الصدارة محمد عزت باشا ، وسارت بعض عساكر الدولة إلى جبل البلقان فتركت الروسية محاصرة شوملة وكانوا قد استولوا على سليسترة ، وكانت عساكر الروسية التي في الأناضول تتقدم ، فملكوا القرص وبايزيد وطبراق وأرض روم ، واستأسروا صالح باشا ، وجاء جيش الروسية فيه مئة وستون ألف مقاتل ، وحاصروا أدرنة حصاراً شديداً إلى أن استولوا عليها .

ولما اشتد الأمر على السلطان محمود اضطربت الأمور اضطراباً كثيراً ، إلا أن

السلطان محموداً أظهر الثبات وقوة الجنان في وسط تلك الأخطار المحدقة به وبدولته ، ثم تداخلت دول أوروبة في الصلح وأتموه بشروط سنة خمس وأربعين ومئتين وألف ، ومآل تلك الشروط : استقلال الأروام ، وتنازل الدولة عن إقليم الصرب والأفلاق والبغدان لملوك من أهل تلك البلادِ تحت نظارة ملك الروسية ، وعن بعض جزائر عند فم نهر الطونة ، وعن بعض أراضٍ في الأناضول ، مع غرامة حربية قدرها مئة وعشرة ملايين فرنك .

قال بعض مؤرخي الفرنج : وربما استغرب القارىء كيف أن الدولة التي سادت على أغلب ممالك العالم وأوقعت الرعب في قلوب جميعهم لم تستمر في نموها وتقدمها حتى التزم سلاطينها إلى أن يرتضوا هذه الشروط ، فإذا نظرنا إلى هذا الأمر بعين خالية عن الغرض يحق الاستغراب من وجه آخر ، وهو كيف أمكن هذه الدولة أن تحتمل هذه الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من أعدائها مع وجود الخلل في داخليتها بسبب أصحاب البغي والفساد وقلة الأموال ، ولم تتزعزع أركانها ، بل استمرت في سلك الثبات العجيب ، ولم تستطع قوة أو سبب آخر أن يثنيها ، وإذا ضممنا إلى هذه الأسباب الخلل الذي أوقعه وجاق الإنكشارية وعدم تمام إنتظام الترتيب للعسكر الجديد وعدم تمرن الجيوش بفنون الحرب وملاقاة الأهوال ، لربما حق العجب كيف لم تنقرض هذه الدولة أصلاً ، واستطاعت أن تناضل إلى هذه الدرجة مستهينة بكل الموانع التي تعرضت لها ، فهذا أعظم برهان على عظمها وسطوتها ، انتهى كلامه .

وأقول إن ها هنا سراً إلهياً لتأييدها ، وهو سر بركة الإسلام ، وسر بركة النبي ﷺ وسريان روحانيته لتأييد ملته وأهل دينه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر استيلاء الفرنسيس على الجزائر

وفي سنة خمس وأربعين وألف ومئتين استولت الفرنسيس بقوة جبرية على جزائر الغرب مُدَّعين أن أهلها كانوا يقبضون على مراكبهم التجارية ويربطون عليهم البحر في تلك الجهات ويفتكون بهم ، فلما بلغ الباب العالي ذلك أرسل طاهر باشا قبودان إلى الجزائر يتعاطى الصلح بينهم وبين أحمد باشا والي الجزائر ، فلما وصل وأراد النزول إلى البر منعته الفرنساوية ، فعاد راجعاً إلى القسطنطينية ، والجزائر المذكورة كانت في حكم الدولة العلية من حين تملكها السلطان سليمان ، فلما طالت المدة صار الولاة يتوارثون الولاية بالتغلب ويدفعون خراجاً للدولة ويكون تحت أمر الدولة ظاهراً ومتغلبين باطناً ، فلما أحدثت الدولة العساكر السلطانية بالتعليم الجديد امتنع والي الجزائر من تعاليم عساكرها ولم يمتثل أمر السلطان في ذلك ، فقيل إن السلطان محموداً هو الذي سَلّط عليه الفرنسيس لتأديبه ، فجاؤوا بجيوش كثيرة وحاصروا الجزائر إلى أن قبضوا على الباشا المتولي عليها ، وذهبوا به إلى بلادهم ، وتملكوا الجزائر وحصنوها بالعساكر ، فلما تملكها الفرنسيس لم ترجع تلك الجزائر لحكم الدولة ، بل استولى عليها ، وبقي على ذلك إلى عصرنا هذا .

ذكر القتال بين محمد علي باشا والسلطان محمود

في سنة سبع وأربعين ومئتين وألف وجَّه محمد علي باشا والي مصر جيوشه براً وبحراً لتملك الشام ، وجعل قيادتها لولده إبراهيم باشا ، فحاصر عكا وافتتحها مظهراً الانتقام من عبد الله باشا والي عكا لأسباب كانت بينهما ، وفتح في طريقه غزة ويافا وحيفا ، فلما بلغ الدولة ذلك غضبت وأرسلت تأمر محمد علي باشا برجوع العساكر ، وأنه إذا كان بينهما دعوى يَقْدُمان إلى الباب العالي فيحكم بينهما ، فلم يمتثل لأوامر الدولة ، فأبرزت الدولة فرماناً بعصيان محمد علي باشا وتنزيله عن ولاية مصر ، وصدر الأمر السلطاني لوالي حلب بجمع العساكر لمحاربة إبراهيم باشا ، وخرج حسين باشا بعساكر من الآستانة وحصل القتال بين الفريقين خارج طرابلس ، فهزمهم إبراهيم باشا واستولى على الأقطار الشامية ، وقبض على عبد الله باشا والي عكا وأرسله إلى الإسكندرية لأبيه محمد علي باشا .

ولما وصل إبراهيم باشا إلى داريا قرب دمشق خرج إليه علي باشا وزير دمشق ، واشتبك الحرب بينهما فهزمهم إبراهيم باشا ، وخرج أهل دمشق يسألونه الأمان فأمنهم ودخلها ، وتقدم إلى حمص واشتبك القتل بينه وبين والي حلب ، وكان يوماً عظيماً وحرباً شديداً من أشهر الوقائع قتل فيه خلق كثير واستولوا على المهمات جميعها ، وانهزم والي حلب ورجع إليها فقفلت في وجوههم الأبواب ، فساروا إلى أنطاكية ، ولما وصل إبراهيم باشا إلى حلب خرج أهالي حلب لاستقباله ، فدخلها وتسلم ما كان فيها من الذخائر والمهمات وأمن أهلها ، ثم سار إلى أنطاكية وحاربهم فيها ، ثم إلى بوغاز بيلان .

ولما بلغ الباب العالي تقدّمُ العساكر المصرية سيّر رشيد باشا الصدر الأعظم بالجيوش لحربهم ، فتقدم إلى قونية ، والتقى الجيشان واشتبك القتال وانهزمت عساكر الدولة وقُبض على رشيد باشا الصدر الأعظم وأُتي به إلى إبراهيم باشا فقابله بكل إكرام ، ثم خلى سبيله ، وامتدت هذه الفتنة والحروب إلى سنة خمس وخمسين ومئتين وألف ، ثم صدرت الأوامر السلطانية إلى حافظ باشا ليسير لمحاربة إبراهيم باشا ، فالتقى الجيشان بالقرب من مرعش واقتتلا ووقعت الهزيمة أولاً على عساكر إبراهيم

باشا ، وكان في وادِ عَسِيرٍ ، فجمع العساكر وخرج بهم من ذلك الوادي وصعد إلى تلٍّ كان تجاه معسكر حافظ باشا ، وأخذ يطلق عليهم المدافع ، فعطل أكثر مدافعهم وفرق صفوفهم ، ثم هجم عليهم بعساكره هجمة هائلة فانهزموا أمامه تاركين مدافعهم ومهماتهم عائدين إلى مرعش ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وهذه الوقعة من أشهر تلك الوقائع التي وقعت في تلك الحروب ، وأعقبها إبراهيم باشا بفتح أكثر الجهات في تلك البلاد ، ولم تصل أخبارها إلى القسطنطينية إلا بعد وفاة السلطان محمود بثمانية أيام .

ومن فتوحاته إخراج الخوارج الوهابية من مكة والمدينة وتطهير الحرمين منهم ، وقد تقدم ذلك عند ذكر السلطان سليم بن مصطفى ، لكون ابتداء القتال مع الوهابية كان في مدة سلطنته ، لكن إتمام الأمر ما كان إلا في زمن مولانا السلطان محمود الثاني بن السلطان عبد الحميد ، فذلك من فتوحاته .

ومن فتوحاته المعنوية اعتناؤه بأهل الحرمين كمال الاعتناء ، فإنه صدرت الإرادة الشاهانية من دولته بتحرير ما كان يصرف لهم من قمح الجراية ، فوجدوا أكثر ذلك بيد الأغنياء ، والتجارُ كانوا يأخذونه من الفقراء بالفراغ بعوض حقير ، فصار الفقراء ليس لهم شيء ، فصدر الأمر الشاهاني بنقض ذلك وإبطاله وتجديد كتابة دفتر بأسماء المستحقين ، فحصل تحديد ذلك في المدة التي كان فيها محمد علي باشا بمكة حين جاء لقتال الوهابية ، وكتب الله ذلك صدقة جارية في صحيفة مولانا السلطان محمود وصحيفة كل من كان له إعانة ، وتسبب في ذلك .

ومن حسنات السلطان المذكور وفتوحاته أنه كان في مدة سلطنته تجديد قبة مولد النبي ﷺ ، وقبة السيدة خديجة زوجة النبي ﷺ ، وقبة السيدة آمنة والدة النبي ﷺ ، وقبة سيدنا عبد الله بن عباس بالطائف ، فإن القبب المذكورة هدمها الوهابي وجددها مولانا السلطان محمود ، وهدم الوهابي أيضاً قبباً كثيرة بالمدينة على قبور الصحابة وبعض الأولياء فجددها مولانا السلطان المذكور .

ومن خيراته وفتوحاته المعنوية أنه جدد لأهل الحرمين خيرات ومرتبات زيادة على الذي كان مرتباً لهم من أسلافه ، وذلك أنه في سنة إحدى وخمسين بعد المئتين والألف

رتب مرتبات للعلماء والخطباء بالحرمين الشريفين وللقائمين بخدمة المسجدين الشريفين مثل المؤذنين والفراشين والكناسين والبوابين ، وجعل للجميع مرتبات جزيلة من النقود الجليلة بعضها شهريات وبعضها سنويات ، واشترى لذلك عقارات كثيرة وأوقفها ليصرف من غلاتها جميع المرتبات المذكورة ، فصارت حسنة جارية إلى هذا الوقت يحصل منها كمال النفع والإعانة للمذكورين على معاشهم ، ومن وقت هذا الترتيب كان ابتداء وضع المدير والمديرية بمكة والمدينة ، ولم يكن ذلك موجوداً قبل ذلك ، ثم إن ولده مولانا السلطان عبد المجيد ضم إلى ذلك الترتيب مثله في مدة سلطنته كما سيأتي ذكر ذلك عند ذكره ، وكانت مدة سلطنة السلطان محمود ٣٢ سنة ، وعمره خمس وخمسون سنة ، وكانت وفاته ١٩ ربيع الأول سنة خمس وخمسين ومئتين وألف .

ذكر ولاية السلطان عبد المجيد

وجلس على تخت السلطنة بعده ولده السلطان عبد المجيد ، فجهز الجيوش لقتال عساكر محمد علي باشا وإخراجها من الشام ، وأعانه على ذلك دولة إنكلترة ، وكانوا عرضوا على السلطان محمود الإعانة فَأَبَىٰ ، فلما توفي وتسلطن ولده السلطان عبد المجيد قبل إعانتهم فأعانوه وسير جيوشه إلى الشام فهزموا عساكر إبراهيم باشا وأخرجوهم من الأراضي الشامية ، وأرادوا التوجه إلى مصر والإسكندرية لإخراج محمد علي باشا ، فتوسطت دولة إنكلترة بالصلح إلى أن أتموه بشرط أن تكون الإسكندرية ومصر وأقطارها لمحمد علي باشا ولأولاده من بعده ، وضربوا عليه خراجاً معلوماً يدفعه في كل سنة ، ويُرْجِعُ إلى الدولة الشامَ والحجازَ ، وتمّ الأمر على ذلك ، وكانت مدة تملكه الأقطار الشامية قريباً من مدة تسع سنين ، وفي مدة السلطان عبد المجيد قَوِيَ الاتحاد مع دولتي فرنسة وإنكلترة فحسنوا له أحدث القوانين المسماة بالتنظيمات الخيرية ، فصدر منه الفرمان السلطاني بذلك سنة خمس ومئتين وألف ، وهي سنة جلوسه على تخت السلطنة .

ذكر الحرب مع الروسية

في سنة تسع وستين ومئتين وألف كانت الحروب العظيمة بين السلطان عبد المجيد والروسية المسماة بحرب القرم ، وسببها أنه وقع اختلاف بين طائفتي الروم واللاتين في القدس من عدة سنين بسبب كنيسة القيامة وبعض الأماكن المقدسة ، فكانت كل طائفة منهما تدّعي لنفسها حق الرئاسة والتقدم على الأخرى باستيلاء مفاتيحها ، ثم أخذت هذه المسألة تتعاظم بينهما وتمتد يوماً بعد يوم إلى أن آلَ الأمرُ إلى النزاع والجدال في سنة ثمان وستين ومئتين وألف ، فوقع الباب العالي في ارتباك وحيرة من جهة تسكينها وإخماد نارها ، لأن الروسية كانت تحامي عن حقوق الروم ، وفرنسة تحتشد لطرف اللاتين ، فتداخل سفير إنكلترة في صرف هذا المشكل ، ورَسَم ترتيباً لائتلاف المتخالفين ، فقبلته فرنسة ولم تقبله الروسية ، لأن مقصدها التوحيد ولم يكن مقتصراً

على المحاماة عن حقوق الروم ، بل كان لها غايات أخرى طالما كانت تجتهد على نوالها وتترقب الفرص لاستحصالها ؛ وهو إبعاد الدولة العثمانية من قارة أوروبة والاستيلاء على أقاليمها وولاياتها ، فانتهز إمبراطورها نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لنوال بغيته وبلوغ أربه ، فبعث سفيراً إلى القسطنطينية لمقابلة السلطان بعد أن كان بعث جيشاً يبلغ مئة وأربعة وأربعين ألفاً إلى نهر الطونة ليكون مستعداً لوقت اللزوم والحاجة ، فلما وصل السفير المذكور إلى القسطنطينية رفض مواجهة فؤاد باشا وزير الخارجية ودخل رأساً على الحضرة الشاهانية وعرض عليه مطالب الإمبراطور نقولا في المسألة المتعلقة بالأماكن المقدسة ، وأن جميع الروم الذين هم من تبعة الدولة العلية تكون تحت حمايته من الآن فصاعداً ، وأن بطرق الروم القسطنطيني وباقي أساقفة الطائفة يكون انتخابهم وتغييرهم منوطاً به ، وأن الشكاوى والدعاوى التي تصدر عليهم من جهة تصرفاتهم تعرض عليه لينظر فيها .

فاستعظم السلطان هذه المطالب ورفضها لأنها مخلة بناموس السلطنة ومغايرة للأصول وقوانين الدول ، فانثنى السفير راجعاً من حيث أتى ، وأَعْلَمَ الإمبراطورَ نقولا بواقعة الحال ، فاستشاط غضباً ، ثم أصدر أمراً إلى العساكر التي أرسلها إلى أطراف الطونة أن تعبر النهر وتستولي على تلك الأطراف ، فاجتازت النهر وشنت الغارات على إمارات الأفلاق والبغدان ، واستولى عليها ، ولما تحقق الباب العالي قدوم ذلك الجيش إلى أطراف بلاده علم أن مقاصد الروسية في تطلباتها لم تكن إلا وسيلة لإشهار الحرب ، فجهز جيشاً وأرسله إلى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجري لردع الروسيين ، ولما تأكدت الدول الأوروبية بغية الروسية ومقاصدها بادرت إنكلترة وفرنسة والنمسة إلى عقد جمعية للنظر في إجراء الوفاق بين الدولتين ، وأرسلت كل دولة منهما معتمداً من طرفها إلى مدينة أثينا حيث وافاهم سفير من طرف الروسية وآخر من طرف الدولة العلية ، وعقدوا هناك مجلساً في سنة ألف ومئتين وسبعين لم يأت بالمرغوب ، فلما لم يكن سبيل للصلح أشهر الباب العالي الحرب وصدم سليم باشا العساكر الروسية في الأناضول وانتصر عليهم في عدة مواقع ، وهاجمهم عمر باشا في الروم إيلي وانتصر عليهم أيضاً ، وأما العمارة التي للروسية بالبحر الأسود فصدمت العمارة العثمانية واستظهرت عليها بعد حرب شديد فأتلفتها ، وكانت مؤلفة من سبعة فركاتات وباخرتين وثلاثة مراكب حربية .

ثم إن إنكلترة وفرنسة لما تيقنتا سوء نتائج الحرب احتشدتا لمعونة السلطان وأعلنتا الحرب على الروسية ، وفي سنة إحدى وسبعين ابتدأتا في نقل رجالهما ومهماتهما إلى ساحة الحرب واشتبكتا في القتال ، وأما باقي دول أوروبة فكانت محافظة على الحياد ، وكانت دولة إنكلترة قد أرسلت عمارة بحرية إلى بحر بلتيك فاستولت على قلعة بومارستورد ، ثم على جزيرة الآند ، ولكنها لم تقدر على استخلاص القلعة نظراً لحصانتها ، وإذا كانت سيواسطبول أعظم قوات الروسية في البحر الأسود وجهت إنكلترة وفرنسة قواهما لافتتاحها والاستيلاء عليها ، فأرسلتا فرقاً من عساكرهما عددها ستون ألفاً وكان أكثرها فرنساويين فنزلوا في بوياسرايا ، وفيما كانوا يتقدمون إلى سيواسطبول صادفهم العساكر الروسية ، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً إلى أن دارت الدائرة على الروسيين ، فانهزموا عند نهر الماء ، وكان جيش عساكر الروسية يحاصر مدينة سلسترة ولم تقدر على أخذها ، فخرجت عليهم العساكر العثمانية من المدينة واقتحمتهم فانتصرت عليهم وفرّقتهم ، فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا إلى آخرين ، وقصدوا القرم لنجدة حصار قلعة سيواسطبول التي إليها وجّهت الروسية كل قوتها من المهمات والعساكر والذخائر ، وصادم جيش من الإنكليز جيشاً للروسين عند بالاكلا فانتصروا عليهم بعدما فقد منهم خلق كثير ، وكان جيشٍ للروسية محاصراً في آق كرمان وعددهم ستون ألفاً ، فخرجوا من مكان حصارهم واقتحموا العساكر العثمانية والإنكليزية والفرنساوية ، ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين وانجلت بانهزام الروسية وألزموهم حصن المدينة ، ولم يكن حينئذ في قوة الدول المتحدة الاستيلاء على سيواسطبول مع أنهم كانوا يزيدون في قوتهم الحربية ويكثرون هجماتهم وقنابلهم ولم يقدروا على استخلاص تلك القلعة أو أن يمنعوا المساعدات التي كانت تأتيها من داخل البلاد ، ولقد قاست العساكر المتحدة ولا سيما الإنكليز في شتاء سنة إحدى وسبعين وشتاء اثنتين وسبعين أهوالاً وشدائد يكلُّ اللسان عن وصفها وتعدادها ، فإن الأمراض والأوجاع قد أخذت في العساكر كل مأخذ وأهلكت كثيراً منهم ، فضلاً عن الجوع والتعرض لبرد تلك البلاد والأبخرة المنتنة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى والحيوانات .

أما إيطالية فقد هيأت جنودها للحرب وانضمت إلى الدول المتحدة ، فأرسلت

خمسة عشر ألف مقاتل بعدما تعهدت لها إنكلترة بدفع مبلغ مليون ليرة على سبيل الإعانة ، واشتهرت رجالها في تلك المجامع بالشجاعة والثبات ، وفي خلال ذلك هلك الإمبراطور نقولا سنة اثنتين وسبعين ومئتين وألف ، وجلس ولده إسكندر الثاني أيضاً .

وفي خلال ذلك وقعت واقعة هائلة بين الروسية والعساكر المتحدة كانت الدائرة فيها على الروسية ، واستولى جيوش فرنسة على قلعة ملاكوف ، وإذْ لَمْ يَبْقَ للروسية استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سيواسطبول في مساء ذلك النهار وعوّلوا على الهزيمة والفرار ، ودخلت العساكر المتحدة القلعة وامتلكتها ، فانفتحت حينئذ مخابرات الصلح ، وعقدت جمعية في باريز سنة ثلاث وسبعين ومئتين وألف ، حضرها اثنان من طرف كل دولة من الدول الست المتحاربة وهي إنكلترة وفرنسة والعثمانية والنمسة وبروسية وسردانية ، وأمضت شروط الصلح متضمنة أربعة وثلاثين بنداً ، أَخَصُّها : أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول أوروبة من جهة القوانين والتنظيمات السياسية ، وأنها تكون مستقلة في ممالكها كغيرها من الدول ، وأن البحر الأسود يكون بمعزل عن جَوَلان مراكب حربية فيه من أي جنس كان ، ما عدا الدولة العثمانية والروسية ، فإن لهما حقاً في إدخال عدد قليل من المراكب الصغيرة الحربية لأجل محافظة أساطيلها ، وألّا يكون للدولة العثمانية ولا للروسية ترسانات بحرية حربية على شواطىء البحر الأسود ، إلى غير ذلك من الشروط ، ثم انسحبت العساكر إلى مواطنها وانتهت الحرب التي لم يكن لها داع سوى المطامع .

وفي سنة اثنتين وسبعين كانت فتنة عظيمة بمكة المشرفة بين أهالي مكة وعساكر الدولة بسبب ورود أمر يمنع بيع الرقيق ، وانتهت في رمضان بالقبض على الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة وتولية الشريف محمد بن عون ، والكلام عليها طويل .

وفي سنة أربع وسبعين وقعت فتنة في جدة بين أهالي جدة والنصارى الذين بها ، بسبب اختلاف بعض أهل المراكب في وضع بنديرة الإسلام أو الإنكليز على بعض المراكب ، والكلام عليها أيضاً طويل .

وفي سنة ست وسبعين كانت فتنة بالشام بين النصارى وأهل الشام ، والكلام عليها أيضاً طويل .

وفي سنة ألف ومئتين وسبع وسبعين حدثت فتنة عظيمة بين الدروز والنصارى في جبل لبنان ، آلَ الأمرُ إلى وقوع حرب بين الفريقين ، وكانت النتيجة رديئة على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمام بعضهم لبعض وعدم انقيادهم لبعضهم ، ففتكت بهم الدروز ، فأرسل الباب العالي فؤاد باشا ليمهد الأمور وينتقم من المذنبين ، وأرسلت فرنسة عشرة آلاف جندي للمحافظة ، ومنع التعدي ، وكذلك باقي الدول الأفرنجية ، منها من أرسل مراكب حربية ، ومنها من أرسل نواباً للإصلاح وتمهيد الأمور ، وبعد إجراء ما يلزم إجراؤه استحسنت الدولة العلية باتفاق الدول وضع نظامات جديدة لأهل هذا الجبل ، وأن تتحول أحكامه لمشير من الطائفة النصرانية من غير أهالي الجبل ليكون متصرفاً بها ويخابر الرؤساء الباب العالي ، فتوجهت المتصرفية لداود باشا الأرمني .

ومن خيرات السلطان عبد المجيد وفتوحاته المعنوية تجديد مسجد النبي ﷺ بالمدينة المنورة ، فإنه كان على بناء السلطان قايت باي ، وكان مسقفاً بالخشب ، فطالت مدته وحصل فيه خراب ، فصدرت إرادة مولانا السلطان عبد المجيد بهدمه وتجديده سنة ١٢٧٠ ، فهدم وجدّد وجعل سقفه قبباً وطواجن كالمسجد الحرام ، وتمم عمارته بعد مُضِي أربع سنين ، فجاء على صفة لم ير الراؤون أحسن منها ، وله عمارات كثيرة في الأماكن المأثورة بالحرمين الشريفين ، وله تجديد ميزاب للكعبة المشرفة سنة خمس وسبعين ومئتين وألف ، وتوفي السلطان عبد المجيد في سابع عشر ذي القعدة سنة ألف ومئتين وسبع وسبعين ، وعمره أربعون سنة ، ومدة سلطنته اثنتان وعشرون سنة وستة أشهر .

ذكر ولاية السلطان عبد العزيز

وأقيم في السلطنة بعده أخوه السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني .

وفي سنة ٧٨ أظهر العصيان أهل الجبل الأسود ، فسَيّر السلطان عبد العزيز إليهم جيشاً ، فقاتلهم وهزمهم ، ثم رجعوا إلى الطاعة .

وفي سنة ١٢٨٣ أظهر العصيان كثير من الأروام بجزيرة كريد وكثير من البندقية ، فجهزت الدولة عليهم جيوشاً براً وبحراً ، وكذلك جهز صاحب مصر عساكر كثيرة براً وبحراً ، فكانت مع عساكر الدولة ، ووقع بينهم وبين العصاة حرب شديد ، كان النصر فيها لعساكر الإسلام ، وأذاقوا العصاة الوبال وأرجعوهم إلى الطاعة .

وفي سنة ٧٩ توجه السلطان عبد العزيز إلى الديار المصرية للتنزه والتفرج ، وكان ذلك في ولاية إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا .

وفي سنة أربع وثمانين توجّه السلطان المذكور إلى باريس تخت ملك الفرنسيس للتنزه والتفرج أيضاً ، ثم منها توجّه إلى بلاد الإنكليز للتفرج والتنزه أيضاً ، وكان في رحلته هذه مَرّ على أدرنة وعلى قلعة بلغراد ، وكان الصرب قد طلبها منه وقيل النمسة فأعطاهم إياها ، فحين عاين تحصينها غضب لذلك ، وكانوا أخبروه أنها مهدومة ، وأنها مدينة كاسدة ، فأعطاها قبل أن يراها ، فلما رآها ندم حيث لا ينفع الندم .

وفي سنة ٨٨ كانت فتنة عظمى ببلاد عسير ، فجهزت الدولة جيشاً تحت قيادة رديف باشا ، فسار حتى صعد جبال عسير وقاتلهم وهزمهم ، وقتل أميرهم محمد بن عائض بن مرعي وقتل معه جماعة من عشيرته وأسر كثيراً وأرسلهم إلى الآستانة ، وصارت بلاد عسير في حكم الدولة العلية منضمة إلي ولاية صنعاء اليمن .

وفي هذه السنة أيضاً كانت فتنة عظمى بين دولة البروسية وفرنسة ، آلَ الأمرُ فيها إلى هزيمة الفرنسيس ، وأسر ملكهم نابليون الثاني ، والكلام عليها طويل مفرد بالتأليف .

وفي سنة ثلاث وتسعين ومئتين وألف في السابع من شهر جمادى الأولى خُلِعَ السلطان عبد العزيز ، ومات رحمه الله تعالى بعد خمسة أيام ، وعمره ٤٨ سنة ، ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأربعة أشهر .

ذكر ولاية السلطان مراد الخامس

وأقيم في السلطنة بعده السلطان مراد الخامس بن السلطان عبد الحميد بن السلطان محمود الثاني ، ثم خُلع بعد ٣ أشهر و٣ أيام في ثالث شعبان من السنة المذكورة أعني سنة ١٢٩٣ ، والسبب في خلعه أنه وقع له خلل في عقله ، وبعد أيام مضت بعد بيعته ، فلما تحققوا الخلل في عقله استفتوا فيه شيخ الإسلام خير الله أفندي ، فأفتى بخلعه لأن شرط الخليفة أن يكون متصفاً بالعقل ، فبايعوا أخاه سلطان العصر مولانا السلطان عبد الحميد الثاني ، وبقي السلطان مراد المخلوع في داره ، وأما السلطان عبد العزيز فإنه بعد خلعه بأيام قلائل أقل من الأسبوع توفي فأشيع أنه قتل نفسه بمقص قَصَّ به عِرْقاً في ذراعه ، فمات من ذلك .

وفي سنة ثمان وتسعين ومئتين وألف نُفِيَ جماعة من الوزراء إلى الحجاز فحبسوهم في قلعة الطائف ، منهم مدحت باشا ومحمود باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد ونوري باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد أيضاً ، ومعهم جماعة آخرون غير هؤلاء ، منهم شيخ الإسلام خير الله أفندي ، وفي سنة ثلاثمئة توفي مدحت باشا ومحمود باشا الداماد في القلعة المذكورة ، وكان خلع السلطان عبد العزيز سبباً لاضطراب كثير وحوادث شتّى ، وكان القائم أكمل القيام في خلعه حسن عوني باشا ، وكان السلطان عبد العزيز هو الذي رقاه وأعلى قدره إلى أن جعله رئيساً على العساكر كلها ، بل صار مقدماً على جميع أهل الرتب والمناصب ، فرتب الأمور مع الوزراء وغيرهم ، وزعم أن السلطان عبد العزيز تداخل مع الروسية ، وأنه يريد أن يملكهم دار السلطنة ، فما زال حسين عوني باشا وغيره يسعون في ذلك حتى تمَّ لهم خلعه ، فقدر الله أن رجلاً يقال له حسن جركس قتل حسين عوني باشا ، وذلك أن السلطان عبد العزيز ـ وكان متزوجاً بأخته ـ فأخذته حمية حين خلع السلطان عبد العزيز ، فصمم على قتل حسين عوني باشا ، فدخل عليه في دار الصدر الأعظم محمد رشدي باشا فوجدوه مع جماعة من الوزراء مجتمعين للمشاورة في بعض الأمور ، وكان مع حسن جركس زوج من الطبنج ذوات الأرواح المتعددة ، فضرب به ضرباً متعدداً وقتل جماعة من الحاضرين منهم حسين عوني باشا الساعي في خلع السلطان عبد العزيز ، ولم يتم لحسين عوني باشا شيء من مراده والله غالب على أمره ، ثم قبضوا على حسن جركس فقتلوه .

ذكر ولاية سلطان العصر أطال الله عمره

هو السلطان المعظم المفخم سلطان سلاطين العرب والعجم ، حائز العلم والصلاح والكرم المتشرف بخدمة طيبة والحرم ، صاحب السيف والقلم ، ظل الله في العالم ، غياث بني آدم ، نعمة الله على العباد وفضله على الحاضر والباد ، ناصر الحق والدين ، ومؤيد شريعة سيد المرسلين ، المحفوف بالسبع المثاني ، أمير المؤمنين مولانا السلطان الغازي عبد الحميد الثاني ، أَعِزَّ اللهمّ سريرَ الملك والخلافة بوجوده ، وأنفذ في جميع البلاد أوامره وأحكامه ، وانشُرْ على البرايا ألوية عدله وأعلامه ، وأيّده بتأييدك ، واجعل سلالة تلك السلطنة العلية مسلسلة إلى منتهى الدوران ، مستمرة على مرور الليالي والأيام ، باقية إلى آخر الزمان آمين يا رب العالمين .

بويع أطال الله عمره لما خلعوا أخاه السلطان مراداً في ثالث شعبان سنة ثلاث وتسعين ومئتين وألف ، فكانت سلطنته زينة وبهجة وسروراً ، وامتد بها في مشارق الأرض ومغاربها ما ملأهما نوراً .

ومما كان من الحوادث في أول ولايته أنه وقع عصيان من بعض النصارى الداخلين في رعية الدولة العلية في بلاد الروم إيلي وهم طائفة يقال لهم الهرسك ، فجهز عليهم مولانا السلطان المذكور جيشاً فقاتلوهم وكانوا قوماً ضعافاً لا يحتاج الاستيلاء عليهم وقهرهم إلى كلفة ولا إلى كثرة عساكر ، إلا أن الروسية تداخلت معهم وصارت تقويهم بأشياء كثيرة حتى اتسعت فتنتهم وانتشرت ، وأعانهم طوائف من النصارى الذين كانوا قريباً منهم إلى أن صارت المحاربة بين الدولة والروسية ، وصارت تلك الطوائف من النصارى مع الروسية ، وساقت الدولة بهذه الفتنة العساكر الكثيرين ، وأنفقت الخزائن الوفيرة ، فقدر الله بانهزام جيوش الإسلام وأسر كثير منهم في بلونة ، وذلك بسبب محاصرة عساكر الروسية لهم في ذلك البلد وعدم إمكان وصول الميرة إليهم لشدة البرد وكثرة الثلج ، وممن أسر من كبار عساكر الإسلام الوزير عثمان باشا الغازي قوماندان ذلك الجيش في بلونة ، ثم أطلق مع كثير ممن أسروا ، وكان إطلاقهم بعد انعقاد الصلح ، وتملك الروسية كثيراً من المدائن العظام إلى أن وصلوا إلى قريب أدرنة ،

والكلام على هذه الفتنة طويل قد أفرد بالتأليف ، وختام الأمر أن بقية الدول توسطت في الصلح سنة خمس وتسعين على أن يبقى تحت يد الروسية ما تملكوه من البلاد ، وأن الدولة العلية تدفع لهم غرامة الحرب ، وكان شيئاً كثيراً ، وتبقى للدولة أدرنة وما يليها إلى دار سلطنة الدولة العلية ، وكان هذا الخلل إنما دخل على المسلمين بعد خلع السلطان عبد العزيز ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي سنة ست وتسعين ومئتين وألف أعطت الدولة العلية جزيرة قبرس للإنكليز على أن تكون بأيديهم سنين مؤقتة ، بشروط أن يدفعوا للدولة العلية قدر الخراج الذي كان يحصل منها ، وقد تقدم في هذا الكتاب تكرر وضع اليد على قبرس من المسلمين والنصارى مراراً كثيرة أولها من زمن الصحابة حين افتتحها معاوية رضي الله عنه ، وبعد ذلك صار المسلمون والنصارى يتداولونها تارة تكون بيد هؤلاء وتارة بيد هؤلاء .

وفي سنة ست وتسعين ومئتين وألف خلع والي مصر إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا ، وقد كان محمد علي باشا لما انعقد الصلح بينه وبين مولانا السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومئتين وألف جعلت له مصر ولأولاده من بعده ، فلما صارت ولايتها لإسماعيل باشا أراد حصر الولاية في أولاده ومنع إخوته وأولاد إخوته منها ، فتوجه إلى دار السلطنة في مدة السلطان عبد العزيز سنة إحدى وتسعين ومئتين وألف ، فتم له مراده وجعلوا ولاية مصر له ولأولاده الأكبر فالأكبر ، وكان الصدر الأعظم في دار السلطنة هو محمد رشدي باشا الشرواني ، ثم إن الله قضى وقدّر أن عاقبة هذا الأمر الذي فعله إسماعيل باشا أول ما ظهر سوؤه عليه ، فإنه في سنة ٩٦ ظهرت عليه كثرة ديون أخذها من الدول الأجنبية وأنفقها في غير حقها ، فتشاور أهل الديون على أنهم يضبطون خَراج مصر ومحصولاتها لأجل استيفاء ديونهم ، فلما أحس بذلك أراد أن يجعل له عصبية يمنعهم بها ، فتداخل مع العلماء وأهل مصر وعقد بينه وبينهم عهوداً ومواثيق على أن الأمور كلها تكون بيد العلماء والأهالي وبمشاورتهم ، فلما أحس الإنكليز والفرنسيس وغيرهما بانعقاد هذه العصبية سعوا في خلعه ، ووافقهم على ذلك مولانا السلطان عبد الحميد ، فخلعوه في سنة ست وتسعين ، وجعلوا ولاية مصر لولده الأكبر محمد توفيق باشا عملاً بما تقرر قبل ذلك حين نُفي إخوته وبنيهم من دخولهم في الولاية من بعده ، وأن الولاية من بعده تكون

لأكبر أولاده ، فأقاموا عليها ولده الأكبر وهو محمد توفيق باشا ، وتوجّه والده إسماعيل باشا بعائلته وبقية أولاده إلى نابولي من بلاد إيطالية وجُعل له مُرَتّب من محصولات مصر وخزينتها .

وفي سنة سبع وتسعين ومئتين وألف استولى دولة الفرنسيس على تونس وأعمالها بالمكر والخديعة والحيلة ، فجهزت دولة الفرنسيس عساكر كثيرة وأظهرت أنها تريد تأديب بعض قبائل العرب العصاة منهم قبيلة يقال لهم الخمير في أعمال تونس ، فوصلوا بعساكرهم إليهم وقاتلوهم وقهروهم ، ثم زحفوا بعساكرهم إلى تونس ، ولم يستطع أحد أن يدفعهم إلى أن قاربوا دخولها ، فاضطرب أهلها اضطراباً كثيراً ، ثم عقدوا معهم صلحاً وأدخلوا طائفة من عساكرهم تونس وأبقوا الوالي على ولايته بحسب الظاهر ، واستولوا في الباطن على الأحكام والمحصولات والخراجات ، واستقبلوا الديون التي كانت على والي تونس وصارت الأمور كلها بأيديهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي سنة ثمان وتسعين ومئتين وألف كانت فتنة بمصر بين والي مصر محمد توفيق باشا وبين عرابي باشا ، وكان عرابي باشا من رؤساء عساكر محمد توفيق باشا ، واتسع الأمر في ذلك ، فجاء الإنكليز بعساكرهم البحرية نجدة لمحمد توفيق باشا إلى الإسكندرية ، وضربوا مدافعهم على الإسكندرية وقاتلوا الذين مع عرابي باشا ، وكان ذلك في شعبان ورمضان سنة تسع وتسعين ، واتسع الأمر بما يطول الكلام بذكره ، وكانت الغلبة لتوفيق باشا ومن معه من الإنكليز ، وتملكوا الإسكندرية ، وذهب عرابي باشا ومَنْ معه إلى مصر ، ثم سارت الإنكليز بعساكرهم لقتاله بمصر ، والكلام على ذلك طويل ، وفي آخر الأمر انهزم عرابي باشا ومن معه ، ثم دخلوا مصر وقبضوا على عرابي باشا وعلى كثير ممن كانوا معه ، فقتلوا جماعة منهم ونفوا جماعة نفياً مؤقتاً وجماعة نفياً مؤبداً ، وصار العفو عن قتل عرابي باشا ، ونفوه مع بعض من كانوا معه إلى جزيرة سيلان من أعمال مليبار من بلاد الهند ، وجعلوا إقامته ومن معه هناك ، ورتبوا لهم مرتباً يكفيهم ، واستولى الإنكليز على القطر المصري ، ووضعوا عساكرهم في القلعة على صورة أنهم إنما فعلوا ذلك إعانة لمحمد توفيق باشا وأبقوه على ولايته ، والإنكليز مع ذلك كله يقولون ليس مرادنا الاستيلاء على مصر وإنما مرادنا الإصلاحات

والتأييد لمحمد توفيق باشا ، وإذا استقامت الأمور وانتظمت أحوال مصر نخرج منها ونُخرج عساكرنا .

وفي سنة سبع وتسعين ظهر رجل بالسودان اسمه محمد أَحمد يقال إنه المهدي أو قائم طالب لإظهار الحق ، ولم يدّعِ أنه المهدي ، ويقال إنه شريف حسني ، وكان قبل ظهوره مشهوراً بالصلاح ومن مشايخ الطرائق ، قيل إنه على طريقة الشيخ اليمان ، وأول ظهوره أنه لما كثر أتباعه ومريدوه وقع اختلاف بينه وبين العساكر المصرية المتملكين للسودان عمالاً لصاحب مصر محمد توفيق باشا ، ثم اتسع الأمر بينهم وبينه إلى القتال ، وقاتلهم مراراً وكانت الغلبة لمحمد أحمد عليهم حتى استولى على كثير من بلاد السودان وأخرجهم منها ، فلما دخل الإنكليز مصر صار الإنكليز هو الذي يجهز عليه العساكر ويقاتله بعساكر الإنكليز ومعهم عساكر مصر ، ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة يطول الكلام بذكرها ، والغلبة في تلك الوقائع كلها له عليهم ، فتملك كردفان وكَسْلة والخرطوم وبربرة ودنقلة وغير ذلك وقتل منهم خلقاً كثيراً لا يحصى عددهم ، وكان أمره معهم عجيباً يأتون إليه بالعساكر الكثيرة والمدافع والآلات الشهيرة التي لا يطيق أحد مقابلتها فيقابلهم بجيوشه السودانيين وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين ، فيهجمون على تلك العساكر في موضعهم ومحط جيشهم ولا يبالون بمدافعهم وآلاتهم حتى يخالطوهم ويقتلوا أكثر من قُرْب طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف والسكاكين ويشتتون شملهم ، ومنهم جماعة في براري سُواكِن قد ولّى محمد أحمد عليهم رجلاً يسمى عثمان ذقنة ، فجاء بمن معه من السودان لمحاصرة سواكن وإخراج الإنكليز والعساكر المصرية منها ، فخرجوا إليه بجيوشهم الكثيرة وآلاتهم ومدافعهم الشهيرة ، فهزمهم عثمان ذقنة ومن معه من السودان هزيمة بعد هزيمة وقتل الكثير منهم ، حتى إنهم جاؤوه في سنة اثنتين وثلاثمئة بنحو من سبعين مركباً مشحونة بالعساكر الكثيرة والآلات والاستعدادات الوفيرة ، وخرجوا لقتاله في البر قريباً من سواكن فهزمهم وقتل أكثرهم وشتت شملهم وغنم أكثر أموالهم ودوابهم وذخائرهم وأسبابهم ، وإلى هذا الوقت وهو شهر ذي الحجة من سنة ثنتين وثلاثمئة وعثمان ذقنة ومن معه من السودان في نواحي سواكن محاصرون لها وفيها عساكر الإنكليز وصاحب مصر ، قيل إن جيوش محمد أحمد تبلغ ثلاثمئة ألف أو يزيدون ، وأما دعوى أنه

المهدي فمختلف فيها ، فمن الناس من يقول إنه يدعي أنه المهدي ، ومنهم من يقول لم يدّع أنه المهدي بل يقول إنه قائم لإظهار الحق وإقامة الشريعة وإخراج الإنكليز من مصر ، والله أعلم بحقيقة الحال ، والأكثر من الناس يقولون إنه رجل صالح على غاية من الاستقامة ، ومنهم من يقدح فيه وينسب إليه خلاف ذلك ويقول إن جيوشه يقع منهم فساد كثير وليس لهم غرض إلا القتل والنهب ، وإنهم في استيلائهم على كردفان والخرطوم وغيرهما قتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين فيهم العلماء والصلحاء والنساء والأطفال ، وقيل إن وقوع ذلك كان من بعض المفسدين منهم ولم يرض بذلك محمد أحمد ولم يأمر به ، والله أعلم بحقيقة الحال ، وقد قال النبي ﷺ بأن انتصار آخر هذه الأمة في آخر الزمان بالسودان فيحتمل أنهم هؤلاء ويحتمل أن يكونوا غيرهم ، وانتصارُ المسلمين بهم في آخر الزمان مأخوذ مما ذكره الخازن في تفسيره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ من سورة الواقعة ، فإنه قال ما نصه : ثُلّةٌ من الأولين يعني من المؤمنين الذين قبل هذه الأمة ، وثلة من الآخرين يعني من مؤمني هذه الأمة ، ويدل عليه ما رواه البغوي بإسناد الثعلبي عن عروة بن رويم ، قال : « لما أنزل الله عز وجل قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله آمنّا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منها قليل ، فأنزل الله عز وجل ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وقال له قد أنزل الله فيما قلت ، فقال عمر رضي الله عنه : رضينا عن ربنا وصدقنا نبينا ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ « من آدم إلينا ثلة ومنا إلى يوم القيامة ثلة ، ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله » اهـ .

ومثل ذلك في تفسير الخطيب الشربيني ، وفي التفسير المسمى بالدُّر المنثور للجلال السيوطي أن عروة بن رويم يروي هذا الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، وأن الحديث المذكور أيضاً رواه ابن مردويه وابن عساكر لكن اللفظ الذي ذكره في الدر المنثور قال في آخره : « وأمتي ثلةٌ ، ولن تستكمل ثلتنا حتى نستعين بسودان من رعايا الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » اهـ .

فَيُحْتَمَلُ أن المراد من السودان أنهم هؤلاء القائمون مع محمد أحمد وعثمان ذقنة ،

ويحتمل أن يكون غيرهم والله أعلم بغيبه لهم ، وكل ما أخبر به النبي ﷺ لا بد من وقوعه .

وروى ابن مكرم الإفريقي في كتاب له سَمّاه « لسانَ العرب » حديثاً لم يذكر مَنْ خَرَّجه ، وقال فيه : إن النبي ﷺ قال : « يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير الغضب ، أصحابه محسرون محقرون مقصون عن أبواب السلطان ومجالس الملوك يأتونه من كل أوب كقزع الخريف ، يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها » ، اهـ .

فيمكن أنهم هؤلاء السودان القائمون مع محمد أحمد أو غيرهم ، وقد ذكر كثير من العلماء الذين ألفوا رسائل في ظهور المهدي وعلاماته أن من علامات ظهوره خروج السودان ، منهم الجلال السيوطي والعلامة ابن حجر والعلامة المتقي والعلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في كتابه المسمى : بالإشاعة في أشراط الساعة ، ففي رسالة الجلال السيوطي المسماة بالعرف الوردي في علامات المهدي حديث عن النبي ﷺ فيه : « إذا خرجت السودان طلبت العرب ينكشفون حتى يلحقوا ببطن الأردن أو ببطن الأرض ، فبينما هم كذلك إذ خرج السفياني في ٣٦٠ راكباً حتى يأتوا دمشق ، فلا يأتي عليهم شهر حتى يبايعه من كلب ثلاثون ألفاً » والأحاديث التي جاء فيها ذكر السفياني كثيرة شهيرة والكلام عليها طويل ، وهو يريد قتال المهدي عند ظهوره ، ثم يخسف بجيش السفياني ويهلكه الله تعالى .

وفي رسالة ابن حجر المسماة : بالقول المختصر في أخبار المهدي المنتظر : أن من علامات ظهور المهدي ألوية تقبل من المغرب وأن خروج أهل المغرب إلى مصر من أمارات خروج السفياني ، وذلك إنما يكون عند ظهور المهدي وجهة السودان بالنسبة إلى مصر مغرب ، فيحتمل أنهم هؤلاء القائمون مع محمد أحمد ويحتمل أن يكون المراد غيرهم ، وكذا قوله خروج أهل المغرب إلى مصر يحتمل أن يكونوا هؤلاء لأنه يصدق على الجهة التي ظهروا منها أنهم من المغرب بالنسبة لمصر ، ويحتمل أن يكونوا غيرهم ، والله أعلم بأسرار غيبه وأسرار أحاديث نبيه ﷺ .

ومن علامات ظهور المهدي الرايات السود التي تخرج من خراسان ، وجاء فيها أحاديث كثيرة ، قال في الإشاعة : يمكن أنها هي التي خرجت في زمن المهدي

العباسي بن المنصور ، ويحتمل أنها أيضاً تخرج عند ظهور المهدي المنتظر .

وفي شرح الشجرة النعمانية للشيخ صلاح الدين الصفدي عبارات تفيد أن الدولة العلية العثمانية تبقى قوتها وسلطنتها إلى ظهور المهدي ، وأنهم يكونون من أعوانه وأنصاره بأنفسهم وأموالهم وخزائنهم وعساكرهم وآلاتهم وعددهم ، فيجب الدعاء للدولة العثمانية على كل مسلم والذي يقاتلهم يكون باغياً خارجاً عليهم ، فالواجب على كل مسلم السعي في تشييد دولتهم وتثبيت قواعدها وإعانتهم في إظهار الشريعة وإحياء السنن وإماتة البدع والدعاء لهم بالتوفيق ، فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لكل خير وأن يلهمهم كمال الرشد والصلاح ، وكذا سائر وزرائهم وقضاتهم وعمالهم ، ثم إن هذا القائم بالسودان وهو المسمى محمد أحمد إما أن يكون باغياً خارجاً على السلطان فيجب قتاله وإن لم يدّع أنه المهدي ، ويمكن أن الله أقامه لإخراج الإنكليز من مصر إعانة للدولة العثمانية ، ولا يريد الخروج على السلطان وإنما يريد أن يكون من جملة رعايا الدولة العثمانية ، ثم يكون لإعانة المهدي .

ويؤيد ذلك ما ذكره الجلال السيوطي في رسالته التي ألفها في علامات المهدي فإنه ذكر فيها حديثاً أخرجه نعيم بن حماد عن أبي قبيل قال : « يكون أمير بإفريقية اثنتي عشرة سنة ويكون بعده فتنة ، فيملك رجل يملؤها عدلاً ، ثم يسير إلى المهدي فيؤدي إليه الطاعة ويقاتِل عنه » فيمكن أنه هو هذا الرجل المسمى محمد أحمد ويمكن أنه غيره ، والله أعلم بأسرار غيبه ، وقيل إن الناس يشيعون أنه هو المهدي إنما هم بعض أتباعه ليرغبوا عامة الناس في اتباعه والدخول في طاعته ، وأما هو فإنه لم يدّع أنه المهدي ، بل قال بعض من اجتمع به إنه سمع منه بلا واسطة أنه يقول : إني لست أنا المهدي المنتظر وإنما أنا قائم لإظهار الحق وإقامة الشريعة . وأما إن ثبت أنه يدعي أنه هو المهدي المنتظر فالأمر مشكل ، لأن المهدي المنتظر لا يدّعي أنه المهدي ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل الناس لتحصيلها ولا يبايع إلا وهو مكره ، بل لا يبايع الناس حتى يتهددوه بالقتل ، وذلك أن الله يطلع بعض من اختصه من صالحي عباده عليه وعلى علاماته فيدلون الناس عليه فيطلبونه فيفر منهم مراراً ، ثم يمسكونه ويكرهونه على البيعة ويتهددونه بالقتل ، ولا يكون ظهوره والبيعة له إلا والناس بلا خليفة أخذاً من حديث : « يحصلُ اختلافٌ عند موتِ خليفة » وهو أصح حديث رُوي في هذا الباب ، وأما الآن فالناس لله

الحمد لهم خليفة وهو أمير المؤمنين مولانا السلطان عبد الحميد ابن المرحوم مولانا السلطان عبد المجيد ، وبيعته في أعناق المسلمين وسلسلة سلطنته من أحسن الدول الإسلامية ، مقيمين للشريعة السنية محبين للصحابة وأهل البيت ، ناصرين أهل السنة المحمدية ، قامعين أهل البدعة الردية ، فلا يجوز خلع بيعته ولا الخروج عن طاعته ، ثَبّت الله دولته وأيّدَ سلطنته ، فمن خلع بيعته أو ترك طاعته أو خرج عليه فهو باغ معتد .

وأيضاً من علامات المهدي المنتظر أن يكون من ولد فاطمة رضي الله عنها ، وأن يكون ظهوره والبيعة له بمكة بين الركنين ، ولا يصح أن يكون ظهوره والبيعة له بغير مكة ، قال الجلال السيوطي في آخر العرف الوردي في علامات المهدي : وأما قول القرطبي إن ظهور المهدي يكون من المغرب هو باطل .

وقد تابع السيوطي ذلك العلامة العلقمي والعلامة الصبّان في رسالته التي ألّفها في علامات المهدي ، فكلٌّ منهما قال كما قال السيوطي : إنّ قول القرطبي أن ظهور المهدي يكون بالمغرب باطل ، وقال بعضهم : يمكن حمل كلام القرطبي على غير المهدي المنتظر ، فإن كثيراً ممن ادّعى كل منهم أنه المهدي كان ظهورهم بالمغرب كمحمد بن تومرت وعبيد الله العبيدي جَدّ ملوك إفريقية ومصر وخلق كثير غير هذين ، ادعى كل منهم أنه المهدي بالمغرب وغيره ، وذلك لأن المهديين متعددون والمهدي المنتظر واحد ، وهو يكون من ولد فاطمة يكون ظهوره بمكة والناس بلا خليفة ، ويُبايع مكرهاً ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاسي لتحصيلها ، ويكون في زمنه خروج المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ، ويجتمع به .

ومما يدل على أن المهديين متعددون والمهدي المنتظر واحد ما ذكره العلامة ابن حجر في الصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقة ، حيث قال حاكياً لقول من قال : إن المهدي من ولد العباس وهو والد هارون الرشيد واسمه محمد المهدي بن عبد الله المنصور بناء على الأحاديث المذكورة فيها : أن المهدي من ولد العباس عم النبي ﷺ ، وقال : إنه من أحسن خلفاء بني العباس وهو فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أمية ، ثم قال ابن حجر موجهاً لقوله هذا القائل : ويمكن أنه مهدي من ولد العباس وهو غير المهدي المنتظر ، فإن المهدي المنتظر من ولد فاطمة رضي الله عنها ، ويكون في زمنه خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به .

فهذه العبارة صريحة في تعدد المهديين ، وجمع بعضُهم بين الأحاديث التي فيها أنه من ولد فاطمة والأحاديث التي فيها أنه من ولد العباس بطريق آخر ، فقال : إن المهدي المنتظر من ولد فاطمة من جهة أبيه ، ومن ولد العباس من جهة أمه ، بأن تكون أمه أو أم بعض آبائه من ولد العباس ، وكلام ابن حجر في رسالته التي في علامات المهدي يقتضي أيضاً تعدد المهديين ، وأن المهدي المنتظر واحد فإنه قال فيها : والذي يتعين اعتقاد ما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة من وجود المهدي المنتظر وهو الذي يخرج الدجال وعيسى عليه السلام في زمنه ، وهو المراد حيث أطلق المهدي ، وأما من قبله فليس واحد منهم هو المهدي المنتظر ، ويكون بعد المهدي أمراء صالحون لكنهم ليسوا مثله فهو الأخير في الحقيقة ، وكذلك غير ابن حجر ممن ألفوا رسائل في علامات المهدي كلهم يقتضي كلامهم تعدد المهديين ، وأن المهدي المنتظر واحد وإنما قالوا بذلك التعدد لأنه قيل في محمد بن الحنفية إنه المهدي ، وقيل في عمر بن عبد العزيز إنه المهدي ، وقيل في محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط إنه المهدي ، فهؤلاء أطلق على كل واحد منهم أنه المهدي ، فثبت بذلك تعدد المهديين قطعاً ، لكن ليس واحد من هؤلاء هو المهدي المنتظر ، فالمهدي المنتظر واحد وهو لم يظهر إلى الآن ، فيمكن حمل كلام القرطبي على غير المهدي المنتظر ممن كان خروجهم بالمغرب ، ولا يمكن حمل كلامه على المهدي المنتظر لأنه إنما يظهر بمكة والناس بلا خليفة كما تقدم إيضاحه ، وكذلك لا يصح قول من قال إنما يكون ظهور المهدي المنتظر من ماسة بالمغرب فهو قول باطل لا أصل له كما نبه على ذلك العلامة ابن خلدون في تاريخه فإنه قال : إن القول بظهوره من ماسة باطل لا أصل له ، وإنما نشأ ذلك من رجل من المتصوفة خرج بالسوس الأقصى وعمد إلى مسجد ماسة وزعم أنه الفاطمي المنتظر تلبيساً على العامة هناك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك ، وأفهمهم أن من ذلك المسجد تكون أصل دعوته ، فتهافتت عليه تهافت الفراش طوائف من عامة البربر ، ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدسّوا إليه من قتله في فراشه وانطفأت الفتنة .

والحاصل أن الذي تقتضيه الأحاديث النبوية وصرح به العلماء أن المهدي المنتظر إلى هذا الوقت لم يظهر ، وذكروا له علامات كثيرة بعضها مضى وانقضى وبعضها باقٍ لم يظهر ، ومن أعظم علاماته أنه يصلحه الله في ليلته ، وأنه من ولد فاطمة رضي الله

عنها ، وأنه يبايع مكرهاً لا أنه يطلب البيعة لنفسه ، ويقاتلُ الناس لتحصيلها ، بل لا يبايع حتى يتهدد بالقتل ، وأن ظهور البيعة له إنما يكون بمكة بين الركنين ، وأن ظهوره إنما يكون عند وجود اختلاف بموت خليفة ، فلا يظهر ولا يبايع إلا والناس بلا خليفة ، فهذه الأشياء هي أقوى العلامات عليه ، وله علامات كثيرة غير هذه ذكرها الذين ألفوا الرسائل في تحقيق أمره ، لكن تلك الأشياء ظنية ومختلف في كثير منها ، وذلك مثل اسمه واسم أبيه وموضع ولادته ومقدار عمره ووقت ظهوره ومدة مكثه في الأرض بعد ظهوره ، فكل هذه الأشياء مختلف فيها .

فمما قيل في مقدار عمره وقت ظهوره أنه ابن أربعين ، وقيل إنه ابن عشرين ، وقيل إنه ابن ثمانية عشر ، وقيل غير ذلك ، وقيل في مدة مكثه بعد ظهوره إنها سبع أو تسع سنين ، وقيل إنها أربعون ، وقيل عشرون ، وقيل غير ذلك .

وقيل في اسمه إنه محمد ، وقيل أحمد وهل هو من ولد الحسن أو الحسين أو العباس ، وجمع بعضهم بأنه من ولد أحد الحسنين من جهة أبيه ومن ولد الآخر من جهة أمه ، وفي بعض أمهاته من هي من ولد العباس .

والأحاديث التي جاء فيها ذكر ظهور المهدي كثيرة متواترة ، فيها ما هو صحيح ، وفيها ما هو حسن ، وفيها ما هو ضعيف وهو الأكثر ، لكنها لكثرتها وكثرة رواتها وكثرة مخرجيها يقوي بعضها بعضاً حتى صارت تفيد القطع ، لكن المقطوع به أنه لا بد من ظهوره وأنه من ولد فاطمة وأنه يملأ الأرض عدلاً ، نبه على ذلك العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في آخر الإشاعة .

وأما تحديد ظهوره بسنة معينة فلا يصح لأن ذلك غيب لا يعلمه إلا الله ولم يُرَ نصٌ من الشارع بالتحديد ، وقد ذكر كثير من المتقدمين من العلماء تحديد ظهوره في سنين عينوها بالظن والتخمين فلم يخرج فيها ، فأخطؤوا في ظنهم وتحديدهم ، ويؤخذ من قوله ﷺ في المهدي : « أنه يصلحه الله في ليلته » أن المهدي لا يعلم بنفسه أنه المهدي المنتظر قبل وقت إرادة الله إظهاره ، ويؤيد ذلك أن النبي ﷺ وهو أشرف المخلوقات لم يعلم برسالته إلا وقت ظهور جبريل له بغار حراء حين قال له : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] وأما قبل ذلك فكان يرى منامات كثيرة تأسيساً لرسالته وتقوية لقلبه ، لكنه لم

يعلم أن المراد منها تأسيس الرسالة ، حتى إنه كان كلما رأى مناماً من تلك المنامات يخبر زوجته خديجة رضي الله عنها ويشكو إليها حاله ، فكانت تثبته وتقول له كلاماً يقوىٰ به قلبُه كما هو موضّح بكتب الحديث ، فإذا كان النبي ﷺ لم يعلم بأنه رسول الله إلا بعد ظهور جبريل عليه السلام وقوله له : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ فبالأَوْلى أن المهدي المنتظر لا يعلم بأنه المهدي المنتظر إلا بعد إرادة إظهاره ، ولذلك يمتنع من البيعة حتى يتهدد بالقتل ويبايع مكرهاً ، فهذا هو سر قوله ﷺ : « يصلحه الله في ليلته » ليعلم من ذلك أنه لم يعلم أنه المهدي المنتظر إلا وقت إرادة الله ، فكل من يدّعي أنه المهدي المنتظر ويطلب البيعة لنفسه أو يقاتل الناس لتحصيلها فهو مخالف لما صرحت به أحاديث النبي ﷺ ، وقد ادّعى هذه الدعوى كثيرون فيما تقدم من الأزمان ، ولم تثبت دعواهم وكان لهم مع الخلفاء وقائع وحروب مذكورة في التواريخ ، وقد جُمعت أسماؤهم ووقائعهم باختصار في رسالة مستقلة ليعلم من وقف عليها أن كل من ادعى هذه الدعوى لا تتم له ، ولا تتم إلا إذا جاءت على طبق ما أخبر به النبي ﷺ لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، وقد ذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه كلاماً فيه فوائد تتعلق بهذا المبحث ، فلنذكر ملخص ذلك تتميماً للفائدة .

وحاصل ذلك أن الذين يدّعون هذه الدعوى إما أن يكونوا موسوسين أو مجانين فلا علاج لهم إلا التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا فتنة ، وإلا يسخر بهم وتذاع السخرية بهم والصفع في الطرق أو الأسواق ، وإما أن يكونوا من طالبي الرئاسة والملك ، فيجعلون هذه الدعوى وسيلة لذلك ويغفلون عما ينالهم من الهلكة وإسراع الهلاك والقتل من الملوك والسلاطين عند إحداثهم فتنة بهذه الدعوى ، وقد يكون بعض من ادّعى هذه الدعوى من الصالحين ويريد إظهار الحق ويتخيل له أنه هو المهدي ، فيخطىء ظنه ولا يعرف ما يلزمه وما يحتاج إليه في إقامة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن الله لم يكتب عليه في ذلك إثارة فتنة ، وإنما أمره الله تعالى به حيث تكون القدرة عليه ، قال ﷺ : « مَنْ رأى منكم مُنْكراً فليغيره بيده ، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

وأحوال الملوك والدول قوية راسخة لا يزحزحها ولا يزلزلها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها العصبية بالقبائل والعشائر ، وهكذا كان حال الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله تعالى بالعشائر والعصائب ، وهم المؤيدون من الله تعالى بالكون كله لو شاء ، لكنه سبحانه وتعالى إنما أجرى الأمور على مستقر العادة وأنه حكيم عليم ، فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان محقاً قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هُوّة الهلاك ، وأما إن كان من المتلبسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لأن أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ، ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة ، وكل أمر يجتمع عليه الخلق كافّة لا بد له من العصبية ، وفي الحديث الصحيح : « ما بعث الله نبياً إلا في مَنَعَةٍ مِنْ قومه » وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى من الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم ألّا تخرق لهم العوائد في الغلبة بغير عصبية ، والغفلة عن هذا هي أكثر أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء ، فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طريق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء ، داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف رجاء الثواب عليه من الله تعالى ، فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك ، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين ، وكثير منهم يدعي أنه المهدي المنتظر ولم تصح دعواهم ، ويتبعهم كثير من العامة والأغمار ممن لا يرجعون إلى عقل يهديهم ، ولا علم يفيدهم يستجيبون لكثير ممن يدّعون هذه الدعوى لما اشتهر من ظهور فاطمي ، ولا يعلمون حقيقة الأمر ، وأكثر ما يكون ذلك في الممالك القاصية ، وأطراف العمران بإفريقية ، والسوس من المغرب ، وتجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطاً بماسة لما كان بذلك الرباط بالمغرب من الملغين من كدالة ، واعتقادهم هو أنهم قائمون بدعوة الفاطمي ، يزعمون ذلك زعماً لا مستند له إلا البعد عن القاصية عن مثار الدولة وخروجها عن نطاقها ، فتقوى عندهم الأوهام في ظهور الفاطمي من ذلك الموضع لخروجه عن رتبة الدولة ومثار الأحكام والقهر ، ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذا الوهم ، وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تنشأ عن وسواس وحمق ، وقد قتل الملوك والرؤساء كثيراً منهم .

ثم قال : أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الأيلي ، قال : خرج برباط ماسة لأول

المئة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب المريني رجلٌ من مُنْتَحِلي التصوف يعرف بالتوزيري ، وادعى أنه الفاطمي المنتظر ، واتبعه الكثير من أهل السوس من كدالة وكزولة ، وعظم أمره وخافه رؤساء المصادمة وعلماؤهم ، فدس عليه السكسوس من قَتَلَهُ بياتاً وانْحَلَّ أَمْرُه ، وكذلك ظهر في غمارة في آخر المئة السابعة في عشر التسعين منها رجلٌ يعرف بالعباس ، وادّعى أنه الفاطمي المنتظر ، وتبعه الدهماء من غمارة ، ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها ، وارتحل إلى بلد المزمة فقتل بها فيلة ولم يتم أمره ، وكثير من هذا النمط ، وأخبرني شيخنا المذكور بفرسية عن مثل هذا وهو أنه صحب في حَجِّه رجلاً من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعاً معظماً كثير التلامذة ، وكان يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان ، وتأكدت الصحبةُ بيننا في الطريق ، ثم كشف لي عن أمرهم وأنهم إنما جاؤوا من مواطنهم بكربلاء قاصدين أرض المغرب لإظهار دعوى أنه الفاطمي المنتظر ، فلما وصل المغرب وعاين دولة بني مرين وكان أمير المسلمين يوسف بن يعقوب في ذلك الوقت منازلاً تلمسان ، فلما رأوا قوة ملكه قال ذلك الرجل لأصحابه : ارجعوا بنا فقد أزرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا . وهذا يدل على أن ذلك الرجل استبصر بأن الأمر لا يتم إلا بالعصبية الكافية لأهل الوقت ، فلما علم أنه غريب في ذلك الموطن ولا شوكة له وأن عصبية بني مرين في ذلك الوقت لا يقاومها أحد من أهل المغرب ، استكان ورجع إلى الحق واقتصر عن مطامعه ، وبقي عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لا سيما في المغرب ، إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره ، وإنما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعوه ، وأكثر ما يعتنون بإصلاح السابلة لِمَا أنَّ أكثر فساد الأعراب فيها لِما فيها من طِيب معاشهم ، فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا ، إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون به الإقصار عن الغارة والنهب ، ولا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك لأنها المعصية التي كانوا عليها ومنها توبتهم ، وتجد ذلك المُنْتَحِل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة وغير متعمق في فروع

الاقتداء والاتباع وإنما دينهم الإعراض عن النهب والبغي وإفساد السابلة ، ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش أقصى قصدهم ، وشتان بين هذا الطالب للدنيا وبين من أراد إصلاح الخلق لكل ما يحتاجون إليه من أمر دينهم فاتفاقُهما ممتنع لا تستحكم للأول صبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل ، ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعيته ، فإذا هلك انحلَّ أمرهم وتلاشت عصبيتهم ، وقد وقع ذلك بإفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة في المئة السابعة ، ثم مر بعده لرجل من بادية رياح كان أشد ديناً من الأول وأقوم طريقة في نفسه ، ومع ذلك فلم يستتبّ أمرهما ، وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل ، فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم .

وأولُ ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت الفتنة بين الأمين والمأمون ابني الرشيد وقتل الأمين ، وكان المأمون بخراسان فأبطأ عن مقدم العراق وأراد انتزاع الخلافة من بني العباس ونقلها للعلويين ، فجعل ولي عهده علياً الراضي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، فهاج من ذلك فتن كثيرة ببغداد ، واجتمع بنو العباس وكشفوا وجه النكير على المأمون وتداعوا للقيام وخلعوه وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي ، فوقع الهرج وكثر القتل والنهب ببغداد ، وانطلقت أيدي الدعار بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون ، وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الأسواق ، ورفع أهلوها أمرهم إلى الحكام وقد ضعف أمرهم فلم ينصفوهم ، فتوافر أهل الدين والصلاح وتعاقدوا على منع الفساق وكف عاديتهم .

وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدربوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابه خَلق وقاتل بهم أهل الدعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ، ثم قام من بعده رجل آخر يُعرف بسهل بن سلامة الأنصاري وعلّق مصحفاً في عنقه ، ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فاتَّبعه الناس كافة من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ، ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لأولئك الشطار ، فقال له القائم الأول وهو خالد الدربوس : أنا لا أعيب على السلطان ، فقال

له سهل : لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً مَنْ كان ، وذلك سنة إحدى ومئتين ، فجهز إبراهيم بن المهدي بعد أن بايعه بنو العباس جيشاً لقتال سهل بن سلامة فغلبه وأسره وانحلَّ أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه ، ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم .

ثم ذكر كثيراً من الأحاديث التي جاءت في المهدي وضعف كثيراً منها ، ثم قال : والحق الذي يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه ، وقررنا لك ذلك من قبل بالبراهين القطعية وعصبية الفاطميين بل قريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ، ووجد أمم آخرون وقد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع والمدينة من الطالبيين من حسن وحسين بن جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب متفرقة ، فإن صَحَّ ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا أن يكون منهم ويؤلف الله قلوبهم في اتباعه حتى يتم له شوكة وعصبية وافية لإظهار كلمته وحمل الناس عليها ، وأما على غير هذا الوجه فلا يتم ذلك لما أسلفناه من البراهين الصحيحة . انتهى ما أردت نقله من كلام ابن خلدون .

ورأيت في كثير من الرسائل المؤلفة في شأن المهدي أنه لا يتم أمره إلا بالقيام بالشريعة الغراء ، وأنه يكون على مثل ما كان عليه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون ، ويفيض الله على الخلق نوراً ببركته ، فيتبعونه ويقتدون به في جميع شؤونه وأفعاله وأقواله وأحواله حتى يكون حالهم كحاله ووصفهم كحال أصحاب النبي ﷺ ، ووصفهم لأن الناس على دين ملوكهم ، فإذا استقام خليفة المسلمين وصار كالخلفاء الراشدين فإنهم كانوا يستقيمون ، وإذا زهد في الدنيا يزهدون ، ومِلَاكُ الأمر كله هو الزهدُ في الدنيا وعدم التبسط فيها ، ومن الأمثال القديمة : الناس على دين ملوكهم .

وذكروا أن السبب في هذا المثل أن الوليد بن عبد الملك بن مروان كان مشغوفاً بتشييد البنيان فكان الناس في زمانه ليس لهم همة إلا تشييد البنيان والقصور ، وفي ذلك طول الأمل والغرور ، ثم ولي بعده أخوه سليمان بن عبد الملك بن مروان فكان مشغوفاً بكثرة الأكل وتنويع الأطعمة وتكثير الألوان ، فكان الناس في زمانه يتفاخرون

بالتوسع في تنويع المأكولات وينهمكون في التلذذ بالشهوات ، وفي ذلك أعظم البليات ، ثم ولي بعد سليمان ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان الملحق بالخلفاء الراشدين ، فكانت همته في الاشتغال بالطاعات والعدل وإقامة الدين ، فكان الناس في زمنه راغبين في فعل الطاعات مستكثرين من فعل الخيرات ، فقالوا : الناس على دين ملوكهم ، فالخليفة الأعظم هو القدوة لجميع المسلمين ، وأعظمُ شيء يقتدون به هو فيه فيكون به صلاحهم وانتظام أمرهم واتفاق كلمتهم والزهد في الدنيا والتناول منها بقدر الضرورة والحاجة وترك الفضول الذي لا يحصل إلا بتعب ولجاجة ، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة وبلية والزهد فيها أصل كل خصلة سنية ، ولا يكون الزهد من العامة إلا بعد زهد الخاصة فإن الخاصة هم العمدة في ذلك ، والمراد من الخاصة الملوك والسلاطين والأمراء والقضاة والعلماء وأَوْلى من يطلب الزهد في الدنيا الخليفة الأعظم الذي أقامه الله لإصلاح الدنيا والدين وإحياء الشريعة وقتال الكفار ودفع المفسدين .

قال الإمام الطرطوشي في كتابه المسمى سراج الملوك : إن الخليفة إذا عدل في بيت المال وساوى نفسه بالمسلمين في الأخذ من بيت المال بقدر الحاجة ، كان المسلمون كلهم عسكراً للإسلام ، اهـ .

والحاصل أنه إذا زهد في الدنيا واقتصر على قدر الحاجة والضرورة في جميع الأحوال يتبعه على ذلك الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وجميع الناس من الرجال والنساء والأغنياء والفقراء ، فإذا حصل ذلك يسهل حينئذ إقامة الشريعة والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتصير همة الجميع متوجهة لاتحاد الكلمة والاجتماع على منهج الشرع المطهر ، فتحيا بذلك السنن التي أميتت وتزول تلك البدع التي أذيعت ويقبل الناس على جهاد الكفار وفعل كل الطاعات ، فإن الكفار إنما تغلبوا على المسلمين بسبب رغبة المسلمين في الدنيا واقتحامهم المعاصي لتحصيلها ، فلا يزيلون منكراً لأن أكثر المنكرات يتوصلون بها إلى تحصيلها وإزالتها مخالفة لأغراضهم التي هم بصددها ، فلا يمكن استقامتهم على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، وما داموا لم يكونوا كذلك لا يستقيم لهم أمر ، وقد صح عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان كثيراً ما يقول في خطبه ومجالسه : إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله

ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه . فهذه العبارة نص صريح في أنه لا يستقيم أمر المسلمين حتى يكونوا كما كان الصحابة رضي الله عنهم ، وما دام الخليفة الأعظم يتبسط في الدنيا ويأخذ من بيت المال ما أراد مما زاد عن حاجته الضرورية ويتكرم في العطاء بما شاء على من شاء ولا يراعي في ذلك القواعد المشروعة ولا يسلك مسلك الخلفاء الراشدين ، فإن الناس يتبعونه فلا يمكن حصول الاستقامة لهم ولا تتحد كلمتهم ولا ينتظم أمرهم ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، بل يصيرون كلهم يطلبون الدنيا ويتلذذون بالشهوات ويرتكبون لتحصيلها أنواع الخطيئات ، لأن الله تعالى أجرى عادته بين العباد أن يكون الناس على دين ملوكهم ، فهذا هو السبب في عدم اتحاد المسلمين واتفاق كلمتهم ، وأما في زمن المهدي فإنه يسلك هو مسلك الخلفاء الراشدين ويزهد في الدنيا ولا يأخذ من بيت المال إلا بقدر الضرورة ، والناسُ يكونون في زمنه على طريقته يفعلون كما يفعل ، فظهر بهذا أنه إذا زهد الخليفة الأعظم في الدنيا وعدل في بيت المال وأخذ منه بقدر حاجته الضرورية من غير زيادة له ولخدمه وأتباعه واتخذ له من الخدم الذين يقومون بخدمته بقدر الحاجة الضرورية وأيضاً من غير زيادة يتبعه على ذلك الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء كافّة وجميع الأبرار والفجار ، والخليفةُ أمين على بيت مال المسلمين لا يتصرف في شيء منه إلا بحسب المصلحة العائدة بالنفع على الإسلام والمسلمين ، فهو مثل قيّم مال اليتيم لا يتصرف إلا بالمصلحة الظاهرة ، فإن كان له مال خاص يستعف به عن الأخذ من مال المسلمين فلا يأخذ شيئاً ، وإن لم يكن له مال يأخذ بقدر الحاجة والضرورة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ٦] فإذا فعل ذلك اقتدى به الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء والخلق كافة ، فتتحد قلوبهم وتجتمع كلمتهم ويقبلون على فعل الطاعات ويعرضون عن فعل السيئات ويتركون التلذذ بالشهوات ، فيتم اجتماعهم على نصرة الدين ويصيرون كلهم عسكراً لنصرة الإسلام ، ويقوى عزمهم على قتال أعدائهم من القوم الكافرين ، وأما إذا تبسط الخليفة في مال المسلمين وتبعه الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء ، فلا تطيب قلوب بقية المسلمين ببذل أموالهم وأنفسهم وأولادهم في قتال الكافرين ، حيث يرون ملوكهم لم يساووهم ، وما كان انتصار الصحابة على القوم الكافرين وفتحهم البلاد الواسعة مع

الاتحاد واتفاق الكلمة إلا بسبب مساواة أمرائهم لهم في جميع شؤونهم ، وما حصل افتراق الكلمة وعدم ائتلاف القلوب إلا لما استبد الملوك بالأموال وتبسطوا فيها وترفعوا على بقية المسلمين ، وأكثروا من المكوسات والظلم بأخذ أموالهم وصرفوها في غير مصارفها ، فشق على المسلمين تميزهم منهم وترفّعهم عليهم بأموالهم التي أخذوها منهم بغير حق ، ولا يظن ظانٌّ أن الخلفاء الراشدين إنما فتحوا الأمصار وانتصروا على الكفار بكثرة الصلاة والصيام ، بل إنما كان ذلك بزهدهم في الدنيا وعدم تبسطهم بما وعد لهم في بيت المال والحرص على مساواتهم للمسلمين ، فطابت قلوب بقية المسلمين فبذلوا أموالهم وأنفسهم وأولادهم ، وجاهدوا الكفار وفتحوا البلاد ، حتى كان الغزاة يتجهزون للغزو من أموال أنفسهم ويجهزون منها غيرهم إن قدروا على ذلك ونفوسهم طيبة بذلك ، وتأبى نفوسهم أن يأخذوا من بيت المال شيئاً إذا كان لهم ما يفي بذلك ، لأنهم يرون أمراءهم مساوين لهم في جميع تلك الشؤون ، وإذا سلك الخليفة والأمراء والعلماء هذا المسلك يرتفع عن المسلمين المكوسات والضرائب وينتفي عنهم جور الحكام ، لأنهم إنما يجورون عليهم ليتبسطوا في أموالهم ويتلذذوا بها ، وإذا ساوى الحكام رعاياهم وعدلوا في بيت المال تستحيي نفوس الأغنياء بإعطاء الفقراء ويواسونهم ، وتقنع نفوس الجميع بأقل القليل ، فلا يبقى من المسلمين فقير ، وينقاد الناس للحق وينصفون من أنفسهم فتزول المخاصمات التي كانت بينهم ، وتقلُّ مرافعاتهم إلى الحكام ، ويحصل بينهم كمال المحبة والائتلاف ، ويرتفع كل شقاق واختلاف ، وإذا عدل الخليفة في بيت المال وسلك في ترك التبسط في الدنيا طريق النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، كان قدوة للمسلمين ، ويكون له من الأجر مثل أجر من عمل بمثل عمله من المسلمين ، وكان سبباً في اتحاد المسلمين وائتلاف قلوبهم واتفاق كلمتهم وانتصارهم على القوم الكافرين ، ويكون له في ذلك من الله الرضا والرضوان في الدنيا وجنات النعيم ، وتقر بذلك عين النبي ﷺ فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ويستحيل أن يحصل لهم شيء من ذلك والخليفة لم يكن كذلك ، لأنهم إنما يفعلون وحالهم عن ذلك لا يتحول ، والتبسط في الدنيا من أعظم أسباب الفسق الموجب للهلاك قال تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء : ١٦] وعدم التبسط في الدنيا هو مِلاكُ الأمر ، وليس على الخليفة في

سلوك هذا الطريق مشقة ولا ضيق ولا منع من إدراك الحق ولا تعويق ، وينال بغيته من الأكل والشرب والنكاح بغاية الراحة والتلذذ .

والحاصل أن استقامة الخليفة حتى يكون كالخلفاء الراشدين في عدله في بيت المال هو السبب الأعظم في اجتماع كلمة المسلمين واتحادهم في جميع الأحوال ، وعدم عدله في بيت المال سبب للافتراق في الحال والمآل ، ولو صام النهار وقام الليالي الطوال ، وبدون استقامة الخليفة وعدله في بيت المال كالخلفاء الراشدين لا يُرجى للمسلمين فلاحٌ ولا يتم لهم اتحادٌ ولا نجاح ، ولنذكر لك نبذة مما كان من الزهد وترك التبسط في الدنيا مما كان صادراً من النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، لتعلم أن انتظام أمور المسلمين بدون ذلك محال واتحادهم بغير سلوكه مكابرة وجدال .

خاتمة نسأل الله حسنها

نذكر فيها ما كان من النبي ﷺ

والخلفاء الراشدين من الاقتصاد وحسن السيرة

ذكر ما كان من النبي ﷺ من الاقتصاد في الدنيا

وما كان عليه من مكارم الأخلاق

كان رسول الله ﷺ أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس ، لم تمس يده قط امرأةً لا يملك رِقَّها أو عصمةَ نكاحها أو تكون ذاتَ مَحْرم منه ، وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإنْ فَضَلَ شيء ولم يجد من يعطيه وفَجأهُ الليل لم يأوِ إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله ، لا يُسْأَلُ شيئاً إلا أعطاه ، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه ، حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ويقطع اللحم معهن ، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ويجيب دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن إجابة الأَمَة والمسكين ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه ، عُرِضَ عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك . ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلاً بين اليهود فلم يحفَّ عليهم ولا زاد على مر الحق بل وَدَاه بمئة ناقة وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به ، وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال ، وإن وجد تمراً دون خبز أكله وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز برّ أو شعير أكله ، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله ، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به ، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله ، لا يأكل متكئاً ولا على خوان ،

منديله باطن قدميه ، لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى إيثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً ، يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ، أشدّ الناس تواضعاً وأسكنهم في غير كِبْر وأبلغهم في غير تطويل وأحسنهم بشراً ، لا يهوله شيء من أمور الدنيا ، ويلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانياً ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس ، وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن مرة والأيسر مرة أخرى ، يردف خلفه عبده أو غيره ويركب ما أمكنه مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة بغلة شهباء ومرة حماراً ومرة يمشي راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ، يعود المرضى في أقصى المدينة يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة ، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ، يصل ذوي رَحِمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لا يجفو على أحد يُقبِلُ مُعْتذراً إليه ، يمزح ولا يقول إلا حقاً ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق أهله وترفع الأصوات عليه ويصبر ، وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها ، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس ، ولا يمضي له وقت من غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له من صلاح نفسه ، يخرج إلى بساتين أصحابه ، لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته ولا يهاب ملكاً لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً ، قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقر وفي رعاية الغنم يتيماً لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول ، وفقّنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يا رب العالمين ، وما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره ، وكان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قَبِل وما سقوه شَرِبَ ، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب ، وكان أكثر طعامه الماء والتمر ، وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطيبين ، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل ما وجد ، وكان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي ، وكان إذا وضعت المائدة قال : « اللهمَّ اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة

مشكورة تصل بها نعمة الجنة » وكان يأكل مما يليه ويأكل بأصابعه الثلاث وربما استعان بالرابعة ولم يكن يأكل بأصبعين ويقول : إن ذلك أُكلة الشيطان . وكان لا يأكل الحار ويقول : « إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً فأبردوه » وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول : « هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل » وكان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول : « إنها شجرة أخي يونس عليه السلام » قالت عائشة رضي الله عنها : وكان يقول : « يا عائشة إذا طبختم قِدْراً فأكثروا فيها من الدباء فإنه يشد قلب الحزين » وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد له وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله ، وكان يلعق بأصابعه الصفحة ويقول : « آخر الطعام أكثر بركة » وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر ، وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ، ويقول : « إنه لا يدرى في أي الطعام البركة » وإذا فرغ قال : « اللهمّ لك الحمد أطعمت فأشبعت وأسقيت فأرويت ، لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه » وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلاً جيداً ، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه ، وكان يشرب في ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفي آخرها ثلاث تحميدات ، وكان يمص الماء مصاً ولا يعبُّ عَبّاً ، وأُتي بإناء فيه لبن وعسل فأبى أن يشربه وقال : « شربتان في شربة وأدمان في إناء واحد » ثم قال ﷺ : « لا أحرمه ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله » وكان يعجبه الثياب الخضر ، وكان أكثر لباسه البياض وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق ، وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حَلَّ الأزرار في الصلاة وغيرها ، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره ، وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول : « إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة ، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ، وربما أَمَّ بها الناسَ على الجنائز ، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفاً به مخالفاً بين طرفيه ، ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ ، وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويُلقي البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك ، ولقد كان له كساء أسود فوهبه لإنسان ، فقالت له أم سلمة

رضي الله عنها : بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود ؟ فقال : « كسوته » فقالت : ما رأيت شيئاً قط أحسن من بياضك على سواده . وقال أنس رضي الله عنه وربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقداً بين طرفيها ، وكان ﷺ يتختم وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء ، وكان يختم به على الكتب ويقول : « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ، ثم يصلي إليها وربما لم تكن العمامة فيشد العمامة على جبهته ، وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من علي رضي الله عنه فربما طلع علي فيها فيقول ﷺ : « أتاكم علي في السَّحَاب » ، وكان إذا لبس ثوباً لبسه من قبل ميامنه ويقول : « الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس » وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره ، وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً ثم يقول : « ما من مسلم يكسو مسلماً من شمل ثيابه لا يكسوه إلا لله إلا كان في ضمان الله وحِرْزه وخيره ما واراه حياً وميتاً » وكان له فراش من أدم حشوه ليف ، طوله ذراعان ونحوه وعرضه ذراعان وشبر ونحوه ، وكانت له عباءة تفرش له حينما تنقل تثنى طاقين تحته ، وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره ، وما عاب رسول الله ﷺ مضطجعاً إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض ، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى ، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة ، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس ، وما رؤي قط مادّاً رجليه بين أصحابه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبلاً القبلة ، وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه ، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته فإن أبى أن يقبلها عزمَ عليه حتى يفعل ، وما استصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطي لكل من جلس إليه نصيبه من وجهه ، حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ، ومجلسُه مجلس حياء وتواضع وأمانة ، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم ويكنّي من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ، ويكني أيضاً النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن

يبتدىء لهن الكنى ، ويكني الصبيان فيسلي به قلوبهم ، وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاً ، وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ، ولم تكن تُرفع في مجلسه الأصوات ، وكان إذا قام من مجلسه قال : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » واستحب بعض العلماء زيادة وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم ، وكان إذا نزل به الأمر فوّض الأمر إلى الله تعالى وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول : « اللهم أرني الحق حقاً فأتبعه ، وأرني المنكر منكراً وارزقني اجتنابه وأَعِذني من أن يشتبه علي فأتبع هواي بغير هدى منك ، واجعل هواي تبعاً لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية ، واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وكان علي رضي الله عنه إذا وصف النبي ﷺ قال : كان أجود الناس كفاً وأوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أَحبَّه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، وما سُئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه ، وأن رجلاً أتاه فسأله فأعطاه غنماً سدت ما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، وما سئل شيئاً قط فقال : لا ، وحُمِل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فما ردّ سائلاً حتى فرغ منها ، وجاءه رجل فسأله فقال : « ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاء شيء قضيناه » فقال عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبي ﷺ ذلك ، فقال الرجل : أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً ، فَتَبَسَّمَ النبي ﷺ وعرف السرور في وجهه ، ولما قفل ﷺ من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله ﷺ وقال : « أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته عليكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً » ﷺ ، وسيرته المذكورة فيها محاسن صفاته ﷺ طويلة ، وفي هذا القدر كفاية ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه
من الاقتصاد في الدنيا وحسن السيرة

لما بويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة بعد وفاة النبي ﷺ أصبح وعلى ساعده أبرادٌ وهو ذاهب إلى السوق ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أين تريد ؟ قال : السوق ، قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ قال : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ؛ أي لأن النبي ﷺ قال : « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ، ففرض له قوت رجل من المهاجرين ليس بأوكسهم ولا أكيسهم وكسوة الشتاء والصيف ، وقال : إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره ، وفي رواية ففرض له نصف شاة وما كساه في البطن والظهر ، وفي رواية أنهم قوموا ذلك بألف وخمسمئة من الدراهم ، وفي رواية أن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما تذاكرا أيضاً في ذلك وفرضا له ما قاله له بمثل أبي عبيدة ، وفي رواية أن عمر وعلياً لما فَرَضا ذلك قال أبو بكر رضي الله عنه : إنما أنتما رجلان من المهاجرين لا أدري أَرَضي بذلك بقية المهاجرين أم لا ؟ فانطلق أبو بكر فصعد المنبر فاجتمع الناس فخطبهم وذكر لهم ذلك ، فقال الناس : رضينا .

وأخرج ابن سعد أيضاً عن ميمونة قال : لما استخلف أبو بكر رضي الله عنه جعلوا له ألفي درهم ، ثم نظروا فرأوا ذلك لا يكفيه وعياله فزادوه خمسمئة فلعل الفرض الأول كان ألفاً وخمسمئة ، ثم زادوا في ذلك حتى أوصلوه ألفين وخمسمئة درهم في كل سنة .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي بكر بن حفص ، قال : قال أبو بكر رضي الله عنه لما احْتُضِرَ لعائشة رضي الله عنها : يا بنية إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لأنفسنا ديناراً ولا درهماً ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وإنه لم يبق عندنا من فيء المسلمين لا قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة ، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر بن الخطاب .

وأخرج الطبراني عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : لما احتُضِر أبو بكر رضي الله عنه قال : يا عائشة انظري اللَّقْحَةَ التي كنا نشرب من لبنها والجفنة التي كنّا نصطبغ فيها والقطيفة التي كنّا نلبسها ، فإنا كنا ننتفع بذلك حين نَلي أمر المسلمين ، فإذا مِتُّ فارْدُدِيه إلى عمر ، فلما مات أبو بكر رضي الله عنه أرسلت به إلى عمر رضي الله عنه ، فقال عمر : رحمك الله يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك . وفي رواية فبكى عمر رضي الله عنه حتى سالت دموعه إلى الأرض ، وجعل يقول : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاء بعده . ويكرر ذلك وأمر برفعه إلى بيت المال ، فأراد عبد الرحمن بن عوف أن يرجعه إلى عيال أبي بكر ، فقال لعمر : سبحان الله تسلبِ عيالَ أبي بكر وعبداً وناضحاً وسحق قطيفة ثمنها خمس دراهم فلو أمرت بردّها عليهم ، فقال عمر : لا والذي بعث محمداً ﷺ لا يكون هذا في ولايتي ولا يخرج أبو بكر منه وأتقلده أنا .

وفي رواية أن عمر قال : ورَبِّ الكعبة لا يتأثّم بها أبو بكر في حياته وأتحمَّلُها من بعد موته أي لا يأمر بردّها خوفاً من الوقوع في الإثم وأتحمّل إثمها بعد موته ، ثم قال : رحم الله أبا بكر لقد كلّف مَنْ بعده تعباً .

وفي رواية وأوصى أبو بكر أن يرد بعد وفاته جميع ما أخذوه من بيت المال لنفقته .

وفي رواية فلما حضرته الوفاة أوصى أنْ تُباعَ أرضٌ له ويصرفَ ثمنُها عِوَضَ ما أخذه من مال المسلمين .

وروي أن زوجته اشتهت حلواً فقال : ليس لنا ما نشتري به . فقالت : أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به حلواً ، فقال : افعلي . ففعلت ذلك ، فاجتمعت لها في أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عَرَّفَتْهُ ذلك ليشتري به أخذه فردّه إلى بيت المال ، وقال : هذا يَفْضُلُ عن قُوتِنا ، وأَسْقَطَ من نفقته بقدر ما نَقَصَت كلّ يوم وغَرِمَهُ لبيت المال من ثمن ملك كان له رضي الله عنه .

قال المسعودي في تاريخه المسمى « مروج الذهب » في صفة أبي بكر رضي الله عنه : كان أزهد الناس وأكثرهم تواضعاً في أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه ، وكان لباسه في

خلافته الشملة والعباءة ، وقدم عليه زعماء العرب وأشرافها وملوك اليمن وعليهم الحلل والبرد المثقل بالذهب والتيجان والحبرة ، فلما شاهدوا عليه من اللباس والتواضع والتنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم ، وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حِمْيَر ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلي ، فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتَزَيَّا بِزيِّ حتى إنه رؤي يوماً في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ، فصرخت عشيرته وقالوا له : فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال : أردتم أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد في الدنيا ، وتواضعت الملوك ومن ورد من الوفود بعد التكبر وتذللوا بعد التجبر ، انتهى كلام المسعودي .

ولما دُفن أبو بكر رضي الله عنه دخلَ الأمناءُ بيت المال ، منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه ديناراً ولا درهماً ، وقيل وجدوا ديناراً سقط من غرارة فترحموا عليه .

قال أبو صالح الغفاري : كان عمر يتعهد امرأة عمياء في المدينة بالليل فيقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ففعل ما أرادت ، فرصده عمر ، فإذا هو أبو بكر يأتيها ويقضي أشغالها سراً وهو خليفة ، فقال : أنت هو لعمري ، ولما ولي الخلافة وارتدت العرب خرج شاهراً سيفه إلى ذي القصة ، فجاءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ بزمام راحلته وقال له : إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد : شُم سيفَكَ لا تفجَعْنا بنفسك ، والله لئن أُصِبْنا بك لا يكون للإسلام نظام . فرجع وأمضى الجيوش مع خالد بن الوليد رضي الله عنه .

قال ابن الأثير : وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما رعيت له وربما خرج هو بنفسه فيها ، وكان يحلب للحي أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم : الآن لا يحلب لنا منايح دارنا ، فسمعها فقال : بلى لعمري لأحلبنها لكم وإني لأرجو ألاّ يغير بي ما دخلت فيه . فكان يحلب لهم وكان ذلك لما كان نازلاً بالسنح في عوالي المدينة عند زوجته حبيبة بنت خارجة ، فكان يغدو على رجليه إلى المدينة وربما ركب فرسه ويأتي المدينة فيصلي بالناس ، فإذا صلى العشاء رجع إلى السنح ، فمكث على

ذلك بعد أن بويع بالخلافة ستة أشهر ، ثم تحول إلى المدينة ، وقال : كان في بعض الأيام يغدو إلى السوق فيبيع ويبتاع فرأى ذلك يشغله ، ثم قال : ما تصلح أمور الناس مع التجارة وما يصلح إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ، فترك التجارة وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم وما يحج به ويعتمر ، ثم أوصى أن تباع أرضٌ له ويصرف ثمنها لبيت المال عِوَضَ ما أخذه من مال المسلمين ، وفي خلافته انفتح معدن لبني سليم ، فكان يسوي في قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام وبين الحر والعبد والذكر والأنثى ، فقيل له في تقديم أهل السبق على قدر منازلهم فقال : إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك في الآخرة ، وإنما هذه الدنيا بلاغ ، وكان يشتري الأكْسِيَةَ ويفرقها في الأرامل في الشتاء ، ولما أسلم رضي الله عنه كان له أربعون ألفاً أنفقها في الله مع ما كسب من التجارة ، وأعتق في أول الإسلام سبعة نفر كلهم كانوا يعذبون في الله لما أسلموا ، منهم بلال وعامر بن فهيرة ، وكان أبو بكر أجود الصحابة لأنه جاء بجميع ماله لرسول الله ﷺ وما أبقى لنفسه شيئاً ، وتخلل بالعباء ، وكان أبو بكر يقول : أكيس الكيس التقوى ، وأحمق الحمق الفجور ، وأصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة . وكان إذا أكل طعاماً فيه شبهة ثم علم به استقاءه من بطنه ويقول : اللهم لا تؤاخذني بما باشرته العروق وخالط الأمعاء .

قال الشعراني في الطبقات : وكان رضي الله عنه يقول : إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما يصلح به أوله ، ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه . وهذا نص صريح في أن أمر هذه الأمة لا يصلح إلا إذا كانوا على سيرة الصحابة ، وكان خليفتهم كالخلفاء الراشدين ، فيسير بهم سيرهم ، وكان أبو بكر يقول : إن العبد إذا دخله العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة . وكان يقول : يا معشر المسلمين استحيوا من الله تعالى ، فوالذي نفسي بيده إني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء متقنعاً استحياء من ربي عز وجل ، وكان رضي الله عنه يقول : ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل . وكان رضي الله عنه يأخذ بطرف لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد ، وكان رضي الله عنه إذا سقط خطام ناقته ينيخها ويأخذه فيقال له : هلّا أمرتنا ، فيقول : إن رسول الله ﷺ أمرني ألّا أسأل الناس شيئاً ، وكان رضي الله عنه يقول للصحابة رضي الله عنهم : قد وليت أمركم ولست بخيركم فأعينوني ، وإذا

رأيتموني استقمت فاتبعوني ، وإذا رأيتموني زغت فقوموني ، وغلب عليه الخوف حتى كان يشم في فمه رائحة الكبد المشوي .

ولما بويع أبو بكر خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخير منكم وإن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه ، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني .

وكان رضي الله عنه لم يشرب خمراً قط لا جاهلية ولا إسلاماً ، ولم يسجد لصنم قط ، ولما سمع الحسن البصري قول أبي بكر رضي الله عنه : « قد وليت عليكم ولست بخير منكم » قال : بلى ولكن المؤمن يهضم نفسه .

ويُرْوى أن أبا بكر رضي الله عنه مَرَّ على طائر واقع على شجرة فقال : طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجرة وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب يا ليتني كنت مثلك ، والله لوددت أني شجرة إلى جنب طريق فمرَّ علي بعيرٌ فأخذني فَلاَكَنِي ثم ٱزْدَرَدَني ثم أخرجني بعراً ولم أكُ بشراً .

وأخرج ابن السماك والحافظ السلفي وغيرهما أن أبا بكر رضي الله عنه بعدما بويع وبعد أن بايعه علي رضي الله عنه وأصحابه أقام ثلاثاً يقول للناس : قد أَقَلتكم بيعتكم هل من كاره ؟ فيقوم علي رضي الله عنه في أول الناس يقول : والله لا نُقيلك ولا نستقيلك قَدَّمك رسول الله ﷺ ، فمن ذا الذي يؤخرك ؟! وقوله قَدَّمك رسول الله ﷺ يعني في الصلاة حيث قال : « مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس » فقال الصحابة رضي الله عنهم أفلا نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا .

وفي رواية احتجب أبو بكر رضي الله عنه عن الناس ثلاثاً يشرف عليهم كل يوم فيقول : قد أقلتكم بيعتي فبايعوا مَنْ شئتم ، فيقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدّمك رسول الله ﷺ ، فمن ذا الذي يؤخرك .

وأخرج الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن أبا بكر قال في خطبته بعد أن بويع : والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها ـ والله ـ في سرّ ولا علانية ، ولكن أشفقت من الفتنة ومالي في الإمارة من

راحة ، لقد قُلّدتُ أمراً عظيماً ما لي به من طاقة إلا بتقوية الله تعالى . وقوله : « أشفقت من الفتنة » ؛ يعني لما رأى الناس اختلفوا بعد وفاة النبي ﷺ فيمن يبايع فأراد المهاجرون أن يكون منهم وأراد الأنصار أن يكون منهم ، فخشي أبو بكر أن يفتتنوا ، فلما طلب منه أبو عبيدة وعمر بن الخطاب أن يبايعه الناس بايعهم خوفاً من افتتانهم .

وقال في خطبته أيضاً : أطيعوني ما أطعت الله تعالى ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، وكان أبو بكر قبل أن يبايعوه أخذ بيد أبي عبيدة وعمر بن الخطاب وقال للناس : بايعوا أحد هذين الرجلين ، في ضمن كلام كثير ذكره ، قال عمر : والله ما كرهت من كلامه كلمة غير هذه ولأن أُقدَّمَ فتُضْرَبَ عنقي فيما لا يقربني إلى إثم أحب إليَّ من أن أُؤَمّر على قوم فيهم أبو بكر . وقال أبو عبيدة : والله لا نتولى عليك هذا الأمر وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله ﷺ في الصلاة وهي أفضل دين المسلمين اَبْسُطْ يَدَكَ نبايعْك ، فبايعه أبو عبيدة وعمر ، ثم بقية الناس .

وأخرج الحافظ أبو ذر الهروي والدارقطني وغيرهما من طرق كثيرة عن أبي جحيفة قال : دخلت على علي في بيته فقلت له : يا خير الناس بعد رسول الله ، فقال : مهلاً يا أبا جحيفة ، ألا أخبرك بخير الناس بعد رسول الله ؟ أبو بكر وعمر ، ويحك يا أبا جحيفة لا يجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب مؤمن ، وكان أبو جحيفة من أَخصّ أصحاب علي الملازمين له ، وهذا الذي ذكره عن علي من تفضيل أبي بكر وعمر كان يخطب به على منبر الكوفة زمن خلافته ، ورواه عن علي سبعون رجلاً من أصحابه ، وقيل رواه عنه نيف وثمانون رجلاً من أصحابه .

وأخرج الإمام أحمد رضي الله عنه أنَّ أبا بكر رضي الله عنه بعد شهر من خلافته نادى في الناس : الصلاة جامعة ، ثم خطب فقال : أيها الناس وددْتُ أنَّ هذا الأمر كفانِيهِ غيري ، وفي رواية : إني وليتُ هذا الأمر وأنا له كارهٌ ، والله لوددت أنَّ بعضكم كفانِيهِ ، ألا وإنكم إنْ كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به ، كان رسول الله ﷺ عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه به ، إنما أنا بشر ولست بخير من أحدكم فراقبوني فإن رأيتموني زغت فقوموني ، وفي رواية : فإذا رأيتموني لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم ، وفي رواية : إنما أنا مُتّبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أنا زغت فقوموني .

قال الإمام مالك رضي الله عنه : لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط ، وكان عثمان بن عفان كاتب أبي بكر رضي الله عنهما ، وربما كتب له أيضاً زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وحنظلة بن الربيع رضي الله عنهم ، فلما مرض أبو بكر رضي الله عنه مَرَضَهُ الذي توفي فيه ، استَخْلَف على الأمة عمَرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه ، فأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يكتب صحيفة الاستخلاف ، وهذه صورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيه حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آلُ الله ورسولَه ودينَه ونفسي وإياكم خيراً ، أي لم أقصّر فيه ، وفي رواية : فإني والله ما أَلَوْتُ من جهدي الرأي ، فإن عدل فظني فيه وعلمي به ، وإن بدل فكل امرىء ما اكتسب والخيرَ أردتُ ، ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون ، والسلام عليكم ، ثم أمر بالكتاب فختمه ، ثم أمر عثمانَ فخرج بالكتاب مختوماً .

وأخرج ابن عساكر عن يسار بن حسن قال : أشرف أبو بكر رضي الله عنه على الناس من كُوّة فقال : أيها الناس إني قد عهدت عهداً أفترضون به ؟ وفي رواية أفترضون بمن استخلفته عليكم فإني ذو قرابة ؟ فقال الناس : قد رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ ، فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر بن الخطاب ، قال أبو بكر : فإنه عمر ، فبايع علي وبايع الناس ورضوا به ، فرفع أبو بكر ودعا فقال : اللهمَّ إني لا أريد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت الفتنة عليهم فعملت بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه ، وأحرصهم على ما يرشدهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضرني فأخلفني فيهم فهم عبادك ، ونواصيهم بيدك ، اللهمَّ أصلح ولايته واجعله من خلفائك الراشدين ، وأصلح له رعيته .

ومما أوصاه به أبو بكر لما استخلفه أَنْ قال له : إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم أوصاه بتقوى الله تعالى ، ثم قال : يا عمر إن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار وحقاً في النهار لا يقبله في الليل ، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، ألم

تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامه باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق الميزان ألا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً ؟ ألم تر يا عمر إنما خفّت موازين من خَفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخِفّته عليهم ، وحق الميزان ألّا يوضع فيه إلا باطل أن يكون خفيفاً ؟ ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرجاء ليكون المؤمن راغباً راهباً لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه إلى التهلكة ؟ ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إني لا أرجو ألا أكون منهم ، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سوء ، فإذا ذكرتهم قلت : أين عملي من أعمالهم ؟ فإن حفظت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ولا بد لك منه ، وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه ، اللهم إني لا أريد بذلك إلا إصلاحهم ، وخفت الفتنة عليهم فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه وأحرصهم على ما يرشدهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضرني فأخلفني فيهم فهم عبادك ، ونواصيهم بيدك ، اللهمَّ أصلحْ ولايته واجعلْه من خلفائك الراشدين وأصلحْ له رعيته .

وأخرج ابن سعد والحاكم عن عبد الله بن مسعود ، قال : أَفْرسُ الناس ثلاثة : أبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب ، وصاحبةُ موسى عليه السلام حين قالت : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] والعزيز حين تَفَرَّس في يوسف فقال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ [يوسف : ٢١] .

قال الزهري : استخلف أبو بكر عمر ، فقام بالأمر أتم قيام وكثرت الفتوحات في أيامه كثرة عظيمة لم يقع نظيرها في أيام خليفة بعد ، وفتح الله في أيامه الشام ومصر والروم والإسكندرية والعراق وفارس ، وقد أشار إلى ذلك النبي في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحَيْهما أنه عليه الصلاة والسلام قال : « رأيت كأني أنزع بدلو على قَلِيب فنزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها أبو بكر فنزع ذَنُوباً أو ذَنُوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ، ثم أخذها عمر بن الخطاب فإستحالت غَرَباً فلم أر عبقرياً يَفْري فَرْيَهُ حتى ضرب الناس بعطن » .

قال النووي في شرح مسلم : ففي هذا الحديث إشارة إلى خلافة أبي بكر وعمر

وإلى كثرة الفتوحات وظهور الإسلام في خلافة عمر ، وفي قوله في أبي بكر « فنزع ذَنوباً أو ذَنوبين وفي نزعه ضعف » إشارة إلى قصر مدة خلافته ، وقوله : « والله يغفر له » ليس فيه إشارة إلى نقص أو تقصير أو ذنب وقع منه ، وإنما هي كلمة تقولها العرب عند الاعتناء بالأمر ، وقوله : « ثم أخذها عمر بن الخطاب فاستحالت غَرَباً » أي دَلْواً عظيماً إلى آخر الحديث ، إشارةٌ إلى طول مدة خلافته وإلى كثرة انتفاع الناس بها واتساع دائرة الإسلام بكثرة الفتوحات وتَمصّر الأمصار وتدوين الدواوين ، وقوله : « عبقرياً » أي رجلاً قوياً شديداً من الناس يفري فريه أي يعمل عمله ، « حتى ضرب الناس بعطن » أي رووا وضربوا بعطن ، والعطن « ما تناخ به الإبل إذا رَوِيت » .

ومن أعظم فضائل أبي بكر قتال العرب الذين ارتدوا عند وفاة النبي ﷺ والذين منعوا الزكاة ، وقال : والله لأجاهدَنّهم ما استمسك السيفُ في يدي وإن منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، فقال له عمر : وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله تعالى » ؟ فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : « إلا بحقها » قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيتُ الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

قال سيدي محيي الدين بن العربي في المسامرة : لما توفي رسول الله ﷺ وطلب أبو بكر الزكاة كفر بها قوم وقالوا قد كنا ندفع أموالنا إلى محمد فما بال ابن أبي قحافة يسألنا ، والله لا نعطيه شيئاً منها أبداً ؟ فاستشار أبو بكر أصحاب رسول الله ﷺ ، فأجمع القوم على التمسك بدينهم في أنفسهم وأن يتركوا الناس مع ما اختاروه لأنفسهم وتخيلوا أنهم لا يقدرون على من ارتد من المسلمين ، فقال أبو بكر : لو لم أجد أحداً يؤازرني لجاهدتهم بنفسي وحدي حتى أموت أو يرجعوا إلى الإسلام ، ولو منعوني عقالاً مما كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لجاهدتهم حتى ألحق بالله تعالى ، فلم يزل أبو بكر يجاهد بأصحاب رسول الله ﷺ حتى عاد الناس جميعاً إلى الإسلام ودخلوا فيه ، كما خرجوا منه ، وبعث خالد بن الوليد إلى بني أسد وغطفان فقتل من قتل وأسر من أسر ورجع الباقون إلى الإسلام ، ثم بَعَث خالداً إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب

الذي ادعى النبوة ودام الحصار أياماً ، ثم قتل مسيلمة الكذاب لعنه الله ، قَتَلَهُ وحشيٌّ قاتلُ حمزة .

وفي السنة الثانية من خلافته بعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين وكانوا قد ارتدوا فقاتلهم ونصر الله المسلمين عليهم ، وقتل من قتل من المرتدين ورجع من بقي منهم إلى الإسلام ، وبعث عكرمة بن أبي جهل إلى عمان وكانوا قد ارتدوا أيضاً ، وبعث المهاجر بن أبي أمية إلىٰ طائفة من المرتدين ، وزياد بن لبيد الأنصاري إلى طائفة آخرين ، وما توفي أبو بكر حتى رجع العرب كلهم إلى الإسلام ، وابتدأ التجهيز لفتوح الشام وقتال الروم ، حتى إن فتح الشام كان ليلة وفاة أبي بكر رضي الله عنه .

ومن ثم أخرج البيهقي وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استُخْلِفَ ما عُبِدَ الله ، ثم قال الثانية والثالثة ، فقيل له : مَهْ يا أبا هريرة ، فقال : إن رسول الله ﷺ جهز جيش أسامة بن زيد ليسير في سبعمئة إلى الشام ، وتوفي رسول الله ﷺ قبل أن يتوجه ذلك الجيش ، وارتدت العرب حول المدينة واجتمع أصحاب النبي ﷺ وقالوا لأبي بكر : رُدَّ هذا الجيش ، كيف توجّهُ هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟ فقال : والله الذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي ما رددت جيشاً وجَّهه رسول الله ﷺ ولا حَلَلْتُ لواء عقده ، فوجَّه أسامةَ فجعل أسامة لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالوا : لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم فلقوهم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام ، واستدل العلماء على عظم علم أبي بكر بقوله : والله لأقاتلنَّ مَنْ فرَّق بين الصلاة والزكاة بقوله والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ فقاتلهم على مَنْعِه .

وقال العلماء أيضاً : إن أبا بكر كان أعلم الصحابة لأنهم كلهم وقفوا عن فهم الحكم في المسألة إلا هُوَ ، ثم ظهر لهم بمباحثته أن قوله هو الصواب ، فرجعوا إليه ، واستدلوا بتلك أيضاً على عظم شجاعته بتصميمه على قتالهم من قوله : لأُجاهِدَنَّهم ما استمسك السيف في يدي ، ومما يدل على شجاعته ثباته يوم وفاة النبي وتثبيته لجميع الصحابة ، ولم يثبت ذلك اليوم أحد غيره وما ثبتوا بعد ذلك إلا بتثبيته ، والقصة مشهورة فلا حاجة لذكرها .

وأخرج ابن عساكر عن علي يوم وفاة أبي بكر دخل عليه وهو مُسجى فقال : ما أحب أن ألقى الله بصحبة أحبّ إليّ من هذا المسجى ، وقد صَحَّ عنه من طرق كثيرة :

لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجحهم .

وقال عمر بن الخطاب مُخبراً عن نفسه : إنه ما سبق أبا بكر إلى خير إلا سبقه أبو بكر .

وأخرج أبو يعلى عن علي قال : أعظم الناس أجراً في المصاحف أن أبا بكر أول من جمع بين اللوحين ، لأن أبا بكر لما كان قتال أهل اليمامة وقتل كثير من الصحابة قال : أخشى أن يَسْتَحِرَّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، فأمر زَيدَ بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والكتب وصدور الرجال ، فجمع في صحف إلى أن كان زمن خلافة عثمان فجمع في المصاحف فما جمعه عثمان إلا من الصحف التي جمعها أبو بكر ، وكان جعل ولاية بيت المال في زمن خلافته لأمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح .

وأخرج البخاري ومسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لو جاء مالُ البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا ، يعني ثلاث حفنات » فلما جاء مال البحرين بعد وفاة رسول الله ﷺ وقال أبو بكر : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا ، فجئت فأخبرته فقال : خذ فأخذت مقداراً فوجدت عدد تلك الدراهم التي أخذتها خمسمئة فأعطاني ألفاً وخمسمئة وفاء بقول النبي ﷺ : « هكذا وهكذا وهكذا » .

ولما مرض أبو بكر مرض الوفاة قال له الناس : ألا ندعو لك طبيباً ؟ قال : قد أتاني وقال لي : أنا فاعل ما أريد ، فعلموا مراده وسكتوا عنه ، وكان سبب مرضه أنه سَمَّهُ يهودي في أرز وقيل في خزيرة أهديت لأبي بكر فأكل هو والحارث بن كلدة طبيب العرب فكفَّ الحارث وقال لأبي بكر : ارفَعْ يدك يا خليفة رسول الله أكلنا طعاماً مسموماً سُمّ سنة ، فماتا بعد سنة في يوم واحد ، وفي رواية : والله إنَّ فيها سُمَّ سنة وأنا وأنت نموت في يوم واحد ، فرفع يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد ، وقيل سبب موته سُمُّ الحية التي لدغته في الغار تحرك عليه أثره قبل وفاته ، ولا مانع من تعدد هذه الأسباب .

وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال : كان سبب موت أبي بكر رضي الله عنه وفاة رسول الله ﷺ كمداً وحزناً ، فما زال جسده ينقص حتى مات .

وأخرج الحاكم عن الشعبي قال : ماذا يتوقع من هذه الدنيا الدنية وقد سُمَّ رسول الله ﷺ وسُمَّ أبو بكر .

وكان ابتداء مرض أبي بكر الذي منعه من الخروج أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خَلَوْن من جمادى الآخرة وكان يوماً بارداً ، فَحُمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج ، وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليالٍ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما ثقل أبو بكر قعدت عند رأسه فتمثلت بقول القائل :

لَعَمْرُكَ ما يُغني التراثُ عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

فقال : لا تقولي هذا ولكن قولي ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] ثم قال : انظروا ثوبيّ هذين فاغسلوهما فكفنوني فيهما ، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت . وصلى عليه عمر بن الخطاب ، ودفن ليلاً إلى جنب رسول الله ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها ، وكان آخر ما تكلم به : تَوَفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين .

ولما توفي أبو بكر رضي الله عنه ارتجّت المدينةُ بالبكاء ودهش القوم كيوم وفاة رسول الله ﷺ .

قال المحبّ الطبري في الرياض النضرة : أخرج الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله الخوارزمي وابن السماك عن أسد بن صفوان وكان قد أدرك النبي ﷺ قال : لما قُبِضَ أبو بكر ارتجت المدينة عليه بالبكاء كيوم قُبِضَ رسولُ الله ﷺ ، فجاء علي بن أبي طالب يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر رضي الله عنه وهو مسجى ، فقال : رحمك الله يا أبا بكر كنت إلفَ رسول الله ﷺ وأُنْسَهُ ومُسْتَرَاحَهُ وَثِقَتَهُ وموضِعَ سره ومشاورته ، كنت أولَ القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً وأخوفهم لله وأعظمهم غَنَاءً في دين الله وأحوطهم على

رسول الله ﷺ وأيمنهم على أصحابه وأحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة وأشبههم برسول الله ﷺ هَدْياً وسَمْتاً ورحمة وفضلاً وأشرفهم منزلة وأكرمهم عليه وأشفقهم عليه ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ خيراً ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صَدَّقْتَ رسولَ الله ﷺ حين كذَّبه الناسُ فسمّاكَ اللهُ في تنزيله صدّيقاً فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر : ٣٣] الذي جاء بالصدق محمد ﷺ ، والذي صَدّق به أبو بكر .

وأخرج البزار وابن عساكر عن علي بن أبي طالب أنه قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ هو محمد ﷺ والذي صدق به أبو بكر ، وجاء مثل ذلك في آيات كثيرة من آيات القرآن العزيز .

فمن ذلك ما أخرجه الحاكم والطبراني : أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب في الله تعالى ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى . . ﴾ [الليل : ١٧ -١٨] إلى آخر السورة .

قال ابن الجوزي : أجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر ، وفيها التصريح بأنه أتقىٰ من سائر الأمة ، والأتقى هو الأكْرمُ عند الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] والأكْرمُ عنده تعالى هو الأفضل ، فدلّت الآيةُ على أنه أفضل هذه الأمة ، وجاءت أحاديث كثيرة صريحة بأن سورة : ﴿والليل إذا يغشى﴾ ، نزلت في أبي بكر وفي أمية بن خلف ، وذلك أن أمية بن خلف كان يعذب بلالاً لما أسلم ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه فأنزل الله السورة فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ أول داخل فيه أبو بكر وأمية بن خلف ؛ أي أن سَعْيَ أبي بكر وأمية مفترق افتراقاً عظيماً فشتان ما بينهما ، ثم شرح ذلك وبينه بالآيات التي بعد هذه الآية ، فقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ هو أبو بكر وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ هو أمية بن خلف ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ كل هذه الآيات في أمية بن خلف ، وختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ وهو أبو بكر ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فإنها تدل على كمال إخلاص أبي بكر ، ولهذا عقب ذلك بقوله ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ ولا شيء أعلى

من هذا الوعد من الرب الكريم .

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أجمع المسلمون على أن المراد بالصاحب هنا أبو بكر ، ومِنْ ثَمَّ قالوا : من أنكر صحبته فقد كفر بالإجماع ، ومن الآيات الدالة على صحة خلافته قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ ﴾ [النور : ٥٥] .

قال ابن كثير : هذه الآية منطبقة على خلافة الصديق .

وقد أخرج ابن حاتم عن عبد الرحمن بن عبد الحميد الهروي أنه قال : إن خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب في كتاب الله في قوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية .

ومن الآيات الدالة على خلافته قوله تعالى ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ١٦] فقد أخرج ابن حاتم وابن قتيبة أن هذه الآية حجة على خلافة الصديق ، والقومُ المذكورون في الآية هم بنو حنيفة الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ واتبعوا مسيلمة الكذاب ، وأبو بكر هو الذي دعا المخلَّفين من الأعراب إلى قتالهم .

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة : سمعت أبا العباس بن سريج يقول : خلافة الصديق في القرآن في هذه الآية قال : لأن أهل العلم أجمعوا على أنه لم يكن بعد نزولها قتال دعوا إليه إلا والداعي إليه أبو بكر وافتراض طاعته لأن الله تعالى يقول : ﴿ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴾ [الفتح : ١٦] وأخبر أن المتولي عن ذلك يعذب بقوله : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قال ابن كثير : ومن فسر القوم بأنهم فارس والروم فأبو بكر الصديق هو الذي دعا إلى قتالهم ، وهو أول من جهز الجيوش إلى قتالهم ، وتمام أمرهم كان على يد عمر

وعثمان فهما فرعان تفرعا من خلافة أبي بكر ، فإن قلت يمكن أن يراد بالداعي في هذه الآية النبي ﷺ ، قلت : لا يمكن ذلك مع قوله تعالى قبل ذلك ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : ١٥] ومن ثم لم يدع أولئك الذين تخلفوا إلى محاربة في حياته ﷺ ، وأما علي رضي الله عنه فلم يتفق له في زمن خلافته قتال للكفار لطلب الإسلام ، بل كان قتاله لتحقيق أمر الإمامة ورعاية حقوقها ، فتعين أن ذلك الداعي الذي يكون له الأجر الحسن باتباعه والعذاب الأليم بعصيانه أحد الخلفاء الثلاثة ، وأبو بكر هو أولهم وأصلهم وأساسهم ، فيلزم صحة خلافته على كل تقدير ، والآيات الدالة على فضله وصحة خلافته كثيرة لا حاجة إلى ذكرها ، فمن راجع تفاسير القرآن وكتب السنة وقف على ذلك .

وكان أبو بكر كثيراً ما يقول في خطبه : أين القضاة الحسنة وجوههم المعجبون بشأنهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ، قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور ؟ الوحا الوحا النجا النجا ، ولما أراد أبو بكر استنفار الناس لقتال أهل الردة ثم لقتال الروم كتب إلى أهل مكة :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أبي بكر إلى أهل مكة وسائر المؤمنين ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ ، أما بعد : فإني استنفرت الناس إلى الجهاد وقد كتبت إليكم وإلى المسلمين أن تسرعوا إلى ما أمركم به ربكم تبارك وتعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] وهذه الآية أنتم أحق بها وأهلها وأول من صدق بها وقال بحكمه من نصر دين الله فالله ناصره ، ومن بخل استغنى الله عنه والله غني حميد ، فسارعوا إلى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمجاهدين والأنصار ، ومن اتبع سبيلهم من الأولياء الأخيار وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وختم الكتاب ودفعه إلى عبد الله بن حذافة السهمي ، فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ في أهلها فاجتمعوا إليه فدفع إليهم الكتاب فقرؤوه ، فلما سمعوا قام سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وقالوا : أجبنا داعي الله ، وصدقنا قول نبينا محمد ﷺ ، وقال عكرمة بن أبي جهل : إلى متى نبسط لأنفسنا ، وقد سبقنا القوم

إلى المواطن وقد فاز من فاز بالصدق ، وإن كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق اللحاق ، والسباق السباق ، فلعلنا نكتب في الحال ؟ .

ثم خرج عكرمة بن أبي جهل في بني مخزوم ، وخرج عمه الحارث بن هشام معهم ، وتلاحق أهل مكة حتى بلغوا خمسمئة رجل ، وكتب أبو بكر بمثل ذلك لأهل الطائف فخرجوا في أربعمئة ، ثم كتب لأهل اليمن بعد فراغه من قتال المرتدين وصورة كتابه إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خليفة رسول الله ﷺ إلى من قرىء عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن سلام عليكم أما بعد : فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً ، قال الله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فالجهاد فريضة مفروضة وثوابه عند الله عظيم ، وقد استنفرنا مَنْ قِبَلَنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارعوا إلى ذلك وشكروا وخرجوا وحسنت في ذلك نيتهم وعظمت في الخير حسنتهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم وإلى أحد الحسنيين : إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة ، فإن الله لم يرض من عباده بالقول دون الفعل ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق ويقروا بحكم الكتاب أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم وزكى أعمالكم ورزقكم أجر المجاهدين والصابرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعث بهذا الكتاب مع أنس بن مالك ، قال أنس : فأتيت أهل اليمن جناحاً جناحاً وقبيلة قبيلة أقرأ عليهم كتاب أبي بكر ، فإذا فرغت من قراءته قلت : الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإني رسول المسلمين إليكم ألا وإني قد تركتهم معسكرين لم يمنعهم من الشخوص إلى عدوكم إلا انتظاركم ، فعجلوا إلى إخوانكم رحمة الله عليكم أيها المسلمون ، قال : وكان كل من قرىء عليه ذلك الكتاب ويسمع مني هذا القول يحسن الرد علي ، ويقول : نحن سائرون وكأن قد فعلنا ، حتى انتهيت إلى ذي الكلاع ملك حمير ، فلما قرأت عليه الكتاب وقلت هذا المقال دعا بسلاحه وفرسه ونهض في قومه من ساعته ولم

يؤخر ذلك وأمر بالعسكر ، فما برحنا حتى عسكر ، وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن ، وسارعوا ، فلما اجتمعوا إليه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال : أيها الناس ، إن من رحمة الله إياكم ونعمته عليكم أن بعث فيكم رسولاً وأنزل عليكم كتاباً فأحسن عنه البلاغ ، فعلمكم ما يرشدكم ونهاكم عما يفسدكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ورغبكم في الخير ما لم تكونوا ترغبون ، ثم قد دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين واكتساب الأجر العظيم فلينفر من أراد معي النفر الساعة .

فنفر بعدد كثير من أهل اليمن وقدموا على أبي بكر . قال : فرجعنا نحن فسبقناه بأيام ، فوجدنا أبا بكر بالمدينة ، ووجدنا ذلك العسكر على حاله ، ووجدنا أبا عبيدة يصلي بأهل ذلك العسكر ، فقدمت حمير على أبي بكر ومعها نساؤها وأولادها ، ففرح أبو بكر بمقدمهم ، ولما رآهم أبو بكر قال : عباد الله ألم نكن نتحدث فنقول : إذا أقبلت حمير تحمل أولادها ومعها نساؤها نَصَرَ الله المسلمين وخذل المشركين ، فأبشروا أيها المسلمون فقد جاءكم النصر من الله تعالى .

قال : وجاء قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي ، وكان من فرسان العرب في الجاهلية ومن أشرافهم وأشدائهم ، ومعه جمع كثير من قومه حتى أتى أبا بكر فسلم ثم جلس إليه ، فقال : ما تنتظر ببعثة هذه الجنود ؟ فقال أبو بكر : ما كنا ننتظر إلا قدومكم ، قال : فقد قدمنا فابعث الناس الأولَ فالأولَ فإن هذه البلدة ليست ببلدة خُفٍّ ولا كُراع . قال : فخرج أبو بكر يمشي فدعا يزيد بن أبي سفيان فعقد له ، ودعا زَمْعَة بنَ الأسود بن عامر من بني عامر بن لؤي وأوصاهم وبعثهم .

وقد كان أبو بكر قبل بَعْث الكتب حَدَّثَ نفسه بغزو الروم وأَسَرَّ ذلك في نفسه ولم يُطْلِعْ عليه أحداً ، فبينما هو في ذلك إذ جاءه شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه فقال : يا خليفة رسول الله أتحدث نفسك أَنْ تبعث إلى الشام جنداً ؟ فقال : نعم قد حدثت نفسي بذلك وما أَطلعت عليه أحداً وما سألتني عنه إلا لشيء عندك . فقال : أجل إني رأيت فيما يرى النائم كأنك في ناس من المسلمين فوق جبل فأقبلت تمشي معهم حتى صعدت على قبة عالية على الجبل فأشرفت على أناس ومعك أصحابك أولئك ، ثم هبطت من تلك القبة إلى أرض سهلة دمثة فيها القرى والعيون والزروع والحصون

فقلت : يا معشر المسلمين شنوا الغارات على المشركين فإني ضامن لكم الفتح والغنيمة وأنا فيهم ومعي راية ، فتوجهت إلى قرية فدخلتها فسألوني الأمان فأمنتهم ، ثم جئت فوجدتك قد انتهيت إلى حصن عظيم ففتح لك وألقوا إليك السلم وجعل لك عرشاً فجلست عليه ، ثم قال لك قائل : فاسْأَلْ يفتح الله لك وتُنْصَرْ فاشكُرْ ربك واعمل بطاعته ، ثم قرأ عليك : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر] قال : ثم انتبهت فدمعت عينا أبي بكر رضي الله عنه ثم قال : أما الجبل الذي رأيتنا نمشي عليه حتى صعدنا منه إلى القبة العالية فأشرفنا على الناس فإنا نكابد من أمر هذا الجند مشقة ويكابدون ، ثم نغلب بعد ويعلو أمرنا ، وإن نزولنا من القبة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة والزروع والحصون والعيون والقرى فإنا نزلنا إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش ، وأما قولي : شنوا عليهم الغارة فإني ضامن لكم بالفتح والغنيمة ، فإن ذلك توجيهي للمسلمين إلى بلاد المشركين وأمري إياهم بالجهاد في سبيل الله ، وأما الراية التي كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم فدخلتها فاستأمنوك فأمنتهم فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك ، وأما الحصن الذي فتحه الله على يدي فهو الفتح الذي يفتحه الله على يدي ، وأما العرش الذي رأيتني جالساً عليه فإن الله يرفعني ويضع المشركين ، وأما أمري بطاعة ربي وقراءة القارىء عليَّ هذه السورة فإنه نَعَىٰ إليَّ نفسي ، فإن هذه السورة حين أنزلت علم رسول الله ﷺ أن نفسه نعيت إليه ، ثم سالت عينا أبي بكر رضي الله عنه فقال : لآمُرَنَّ بالمعروف ولأنهين عن المنكر ولأجاهِدَنَّ من ترك أمر الله عز وجل ، ولأُجَهِّزَنَّ الجيوش إلى العادلين بالله في مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا : الله أحد ، ويؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإذا توفاني ربي لم يجدني مقصراً ولا في ثواب المجاهدين زاهداً . ثم إنه أمر الأمراء وبعث إلى الشام .

قال عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنه : لما أراد أبو بكر رضي الله عنه تجهيز الأجناد إلى الشام ، دعا بعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه وأنا فيهم فقال : إن الله تبارك وتعالى لا تحصى

نِعَمُهُ ولا تبلغ الأعمال جزاءها فله الحمد كثيراً على ما اصْطَنَعَ عندكم ، قد جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا تتخذوا إلهاً غيره ، فالعرب بنو أم وأب وقد أردت أن أبعثهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين ، هذا رأيي الذي رأيت ، فأشار امرؤ عليَّ بمبلغ رأيه .

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال : الحمد لله الذي يخص بالخير من شاء من خلقه ، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قدر الله أني أردت لقاءك لهذا الأمر والرأي الذي ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن فقد أصبت وأصاب الله بك سبل الرشاد ، وابعث إليهم الخيل في إثْر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فإن الله عز وجل ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله ومنجزٌ ما وعد رسوله ﷺ .

ثم إن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قام فقال : يا خليفة رسول الله ﷺ وإنما الروم وبنو الأصفر حَدٌّ حديدٌ وركن شديد ، والله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاماً ولكن تبعث الخيل تغير عليهم في أداني أراضيهم ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك أضروا بعدوهم وغنموا من أدنى أراضيهم فقووا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن وإلى أقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جمعاً ، فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك ، ثم جلس وسكت وسكت الناس .

فقال لهم أبو بكر : ما ترون رحمكم الله ؟ فقام عثمان بن عفان فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال : إني أرى أنك لأهل هذا الدين مشفق وإذا رأيت رأياً لعامتهم رشداً وصلاحاً وخيراً فاعزم على إمضائه فإنك غير ظِنّين ولا مُتَّهم ، فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار : صدق عثمان فيما قال ، ما رأيتَ من أمر فَأَمْضِه فإنا سامعون ، ولك مطيعون لا نخالف أمرك ولا نتهم رأيك ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك ،

فذكروا هذا وشبهه وعلي بن أبي طالب في القوم لا يتكلم ، فقال له أبو بكر : ما ترى يا أبا الحسن ؟ قال : رأيي أنك مبارك ميمون الناصية ، وإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت إن شاء الله تعالى . فقال له أبو بكر : بَشَّرك الله بخير من أين علمت هذا ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يزالُ هذا الدينُ ظاهراً على من ناوَأَهُ حتى يقوم الدينُ وأهلهُ ظاهرين » .

فقال أبو بكر : سبحان الله ما أحسن هذا الحديث لقد سررتني سَرَّكَ الله في الدنيا والآخرة .

ثم إن أبا بكر قام في الناس فحمد الله وأثنىٰ عليه وذكره بما هو أهله وصلى على النبي ﷺ وقال : أيها الناس إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأعزكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين ، فتجهزوا عبادَ الله إلى غزو بلاد الروم بالشام ، فإني مُؤَمِّرٌ عليكم أمراءَ وعاقدٌ لهم عليكم ، فأطيعوا أمرَ ربكم ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فسكت الناس ، فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم .

فقام عمر بن الخطاب فقال : يا معشر المسلمين مالكم لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم ؟ فقام خالد بن سعيد بن العاص فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال : الحمد لله الذي لا إله إلا هو بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فإن الله منجز وعده ومعز دينه ومهلك عدوه ، ثم أقبل على أبي بكر فقال : إنا غير مخالفين لك ولا متخلفين عنك وأنت الوالي الناصح الشفيق ، ننفر إذا استنفرتنا ونجيبك إذا دعوتنا ، ففرح أبو بكر بمقالته وقال : جزاك الله من أخٍ خيراً فقد أسلمت مرتضياً وهاجرت محتسباً وهربت بدينك من الكفار لكي يطاع الله ورسوله وتكون كلمة الله هي العليا فسرْ رحمك الله .

فتجهز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز ثم أتى أبا بكر وعنده من المهاجرين والأنصار أجمع ما كانوا ، فسلم على أبي بكر ثم قال : والله لأن أَخِرَّ مِنْ رأسِ حالقٍ ويخطفني الطير في الهواء بين السماء والأرض أحبُّ إليَّ أن أبطىء عنك وأخالف أمرك ، والله

ما أنا في الدنيا راغب ولا على البقاء فيها بحريص ، وإني أشهدكم أني وإخواني وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله مقاتل للمشركين أبداً حتى يهلكهم الله أو نموت عن آخرنا .

فقال أبو بكر خيراً ودعا له المسلمون بخير ، وقال له أبو بكر : إني لأرجو أن تكون من نصحاء الله في عباده بإقامة كتابه واتباع سُنّة نبيه ﷺ ، فخرج هو وإخوانه وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته وكان أول من عسكر ، فأمر أبو بكر بلالاً فنادى في الناس : أن انفروا إلى عدوكم بالشام ، وأرسل إلى يزيد بن أبي سفيان وإلى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة ، فقال : إني باعثكم في هذا الوجه ومؤمّركم على هذه الجنود وأنا مُوَجّهٌ مع كل رجل من الرجال ما قدرت عليه ، فإذا قدمتم البلد ولقيتم العدو واجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح ، وإن لم يلقكم أبو عبيدة ولقيكم حرب فأميركم يزيد بن أبي سفيان ، فانطلِقوا فتجهزوا ، فانطلق القوم يتجهزون ، وكان خالد بن سعيد من عمال رسول الله ﷺ ، فكرِه الإمارة واستعفى أبا بكر رضي الله عنه فأعفاه ، ثم إن الناس خرجوا إلى معسكرهم من عشرة وعشرين وثلاثين وأربعين وخمسين ومئة في كل يوم ، حتى اجتمع الناس وكثروا ، فخرج أبو بكر ذات يوم ومعه رجال من أصحابه كثير حتى انتهى إلى عسكرهم فرأى عدة حسنة ولم يرض كثرتها للروم ، فقال لأصحابه : ماذا ترون في هؤلاء أترون أن نشخصهم إلى الشام في هذه العدة ؟ فقال له عمر : ما أرضى هذه العدة لبني الأصفر ، فأقبل أبو بكر على أصحابه فقال لهم : ماذا ترون ؟ فقالوا : نحن نرى أيضاً ما رأى عمر ، فقال أبو بكر : أفلا نكتب كتاباً إلى أهل اليمن ندعوهم إلى الجهاد ونرغّبهم في ثوابه ؟ فرأى ذلك جميع الصحابة فقالوا له : نِعْمَ ما رأيت ، فكتب إليهم فأجابوه وأقبلوا ، كما تقدم بيانُ ذلك مفصلاً ، وتجهزوا إلى الشام فكان النصر والفتوح ، وكان أول جيش بعثه أبو بكر بعد رسول الله ﷺ جيش أسامة .

وكان بعض الصحابة استصغروا أسامة بن زيد أمير الجيش وقالوا لعمر بن الخطاب : امْضِ إلى أبي بكر وأبلغه عنا واطلب منه أن يولي أمرنا أقدم سناً من أسامة ، فلما أبلغه عمر ذلك وَثَبَ أبو بكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ، استعْمَلَهُ رسولُ الله ﷺ وتأمرني أن أعزله ، ثم خرج أبو بكر حتى أتى

ذلك الجيش وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله لتركبنَّ أو لأنزلنْ ، فقال أبو بكر : والله لا نَزَلْتَ ولا أركبُ وما عليَّ أن أُغَبِّر قدمي ساعةً في سبيل الله فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمئة حسنة تكتب له وسبعمئة درجة ترفع له وسبعمئة سيئة تمحى عنه ، فلما أراد أن يرجع أوصى أسامة ومن معه فقال : لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لأكْلِه ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهم حتى كأنها أفاحيص القطا ، وفي رواية : وتركوا حولها مثل العصائب ، فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، أستودعكم الله اندفعوا باسم الله .

وفعل مع يزيد بن أبي سفيان عند موادعته مثلما فعل مع أسامة وأوصاه بمثل ما أوصاه ، وزاد بعضهم في وصيته ليزيد قوله : إذا سرت فلا تضيّق على نفسك ولا على أصحابك في سيرك ، ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك ، وشاورهم في الأمر ، واستعمل العدل وباعِدْ عنك الظلم والجور فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم ، وإذا لقيتم القوم فلا تولّوهم الأدبار ، وإذا نُصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ، ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم .

وقال في وصيته لخالد بن الوليد لما خرج لقتال أهل الردة : سِرْ على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن كله فإني لا آمن عليك الحملة ، واستظهر بالزاد وسِرْ بالأدِلاّء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيتات فإن في العرب غِرّة ، وأقلل من الكلام فإن مالك ما وَعَىٰ عنك ، واقْبلْ من الناس علانيتهم وكِلْهم إلى الله تعالى في سريرتهم ، واستودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه .

فسار أسامة قبل كل جيش جهزه أبو بكر وأوقع بقبائل من قضاعة كانوا قد ارتدوا وغنم وعاد ، وكانت غيبته أربعين يوماً ، وكان نفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فإن العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن

كثير مما كانوا أرادوا أن يفعلوه .

قال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا حصين يقول : ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبي بكر ، فقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردة .

وقال أنس بن مالك : كرِهَتِ الصحابةُ قِتالَ مانعي الزكاة وقالوا : إنهم أهل القبلة ؛ يعنون أنهم مسلمون ، فتقلد أبو بكر رضي الله عنه سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بداً من الخروج على إثره ، وهذا دليل على شجاعة أبي بكر ، ثم أشارَ عليه عليٌّ بالرجوع وأن يبعث الجيوش ، ففعل ما أشار عليه .

وتقدم أن عمر كان ممن توقف في قتالهم ، ثم شرح الله صدره كما شرح صدر أبي بكر ، فقال بعد ذلك : والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعاً في قتالهم وقتال بقية المرتدين ، وكان من جملة مقالة عمر لما راجع أبا بكر في قتالهم أَنْ قال : يا خليفة رسول الله تَألَّفِ الناسَ وارفُقْ بهم فإنهم بمنزلة الوحش . فقال له أبو بكر : رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ، جباراً في الجاهلية وخواراً في الإسلام ؟ بماذا شئت أَنْ أتألّفهم بشِعْرٍ مفتعل أو بسحر مفترىً ، هيهات هيهات قد تم الدين وانقطع الوحي أينقص وأنا حَيٌّ ؟ والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي .

وقال بعض الصحابة في مراجعتهم إياه : ارفقْ بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر فإن هذا الأمر شديد غوره ومهلكة من غير وجه ، فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا : قاتلْ من ارتد بمن ثبت معك وقد أطبقت العرب على الارتداد ، فهم بين مرتد ومانع صدقة فهو مثل المرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك قد قدّم رِجْلاً وأَخّر أخرى .

وقالوا له أيضاً : قد شَحّت العرب على أموالها وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئاً ، فلو تركت للناس صدقة هذه السنة .

وقدم عيينة بن حصن الفزاري وأقرع بن حابس في رجال من أشراف العرب فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا : إنه قد ارتد عامّةُ مَنْ وراءنا عن الإسلام ، وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ ، فإن تجعلوا لنا جُعْلاً نرجع فنكفيكم مَنْ وراءنا ، فدخل المهاجرون والأنصار على أبي بكر فعرضوا

عليه ما عرضوه عليهم وقالوا : نرى أن نطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك مَنْ وراءَهُما حتى يرجع إليك أسامة وجيشه ويشتد أمرك ، فإنا اليوم قليل في كثير ولا طاقة لنا بقتال العرب ، فقال لهم أبو بكر : هل ترون غير ذلك ؟ قالوا : لا . فقال أبو بكر : إنكم قد علمتم أنه كان في عهد رسول الله ﷺ المشورة فيما لم يمض فيه أمر من بينكم ، ولا نزل به الكتاب عليكم ، وإن الله لن يجمعكم على ضلال ، وإني سأشير عليكم ، وإنما أنا رجل منكم تنظرون فيما أشرته عليكم وفيما أشرتم به فتجتمعون على أرشد ذلك فإن الله يوفقكم ، أما أنا فأرى أن نشد على عدونا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وألّا ترشوا على الإسلام أحداً ، وأن تتأسوا برسول الله ﷺ فنجاهد عدوه كما جاهدكم ، والله لو منعوني عقالاً لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه فائتمروا يرشدكم الله ، فهذا رأيي .

فقالوا لأبي بكر لما سمعوا رأيه : أنت أفضلنا رأياً ورأيُنا لرأيك تَبَعٌ ، فأمر أبو بكر بالتجهيز .

قال عبد الله بن مسعود : كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدنا عليه في الانتهاء .

وقال أبو هريرة : والله لو لم يستخلف أبو بكر لما عُبِدَ اللهُ .

وأخرج الدارقطني أن أبا بكر لما أراد قتال أهل الردة أراد أن يخرج إليهم بنفسه ، فلما برز واستوى على راحلته أخذ علي بن أبي طالب بزمامها وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد : شُمَّ سيفَك ولا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة ، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً . فرجع وبعث خالد بن الوليد لقتال أهل الردة ، وكان الصحابة قد شاهدوا من أبي بكر الثباتَ الذي هو أعظم من هذا وهو ثباته يوم وفاة النبي ﷺ ، فإن الناس قد تزلزلت أقدامهم ، وذهلت عقولهم يوم وفاة رسول الله ﷺ ، وشكَّ بعضهم في موته ، وكان أبو بكر غائباً بمنزله بالسنح في عوالي المدينة وعمر حاضر ، فلما توفي رسول الله ﷺ قام عمر فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد مات وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات . وأخرس بعض وأُقعد بعض ، واضطرب

الناس ، فجاء أبو بكر من منزله بالسنح ، ثم دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى في ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قَبَّله وقال : بأبي أنت وأمي قد طِبْتَ حياً وميتاً ، أما الموتةُ التي كتبها الله عليك فقد متها ، اذكرني يا رسول الله عند ربك ، ثم رَدَّ الثوب على وجهه ، ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكوت فأبىٰ فأقبل أبو بكر على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] فوالله لكأن الناس ما سمعوها إلا منه ، وقد كان نزولها يوم أحد في السنة الثالثة من الهجرة ، فكأنهم نسوها لما أصابهم من الحزن بوفاة رسول الله ﷺ .

قال عمر : فوالله ما هو إلا أن سمعتها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي وعلمت حينئذ أن رسول الله ﷺ قد مات .

فما زال عنهم رضي الله عنهم ذلك الدهش إلا بتثبيت أبي بكر حين خطب الناس فرجعتْ إليهم عقولُهم وعرفوا حقيقة الأمر ، فدَلَّ ذلك على أنه كان أشد الصحابة رأياً وأكملهم عقلاً وأوفرهم علماً .

وأخرج البزار في مسنده عن علي بن أبي طالب أنه قال يوماً لأصحابه : أخبروني عن أشجع الناس . فقالوا : أنت . فقال : أما أنا فما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ، ولكن أخبروني بأشجع الناس . قالوا : لا نعلم فمن ؟ قال : أبو بكر ؛ إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً فقلنا : من يكون مع رسول الله ﷺ في العريش لئلا يهوي إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دَنا منا أحدٌ إلا أبا بكر شاهراً سيفه واقفاً على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه ، فهذا أشجع الناس ، ثم قال علي : لقد رأيت رسول الله ﷺ وقد أخذه قريش يعني بمكة قبل الهجرة فهذا يجره وهذا يتلتله ، ويقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً ، قال : فوالله ما دنا منا أحد إلا أبا بكر يضرب هذا ويتلتل هذا وهو يقول : تقتلون رجلاً يقول ربي الله ، ثم رفع علي بن أبي طالب بردة كانت عليه فبكى حتى اخضَلَّتْ لحيته ، ثم قال : أمؤمنُ آل

فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم فقال : ألا تجيبوني ، فوالله لساعة من أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون ، ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه .

فهذا الذي ذكره مع ما انضم إليه من ثبات أبي بكر يوم وفاة النبي ﷺ وثباته لقتال أهل الردة هو الذي حمل أهل السنة أن يجزموا بأن أبا بكر أشجع الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأخرج في الطوريات عن الإمام محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم قال : قال رجل لعلي بن أبي طالب : نسمعك تقول في الخطبة : اللهمَّ أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين . فمن هم ؟ فاغرورقت عيناه بالدموع ، ثم أهملها ، فقال : هما حبيباي أبو بكر وعمر إماما الهدى وشيخا الإسلام ورجلا قريش والمقتدى بهما بعد رسول الله ﷺ ، من اقتدى بهما عصم ، ومن اتبع آثارهما هدي إلى الصراط المستقيم ، ومن تمسك بهما فهو من حزب الله ، وحزب الله هم المفلحون .

وأخرج البيهقي عن الشافعي قال : إن الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ لم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبي بكر فولوه رقابهم .

وأخرج أبو ذر الهروي والدارقطني من طرق : أن بعضهم مَرَّ بنفر يَسبُّون الشيخين فأخبر علياً وقال له : لولا أنهم يرون أنك تضمر ما أعلنوا ما اجترؤوا على ذلك . فقال علي : أعوذ بالله رحمهما الله تعالى ، ثم نهض فأخذ بيد ذلك المخبر وأدخله المسجد وأمر باجتماع الناس فصعد المنبر ، ثم قبض على لحيته وهي بيضاء فجعلت دموعه تتحادر على لحيته وجعل ينظر البقاع حتى اجتمع الناس ، ثم خطب خطبة بليغة من جملتها : ما بال أقوام يذكرون بسوء أَخَوَيْ رسول الله ﷺ ، وفي رواية : وصاحبيه وسيدي قريش وأبوي المسلمين وأنا بريء مما يذكرون وعليه معاقب ، صَحِبا رسول الله ﷺ بالجِدّ والوفاء في أمر الله ، يأمران وينهيان ويقضيان ويعاقبان ، لا يرى رسول الله ﷺ كرأيهما رأياً ولا يحب كحبهما حباً لما يرى من عزمهما في أمر الله ، فَقُبِضَ وهو عنهما راضٍ والمسلمون راضون فما تجاوزوا في أمرهما وسيرتهما رأي رسول الله ﷺ وأمره في حياته وبعد موته ، فقُبِضا على ذلك رحمهما الله تعالى ، فوَالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن ولا يبغضهما ويخالفهما إلا شقي مارق ، وحبهما قربة

وبغضهما مروق . ثم ذكر أمر النبي ﷺ لأبي بكر أن يصلي بالناس وهو يرى مكان علي ، ثم ذكر أنه بايع أبا بكر ثم ذكر استخلاف أبي بكر لعمر ثم قال : ألا لا يبلغني عن أحد أنه يباغضهما إلا جلدته حَدّ المفتري .

وكان أول من حمل على التكلم في الشيخين عبد الله بن سبأ وكان يهودياً فأسلم ، وكان إسلامه ظاهراً فقط وهو باق على يهوديته ، وإنما أراد بإسلامه التوصل إلى إيقاع الافتراق بين المسلمين وإدخال التشكيك عليهم فيما بينهم ؛ لأن الطعن في الصحابة طعن في الشريعة ؛ لأنها إنما وصلت إلى الأمة من طريق الصحابة ، فإذا انتفت العدالة عنهم لم يوثق بصحة شيء من القرآن ولا الشريعة ، ولما بلغ علياً أمرُ ابن سبأ أحضره وسأله عما نسب إليه فأنكر وسيّره إلى المدائن وقال : لا تساكِنّي في بلدة أبداً .

وأخرج الدارقطني من طرق : أن علياً بلغه أن رجلاً يعيب أبا بكر وعمر فأحضره وعرض له بعيبهما لعله يعترف ففطن فأنكر ، فقال علي : أما والذي بعث محمداً ﷺ بالحق أن لو سمعت منك الذي بلغني ونبئته عنك أو ثبتَ عليك لأفعلنَّ بك كذا وكذا .

ومما استدل به أهل السنة والجماعة على صحة خلافة أبي بكر واعتراف علي بها ما أخرجه الدارقطني وابن عساكر وغيرهما : أن علياً لما قام بالبصرة قام إليه رجلان فقالا له : أخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه تستولي على الأمة ، أعهدٌ من رسول الله ﷺ عهده إليك ؟ فحدّثنا فأنت الموثوق به والمأمون على ما سمعت . فقال : أما أن يكون عندي عهد من النبي ﷺ عهده إلي في ذلك فلا والله ، ولئن كنت أول من صدق به فلا أكون آخر من كذب عليه ، ولو كان عندي منه عهد في ذلك ما تركت أخا بني تيم بن مرة وعمر بن الخطاب يثبان على منبره ولقاتلتهما بيدي ولو لم أجد إلا بُردي هذه ، ولكن رسول الله ﷺ لم يقتل قتلاً ولم يمت فجأة فمكث في مرضه أياماً وليالي يأتيه المؤذن يعرفه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني وإني حاضر لست بغائب ، وفي رواية : وما بي من مرض .

ولقد أرادت امرأةٌ من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب وقال : « أنتنَّ صواحب يوسف ، مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس » فلما قُبِضَ رسول الله ﷺ نظرنا في أمرنا فاخترنا لدنيانا مَنْ رضيه رسول الله ﷺ لديننا ، وكانت الصلاة معظم الإسلام وقوام الدين فبايعنا أبا بكر وكان ذلك أهلاً لم يختلف عليه منا اثنان ، فأديت لأبي بكر حقه

وعرفت له طاعته وغزوت معه في جنوده ، وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي ، فلما قبض ولّاها عمر فأخذها بسنة صاحبه وما يعرف من أمره ، فبايعنا عمر لم يختلف عليه اثنان منا ، فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي ، فلما قبض تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وفضلي وأنا أظن ألّا يعدل بي ، ولكن خشي ألّا يعمل الخليفة بعده شيئاً إلا لحقه في قبره ، فأخرج منها نفسه وولده ، ولو كانت مُحاباةً لآثر ولده بها وبريء منها لرهط أنا أحدهم وظننت ألّا يعدلوا بي ، فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا ، ثم بايع عثمان ، فنظرت فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي وإذا ميثاقي قد أخذ لغيري ، فبايعنا عثمان فأديت له حقه وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي ، فلما أصيب نظرت فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعد رسول الله ﷺ إليهما بالصلاة قد مضيا وهذا الذي أخذ له ميثاقي قد أصيب ، فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين أي الكوفة والبصرة ، فوثب عليها من ليس مثلي ولا قرابته كقرابتي ولا علمه كعلمي ولا سابقته كسابقتي ، وكنت أحق بها منه يعني معاوية .

وصحَّ من طرق كثيرة أن العباس عم النبي ﷺ قال لعلي بعد وفاة النبي : ابسط يدك أبايعك فلا يختلف عليك اثنان ، فأبى علي ، ولو علم وجود نصّ لقَبِل ذلك ولم يتأخر عنه ولا سيما أنه معه العباس والزبير وبنو هاشم وغيرهم ، وأقبح من كل قبيحة قول الشيعة : إنه عَلِمَ النصَّ وكتمه تقيةً ، حاشا لله من ذلك .

والحاصل أن الأخبار عن علي بصحة خلافة أبي بكر وعمر وكونهما خيرَ الأمة بعد النبي ﷺ تثبت عنه من طرق كثيرة بروايات كثيرة من الثقات العدول منهم ابنه محمد بن الحنفية وغيره ، بحيث يجزم من تتبعها بصدور ذلك القول من علي جزماً قاطعاً ليس فيه شك ولا ارتياب .

قال الحافظ الذهبي : تَواتَرَ ذلك عن علي ورواه عنه نيفٌ وثمانون من أصحابه ، وصرح بذلك في الخلو والملأ ، وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم .

ولهذا اتفق الأئمة الأربعة وأئمة الحديث مثل البخاري ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف ، وبقية أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته .

قال سفيان الثوري : من قال إن علياً كان أحق بالخلافة من أبي بكر فقد خَطَّأَ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ، وما أراه يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل إلى السماء .

وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر مثل ذلك ، ولم ينقل عن علي أنه ذكر أن النبي ﷺ نَصَّ على خلافته بل إذا سئل عن ذلك أنكر .

وأما الرافضةُ فإنهم لما لم يمكنهم إنكار ذلك ولم يمكنهم أيضاً إنكار اعتراف علي بصحة خلافة أبي بكر وعمر لظهوره وانتشاره عنه بحيث لا ينكره إلا جاهل بالآثار أو مُباهت مكابر ، قالوا : إنما قال ذلك تقية ومداراة ، وذلك منهم كذب وافتراء ، وأحسن ما يقال في هذا المحل ألا لعنة الله على الكاذبين ، وكيف يتوهم من له أدنى عقل أو فهم صدور ذلك من علي تقية ومداراة مع ما أعطاه الله من كمال الإيمان وعظم الشجاعة والإقدام ، حتى إنه لا يهاب أحداً ولا يخشى في الله لومة لائم ، وكيف يتوهم عاقل أن يقول ذلك في الخلا وعلى رؤوس الملا وفي زمن خلافته وعلى منبر الكوفة وهو في ذلك الوقت أقوى ما كان أمراً وأنفذ حكماً ، وذلك بعد مدة طويلة من وفاة أبي بكر وعمر ، فما أحق أن يقال فيما افتروه سبحانك هذا بهتان عظيم .

ومن قبيح افترائهم زعمهم أن النبي ﷺ أوصى بالخلافة لعلي ، وأنه كتم ذلك ، وأن الصحابة خالفوا أمر النبي ﷺ ، وأن علياً إنما سكت على النزاع في أمر الخلافة لأن النبي ﷺ أوصاه ألّا يوقع بعده فتنة ولا يَسُلَّ سيفاً ، وهذا منهم كذب وافتراء وحمق وجهالة مع عظيم الغباوة عما يترتب على ذلك ، إذ كيف يعقل هذا الذي زعموه وكيف يعقل أنه جعل إماماً والياً على الأمة بعده ويمنعه من سلّ السيف على من امتنع من قبول الحق ، ولو كان ما زعموه صحيحاً لما سَلَّ السيف في حرب صفين والجمل وقتال الخوارج وقاتل هو بنفسه وقاتل معه أهل بيته وأصحابه وجالد وبارز الألوف من مقاتليه وحده ، أعاذه الله من مخالفة وصية رسول الله ﷺ ، وأيضاً كيف يعقل أنه يوصيه بعدم

سَلّ السيف على قوم زعم فيهم الرافضة أنهم كفار مرتدون تجاهروا بأقبح أنواع الكفر مع ما أوجب الله من جهاد الكفار .

قال بعض أئمة أهل البيت النبوي : قد تأملت كلام هؤلاء الضالين فرأيتهم قوماً أعمى الهوى بصائرهم فما يبالون بما يترتب على مقالاتهم من المفاسد ، فأورثتهم غباوتهم العار والفضيحة ، ولم يبالوا بما يترتب على ذلك من نسبة عَليّ إلى الذل والعجز ، بل نسبة جميع بني هاشم إلى ذلك العار اللاحق بهم الذي لا أقبح منه وبنو هاشم أهل النجدة والشجاعة والأنفة ، بل يلزمهم أيضاً نسبة جميع الصحابة إلى ذلك ، وكيف يتوهم مؤمن عاقل أن الصحابة يطلعون على النص على خلافة علي فلا يعملون به ولا يرجعون إليه وهم أطوع الناس لله وأشد الناس وقوفاً عند حدود الله تعالى وأبعد عن اتباع حظوظ النفس ، وقد قال فيهم النبي ﷺ : « خَيْرُ القرونِ قَرْني ، ثم الذين يَلُونهم » كيف يكون ذلك وفيهم العشرة المبشرون بالجنة ، ومنهم أبو عبيدة أمين هذه الأمة بنص قوله ﷺ في الحديث الصحيح : « لكلِّ أمةٍ أمينٌ وأمينُ هذه الأمةِ أبو عبيدة » وكيف يتوهم فيهم شيء من ذلك وهم بهذه الأوصاف الجليلة معاذ الله أن يتركوا العمل بما ثبت عندهم عن النبي ﷺ ، لأن ذلك خيانة في الدين فلا يجوز عليهم ذلك لا شرعاً ولا عقلاً ولا عادة ، لأنه يلزم من وقوع ذلك منهم تكذيب النبي ﷺ في شهادته لهم بالخير وثنائه عليهم ، وتكذيبُ النبي ﷺ كفر ، ووقوعُ الكذبِ منه مُحالٌ لثبوت صدقه بالمعجزات فما أدى إليه محال أيضاً ، كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ : « لا تجتمعُ أمتي على ضَلالة » ولو جاز وقوع ذلك منهم لارتفاع الأمان والثقة في كل ما نقلوه عن النبي ﷺ من القرآن والأحكام ولم يحصل الجزم بشيء من أمور الدين من أن جميع الدين أصوله وفروعه إنما أخذه الأئمة عنهم ووصل إليهم بواسطتهم .

وفي نسبة الرافضة سيدنا علي إلى الكتمان للنص غاية النقص لما يلزم عليه من نسبته إلى الجبن والظلم والخيانة والكتمان ، حاشاه الله من ذلك ، وبمقالة الرافضة هذه المقالة القبيحة توصل بعض الملحدة إلى تكفير عَليّ اعتماداً على قولهم لأنه كتم النص ، وكل ذلك زور وبهتان ، وكيف يسع من له أدنى إيمان أن ينسب علياً وبقية الصحابة إلى الكتمان مع ما استفاض وتواتر عنهم من غيرتهم لنبيهم ﷺ ، وشدة غضبهم عند انتهاك حرماته حتى قاتلوا دونه وقتلوا الآباء والأبناء في طلب مرضاته ، فلا

يتوهم مؤمن بالله تعالى لحوق أدنى نقص لهم أو سكوت على باطل ، فقد طَهَّر الله هذه العصابة من كل رجس ودنس ونقص ، وقد شهد الله لهم بالصدق بقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] وأخبر أنه رضي الله عنه بقوله : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾ [المائدة : ١١٩] ووعدهم بالحسنى بقوله : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ ﴾ [النساء : ٩٥] وشهد لهم النبي ﷺ بكل خير ، وتوفي وهو راضٍ عنهم ، فلا يقدم على شيء مما افتراه الرافضة وأمثالهم إلا عبد أضله الله وخذله فباء بعظيم الخسار والبوار وأحله الله نار جهنم وبئس القرار ، فنسأل الله السلامة مما وقع فيه هؤلاء الأشرار ، فما أقبح قولهم إن الصحابة علموا النصَّ على خلافة عَليّ فلم ينقادوا له عناداً ومكابرة بالباطل ، وأقبح من ذلك قولهم إن علياً ترك ذلك تقية ، كل ذلك كذب وزور ، وتوصلوا به إلى تكفير الصحابة ، وقد أخرج البيهقي عن الإمام أبي حنيفة أنه قال : أَصْلُ عقيدة الشيعة تضليل الصحابة . وإنما نَبّه على الشيعة لأنهم أقل فحشاً في عقائدهم من الرافضة ، وذلك لأن الرافضة يقولون بتكفير الصحابة لأنهم على زعمهم عاندوا بترك العمل بالنص على خلافة علي ، بل زاد أبو كامل وكان من رؤوس الرافضة فكفّر علياً زاعماً أنه أعان الكفار على كفرهم ، وعلى كتمان الأمر بإمامته ، بل تواتر عن علي الاعتراف بصحة خلافة أبي بكر وعمر وأنهما أفضل الأمة ، وقَبِل من عمر إدخاله إياه الشورى ، بل تواتر عنه كما تقدم ذلك عنه ، وإنما اتخذ الملحدون كلام الرافضة والشيعة وأمثالهم ذريعة للطعن في الدين والقرآن ، لأن ذلك إنما وصل إلينا من طريق الصحابة ، ومن جملة ما قاله أولئك الملحدون كيف يقول الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقد ارتدوا بعد وفاة نبيهم إلا نحو ستة أنفس منهم في زعمهم ، وجعل سبب الارتداد وامتناعهم من قبول النص بتقديم عليّ ، فانظر إلى كلام هذا الملحد تجده مأخوذاً مما اختلقه الرافضة وأمثالهم ، قاتلهم الله أنّىٰ يؤفكون ، بل هم أشد ضرراً على الدين من اليهود والنصارى ، وسائر فرق الضلالة ، وقد جاء التصريح بذلك عن علي فإنه صح عنه أنه قال : « تفترقُ هذه الأمةُ على ثلاث وسبعين فرقةً شرُّها من ينتحل حبنا ويفارق أمرنا » ووجهه ما اشتمل عليه كلامهم من افتراء الكذب ، وارتكاب قبائح البدع والعناد ، حتى تسلطت الملحدة بسبب ذلك على الطعن في الدين وأئمة المسلمين ، بل قال القاضي أبو بكر الباقلاني : فيما ذهبت الرافضة مما ذكروه إبطال للإسلام رأساً ؛

لأنه إذا أمكن اجتماع الصحابة على الإنكار للنصوص أمكن فيهم نقل الكذب والتواطؤ عليه لغرض ، فيمكن أن سائر ما نقلوه من الأحاديث كذب وزور ، وحاشاهم من ذلك ، وكذلك ما ذكره سائر الأمم عن جميع الرسل يجوز الكذب فيه والزور والبهتان على زعمهم لأنهم إذا دعوا ذلك في هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس فادعاؤهم إياه في باقي الأمم أحرىٰ وأولى ، فتأمل هذه المفاسد التي تَرَتَّبت على ما أسسه هؤلاء الملحدة قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون .

وقد أخرج البيهقي عن الشافعي أنه قال : ما من أهل الأهوال أشد بالزور من الرافضة ، وكان إذا ذكرهم عابهم أشد العيب .

وأخرج الدارقطني عن عمار بن ياسر قال : من قال إن علياً كان أحق بالولاية من أبي بكر فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار .

وقال الإمام مالك : قوله تعالى في حق الصحابة : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح : ٢٩] أن الرافضة كفار لأن الصحابة يغيظونهم ومن أغاظه الصحابة فهو كافر ، وهو مأخذ حسن يشهد له ظاهر هذه الآية ، ومن ثم وافقه الشافعي في أحد قوليه بكفرهم ، ووافقه أيضاً جماعة من الأئمة .

قال ابن الأثير في تاريخه المسمى بالكامل في حوادث سنة ست وتسعين ومئتين عند ذكره ابتداء دولة العبيديين ما نصه : لما بعث الله سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ عَظُم ذلك على اليهود والنصارى والروم والفرس وقريش وسائر العرب ، لأنه سَفَّه أحلامهم وعاب أديانهم وآلهتهم وفرق جمعهم ، فاجتمعوا يداً واحدة فكفاه الله كيدهم ونصره عليهم ، فأسلم منهم من هداه الله تعالى ، فلما قُبِض ﷺ نَجَمَ النفاق وارتدت العرب وظنوا أن الصحابة يضعفون بعده ، فجاهد أبو بكر في سبيل الله فقتل مسيلمة ورد أهل الردة وأذل الكفر ووطأ جزيرة العرب وغزا فارس والروم ، فلما حضرته الوفاة ظنوا أن بوفاته ينتقض الإسلام ، فاستخلف عمر بن الخطاب فأذل فارس والروم وغلب على ممالكهما ، فدسّ إليه المنافقون أبا لؤلؤة فقتله ظناً منهم أن بقتله ينطفيء نور الإسلام ، فولي بعده عثمان رضي الله عنه فزاد في الفتوح واتسعت ممالك الإسلام ، فلما قتل ولي بعده أمير المؤمنين علي فقام بالأمر أحسن قيام ، فلما يئس

أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة أخذوا في موضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضَعَفَةِ العقول في دينهم بأمور قد ضبطها المحدثون وأفسد الصحيح بالتأويل والطعن عليه ، وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة ، وتفرق أصحابهم في البلاد وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك وهم على خلافه ، وأكثروا الطعنَ في الصحابة لأنهم علموا أن الطعن فيهم طعن في الشريعة ، فبطريقهم وصلت إلى من بعدهم وأنفقوا مالاً عظيماً على من تبعهم لتنتشر مذاهبهم ، انتهى .

فعلم من ذلك كله أن أساس مذاهبهم الطعن في الصحابة ليتوصلوا بذلك إلى إبطال الشريعة قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون .

ولنرجع إلى إتمام الكلام على ما يتعلق بخلافة أبي بكر وذكر شيء آخر من محاسنه .

فمن ذلك خُطَبُهُ التي كان يخطب بها وهي كثيرة ، منها : خطب مرة فقال بعد أنْ حمد الله بما هو أهله وصلى على نبيه : إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، فرفع الناس رؤوسهم فقال : مالَكُم أيها الناس إنكم لطاعون عجلون ، إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما بيده ورغبه فيما بيد غيره وانتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الأشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة البقاء ؟ لا يستعمل العبرة ولا يسكن إلى الثقة فهو كالدرهم القيعي والسراب الخادع جذل الظاهر حزين الباطن ، فإذا أوجبت نفسه ونضب عمره وضحى ظله حاسبه الله فأشد حسابه وأقل عزه ، ألا وإنّ الفقراء هم المرحومون ، ألا إن من آمن بالله حكم بكتابه وسنّة نبيه وإنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة وسترون بعدي ملكاً عضوضاً وملكاً عنوداً وأمة شحاحاً ودماً مباحاً ، فإن كانت للباطل نزوة ولأهل الحق جولة يعفو لها أثر الخير ويموت لها ، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر ، أي بلاد جوسه إن الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها .

وقال رضي الله عنه في خطبه : إن الله أرسل محمداً ﷺ للناس كافة رحمة لهم وحجة عليهم ، والناس يومئذ على شر حال في ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة

ودعوتهم فرية ، فأعز الله الدين بمحمد ﷺ وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير من يكذب يفخر ومن يفخر يهلك ، وإياكم والفخر ، وما فخر من خلق من التراب وإلى التراب يعود هو اليوم حي وغداً ميت ، فاعملوا وعدوا أنفسكم في الموتى ، وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله تعالى ، وقدموا لأنفسكم تجدوه محضراً ، فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم ، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها إلا ما غفر الله إنه غفور رحيم بأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، إنّ الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ، اللهمّ صلِّ على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك ، وزكّنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه ، اللهمّ أَعِنّا على طاعتك وانصرنا على عدوك .

وقال في خطبة أخرى بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ثم اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم وأخذ على ذلك مواثيقكم وعوّضكم بالقليل الفاني الكثير الباقي ، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره ، فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه وتبصروا فيه ليوم الظلمة فإنه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون ، ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه ، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله فسابقوا في مهل أعمالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم ، فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم فالوحا الوحا النجا النجا فإن وراءكم طالباً حثيثاً أَمْرُه سريعاً سيرُه .

وكان آخر دعاء أبي بكر الصديق في خطبته : اللهمّ اجعلْ خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم لقائك .

وخطب مرة خطبة فقال : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على غير

تأويلها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما مِنْ قوم عملوا بالمعاصي وفيهم مَنْ يقدر أن ينكِر عليهم فلم يَفْعَلْ إلا يوشِكُ أن يعمَّهم اللهُ بعذابٍ مِنْ عنده » .

ومِنْ كلامه أنه قال لخالد بن الوليد : فِرَّ من الشرف يتبعْك الشرف ، واحرصْ على الموت توهبْ لك الحياةُ .

ولَمّا وَفَدَ عليه أهل اليمامة بعد قتل مسيلمة الكذاب قال لهم أبو بكر : ما كان يقول صاحبكم يعني مما يزعم أنه وحي ؟ قالوا : أعفنا يا خليفة رسول الله . . قال : لا بد أن تقولوا . . قالوا : كان يقول : يا ضفدع كم تنقنقين لا الشرب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم لا يعدلون . فقال لهم أبو بكر : ويحكم ما خرج هذا من آل ولا بر فأين ذهب بكم ؟ الآلُ : الله تعالى ، والبر : الرجل الصالح .

ومن دعاء الصديق : اللهمَّ إني أسألك الذلَّ عند النصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف .

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ١٢٣] قال أبو بكر : يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال ﷺ : « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست يصيبك الأذى ألست تحزن ، فهذا مما تجزون به » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك .

وكان أبو بكر إذا مدح يقول : اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .

وروى الصدّيق عن النبي ﷺ أنه قال : « سَلُوا الله العافية فما أعطى أحداً أفضل من العافية إلا اليقين » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

ومن كلامه : من استطاع أن يبكي فليبك ، ومن لم يستطع فليتباكَ ، ورأى رضي الله عنه مرة طائراً فقال : ليتني مثلك يا طائر ولم أكن بشراً .

قال الإمام الغزالي في الإحياء : إن أبا بكر رضي الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال ، وشرب أبو بكر مرة لبناً من كسب عبده ، ثم سأل عبده فقال : تكهنت لقوم فأعطونيه فأدخل أصبعه في فِيه وجعل يقيء حتى ظنوا أن نفسه ستخرج ، ثم قال : اللهمَّ إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء ، ولما أخبر ﷺ بذلك قال : « أوَ ما علمتم أنَّ الصّدّيق لا يدخل جوفه إلا طيباً » ويروى أنه ﷺ قال : فيه ـ يعني أبا بكر ـ نزل ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] ولما قال رسول الله ﷺ : « إن عبداً خُيّر بين الدنيا وما عند الله فاختار ما عند الله » بكى أبو بكر وفهم أن العبد هو رسول الله ﷺ ، وأن ذلك إشارة إلى قرب أجله ، ولم يفهم ذلك المعنى أحد من الصحابة الحاضرين غير أبي بكر ، فقال النبي ﷺ : « علىٰ رِسْلك يا أبا بكر سدوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر » إشارة إلى أنه الخليفة بعده ففتح باب له على المسجد ليدخل منه ويصلي بالناس ، ثم قال ﷺ : « إني لا أعلم أمراً عندي أفضل في الصحبة من أبي بكر » .

ولما مرض أبو بكر مرض الوفاة دخل عليه سلمان الفارسي فقال : يا أبا بكر أَوْصِنا . فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذنَّ منها إلا بلاغك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك .

وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته :

وأبيضُ يُسْتَسْقىٰ الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثُمَالُ اليتامىٰ عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله ﷺ .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتُضِرَ أبو بكر أتاه ناس من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله زَوّدْنا . فقال : ومن قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين . قالوا : وما الأفق ؟ قال : قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار ، يغشاه كل يوم مئة رحمة ، فمن قال هذا القول جعل الله روحه في ذلك المكان ، اللهم إنّك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقاً للنعيم وفريقاً للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير ، اللهم إنك خلقت الخلق فرقاً وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقياً وسعيداً وغوياً ورشيداً فلا تشقني

بمعاصيك ، اللهمَّ إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت ، فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك ، اللهمَّ إنَّ أحداً لا يشاء حتى تشاء ، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك ، اللهمَّ إنك قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك ، فاجعل حركاتي في تقواك ، اللهمَّ إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به ، فاجعلني من خير القسمين ، اللهمَّ إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلاً ، فاجعلني من سكان جنتك ، اللهمَّ إنك أردت بقومٍ الهدى وشرحت به صدورهم ، وأردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدري للإيمان وزيّنْهُ في قلبي ، وكَرّه إليَّ الكفر والفسوق والعصيان واجعلني من الراشدين ، اللهمَّ إنك دَبَّرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقرّبني إليك زلفىٰ ، اللهمَّ من أصبح وأمسى وثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتي ورجائي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال أبو بكر : هذا كله في كتاب الله عز وجل .

وروى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من وَلِي من أمر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صِرْفاً ولا عَدْلاً حتى يدخله جهنم ، ومَنْ أعطى حِمى الله فقد انتهى مِنْ حمى الله ، ومَنْ أخذ شيئاً بغير حقه فعليه لعنة الله » .

وروى أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « السلطانُ العادلُ المتواضعُ ظِلُّ الله ورمْحُهُ في الأرض ، ويرفع له كل يوم وليلة عمل ستين صديقاً » .

وروى أن رسول الله ﷺ قال : « ما ترك قومٌ الجهادَ إلا عَمَّهم اللهُ بالعذاب » .

وروى أيضاً أن النبي ﷺ قال : « النظر إلىٰ عَليّ عبادة » .

وسئل أبو بكر يوماً عن آية في كتاب الله تعالى فقال : أي سَماءٍ تُظلّني وأيُّ أرضٍ تُقِلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وقال في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] هي النظر إلى وجه الله عز وجل .

وكان رضي الله عنه إذا عَزّىٰ رجلاً قال : ليس مع العزاء مصيبة ، وليس مع الجزع فائدة ، الموتُ أهون مما قبله وأشد مما بعده ، واذكروا فَقْدَ رسول الله ﷺ تصغرْ مصيبتكم ويعظم الله أجركم .

وكان رضي الله عنه إذا صلّى على الميت قال : اللهم عبدك أسلمه الأهل والمال والعشيرة والذنب عظيم وأنت غفور رحيم .

وغضب رضي الله عنه يوماً على رجل فاشتدّ غضبه فقال له أبو برزة الأسلمي : يا خليفة رسول الله اضرب عنقه ، فقال له : ويلك ما هي لأحد بعد رسول الله ﷺ .

وروى أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «خالد بن الوليد سيف من سيوف الله ، سلّه الله على الكفّار والمنافقين» .

وروى أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : «اللهم اشدد الإسلام بعمر» .

وروى أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : «لو لم أبعث فيكم لبعث عمر» .

وسيرة أبي بكر طويلة ، وفي هذا القدر كفاية ، والقصد من ذلك كله بيان أن ملاك الأمر كله العدل في بيت المال وان سيرة الخليفة على المسلمين بسيرة الخلفاء الراشدين . وقد تقدم في كلام أبي بكر رضي الله عنه أنه قال : لن يصلح أمر آخر هذه الأمّة إلا بما صلح به أوّلها ، فلا بد لصالح هذه الأمّة من خليفة يسلك مسلك الخلفاء الراشدين ولا يكون ذلك إلا بالزهد في الدنيا .

وروى الحافظ بن القيم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : إن أبا بكر الصديق ، رضي الله عنه ، استسقى فأُتي بماء فيه عسل ، فلما أدناه مِن فِيه بكي وأبكى من حوله ، ثم سكت فسكتوا ، ثم عاد فبكي حتى ظنّوا أن لا يقدر أحد على مسئلته ، ثم مسح وجهه فأفاق فقالوا ما هاجك على هذا البكاء ، قال : كنت مع رسول الله ﷺ وجعل يدفع عنه شيئاً يقول إليك عني ، إليك عني ، ولم أرَ معه أحداً فقلت : يا رسول الله إنك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً ، قال : هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها ، فقلت لها : إليك عني ، فتنحّت وقالت : أما والله لئن انفلت مني لا ينفلت مني من بعدك ، فخشيت أن تكون قد لحقتني فذلك الذي أبكاني .

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : دخلت على أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته فقال : والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يسبح في غمرة الدنيا .

قال الحسن البصري لما ثقل أبو بكر ، رضي الله عنه ، في مرض موته جمع الناس

إليه فقال : إنه قد نزل بي ما قد ترون وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي وحلَّ عنكم عقدي وردَّ عليكم أمركم فأمّروا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر ألّا تختلفوا بعدي . فقاموا في ذلك وخلوا عنه ، فلم يستتم لهم رأي فرجعوا إليه ، وقالوا : رأينا يا خليفة رسول الله رَأْيَكَ . فقال : لعلكم تختلفون ، قالوا : لا . وقال علي رضي الله عنه : يا خليفة رسول الله امض لما رأيت فإنا سامعون مطيعون ، فقال : فلعلكم تختلفون . قالوا : لا . قال : فعليكم عهد على الرضا ، قالوا : نعم ، قال : فأمهلوني ونصر الله لدينه ولعباده .

وفي رواية : قال لهم : قد حضر ما ترون ولا بد من قائم يأمركم يجمع فئتكم ويمنع ظالمكم من الظلم ويرد على الضعيف حقّه ، فإن شئتم اخترتم لأنفسكم ، وإن شئتم جعلتم ذلك إليّ ، فوالله لا آلوكم ونفسي خيراً ، وفي رواية : قال لهم : أترضون بخلافة خليفة أعينه لكم والله ما أعين لكم أحداً من أقربائي ؟ قالوا : قد رضينا من اخترت لنا . ثم أرسل لكثير منهم واختلى بكل واحد وحده ، فكانوا يشيرون عليه باستخلاف عمر بن الخطاب ، فَقَبِل إشارتهم ، وأمر عثمان بكتابة الصحيفة التي فيها استخلاف عمر بن الخطاب ، ثم أمر عثمان أن يخرج للناس ويقرأها عليهم ، وقال لهم أبو بكر قبل قراءتها : أترضون بمن أستخلفه عليكم ؟ قالوا : نعم . وقال علي : لا نرضى إلا أن يكون عمر . فقال : هو عمر . فقال علي : يا خليفة رسول الله امض لرأيك فما نعلم به إلا خيراً . وقال عثمان وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهم من المهاجرين والأنصار : أنت أَخْبَرُنا بِهِ وهو أعلمنا للخير بعدك ، يرضى للرضى ويسخط للسخط ، وسريرتُه خيرٌ من علانيته ، وليس فينا مثله ، ولن يلي هذا الأمر الذي أقوى عليه منه ، ثم قرئت عليهم الصحيفة فرضوا بما فيها .

وعن عاصم بن عدي قال : جمع أبو بكر رضي الله عنه الناس وهو مريض وأمر من يحمله إلى المنبر ، وكانت آخر خطبة خطبها بعد أن عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس احذروا الدنيا ولا تغتروا بها فإنها غَرّارة ، وآثروا الآخرة على الدنيا فأحبوها ، فبحب كل واحدة منهن تبغض الأخرى ، وإن هذا الأمر الذي هو ثبت بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه وأرشدكم في حال الشدة وألينكم في

حال اللين وأعلمكم برأي ذوي الرأي ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ، ولا يستحيي من التعلم ، ولا يتحير عند البديهة ، قوي على الأمور لا يجوز لشيء منها حدة بعد أوان ، ولا يقصر برصد لما هو آت ، عتاده من الحدة والطاعة ، وهو عمر بن الخطاب ، ثم قد نزل فدخل داره وقال له قائل : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر وقد ترى غلظته ؟ فقال أبو بكر : أجْلِسوني ، أبالله تخوفني ؟ خاب من تزوّد من أمركم بظلم ، أقول : اللهمّ استخلفت عليهم أفضلهم وأقواهم ، وفي رواية قال : أبالله تخوفني ؟ أقول : استعملت عليهم خيرهم وأشدهم حباً لله تعالى ، فستعلمون إذا فارقتموه وتنافستموه .

وذكر صاحب الاكتفاء أن عمر بن الخطاب التوىٰ وامتنع من قبول عهد أبي بكر له بالخلافة ، وقال : لا أطيق القيام بأمر الناس . فقال أبو بكر لابنه عبد الرحمن : ارفعني وناولني السيف ، فقال عمر : أو تعفني ؟ قال : لا . فعند ذلك قَبِلَ .

وفي رواية أن عمر راجع أبا بكر ، وقال : يا خليفة رسول الله لا حاجة لي فيها ، فقال : إن لم تكن محتاجاً إليها فهي محتاجة إليك ، وإني ما حَبَوْتُكَ بالخلافة ، ولكن حَبَوْتُها بك ، ومع ذلك فإني أحذرك نفسك ، فإن النفس لأمّارة بالسوء ، وأحذرك الناس واعلم أنهم خائفون منك ما خفت الله عَزَّ وجَلَّ ، وآثرت رضاه جَلّ جلاله على هواك .

وكتبَ أبو عبيدة إلى أبي بكر بعد تَوجُّه الجنود إلى قتال الروم : بلغني أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام تدعى أنطاكية ، وأنه بعث إلى أهل مملكتهم فحشدهم إليه وأنهم نفروا إليه على الصعب والذلول ، وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك ، والسلام .

فكتب إليه أبو بكر :

أما بعد : فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم ، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه وفتحٌ من الله عليك وعلى المسلمين ، وأما حشده أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم ، ما كان قوم أن يدعوا سلطانهم ويخرجوا من مملكتهم بغير قتال ، ولقد علمت والحمد

لله أن قد غزاهم رجال بسيف من المسلمين يحبون الموت حبَّ عدوهم الحياة ، يحتسبون من الله في قتالهم الأجر العظيم ، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم ، الرجلُ منهم عند أهيج خير من ألف رجل من المشركين ، فالقهم بجنودك ولا تتوحش لمن غاب عنك من المسلمين ، فالله تعالى ذكره معك فائت وذكره معك ، وأنا مع ذلك ممدُّك بالرجال بعد الرجال حتى تكتفي ولا تريد أن تزداد ، والسلام ، وقوله : أما منزله بأنطاكية فهزيمة ، لعله أخذ ذلك من أنطا ، فإنه لغة في أعطى .

وكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر : أمّا بعد : فإن هرقل ملك الروم لما بلغه مسيرنا إليه ألقى الله الرعب في قلبه فتحول ونزل أنطاكية وخلف أمراء من جنده على جند الشام وأمرهم بقتالنا ، وقد تسيروا لنا واستعدوا ، وقد نبأنا مسالمة الشام أن هرقل استنفر أهل مملكته وأنهم جاؤوا يجرون الشوك والشجر ، فَمُرْنا بأمرك وعَجّلْ علينا في ذلك برأيك نتبعه ، نسأل الله تعالى النصر والصبر والفتح وعاقبة المسلمين ، والسلام عليك .

فكتب له أبو بكر :

أما بعد : فقد بلغني كتابك تذكر فيه تحوّلَ ملك الروم إلى أنطاكية ، وألقى الله الرعب في قلبه من جموع المسلمين ، فإن الله تبارك وتعالى وله الحمد قد نصرنا ـ ونحن مع رسول الله ﷺ ـ بالرعب وأيّدنا بملائكته الكرام ، وإن ذلك الدين الذي نَصَرنا الله فيه بالرعب هو هذا الدين الذي تدعو الناس إليه اليوم ، فوربّك لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين ، ولا من يشهد أن لا إله غيره كمن يعبد آلهة أخرى ويدين بعبادة آلهة شتى ، فإذا لقيتهم فانبِذْ إليهم بمن معك وقاتلهم فإن الله لن يخذلك ، وقد نبأنا الله تعالى أن الفئة القليلة منا تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله ، وأنا مع ما هنا ممدكم بالرجال في إثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان إن شاء الله تعالى ، والسلام ، وقال للرسول : أخبرهم أن مدد المسلمين آتيهم مع هاشم بن أبي وقاص ، وسعيد بن عامر الجمحي .

فلما قدم الرسول بالكتاب على يزيد قرأه على المسلمين فتباشروا وفرحوا ، ثم إن

أبا بكر دعا هاشم بن عتبة وبعثه في ألف من المسلمين ، فسلم على أبي بكر وودعه ، ثم خرج من عنده فلزم طريق أبي عبيدةِ حتى قدموا عليه فَسُرَّ المسلمون بقدومه وتباشروا به .

وبلغ سعيد بن عامر الجمحي أن أبا بكر يريد أن يبعثه ، فلما أبطأ في ذلك عليه أتاه فقال : يا أبا بكر والله لقد بلغني أنك كنت أردت أن تبعثني في هذا الوجه ، ثم رأيتك قد سكتَّ فما أدري ما بدا لك فيَّ ، فإنْ كنتَ تريد أن تبعث غيري فابعثني معه ، وإن كنت لا تريد أن تبعث أحداً فإني راغب في الجهاد فَأْذَن لي رحمك الله كيما ألحق بالمسلمين ، فقد ذكر لي أن الروم قد جمعت لهم جمعاً عظيماً . فقال أبو بكر : رحمك الله أرحم الراحمين يا سعيد ، فأَمَرَ بلالاً فنادى في الناس : أن انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن عامر إلى الشام ، فانتدب معه سبعمئة رجل في أيام ، فلما أراد سعيد الشخوص جاء بلال فقال : يا خليفة رسول الله ﷺ إن كنت إنما أعتقتني لله تعالى لا لأملك نفسي وأتصرف فيما ينفعني ، فخلّ سبيلي حتى أجاهد في سبيل ربي فإن الجهاد أحبُّ إليَّ من المقام . قال أبو بكر : فإن الله يشهد أني لم أعتقك إلّا لَهُ وأني لا أريد منك جزاء ولا شكوراً ، فهذه الأرض ذات الطول والعرض فاسلك أي فجاجها أحببت . فقال : أيها الصدّيق كأنك عتبت على مقالتي ووجدت في نفسك منها عليّ . قال : لا والله ما وَجَدْتُ في نفسي من ذلك ، وإني لا أحب أن تدع هواك لهواي ، كيف ، وهواك إلى طاعة ربك ؟ قال : فإن شئت أقمت معك . قال : أمّا إذا كان هواك في الجهاد فلم أكن آمرك بالمقام وإنما أردت للأذان ولا وجدت لفراقك وحشة يا بلال ولا بد من التفرقة فرقة لا التقاء بعدها حتى يوم البعث ، فاعمل صالحاً يا بلال وليكن زادك من الدنيا ما يذكرك الله ما حييت ويحسن لك الثواب إذا توفيت . فقال له بلال : جزاك الله من ولي نعمة ومن أخ بالإسلام خيراً ، فوالله ما أقرك لنا بالصبر على الجود والمداومة على العمل ، ثم قال : وما كنت لأؤذن لأحد بعد النبي ﷺ .

وخرج بلال مع سعيد بن عامر ، وأمر سعيد بن عامر مع من معه أن يلحقوا بيزيد بن أبي سفيان ، فأقام بلال في الشام بقصد الجهاد وتوفي بدمشق ، وقيل بحلب سنة عشرين أو ثمانية وعشرين ، وقدم مرة المدينة للزيارة فطلب منه أهل المدينة أن يؤذن فقال : لا أفعل بعد أن أذنت لرسول الله ﷺ فألحوا عليه ، فصعد فاجتمع أهل

المدينة رجالهم ونساؤهم وصغارهم وكبارهم وقالوا : هذا بلال مؤذن رسول الله ﷺ يريد أن يؤذن فهلموا نسمع أذانَهُ ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر تذكروا زَمَنَ النبي فصاحوا وبكوا جميعاً ، فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله ضجوا جميعاً ، فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله لم يبق في المدينة ذو روح إلا بكىٰ وصاح ، وخرجت العذارىٰ والأبكار من خدورهنّ يبكين وصاروا كيوم وفاة رسول الله ﷺ حتى فرغ من أذانه ، فقال : أبشركم أنه لا تمس النار عيناً بكت على النبي ﷺ ، وأذّن مرة بالشام فكان أيضاً مثل ذلك .

وكان أبو بكر يحب علي بن أبي طالب وأهل بيت النبي ﷺ كافة وهو الذي روى عن النبي ﷺ أنه قال : « النظر إلى علي بن أبي طالب عبادة » وروى مثله عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ .

وأخرج البخاري في صحيحه عن أبي بكر الصديق أنه قال : « والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ من أن أَصِلَ قرابتي » .

وفي رواية : والله لأن أَصِلَكُمْ أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَصِلَ قرابتي لقرابتكم من رسول الله ﷺ .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي بكر : يا أيها الناس إن الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله ﷺ وذريته ، فلا تذهبن بكم الأباطيل ، وكان أبو بكر كثيراً ما يعمل بما يشير به عليٌّ عند بعث الجنود للجهاد ، ولا يأذن له في الخروج مع المجاهدين حرصاً على بقائه للانتفاع برأيه ومشورته ، وكذا لم يأذن في الخروج لعمر وعثمان للاستعانة بكل منهم على تدبير أمور المسلمين ، ولا يفعل شيئاً إلا بعد استشارتهم مع غيرهم من وجوه أصحاب النبي ﷺ .

قال الجلال السيوطي : كان أبو بكر يصوم الصيف ويفطر الشتاء وكأنه يختار الصيف للصوم لأنه أشق على النفس .

وتقدم أن من دعاء الصديق : اللهمَّ إني أسألك الذلَّ عند النصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف .

قال في الإحياء : إذا كان الصدّيق في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف

يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده ، هذا مع أن أصلح أحوال الغني أن يأخذ حلالاً وينفق طيباً ، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ، ويطول انتظاره ، ومن نوقش الحساب عُذّب ، وأوصى رسول الله ﷺ عائشة وقال : « إنْ أردتِ اللحوقَ بي فإياكِ ومجالسةَ الأغنياءِ ، ولا تنزعي قميصاً حتى ترقعيه » .

وكان أبو بكر جعل ولاية بيت المال في زمن خلافته لأمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح ، وقد تقدم أنه جاء له في زمن خلافته مال من البحرين فقسمه بين الناس ، وقال : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا ، فجاء جابر بن عبد الله فقال : قال رسول الله ﷺ : « لو جاء مالٌ من البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعني ثلاث حفنات » فقال أبو بكر خذ فأخذت مقداراً فوجدت عدد تلك الدراهم التي أخذتها ٥٠٠ فأعطاني ١٥٠٠ وفاء بقول النبي ﷺ : « هكذا وهكذا وهكذا » ولم يأخذ أبو بكر لنفسه من ذلك المال شيئاً ، وفي هذا القدر كفاية ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما كان لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الاقتصاد في الدنيا وحسن السيرة

أخرج ابن سعد عن آصف بن قيس قال : كنا جلوساً بباب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فمرت جارية فقالوا : سَرِيَّةُ أميرِ المؤمنين ، فسمعهم عمر رضي الله عنه فقال : ما هي لأمير المؤمنين بِسَرِيّة ولا تحلُّ له ، إنها من مال الله ، فقلنا : ماذا يحلُّ له من مال الله تعالى ؟ فقال : إنه لا يحلّ لعمر من مال الله تعالى إلا حلتان حلة للشتاء وحلة للصيف وما حج به واعتمر ، وقُوتي وقوتُ أهلي كرجل من قريش ليس بأفقرهم ولا بأغناهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وغيرهما من طرق عن عمر رضي الله عنه قال : إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم من ماله إن أيسرت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإن أيسرت قضيت ، واتفق في بعض السنين أنه لم يأخذ من بيت المال شيئاً حتى أصابته خصاصة وحاجة ، فاستشار الصحابة وقال : ما يصلح لي أن آخذه ؟ فقال علي : غداء وعشاء فأخذ بذلك عمر .

وذكر الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء أن ذلك كان من عمر في ابتداء ولايته ، فذكر أنه في أول ولايته لم يأخذ من بيت المال شيئاً حتى أصابته خصاصة ، فقال : ما يصلح لي أن آخذه ؟ فقال علي : غَداء وعَشَاء ، فأخذ بذلك عمر .

وقال ابن سعد : قال محمد بن إبراهيم : كان عمر ينفق كل يوم درهمين له ولعياله واحتاج مرة عسلاً للتداوي به ، وكان في بيت المال عكة من عسل ، فقال : إن أذنتم لي وإلا فذلك عَليّ حرام ، فأذنوا له فأخذ من العكة مقدار الحاجة ، وكان يأكل خبز الشعير ويأتدم بالزيت ويلبس المرقوع ويخدم نفسه ، وكان يقول : ما نعبأ بلذات العيش ولكن نُبقي طيباتنا لآخرتنا . ولما كلّمته ابنته حفصة وابنه عبد الله وغيرهما قالوا له : لو أكلت طعاماً طيباً لكان أقوى لك على الحق . قال : أَكلّكم على هذا الرأي ؟ قالوا : نعم . قال : قد علمت نصحكم ولكني تركت صاحِبيَّ على جادة ، فإن تركت

جادتهما لم أدركهما في المنزل ، ويعني بصاحبيه النبي ﷺ وأبا بكر .

واجتمع مرة أصحاب رسول الله ﷺ في المسجد زهاء خمسين رجلاً ، فقالوا : أما ترون إلى زهد هذا الرجل وإلى حليته وقد فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر وطرفي المشرق والمغرب ، والعجمُ يأتونه فيرون فيه هذه الجبة وقد رقعها باثنتي عشرة رقعة ، فلو سألتموه معاشرَ أصحابِ محمد ﷺ أن يغير هذه الجبة بثوب لَيّن فيهاب منظره ، ويغدى عليه بجفنة من الطعام ويراح عليه بجفنة يأكل منها من حضره من المهاجرين والأنصار ؟ فقال القوم جميعهم : ليس هذا القول إلا لعلي بن أبي طالب فإنه صهره لكونه زوَّجَهُ بنته أم كلثوم ، فقال علي : لست بفاعل ذلك ولكن عليكم بأزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين فإنهن يَتَجَرَّأنَ عليه . قال الأحنف بن قيس : فسألوا عائشة وحفصة وكانتا مجتمعتين ، فقالت عائشة : أسألك ذلك ، وقالت حفصة : ما أراه يفعل وسيتبين لك ذلك ، فدخلتا عليه فقربهما وأدناهما ، فقالت عائشة : أتأذن لي أن أكلمك ؟ فقال لها : تكلمي يا أم المؤمنين ، فقالت : إن رسول الله ﷺ قد مضى إلى جنة ربه ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وكذلك مضى أبو بكر على أثره وقد فتح الله عليك كنوز كسرى وقيصر وديارهما وحمل إليك أموالهما وذلّ لك الطرفان المشرق والمغرب ونرجو من الله المزيد ، ورسلُ العجم يأتونك ووفود العرب تَفِدُ إليك وعليك هذه الجبة قد رقعتها اثنتي عشرة رقعة ، فلو غَيّرتَها بثوب لَيّن يهاب فيه منظرك ويغدى عليك بجفنة من طعام ويراح عليك بأخرى تأكل منها أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار . فبكى عمر عند ذلك بكاء شديداً ، ثم قال : سألتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ شَبع من خبز بُرٍّ عشرة أيام أو خمسة أيام أو ثلاثة أيام وجمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله عز وجل ؟ . قالت : لا : قال : أنشدك بالله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرب إليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الأرض إلا كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض ؟ قالت : اللهم نعم . ثم قال : أنتما زوجتا رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين ، لكما على المؤمنين حق وعلي خاصة وقد أتيتماني ترغّباني في الدنيا وإني لأعلم أن رسول الله ﷺ لبس جبة من الصوف وربما حكَّ جلدته من خشونتها ، أتعلمان أن رسول الله ﷺ كان يرقد على عباء على طاق واحد وكان مسح في بيتك يا عائشة يكون بالنهار بساطاً وبالليل فراشاً ينام عليه ، وكان يُرى أثرُ الحصير في

جنبه ، ألا يا حفصة أنت حَدَّثِتِني أنك ثنيت له المسح ليلة فَوَجَدَ لِينَهُ فرقد عليه فلم يستيقظ إلا بأذان بلال ، فقال : يا حفصة ماذا صنعت ثنيت المهاد حتى ذهب بي النوم إلى الصباح ، مالي وللدنيا وما للدنيا ولي ، شغلتموني بلين الفراش ، يا حفصة أما تعلمين أن رسول الله ﷺ كان مغفوراً له ، ولم يزل جائعاً ساجداً راكعاً باكياً متضرعاً آناء الليل وأطراف النهار إلى أن قبضه الله تعالى إلى رحمته ورضوانه ، لا أكل عمر طيباً ولا لبس ليناً ، فله أسوة بصاحبيه ، ولا جمع بين إدامين إلا الماء والزيت ، ولا أكل لحماً إلا في كل شهر . فخرجنا من عنده فأخبرنا أصحاب رسول الله ﷺ ، فلم يزل كذلك حتى لحق عمر بالله عَزَّ وجَلَّ ، وكان يقول : إن من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب لهم عليه ما يجب على العبد من النصح وأداء الأمانة ، ولما أصاب الناس القحط في العام الذي كانوا يسمونه عام الرمادة ما أكل عمر في ذلك العام سمناً ولا سميناً .

قال أنس رضي الله عنه : قد قرقرت بطن عمر عام الرمادة من أكل الزيت فطعن بطنه بأصبعه وقال : ليس عندنا غيره حتى يحيا الناس . ومن ثم تغير لونه في هذا العام حتى صار أسمر ، وقال مرة لمن كلمه في طعامه : ويحك آكل طيباتي في الدنيا وأستمتع بها . وقال لابنه عاصم وهو يأكل لحماً : كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهىٰ ، وكان رضي الله عنه يداوم على أكل التمر ، ولا يداوم على أكل اللحم ويقول : إياكم واللحم فإنه ضراوة كضراوة الخمر ، أي إن له عادة تنزع النفس إليها كعادة الخمر .

وعن جعفر بن أبي العاص رضي الله عنه قال : أكلت مع عمر بن الخطاب الخبز والزيت والخبز واللبن ، والخبز والخل ، والخبز واللحم القديد وأعلى ذلك اللحم الغريض ، أي الطري ، وكان رضي الله عنه يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه كل طعام . وأُتي مرة بخبز غليظ فجعل يأكل ويقول لنا : كلوا ، فجعلنا نعتذر ، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : لا ، كُلْ أنت ، والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام هو ألين من طعامك .

وعن حفصة رضي الله عنها قالت : دخل عَلَيَّ عمر مرة فَقَدَّمْتُ له مرقَةً باردة وصببت عليها زيتاً ، فقال : أدمان في إناء واحد ، لا أذوقه أبداً حتى ألقى الله عَزَّ وجَلَّ .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : دخل علينا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ونحن على مائدة ، فأوسعت له عن صدر المجلس ، فقال : باسم الله ، ثم ضرب بيده في لقمة فلقمها ، ثم ثنى بأخرى ، ثم قال : إني لأجد طعم دسم غير دسم اللحم ، فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين إني خرجت إلى السوق أطلب السمن لأشتريه فوجدته غالياً ، فاشتريت بدرهم من اللحم المهزل وجعلت عليه بدرهم سمناً ، فقال عمر : ما اجتمعنا عند رسول الله ﷺ إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر ، فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين إذن فلم يجتمعا عندي أبداً إلا فعلت ذلك .

وعن جابر قال : رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي فقال : ما هذا يا جابر ؟ قلت : اشتهيت لحماً فاشتريت ، فقال عمر : أوَكُلَّما اشتهيت اشتريت يا جابر ، أما تخاف الآية : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

وجيء له مرة بلحم فيه سمن فأبى أن يأكله ، وقال : كل واحد منهما إدام .

وكان يقول والله ما يمنعنا أن نأمر بصغار المعز فيسمط لنا ، ونأمر بلباب الحنطة فيخبز لنا ، ونأمر بالزبيب فينبذ لنا فنأكل هذا ونشرب هذا إلا أن نستبقي طيباتنا لأنا سمعنا الله يقول : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ .

وكان يلبس وهو خليفة جبة من صوف مرقوعاً بعضها بأدم ، وفي رواية من جراب ، ويطوف في الأسواق وعلى عاتقه الدرة يؤدب الناس ، ويمر بالنوى فيلتقطه ويلقيه في منازل الناس ينتفعون به ، وتأكله شياههم .

وقال أنس : رأيت بين كتفي عمر أربع رقاع في قميصه .

وقال أبو عثمان النهدي : رأيت على عمر إزاراً مرقوعاً بأدم .

وقال علي بن أبي طالب : رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها أدم .

وقال الحسن : خطب عمر النساء وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة فيها أدم ، ولما حج لم يتظلل إلا تحت كساء أو نطع يلقيه على شجرة ، وكانت جملة نفقته في حجته ستة عشر ديناراً ، ومع ذلك يقول : أسرفنا في هذا المال .

وقال نافع العبسي : دخلت دار الصدقة مع عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم ، فجلس عثمان في الظل يكتب ومعه علي قائم على رأسه يملي عليه ما يقول ، وعمر قائم في الشمس في يوم شديد الحر عليه بردان أسودان اتَّزرَ بأحدهما ، ولَفَّ الآخر على رأسه يتفقد إبل الصدقة يكتب ألوانها وأسنانها ، فقال علي لعثمان : قال الله في كتابه : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص : ٢٦] هذا هو القوي الأمين .

وخطب عمر الناس مرة فقال : والذي بعث محمداً ﷺ بالحق لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه .

وخطب مرة فقال : أيها الناس إني لم أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أَرْسَلْتُهُم إليكم ليعلموكم أمر دينكم وسنّة نبيكم ، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفسي بيده لأقصنّه منه .

وقال سلام بن مسكين : كان عمر إذا احتاج شيئاً أتى عبد الله بن مسعود ، وكان هو صاحب بيت المال ، فاستقرضه فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال ليتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر فيعطيه أو يسأله الإمهال حتى يخرج عطاؤه ، فإذا خرج عطاؤه قضاه .

قال سالم بن عبد الله بن عمر : كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً فعله منكم إلا أضعفت عليه العقوبة .

وقال محمد بن سيرين : قدم على عُمَرَ صِهْرٌ له من مكة فطلب أن يعطيه من بيت المال ، فانتهره وقال : أردت أن ألقى الله ملكاً خائناً ، ثم أعطاه من صلب ماله عشرة آلاف درهم .

وكان يقول : أحب الناس إليَّ من رفع إليَّ عيوبي .

وكان مرة يقسم مالاً للمسلمين فدخلت ابنة له وأخذت درهماً ، فنهض عمر في طلبها حتى سقطت الملحفة من أحد منكبيه ، ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكي ، وجعلت الدرهم في فيها ، فأدخل عمر أصبعه في فِيها فأخرجه وطرحه على الخراج ،

وقال : أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم .

وكسح أي كنس أبو موسى الأشعري بيت المال مرة بأمر عمر فوجد درهماً ، فمرَّ ابنٌ لعمر فأعطاه إياه ، فرأى عمر ذلك في يد الغلام ، فسأله عنه ، فقال : أعطانيه أبو موسى ، فقال : يا أبا موسى ما كان من أهل المدينة أهل بيت أهون عليك من آل عمر ، أردت ألّا يبقى أحد من أمة محمد ﷺ إلا طلبنا بمظلمة ، ورد الدرهم إلى بيت المال ، مع أن المال كان حلالاً ، ولكنه خاف ألَّا يستحق هو ذلك القدر ، فكان يستبرىء لدينه ويقتصر على الأقل امتثالاً لقوله ﷺ : « دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يريبكَ » ، ولقوله ﷺ : « من تركها ، أي الشبهات ، فقد استبرأ لعرضه ودينه » .

وعن طارق بن شهاب قال : قدم عمر بن الخطاب الشام فلقيه الجنود وعليه إزار ورداء وخفّان وعمامة ، وهو آخذ برأس راحلته يخوض الماء قد خلع خفيه وجعلهما تحت إبطه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين الآن يلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذه الحال ، فقال عمر : إنا قوم أعزّنا الله بالإسلام ، فلا نلتمس العز في غيره .

وروي أنه قال يوماً وهو على المنبر : يا معشر المسلمين ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسي إلى الدنيا كذا ؛ ومَيَّلَ رأسَهُ ، فقام إليه رجل فاستَلَّ سيفَه وقال : نقول بالسيف كذا ، وأشار إلى قطعه ، فقال عمر : رحمك الله الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تَعَوَّجْتُ قَوَّمَني .

وجاءته مرة برود من اليمن ففرقها على الناس برداً برداً ، ثم صعد المنبر يخطب عليه بردان إزار ورداء ، فقال : اسمعوا رحمكم الله ، فقام إليه رجل من القوم فقال : لا نسمع والله لا نسمع ، فقال عمر : لِمَ يا عبد الله ؟ قال : لأنك أعطيتنا برداً برداً وخرجت تخطب في بردين ، فقال عمر : أين عبد الله بن عمر ؟ فقال عبد الله : هنا يا أمير المؤمنين ، فقال : لمن أحد هذين البردين اللذين عَليَّ ؟ قال : لي . فقال للرجل : عَجِلْتَ عَليَّ عبدَ اللهِ إني كنت غسلت ثوبي الخلق فاستعرت ثوب عبد الله . فقال الرجل : قل ، الآن نسمع ونطع .

ولما رجع من الشام ووصل إلى المدينة وانفرد عن الناس يوماً ليعرف أخبارهم ،

فمرَّ بعجوز في خبائها فقصدها ، فقالت : يا هذا ، ما فَعَلَ عمر لما رجع من الشام ؟ قال : هو ذا قد أقبل من الشام ووصل إلى المدينة . قال : لا جزاه الله عني خيراً ، قال : ويحك لِمَ ؟ قالت : لأنه والله ما نالني من عطائه منذ ولي الخلافة إلى يومنا هذا دينار ولا درهم . قال : ويحك وما يُدري عمرَ حالك وأنتِ في هذا الموطن ؟ فقالت : سبحان الله ، ما ظننت أن أحداً يَلي على الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها . فصار يبكي ويقول : واعمراه واخصوماه كلُّ أحدٍ أَفْقَهُ منكَ يا عمر ، ثم لم يزل بها حتى اشترى ظُلامتها بخمسة وعشرين ديناراً ، فبينما هو كذلك إذْ أقبل علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فوضعت المرأة يدها على رأسها وقالت : واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين في وجهه . فقال لها عمر : لا بأس عليك يرحمك الله ، ثم طلب عمر قطعة فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي إلى يومنا هذا بخمسة وعشرين ديناراً ، فما تَدَّعي عند وقوفه في المحشر بين يدي الله عَزَّ وجل فعمر منه بريء شهد على ذلك علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ، ورفع الكتاب إلى علي رضي الله عنه وقال له : إذا تَقَدَّمْتُكَ ، أي متُّ قبلك ، فاجعلها في كفني .

وعن الأوزاعي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ليلة في سواد الليل فرآه طلحة فتبعه فذهب عمر فدخل بيتاً ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيك ؟ فقالت : إنه يتعهدني منذ كذا وكذا بما يصلحني ويخرج عني الأذى . فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة أعثراتِ عمر تَتبَّع !؟

وعن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، عن مولى لعثمانَ بن عفان رضي الله عنه قال : بينما أنا مع عثمان في مال له بالعالية في يوم صائف إذ رأى رجلاً يسوق بكرين وعلى الأرض مثل الفراش من الحر ، فقال عثمان رضي الله عنه : ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى برد ثم يَروح ، ثم دنا الرجل فقال : انظر . فنظرت فإذا عمر بن الخطاب ، فقلت له : هذا أمير المؤمنين ، فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب فإذا لَفْحُ السموم ، فأعاد رأسه حتى حاذاه ، قال : ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : بكران من إبل الصدقة تخلّفا وقد مضى الراعي بإبل

الصدقة أردت أن ألحقهما بالحمار وخشيت أن يضيعا فيسألني الله عنهما . فقال عثمان هَلُمَّ يا أمير المؤمنين إلى الماء والظل ونكفيك . قال : عد إلى ظلك ، وسار ، فقلت : عندنا من يكفيك ، فقال : عد إلى ظلك ، ومضى . فقال عثمان : من أَحَبَّ أن ينظر إلى القوي الأمين فلينظر إلى هذا . أخرجه الشافعي رحمه الله تعالى في مسنده .

ولما جهز الجيوش لفتح العراق ، جعل الأمير عليهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، ولما فتحت القادسية كتب سعد بن أبي وقاص بالفتح وبعدة من أصيب من المسلمين وأرسل ذلك مع سعد بن عميلة الفزاري ، وكان عمر يخرج خارج المدينة كل يوم يسأل الركبان من حين يصبح إلى انتصاف النهار يسأل عن أهل القادسية ثم يرجع إلى أهله ومنزله ، فلقي هذا البشير المرسل في يوم من تلك الأيام التي كان يخرج فيها ، فقال له : من أين ؟ فأخبره ، والرجلُ المرسلُ راكب على ناقته يسير بسرعة وعمرُ يَخِبُّ على رجليه معه وهو يسأله والبشيرُ لا يعرفه ، فقال له عمر : أخبرني يا عبد الله . قال : هزم الله المشركين فأخبره الخبر ، فلم يزل عمر سائراً تحت ناقة هذا البشير يسأله حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلّمون عليه بأمرة المؤمنين ، فقال البشير : هلاَّ خَبَّرْتَني رحمك الله أنك أمير المؤمنين . قال : لا بأس عليك يا أخي .

وعن الأحنف بن قيس قال : أَخْرَجَنا عُمرُ في سرية إلى العراق ففتح الله علينا العراق وبلاد فارس ، فأصبنا فيها من بياض فارس وخراسان وحملناه معنا واكتسينا منها ، فلما قدمنا على عمر أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا ، فاشتد ذلك علينا فشكونا إلى ابنه عبد الله بن عمر ، فقال : إنَّ عمر زاهد في الدنيا وقد رأى عليكم لباساً لم يلبسه رسول الله ﷺ ولا الخليفة من بعده ، فأتينا منازلنا فنزعنا ما كان علينا وأتيناه في برد يعهدها مِنّا ، فقام فسلم علينا رجلاً رجلاً ، واعتنقنا رجلاً رجلاً حتى كأنه لم يرنا قَبْلُ ، فقدَّمنا إليه الغنائم ، فقسمها بيننا بالسوية ، فعرض في الغنائم شيء من أنواع الخبيص من أصفر وأحمر فذاقه عمر فوجده طيب الطعم والريح فأقبل علينا بوجهه ، وقال : يا معشر المهاجرين والأنصار ليقتلن منكم الابْنُ أباه والأخ أخاه على هذا الطعام ، ثم أمر به فحمل إلى أولاد من قتل من المسلمين بين يدي رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ، ثم إن عمر قام وانصرف ولم يأخذ لنفسه شيئاً من تلك الغنائم .

وعن الأحنف أيضاً قال : لما فتح العراق وحملت إلى عمر خزائن كسرى قال له صاحب بيت المال : ألا ندخله بيت المال ؟ قال : لا والله لا تأوي تحت سقف حتى أقسمه ، فبسط الأنطاع في المسجد وكشفوا عن الأموال فرأى شيئاً عظيماً من الذهب والجوهر ، فقال : إن الذي أدّى هذا الأمينُ ، فقالوا : أنت أمين الله وهم يؤدّون إليك ما أدّيت إلى الله تعالى ، فقسمه ولم يأخذ منه شيئاً .

وفي صحيح البخاري قال النبي ﷺ : « إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوةٌ » وقال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران : ١٤] . وقال عمر : اللهمَّ إنّا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهمَّ إني أسألك أن أنفقه في حقه .

وفي رواية للدارقطني : لما فتح العراق وجاء إلى عمر خزائن كسرى وأمواله بكى وقرأ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ الآية ، ثم قال : اللهمَّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيَّنْتَهُ لنا فقني شره وارزقني أن أنفقه في حقه ، وقسم تلك الأموال ، فما قام حتى ما بقي منها شيء ، وكان رضي الله عنه لما جاءت تلك الأموال يبكي ويقول : إن الله زوى الدنيا عن النبي ﷺ وصاحبَيْهِ وفتحها لي فاخاف أن أكون مستدرجاً .

وفي رواية رواها الشافعي : لما قدم على عمر ما أُصِيبَ من مال العراق قال له صاحب بيت المال : أدخله في بيت المال ؟ فقال : لا وَرَبِّ الكعبة لا يأوي تحت سقف بيت حتى أقسمه ، فأمر به فوضع في المسجد ووضعت عليه الأنطاع وحرسه رجال من المهاجرين والأنصار ، فلما أصبح غدا ومعه العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف ، فلما كشفوا الأنطاع عن الأموال رأى منظراً لم ير مثله من الذهب والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلألأ ، فبكى عمر ، فقال أحدهما : إنه والله ما هو بيوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور ، فقال : والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما أكثر هذا في قوم قط إلا وقع بأسهم بينهم ، ثم أقبل على القبلة ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهمَّ إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني أسمعك تقول : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم : ٤٤] ثم قسم ذلك المال ولم يأخذ لنفسه منه شيئاً .

وكان من جملة ما غنمه المسلمون بالعراق بساط كسرى ويقال له بهار كسرى ، والقطيف وهو بساط واحد طوله ستون ذراعاً وعرضه ستون ذراعاً كانت الأكاسرة ملوك

فارس تعده للشتاء إذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم في رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة ، وخلاف ذلك فصوص كالدر ، وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهرة الذهب والفضة وثمرة الجواهر وأشباه ذلك ، وكانت العرب تسميه القطيف ، فلما قسم سعد بن أبي وقاص الغنائم بين يدي الغانمين أراد أن يخرج خُمْس القطيف لبيت المال ، ويقسم أربعة أخماسه على الغانمين ، فلم تعتدل قسمته فقال للمسلمين : هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه فنبعث به إلى أمير المؤمنين يضعه حيث شاء فإنا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل ، وهو يقع من أهل المدينة موقعاً ؟ فقالوا : نعم ، فبعثه إلى عمر ، فلما قدموا بالقطيف مع خُمْس الغنائم قال عمر بعد أن قسم الأموال : أشيروا عليَّ في هذا القطيف . فمن مشير بقبضه وإبقائه في بيت المال وآخر مفوض إليه ، فقال له علي بن أبي طالب : لم يجعل الله علمك جهلاً ويقينك شكاً أنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت ، إنك إن تُبقِهِ عن هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له . فقال : صدقتني ونصحتني ، فقطعه وقسمه بينهم .

قال في السيرة الحلبية : فأصاب علي بن أبي طالب قطعة منه فباعها بعشرين ألف دينار ، ولم يأخذ عمر من ذلك لنفسه شيئاً ، ولما فرض للمهاجرين الأولين العطاء فرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف وكان من المهاجرين الأولين ، فقيل له : إنك فرضت للمهاجرين الأولين أربعة آلاف فلِمَ نقصته عن أربعة آلاف ؟ فقال : إنما هاجر به أبوه ، فليس هو كمن هاجر بنفسه .

وقسم مرة مالاً فأعطى الحسن والحسين ألفاً ألفاً وأعطى ابنه عبد الله خمسمئة فقيل له : يا أمير المؤمنين إن ابنك عبد الله كان يضرب بالسيف بين يدي رسول الله ﷺ والحسن والحسين طفلان يدرجان في سكك المدينة تعطيهما ألفاً ألفاً وتعطيه خمسمئة ، فقال : اذهب فائتني بأب كأبيهما وأم كأمهما وجَدٍّ كجدهما وجدة كجدتهما وعَمٍّ كعمهما وخالٍ كخالهما وخالة كخالتهما ، فإنك لا تأتي به ، أما أبوهما فعلي وأمهما ففاطمة الزهراء ، وأما جدُّهما فمحمد ﷺ ، وأما جدتهما فخديجة الكبرى ، وأما عمهما فجعفر بن أبي طالب ، وأما خالهما فإبراهيم بن رسول الله ﷺ ، وأما خالتهما فرقية وأم كلثوم بنتا رسول الله ﷺ .

وكانت صلته لأقارب رسول الله ﷺ أكثر من غيرهم ، قال الزهري : كان عمر إذا أتاه مالٌ من العراق أو غيره لم يدع رجلاً عَزباً من بني هاشم إلا زَوَّجه ، ولا رجلاً منهم ليس له خادم إلا أخدمه .

وعن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال : قَدِمَتْ على عمرَ حللٌ من اليمن فقسمها بين المهاجرين والأنصار ، ولم يكن فيها على قدر الحسن والحسين ، فكتب إلى صاحب اليمن أن يعمل حلتين على قدرهما ، ففعل وبعث بهما إلى عمر ، فألبسهما إياهما فلبساهما ، فلما دَوّنَ الدواوين وفرض العطاء بدأ ببني هاشم .

وعن عبد الله بن عمر قال : اشتريت إبلاً وارتجعتها إلى الحِمىٰ ، فلما سمنت قدمت بها ، قال فدخل عمر السوق فرأى إبلاً سماناً ، فقال : لمن هذه ؟ فقيل لعبد الله بن عمر ، فجعل يقول بخ بخ يا عبد الله بن أمير المؤمنين ، قال : فجئته أسعى فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما هذه الإبل ؟ فقلت : إبل أنضاء ، يعني مهازيل ، اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون . فقال : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين أشبعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، يا عبد الله اُغْدُ على رأس مالك وَأتني بباقيه أجعله في بيت مال المسلمين ، ففعل ذلك ، وفي رواية : أنه أخذ شطر الربح وجعله في بيت المال ، فكأنه غرمه شطر الربح وجعله بالاجتهاد قيمة للكلأ الذي للمسلمين ، وذكر بعضهم أن تلك الإبل كانت لعبد الله وأخيه عبيد الله شركة .

وأخذ مرة ابناه عبد الله وعبيد الله مالاً من أبي موسى حين ولايته بالعراق ليوصلاه إلى عمر بالمدينة ، فاستأذنا أبا موسى أن يتّجرا في المال على سبيل القراض ، ويشتريا به شيئاً يبيعانه ، فأذن لهما ، فأخذ عمر ربح مال القراض وأدخله بيت المال ، وقال لهما : إنما أعطيتما لمكانكما مني ؛ أي إنما كان إعطاؤهما المال والإذن لهما في التجارة فيه لأجل أنهما ابنا أمير المؤمنين .

وعن قتادة قال : بعث عمر رسولاً إلى ملك الروم ، فاستقرضت أم كلثوم بنت علي ، وكان امرأةَ عمر ، ديناراً فاشترت به عطراً وجعلته في قارورة وبعثت به مع الرسول إلى امرأة ملك الروم ، فلما أتاها بعثت لها شيئاً من الجواهر وقالت للرسول :

اذهب به إلى امرأة عمر ، فلما أتاها أفرغته على البساط ، فدخل عمر فقال : ما هذا ؟ فأخبرته ، فأخذ الجواهر وخرج بها إلى المسجد ونادى الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس أخبرهم الخبر وأراهم الجواهر وقال : ما ترون في ذلك ؟ فقالوا : إنا نراها تستحق ذلك لأنه هدية جاءتها من امرأة لا جزية ولا خراج عليها ولا يتعلق بها حكم من أحكام الرجال ، فقال : لكنَّ الزوجةَ زوجةُ أمير المؤمنين والرسول رسول أمير المؤمنين والراحلة التي ركبها للمؤمنين ، وما جاء ذلك كله لولا المؤمنون ، فأرى أن ذلك لبيت مال المسلمين ونعطيها رأس مالها ، فباع الجواهر ودفع لزوجته ديناراً ، وجعل ما بقي في بيت المسلمين .

ويروىٰ أن امرأة أبي عبيدة أرسلت إلى امرأة ملك الروم هدية مثل تلك الهدية ، فكافأتها بجوهر ، فبلغ ذلك عمر فأخذه فباعه وأعطاها ثمن هديتها وردَّ باقيه إلى بيت مال المسلمين .

وأتي عمر مرة بمسك فأمر أن يقسم بين المسلمين ، ثم سَدَّ أنفه ، فقيل له في ذلك ، فقال : وهل ينتفع منه إلا بريحه ؟

ودخل يوماً على زوجته فوجد معها ريح مسك ، فقال : ما هذا ؟ قالت : إني بعت من مسك في بيت المسلمين ووزنت بيدي ، فلما وزنت مسحت أصبعي في متاعي هذا ، فقال : ناوليني متاعك ، فأخذه فصبَّ عليه الماء فلم يذهب فجعل يدلكه في التراب ويصب عليه الماء حتى ذهب ريحه .

وعن سفيان بن عيينة أن سعد بن أبي وقاص بعد أن فتح العراق وهو على الكوفة كتب إلى عمر يستأذنه في بناء منزل يسكنه ، فكتب إليه : إن ما يسترك من الشمس ويكنّك من الغيث .

وعن أبي عثمان المهدي قال : كتب عمر إلينا بأذربيجان مع عتبة بن فرقد يقول : يا عتبة إنه ليس من كدّك ولا من كدّ أبيك ، فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك ، وإياك والتنعم وزِيّ أهل الشرك ولبوس الحرير ، فإن رسول الله نهى عن لبوس الحرير .

وأخرج ابن السماك عن أبي جعفر محمد الباقر قال : بينما عمر يمشي في طريق من

طرق المدينة إذ لقيه علي والحسن والحسين ، فسلّم عليه وأخذه بيده واكتنفهما الحسن والحسين عن يمينهما وشمالهما ، فعرض لعمر رضي الله عنه من البكاء ما كان يعرض له ، فقال له علي : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : مَنْ أحقُّ مني بالبكاء يا علي وقد وليتُ أمر هذه الأمة أحكم فيها ، ولا أدري أمسيء أنا أم محسن ؟ فقال له علي : والله إنك لتعدل في كذا وتعدل في كذا ، فما منعه ذلك من البكاء ، ثم تكلم الحسن بما شاء الله فذكر من ولايته وعدله ، فلم يمنعه ذلك ، فتكلم الحسين مثل كلام الحسن فانقطع البكاء ، ثم قال : أَتَشْهَدَانِ لي بذلك يعني العدل ؟ فقال علي : اْشْهَدَا وأنا معكما شهيد .

وعن الشعبي أن علي بن أبي طالب قال لأهل نجران : إن عمر كان سيد الأمة ولن أغير شيئاً صنعه .

وعنه أيضاً : إن علياً لما دخل الكوفة قال : ما كنت أحلّ عقدة شدّها عمر .

وعن الحسن بن علي قال : لا أعلم أنَّ علياً خالف عمر ولا غَيّر شيئاً مما صنعه .

وعن يزيد بن علي بن الحسين أن علياً كان يشبه بعمر في السيرة .

وعن أبي إسحاق عمن حدثه أنه كان جليساً لعلي فبكى بكاء شديداً ، فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرت أخي عمر وهذا البردُ عَلَيَّ كَسَانِيه خليلي وصفيي وصديقي وصاحبي عمر بن الخطاب .

وقال مرة : إن عمر ناصح نبيه ﷺ فنصحه الله ، ثم بكى .

وكان عليّ يقول : إذا ذُكِر الصالحون فحيّهلا بعمر .

وكان علي يقول : لا يبلغني أن أحداً أفضلني على عمر إلا جلدته حد المفتري .

وخطب مرة عليّ رضي الله عنه خطبة طويلة ، وقال فيها : وأن الله تعالى صيَّر الأمر إلى عمر في المسلمين ، فمنهم من رضي ومنهم من سخط ، فكنت ممن رضي ، فوالله ما فارق الدنيا حتى رضي به من سخط ، فأعز الله بإسلامه الإسلام وجعله للدين قواماً ، وضرب الله الحق على لسانه حتى ظننا أن ملكاً ينطق على لسانه ، وقذف الله في قلوب المؤمنين الحبَّ له وفي قلوب المنافقين الرهبة منه ، سيرته سيرة رسول الله ﷺ ، فمن لكم مثله ؟ .

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما توفي عمر وسُجّي رضي الله عنه وقف عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال : ما على الأرض رجل أحبَّ إلي أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى ، زاد في رواية لابن السماك ثم بكىٰ علي حتى اخْضَلَّت لحيته بالدموع .

وفي رواية أخرى أن علياً قال : رحمك الله يا ابن الخطاب إنْ كنتَ لآياتِ الله لعالماً ، وإن كان الله في صدرك لعظيماً ، وإن كنت لتخشى الله ولا تخشى الناس في الله ، جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ، خميصاً من الدنيا بطيناً من الآخرة .

وعن أوس بن حكيم قال : رأيت علي بن أبي طالب حين موت عمر نكس رأسه ثم رفعها فقال : واعمراه يا نقي الثوب قليل العيب ، واعمراه ذهب بالسنة وأبقى الفتنة ، أصاب والله ابن الخطاب خيرها وانتحى شرها .

ورُوي أنَّ مَلكَ الموت لما دخل دارَ عمر ليقبض روحه سمع عمر وهو يقول : هذا بيت أمير المؤمنين ليس فيه شيء كأنه القبر ؟ فأجابه عمر وقال : يا ملك الموت من تكون أنت خلفه هكذا يكون بيته ؟ .

وأخرج أبو يَعلىٰ عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل آنفاً فقلت يا جبريل حدثني بفضائل عمر بن الخطاب .

فقال : لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح في قومه ما نفدت فضائل عمر ، وإنَّ عمر حسنة من حسنات أبي بكر » .

ربما أن العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر ، لكن من كان ذا بصيرة وأمكن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل في نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للإسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الإسلام في ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التي فتحها الله على يده حتى كثر العلم واتسع الإسلام وكثر المسلمون ، يتضح له أن كل خير وقع لأهل الإسلام منذ خلافة عمر إلى يوم القيامة كله من فضائل عمر ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم ، وذلك كثير لا يمكن ضبطه ولا إحصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح في قومه .

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند عن أنس بن مالك أن رسول

الله ﷺ قال : « إني لأرجو لأمتي في حبهم لأبي بكر وعمر ما أرجو لهم في قوله لا إله إلا الله » .

وأخرج أبو ذر الهروي أن رسول الله ﷺ قال : « عمر معي وأنا مع عمر والحق بعدي مع عمر حيث كان » وهذا مثلما قاله ﷺ في حق علي حيث قال : « وأَدِرِ الحقَّ معه حيث دار » .

فكلٌّ من عمر وعلي كان مع الحق ، ولهذا كان علي مع الخلفاء الثلاثة قبله في زمن خلافتهم ولم ينازع أحداً منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق ، فكان هو معهم ، فلما جاءت نوبة خلافته ونوزع في ذلك قاتل من نازعه ، فلا يصح أن ينسب إليه أن سكوته في زمن خلافة الخلفاء الثلاثة كان تقية حماه الله من المحاباة في دين الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال المسعودي في تاريخه المسمى « مروج الذهب » في صفة عمر بن الخطاب : وكان متواضعاً خشن الملبس شديداً في الله ، واتبعه عماله في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، كلٌّ منهم يتشبه به ممن غاب أو حضر ، وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها ، وكان أكثر ركابه الإبل ، ورحلُه مشدودة بالليف ، وكذلك عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال .

وكان من عماله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي ، فلما قدم عمر الشام شكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله ، فقال عمر : اللهمَّ لا تُضِعْ فراستي فيه ، ماذا تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا ، فقال عمر : عليَّ به ، فلما جمع بينهم وبينه قال : ماذا تنقمون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . فقال : ما تقول يا سعيد ؟ قال : يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم . قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : لا يجيب بليل ، قال : ما تقول يا سعيد ؟ قال : قد كنت أكره أن أذكر هذا ، إني قد جعلت الليل كله لربي ، وجعلت النهار لهم . قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : له يوم في الشهر

لا يخرج إلينا . قال : نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ، ثم أجففه فأمسي . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يُضَيّعْ فراستي فيك ، ثم قال عمر : يا أهل حمص ما تقولون ؟ فقالوا : ما نريد غيره فأبقه لنا يا أمير المؤمنين ، فقال : استوصوا به خيراً ، ثم بعث إليه عمر بألف دينار وقال : استعن بها ، فقال : فقالت امرأته : قد أغنانا الله عن خدمتك ، فقال لها : ألا ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما كنا إليها يعني يوم القيامة ؟ قالت : بلى فَصَرَّها صُرَراً ثم دفعها إلى من يثق به ، وقال : انطلق بهذه إلى فلان وبهذه إلى فلان يتيم آل فلان مسكين آلا فلان ، حتى بقي منها شيء يسير فدفعه إلى امرأته فقال : أنفقي هذه ، وعاد إلى خدمته ، فقالت له امرأته : ألا تبعث بذلك المال فتشتري لنا منه خادماً ؟ فقال : سيأتيك أحوج ما تكونين إليه يعني يوم القيامة .

وذكر بعضهم هذه القصة وزاد فيها فقال : وأرسل عمر إلى سعيد بن عامر ألف دينار ، فجاء إلى أهله حزيناً كئيباً ، فقالت امرأته : أَحَدَثَ أَمْرٌ ؟ قال : أشد من ذلك ، قال : أريني درعك الخَلَق ، فشقه وجعله صرراً وفرّقه ، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدخل فقراء أمتي قبل الأغنياء بخمسمئة عام ، حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج » .

وروى بعضهم هذه القصة فقال : لما بعث عمر سعيد بن عامر والياً على حمص اشتدت فاقته حتى تحدث الناس بفقره فبلغ ذلك عمر ، فأرسل إليه بأربعمئة دينار وكتب إليه يعزم عليه لينفقها على نفسه وأهله ، فلما قرأ الكتاب اهتم هماً شديداً حتى تبيّن عليه ، فقالت امرأته : نفسي فداك مالي أراك مهتماً أبلغك موت أمير المؤمنين ؟ قال : أعظم من ذلك ، قالت : أبلغكَ من ثغور المؤمنين شيء ؟ فقال : أعظم من ذلك ، قالت : وما هو ؟ قال : ابتليت بالدنيا وقد كنت صحبت رسول الله ﷺ فلم أُبْتَلَ بها ، وصحبت أبا بكر فلم أُبْتَلَ بها ، وابتليت بها في صحبة عمر ، ألا فشرُّ أيامي أيام عمر ، قالت : وما ذاك بأبي أنت وأمي ؟ قال : إني أخافك . قالت : إياي تعني ؟ قال : نعم ، قالت : فأنت آمن من هذا ، فقال : فإن أمير المؤمنين أرسل إليّ بأربعمئة دينار وعزم عليّ أن أنفقها علي وعليك ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ فقراء

المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً » والله ما أحب أن لي بها حمر النعم وأني أحبس عن الفوج الأول . قالت : فدونكها فاصنع بها ما شئت . فقال : هل من خرق ؟ فأعطته درعاً لها خلقاً فمزقه خرقاً ، ثم صَرَّ فيه ما بين أربعة إلى عشرة ، ثم طرحها في مخلاة ، ثم خرج إلى باب الرستاق من حمص فجعل يعطي الناس صُرَّة صرة حتى بقيت صرة في المخلاة فدفعها والمخلاة إلى رجل ، فذهب عنه ما قام به واستراح .

وذكر أبو نعيم في « الحلية » هذه القصة فقال ما نصه : قال خالد بن معدان : استعمل علينا عمر بن الخطاب سعد بن عامر بن حذيم الجمحي ، فلما قدم عمر بن الخطاب حمص قال : يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم ؟ فشكوا إليه ، وكان يقال لأهل حمص الكوفة الصغرى ، لشكايتهم العمال ، قالوا : نشكو أربعاً : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار ، قال : أَعْظِمْ بها ، قال : وماذا ؟ قالوا : لا يجيب أحداً بليل ، قال : وعظيمة ، قال : وماذا ؟ قالوا : له يومٌ من الشهر لا يخرج فيه إلينا ، قال : وعظيمة ، قال : وماذا ؟ قالوا : يغط الغطة بين الأنام حتى تأخذه موتة يعنون أنه يغشى عليه ، قال : فجمع عمر بينهم وبينه ، وقال : اللهمَّ لا يفلّ فيه رأيي اليوم ما تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار ، قال سعيد : والله إني كنت لأكره ذكره ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني فأجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم ، فقال : ما تشكون منه أيضاً ؟ قالوا : لا يجيب أحدنا بالليل ، فقال : إنْ كنت لأكره ذكره ، إني جعلت النهار لهم وجعلت الليلَ لله عز وجل . قال : وما تشكون منه أيضاً ؟ قالوا : إن له يوماً من الشهر لا يخرج إلينا فيه . فقال : ليس لي خادم يغسل ثيابي ولا لي ثياب أبدلها ، فأغسلُ ثيابي وأجلس حتى تجف فألبسها ، ثم أخرج إليهم آخر النهار . قال : وما تشكون منه أيضاً ؟ قالوا : يغط الغطة بين الأنام . فقال : شهدت مصرع خبيب الأنصاري حين قبضت عليه قريش بمكة وقد بضعت أي قطعت قريشٌ لحمه ، ثم صلبوه على جزع ، ثم قالوا : ألا تحبُّ أن محمداً مكانك ؟ فقال : « والله ما أحب أني في أهلي وأن محمداً يشاك بشوكة » ثم نادى : « يا محمد » ، فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نُصْرَته وهو في تلك الحالة وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننت أن الله لن يغفر لي بذلك الذنب أبداً ، قال : فتصيبني تلك

الغطة . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يفلّ رأيي فيك ، فبعث إليه بألف دينار وقال : استعن بها على فقرك . فقالت امرأته : الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك ، فقال لها : فهل من خير من ذلك ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها ؟ قالت : نعم ، فدعا رجلاً من أهله يثق به فصرّها صَرّاً شديداً ، ثم قال : انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان وإلى يتيم آل فلان وإلى مسكين آل فلان وإلى مبتلى آل فلان ، فبقيت منه ذهبة فقال : أنفقي هذه ، ثم عاد إلى عمله ، فقالت : ألا تشتري لنا خادماً ؟ قال : سيأتيك أحوج ما تكونين إليه .

والظاهر أن القصة واحدة والاختلاف من تصرّف الرواة الذين رووا القصة بالمعنى .

ورُوي أيضاً أن عمر بن الخطاب كتب إلى أهل حمص : اكتبوا إليَّ فقراءكم ، فكتبوا له أسماء الفقراء وكتبوا له عمير بن سعيد ولعله ابنه كان أميراً بعده ، قال عمر لما قرأ اسمه قال : مَنْ عمير بن سعيد ؟ قالوا : أميرنا ، قال : أَوَفقير هو ؟ قالوا : ليس أهل بيت أفقر منه ، قال : أين عطاؤه ؟ قالوا : يخرجه كله لا يمسك منه شيئاً ، قال : فوجَّه إليه بمئة دينار فأخرجها كلها ، فقالت امرأته : لو كنت حبست لنا منها ديناراً واحداً ، فقال : لو ذكرتني فعلت .

ذكر هذه الحكاية أبو طالب المكي في « القوت » ، ونسبها لعمير بن سعيد ، وكتب لسعيد بن عامر عمرُ يطلب قدومه إلى المدينة ، فلم ير معه إلا عكازاً وقدحاً ، فقال له عمر : ليس معك إلا ما أرى ؟ فقال سعيد بن عامر : وما أكثر من هذه ؟! عكاز أحمل عليه زادي وقدح آكل فيه وأشرب به . وعبارة الإحياء في هذه القصة نسبها لابنه عمير ، فقال : ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر قال له : ما معك من الدنيا ؟ فقال : معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي وقصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ، ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة ، وما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي . فقال عمر : صدقت رحمك الله . فهكذا كان الأمراء في خلافة عمر بن الخطاب .

وأنفق بعضُ عمال عمر عنده عشرةَ دراهم لاتخاذ بيت خلاء لقضاء حاجته وأخذها من بيت المال ، فعزله من إمارته وقال : أما وجدت موضعاً تقضي فيه الحاجة حتى

أخذت عشرة دراهم من بيت المال اتخذت بها بيت خلال لقضاء حاجتك ؟

وكان رضي الله عنه إذا استعمل عاملاً كَتَّبَ أهله ليعلم بعد ذلك ما يكون عنده من المال ، وكان يأمر عماراً بعد مضي مدة من إماراتهم يكتبون أموالهم فيأخذ شطر أموالهم ويدخله في بيت المال احتياطاً لهم وبراءة لذمتهم ، وكانوا يرضون بذلك ويرون المنة له عليهم ، وقال بعض العلماء : إن عمر رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافياً على حق عملهم ، وقدّره بالشطر اجتهاداً .

ومن عماله على المدائن سلمان الفارسي ، دخل عليه رجل وهو يعجن ، فقال : ما هذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع له عملين ، وكان يلبس الصوف ويركب الحمار بغير إكاف ويأكل خبز الشعير وكان ناسكاً زاهداً ، فلما احتُضِر جعل يبكي ويقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون » وأرى هذه الأساودة حولي ، فنظروا فلم يجدوا في البيت إلا إداوة ومطهرة وركوة .

ومن عماله رضي الله عنه أبو عبيدة بن الجراح وكان أميراً على الشام وعلى جميع الأجناد وأمرائها ، كان يلبس الصوف الحماني ويأكل الخشن من الطعام ، فعيّر على ذلك وقيل له : إنك بالشام وحولنا الأعداء فَغَيّر من زِيّك وأصلح من شارتك ، فقال : ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله ﷺ .

ودخل عليه عمر في منزله بالشام فلم يجد فيه غير سرج فرسه ورحل بعيره وسيفه ورمحه وركوة ومطهرة ، فقال له عمر : أين متاعك يا أبا عبيدة لا أرى إلا لبداً أو شناً أو صفحة وأنت أمير الشام ، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة فأخرج منها كسرات ، فبكىٰ عمر ، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين يكفي من الدنيا ما بلغ المقيل ، فاحتقر عمر نفسه في الزهد بالنسبة لأبي عبيدة . فقال غَرّتنا بعدك الدنيا يا أبا عبيدة .

ويُرْوىٰ أن عمر صَرَّ أربعمئة دينار ، وقال للغلام : اذهب بها إلى أبي عبيدة ثم تلكّأ في البيت ساعة ، فقال أبو عبيدة : يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ووجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن

جبل ففعل مثل أبي عبيدة إلى أن بقي ديناران ، فقالت امرأة مُعاذ : ونحنُ والله مساكين فأعطِنا ، فرمىٰ بهما إليها ، فرجع الغلام فأخبر عمر بذلك فقال : هما إخوة بعضهم من بعض .

ووقف أعرابي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال :

يـا عُمَـرَ الخيـرِ جُـزِيـتَ الجَنَّـهْ   يـوم تكـونَ الأعطيـات مِنَّـه
والـواقـف المسـؤول بينهنَّـه   إمَّـا إلـى نـار وإمَّـا جَنَّـه

فبكى عمر حتى اخضَلَّتْ لحيته وقال لغلامه : يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم ، أما والله لا أملك غيره .

وكان رضي الله عنه يقول في الخلافة : من يأخذها بما فيها ؟

وكان يقول رضي الله عنه : ليتني لم أُخْلق ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني لم أك شيئاً ، ليتني كنت نسياً منسياً ، وأخذ مرة تبنة من الأرض فقال : ليتني كنت هذه ، وكان يدخل يده في دبرة البعير ويقول : إني أخاف أن أسأل عنك ، وكان رضي الله عنه يدني يده من النار ثم يقول : يا ابن الخطاب هل لك على هذا من صبر ؟ وكان رضي الله عنه كثير البكاء حتى كان بوجهه خطان أسودان من البكاء ، وكان رضي الله عنه يقول : ليتني كنت كبشاً أهلي سَمّنوني ما بدا لهم ثم ذبحوني فأكلوني فأخرجوني عَذرة ولم أكن بشراً ، وكان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه فكان يُعادُ أياماً ، وكان يقول : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون ، وقرأ مرة : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١] وانتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ فخرَّ مغشياً عليه ، ومَرَّ يوماً بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ [الطور : ١] فوقف عمر يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : ٧ ـ ٨] نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زماناً ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه ، ولما طعن وأيقن بالموت كان يقول : ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي ، والله إني وَدِدْتُ أن أخرج من الدنيا كفافاً لا أجر لي ولا وزر عليّ ، وقال أيضاً : لو أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت من هول المطلع .

وخرج عمر يوماً من المسجد ومعه الجارود العبدي ، وبينما هما يمشيان إذا بامرأة على ظهر الطريق فسلّم عليها عمر فردّت عليه السلام ، ثم قالت : رُوَيْدَكَ يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة ، قال لها : قولي ، قالت : يا عمر عهدي بك وأنت تسمى أميراً في سوق عكاظ وتصارع الصبيان فلم تذهب الأيام حتى تسميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى تسميت أمير المؤمنين فاتقِ الله في الرعية واعلم أن من خاف الموت خشي الفوت ، فبكى عمر ، فقال الجارود : قد اجترأتِ على أمير المؤمنين وأبكيته ، فقال عمر : دعها ، أما تعرف هذه يا جارود ؟ هذه خولة بنت حكيم التي أنزل الله فيها : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة : ١] فإذا سمع الله قولها فعمر أحرىٰ أن يسمع كلامها .

قال ابن سعد : اتخذ عمر داراً للدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه لإعانة المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة بالطريق ما يصلح به شأن من انقطع ، وهدم المسجد النبوي وزاد فيه ووسعه وفرشه بالحصى ، وكذا وسع مسجد مكة وأخرج اليهود من الحجاز إلى الشام وأخرج أهل نجران إلى الكوفة .

وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب : خرجت مع عمر بن الخطاب مرة إلى موضع بظاهر المدينة فرأى ناراً فقال : يا أسلم انظر إلى تلك النار هل هو ركب أضرم بهم الليل والبرد ؟ فقلت : لا أعلم يا أمير المؤمنين ، فقال : انطلق بنا إليهم ، قال : فخرجنا نهرول فإذا امرأة معها صغار ، ولها قدر منصوب على تلك النار وصبيانها يبكون فقال عمر : السلام عليكم يا أهل هذا الضوء ، وكره أن يقول يا أهل هذه النار ، فقالت المرأة : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أَدْنُ بخير أَوْ فَدَعْ ، فقال لها : ما بال هذه الصبية يتضاغون ؟ فقالت : من الجوع ، قال : فما هذا القدر ؟ قالت : ماء جعلته في القدر أسكتهم به حتى يناموا واللهُ بيننا وبين عمر بن الخطاب ، قال : يرحمك الله وما يدري عمر بكم؟ قالت : يتولى أمرنا ثم يتغافل عنا ، قال أسلم : فأقبل عليَّ عمرُ ، فقال : انطلق بنا فخرجنا حتى أتينا إلى دار الدقيق فأخذ حُقّاً من دقيق وكبة من شحم فقال : احمله عليَّ ، فقلت : أنا أحمله عنك ، فقال : أنت تحمل وزري لا أمَّ لك . فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها وهو يهرول حتى أتينا إليها ، فألقى ذلك العدل عندها ، ثم أخرج قطعة من دهن وألقاها في القدر ، وجعل يقول للمرأة : ذري

من الدقيق وأنا أُحَرّك لك ، فكان يحرك تارة وينفخ في النار تارة أخرى ، قال أسلم : فوالله لقد رأيت أمير المؤمنين وهو ينفخ في النار والدخان يخرج من خلال شعر ذقنه حتى طبخ القدر ، ثم أنزله بيده وقال للمرأة : أعطني شيئاً ، فأتته بقصعة أو قال بصحفة فأفرغ الطعام وقال لهم : وأنا أسطح لكم ، ثم توارى عن المرأة وجعل يربض كما يربض الأسد وأنا أقول : يا أمير المؤمنين ما خلقت لهذا ، فلم يلتفت إليَّ حتى رأيت الصغار يضحكون ، ثم قام عمر وهو يضحك ويحمد الله تعالى ، ثم جعل يده على يدي وقصدنا المدينة وقال لي : يا أسلم إنَّ الجوع عدوٌّ وقد رأيتهم وهم يبكون فأحببت أن أفارقهم وهم يضحكون .

وعن الأعمش قال : أُتِيَ عُمَرُ بن الخطاب مرة باثنين وعشرين ألف درهم فلم يقم حتى فرقها بين المسلمين ولم يأخذ منها شيئاً ، وكان إذا أعجبه شيء من ماله تصدّق به ، وكان كثيراً ما يتصدق بالسكر ، فقيل له في ذلك فقال : إني أحبه وقد قال الله تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] وكان يأتي المجزرة ومعه الدرة ، فكل من رآه يشتري لحماً يومين متتابعين يضربه بالدرة ويقول له : هلاّ طويت بطنك لجارك وابن عمك ، وأبطأ يوماً عن الخروج لصلاة الجمعة ثم خرج واعتذر للناس وقال : إنما حبسني عنكم ثوبي هذا كان يغسل وليس عندي غيره وكان إزاره مرقوعاً بقطعة من جراب ، وعدوا مرة في قميصه أربع عشرة رقعة إحداها من أدم أحمر ، وكان أبيض اللون تعلوه حمرة ، وإنما صار في لونه سمرة عام الرمادة حين أكثر من أكل الزيت توسعة على الناس أيام الغلاء فترك لهم اللحم والسمن واللبن ، وكان قد حلف لا يأكل غير الزيت في تلك الأيام حتى يوسع الله على المسلمين ، ومكث ذلك الغلاء تسعة أشهر وصارت الأرض سوداء مثل الرماد ، وكان يخرج في تلك الأيام يطوف على البيوت ويقول : من كان محتاجاً فليأتنا ، وكان يقول : اللهمَّ لا تجعل هلاك أمة محمد ﷺ على يدي .

ومن كلامه : من خاف الله لا يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون ، ومن كلامه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزِنُوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم من الحساب غداً ، والذي بعث محمداً بالحق لو أن جملاً هلك ضياعاً بشطّ الفرات لخشيت الله يسألني عنه .

ولما طُعِن دعا بلبن فشربه فخرج من طعنته فقال : الله أكبر ، فجعل جلساؤه يثنون عليه ، فقال : وددت أن أخرج منها كفافاً كما دخلت فيها لو أن لي اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع ، وجاء رجل شاب في ذلك اليوم فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ، قد كان لك صحبة رسول الله ﷺ وقِدَم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفافاً لا عليَّ ولا لي ، فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمسُّ الأرض ، فقال : ردّوا عليّ الغلام ، فقال : يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك .

ودخل عليه يوم طُعن عليُّ بن أبي طالب يعوده فقعد عند رأسه ، وجاء ابن عباس فأثنى عليه وقال : كنت وكنت ووعده بخير من ربه ، فقال له عمر : أنت لي بهذا يا ابن عباس ؟ فأومأ إليه عليٌّ أَنْ قل : نعم ، فقال عمر : لا تغرني أنت وأصحابك ، وفي رواية أخرى : يا ابن عباس المغرورُ من غررتموه ، لو أن طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطلع ، والله وددت أن أخرج منها كفافاً لا عليّ ولا لي وأن صحبة رسول الله ﷺ سلمت .

وفي رواية عن ابن عباس : لما طعن عمر دخلت عليه فقلت : أبشرْ يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى مَصَّرَ بك الأمصار ودفع بك النفاق وأفشى بك من الرزق ، فقال عمر : أفي الإمارات تثني عليّ يا ابن عباس ؟ فقلت : وغيرها ، فقال : والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما دخلت لا أجر ولا وزر .

وقال حماد بن زيد : قال ابن عباس : لما طُعِن عمر كنت قريباً منه فمسست بعض جلده وقلت : هنيئاً لك جلد لا تمسه النار ، فنظر إليّ نظرة جعلت أرثي له منها ، ثم قال : وما علمك بذلك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين صَحِبْتَ رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته ففارقك وهو عنك راض ، ثم صحبت المسلمين وأحسنت صحبتهم فإن فارقتهم فهم راضون ، فقال : أمّا ما ذكرت من صحبتي لرسول الله ﷺ فإنما كان ذلك مَنّاً من الله عز وجل مَنَّ به عليَّ ، فلو أن لي ما في الأرض من شيء لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه .

وقال صالح بن كيسان : قال ابن عباس رضي الله عنهما : دخلت على عمر رضي

الله عنه في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب النبي ﷺ ، فقال له رجل : ليس عليك بأس ، قال : لئن لم يكن عليّ اليوم ليكونن بعد اليوم ، وإن للحياة لنصيباً من القلب ، وإن للموت لكربة ، وقد كنت أحب أن أنجي نفسي وأنجو منكم ، وما كنت من أمركم إلا كالفريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولَقَدْ تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها وثمرتُكم يانعة في أكمامها ما أكلتها ، وما جنيت وما حنيت إلا لكم وما تركت درهماً ما عدا ثلاثين أو أربعين درهماً ، ثم بكى وبكى الناس معه ، فقلت : يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله ﷺ وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وأن المسلمين راضون عنك ، فقال : المغرورُ والله من غررتموه ، أما والله لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع .

قال عبد الله : ولما حضرت عمر الوفاة غشي عليه فأخذت رأسه فوضعتها في حجري فقال : ضع رأسي بالأرض لعلّ الله يرحمني ، فمسح خَدَّيه بالتراب وقال : ويل لعمر ويل لأمه إن لم يغفر الله له ، فقلت : وهل فخذاي والأرض إلا سواء يا أبتاه ؟ فقال : ضع رأسي بالأرض لا أمّ لك كما آمرك ، فوضعته في الأرض ، فوضع عمر خدّه على الأرض وقال : ويل لعمر ولأم عمر إن لم يغفر الله له ويعفو عنه ، ثم قال : فإذا قَضَيْتُ فأسرعوا بي إلى حفرتي وإنما هو خير تقدموني إليه أو شر تضعوا به عن رقابكم ، ثم بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : خبر السماء لا أدري إلى جنة ينطلق بي أو إلى نار .

قال عروة بن الزبير : ولما طعن عمر قالوا له : استخلفت ؟ قال : إن تركتكم فقد تركتكم إلى مَنْ هو خير مني ، وإن استخلفت فقد استخلفت عليكم من هو خير مني ، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيّاً لاستخلفته ، فإن سألتني ربي قلت : سمعت نبيك ﷺ يقول : « إنه أمين هذه الأمة » ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته فإن سألني ربي قلت له : سمعت نبيك ﷺ يقول : « إن سالماً ليحب الله حباً لو لم يخفه لم يعصه » فقالوا له : لو أنك عهدت إلى ابنك عبد الله بن عمر فإنه لذلك أهلٌ في دينه وفضله وقديم إسلامه ، فقال : بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ﷺ ولَوَدِدْتُ أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا عليَّ ولا لي . ثم كلّموه مرة

أخرى ، فقالوا : لو عهدت ، فقال : كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أُوَلّي رجلاً إنْ أمركم يحملكم على الحق وأشار إلى علي بن أبي طالب ، ثم رأيت ألّا أتحملها حياً وميتاً ، ثم دعا أصحاب الشورى الذين سيأتي ذكرهم فلم يكلم أحداً منهم غير علي وعثمان ، فقال : يا علي لعلَّ هؤلاء القوم أن يعرفوا لك قرابتك من النبي ﷺ وصهرك وما أتاك الله من الفقه والعلم فإن وُلّيت هذا الأمر فاتق الله فيه ، ثم دعا عثمان ، فقال : يا عثمان لعلَّ هؤلاء القوم أن يعرفوا لك صهرك من رسول الله ﷺ وسنّك وشرفك فإن ولّيت فاتق الله فيه ولا تحملن بني معيط على رقاب الناس ، ثم جعل عمر الأمر شورى بين الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض كما روىٰ ذلك ابن عمر وغيره وهم : عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، على أن يكون الخليفة واحداً منهم أن يتفقوا عليه ، فإن اختلفوا فمن يتفق عليه أكثرهم ، فإن تساووا يحكمون عبد الله بن عمر بينهم ، فإن لم يرضوا بحكمه يقدم قول الحزب الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، وأمر أن يحضر معهم ابنه عبد الله بن عمر كالتعزية له وليس هو منهم في أمر الخلافة ، فلما خرجوا من عنده قال : لو ولوها علياً سلك بهم الطريق ، فقال له ابنه عبد الله : فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تستخلفه ؟ قال : أكره أن أتحملها حياً وميتاً .

وروي أن عمر عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يستخلفه ويجعله ولي عهده ، فقال عبد الرحمن : أتشير عليَّ بذلك إذا استشرتك ؟ فقال : لا والله ، فقال عبد الرحمن : إذَنْ لا أرضى أن أكون خليفة بعدك .

وبعد أن ذكر عمر الستة أصحاب الشورى قال : ما أظن يلي إلا أحد هذين الرجلين وأشار إلى عليّ وعثمان ، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولي علي ففقيهٌ وعابدٌ وأحْرىٰ أن يحملهم على طريق الحق ، وإن ولوا سعداً فهو أهل وإلا فليستعن به الوالي فإني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف فاسمعوا منه وأطيعوا .

وفي رواية قال عمر : ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، فسمى الستة وقال : يشهد عبد الله بن عمر معهم وليس له من الأمر شيء ، فإن أصاب الأمر سعد فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر

فإني لم أعزله ، يعني عن إمارة الكوفة ، عن عجز ولا خيانة ، ثم قال : أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله تعالى وأوصيه بالمهاجرين والأنصار وأوصيه بأهل الأمصار .

ثم لما توفي عمر وفرغوا من دفنه عند النبي ﷺ وأبي بكر في حجرة عائشة تفرغ أصحاب الشورى للاجتماع ، فلما اجتمعوا قال عبد الرحمن بن عوف : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم ، فقال الزبير : جعلت أمري إلى علي ، وقال سعد : جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف ، وقال طلحة : جعلت أمري إلى عثمان ، وقيل إن طلحة كان غائباً وما حضر إلا بعد تمام الأمر ، ثم خلا هؤلاء الثلاثة وهم عبد الرحمن بن عوف وعلي وعثمان فقال عبد الرحمن : أنا لا أريدها فأيكما يبرأ من هذا الأمر ويفوض الأمر إليه فيولين أفضل الرجلين الباقيين وليحرص على صلاح الأمة ، فسكت الشيخان علي وعثمان ، فقال عبد الرحمن بن عوف : اجعلا الأمر إليّ والله عليّ والإسلام أن أجتهد فأولي أولاكما ، فقالا : نعم ، ثم خاطب كلاًّ منهما بما فيه من الفضل وأخذ عليه العهد والميثاق لئن ولاه عليه وليسمعنّ وليطيعنّ ، فقال كل واحد منهما : نعم ، ثم خلا بعلي فقال له : رأيت إن لم أولك فمن تشير عليّ به ؟ قال : عثمان ، وخلا بعثمان فقال له : إن لم أولك فمن تشير عليّ به ؟ قال : علي بن أبي طالب ، ثم تفرقوا ومكث عبد الرحمن ثلاث ليال يستشير الناس فيمن يوليه ، ويجتمع برؤوس الناس وأمراء الأجناد وأشراف الناس وغيرهم جمعاً وأشتاتاً مثنى وفرادى سراً وجهراً حتى ذهب إلى النساء المخدرات في حجالهن حتى سأل الولدان في المكاتب وسأل من يرد من الركبان والأعراب الواردين إلى المدينة في ثلاث أيام بلياليهن ، قال : فلم أجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان على عليّ رضي الله عنهما ، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد فإنهما أشارا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال بعض العلماء : وكان السبب في ذلك أن الأكثرين اختاروا عثمان أنّ عثمان كان فيه لِين وعدم شدة ، وكان عليّ يشبه عمر بن الخطاب في الشدة ، ومضت خلافة عمر وهي عشر سنين ونصف سنة وهم منقادون له يسيرون بسيرته ، وفتحت لهم الأمصار وكثرت عندهم الأموال فأحبوا أن يكون لهم بعض التخفيف من تشديد عمر ، وعلموا أنه لو كان الأمر لعلي رضي الله عنه لم يحصل التخفيف الذي يريدونه بل يسلك بهم سبيل عمر ويسير بسيرته سواء أو أشد من ذلك ، هذا هو السبب في تقديمهم عثمان

على علي وليس عندهم طعن في علي ولا كراهة لشيء من أخلاقه ولا يشكون في حصول العدل منه ، هذا هو اللائق الذي ينبغي حمل أفعال الصحابة عليه رضي الله عنهم أجمعين .

وربما أن الذي يقف على ما يذكره المؤرخون في شرح هذه القصة يفهم منه أنّ كلاً من علي وعثمان وبقية أصحاب الشورى كان لكل واحد منهم رغبة في أن تكون الخلافة له ، فهذا إنْ صَحَّ فليحمل على أن كلَّ واحد منهم يريد أن يكون منه القيام بالعدل وإقامة الدين والقيام بمصالح المسلمين لما في ذلك من الأجر والثواب عند الله تعالى ، ولا يتوهم من له قوة إيمان أن يكون مرادهم الرئاسة واستيفاء حظوظ النفس حماهم الله من ذلك ، بل لا يريد كل واحد منهم إلا القيام بإظهار الحق كما شهد لهم الله سبحانه وتعالى بذلك في آيات كثيرة وأخبر أنهم : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾ [المائدة : ١١٩] وكذلك الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في حقهم تشهد لهم بذلك ، فاحذر أن تتوهم ظن سوء بأحد من أصحاب النبي ﷺ ، فإن المظلمة المتعلقة بأحد منهم مما لا يغفر كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة .

والحاصل أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اجتهد في ذلك ثلاثة أيام بلياليهن كل الاجتهاد بحيث إنه لم يغتمض بكثير نوم ولم يزل في صلاة ودعاء واجتهاد واستخارة وسؤال من ذوي الرأي وغيرهم حتى حاول ربات الحجال في خدورهن ، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان ، زاد في رواية أنه قال في آخر ليلة للمسور بن مخرمة وكان ابناً لأخت عبد الرحمن بن عوف : أَدْعُ الزبير وسعد بن أبي وقاص ، فدخلا عليه فشاورهما ثم انصرفا ، ثم قال : أَدْعُ لي علياً ، قال : فدعوته فناجاه إلى ثلث الليل ، ثم قام من عنده ، وكان من جملة ما قال له : رأيت لو صرف هذا الأمر عنك من كنت ترى أحق به ، قال : عثمان ، قال المسور بن مخرمة : فلما خرج من عنده قال : ادع لي عثمان . فدعوته فناجاه طويلاً حتى فرق بينهما مؤذن الصبح وقال له مثلما قال لعلي : لو صرف هذا الأمر عنك من كنت ترى أحق به ؟ قال : علي بن أبي طالب ، وقال للزبير كذلك فأشار بعثمان ، وقال لسعد كذلك فأشار بعثمان ، وكذلك شاور المهاجرين والأنصار وكلهم أشار بعثمان ، وجاء في رواية عن المسور بن مخرمة أنه قال : فلما كانت الليلة التي يسفر صاحبها عن اليوم الرابع من موت أمير المؤمنين عمر

جاء عبد الرحمن إلى منزلي وأنا نائم ، فقال : أنت يا مسور والله لَمْ أغتمص بكثير نوم منذ ثلاثة أيام اذهبْ فادع علياً وعثمان ، قال المسور : يا خالي بأيهما أبدأ ؟ فقال : بأيهما شئت ، قال : فذهبت إلى علي فقلت أجب خالي ، قال : أمرك أن تدعو معي أحداً ؟ فقلت : نعم ، قال : من ؟ قلت : عثمان بن عفان ، قال : بأيهما بدأ ؟ قلت : لم يأمرني بذلك ، بل قال : ادع أيهما شئت أولاً . فجئت إليك فخرج ، فلما مررنا بدار عثمان جلس علي حتى دخلت على عثمان فوجدته يوتر مع الفجر فدعوته فقال لي ما قال علي سواء ، ثم خرج فدخلت بهما على خالي وهو قائم يصلي ، فلما انصرف أقبل على علي وعثمان فقال : إني سألت الناس عليكما فلم أجد أحداً يعدل بكما ، ثم أخذ العهد على كل واحد منهما لئن ولاه ليعدلنَّ ولئن ولي عليه ليسمعن وليطيعنَّ فقالا : نعم ، ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه بها رسول الله ﷺ وتقلد سيفاً وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ليحضروا في المسجد ، ونودي في الناس عامة : الصلاة جامعة ، وامتلأ المسجد حتى غص بالناس ، وازدحم الناس وتراصوا حتى إنه لم يحصل لعثمان بن عفان موضع يجلس فيه إلا في أخريات الناس وكان رجلاً شديد الحياء ، ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ فقام على الدرجة التي كان يجلس عليها رسول الله ﷺ فوقف وقوفاً طويلاً ودعا دعاء طويلاً لم يسمعه الناس ، ثم تكلم فقال : أيها الناس إني قد سألتكم سراً وجهراً مثنى وفرادى وجمعاً وأشتاتاً فلم أجد أحداً منكم يعدل بأحد هذين الرجلين ، إما علي وإما عثمان ، فقم إليّ يا علي ، فقام إليه فوقف تحت المنبر وأخذ عبد الرحمن بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر ؟ فقال علي : على قدر جهدي وطاقتي ، قال : فأرسل يده ، قال : قم يا عثمان فأخذه بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر ؟ فقال : اللهمّ نعم ، قال : فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد وقال : اللهمَّ أسمع وأشهد اللهم أسمع وأشهد اللهم أسمع وأشهد ، اللهم قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان وبايعه ، وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر ، قال : وقعد عبد الرحمن بن عوف مقعد النبي ﷺ وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية وجاء الناس يبايعونه ، وبايعه علي بن أبي طالب أولاً ويقال آخِراً ، وما ذكرناه

هو الثابت في ولاية عثمان كما حققه العلماء المحققون من أهل السُّنة منهم السيد الشريف طاهر بن هاشم باعلوي في كتابه المسمى (مجمع الأحباب) ، ثم قال : ولا تغتر بما سوى هذا مما ينقله الروافض فإنه لا أصل له ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واعترض بعض المبتدعة على عمر بن الخطاب في عدم إدخاله العباس عم رسول الله ﷺ في الشورى ، وأجاب أهل السنة عن ذلك بأن العباس كان صديقاً لعمر وإنما لم يدخله في أهل الشورى لأن الأمر عندهم كان مبنياً على تقديم السابقة في الإسلام ، والعباسُ كان ممن تأخر إسلامه ، وكان صديقاً لعمر ، هذا عذرُ عمر في عدم إدخاله العباس في أهل الشورى ، ولم ينكر عليه ذلك العباس ولا أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولعلمهم بأن الأمر عندهم مبني على الأسبقية في الإسلام .

قال الإمام محمد بن الحسن : وإنما لم يدخل معهم سعيد بن زيد مع أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة لأنه كان ابن عم لعمر بن الخطاب فخشي أنه إذا أدخله معهم يكون ذلك منه مُحاباةً له لكونه من أقاربه ، فما أحب أن يتقلدها ابنه ولا أحد من أقاربه ، فهكذا كان احتياط عمر وورعه .

ثم إن الناس مكثوا ست سنين من خلافة عثمان وهم على غاية من الاتفاق والرضا كما كانوا في خلافة عمر ، بل قال بعضهم : أحبوا عثمان أكثر من محبتهم لعمر للينه ورفقه ، ثم في الست السنين الثانية وقع الاختلاف وأوقعه جماعة لم تكن لهم سابقية في الإسلام ، وكان الأصل في ذلك عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ظاهراً وليس له غرض في الإسلام إلا قصد إيقاع الفرقة بين أهل الإسلام ، وأدخل على الناس شبهة من حيث تولية عثمان كثيراً من أقاربه على كثير من الأمصار ، مع أن عثمان كان يفعل ذلك باجتهاد منه يراه هو الصواب ويرى أن أقاربه أقرب إلى إعانته على العدل ، فلا لوم عليه في ذلك على أن النبي ﷺ أخبر بذلك كله ، فكان في ذلك معجزة للنبي ﷺ حيث أخبر قبل وقوعه فوقع كما أخبر ، وكل ذلك كان بقضاء الله وقدره ليكتب له الشهادة ويحقق قول النبي ﷺ في عثمان : « أنه يقتل مظلوماً » وقد قال النبي ﷺ في عبد الرحمن بن عوف : « أمين في السماء وأمين في الأرض » فكفى بهذا حجة على صحة ما فعله واجتهد فيه .

قال القائلون بأن طلحة كان غائباً وقد جعله عمر من أهل الشورى ، قدم طلحة في اليوم الذي يوقع فيه عثمان ، فقيل له : إن الناس قد بايعوا عثمان ، فقال : أكلّ قريش رضوا به ؟ قالوا : نعم . فأتىٰ عثمان ، فقال عثمان : أنت على رأس أمرك ، قال طلحة : فإن أبيت تردها ؟ قال : نعم ، قال : أكل الناس بايعوك ؟ قال : نعم ، فقال طلحة : قد رضيت لا أرغب عما اجتمعت الناس عليه ، وبايعه .

ثم إن عمر بعد أن جعل أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى حسب ما عليه من الدين فوجده ستة وثمانين ألفاً ولزمته هذه الديون من إنفاق كان ينفقه من ماله على الفقراء والمحتاجين لم يأكل منها خبيصاً ولا لبس منها قميصاً ، بل كانت جبته مرقعة بالجلود وباب منزله من الجريد ، لكنه أنفق هذا المال في سبيل الخير لا غير ، فلما فرغت حياته وحانت وفاته قال لابنه عبد الله وابنته حفصة : إني أصبت من مال الله شيئاً وإني أحب أن ألقى الله عز وجل وليس في عنقي منه شيء ، فَبِيعا فيه ما عندي من المال حتى تقضياه ، فإن عجز عنه مالي فَسَلاَ في بني عَدِيّ ، فإن بلغ وإلا فَسَلاَ في قريش ولا تعدُوَا قريشاً . فباع عبد الله من معاوية دار عمر التي يقال لها دار القضاء بالمدينة ، وباع مالاً كان له بالغابة ، فقضى دينه ، فلذلك قيل لتلك الدار دار القضاء ، وقد كان عمر كثير الإنفاق على الفقراء والمحتاجين ، وإذا لم يكن في بيت المال شيء يستقرض للإنفاق عليهم ولا سيما في عام الرمادة فإنه كان منه العجب العجاب في الاعتناء بالفقراء وأهل الحاجة .

وعن يزيد بن أسلم ، عن أبيه أسلم ، قال : لما كان عام الرمادة جاءت العرب من كل ناحية لشدة الجدب والقحط فقدموا المدينة ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم الطعام ، فكان كل رجل على ناحية من المدينة ، وكانوا إذا اجتمعوا عند أمير المؤمنين يخبرونه بكل ما كانوا فيه ، فسمعت أمير المؤمنين قال في ليلة وقد تعشى الناس عنده : أحصوا من يتعشى عندنا ، فأحصوا فوجدوهم نحو سبعة آلاف رجل ، فقال : أحصوا العيلات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان ، فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفاً ، ثم مكث ليالي فزاد الناس حتى صار من يتعشى عنده نحو عشرة آلاف رجل والآخرون خمسون ألفاً ، وكانت تلك المجاعة التي أصابت الناس عام الرمادة مجاعة شديدة لم يعهد مثلها لشدة القحط والجدب ، وكانت

الريح تسفي تراباً كالرماد فسمي عام الرمادة ، وكان ذلك كله في سنة ثمان عشرة من الهجرة ومكث تسعة أشهر ، واشتد الجوع حتى جعلت الوحوش تأوي إلى المواضع المأنوسة تطلب ما تأكله ، وجعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها ، وأقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس ، فقدمت السوق عكة سمن ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين درهماً وجاء بهما إلى عمر ، وكان ذلك عند ابتداء انجلاء القحط والشدة ، وقال يا أمير المؤمنين : قد حيي الناس وأَبَرَّ الله بيمينك وعظم أجرك ، قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهماً . فقال عمر : تصدق بهما فإني أكره أن آكل إسرافاً وكيف يعينني شأن الرعية إذا لم يصبني ما أصابهم ؟ .

وفي مدة ذلك القحط كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم ، فكان أَوّلَ من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف راحلة من طعام جاء بها من الشام فولاه قسمتها فيمن حول المدينة ، فقسمها وانصرف إلى عمله وتتابع الناس ، واستغنى أهل الحجاز ، وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام إلى المدينة حتى صار الطعام بالمدينة كسعر مصر ، ولم ير أهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس عنهم البحر مع مقتل عثمان فذلوا وتقاصروا ، وكان الناس في مدة الرمادة وعمر كالمحصورين عن أهل الأمصار ، فقال أهل بيت من مزينة لصاحبهم وهو بلال بن الحارث : قد هلكنا فاذبح لنا شاة ، قال : ليس فيهن ما يصلح للذبح ، فلم يزالوا به حتى ذبح فسلخ عن عظم أحمر فنادى : يا محمداه ، فرأى في المنام أن رسول الله ﷺ أتاه ، فقال : أبشر بالحياة ائت عمر فَأَقْرِهِ مني السلام وقل له إني عهدتك وأنت في العهد شديد العقد فالكيس الكيس يا عمر . فجاء حتى أتى باب عمر ، فقال لغلامه : استأذن لرسول الله ﷺ . فأتى عمر فأخبره ففزع وقال : رأيت به مساءة ؟ فقال : لا . فأدخله وأخبره الخبر ، فخرج فنادى في الناس وصعد المنبر فقال : نشدتكم بالله الذي هداكم هل رأيتم شيئاً تكرهونه ؟ قالوا : اللهمَّ لا ، ولِمَ ذلك ؟ فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن عمر ، فقالوا : إنما استبطأك في الاستسقاء فاستسق لنا . فنادى في الناس وخرج للاستسقاء وخرج معه العباس ماشياً فخطب وأوجز وصلى ثم جثى على ركبتيه وقال : اللهمَّ عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا حولنا وقوتنا وعجزت عنا

أنفسنا ولا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم فاسقنا وأحْيِ العباد والبلاد ، وأخذ بيد العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ورضي الله عنه وأن دموع العباس لَتَتَحادر على لحيته فقال : اللهمَّ إنا نتقرَّب إليك بعم نبيك ﷺ وبقية آبائه وأكبر رجاله فإنك تقول وقولك الحق : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف : ٨٢] فحفظتهما بصلاح أبيهما فاحفظ اللهمَّ نبيك ﷺ في عمه ، فقد دلونا به إليك مستشفعين مستغفرين ، ثم أقبل على الناس فقال : استغفروا ربّكم إنه كان غفاراً .

وقد كان العباس قد طال عمره وابيضّت لحيته فوقف وعيناه تذرفان ولحيته تجول على صدره وهو يقول : اللهمَّ إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك ﷺ ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب نواصيها إليك بالتوبة ، اللهمَّ أنت الراعي فلا تمهل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة فقد صرخ الصغير ورقّ الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهمَّ فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القومِ الكافرون . فنشأت طريرة من سحاب فقال الناس : تروون تروون ، ثم التأمت ومسّت فيها ريح ثم هدأت ودرت ، فوالله ما تروحوا حتى اعتنقوا الجدر وقلصوا المآزر ، فطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون له : هنيئاً لك ساقي الحرمين ، فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

بعمـي سقـى الله الحجـازَ وأهلـه ... عَشِيَّـةَ يستسقـي بشيبتـه عُمَـرْ
تَـوَجَّـهَ بـالعبـاس فـي الجـدب راغبـاً ... إليـه فمـا إنْ رامَ حتـى أتـى المَطَـرْ
ومِنَّـا رسـولُ اللهِ فينـا تُـراثُـهُ ... فَهَـلْ فـوق هـذا للمفـاخِـرِ مفخـر

قال زيد بن أسلم عن أبيه : كنا نقول : لو لم يرفع الله عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هَمّاً بالمسلمين .

قال ابن شهاب : إن عمر بن الخطاب كان يدعو عام الرمادة ويقول : اللهمَّ اجعل أرزاقهم على رؤوس الجبال ، فاستجاب الله له وللمسلمين ، فكانت تأتيهم أرزاقهم ، وقال حين نزل الغيث : الحمد لله فوالله لو أن الله لم يفرجها ما تركت بأهل بيت

المسلمين سعة إلا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء ، فلم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم واحداً .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كتب عمر بن الخطاب إلى عماله اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا فإن الله عز وجل وكل بهم ملائكة وضعوا أيديهم على أفواههم لا يتكلمون إلا بما هيأه الله تعالى لهم ، وألقى الله في قلوب العباد هيبة شديدة لعمر ، وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : بينما عمر يمشي وخلفه عدة من أصحاب رسول الله ﷺ إذ بدا له فالتفت فلم يبق أحد إلا سقط لركبتيه خافضاً ، فأرسل عمر عينيه بالبكاء ، ثم قال : اللهمَّ إنك تعلم أني أشد خوفاً منهم مني .

وقال عمر : لولا مخافة الحساب لأمرت بحمل أي كبش يشوى لنا في التنور .

وعن سفيان قال : كان عمر يشتهي الشيء لعله يكون ثمنه بدرهم فيؤخره سنة .

وعن أنس قال : سمعت عمر بن الخطاب يوماً وبيني وبينه حائط يقول مكلّماً نفسه : أميرَ المؤمنين بخٍ بخٍ ، والله يا ابن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنّك .

وزار عمر أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء : أتذكر حديثاً حدثناه رسول الله ﷺ ؟ قال : أي حديث ؟ قال : « ليكنْ بلاغُ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » قال : نعم . قال : فما فعلنا بعده يا عمر ؟ فما زالا يتجاوبان حتى أصبحا .

وعن نافع قال : كان من دعاء عمر : اللهمَّ أوجب لي في موالاتك وموالاة أولئك ولايتك ومعونتك ، وأبرئني بمعاداة عدوك من الآفات ، اللهمَّ لا تكثر لي من الدنيا فأطغى ، ولا تقلل لي منها فأنسى فإنّ ما قل وكفى خير مما كثر فألهى ، اللهمّ إني أعوذ بك أن تأخذني على غِرّة أو تذرني في غفلة أو تجعلني من الغافلين .

وعن قيس بن الحجاج قال : لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكْرٍ بين أبويها فأرضينا أبويها وحملنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في النيل . فقال لهم عمرو بن العاص : هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله ، فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى همّوا

بالجلاء منها ، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت لأن الإسلام يهدم ما قبله ، وكتب بطاقةً في داخل كتابه وكتب إلى عمرو بن العاص : إني قد بعثت إليك بطاقة في داخل كتابي هذا فألقها في النيل ، فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو وإذا فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد : فإنْ كنت تجري من قِبَلِكَ فلا تجرِ ، وإن كان الله تعالى الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله تعالى الواحد القهار أن يجريك » ، فألقى البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج لأنهم لا تقوم مصلحتهم إلا بالنيل ، فلما ألقى البطاقة أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، فقطع الله تلك السُّنَّة السيئة عن أهل مصر ، فتلك كرامة من كرامات عمر التي أكرمه الله بها .

ومن كراماته ما رواه البيهقي وأبو نعيم وغيرهما عن نافع بن عبد الله بن عمر قال : وَجَّه عمرُ جيشاً ورأس عليهم رجلاً يدعى سارية بن زنيم ، فبينما عمر يخطب يوم جمعة إذ جعل ينادي : يا سارية الجبل ثلاثاً من استرعى الذئب ظلم ، فالتفت الناسُ بعضهم لبعض ، فقال علي بن أبي طالب : ليخرجنَّ مِمَّا قال خيرٌ ، فلما فرغ سألوه ، فقال : وقع في قلبي أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرون بجبل إن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد ، وإن جاوزوه هلكوا ، فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه ، فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم ، قال : فعدنا إلى الجبل ففتح الله علينا .

وفي رواية لأبي نعيم عن عمرو بن الحارث رضي الله عنه قال : بينما عمر رضي الله عنه يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة وقال : يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثاً ، ثم أقبل على خطبته ، فقال بعض الحاضرين : لقد جُنّ ، فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان يطمئن إليه فقال له : إنك لتجعل لهم على نفسك مقالاً ، بينما أنت تخطب إذ أنت تصيح : يا سارية الجبل ، أيّ شيء هذا ؟ قال : إني والله ما ملكت نفسي إذ رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت : يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل ، فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتاب أن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا منادياً ينادي :

يا سارية الجبل مرتين ، فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله تعالى وقتلهم .

وفي رواية : ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال : يا أمير المؤمنين هُزمنا ، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً ينادي يا سارية الجبل ثلاثاً ، أسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى ، وكان ذلك الجبل بنهاوند من أرض العجم .

وأخرج الإمام مالك في « الموطأ » عن نافع عن ابن عمر قال : قال عمر بن الخطاب لرجل : ما اسمك ؟ قال : جمرة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : فمِمّنْ ؟ قال : من الحرقة ، قال : أين مسكنك ؟ قال : الحرة ، قال : بأيها ؟ قال : بذات لظى ، فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فرجع الرجل فوجد أهله قد احترقوا .

وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : إن كان الرجل ليحدث عمر الحديث فيكذبه الكذبة فيقول : احبس هذه ، ثم يحدثه بالحديث فيقول له كل ما حدثتك به حق إلا ما أمرتني أن أحبسه .

وأخرج ابن عساكر أيضاً عن الحسن البصري : إن كان أحد يعرف الكذب إذا حدث به أنه كذب فهو عمر بن الخطاب .

وأخرج البيهقي في « الدلائل » عن أبي هدبة الحمصي قال : أخبر عمر أن أهل العراق قد حصروا أميرهم ، فخرج غضبان فصلى فَسَها في صلاته ، فلما سلّم قال : اللهمَّ قد لَبَّسوا علي فَلَبِّسْ عليهم وعَجّل لهم بالغلام الثقفي لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم يعني الحجاج ، قال ابن لهيعة : وما ولد الحجاج يومئذ .

وقال علي بن أبي طالب : إن الله ضرب الحق على لسان عمر حتى ظننا أن ملكاً ينطق على لسانه .

وقال عبد الله بن مسعود : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمامته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي عند البيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا .

وقال حذيفة رضي الله عنه : لما أسلم عمر رضي الله عنه كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قرباً ، فلما قتل كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعداً ،

وصَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ اللهَ جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه وهو الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل » .

وقال عبد الله بن مسعود : لما توفي عمر ذهب تسعة أعشار العلم ، ولو أن علمه وضع في كفة ميزان ووضع علم أحياء الأرض في كفة ترجح على علمهم ، فقيل له : أتقول ذلك وفينا جملة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام وإنما أريد العلم بالله عز وجل .

قال الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين : كانت شهرة عمر بالسياسة ، وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته وبقصد التقرب إلى الله عز وجل في ولايته وعدله وشفقته على خلقه وذلك كله أمر باطن في سره .

وعن علي بن أبي طالب قال : ما علمت أحداً هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هَمَّ بالهجرة تقلّد سيفه وتنكّب قوسه وانتفض في يده أسهماً وأتى الكعبة وأشرافُ قريش بفنائها ، فطاف سبعاً ، ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حِلَقَهم واحدةً واحدة ، فقال : شاهت الوجوهُ ، من أراد أن تثكله أمه ويؤتّم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي . فما تبعه منهم أحد .

وقال سعد بن أبي وقاص : قد علمت بأي شيء فضلنا عمر رضي الله عنه ، كان أزهدنا في الدنيا .

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا أنا نائم رأيت الناس يُعْرَضُون عليَّ وعليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدي ومنهم دون ذلك ، وعرض عليَّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره قالوا : ما أوَّلْته يا رسول الله ؟ قال : الدين » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إني لأرى الريَّ يخرج من أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أوَّلْتَه يا رسول الله ؟ قال : العلم » .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب : « والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » .

وقال النبي ﷺ لما أراد عمر أن يعتمر : « لا تنسنا يا أخي من دعائك » ، قال عمر رضي الله عنه : إنها كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا .

وروى مالك في « الموطأ » أن عمر كان يحمل في العام الواحد على أربعين ألف جمل يحمل الرجل إلى الشام على بعير والرجلان إلى العراق على بعير ، وكان عمر أول من جمع الناس لصلاة التراويح ، فكان علي بن أبي طالب إذا مرَّ على المساجد ورأى القناديل في رمضان يدعو لعمر ويقول : نوَّر الله على عمر قبره كما نور علينا مساجدنا .

وعن ابن عباس قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال : أقْرَ على عمر السلام ، وأخبره أن رضاه وغضبه حكم .

وقال علي بن أبي طالب : قال رسول الله ﷺ : « اتَّقوا غَضَبَ عمرَ فإنَّ اللهَ يغضبُ لغضَبِه » .

ولما توفي عبد الله بن أُبيّ رأسُ المنافقين سأله ابنه الحباب وسماه النبي ﷺ عبد الله أن يصلي رسول الله ﷺ على أبيه رجاء أن الله يرحمه بصلاة رسول الله ﷺ ، وكان ابنه مؤمناً صادقاً ، فأراد النبي ﷺ تطييب قلب ابنه فتقدم ليصلي عليه فأراد عمر أن يمنع النبي ﷺ من الصلاة عليه ، وقال : يا رسول الله إنه فعل كذا وكذا وقال كذا وكذا ، فجذب النبي ﷺ ثوبه من يد عمر وتقدم وصلى عليه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة : ٨٤] فجاءت الآية على رأي عمر .

واختصم منافق ويهودي في شيء ، فقال اليهودي للمنافق : نذهب إلى أبي القاسم فنتحاكم على يديه ، وقال المنافق : بل نذهب إلى كعب بن الأشرف ، وكان من رؤساء اليهود يأخذ الرشوة في حكمه ، فامتنع اليهودي من الذهاب إلى كعب بن الأشرف وذهبا إلى النبي ﷺ فحكم على المنافق لليهودي ، فلما خرجا قال المنافق : نذهب إلى كعب بن الأشرف فامتنع اليهودي ، وقال : نذهب إلى عمر بن الخطاب فرضي المنافق ، فلما دخلوا على عمر أخبره اليهودي بما كان له من الدعوى على المنافق ، ثم أخبره بقضاء النبي ﷺ على المنافق ، وأنه لم يرض بحكمه وقال : نذهب إلى كعب بن الأشرف فلم أوافقه ، ثم اتفقنا على التحاكم إليك ، فقال عمر للمنافق : أحقٌّ ما قال هذا ؟ فقال المنافق : نعم ، فدخل عمر بيته وأخرج سيفه وضرب عنق ذلك المنافق ، وقال : هذا

جزاء من لم يرض بحكم النبي ﷺ ، ثم إن عشيرة ذلك المنافق شكوا إلى النبي ﷺ عمر بن الخطاب وطلبوا القصاص منه واعتذروا بأن صاحبهم لم يكن منافقاً ، وإنما أراد بالمحاكمة إلى عمر تأييد حكم النبي ﷺ وألحفُوا على النبي ﷺ في تلك الدعوى ، وكاد يحصل من ذلك شرٌ ، فأيّد الله تعالى ما فعله عمر وأهدر دم ذلك المنافق ، وأنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء : ٦٠] ، وختمها بقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ فكان في ذلك كله تأييداً لما فعل عمر .

ولما قال عبد الله بن أُبيّ : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون : ٨] وعنىٰ بالأعز نفسه وبالأذل النبي ﷺ وأصحابه ، فأراد عمر بن الخطاب أن يذهب إلى عبد الله بن أُبي ويقتله فأبىٰ النبي ﷺ وقال : « لا يُتَحدَّث أن محمداً يقتلُ أصحابه » وأنزل الله تعالى ترضية لعمر قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية : ١٤] .

ولما أشار على النبي ﷺ بقتل أسرى بدر وعدم قبول الفداء منهم ، وأشار أبو بكر بقبول الفداء ، وقال : يا رسول الله هم قومك وذوو رحمك ونرجو أن الله يهديهم للإسلام ، فقبل النبي ﷺ ما أشار به أبو بكر في أخذ الفداء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : الآية٦٧ ـ ٦٨] فكانت الآية مؤيدة لما أشار به عمر ، والنبي ﷺ وأبو بكر يبكيان ، فقال عمر : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟ فقال النبي ﷺ : « أبكي للذي عرض علي من الفداء » وفي رواية قال له النبي ﷺ « كاد يصيبنا في خلافك شر » ثم أنزل الله إمضاء أخذ الفداء بقوله ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٩] .

ولما طاف النبي ﷺ بالبيت قال له عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلّى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] فكان ذلك من موافقات عمر رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه يقول للنبي ﷺ : احْجُبْ نساءكَ فإنه يدخل عليك البرُّ والفاجرُ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

ولما أكثر نساء النبي ﷺ من التغاير بينهن دخل عليهن عمر رضي الله عنه وزجرهنّ وخوّفهنّ بالطلاق وأن الله يبدّل النبي ﷺ خيراً منهن ، فأنزل الله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : ٥] .

وكان رضي الله عنه يكره شرب الخمر ويسأل الله أن يحرمه فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء : ٤٣] فلم يكتف بذلك عمر وقال : اللهم أرنا في الخمر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة : ٩٠] فحرم الله الخمر فكان ذلك موافقاً لما كان مرغوباً لعمر .

قال الشعبي : لما سمع الناس قول عمر ورأوا عمله فكان يمشي في الأسواق ويطوف في الطرقات ويقضي بين لناس في قبائلهم ويعلمهم في أماكنهم ذكروا أبا بكر والنبي ﷺ ثم قالوا : كان النبي ﷺ أعلم بأبي بكر ، وكان أبو بكر أعلم بعمر ، فجرى أبو بكر وعمر مجرى واحداً ، وقد كانوا يخافون من لين هذا وشدة هذا ، فكان أبو بكر مع لينه أقواهم فيما لا بد منه وألينهم فيما ينبغي ، وكان عمر ألينهم فيما ينبغي وأقواهم فيما لا بد منه .

وقدم الأحنف بن قيس على عمر بن الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو مختجر بعباءة له ، فشرد بعير من إبل الصدقة فسعى خلفه ، وقال : يا أحنف ضع ثيابك وهلمّ فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنه من إبل الصدقة فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين يغفر الله لك فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا ، فقال عمر : وأيّ عبد هو أعبد مني ومن الأحنف بن قيس ، إن من وَلي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب لهم عليه ما يجب على العبد من النصح وأداء الأمانة .

وقال عمر : من استعمل رجلاً لمودة أو قرابة لا يحمله على استعماله إلا ذلك فقد

خان الله ورسوله والمؤمنين ، ومن استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله .

ولما افتتح المسلمون سواد العراق قالوا لعمر بن الخطاب : آقسمه بين الغانمين لأنهم افتتحوه عنوة ، قال : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ فإني أخاف أن تفاسدوا بينكم في المياه وأخاف أن تقتلوا ، فأمر أن يقروا أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤوسهم الضرائب يعني الجزية وعلى أرضهم الخراج ولم يقسمها بينهم لتكون للمسلمين الذين يأتون بعدهم .

ولما قدم عمر مكة أقبل أهل مكة يشكون أبا سفيان بأنه حبس سيل الماء عليهم ، فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان نصب أحجاراً ، فقال : ارفع هذا وهذا ، فرفعهما ثم قال : هذا وهذا ، حتى رفع أحجاراً خمسة أو تسعة ، ثم استقبل عمر الكعبة فقال : الحمد لله الذي جعل عميراً يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه .

وعن الحسن البصري قال : حضر باب عمر بن الخطاب سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب ونفر من قريش من تلك الرؤوس وصهيب وبلال ونفر من أولئك الموالي الذين شهدوا بدراً ، فخرج إذْنُ عمر للموالي وترك أولئك ، فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا في بابه لا يلتفت إلينا ، فقال سهيل بن عمرو ، وكان رجلاً عاقلاً : أيها القوم إني والله لقد أرى الذي في وجوهكم إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم دُعِيَ القوم ودُعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ وفي رواية : فإذا كان هذا في دار عمر فكيف الجنة ؟ فجلسوا يبكون على تأخر دخولهم في الإسلام حتى ارتفعت أصواتهم فسمعهم عمر فأمر بإدخالهم ، وكان صدر المجلس في زمن خلافته للسابقين في الإسلام ، فإذا سبقهم غيرهم ثم جاء أحد من السابقين يتأخرون عن صدر المجلس ليجلس فيه السابقون في الإسلام ولو كانوا من الموالي ، وربما أنهم لا يزالون يتأخرون حتى يكون غير السابقين في آخر المجلس ولو كانوا من أشراف قريش .

وعن الحسن البصري أن رجلاً أتى أهل ماء فاستسقاهم فلم يسقوه حتى مات عطشاً ، فأغرمهم عمر بن الخطاب ديته .

وعن أنس بن مالك قال : كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر

فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ، قال : ما شأنك ؟ قال : أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلت فرسي ، فلما حضر الناس قام محمد بن عمرو بن العاص يقول : هذه فرسي وربّ الكعبة ، فلما دنا مني قلت له : هذه فرسي ورب الكعبة ، فقام يضربني بالسوط ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين ، قال : فوالله ما زاد عمر على أن قال : اجلس ، ثم كتب إلى عمرو بن العاص إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأَحْضِرْ معك ابنك محمداً ، فدعا عمروٌ ابنَه محمداً فقال : هل أحدثت حدثاً أو جنيت جناية ؟ قال : لا . قال : فما بال أمير المؤمنين عمر يكتب فيك ؟ فقدّم عمرو ابنه على عمر ، قال أنس : فوالله إنا لعند عمر إذا نحن بعمرو وقد أقبل فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه محمداً فإذا هو خلف أبيه فقال عمر : أين المصري ؟ فقال : ها أنذا ، قال : دونك الدرة اضرب ابن الأكرمين اضرب ابن الأكرمين اضرب ابن الأكرمين ، فضربه ، قال : ثم اجعلها على صلعة أبيه عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين قد ضرب من ضربه ، فقال : أما والله لو ضرب من ضربه لما أقدمناك يا عَمْرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ثم التفت إلى المصري فقال : انصرف راشداً فإنْ رابك شيء فاكتب إلي .

وكان عمر إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار ألاّ يركب برذوناً ولا يأكل نقياً ولا يلبس دقيقاً ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول : اللهمّ اشهد .

وعن الحسن البصري قال : قال عمر : لئن عشت إن شاء الله لأسيرنّ في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تُقْطع عني أمَّا هُمْ فلا يصلون إليّ ، وأمّا عمالهم فلا يرفعونها إلي ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وعن الزهري أن عمر جلد صبيعاً القيمي لكثرة مساءلته عن حروف القرآن حتى اضطربت الدماء في ظهره .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لقد رأيت

رسول الله ﷺ يلتوي ما يجد ما يملأ بطنه من الدقل .

وعن هشام بن عروة قال : قال عمر بن الخطاب : إذا رأيتم الرجل يضيع الصلاة فهو والله لغيرها من حق الله تعالى أشد تضييعاً .

وعن يحيى بن جعدة قال : قال عمر : لولا ثلاثة لأحببت أن ألحق بالله عز وجل ، لولا أن أسير في سبيل الله أو أضع وجهي لله تعالى أو أجالس أقواماً يلتقطون طيب الكلام كما يلتقط طيب التمر .

وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان يبكي عند موت عمر ، فقيل له في ذلك ، فقال : أبكي على موت عمر إن موت عمر ثُلمة في الإسلام لا تُرتَقُ إلى يوم القيامة .

وقال علي : كان أبو بكر أوّاهاً حليماً وكان عمر مخلصاً ناصحاً لله فناصحه الله ، وإن كنا أصحاب رسول الله ﷺ ونحن متوافرون لنرى أن السكينة تنطق على لسان عمر ، وإن كنا لنرى أن شيطانه ليهابه أن يأمره بالخطيئة .

وشهد عند عمر بن الخطاب رجل فقال : ائتني بمن يعرفك فأتاه برجل فأثنىٰ عليه خيراً ، فقال عمر : أنت جاره الأدنىٰ تعرف مدخله ومخرجه ؟ فقال : لا ، فقال : كنت رفيقه في السفر الذي يسفر عن أخلاق الرجال ومكارم الأخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدراهم والدنانير التي يتبين بها ورع الرجل ؟ فقال : لا ، قال : أظنك رأيته في المسجد يهمهم بالقرآن يرفع رأسه طوراً ويخفضه طوراً ، قال : نعم ، قال : اذهب فلست تعرفه ، وقال للرجل اذهب فائتني بمن يعرفك .

وقالت عائشة رضي الله عنها : من رأى ابن الخطاب علم أنه إنما خلق غَنَاء أي نفعاً للإسلام .

وعن لاحق بن حُميد قال : بعث عمر بن الخطاب عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف رضي الله عنهم إلى الكوفة ، جعل عمار بن ياسر على الصلاة وعلى الجيوش ، وعبد الله بن مسعود على القضاء وبيت المال ، وعثمان بن حنيف على مساحة أرض الخراج ، وجعل بينهم كل يوم شاة شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر والنصف بين هذين . قال الراوي : ولا أحفظ الطعام ، ثم قال : أنزلتكم وإياي من هذا المال منزلة والي اليتيم ، من كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل

بالمعروف ، وما أرى قرية يؤخذ منها كل يوم شاة إلا كان سريعاً في خرابها .

ولما قدم عليه أول عير عام الرمادة دعا الزبير ، وقال : اخرج في أول هذه العير فاستقبل بها نجداً فاحمل إلى أهل كل بيت ما قدرت أن تحملهم ومن لم يستطع حمله فمر لأهل بيت ببعير بما عليه فليكسوا كساءين من ذلك ولينحروا البعير فليجملوا شحمه وليقددوا لحمه ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وجفنة من دقيق فيطحنوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق ، فاعتذر الزبير من الخروج ، ثم دعا طلحة فاعتذر ، فأمر أبا عبيدة فخرج ، فلما رجع بعث له بألف دينار ، فقال أبو عبيدة : إني لا أعمل لك يا ابن الخطاب إني عملت لله عز وجل ولست آخذ في ذلك شيئاً ، فقال عمر : قد أعطانا رسول الله ﷺ في أشياء بعثنا لها فكرهنا ذلك فأبىٰ علينا رسول الله ﷺ ، فاقبلها أيها الرجل فاستعن بها على دينك ودنياك ، فقبلها أبو عبيدة وتصدق بها . وقد قال ﷺ : « ما جاءكَ مِنْ هذا المالِ وأنتَ غير مستشرِفٍ ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك » .

ولما جِيء له بغنائم العراق كان فيها تاج كسرى وأساوره ، وكان النبي ﷺ وعد بذلك سراقة بن مالك لما تعرض لأن يمسكه لكفار قريش عام الهجرة ، فساخت به قوائم فرسه ، ثم سأل النبي ﷺ الأمان ، وعقد التوبة فخرجت قوائم فرسه ، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأبىٰ فقال له : « كيف بك يا سراقة إذا لبست تاج كسرى وأساوره ؟ » ثم أسلم سراقة عام ثمان من الهجرة بالجعرانة ، فلما جاءت غنائم العراق وفيها تاج كسرى وأساوره قال عمر : ائتوني بسراقة بن مالك لألبسه إياهما لتتحقق بذلك معجزة النبي ﷺ في وعده سراقة بذلك ، فجيء له بسراقة فألبسه التاج والأساور وقال له : قل الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابياً من بني مدلج ، وأركبه جملاً وطيف به في المدينة لإظهار تلك المعجزة .

وقال عمر لما جيء له بغنائم العراق : اللهمَّ إني قد علمت أن رسول الله كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك ، فزويت ذلك عنه نظراً منك واختياراً ، اللهمَّ إني قد علمت أن أبا بكر كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك ، فزويت ذلك عنه نظراً منك واختياراً ، اللهمَّ إنّي أعوذ بك أن يكون هذا

مكراً بعمر واستدراجاً ، ثم قال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦] .

وعن أبي هريرة قال : قدمت من عند أبي موسى الأشعري من العراق على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بثمانمئة ألف درهم ، فقال لي : بماذا قدمت ؟ قلت : قدمت بثمانمئة ألف درهم ، قال : قدمت بثمانمئة ألف درهم ؟ قلت : بلىٰ قدمت بثمانمئة ألف درهم ، قال : ألم أقل لك : إنما قدمت بثمانمئة ألف درهم فكم ثمانين ألف درهم ؟ فعددت مئة ألف حتى عددت ثمانمئة ألف درهم ، قال أطيّبٌ هو ويلك ؟ قلت : نعم ، وإنما سأله عن طيبه تعجباً من كثرته ، فاستبعد أن يكون طيباً حلالاً ، قال فبات عمر ليلته أرقاً ، حتى إذا نودي بصلاة الصبح قالت امرأته : ما نمت يا أمير المؤمنين الليلة ، قال : كيف ينام عمر بن الخطاب وقد جاء الناس ما لم يكن يأتيهم مثله منذ كان الإسلام ، فما يأمن عمر لو هلك وذلك المال عنده فلم يضعه في حقه ، فلما صلى الصبح اجتمع إليه نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم : إنه قد جاء الناس الليلة ما لم يأتهم مثله منذ كان الإسلام وقد رأيت رأياً فأشيروا عليَّ ، رأيت أن أكيل للناس بالمكيال ، فقالوا : لا تفعل يا أمير المؤمنين إن الناس يدخلون في الإسلام ويكثر المال ، ولكن أعطهم على كتاب الله ، وكلما كثر الناس وكثر المال أعطيتهم عليه ، قال : فأشيروا عليَّ بمن أبدأ منهم ، فقال له عليّ وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما : ابدأ بنفسك إنك والي ذلك ، فقال : لا بل أبدأ بالعباس عَمّ رسول الله ﷺ ، ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ ، فكان مجيء هذا المال سبباً لفرض العطاء كل سنة وتدوين الدواوين للعطاء كل سنة ، فكتب الناس ودوّن الدواوين ، فهو أول من فعل ذلك ، فرتّب ذلك أولاً باعتبار التقدم في الذكر والتأخر ، ثم باعتبار المقدار الذي لكل إنسان ، أما باعتبار التقدم والتأخر في الذكر في ذلك الديوان الذي رتّبه فبدأ ببني هاشم والمطلب بن عبد مناف فأعطاهم جميعاً ، ثم أعطى بني عبد شمس بن عبد مناف ، ثم بني نوفل بن عبد مناف ، وإنما قدم بني عبد شمس على بني نوفل لأن عبد شمس كان أخاً لهاشم من أبيه وأمه ، وأمّا نوفل فكان أخاً لهاشم لأبيه فقط ، ثم استوت له عبد العزى وعبد الدار ابنا قصي بن كلاب ، فقدم بني أسد بن عبد العزّى وهم قوم خديجة لصهر النبي ﷺ فيهم ، ثم انفردت له بنو زهرة بن كلاب بن

مرة فدعاها تتلو عبد الدار ، ثم استوت له بنو تيم بن مرة وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة فقدم بني تيم لأنهم كانوا من أهل حلف الفضول والمطيبين ، وفيها كان رسول الله ﷺ ، ولأن أبا بكر من بني تيم ، ثم دعا مخزوماً تتلوهم ، ثم استوت لهم سهم وجمح ابنا هصيص بن كعب وعدي بن كعب ، وكان عمر من عدي فقالوا له : ابدأ بعدي ، فقال : بل أقر نفسي حيث كنت فإن الإسلام دخل وأمرنا وأمر بني سهم واحد انظروا بين سهم وجمح ، فقدم بني جمح ثم بني سهم ، فكان ديوان جمح وسهم كالدعوة الواحدة ، فلما خلصت إليه دعوته بعد بني سهم وجمح كبّر تكبيرة عالية ، ثم قال : الحمد لله الذي أوصل إليّ حظي من رسول الله ﷺ ، وسيأتي ذكر ما فرض لنفسه لأن الكلام الآن في الترتيب في التقدم والتأخر فقط ، لا في ذكر المقدار المفروض ، ثم دعا بني عامر بن لؤي بن فهر ، وكان أبو عبيدة بن الجراح من بني فهر فتكون دعوته بعد بني عامر ، فلما دعا بني عامر بن لؤي قبل فهر قال أبو عبيدة : أكلّ هؤلاء يدعون أمامي ؟ فقال : يا أبا عبيدة اصبر كما صبرت أو كَلّم قومَك فمن قدّمك على نفسه لم أمنعه ، فأما أنا وبنو عدي فنقدّمك ـ إن أحببت ـ على أنفسنا ، فقال أبو عبيدة : أصبر كما صبرت أنت ، ولا حاجة إلى ذكر ترتيب القبائل لأنه يطول .

وبقي هذا الترتيب الذي رتّبه عمر إلى زمن خلافة بني العباس فوقع تشاجر بين بني سهم وبني جمح في خلافة المهدي بن المنصور فافترقوا ، فقدم المهدي عليهما بني عدي ، وأما بنو هاشم والمطلب فكانا على ترتيب عمر في مرتبة واحدة لقول النبي ﷺ : « إنما نحن وبنو المطلب كشيء واحد ، فإذا كان السنّ في الهاشمي قدّمه على المطلبيّ ، وإذا كان المطلبي قدمه » ، وبقي ذلك إلى خلافة عبد الملك بن مروان فقدّم بني هاشم على بني المطلب .

ثم إن عمر بعد ترتيبِ القبائل في الديوان الأقرب فالأقرب إلى النبي ﷺ فرض المقدار الذي يُعطَىٰ لكل إنسان ، وجعل التفاوت على السابقة للإسلام ، وأما أبو بكر فكان يسوّي بين المسلمين في القسم ولا ينظر إلى أسبقية الإسلام ، فراجعه عمر في ذلك فلم يقبل مراجعته في ذلك وقال : إنما فضلهم عند الله وإنما الدنيا بلاغ . فلما صارت الخلافة لعمر فاضَلَ بينهم بالنسبة للأسبقية في الإسلام ، ولا ينكر على أحد منهما لأن ذلك اجتهاد ، وجعل صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو

مع من أسلم عام الفتح ، وكان ذلك أقل من عطاء من أسلموا قبل ذلك فامتنعوا من أخذه وقالوا : لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا ، فقال : إنما أعطيتكم على السابقية في الإسلام لا على الأحساب ، قالوا : فنعم إذَنْ ، وأخذوا وخرج الحارث وسهيل بأهليهما نحو الشام فلم يزالا مجاهدين ، وفرض لأهل بدر خمسة آلاف كل سنة ، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى تمام قتال أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين ، وفرض لمن كان منهم مشهوراً بالشجاعة ولاقى بلاء في تلك الوقائع ألفين وخمسمئة ، فقيل له : لو جعلت أهل القادسية مثل هؤلاء بألفين وخمسمئة ، فقال : لَمْ أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا ، وقيل له قد سَوَّيت من بَعُدَتْ داره بمن قربت داره وقاتلهم على فنائه ، فقال : من قربت داره أحق بالزيادة لأنهم كانوا رداء للحتوف وشجًى للعدو ، فهلاّ قال المهاجرون مثل قولكم حين سَوَّينا بين السابقين منهم والأنصار ، فقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم ، وهاجر إليهم المهاجرون من بعد ، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً ، ثم فرض لمن بعدهم خمسمئة للروادف بعدهم ثلاثمئة سَوَّىٰ في كل طبقة بين قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم ، وفرض بعدهم للروادف على مئتين وخمسين ولمن بعدهم على مئتين ، وفرض للعباس عم رسول الله ﷺ اثني عشر ألفاً وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهل بدر ، وهم الحسن والحسين وأبو ذر وسلمان الفارسي رضي الله عنهم ، وفرض لزوجات رسول الله ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف ، إلا من جرى عليها الملك كصفية ومارية وجويرية ، فقال نسوة رسول الله ﷺ : ما كان رسول الله ﷺ يفضلنا عليهن في القسمة فَسَوِّ بيننا ففعل ، وفضل عائشة رضي الله عنها بألفين لمحبة رسول الله ﷺ إياها ، فلم تأخذ إلا مثلهن وامتنعت من أخذ الزيادة ، وجعل نساء أهل بدر في خمسمئة خمسمئة ونساء من بعدهم إلى الحديبية في أربعمئة أربعمئة ، ونساء من بعد ذلك إلى تمام قتال أهل الردة في ثلاثمئة ثلاثمئة ونساء أهل القادسية مئتين مئتين ، ثم سَوَّى بين النساء بعد ذلك ، وجعل الصبيان سواء على مئة ، ثم جمع ستين مسكيناً وأطعمهم الخبز فأحصوا ما أكلوا فوجدوه يخرج من جريبتين ، ففرض لكل إنسان منهم ولعياله جريبتين في الشهر ، والجريب مكيال قدر أربعة أقفزة ، والقفزي مكّياً يسع ٨ مكاكيك ، والمكوك مكيال

يسع صاعاً ونصفاً ، فتكون الجريبتان ٩٦ صاعاً ؛ ٤٨ له و٤٨ لعياله ، وأشار عليه بعض الصحابة أن يبقي في بيت المال شيئاً من المال عدة لكون إن كان ، فقال عمر : هذه كلمة ألقاها الشيطان على فِيك وقاني الله شرها ، وهي فتنة لمن بعدي ، بل أعد لهم ما أعد الله ورسوله هما عدتنا التي بها أفضينا إلى ما ترون ، فإذا كان المال ثمن دين أحدكم هلكتم .

وفي رواية : قدم على عمر مال من العراق فقسمه ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين لو أبقيت من هذا المال لعدو إن حضر أو نازلة أو نائبة إن نزلت ، فقال عمر : قاتلك الله ، نَطَقَ بها على لسانك الشيطانُ لقَّنني الله حجتها ، والله لا أعصي الله اليوم ، ولكن أعد لهم كما أعد لهم رسول الله ﷺ ، ثم قال عمر للمسلمين في شأن نفسه : إني كنت امرأ تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم هذا ، فما ترون أنه يحل لي في هذا المال ؟ فأكثر القوم وعليٌّ ساكتٌ ، فقال : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال : ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره ، فقال : القول ما قال علي ، فأخذ بما قال علي .

واشتدت مرة حاجة عمر ، فاجتمع نفر من الصحابة منهم عثمان وطلحة والزبير ، فقالوا : لو قلنا لعمر في زيادة نزيده إياها في رزقه ، فقال عثمان : هلموا فلنستبرىء ما عنده من وراء وراء ، فأتوا حفصة ابنته فأعلموها الحال واستكتموها ألَّا تخبر بهم عمر ، فلقيت عمر في ذلك ، فغضب وقال : من هؤلاء لأسوء بهم ؟ قالت : لا سبيل إلى علمهم ، قال : أنت بيني وبينهم ما أفضل ما اقتنىٰ رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس ؟ قالت : ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع . قال : فأي الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : حرفاً من خبز شعير ، فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها ، قال : وأي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين كنا نربعه في الصيف ، فإذا كان الشتاء بسط نصفه وتدثر بنصفه ، قال : يا حفصة فأبلغيهم أن رسول الله ﷺ قد رفض الفضول فوضعها مواضعها وتَبَلَّغَ بالترجية ، فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية ، وإنما مثلي ومثل صاحبيَّ كثلاثة سلكوا طريقاً ، فمضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل ، ثم اتبعه ، ثم الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ، ثم اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما ألحق

بهما وإن سلم غير طريقهما لم يجامعهما ، وكان فرض العطاء وتدوين عمر الدواوين سنة ١٥ من الهجرة .

وخطب عمر بالجابية لما كان بالشام فقال : إنَّ الله جعلني خازناً لهذا المال وقاسماً له ، ثم قال : بل الله يقسمه وأنا بادىء بأهل النبي ﷺ ثم أشرافهم ، ففرض لأزواج النبي ﷺ إلا جويرية وصفية ومارية رضي الله عنهن ، ثم قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا ، ثم عدل عمر بينهن رضي الله عنهن ، ثم قال : إني بادىء بالمهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً ، ثم أشرافهم ، فمن أسرع في الهجرة أسرع به العطاء ، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء ، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته .

ولما قدم الشام استقبله الناس وهو على بعيره وقالوا : يا أمير المؤمنين لو ركبت برذوناً يلقاك عظماء الناس ووجوههم ، فقال عمر : لا أراكم ههنا إنما الأمر ههنا ، وأشار بيده إلى السماء ، خلوا سبيل جملي .

ودخل مرة على مزبلة فاحتبس عندها ، فكأن أصحابه تأذوا بها ، فقال : هذه دنياكم التي تحرصون عليها ، وقال : نظرت في هذا الأمر إذا أردت الدنيا أضر بالآخرة وإذا نظرت للآخرة أضر بالدنيا ، فإذا كان الأمر هكذا فأضروا بالفانية .

وعن علي بن أبي طالب أن الله عز وجل جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة سَبَقَا والله سبقاً بعيداً وأتعبا من بعدهما تعباً شديداً .

وعن الإمام مالك قال : كان السلف يعلمون أولادهم حُبَّ أبي بكر وعمر كما يعلمونهم السورة من القرآن .

وعن شعيب بن حرب قال : قلت لمالك : أوصني ؟ قال : أوصيك بحب الشيخين أبي بكر وعمر ، فقلت : إن الله عز وجل أعطاني من ذلك شيئاً كثيراً ، قال : والله إني لأرجو لك على حبهما ما أرجو لك على التوحيد .

وهذا الفرض الذي فرض عمر في العطاء غير الفرض الذي فرض أبو بكر ، فإن أبا بكر سَوّىٰ بين الناس في الفرض والعطاء نظراً لاستوائهم في الإسلام وأكثر مال جاء قسمه عشرين درهماً عشرين درهماً ، وفضلت فضلة فقسمها للخدم خمسة دراهم

خمسة دراهم ، وقال : إن لكم خدماً يخدمونكم ويعالجون لكم فرضخنا لهم .

فلما فتحت الفتوحات في خلافة عمر وجاءته الأموال قال : إن أبا بكر رأى في هذا المال رأياً ولي فيه رأي آخر ، وفاضَلَ بين الناس في الفرض كما تقدم ، وقال : لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه ، وفاضل بين أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ، ففرض لأسامة أربعة آلاف ولعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف ، فقيل له لِمَ زِدْتَ لأسامة ألفاً وفضلته على ابنك عبد الله ؟ فقال : ما كان لأبي عبد الله ما كان لأبي أسامة من الفضل ، وما كان لعبد الله ما كان لأسامة ، فإن أبا أسامة كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبي عبد الله ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله من عبد الله ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ، فمرَّ به عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله ﷺ ، فقال : زيدوه ألفاً ، وقال : إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة ألفاً ، فمن كانت أمه كأمه زدناه ألفاً ، وجاءه طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان ففرض له ثمانمئة ، فمرَّ به النضر بن أنس بن النضر فقال : افرضوا له ألفين ، فقال له طلحة : جئتك بمثله ففرضت له ثمانمئة وفرضت لهذا ألفين ، فقال : إن أبا هذا وهو أنس بن النضر لقيني يوم أحد حين أضرب الناس وصرخ الشيطان أن محمداً قُتل فقال لي : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقلت : إن الناس يقولون إنه قد قتل ، فَسَلَّ سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله ﷺ قُتل فإن الله حي لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، فإن كان أبو أخيك عثمان مثل أبيه نفرض له مثلما فرضنا له ، وجعل الفرض لمن يفرض له من الصبيان من بعد الفطام من الرضاع ، ثم غيّر ذلك ، وجعل الفرض لمن يفرض له من الصبيان من حين الولادة ، وسبب ذلك أنها جاءت قافلة تحمل طعاماً إلى المدينة ، وغربت الشمس قبل دخول القافلة المدينة ، فباتت القافلة خارج المدينة ، فبلغ ذلك عمر ، فقال لعبد الرحمن بن عوف : إني أخشى على هذه القافلة من السُّرّاق ، اخرج بنا نحرسهم من بُعْدٍ ، فخرج ومعه عبد الرحمن بن عوف يحرسان القافلة من بُعْدٍ ، وقاما يتهجدان بالصلاة ، فسمع عمر بكاء صبي بالمدينة ، فقال لعبد الرحمن بن عوف : احرس القافلة حتى أنظر سبب بكاء هذا الصبي ، فتوجه نحو الصبي وقال لأمه : اتقي الله وأحْسِني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه مرة ثانية ، فعاد إلى أمه فقال لها مثلما قال في المرة الأولى ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان آخر الليل

سمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال : ويحك إني لأراك أم سوء ، مالي أرى ابنك لا يَقَرُّ منذ الليلة ؟ فقالت وهي لا تعرف أنه عمر : يا عبد الله إني أحاوله على الفطام فيأبىٰ ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض للمولود إلا بعد الفطام ، فأريد أن أفطمه قبل أوان فطامه ليفرض له عمر ، قال : فكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهراً ، فقال : لا تعجليه ، ورجع إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يبكي ويقول : يا بؤساً لعمر كم قتل من أبناء المسلمين ، فلما صلى الفجر أمر منادياً ينادي : أَلَّا تعجلوا على صبيانكم الفطام فإنّا نفرض لكل مولود في الإسلام من حين يولد ، وكتب بذلك إلى الآفاق أن يفرضوا لكل مولود في الإسلام من حين يولد .

وكان رضي الله عنه شديد الخوف من الله تعالى قويَّ الرجاء حتى كاد خوفه ورجاؤه كجناحي طائر في الاعتدال ، فكان يقول : لو نادى منادٍ من السماء لا يدخل النار إلا رجل واحد لخفت أن أكون أنا ، ولو نادى مناد لا يدخل الجنة إلا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا ، وكان عمر مدة خلافته لا ينام ليلاً ولا نهاراً إلا خفقات يخفقها ويقول : إن نمت ليلاً أضعت نفسي ، وإن نمت نهاراً أضعت رعيتي ، وقرأ يوماً قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١] حتى بلغ : ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾ خرَّ مغشياً عليه أياماً يُعاد ، وأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه أربعمئة درهم ، فقال عبد الرحمن : تستسلفني وعندك بيت المال ، ألا تأخذ منه ثم ترده ؟ فقال عمر : إني أتخوف أن يصيبني قدري يعني الموت ، فتقول أنت وأصحابك اتركوها لأمير المؤمنين حتى تُؤخَذَ مني يوم القيامة ، ولكني أستسلفها منك فإذا مت جئت واستوفيتها من ميراثي .

وعن عبد الرحمن بن مسعود قال : والله لو أعلم أن كلباً يحب عمر لأحببته ، ووددت أني كنت خادماً لعمر حتى أموت ، ولقد وجد فقده كل شيء حتى العضاه ، وإن هجرته كانت نصراً وإن سلطانه كان رحمة .

وقال ابن مسعود لابنه عبد الله وهو في حلقة في المسجد الحرام : يا أبا عبد الرحمن ما الصراط المستقيم إلا الذي كان عليه أبوك ثابتاً حتى دخل الجنة ورأى ربه ، وحلف ثلاث أيمان على ذلك .

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان : صِفْ لي عمر بن الخطاب قال : كان عالماً برعيته ، عادلاً في نفسه قليل الكبر قبولاً للعذر ، سهل الحجاب ، مفتوح الباب ،

متحرياً للصواب ، بعيداً عن الإساءة ، رفيقاً بالضعيف ، غير صخّاب ، كثير الصمت ، بعيداً من العبث .

وكتب عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص وهو على مصر : كن لرعيتك كما يحب لك أميرك .

وعن عبد الله بن العباس قال : دخل عيينة بن حصن على عمر فقال : هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى هَمَّ أن يوقع به ، فقال الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين فوالله ما تجاوز عمر حين تلاها ، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل .

وعن الحسن البصري قال : يجيء الإسلام يوم القيامة فيتصفح وجوه الناس حتى يجيء إلى عمر فيصعد فيقول : أي ربّ كنتُ خفياً وأُهان وهذا أظهرني وأنت أعلم ، قال : فتجيء ملائكة فتأخذ بيده فتدخله الجنان ، والناس في الحساب .

وعن عبد الله بن عمر قال : كان عمر إذا نهى الناس عن شيء دخل على أهله ، أو قال جمع أهله فقال : إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا ، وإن والله لا أوتَىٰ برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني ، فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء فليتأخر .

وعن ضبة بن محصن العنزي قال : كان علينا أميراً بالبصرة أبو موسى الأشعري ، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وأنشأ يدعو لعمر ، قال : فغاظني ذلك منه ، فقمت إليه حيث لا يذكر أبا بكر ، فقلت له : أين أنت من صاحبه يعني أبا بكر تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جُمَعاً ، ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول : إن ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي ، فكتب إليه عمر أن أشخصه إلي ، قال : فأشخصني إليه وقدمت ، فضربت عليه الباب فخرج إلي فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا ضبة ، فقال : لا مرحباً ولا أهلاً ، قلت : أمّا المرحب فمن الله ، وأمّا الأهل فلا أهل لي ولا مال ، فيمَ استحللت يا عمر إشخاصي من بلدي بلا ذنب أذنبته

ولا شيء أتيته ؟ قال : ما الذي شجر بينك وبين عاملي ؟ قال : قلت : الآن أخبرك ، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، ثم أنشأ يدعو لك ، فغاظني ذلك منه فقمت له فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جُمَعاً ، ثم كتب إليك يشكوني ، قال : فاندفع عمر باكياً وهو يقول : أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك ؟ فقلت : غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم اندفع باكياً وهو يقول : والله ليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟ قلت : نعم ، قال : أما الليلة فإنَّ رسول الله ﷺ لما أراد الخروج من مكة هارباً من المشركين خرج ليلاً ومعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا يا أبا بكر ، ما أعرف هذا من أفعالك ؟ » فقال : يا رسول الله أذكر الرصَدَ فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك ، قال : فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه ، أي حتى لا يظهر أثر قدميه في الأرض حتى حفيت ، فلما رأىٰ أبو بكر أنها حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك ، قال : فدخل فلم ير فيه شيئاً ، فأدخله ، وكان في الغار خَرْقٌ فيه حيات وأفاع فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله ﷺ فيؤذيه ، وجَعَلْنَ يضربنَ أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تتحدر على خديه من ألم ما يجد ، ورسولُ الله ﷺ يقول له : يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا» فأنزل الله سكينته عليه أي الطمأنينة لأبي بكر ، فهذه ليلته .

وأما يومه : فلما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، فقال بعضهم نصلي ولا نزكي ، فأتيته لا آلوه نصحاً ، فقلت : يا خليفة رسول الله ﷺ تألّف الناس وارْفُقْ بهم ، فقال لي : أَجَبّارٌ في الجاهلية خَوّارٌ في الإسلام ، فبماذا أتألّفهم ؟ قُبِضَ رسول الله ﷺ وارتفع الوحيُ ، فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، قال : فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر ، فهذا يومه ، ثم كتب إلى أبي موسى يلومه .

وقال الأوزاعي في وعظٍ وعظَ به المنصور : بلغني أن عمر بن الخطاب قال : لو

ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها ، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟ ، وحدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرو الأنصاري أن عمر بن الخطاب استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيماً ، فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ، أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله ؟ قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « ما من والٍ يلي شيئاً من أمور الناس إلا أتى يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه لا يفكّها إلا عدله ، فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كُلَّ عضو منه ، ثم يعاد فيحاسب ، فإن كان محسناً نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوي به في النار سبعين خريفاً » ، فقال له عمر : ممن سمعت هذا ؟ قال : من أبي ذر وسلمان ، فأرسل إليهما عمر فسألهما ، فقالا : نعم سمعناه من رسول الله ﷺ ، فقال عمر : واعمراه من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذر : من سلب الله أنفه وألصق خده من الأرض ، فأخذ عمر المنديل على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني ، وقال عمر : لا يقيم أمر الناس إلا حَصينُ العقل أريبُ الفقه لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ولا تأخذه في الله لومة لائم .

وقال أيضاً : الأمراء أربعة : فأمير قوي ظلم نفسه أي منعها وعماله ، فذلك كالمجاهد في سبيل الله ، يد الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير ظلم نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمير ظلم عماله وأرتع نفسه فذلك الحُطَمة الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « شرّ الرعاة الحُطَمة فهو الهالك وحده » ، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً .

وقال عمر أيضاً : اللهم إنْ كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على مَنْ مال الحقُّ من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين .

وكان الخليفة المنصور مهاباً شديد الهيبة لا يتجرأ أحد أن يعظه بمثل ما وعظه به الأوزاعي ، وإنما تجرأ الأوزاعي على ذلك لأنه طلبه وأحضره من الشام إلى بغداد وسأله أن يعظه ، فقال الأوزاعي : أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به : فصاح به الربيع وزير المنصور وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة ، قال الأوزاعي : فطابت نفسي وانبسطت في الكلام .

ومن جملة ما قال له في ذلك المجلس : قال رسول الله ﷺ : « أيُّ عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله تعالى سِيقت إليه ، فإن قَبِلها بشكر وإلا كانت حجةً من الله عليه ليزداد بها إثماً ويزداد الله بها سخطاً عليه » .

وقال رسول الله ﷺ : « أَيُّما والٍ مات غاشّاً لرعيته حَرَّم الله عليه الجنة » ، ومن كره الحق كره الله ، إن الله هو الحق المبين ، إن الله الذي ليّن قلوبَ رعيتكم لكم حين ولاّكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً مواسياً لهم بنفسه في ذات يده محموداً عند الله وعند الناس ، فحقيق بك أن تقوم فيهم بالحق وأن تكون بالقسط له قائماً ولعوراتهم ساتراً ، لا تغلق عليك دونهم الأبواب ، ولا تُقِمْ دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة عندهم وتبتئس بما أصابهم من سوء .

يا أمير المؤمنين قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين تملكهم أَحْمرِهم وأسودِهم ، مسلمِهم وكافرِهم ، وكلٌّ له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك إذا انبعث منهم فِئام وراء فِئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سُقْتها إليها ؟

يا أمير المؤمنين كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويزع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال : « يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً ؟ » فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف !؟

يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ دعا القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمّده ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد « لم يبعثك الله جباراً ولا متكبراً » فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال : « اقتصَّ مني » فقال الأعرابي : قد سامحتك بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو على نفسي ، فدعا له بخير .

يا أمير المؤمنين رَضِّ نفسك لنفسك وخذ لها الأمان من ربك ، وارغب جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله ﷺ : « لَقَيْدُ قوسِ أحدِكُم مِنَ الجنةِ خَيرٌ له مِنَ الدنيا وما فيها » .

يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك ولم

يَبْقَ لغيرك .

يا أمير المؤمنين ، أتدري ما جاء عن جدك في تأويل هذه الآية : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف : ٤٩] قال الصغيرة : التَّبَسُّم ، والكبيرة : الضَّحِك ، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن .

يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء عن جدك في تأويل هذه الآية : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] قال في الزبور : يا داود إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تَتَمَنَّيَنَّ في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك من نبوتي ، ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة يا داود ، إنما جعلت رسلي إلى عبادي رِعاءً كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة ليجبروا الكسير ويدلوا الهزيل على الكَلأ والماء .

يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأَبَيْنَ أن يَحمِلْنَهُ وأَشْفَقْنَ منه ، يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس رسول الله ﷺ إمارة مكة أو الطائف فقال له النبي ﷺ : « يا عباسُ يا عمَّ رسول الله ، نَفْسٌ تُحييها خيرٌ مِنْ إمارةٍ لا تحصيها » نصيحة منه لعمه وشفقة عليه ، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فقال : « يا عباسُ يا عمَّ رسول الله ، ويا صفيةُ عمة رسول الله ويا فاطمة بنت محمد ، إني لست أُغْني عنكم من الله شيئاً ، إنّ لي عملي ولكم عملكم » .

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال : أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة ، فقال له : « يا جبريل صِف لي النار ، فقال : إنّ الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرّتْ ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرّت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسمَرّتْ فهي سوداء مظلمة لا يضيء جمرها ولا يطفأ لهبها ، والذي بعثك بالحق لو أن ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً ، ولو أن ذَنوباً من شرابها صُبَّ في مياه الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ، ولو أن ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله تعالى وضع على جبال الأرض جميعاً لذابت وما استقلّت ، ولو أن رجلاً أدخل النار ، ثم أخرج منها لمات أهل

الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه ، فبكى النبي ﷺ وبكى جبريل عليه السلام لبكائه ، فقال : أتبكي يا محمد وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ، ولِمَ بكيت أنت يا جبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه ؟ قال : أخاف أن أُبتلىٰ بما ابتُلي به هاروت وماروت ، فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي ، فأكون قد أمنت مكره ، فلم يزالا يبكيان حتى نودي من السماء يا جبريل ويا محمد إن الله أَمّنكما أن تعصيا فيعذبكما ، وفضلك على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة عليهم السلام » .

يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام إلى الله بحقه ، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى ، وإن من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله أذلّه الله ووضعه ، وهذه نصيحتي إليك والسلام عليك ، ثم نهض الأوزاعي ، فقال له المنصور : إلى أين ؟ فقال : إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى ، قال : قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك ، وقبلتُها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين ، عليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل ، فلا تُخَلّني من مطالعتك إياي بمثل هذا ، فإنك المقبول القول ، غير المتهم في النصيحة ، قلت : أفعلُ إن شاء الله تعالى ، ثم أمر المنصور للأوزاعي بمال يستعين به على خروجه ، فلم يقبله وقال : أنا في غِنًى عنه ، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا ، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك .

وروىٰ ابن المهاجر أن المنصور قدم مكة شَرَّفَها الله حاجّاً ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به أحد ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاءه المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أسحر ، فبينما هو يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول : اللهمَّ إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج فجلس في ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأتاه الرسول ، وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلّم عليه ، فقال له المنصور : وما هذا الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد بالأرض وما يحول بين الحق

وأهله من الطمع والظلم ، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلاّ اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل . فقال له : أنت آمن على نفسك ، فقال : الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت ، فقال : ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي ؟ قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها منهم ، وبعثت عمالك بجميع الأموال ، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة إن نسيت لم يذكّروك ، وإن ذكّرت لم يعينوك ، وقَوَّيتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح ، وأمرت بألاّ يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ولا الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت ألاّ يحجبوا عنك ، تجبي الأموال ولا تقسمها ، قالوا هذا قد خان الله فمالنا لا نخونه وقد سخر لنا فأْتمروا ألاّ يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا أرادوا ألاّ يخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً إلا قصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنكم عَظَّمهم الناس وهابوهم ، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية ، فامتلأت بلاد الله من الطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاءك متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك ، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطاعتك سألوا صاحب المظالم ألاّ يرفع مظلمته وكانت للتظلم بها حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ، فإذا جهدوا خرج وظهر وصرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرّحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير ، فما بقاء الإسلام وأهله على هذا ؟!

ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رجعت ظلامته إليهم فينصف ، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي يا أهل الإسلام ، فيبتدرونه مالَكَ ؟ مالك ؟ فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينتصف له ، ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك ، فقدمتها مرةً وقد ذهب سَمْعُ ملكهم فجعل يبكي ، فقال وزراؤه : مالك تبكي لا بَكَتْ عيناك ؟ فقال : أما إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، نادوا في الناس ألاّ يلبس ثوباً أحمر إلا المظلوم ، فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوماً فينصفه ، هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شحّ نفسه في ملكه ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا يغلبك رأفتك بالمسلمين على شحّ نفسك ، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة ، إن قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله عبراً في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ولَسْتَ تعطي بل الله يعطي من يشاء ، وإن قلت أجمع المال لأشيد سلطاني فقد أراك عبراً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع ، وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجِدَة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد ، وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بعمل صالح ، يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل ؟ قال : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذي خَوّلك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم ، وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك ، فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب هل يغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا ؟

فبكى المنصور بكاءً شديداً حتى نحب وارتفع صوته ، ثم قال : يا ليتني لم أخلق ولم أكُ شيئاً ، ثم قال : كيف احتيالي فيما خُوّلت فيه ولم أر من الناس إلا خائناً ؟

قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين ، قال : ومن هم ؟ قال : العلماء ، قال : قد فروا مني ، قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قتل عمالك ، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشيء مما حلَّ وطاب واقسمه بالحق والعدل وأنا ضامِنٌ لك على أنّ من هرب منك يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك ، فقال المنصور : اللهمَّ وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل ، وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم ، ثم قال للحرسي : عليك بالرجل إن لم تأتني به لأضربنَّ عنقك ، واغتاظ عليه غيظاً شديداً ، فخرج الحرسي يطلب الرجل ، فبينما هو يطوف في طلب الرجل ويفتش عليه فإذا هو بالرجل في بعض الشعاب فقعد حتى صلى ، ثم قال : يا ذا الرجل أما تتقي الله ؟ قال : بلى ، قال : ما تعرفه ؟ قال : بلى ، قال : فانطلق معي إلى الأمير فقد آلى أن يقتلني إن لم آته بك ، قال : ليس لي إلى ذلك من سبيل ، قال : يقتلني ، قال : لا ، قال : كيف ؟ قال : تحسن تقرأ ؟ قال : لا ، فأخرج من مِزْوَدٍ كان معه ورقاً مكتوباً فيه شيء ، فقال : خذه فاجعله في جيبك فإنّ فيه دعاء للفرج ، قال : وما دعاء الفرج ؟ قال : لا يرزقه إلا الشهداء ، قلت : يرحمك الله قد أحسنت إلي فإن رأيت أن تخبرني ما هذا الدعاء وفضله ، قال : من دعا به مساء وصباحاً هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه وبسط له في رزقه وأعطي أمله وأعين على عدوه وكتب عند الله صدّيقاً ولا يموت إلا شهيداً تقول :

« اللهمَّ كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك ، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ، اجعل لي من كلّ هَمّ أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً ، اللهم إنّ عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه ، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً إنك المحسن إليَّ وأنا المسيء إلى نفسي ، فيما بيني وبينك تتودد إليَّ بنعمتك وأتبغض إليك بالمعاصي ، ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك ، فتب عليَّ بفضلك وإحسانك إنك أنت التواب الرحيم » .

قال فأخذته فَصَيَّرْته في جيبي ، ثم لم يكن لي هَمّ غير أمير المؤمنين فدخلت عليه فرفع رأسه فنظر إليّ وتبسَّم ، ثم قال : ويلك أو تحسن السحر ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ ، فقال : هاتِ الرقّ الذي أعطاك ، ثم جعل يبكي ، وقال : قد نجوت . وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف درهم ، ثم قال : أتعرفه ؟ قلت لا ، قال : ذاك الخضر عليه السلام .

وعن أبي عمران الجوني قال : لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنّوه بما صار إليه من أمور الخلافة ، ففتح بيوت الأموال وأقبل يجزيهم بالجوائز السَّنِية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد وكان يظهر التنسك والتقشف وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد الثوري قديماً ، فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلو به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هارون فكتب إليه يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد ، أما بعد : يا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى واخىٰ بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله ، واعلم أني قد واخيتك مؤاخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها وُدّك ، وإني منطوٍ لك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبواً لِمَا أَجِدُ لك في قلبي من المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهنأني بما صرت إليه ، وقد فتح بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرّت عيني ، وأني استبطأتك فلم تأتني وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته . فإذا ورد إليك كتابي فالعجل العجل .

فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته ، فقال : عليّ برجلٍ من الباب ، فدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني ، فقال : يا عباد خذ كتابي هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فَسَلْ عن قبيلة بني ثور ، ثم اسأل عن سفيان الثوري فإذا رأيته فألق كتابي هذا وَعِ بِسَمعك وقلبك جميع ما يقول ، فَأَحْصِ عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به . فأخذَ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة ، فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ، ثم سأل عن سفيان فقيل له هو في المسجد ، قال عباد : فأقبلت إلى المسجد ، فلما رآني قام قائماً وقال : أعوذ بالله السميع العليم

من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير ، قال عباد : فوقعت الكلمة في قلبي فخرجت ، فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلّمت فما رفع إليَّ أحد رأسه وردوا السلام عليّ برؤوس الأصابع ، فبقيت واقفاً فما منهم أحد يعرض عليَّ الجلوس وقد علاني من هيبتهم الرعدة ومددت عيني إليهم فقلت إنّ المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب إليه ، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه ، فركع وسجد وسلّم وأدخل يده في كمه ولفّها بعبائه وأخذه فقلبه في يده ثم رماه إليَّ من كان خلفه ، وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه فإني أستغفر الله أن أَمَسَّ شيئاً مَسَّهُ ظالم بيده ، قال عباد : فأخذه بعضهم فحلّه كأنه خائف من حية تنهشه ثم فَضَّه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسّم تبسّم المعجب ، فلما فرغ من قراءته قال : قلبوا أو اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقيل له يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت له في قرطاس نقي ، فقال : اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به وإن اكتسبه من حرام فسوف يَصْلَىٰ به ولا يبقى شيء مَسَّهُ ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا ، فقيل له : ما نكتب ؟ فقال : اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم : من العبد المذنب سفيان بن سعيد الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سُلِب حلاوة الإيمان ، أمّا بعد : فإني قد كتبت إليك أعرفك أني قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وقليت موضعك ، فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناءٍ عني حتى كتبت تشهدني على نفسك ، أَمَا إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا عليك قراءة كتابك ؛ وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى ، يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل يرضى بفعلك المؤلفةُ قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؟ أم هل رضي بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد يا هارون مئزرك وأعد للمسلمين جواباً ، وللبلاء جلباباً ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد

ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً ، يا هارون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت ستراً دون بابك ، وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ويضربون من يشربها ، ويزنون ويحدّون الزاني ، ويسرقون ويقطعون يد السارق ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى : احشروا الذين ظلموا أزواجهم ، أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فقدمت بين يدي الله عزَّ وجل ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سائق وإمام إلى النار ، كأني بك يا هٰرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئاتِ غيرك في ميزانك زيادة على سيئاتك بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها واعلم أني نصحتك وما أبقيت لك في النصح غاية ، فاتق الله يا هارون في رعيتك واحفظ محمداً ﷺ في أمته ، وأحسن الخلافة عليهم ، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك ، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزوّد زاداً نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته ، فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام .

قال عباد : فألقى إليَّ الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم ، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة في قلبي ، فناديت يا أهل الكوفة فأجابوني ، فقلت لهم : يا قوم مَنْ يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله ، فأقبلوا إليَّ بالدنانير والدراهم ، فقلت : لا حاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية ، قال : فأتيت بذلك ونزعت ما كان عليَّ من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلاً ، فهزأ بي من كان على باب الخليفة ، ثم استؤذن لي ، فلما دخلت عليه وبصرني على تلك الحالة قام وقعد ثم قام قائماً وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ، ويقول : انتفع الرسول خاب المُرْسِلُ مالي وللدنيا مالي وللملك يزول عني سريعاً ، ثم ألقيت الكتاب إليه منشوراً كما دفع إليَّ ، فأقبل هارون يقرؤه ودموعه

تتحدر من عينيه ويقرأ ويشهق ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه في السجن كنت تجعله عبرة لغيره ، فقال هارون : اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرورُ من غررتموه والشقيُّ من أهلكتموهُ ، وإن سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه ، ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله تعالى .

فرحم الله عبداً نظر لنفسه واتقى الله فيما يقدم عليه غداً من عمله فإنه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولي التوفيق ، فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليّنها وأزال قساوتها ، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففسادُ الرعايا بفساد الملوك ، وفسادُ الملوك بفساد العلماء ، وفسادُ العلماء بحب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر والله الموفق .

ووصف النبي ﷺ عمر بن الخطاب فقال : « قرنٌ من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم ، وتركه قَوْلَةُ الحق ماله من صديق » .

وشرب عمر مرة من لبن إبل الصدقة غلطاً فأدخل إصبعه وتقيّأ .

روي أن عمر وصله مسك من البحرين فقال : وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت امرأته عاتكة : أنا أجيد الوزن فسكت عنها ، ثم أعاد القول فأعادت الجواب فقال : لا ، أحببتُ أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلاً على المسلمين .

وكان لعمر لما ولي الخلافة زوجة كان يحبها فطلّقها خِيفةَ أن تشير عليه بشفاعة في باطل فيعطيها ويطلب رضاها .

وسمع عمر سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه : عَشِّ الرجل فعشّاه ، ثم سمعه ثانياً يسأل فقال : ألم أقل لك عَشِّ الرجل ؟ قال : قد عشّيته ، فنظر عمر فإذا

تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً ، فقال : لست سائلاً ولكنك تاجر ، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرة ، وقال : لا تعد ، لولا أن سؤاله كان حراماً لما ضربه ولما أخذ مخلاته ، أما ضربه فتأديب وقد ورد الشرع بالتعزير ، وأما أخذ مخلاته فإن ما فيها جمعه بِلا حَقٍّ ؛ لأن الذي أعطاه اعتقد أنه محتاج فهو مال ضائع لا يعرف مالكه وأمره للإمام يصرفه في المصالح .

وأتي عمر رضي الله عنه مرة بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال : اعزلوا عني حسابها ، وقد اقتدى في ذلك بالنبي ﷺ فإنه لما أتى قباء أتاه أهل قباء بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال : « أما إني لستُ أحرمه ولكن أتركه تواضعاً لله تعالى » .

وقال عليّ لعمر : إن أردت أنْ تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكّس الإزار واخصف النعل وكُلْ دون الشبع .

وقال عمر : اخشوشنوا وإياكم وزِيّ العجم كسرى وقيصر ، ومن تزيّا بزي قوم فهو منهم .

وقال عمر : كان لي صاحبان سلكا طريقاً فإن سلكت غير طريقهما سلك بي غير طريقهما ، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد .

وقال : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد .

قال بعض الصحابة تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الاخرة أبلغ من زهد في الدنيا .

وكان عمر يحب علي بن أبي طالب وأهل بيت رسول الله ﷺ وقد جاء عنه في ذلك شيء كثير ، فمن ذلك أنه لما قال النبي ﷺ : « مَنْ كُنْتُ مولاه فعليٌّ مولاه » قال أبو بكر وعمر : أمسيت يا ابن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة .

وحَكَمَ عليّ مرة على أعرابي بحكم فلم يرض بحكمه ، فَتَلَبَّبَهُ عمر بن الخطاب وقال له : ويلك إنه مولاك ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

وأخرج الطبراني أنه قيل لعمر : إنك تصنع بعليّ من التعظيم شيئاً لا تصنعه مع أحد

من أصحاب النبي ﷺ ، فقال : إنه مولاي ، والمراد من قوله ﷺ : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » الولاية هي المحبة والقرب والاتباع ، مثل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [آل عمران : ٦٨] .

وأخرج ابن سعد عن أبي هريرة قال : قال عمر بن الخطاب : عليٌّ أَقْضانا ، وأخرج أيضاً عن سعيد بن المسيب قال : قال عمر : أعوذ بالله من مُعْضِلة ليس لها أبو الحسن يعني علياً .

وأخرج أبو يعلى عن أبي هريرة ، قال : قال عمر بن الخطاب : لقد أُعطيَ عليٌّ ثلاث خصال لأن تكون لي خصلة منها أحبُّ إليّ من حُمُرِ النَّعَم ، فَسُئِل وما هي ؟ قال : تزويجه ابنته ﷺ ، وسكناه في المسجد لا يحل فيه ما يحل له ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر .

وأخرج أبو يعلىٰ والطبراني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب من علي ابنته أم كلثوم رضي الله عنهما بنت فاطمة رضي الله عنها ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلُّ سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي ، وكل بني أنثى عُصْبتهم لأبيهم ما خلا ولدي فاطمة فإني أبوهم وعصبتهم » ، ثم قال عمر : وإني وإن كانت لي صحبة للنبي ﷺ فأحببت أن يكون لي معها سبب ونسب .

وقصة تزوّج عمر بأم كلثوم بنت علي رواها الأئمة من طرق كثيرة منهم الطبراني والبيهقي والدارقطني ، وأكثر طرق الحديث مروية عن أكابر أهل البيت النبوي منهم جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين : أن علياً عزل بناته لولد أخيه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلقي عمرُ علياً رضي الله عنه فقال : يا أبا الحسن أنكحني ابنتك أم كلثوم بنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فقال : قد حبستها لولد أخي جعفر ، فقال عمر : والله ما على وجه الأرض برصد من حسن صحبتهما ما أرصد فأنكحني يا أبا الحسن ، فقال عليّ : إنها صغيرة ، فقال عمر : ما ذاك بك ولكن أردت منعي فإن كانت كما تقول فابعثها إلي ، وفي رواية : أنَّهُ لما قال له إنها صغيرة قال له : ما بي حاجة إلى الباءة ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلُّ سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي ، وكلُّ بني أنثى عُصْبَتُهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فأنا

أبوهم وعصبتهم » فأحببت أن يكون لي من رسول الله سبب ونسب ، وفي رواية : وإنه كان لي صحبة فأحببت أن يكون لي معها سبب ، فقال علي : إنّ لي أمراء حتى أستأذنهم ، وفي رواية : إن لي أسدين حتى أستأذنهما ؛ يعني الحسن والحسين ، فاستأذن ولد فاطمة فأذنوا له ، وفي رواية : أنه لما استأذن الحسن والحسين ، وقال : إني كرهت أن أقضي أمراً دونكما ، فسكت الحسين لكون أخيه الحسن أكبر منه وتكلم الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أبتاه فمن بعد عمر ؟ صحب رسول الله ﷺ وتوفي وهو عنه راض ، ثم ولي الخلافة فعدل ، فقال له أبوه : صدقت ولكن كرهت أن أقطع أمراً دونكما ، ثم قال لها علي : انطلقي إلى أمير المؤمنين فقولي له إن أبي يقرئك السلام ويقول لك : إنا قد قضينا حاجتك ، وفي رواية فأعطاها حلة وقال لها قولي له هذا البرد الذي قال لك فقالت ذلك لعمر ، فقال : قولي له قد رضيت حصان كريم ما أحسنا وأجملها ووضع يده على ساقها ، وفي رواية : فَضَمَّها إليه فقالت : تفعل هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ، ثم خرجت حتى أتت أباها فأخبرته الخبر ، قالت : بعثتني إلى شيخ سوء ، فقال : يا بنية إنه زوجك ثم زَوّجه إياها ، فجاء عمر إلى مجلسه ببين الروضة والمنبر حيث يجلس المهاجرون والأنصار وذكر لهم الخبر ، وفي رواية قال لهم رفوني أي قولوا لي بالرفاء والبنين ، فقالوا بمن يا أمير المؤمنين ؟ فقال : تزوجت أم كلثوم بنت علي ، سمعت رسول الله ﷺ ، ثم ذكر لهم الحديث السابق وجعل لها مهراً أربعين ألفاً ، فولدت له زيداً ورقية ولم يعقبا ، ومات عمر عنها وتزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر بن أبي طالب فمات عنها ، وتزوجها بعده أخوه محمد بن جعفر فمات عنها ، وتزوجها بعده أخوه عبد الله بن جعفر فماتت عنده ، ولم تلد لأحد من الثلاثة شيئاً .

واتفق الصحابة على أن عمر كان متصفاً بكمال الزهد والعلم والورع والعقل ، وكانوا يقولون : هو أكرم من أن يبخل وأعقل من أن يخدع .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ مِنْ شرارِ أمتي الذين غُذّوا بالنعيم يطلبون أنواع الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام » .

ودخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه فدمعت عينا عمر ، فقال له النبي ﷺ : « ما الذي

أبكاك يا ابن الخطاب ؟ » قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصَفِيّه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط . فقال ﷺ : « أما ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : « فذلك كذلك » .

ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلّب بصره في بيته فقال : يا أبا ذر ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث ، فقال : إن لنا بيتاً نوجّه إليه صالح متاعنا ، فقال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت هٰهنا ، فقال : إن صاحب البيت لا يدعنا فيه .

وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة فرأى على باب منزلها ستراً وفي يديها قلبين أي سوارين من فضة فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله ﷺ ، فسأله أبو رافع فقال : « من أجل الستر والسوارين » فأرسلت بهما بلالاً إلى رسول الله ﷺ وقالت : قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى ، فقال : « اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصُّفّة » فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال : « بأبي أنت وأمي قد أحسنتِ » .

ورأى رسول الله ﷺ على باب عائشة ستراً فهتكه وقال : « كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به إلى آل فلان » .

وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشاً جديداً ، وقد كان ﷺ ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته ، فلما أصبح قال لها : « أعيدي العباءة الخلقة ونحي هذا الفراشَ عني قد أَسْهرني الليلة » .

وكذلك أتته ﷺ دنانير خمسة أو ستة ليلاً فبيتها فسهر حتى أخرجها آخر الليل ، قالت عائشة رضي الله عنها : فنام حتى سمعت غطيطه ، ثم قال : « ما ظَنّ محمد بربّه لو لقي الله وعنده هذه ؟ » .

وقال الحسن البصري : أدركت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوباً قط ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

وقال الحسن : ودخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال

عليه ، فقيل له : لو أصلحته ، فقال : كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي ﷺ : « من بنى فوق ما يكفيه كُلِّفَ أن يحمله يوم القيامة » .

وفي الخبر : « كلُّ نفقة للعبد يُؤجَرُ عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين » وفي قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص : ٨٣] قالوا : إنه الرئاسة والتطاول في البنيان .

وقال ﷺ للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله « اتسع في السماء » أي في الجنة ، وقال ﷺ : « كلُّ وبال بناء على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنَّهُ مِنْ حَرّ أو برد » .

ونظر عمر في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر فكبّر وقال : ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قال فرعون : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ يعني به الآجر ، وأوّل من عمله هامان وأن فرعون أول من بُنِي له بالآجر والجص فسموا الجبابرة وهذا هو الزخرف .

ورأى بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنياً من الجريد والسعف ثم رأيته مبنياً من الرهص أي الطين الذي يبنى به فيجعل بعضه على بعض ، ثم رأيته الآن مبنياً باللَّبِن ، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص ، وكان أصحاب الرهص خيراً من أصحاب اللَّبِن ، وكان في السلف من يبني داره مراراً في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في أحكام البنيان ، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه ، فإذا رجع أعاده ، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن ، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة .

قال الحسن البصري : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بأيدي إلى السقف .

وقال ابن مسعود : يأتي قوم يرفعون الطين ويدعون الدين ويستعملون البراذين ويصلّون إلى قبلتكم ويموتون على غير ملّتكم .

قالت عائشة : كان ضجاع رسول الله ﷺ وسادة من أدم حشوها ليف ، وكان عمر يقول : لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً لا أدري أيهما خير لي ، وكان يقول : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم : إذا لم يكن في ديني ، وإذا لم يكن في أعظم

منه ، وإذا لم أُحْرَم الرضا به ، وإذا أرجو الثواب عليه . وسُمع عمر بعد وفاة النبي ﷺ يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم فحنَّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولىٰ بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذم فقال تعالى : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٣] بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب : ٧] ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون : ﴿يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب : ٦٦] بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع الماء منهما صلى الله عليك ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غُدوّها شهر ورَوَاحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلّمتك فقالت لك الذراع : لا تأكلني فإني مسمومة ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال : ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [نوح : ٢٦] ولو دعوت بمثلها علينا لهلكنا كلنا ، لقد وطيء ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : « اللهمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد اتبعك في قلّة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنّه وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لو لم تجالس إلا كفؤاً ما جالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفؤاً ما نكحت إلينا ، ولو لم تواكل إلا كفؤاً ما واكلتنا ، فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وآكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت الطعام على الأرض ولَعِقْتَ أصابعك تواضعاً منك .

وقال عمر : إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب

فلا تفارقوا مجالس العلماء .

وكان عمر يقول لأبي موسى الأشعري : ذكرنا ربنا ، وكان أبو موسى حسن الصوت حسن القراءة ، فيقرأ أبو موسى حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال : يا أمير المؤمنين الصلاةَ الصلاةَ . فيقول : أوَلَسْنا في الصلاة إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وكتب عمر إلى أمراء الأجناد : اخلولقوا واخشوشنوا أي البسوا الخلق واستعملوا الخشن في الأشياء ، وأهدى عمر نجيبه أي نوى أن يجعلها هدياً فطلبت منه ثلاثمئة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك ، وقال : بل اهدها ففعل أي لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون ، وقال عمر : إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليستمسك به فقلما يصيب ذلك ، وعن عبد الرحمن بن عوف قال : خرجت مع عمر ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال : أتدري بيت من هذا ؟ قلت : لا ، قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم على شرب فما ترى ؟ قلت : أرى أنا أتينا ما نهانا الله عنه قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] فرجع عمر وتركهم ، وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع ، وقد قال ﷺ لمعاوية : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » ، وقال ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو كان في جوف بيته » ، وكان عمر ليلة يعس بالمدينة فسمع رجل في بيت يتغنى فتسور عليه فوجد عنده امرأة ودناً من خمر ، فقال : يا عدو الله ظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته فقال : وأنتَ يا أمير المؤمنين فلا تعجل فإني إن كنتُ عصيتُ الله واحدة فقد عصيتَ الله ثلاثاً ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقد تجسستَ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة : ١٨٩] وقد تسوَّرتَ علي ، وقال تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النور : ٢٧] وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام ، فقال عمر رضي الله عنه : هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، لئن عفوت عني لا أعود إلى مثلها

أبداً ، فعفا عنه وخرج وتركه .

وقال عمر رضي الله عنه : من أقام نفسه مقام التُّهم فلا يلومنَّ من أساء الظنّ به .

ومَرَّ برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة ، فقال : يا أمير المؤمنين إنها امرأتي ، فقال : هلا كلّمتها حيث لا يراك الناس .

وقال عمر : لا يمنع من النكاح إلا عجزٌ أو فجور ، وكان يكثر النكاح ويقول : إني لا أتزوج إلا لأجل الولد .

وقال عمر : ما أعطي العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة .

وتزوج رجل على عهد عمر وكان قد خضب فنصل في خضابه ، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر ، وقالوا : حسبناه شاباً ، فأوجعه عمر ضرباً ، وقال : غررت القوم .

وكان عمر ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول : تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت ، وكان ذلك الأثاث رحى وجرة ووسادة من أدم حشوها ليف ، وأَوْلَم على بعض نسائه بمدّين من شعير وعلى أخرى بمدّين من تمر ومدّين من سويق ، وخطب مرة ونهى عن المغالاة في الصداق ، وقال : ما تزوج رسول الله ﷺ ولا زوّج بناته بأكثر من أربعمئة درهم ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله ﷺ ، فقالت له امرأة : كيف تنهى وقد قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء : ٢٠] فقال : كلُّ الناس أفقه منك يا عمر حتى النساء ، وفي رواية : قال : امرأةٌ أصابتْ وأخطأ عمر ، وراجعت امرأة عمر في الكلام ، فقال لها : أتراجعيني يا لكعى ؟ فقالت : إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك ، فقال عمر : خابت حفصة وخسرت إن راجَعتْه ، ثم دخل على حفصة فقال لها : لا تغتري بابنة أبي قحافة فإنها حِبُّ رسول الله ﷺ وخَوَّفها من المراجعة . ورُوي أن امرأة من نساء النبي ﷺ دفعت في صدر رسول الله ﷺ فزبرتها أمها ، فقال ﷺ : « دعيها فإنهنّ يصنعن أكثر من ذلك » .

وجرى مرة بينه وبين عائشة يوماً كلامٌ حتى أدخلا بينهما أبا بكر حكماً ، فقال لها رسول الله ﷺ : « تكلمي أو أتكلم » فقالت : بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً ، فلطمها أبو بكر حتى دمي فوها وقال : يا عدوة نفسها أَوَ يقولُ غير الحق ؟

فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره ، فقال رسول الله ﷺ : « لَمْ نَدْعُكَ لهذا ولا أردنا منك هذا » .

وقالت له مرة في كلام غضبت عنده : إنك الذي تزعم أنك نبي الله . فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً ، وكان يقول لها : « إني لأعرف غضبك من رضاك » قالت : وكيف تعرفه ؟ قال : « إذا رضيتِ قلتِ : لا وإله محمد ، وإذا غضبت قلت : لا وإله إبراهيم » قالت : صدقت إنما أهجر اسمك .

وقالوا : أول حُبّ وقع في الإسلام حُبّ النبي ﷺ لعائشة ، وكان يقول لها : « كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لا أطلقك » . وكان يقول لنسائه : « لا تؤذوني في عائشة فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكم غيرها » .

وقال أنس : كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان ، وكان يمزح مع نسائه وينزل إلى درجات عقولهن مرة في الأعمال والأخلاق ، حتى روي عنه أنه كان يسابق عائشة في العَدْوِ ، وسبقت يوماً وسبقها في بعض الأيام ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هذه بتلك » .

وفي الخبر أنه ﷺ كان أفكه الناس مع نسائه ، وقالت عائشة : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عيد ، فقال لي رسول الله ﷺ : « أتحبين أن تري لعبهم ؟ » قالت : قلت : نعم ، فأرسل إليهم فجاؤوا ، وقام رسول الله ﷺ بين البابين ومدَّ يديه ، ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر ، وجعل رسول الله ﷺ يقول : « حسبك » وأقول : اسكت مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : « يا عائشة حسبك » فقالت : قلتُ : نعم . فأشار إليهم فانصرفوا ، فقال رسولُ الله ﷺ : « أكمل المؤمنين أحسنُهم خُلُقاً وألطفهم بأهله » وقال ﷺ : « خَيرُكم خَيرُكم لأهله وأنا خيركم لأهلي » وفي رواية : « خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي » ، وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي ، فإذا التمس ما عنده وُجِد رجلاً ، وقال رضي الله عنه : خالفوا النساء فإنّ في خلافهن بركة ، وقد قيل : شاوروهنّ وخالفوهنّ ، وقد برز عمر رضي الله عنه امرأته بمراجعته ، وقال : ما أنت إلا لعبة في جانب البيت إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت ، وقال رسول

الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسْرِي بي في الجنة قصراً وبفنائه جارية فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر ، فأردت أن أنظر إليها فذكرت غَيْرَتك يا عمر » فبكى عمر رضي الله عنه ، وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟

وقال عمر رضي الله عنه : أغروا النساء يلزمن الحجال لا تلبسوهن زينة ، وإنما قال ذلك لأنهن حينئذ لا يرغبن في الخروج في الهيئة الرثة .

وبعث عمر رضي الله عنه حكماً إلى زوجين فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ [النساء : ٣٥] فعاد الرجل وأحسن النية وتلطّف بهما فأصلح بينهما ، وقال عمر : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهمَّ ارزقني ، فقد علمتم أن السماء لم تمطر ذهباً ولا فضة ، وقال : ما مِنْ موضعٍ يأتيني الموت فيه أحبُّ إليَّ من موطنٍ أطلب فيه القوت لأهلي أبيع وأشتري . وكان يطوف في السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول : لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه وإلا أكل الربا شاء أو أبىٰ ، قال قتادة : لما قدم عمر رضي الله عنه الشام صُنِعَ له طعام لم ير قبله مثله ، فقال : هذا لنا فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير ؟ فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : لهم الجنة ، فاغرورقت عينا عمر وقال : لئن كان حظنا هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بعيداً ، ومَرَّ عمر رضي الله عنه يوماً ببناء يبنى بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؟ فقالوا : لعامل من عمالك بالبحرين ، فقاسمه ماله ، وكان يقول : لي على كل خائن أمينان الماءُ والطينُ ، وكان إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد التي قدموا منها وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض ، فإن قالوا نعم حمد الله تعالى ، وإن قالوا لا ، عَزَلَه ، وكتب له أن أقبل وكان يقول : مَثَلُ السلطان إذا ولى العمال الظالمين مثل من يسترعي غنمه الذئاب ، ومثل من يربط الكلب العقور ببابه وقد تقدم أنه كان يشاطر العمال أموالهم فيأخذ نصف أموالهم فيجعلها في بيت المال وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم وولى أبا هريرة عملاً ثم رأى له مالاً فقال له من أين لك هذا المال فقال أبو هريرة : دواب تناتجت وتجارات تداولت وأسهم من الغنيمة . فقال : أد الشطر ، وكأنه رأى أن ما أصاب العامل من غير رشوة وإن كان حلالاً فإنه لا يستحق ذلك لأن له بالإمارة قوة

على أن ينال بالحلال ما لا يناله غيره وفعله . هذا مأخوذ من فعل النبي ﷺ ففي الصحيحين : بعث رسول الله ﷺ ابن اللتبية عاملاً على صدقات الأزد فلما جاء إلى رسول الله ﷺ أمسك بعض ما معه وقال : هذا لكم وهذا لي أهدي إلي فقال ﷺ : « إلا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً » ، ثم خطب فقال : « مالي أستعمل الرجل منكم فيقول : هذا لكم وهذا لي هدية ، إلا جلس في بيت أبيه وبيت أمه ليهدى له ، فوالذي نفسي بيده لا يأخذ منكم أحد شيئاً بغير حقه إلا أتى به يوم القيامة يحمله ، فليأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ، ثم قال : اللهم قد بلغت » .

وكان إذا قدم عليه العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلاً كيْلا يحجبوا شيئاً من المال ، وقال عتاب بن أسيد لما ولاه النبي ﷺ مكة : والله ما أصبت في عملي الذي ولّاني النبي ﷺ إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان ، وكان يقول : رحم الله امرء أهدىٰ إلى أخيه عيوبَه ، وقال مرة لسلمان الفارسي رضي الله عنه : ما الذي بلغك عني مما تكره ؟ فاستعفاه فألحَّ عليه ، فقال : بلغني عنك أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل ، وبلغني عنك أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة ، فقال عمر رضي الله عنه : أما هذان فقد كفيتهما ، فهل بلغك غيرهما ؟ قال : لا ، وإنما قال عمر لسلمان فقد كفيتهما موافقةً لسلمان فيما بلغه مع أنّ ذلك مكذوب على عمر لم يقع منه شيء من ذلك ، وسأل عمر بعض من قدم عليه من الشام عن أخ كان واخاه في الله تعالى ، فخرج إلى الشام ، فقال : ما فعل أخي فلان ؟ قال : ذاك أخو الشيطان ، قال عمر : مَهْ ، قال : إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر ، فقال عمر : إذا أردت الخروج فآذني ، فكتب له عند خروجه : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٢ - ٣] ثم كتب له بعد ذلك كلاماً يعاتبه فيه ويعذله ، فلما قرأ الكتاب بكى وقال : صدق الله وقد نصح لي عمر ، فتاب مما كان قد وقع فيه ، وكان عمر يحب عبد الله بن العباس ويقرّبه ويدنيه ويستشيره ويقدّمه على الأشياخ ، فقال العباس لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل ، يعني عمر ، يقدمك على الأشياخ فاحفظ عني خمساً ، لا تفشينَّ له سراً ، ولا تغتابنَّ عنده أحداً ،

ولا تجربنَّ عليه كذباً ، ولا تعصينَّ له أمراً ، ولا يطّلعنَّ منك على خيانة ، قال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف ، وكان عمر يقول : ثلاث يُصْفُونَ لك وُدَّ أخيك : أن تسلّم عليه إذا لقيته أوّلاً ، وأنْ توسّع له في المجلس ، وأنْ تدعوه بأحسن أسمائه إليه ، وكان عمر يوماً جالساً مع النبي ﷺ إذْ ضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك ؟ قال : « رجلان من أمتي جَثَيَا بين يدي الله عَزَّ وجل ، فقال أحدهما : يا رب خُذْ لي مظلمتي من هذا ، فقال الله تعالى : رُدَّ على أخيك مظلمته ، فقال : يا رب لم يبق لي من حسناتي شيء ، فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء ؟ فقال : يا رب فليحمل عني من أوزاري ، ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، فقال : إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فيقول الله تبارك وتعالى للمتظلم : ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا أو لأي صدّيق هذا أو لأي شهيد هذا ؟ فيقول الله تعالى : لمن أعطى الثمن ، قال : يا رب ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه قال : بماذا يا رب ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال : يا رب قد عفوت عنه ، فيقول الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة » ، ثم قال ﷺ : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة » .

وروي أن عمر كان يَعُسُّ ذات ليلة بالمدينة فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة ، فلما أصبح قال للناس أرأيتم لو أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين ؟ قالوا : إنما أنت إمام ، فقال علي بن أبي طالب : ليس ذلك لك ، إذن يقام عليك الحد ، إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ، ثم تركهم ما شاء الله أن يتركهم ثم سألهم ، فقال القوم مثل مقالتهم الأولى ، وقال علي مثل مقالته الأولى ، فكان عمر متردداً في أن الوالي له له أن يقضي بعلمه في حدود الله تعالى فلذلك راجعهم في مقام التقرير لا في مقام الإخبار خيفةً من ألاّ يكون له ذلك فيكون قاذفاً بإخباره ، ومال عليّ رضي الله عنه إلى أنه ليس له ذلك ، فأخذ عمر بقوله ، وهذا هو المختار عند الفقهاء ، فإن من قال إن القاضي يقضي بعلمه استثني من ذلك الحدود .

وروى النخعي أن عمر بعث مصدقين فأبطؤوا عليه وبالناس حاجة شديدة ، فلما جاؤوا بالصدقات قام عمر متزراً بعباءة يختلف في أولها وآخرها يقسم تلك الصدقة ويقول هذه لآل فلان وهذه لآل فلان حتى انتصف النهار وجاع ، فدخل بيته فأكل من أكل بيته وقال في مال الصدقة : من أدخله بطنه أبعده الله .

قال العلامة الطرطوشي في كتابه المسمى « سراج الملوك » : كانت الخلفاء تعدل في بيت المال فكانت الرعية هم الأجناد وهذه هي سيرة نبينا ﷺ وكان جوعه أكثر من شبعه ، وتوفي ﷺ ودرعه مرهونة في آصع من شعير ، وإذا لم يكن العدل في بيت المال ضعف الملك وقويت الأعداء .

كان الهرمزان من ملوك الفرس فأسره المسلمون وأرسلوه إلى عمر بن الخطاب ، فلما وصل إلى المدينة وجد عمر في المسجد مستلقياً متوسداً فأخذت كُوماً من الحصا ودرقته بين يديه ، فقال له : عدلت فأمنت فنمت ، وعن زيد بن ثابت قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة وهو يتخلل الناس ، فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال لي : لا تتكلم وأقول لك ، فسرت معه حتى صَبّها في بيت عجوز وعدنا إلى منزله ، فقلت له في ذلك ، فقال : إنه حضرني رسول ملك الروم ورسول ملك الفرس فقالا لي : لله دَرّك يا عمر قد اجتمع الناس على علمك وفضلك وعدلك ، فلما خرجا من عندي تداخلني ما يتداخل البشر فقمت ففعلت بنفسي ما فعلت ، وحمل مرة أخرى قربة على عنقه فقيل له في ذلك فقال : إنّ نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها ، وقال كعب الأحبار يوماً : إنا لنجدك في كتابنا أنك تكون على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها فإذا مت لم يزالوا يقتحمون فيها إلى يوم القيامة ، وكان كعب الأحبار حبراً من أحبار اليهود ، ثم هداه الله للإسلام زمن خلافة عمر ، وكان عنده علم كثير من التوراة كتب بني إسرائيل ، وكان فيها صفات النبي ﷺ وصفات خلفائه وأصحابه وكثير من حوادث هذه الأمة ، فكان يجلس مع أصحاب النبي ﷺ ويخبرهم بها وقد رأوا كثيراً مما أخبرهم به من الحوادث التي تجري في المستقبل ، فرأوها كما أخبر ، وقال له عمر يوماً : خَوّفنا يا كعب ، فقال لعمر : اعمل عمل رجل لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبياً لازدريت عملهم مما ترى ، فنكس عمر وأطرق ملياً ، ثم أفاق فقال : زِدْنا يا كعب ، فقال : يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم

قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلا دماغه حتى يسيل من حرها ، فنكس عمر ثم أفاق فقال : يا كعب زدنا ، فقال : يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خَرَّ على ركبتيه حتى يخر إبراهيم خليل الرحمن يقول يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي ، وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال : كان عالماً برعيته ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكبر ، قابلاً للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف غير مُحَابٍ للقوي وغير جافٍ للقريب .

وعن سليمان بن داود عليهما السلام : الرحمة والعدل يحرزان الملك .

وروى عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا التقى المسلمان وسلَّم كلٌّ منهما على صاحبه وتصافحا زَلَّت بينهما مئة رحمة ، لِلبادي تسعونَ وللمصافحِ عَشْرٌ » والتقى مرة عمر وأبو عبيدة ، فصافحه أبو عبيدة وقَبَّل يده وتَنَحَّيا يبكيان ، وأخذ عمر مرة بغرز زيد بن ثابت تعظيماً له لعلمه ، وقال : هكذا فافعلوا بزيد وأمثاله . وكتب عمر إلى عماله : مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا . وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم ، وكان عمر يذهب إلى قباء والعوالي كل سبت ويتفقد عمل العبيد ، فإذا وجد عبداً في عمل لا يطيقه وضع عنه منه ، وكان يقول : خذوا بحظكم من العزلة راحة من قرين السوء .

وعن الشافعي : الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط .

وقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بئس القومُ قومٌ لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » وقال ﷺ : « لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ، أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

وقال ﷺ : « يا أيها الناسُ إنَّ الله يقول : لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجابَ لكم » .

وقال أبو الدرداء : « لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ، أو لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عليكم سلطاناً ظالماً لا يُجِلُّ كبيرَكُمْ ولا يرحَمُ صغيرَكم ، ويدعو خيارُكم فلا يستجابَ لهم ،

وتستغفرون فلا يُغْفَرَ لكم ، وتستنصرون فلا تُنصَرون » .

وقال ﷺ : « ما أعمالُ البِرّ عند الجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لُجّي ، وما جمع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحرٍ لُجّي » ، وقال ﷺ : « إنَّ الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على إنكاره فلا ينكرونه » .

وكان عمر يوماً يعطي الناس عطاياهم ، إذ جاءه رجلٌ معه ابن له ، فقال له عمر : ما رأيت أحداً أشبه بأحد من هذا بك ، فقال الرجل أحدثك عنه يا أمير المؤمنين : بأمرتي أردت أن أخرج من السفر وأمه حامل به ، فقالت تخرج وتدعنا على هذه الحالة ، فقلت أستودع الله ما في بطنك ، فخرجت ، ثم تقدمت فإذا هي قد ماتت ، فجلسنا نتحدث فإذا نارٌ على قبرها ، فقلت للقوم ما هذه النار ؟ فقالوا هذه النار على قبر فلانة ، يعنون زوجته ، نراها كل ليلة ، فقلت والله إنْ كانت لَصَوّامة قَوّامة ، فأخذت المعولَ حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا فإذا سراجٌ وإذا هذا الغلام يَدِبّ ، فقيل لي إن هذه وديعتك ، ولو كنت استودعت أُمَّه لوجدتها ، فقال عمر : لهو أشبه بك من الغراب بالغراب .

وكان عمر كبقية أصحاب النبي ﷺ يبالغون في تطهير قلوبهم وبواطنهم من الصفات الذميمة كالعجب والكبر ، يتساهلون في الطهارة الظاهرة حتى إن عمر توضأ من ماء في جرة نصرانية وكان بعض المنافقين يؤم الناس ولا يقرأ إلى سورة عبس لما فيها من العتاب لرسول الله ﷺ فهم عمر أن يقتله ورأى أن فعله ذلك حرام وركب عمر مرة على فرس هملج ثم نزل عنه وقطع ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مشيته .

وسمع عمر مرة رجلاً يقرأ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : ٧ ـ ٨] فصاح صيحة وخَرَّ مغشياً عليه ، فحمل إلى بيته فلم يزل مريضاً شهراً ، وكان عمر يقول : إذا أعطيتم فأغنوا ، وكان يعطي أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها ، وأعطى مرةً أعرابياً ناقة بولدها ، وقال : اللهمَّ اجعل الفضل عند خيارنا ،

وكان يقول : إن الأعمال تباهَتْ فقالت الصلةُ : أنا أفضلكن .

وقال له رجل من أهل الكتاب في قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ولو نزلت هذه الآية علينا لجعلنا يوم نزولها يوم عيد ، فقال عمر رضي الله عنه : أشهد لقد نزلت هذه الآية يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة ، وقد اتخذناه عيداص ، وكان رضي الله عنه يقول : الحاج مغفور له ولمن يستغفر له في ذي الحجة ومحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول ، وحج رضي الله عنه ، فلما قَبّلَ الحجر الأسود قال : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يُقَبّلك ما قَبّلتك ، ثم بكى حتى علا نحيبُه ، والتفت فرأى عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وراَه ، فقال : يا أبا الحسن ههنا تُسكب العبرات وتُستجاب الدعوات ، فقال رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع ، قال : وكيف ؟ قال : إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً ثم أَلْقَمَهُ هذا الحجر ، فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد على الكافرين بالجحود ، فقال عمر رضي الله عنه : لا أبقاني الله في قوم لست فيهم يا أبا الحسن ، قال العلماء ولهذا المعنى الذي ذكره علي استحب للطائف أن يقول عند استلام الحجر : اللهمَّ إيماناً بك ووفاء بعهدك ، يشيرون بذلك إلى العهد الذي أَلْقَمَهُ الله الحجر .

وكان عمر يقول : أخشى أن كثرة المقام بمكة تسقط هيبة البيت الحرام من القلوب ، فكان يقول للحجاج إذا حجوا يا أهل اليمن يمنكم ، ويا أهل الشام شامكم ، ويا أهل العراق عراقكم ، ولذلك هَمَّ بمَنْعِ الناس من كثرة الطواف ، وقال : خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت فتسقط هيبته من قلوبهم ، وقال : لقد هممت أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلاً .

وقال عمر : كان رسول الله ﷺ إذا مَدَّ يديه للدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه ، وكان رضي الله عنه يقول : يا أيها الناس عليكم بالعلم ، فإن لله سبحانه وتعالى رداء يحبه ، فمن طلب باباً من العلم رداه الله عز وجل بردائه ، فإذا أذنب استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه .

وقال رضي الله عنه : موتُ ألف عابد صائم النهار قائم الليل أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه .

وقال رضي الله عنه : من حَدَّثَ حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل .

وقال رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم ، قالوا : وكيف يكون منافقاً وعليماً ؟ فقال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل .

وقال رضي الله عنه : إذا زَلَّ العالِمُ زَلَّ بزلته عالَمٌ من الخلق .

وقال رضي الله عنه : ثلاث بهن ينهدم الدين ، إحداهن : زلة العالِم .

وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن نفسه : هل فيه شيء من النفاق ، فبرّأه من ذلك .

وكان إذا دُعِيَ إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة للصلاة عليها صلى عليها وإلا ترك ، وكان حذيفة صاحبَ سِرِّ رسول الله ﷺ في المنافقين والفتن ، وكان لا يحضر جنازة منافق .

وكان عمر رضي الله عنه يقول : ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى ، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله ، وقال : تعلموا العلمَ وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبارة العلماء فلا يقوم عملكم بجهلكم ، وقال : إن الرجل يشيب في الإسلام وما أكمل لله صلاة ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل .

وقال : ما كنا نعرف الأشنان زمن رسول الله ﷺ ، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يترك إنكار المنكر ولا النصح للمسلمين ، فكان مرة يخطب الجمعة فدخل المسجد عثمان بن عوف فأنكر عليه تأخره إلى ذلك الوقت وترك البكور إلى المسجد ، فقال في خطبته أهذه الساعة تجيء يا عثمان ؟ فقال عثمان ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت ، فقال عمر : والوضوء أيضاً أي اقتصرت عليه وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالغسل ، وأخَّر عمر مرة صلاة المغرب حتى طلع

نجم فأعتق رقبة ، وسئل عن جهد البلاء ، فقال : كثرة العيال وقلة المال ، وخطب رضي الله عنه مرة فقال : أيها الناس ، إنه قد أتى عليَّ زمان وأنا أرى قَرَأَةَ القرآن يريدون به الله عز وجل وما عنده ، فخيّل إلي الآن أن قوماً يقرؤونه يريدون به الناس والدنيا ألا فأريدوا الله عز وجل بأعمالكم ، ألا إنما كنا نعرفكم إذ يتنزل الوحي وإذ رسول الله ﷺ بين أظهرنا من أخباركم فقد انقطع الوحي وذهب النبي ، فإنما نعرفكم الآن بالقولِ ، فمن رأينا منه خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه ، ومن رأينا منه شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه سرائركم بينكم وبين ربّكم ، ألا وإني إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم وسننكم ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم إلا مَنْ رابَهُ شيءٌ من ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفسي بيده لأقصنّكُم منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت إن بعثت عاملاً من عمالك فأدَّب رجلاً من رعيتك فضربه أتقصُّه منه ؟ قال : نعم ، والذي نفسُ عُمَرَ بيده لأقتصه منه ، فقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ، وخطب لما ولي الخلافة فقال : يا أيها الناس إني داع فأمّنوا : اللهمَّ إني غليظ فَلَيّني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم ، اللهمّ إني شحيح فسَخّني في نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهمّ ارزقني خَفْضَ الجناح ولِينَ الجانب للمؤمنين ، اللهمَّ إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال وذكّرني الموت في كل حين ، اللهمَّ إني ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهمَّ ثبتني باليقين والبر والتقوى وذِكْر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني والمحاسبة لنفسي وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقني التفكير والتدبُّر لما يتلوه لساني من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر في عجائبه والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شيء قدير .

وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : اللهمَّ لا تَدَعْني في غَمْرة ولا تأخذني على غِرّة ولا تجعلني من الغافلين ، وكان الذين يكتبون له زيد بن ثابت وعبد الله بن أرقم وعبد الله بن خلف الخزاعي الذي يقال له طلحة الطلحات ، كان

على ديوان البصرة ، وكتب له ديوان الكوفة أبو حبترة بن الضحاك ، فلم يزل إلى أن ولي عبد الله بن زياد فعزله وولّى مكانه حبيب بن القيسي .

روي أن عمر رضي الله عنه خطب امرأة من ثقيف وخطبها المغيرة بن شعبة فزوجوها المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ : «ألا زَوّجْتُم عمرَ فإنه خير قريش أولها وآخرها ، إلا ما جعل الله لرسوله ﷺ » .

وعن الحسن البصري قال : ما فضل عمر أصحاب رسول الله ﷺ بأنه كان أطولهم صلاة وأكثرهم صياماً ولكنه كان أزهدهم في الدنيا وأشدهم في أمر الله عز وجل .

وقال ابن عباس : خرجت يوماً أريد عمر في خلافته فألفيته راكباً على حمال قد أرسنه بحبل أسود وفي رجليه نعلان مخصوفتان وعليه إزار قصير وقميص قد انكشفت منه ساقاه ، فمشيت إلى جنبه وجعلت أجذب الإزار عليه ، فجعل يضحك ويقول : إنه لا يطيعك ، حتى أتى العالية فصُنِع له طعاماً من خبز ولحم ، فدعوه إليه وكان عمر صائماً ، فجعلَ ينبذ إليّ الطعام ويقول : كُلْ لي ولك .

ذكر مقتل عمر رضي الله عنه

قال الحسن : كان للمغيرة بن شعبة غلام نصراني وقيل مجوسي يقال له فيروز أبو لؤلؤة ، وكان نجاراً جيداً نقاشاً يصنع الرحى وحداداً ، وكان خَراجه ثقيلاً عليه ، فشكا إلى عمر ثقل الخراج وسأله أن يكلم مولاه أن يخفف من خراجه ، فقال : وكم خراجك ؟ قال : درهمان في كل يوم ، قال : وما صناعتك ؟ قال : نجار نقاش حداد ، قال : ما أرى هذا خراجاً ثقيلاً في مثل صناعتك ، فقد بلغني أنك تقول : لو أردت أن أصنع رحًى تطحن بالريح لفعلت ، قال : نعم لئن سلمت لأعملن لك رحًى يتحدث بها من المشرق والمغرب ، ثم انصرف عنه ، فقال عمر : لقد وعدني العبد الآن ، فلما كان الغد جاءه كعب الأحبار فقال له : يا أمير المؤمنين فإنك ميت في ثلاث ليال ، قال : وما يدريك ؟ قال : أجد ذلك في كتاب عندي ، قال عمر : أتجد عمر بن الخطاب ؟ قال : اللهمَّ لا ، ولكني أجد حليتك وصفتك وأنك قد فني أجلك ، وعمرُ لا يحسُّ وَجَعاً ، فلما كان الغد جاءه كعب ، فقال : بقي يومان ، فلما كان الغد جاءه كعب ، فقال : مضى يومان ، وبقي يوم ، فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالاً فإذا استوت كبَّر ، فاستعمل أبو لؤلؤة خنجراً له رأسان محدّد الطرفين نصابه في وسطه ، وكان عمر قد رأى في المنام ديكاً أحمر ينقره ثلاث نقرات فتأوّله بأنه رجل من العجم يطعنه ثلاث طعنات ، وكان عمر يوكل بالصفوف رجالاً يسوونها فإذا استوت أخبروه فكبّر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فلما كان ذلك اليوم الذي طُعن فيه كَمَنَ له أبو لؤلؤة في المسجد في غمار الناس وأمهله إلى أن كبر ودخل في صلاة الصبح فطعنه ثلاث طعنات وقيل ست طعنات إحداهن تحت سُرَّته هي التي قتلته ، فلما وجد عمر حَدّ سلاح سقط وقال : دونكم والكلب فإنه جنىٰ عَليَّ ، وفي رواية قتلني أو أكلني الكلب ، فماج الناس وأسرعوا إليه وصار العلج لا يمر على أحدٍ يميناً وشمالاً إلاّ طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ، مات منهم سبعة ، حتى جاء رجل فاحتضنه من خَلْفه وقيل ألقى عليه برنُساً ، فأدلى السكين إلى حلقه فقتل نفسه ، وقال عمر عندما سقط : أفي

الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم هو ذا . فتناوله بيده وقال : تقدم صَلِّ بالناس . فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة وحُمِلَ عمر إلى منزله ، ثم سأل عَمّنْ طعنه ، فقالوا له : أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، فقال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يَدّعي الإسلام ، ثم أذن للناس فدخلوا عليه ودخل في الناس كعب الأحبار ، فلما نظر إليه عمر أنشأ يقول :

وواعدني كعبٌ ثلاثاً أعدها ... ولا شكَّ أنَّ القولَ ما قاله كعبُ

وما بي حِذارَ الموتِ أني لميتٌ ... ولكن حذار الذنب يتبعه الذنبُ

ثم أوصى بجعل الخلافة شورى بين ستة ، وتقدم الكلام على ذلك مستوفًى ، ثم قال لابنه عبد الله : انظر ما عليَّ من الدَّين . فحسَبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً ، فقال : إن وَفَى له مالُ آل عُمَر فأدّه من أموالهم وإلاّ فَسَلْ بني عدي بن كعب ، وإن لم تف أموالهم فَسَلْ في قريش ولا تعدُهُمْ إلى غيرهم فَأَدِّ عنّي هذا المال ، ثم قال : انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل : يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم أميراً ، وقل يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه ، فمضى وسلّم واستأذن ، ثم دخل على عائشة فوجدها قاعدة تبكي فقال : يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسي ولأوثرنّه اليوم على نفسي ، فلما أقبل قيل : هذا عبد الله قد جاء وهو متطلع إليه ، قال : ارفعوني . فأسنده رجل إليه فقال : ما لديك ؟ فقال : الذي تحب يا أمير المؤمنين أذِنَتْ ، فقال عمر : الحمد لله ما كان شيء من الأمر أهم إليَّ من ذلك ، فإذا أنا قضيت فاحملوني ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذِنَت لي فأدخلوني ، وإن رَدَّتْني فردوني ، وفي رواية وإلا فاصرفني إلى مقابر المسلمين . فلما توفي خرجوا به فصلى عليه صهيبُ بنُ سنان الرومي ، ثم حملوه واستأذنوا به على عائشة فأذنت ، فدفنوه في بيتها عند النبي ﷺ وأبي بكر .

وطُعن في يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وعمره ثلاث وستون سنة ، ومدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام .

وفي تاريخ ابن الوردي : مَرَّ يوماً عمرُ بن الخطاب على رسول الله ﷺ ، فقال عليه

الصلاة والسلام : « لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما دام هذا بين أظهركم ، فإذا فارقكم انفتح الباب » فكان كما قال عليه الصلاة والسلام ، لأن الفتنة كلها قد تجمّعت بعد مقتله ، واتصل بعضها ببعض ، ولا تزال الفتن كذلك إلى يوم القيامة ، انتهى .

ذكر ما كان لسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه من الاقتصاد في الدنيا وحسن السيرة

كان عثمان رضي الله عنه زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة عادلاً في بيت المال لا يأخذ لنفسه منه شيئاً لأنه كان غنياً وغناه كان مشهوراً من حياة النبي ﷺ وبعد وفاته ، وكان كثير الإنفاق في نهاية الجود والسماحة والبذل في القريب والبعيد ، وأنزل الله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢] وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ ﴾ [الزمر : ٩] وقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] وكان يخطب الناس وعليه إزارٌ غليظ عَدَني ثمنُه أربعة دراهم ، وكان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويَدْخُل بيته يأكل الخلَّ والزيت ، قال الحسن البصري : دخلت المسجد فإذا أنا بعثمان متكئاً على ردائه فأتاه سقّاءان يختصمان إليه ، فقضى بينهما .

وعن عبد الله بن شداد قال : رأيت عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة يخطب وهو يومئذ أمير المؤمنين وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم .

وسئل الحسن البصري ما كان رداء عثمان ؟ قال : كان قطري . قالوا : كم ثمنه ؟ قال : ثمانية دراهم . وكان رضي الله عنه شديد التواضع ، قال الحسن البصري : رأيت عثمان وهو أمير المؤمنين نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس إليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس إليه ، فيجلس هو كأنه أحدهم .

وروى خيثمة قال : رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين ، وفي رواية أخرى لخيثمة أيضاً : رأيت عثمان يقيل في المسجد ويقوم وأثر الحصاة في جنبه فيقول الناس : يا أمير المؤمنين . وكان يلي وضوءه في الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم لكفوك ، فقال : لا ، الليلُ لهم يستريحون فيه .

وكان رضي الله عنه يعتق في كل جمعة رقبة منذ أسلم إلّا ألّا يجد ذلك تلك الجمعة

فيجمعها في الجمعة الأخرى .

قال العلامة ابن حجر في « الصواعق » : إن جملة ما أعتقه عثمان رضي الله عنه ألفان وأربعمئة .

ومن تواضعه أنه كان يردف غلامه خلفه أيام خلافته ولا يعيب ذلك ، وكان يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة من أوله ، وكان يختم القرآن كل ليلة في صلاته ، وكان كثيراً ما يختمه في ركعة ، وكان إذا مَرَّ على المقبرة يبكي حتى تبتل لحيته ، وكان من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن أصحاب النبي ﷺ ، توفي وهو عنهم راض ، وكان من السابقين للإسلام ، فإنه أسلم بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة ، وشهد له النبي ﷺ بالجنة والزهد في الدنيا ، فقد صَحَّ عنه ﷺ أنه قال : « رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك » .

وكثرت الفتوحات في زمن خلافته ، فقد فتح في زمنه إفريقية وسواحل الأردن وسواحل الروم وإصطخر وفارس وطبرستان وسجستان وغير ذلك ، وكثرت أموال الصحابة في خلافته حتى بيعت جارية بوزنها وفرس بمئة ألف ونخلة بألف .

وعن الحسن البصري قال : كانت الأرزاق في زمن عثمان وافرة وكان الخير كثيراً .

وأصاب الناس مجاعة في غزوة تبوك فاشترى طعاماً يصلح العسكر .

وأخرج أبو يعلى عن جابر أن النبي ﷺ قال : « عثمان بن عفان وليي في الدنيا والآخرة » .

وأخرج ابن عساكر عن جابر عن النبي ﷺ قال : « عثمان في الجنة » وقال : « لكل نبي خليل في الجنة وإن خليلي عثمان بن عفان » وفي رواية « لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي فيها عثمان بن عفان » وقال ﷺ : « ليدخلنَّ بشفاعة عثمان سبعونَ ألفاً ، كلُّهم استحقّوا النارَ ، الجنَّةَ بغير حساب » .

وأخرج أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه : « أول من هاجر إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان ، فقال رسول الله ﷺ : « صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر إلى الله تعالى بأهله بعد لوط عليه السلام » .

ولما زوّج النبي ﷺ بنته أم كلثوم لعثمان قال لها : « إن بعلك لأشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد ﷺ » وقال : ﷺ : « أشد أمتي حياءً عثمان بن عفان » وقال ﷺ : « إن الله أوحىٰ إليَّ أن أزوّجَ كريمتيّ » ، يعني : رقية وأم كلثوم ، من عثمان » وقال ﷺ : « إنّ عثمان حييٌّ تستحيي منه الملائكة » وقال ﷺ : « إنما يشبّه عثمان بأبينا إبراهيم » وقال ﷺ : « ما زوّجت عثمان بأم كلثوم إلا بوحي من السماء » وقال ﷺ لعثمان : « يا عثمان هذا جبريلُ يخبرني أنّ الله زَوَّجَك أمَّ كلثومٍ بمثل صَدَاقِ رُقَيةَ وعلى مثل صحبتها » .

وأخرج الترمذي عن عبد الرحمن بن خباب قال : شهدت النبي ﷺ وهو يحثّ على جيش العُسْرة ، فقال عثمان بن عفان : يا رسول الله عَلَيّ مئةُ بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حض على الجيش فقال عثمان : يا رسول الله عليّ ثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فنزل رسول الله ﷺ وهو يقول : « ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » .

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العُسْرة فنثره في حجره ، فجعل رسول الله ﷺ يقلبها ويقول : « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم » وفي رواية عن حذيفة رضي الله عنه أنها عشرة آلاف دينار ، فجعل النبي ﷺ يقلبها ويقول : « غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ما يبالي عثمان ما عمل بعدها » .

وأخرج الواحدي أن الله أنزل بسبب ذلك في حق عثمان ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : ارتقبت النبي ﷺ ليلة من أول الليل إلى أن طلع الفجر يدعو لعثمان بن عفان يقول : « اللهمّ عثمان بن عفان رضيت عنه فارضَ عنه » فما زال رافعاً يديه حتى طلع الفجر .

وأخرج البغوي عن جابر بن عطية قال : قال رسول الله ﷺ : « غفر الله لك يا عثمان ما قدّمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت وما هو

كائن إلى يوم القيامة » .

وأخرج الإمام أحمد عن أم عمر بنت حسان وكانت امرأة صدق قالت : سمعت أبي يقول إن عثمان جهز جيش العسرة مرتين ، ولما أمر ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمانُ رسولَ النبي ﷺ إلى مكة ، فبايع الناس ، فقال النبي ﷺ : « إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله » فضرب بإحدى يديه على الأخرى نيابة عنه ، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

وأخرج الترمذي عن عمر قال : « ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال : « يُقْتل فيها هذا مظلوماً » لعثمان رضي الله عنه .

وأخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه عن مرة بن كعب قال : « سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة يقربها ، فمرَّ رجل مقنَّع في ثوب فقال : هذا يومئذٍ على الهدى ، فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان ، فأقبلت إليه بوجهي ، فقلت : هذا ؟ قال : نعم » .

وأخرج الترمذي أن النبي ﷺ قال لعثمان : « إن الله مُقَمّصك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعها حتى تلقاني » فلما حصره المنافقون وأرادوا منه أن يخلع نفسه امتنع لهذا الحديث ، وقال : إن رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهداً فأنا صابر عليه » .

وروى الحاكم عن أبي هريرة قال : اشترى عثمان الجنة من النبي مرتين : حين حفر بئر رومة ، وحين جهز جيش العسرة ، ولما قدم النبي ﷺ المدينة لم يكن بها ماء مستعذب غير بئر رومة ، فقال ﷺ : من يشتري بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة» فاشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم وجعلها للمسلمين .

وكانت بقعة إلى جانب المسجد ، فقال النبي ﷺ : « من يشتريها ويوسعها في المسجد فله مثلها في الجنة » فاشتراها عثمان بعد ذلك فوسعها في المسجد .

وقال ﷺ : « رحم الله عثمان تستحييه الملائكة ، وجهز جيش العسرة وزاد في مسجدنا حتى وسعنا » .

وعن أبي الفرات قال : كان لعثمان عبد فقال له يوماً : إني كنت عركت أذنك

فاقتصَّ مني وألزمه أن يفعل ، فأخذ بأذنه ثم قال : قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة .

وصَحَّ عنه ﷺ : « أنه وزن إيمان عثمان بإيمان الأمة فرجحهم » .

وأخرج الطبراني عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال : « رأيت أني وضعت في كفة وأمتي في كفة فعدلتها ، ثم وضع أبو بكر في كفة وأمتي في كفة فعدلها ، ثم وضع عمر في كفة وأمتي في كفة فعدلها ، ثم وضع عثمان في كفة وأمتي في كفة فعدلها » .

وأخرج ابن عساكر عن عائشة قالت : والله ما قال أبو بكر شعراً قط في جاهلية ولا إسلام ، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية ، وأخرج أبو نعيم أن رسول الله ﷺ قال لعصمة بن مالك : « إذا أنا متُّ وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت » . وروى ابن عساكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « القائم بعدي في الجنة والذي يقوم بعده في الجنة والثالث والرابع في الجنة » .

وروى ابن عساكر أيضاً عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « أربعةٌ لا يجتمع حبُّهم في قلب منافق ولا يحبهم إلا مؤمن : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي » .

وأتى ﷺ مرة لجنازة رجل فلم يصلِّ عليها فقيل له : يا رسول الله ما نراك تركت الصلاة على أحد قبل هذا . فقال : « إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله عز وجل » .

وروى الإمام أحمد والبخاري وغيرهما عن أنس قال : صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أُحُداً فَرَجَفَ بهم فضربه النبي ﷺ برجله وقال : « اُثْبُتْ أُحُدُ فإنما عليك نبي وصِدّيقٌ وشهيدان » وتكرر مثل ذلك وهو على حراء وعلى ثبير .

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قَبضَ حصيات فسبَّحْنَ في يده حتى سُمِعَ لهنَّ حَنينٌ كحنين النحل ، ثم ناولهن أبا بكر فسبَّحْن في يده وكذا في يد عمر وعثمان ، ثم دفعهن إلينا ، فلم يسبّحن مع أحد منا .

وقال ﷺ : « إن الله افترض عليكم حُبَّ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما افترض عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منهم الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج » .

وقال ﷺ لأبي موسى : « بَشِّرْ عثمانَ بالجنة على بلوىً تصيبه » فلما أخبره قال : الله المستعان .

وروى الشافعي بسنده أن رسول الله ﷺ قال : « كنت أنا وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أنواراً عن يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألف عام » .

وأصاب الناس مجاعة في خلافة أبي بكر فجاءت عيرٌ من الشام لعثمان تحمل بُرّاً وزبيباً ، وكانت ألف بعير فأعطاه التجار لكل درهم خمسة دراهم ، فقال : إن الله أعطاني لكل درهم عشرة ، أشهدكم أني جعلت ما حملتْ هذه العيرُ صدقةً لله تعالى .

قال الزهري : كان عثمان أحبَّ إلى قريش من عمر بن الخطاب ، لأن عمر كان شديداً عليهم ، فلما وليهم عثمان لانَ لهم ووصلهم ، وكان عثمانُ حليماً سخياً محبباً إلى قريش حتى كان يقال أحبّك الرحمن حب قريش لعثمان ، وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً ، فقال له يوماً : قَدْ تهيّأ مالُك فاقبضه ، قال : هو لك معونة على مروءتك ، وكان شديد الشفقة على رعيته ، قال سليمان بن موسى : دُعِيَ عثمانُ إلى قوم كانوا على أمر قبيح ، فخرج إليهم فوجدهم قد تفرقوا ورأى أمراً قبيحاً ، فحمد الله إذ لم يصادفهم وأعتق رقبة كفارة لقيامه وخروجه ، وكان شديد الخوف من الله تعالى ، فكان إذا مر بقبر يبكي حتى تبتلّ لحيته ، وكان يقول : يا ليتني إذا مت لم أُبعثْ .

وقال رسول الله ﷺ : « يا عثمان إنك ستبتلىٰ بعدي فلا تقاتلْ » وقال رسول الله ﷺ : « يَوْمَ يموتُ عثمان يصلي عليه ملائكة السماء » .

ودخل عثمان على رسول الله ﷺ ، وكانت ركبته ﷺ باديةً فغطّاها ، فقيل له : دخل عليك أبو بكر وعمر وعلي فلم تغطها ، فقال رسول الله ﷺ : « إني لأستحيي ممن استحيت منه الملائكة » .

وكان رضي الله عنه يقال له ذو النورين ؛ لأنه تزوّج بنتي رسول الله ﷺ ، ولم يعلم أحدٌ أرسل سِتراً على ابنتي نبي غيره ، زوّجَهُ ابنته رقية ، فلما ماتت زَوّجهُ أمَّ كلثوم ، فلما ماتت قال : « لو كان عندي ثالثة لَزَوَّجْتُكَها » .

وعن علي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنَّ لي أربعين بنتاً لزوَّجْتُ عثمان واحدة بعد واحدة ، حتى لا يبقىٰ منهنَّ واحدةٌ » .

وقال ﷺ : « إنما يشبه بأبينا إبراهيم عليه السلام » ، وعن زيد بن ثابت قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَرَّ بي عثمان وعندي مَلَكٌ من الملائكة ، فقال : شهيد يقتله قومُه إنا نستحيي منه » وفي رواية عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الملائكة تستحيي من عثمان كما تستحيي من الله ورسوله » .

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « يُقْتَلُ هذا مظلوماً » وأشار إلى عثمان .

وروى ابن عساكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لله سيفاً مغموداً في غمده ما دام عثمان حياً ، فإذا قُتل عثمان جُرِّدَ ذلك السيفُ فلم يُغْمد ذلك السيف إلى يوم القيامة » .

وفي الشِّفا للقاضي عياض أنه ﷺ قال : « يُقْتَل عثمان وهو يقرأ في المصحف وأن الله عسى أن يُلْبِسَهُ قميصاً ، وأنهم يريدون خلعه وأنه يسيل دمُه على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة : ١٣٧] » ولما حصروه استأذنه جماعة من الصحابة أنهم يقاتلونهم فأبىٰ ، وممن استأذنه ليقاتلهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وأبو هريرة ، فامتنع أن يأذن لهم ، وكان يلعن قتلة عثمان ويقول : اللهمَّ إني أَبْرَأُ إليك من دم عثمان ، ولقد طاش عقلي يوم قُتل عثمان . وكان علي يقول أيضاً : والله الذي لا إله إلا هو ما قتلت عثمان ولا مالأت ولقد نهيت فعصوني .

. وعن عبد الله بن عمر قال : كنت مع عثمان يوم الدار فقال : اعزم على كل من رأى أنَّ لي عليه سمعاً وطاعة أن يكف يده ويلقي سلاحه ، فألقى القومُ أسلحتهم .

وقال سمرة : إن الإسلام كان في حصن حصين وإنهم ثلموا في الإسلام ثلمة عظيمة بقتلهم عثمان لا تنسدُّ إلىٰ يوم القيامة .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن مهدي قال : خَصْلَتان لعثمانَ ليستا لأبي بكر ولا لعمر : صَبْرُه على نفسه حتى قتل ، وجَمْعُهُ الناس على المصحف ، وكان له عبيد عشرون حملوا السلاح ليقاتلوا عنه يوم حصره ، فمنعهم وقال : من ألقى السلاح فهو حر لوجه الله تعالى ، فامتنعوا عن القتال وألقوا السلاح ، ولما قتل فتشوا خزائنه فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه فوجدوا فيه حُقَّةً فيها ورقة مكتوب فيها : هذه وصية عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن

الجنة حق وأن النار حق وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحيا وعليها نموت وعليها نُبعث إن شاء الله من الآمنين .

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لما بويع عثمان بايعنا خير من بقي .

وعن يزيد بن أبي حبيب قال : بلغني أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان وحاصروه جنوا .

وعن حذيفة أن أول الفتن قتلُ عثمان وآخرُ الفتن خروجُ الدجال ، والذي نفسي بيده لا يموت رجل في قلبه مثقال حبة من حب قتلة عثمان إلا اتبع الدجال إن أدركه وإن لم يدركه آمن به في قبره .

وعن ابن عباس قال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لَرُمُوا بحجارة من السماء . وقال ابن عباس أيضاً : لو أمطرت السماء دماً لِقَتْل عثمان لكان قليلاً له . وكان ابن عباس يقول ليغلبن معاوية وأصحابه علياً وأصحابه ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء : ٣٣] وكان آخر خطبة خطبها عثمان : أيها الناس إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، فلم يعطكموها لتركنوا إليها ، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، لا تبطرنّكم الفانية ولا تشغلكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله فإن تقواه جُنّة من بأسه ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغيرة ، والزموا جماعتكم ولا تكونوا أُحْداناً : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] قال عبد الله بن سلام : أتيت أخي عثمان وهو محصور لأسلم عليه ، فدخلت عليه فقال : مرحباً بأخي رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت ، فقال : يا عثمان حصروك ؟ قلت : نعم ، قال : عَطَّشوك ، قلت : نعم ، فأدلىٰ إليَّ دلواً فيه ماء فشربت حتى رويت ، حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي ، قال لي : إن شئت نُصِرْتَ عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترت أن أفطر عنده ، فقتل ذلك اليوم ، وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشحّط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا : سمعناه يقول : اللهمَّ اجمعْ أمةَ محمد ثلاثاً .

فقال ابن سلام : والذي نفسي بيده لو دعا الله ألّا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة .

وعن ثمامة بن حزن القشيري قال : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ، فقال : أشهدكم بالله والإسلام وهل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال : « من يشتري رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة » فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ، قالوا : اللهمَّ نعم .

قال : أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي ؟ قالوا : نعم ، قال : أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ : « من يشتري بقعةَ آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة » فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين ، قالوا : اللهمَّ نعم . قال : أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرّكَ الجبلُ حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال : فركضه برجله وقال : « اسكُنْ ثبير فما عليك إلا نبيٌّ وصِدّيق وشهيدان » قالوا : اللهم نعم . قال : الله ، وكم شهدوا لي ورب الكعبة إني شهيد .

وروي عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضُرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهمَّ إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري ، وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

قال المحب الطبري في الرياض النضرة : إن الشيعة اختلقوا أشياء جعلوها طَعْناً في عثمان وهو بريء منها ، فمنها قالوا : إنه زوّج ابنه بابنة الحارث بن الحكم وأعطاه مئة ألف من بيت المال ، فقد كذبوا في ذلك فإنه إنما أعطى ذلك من ماله لا من بيت المال وهو مشهور بالغنى قبل أن يلي الخلافة ، وقالوا أيضاً : أنكح ابنته أم أبان من مروان وأعطاها مئة ألف من بيت المال ، وذلك أيضاً كذب محض ، بل إنما كان ذلك من ماله ، وقالوا أيضاً : إنه أعطى الحارث بن الحكم عشور أسواق المدينة ، وذلك غير صحيح ، وإنما الصحيح أن الحارث المذكور جعله عثمان محتسباً على السوق ليحافظ

على الأسواق كيلا يقع التطفيف والخيانة والجور في المكاييل والموازين ، فقام بالأمر يومين أو ثلاثة ، فاشتكى أهل المدينة منه وقالوا إنه كان يشتري النوى ويمنع غيره من شرائه فلا يحصل من النوى شيء ، لإبل المسلمين ، فعزله عثمان فوراً ووبخه ، وأي عيب يعود إلى عثمان من ذلك ، بل هو عين الإنصاف والعدل ، فإن عزله له كان بمجرد سماع الشكاية مع أنه من قرابته ، وعابوا عليه أيضاً أنه وَلَّىٰ بعض أقاربه ولايات ، وذلك لا يعاب عليه فيه ، لأنه كان باجتهاد منه وطلباً لإظهار العدل ، لأنه رأى أن أقاربه يعينونه على إظهار العدل وإقامة الحق ، وهكذا جميع الأشياء التي عابوه بها كلها كانت باجتهاد منه وله فيها أعذار ومخارج تدل على أنه إنما أراد بذلك العدل وإظهار الحق ، وكلها مبسوطة في كتب أهل السنة .

ولما حَصَرَهُ المنافقون وقتلوه بايع الناس بعده عليّ بن أبي طالب وبايعه أيضاً القوم الذين حصروا عثمان وقتلوه ، فوقعت الفتنة بين الصحابة لذلك ، فقال الذين امتنعوا من بيعته لا نبايعك حتى تعطينا قتلة عثمان نقتص منهم ، فقال علي : بايعوني أولًا ، ثم بعد ذلك نتتبع قتلة عثمان ، فمن ثبت عليه شرعاً موجب القصاص نقتص منه ، وأما الاقتصاص منهم قبل دخولكم في البيعة فإنه عَسِرٌ جداً ، لأن لهم قبائل وعشائر يتعصبون لهم ، فتنتشر الفتنة وتزداد .

هذا هو السبب في الاختلاف الذي وقع بينهم فنشأ عنه وقعة الجمل ووقعة صفين ، وتمسك كل من الفريقين بحجج وأدلة ، وتعارضت الأدلةُ عند بعضهم فاعتزلوا الفريقين منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن سلمة والمغيرة بن شعبة ، وبقي الأمر متَشبهاً بين الناس إلى زمن الأئمة الأربعة ، فنظروا في الحجج والأدلة التي تمسّك بها كل فريق ، فظهر لهم واتضح تصويب اجتهاد علي وتخطئة اجتهاد غيره ، لكن لما كان ذلك الخطأ ناشئاً عن اجتهاد لم يأثموا به لقول النبي ﷺ : « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد » فلا سبيل إلى الحكم بتأثيم أحد منهم ، فلذلك كان مذهب أهل السنة السكوت عما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم وتأويله وحمله على أحسن المحامل تحسيناً للظن بهم ، لأن الله تعالى أثنى عليهم وشهد لهم بالصدق وأخبر بأنهم رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وكذلك جاء عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة ، فالقدحُ فيهم يوجب تكذيب الآيات

القرآنية والأحاديث النبوية ، ويوجب أيضاً الحكم عليهم بالفسق ، فيستلزم ذلك إسقاط ما جاء عنهم من السنة والتشريع الذي نقلوه عن النبي ﷺ ، فيستلزم ذلك إبطال الشريعة بخلاف ما إذا حمل ما وقع منهم على الاجتهاد الذي لا إثم فيه ، فمذهب أهل السنة هو المذهب الحق الذي من عدل عنه فقد زاغ وضل ، ومن تمسك به فقد نجا ، ومما يؤيد مذهب أهل السنة أن علياً سأله أبو سلامة الدلاني عن القوم الثائرين لطلب قتلته ، فقال : أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا هذا من الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك ؟ قال : نعم ، وقال : أفترى لك حجة بتأخير ذلك ؟ قال : نعم إن الشيء إذا كان لا يدرك أن الحكم فيه أحوطه وأعمه نفعاً ، قال : فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً ؟ قال : إني لأرجو ألَّا يُقْتل منا ومنهم أحدٌ نقي قلبه لله إلا أدخله الله الجنة .

واستشهد سيدنا عثمان لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ ، يوم الجمعة ، وقيل كان قتله أيام التشريق ، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثنتي عشر يوماً ، وكان عمره ٨٢ سنة ، وقيل ٨٨ ، وقيل ٩٠ ، وقصة حصاره وقتله طويلة مبسوطة في التواريخ لا حاجة لنا بذكرها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما كان لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الاقتصاد في الدنيا وحسن السيرة

كان علي رضي الله عنه شديد الزهد في الدنيا ، بل قال عمر بن عبد العزيز : إن علي بن أبي طالب كان أزهد أصحاب النبي ﷺ في الدنيا ، وكذا قال سفيان بن عيينة ، وكان رضي الله عنه عادلاً في بيت المال لا يأخذ منه إلا بقدر حاجته ، وقد شهد له النبي ﷺ بالزهد في الدنيا وأن الله زيَّنه بذلك ، فقد روى عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال لعلي : « إن الله قَدْ زَيَّنَكَ بزينةٍ لم يُزَيِّنِ العبادَ بزينةٍ أحبَّ منها هي زينةُ الأبرارِ عند الله تعالى الزهد في الدنيا ، فجعلك لا ترزأ من الدنيا ولا الدنيا ترزأ منك شيئاً ، وحبب إليك المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً » .

وأخرج الإمام أحمد عن علي بن أبي ربيعة أن علياً جاءه ابن التياح ، فقال : يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء ، فقال : الله أكبر ، ثم قام متوكئاً على ابن التياح حتى قام على المال ، فنودي في الناس فأعطى جميع ما في بيت المال وهو يقول : يا صفراء يا بيضاء غرّي غيري ها وها ، حتى ما بقي منه دينار ولا درهم ، ثم أمر بنَضْحِه وصلى ركعتين .

وفي رواية رواها الإمام أحمد أيضاً أن علياً دخل بيت المال فرأى فيه شيئاً فقال : لا أرى هذا ههنا وبالناس إليه حاجة ، فأمر به فقسم وأمر بالبيت فكنس ، ثم نضح فصلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة .

وكان أبو رافع مولى رسول الله ﷺ خازناً لعلي على بيت المال قال : فدخل عليّ يوماً وقد زَيّنت ابنته فرأى عليها لؤلؤة كان قد عرفها لبيت المال ، فقال : من أين لها هذه لأقطعَنَّ يدها ؟ فلما رأى أبو رافع جِدَّهُ في ذلك قال : أنا والله يا أمير المؤمنين زينتها بها ، فقال : لقد تزوجتُ بفاطمة ومالي ولها فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ومالي خادم غيرها .

وقال هارون بن عنترة عن أبيه قال : دخلت على علي بالخَوَرْنَق في فصل الشتاء

وعليه خلق قطيفة ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك ، فقال : والله ما أرزؤكم شيئاً وما هي إلا قطيعتي التي خرجت بها من المدينة .

وقال يحيى بن سلمة : استعمل عليّ عمروَ بنَ سلمة على أصبهان ، فقدم ومعه مال وزقاق فيها عسل وسمن ، فأرسلت أم كلثوم بنت علي إلى عمرو تطلب منه سمناً وعسلاً ، فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن ، فلما كان الغد خرج عليٌّ وأحضر المال والعسل والسمن ليقسم فَعُدَّ الزقاق فنقصت زقّين ، فسأله عنهما فكتمه ، وقال : نحن نحضرهما فعزم عليه إلا ذكرهما ، فأخبره ، فأرسل إلى أم كلثوم فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما فكان ثلاثة دراهم ، فأرسل إليها فأخذها منها ، ثم قسم الجميع .

وقال عاصم بن كليب عن أبيه : قدم على عليّ مالٌ من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ، ودعا أمراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطي أولاً .

وقال سفيان : إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وإن كان ليؤتي بحبوبه من المدينة في جراب من أرض تزرع له ، وأخرج يوماً سيفاً له إلى السوق فباعه وقال : لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه .

وعن أبي حيان التيمي عن أبيه قال : سمعت علي بن أبي طالب ورأيته وهو يقول على المنبر : من يشتري مني سيفي هذا ، فلو كان معي ثمن إزار ما بعته ؟ فقام إليه رجل فقال : أسلفتك ثمن إزار ، ولعل هذه مرة أخرى غير المرة التي باع فيها سيفه بالسوق ، وكان يقول : إنما أحفظ المال للمسلمين ، وكان لا يشتري ممن يعرفه ، وإذا رأى قميصاً قدر كمه على طول يده وقطع الباقي ، ويقول : الحمد لله الذي كساني هذا من فضله .

وعن عبد الله بن أبي الهذيل قال : رأيت علياً خرج وعليه قميص غليظ ، إذا مَدَّ كُمَّ قميصه بلغ إلى الظفر ، وإذا أرسله صار إلى نصف الساعد .

وفي رواية : رأيت علي بن أبي طالب يخرج من مسجد الكوفة وعليه قطريان متزر

بواحد ومرتد بالآخر وإزاره إلى نصف الساق وهو يطوف بالأسواق معه درة يأمرهم بتقوى الله وصدق الحديث وحسن البيع ووفاء الكيل .

وعن أبي سعيد الأزدي قال : رأيت علي بن أبي طالب في السوق وهو يقول : مَنْ عنده قميص يباع بثلاثة دراهم ؟ فقال رجل : عندي ، فجاء به فأعجبه ، ثم لبسه فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه فأمر به فقطع ما يفضل من أصابعه .

وعن ابن عباس قال : اشترى علي بن أبي طالب قميصاً بثلاثة دراهم وهو خليفة ، فقطع كُمه من وضع الرسغين .

وعن أمّ سلمة وقد سئلت عن لباس علي ، فقالت : كان لباسه الكرابيس السيلانية . والكرابيسُ ثيابٌ غليظة من القطن وغيره .

وعن زيد بن وهب أن الجعد بن بعجة عاتب عَلياً في ملبوسه فقال : مالك ولملبوسي ، هذا أبعدُ من الكبر وأجدرُ أن يقتدي به المسلم .

وقيل لعلي لِمَ ترفع قميصك ؟ قال : يخشع القلب ويقتدي به المؤمن .

وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول : لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم .

وقال الشعبي : وجد عليٌّ درعاً له عند نصراني ، فأقبل به إلى قاضيه شريح وجلس إلى جانبه وقال : لو كان خصمي مسلماً لساويته في المجلس ، وقال : هذه درعي ، فقال النصراني : ما هي إلا درعي ، ولم يكذب أمير المؤمنين ، فقال شريح لعلي : ألك بينة ؟ قال : لا ، وهو يضحك ، وقيل إنه استشهد بابنه الحسن ومولاه قنبر فلم يقبل شريح شهادتهما لكون الحسن ابنه وقنبر مولاه ، فأخذ النصراني الدرع ومشى يسيراً ، ثم عاد وقال : إن هذه أحكام الأنبياء أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه ، وقاضيه يقضي عليه ، ثم أسلم واعترف أن الدرع سقط من علي عند مسيره إلى صفّين ، ففرح علي بإسلامه ووهب له الدرع وفرساً وشهد معه قتال الخوارج .

ورؤي عليٌّ رضي الله عنه وهو يحمل في ملحفته تمراً قد اشتراه بدرهم ، فقيل له يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ فقال : أبو العيال أحق بحمله ، وفي رواية ما ينقص الكامل من كماله ما جَرَّ من نفع إلى عياله ، وصَحَّ عن النبي ﷺ مثل ذلك ، فكان

يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه ، فيقول صاحبه : أعطني أحمله ، فيقول : « صاحب الشيء أحق بحمله » .

وكان الحسن بن علي يمر وهو راكب على بغلته بالسؤال وبين أيديهم كِسَرٌ فيقولون هَلُمَّ إلى الغداء يا ابن رسول الله ، فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ، ثم يركب بغلته ، ويقول : إن الله لا يحب المستكبرين .

وقال الحسن بن صالح : تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز ، فقال عمر : أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب .

وكان يقول لعمر بن الخطاب إن أردت أن تلحق بصاحبيك فأقصر الأمل وكُلْ دون الشبع وارقع القميص والبس الإزار واخصف النعل تلحق بهما .

ولما سئل في خلافة عمر عما يستحقه الخليفة في بيت المال فقال : ما يشبعه وأهله غداء وعشاء ، وما يكسوه وأهله صيفاً وشتاء من أوسط القوت والكسوة لا من أعلاها ولا من أدناها ، فعمل عمر بما قال علي ، فلما صارت الخلافة لعلي عمل بذلك أيضاً .

وأخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن زرير قال : دخلت على علي بن أبي طالب وهو أمير المؤمنين يوم عيد الأضحى فقرب لنا خزيرة فقلت : أصلحك الله لو قربت لنا من هذا البط يعني الإوز ، فإن الله قد كثر الخير ، فقال : يا ابن زرير ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحلُّ الخليفة من مال إلا قصعتان قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدي الناس » والخزيرة لحم يقطع صغاراً على ماء كثيرة فإذا نضج ذُرَّ عليه الدقيق ، فإن لم يكن فيه لحم فهو الصعيد .

وعن زاذان قال : رأيت علياً وهو أمير المؤمنين يمشي في الأسواق فيمسك الشسوع بيده فيناول الرجل الشسع ويرشد الضال ويعين الحمال على الحمولة وهو يقرأ هذه الآية ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ثم يقول : هذه الآية نزلت في ذوي القدرة من الناس .

وعن أبي مطر البصري أنه شهد علياً أتى صاحب تمر وجارية تبكي عند التمار فقال : ما شأنك ؟ فقالت : باعني تمراً بدرهم فرده مولاي فأبى أن يقبله ، فقال :

يا صاحب التمر خذ تمرك وأعطها درهمها فإنها جارية وليس لها أمر ، فدفع علياً ، فقال المسلمون : أتدري لمن تدفع ؟ قال : لا ، قالوا : أمير المؤمنين ، فصبَّ تمرها وأعطاها درهمها ، وقال لعلي : أحبّ أن ترضى عني ، فقال : ما أرضاني عنك إذ دفعت للناس حقوقهم . رواه الإمام أحمد كالذي قبله .

وكان علي يقسم بيت المال في كل جمعة حتى لا يبقي منه شيئاً ، ثم يرش له ويصلي فيه ، ثم يقيل فيه ، وكان إذا دخل بيت المال ونظر إلى ما فيه من الذهب والفضة يقول : يا بيضاء يا صفراء غِرّي غيري قَدْ طَلَّقْتُكِ ثلاثاً .

وأُتي بفالوذج فَوُضِع قدامه فقال : إنه لطيب الريح حسن اللون طيب الطعم ولكني أكره أن أُعَوّد نفسي ما لم تعتد ، ولم يأكل منه .

وقصةُ مفارقة أخيه عقيل له ولحوقُه بمعاوية مشهورة رواها كثير من المحدثين بألفاظ متقاربة ، ففي رواية أنه كان يعطيه من الشعير كل يوم ما يكفي عياله ، فاشتهى عليه أولاده مريساً فصار يوفر كل يوم شيئاً قليلاً حتى اجتمع عنده ما اشترى به سمناً وتمراً وصنع لهم ، فدعوا علياً إليه ، فلما جاء وقدم له ذلك سأل عنه فقصوا عليه ذلك ، فقال : أوكان يكفيكم ذاك بعد الذي عزلتم منه ؟ قالوا : نعم ، فنقص مما كان يعطيه مقدار ما كان يعزل كل يوم وقال : لا يحلُّ لي أن أزيدك من ذلك ، فغضب عقيل فحمى له حديدة وقربها من خده وهو غافل فتأوه فقال : تجزع من هذه وتعرضني لنار جهنم ؟ فقال : أذهب إلى من يعطيني براً ويطعمني تمراً ، فلحق بمعاوية وقد قال معاوية يوماً : لولا علم يأتي خير له من أخيه ما أقام عنده وتركه ، فقال له عقيل : أخي خير لي في ديني وأنت خير لي في دنياي وقد آثرت دنياي وأسأل الله خاتمة خير .

وأخرج ابن عساكر أن عقيلاً سأل علياً فقال : إني محتاج وإني فقير فأعطني ، قال : اصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين فأعطيك معهم ، فألحَّ عليه ، فقال علي لرجل : خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق ، فقال له : دق على هذه الأقفال وخذ ما في هذه الحوانيت ، فقال عقيل : تريد أن تتخذني سارقاً ، فقال علي : وأنت تريد أن تتخذني سارقاً أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم ، قال : لآتينَّ معاوية ، قال : أنت وذاك ، فأتى معاوية فسأله فأعطاه مئة ألف ، ثم قال : اصعد المنبر فاذكر ما أولاك به علي وما أوليتك ، فصعد فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها

الناس إني أخبركم أني أردت معاوية على دينه فاختارني على دينه ، وفي رواية أن عقيلاً رضي الله عنه لزمه دَيْنٌ فقدم على علي رضي الله عنه بالكوفة فأنزله وأمر ابنه الحسن فكساه ، فلما أمسى دعا بعشائه فإذا خبز وملح وبقل ، فقال عقيل لعلي رضي الله عنه : ما هو إلا ما أرى ؟ فقال : علي ما هو إلا ما ترى ، قال : أتقضي ديني ؟ قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفاً ، قال علي : ما هي عندي ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فأدفعه إليك ، فقال له عقيل : بيوت المال بيدك وأنت تسوفني بخروج عطائك ، قال : أفتأمرني أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد ائتمنوني عليها ، قال : فإني آتي معاوية ، فأذن له ، فأتى معاوية فأعطاه خمسين ألفاً ، ثم خمسين ألفاً حتى كَمُلَت مئة ألف ، وجلس أياماً عند معاوية ثم رجع إلى أخيه علي ، وحضر مع معاوية في وقعة صفين ولم يقاتل ولم يترك نصح أخيه والتعب له ، وكان سريع الجواب ، روي أن معاوية قال يوم صفين : لا نبالي وأبو يزيد معنا يعني عقيلاً ، فقال له عقيل : وقد كنت معكم يوم بدر فلم أغن عنكم من الله شيئاً ، وله في سرعة الجواب أخبار كثيرة .

وكان عليٌّ بعد نهب الدار عند مقتل عثمان يتحرى في مَأْكَلِه غاية التحري خوفاً من أن يدخل في بطنه حرام ، فكان لا يأكل طعاماً إلا مختوماً حذراً من الشبهة ، وكان علي يقول : أتدرون على مَنْ حُرِّمَتِ النارُ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : على الهيّن واللين السهل ، وكان يقول : ومن موجبات الغفران بذل السلام وحسن الكلام .

ودخل رسول الله ﷺ على علي رضي الله عنه وهو مريض فقال له : « قُلْ اللهمَّ إني أسألك تعجيل عافيتك أو صبراً على بليتك أو خراجاً من الدنيا إلى رحمتك ، فإنك ستُعْطىٰ إحداهن » .

ورأى عليٌّ مرة رجلين يقتتلان ففرق بينهما ، ثم مضى فسمع صوتاً يا غوثاه فصعد الصوت وهو يقول : أتاك الغوث ، فإذا رجل يلازم رجلاً ، فقال : يا أمير المؤمنين بِعْتُ هذا ثوباً بسبعة دراهم وشرطت عليه ألّا يعطيني مغموزاً ولا مقطوعاً ، وكان ذلك شرطهم يومئذ ، فأتاني بهذه الدراهم فأبيت ولزمته فلطمني ، فقال للّاطم : ما تقول ؟ فقال : صدق يا أمير المؤمنين قال : أعطه شرطه ، فأعطاه وقال للمظلوم : اقتصَّ ، قال : أو عفوٌ يا أمير المؤمنين ، قال : ذاك إليك ، ثم قال : يا معشر المسلمين خذوه فحمل ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتب ثم ضربه خمس عشرة درة وقال : هذا نكال

لما انتهكت من حرمته ، وكان يقول : لا شيء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورفقه ، ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه ، وكان يقول : أَصِبِ المعروف في أهله وفي غير أهله ، فإن أصبتَ أهلَه فهو أهل ، وإن لم تصب أهله فأنت من أَهله ، وقال رضي الله عنه : رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر ، وقال علي : شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح ، فأوحى الله إليه يا يحيى وجدت داراً خيراً لك من داري أو وجدت جواراً خيراً لك من جواري ؟ فوعزتي وجلالي يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقاً ، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بدل الدموع ولبست الجلد بدل المسوح .

وقال علي : إن الله أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزرى بهم الفقير ، ولما عوتب في خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم ، وقال : إن لله تعالى عباداً ليسوا بالمتنعمين .

ورؤي فضالةُ بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافياً ، فقيل له : أنت الأمير وتفعل هذا ؟ فقال : نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاه وأمرنا أن نحتفي .

وقال علي : إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكّس الإزار واخْصُف النعلَ وكُلْ دون الشبع ، وقال : اخشوشنوا وإياكم وزِيَّ العجم وكسرى وقيصر ، وقال : مَنْ تزيّا بزي قوم فهو منهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إنَّ من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام » .

وكان علي أصغر أولاد أبي طالب الأربعة في السن وأفضلهم قدراً وهم : طالب وعقيل وجعفر ، كان طالب أسن من عقيل بعشر سنين ، وكان عقيل أسن من جعفر بعشر سنين ، وجعفر أسن من علي بعشر سنين ، وبعضهم قَدَّم جعفراً على عقيل ، فقال إن جعفر أسن من عقيل بعشر سنين ، أما علي وجعفر وعقيل وأختاهم فاختة وحُمانة وقيل جمانة بالجيم وكلهم لأم وأب ، أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وأبوهم أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وفاختة اسمها هند وتكنى بأم هانىء أسلمت وهاجرت وكان زوجها أبو وهب هبيرة بن عمرو المخزومي مات مشركاً ، وأما جمانة

فكان بعلها سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أسلمت وهاجرت وماتت بالمدينة زمن النبي ﷺ ، فلا خفاء في إسلامهم وصحبتهم النبي ﷺ ، وأما طالب فلا يعلم له إسلام ، يقال إن الجن اختطفته فذهب وكان خرج مع كفار قريش يوم بدر فلم يُعلم له خبر ، وكان علي قد أعطاه الله علماً كثيراً وكشفاً غزيراً .

قال أبو الطفيل : شهدت علياً يخطب وهو يقول : سلوني من كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أَبِلِيلٍ نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل ؟ ولو شئت أَوْقَرْتُ سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب ، وقد قال النبي ﷺ فيه : « أنا مدينةُ العِلمِ وعليٌّ بابُها ، فمن أراد العلمَ فليأته من بابه » .

وقال ابن العباس : عِلمُ رسول الله ﷺ مِنْ علمِ الله تبارك وتعالى ، وعلمُ عليّ من علم النبي ﷺ ، وعلمي من علم علي ، وما علمي وعلمُ أصحاب محمد ﷺ في علم عليّ إلا كقطرة في سبعة أبحر ، ويقال : إن عبد الله بن عباس أكثر البكاء على علي حتى ذهب بصره ، وقال ابن عباس أيضاً : لقد أُعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم ، وَآيْمُ الله لقد شارك الناس في العشر العاشر ، وكان معاوية يسأله ويكتب له فيما ينزل به ، فلما توفي علي قال معاوية : لقد ذهب الفقه والعلم بموت علي بن أبي طالب ، وكان عمر بن الخطاب يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن ، وسئل عطاء أكان في أصحاب محمد ﷺ أحد أعلم من علي ؟ قال : لا والله ما أعلمه .

وفضائله كثيرة قد جمعها الناس ودونوها وأَجْمعُها لنعته ما وصفه به ضرار الصدائي إذْ قال له معاوية : صِفْ لي علياً ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفنه . قال : أمّا إذْ لا بد من وصفه فكان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلًا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير العبرة طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألنا وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلّمه هيبةً له ، يعظم الدين ويقرب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف مِّن عدله ، أشد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله قابضاً لحيته ، يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول : يا دنيا غِرّي غيري إليّ تعرضتِ أم إليّ تشوّفتِ هيهات قد باينتك

ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير عَليّ وخطرُكِ قليل ، آه من قلة الزاد وبُعْد السفر ووحشة الطريق ، فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزني حزنُ مَنْ ذُبح ولدُها في حِجْرها .

وسئل الحسن البصري عن علي بن أبي طالب ، فقال : كان علي والله سهماً صائباً من مرامي الله عَزّ وجل ربانيّ هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها وذا قرابتها من رسول الله ﷺ ، لم يكن بالنُّومة عن أمر الله ولا باللومة في دين الله ولا بالسرقة في مال الله ، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة ، ذاك علي بن أبي طالب وأُعِزّ من مدحه وأُخْزِي من قدحه ، وكان لا يستأثر من الفيء بشيء بل يقسم ما في بيت المال بين المسلمين ، ثم يأمر به فيكنس فيصلي فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة ، ويكفيه فضلاً قول النبي ﷺ : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » وقوله ﷺ : « لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » ، وهو أول من صلى مع رسول الله ﷺ بعد خديجة وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وقيل ابن عشر سنين ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أقضانا عليّ رضي الله عنه ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أعلم أهل المدينة بالفرائض علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كم لعلي رضي الله عنه من تشقيق في العلوم وترقيق ، وبصرٍ بالحساب وتدقيق ، حتى كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، وكم من قضية قضاها لما بلغت إلى النبي ﷺ أمضاها ، وربما تبسّم ﷺ إذا سمعها استِصْواباً ، ثم أنفذها إذ رآها صواباً ، وكم مسألة بديعة دقيقة دَقَّقَ فيها فأتى بالعبر .

وروي عن زِرّ بن حُبيش قال : جلس رجلان يتغديان ، مع أحدهما خمسةُ أرغفة ومع الآخر ثلاثة أرغفة ، فلما وضعا الغداء بين أيديهما مرَّ بهما رجل فسلم فقالا له : اجلس للغداء ، فجلس وأكل معهما واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية ، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم وقال : خُذا هذا عوضاً عما أكلت لكما ونلته من طعامكما ، فتنازعا فقال صاحب الخمسة الأرغفة : لي خمسة دراهم ولك ثلاثة ، فقال صاحب الأرغفة الثلاثة : لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين ، فترافعا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فَقَصَّا عليه قصتهما ، فقال لصاحب الثلاثة : قد عرض عليه صاحبك ما عرض وخبزه أكثر من خبزك فارْضَ بالثلاثة ، فقال : والله لا رضيت منه إلا بمر الحق ، فقال عليّ : ليس لك في مر الحق إلا درهم واحد وله سبعة ، فقال الرجل :

سبحان الله هو يعرض عليّ ثلاثة فلم أرض وأشرت عليّ بأخذها فلم أرض ، وتقول لي الآن إنه لا يجب لي في مر الحق إلا درهم واحد ، فعرّفْني بالوجه في مر الحق حتى أقبله ، فقال علي : أليس الثمانية أرغفة أربعة وعشرين ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً ولا الأقل فتحملون في أكلكم على السواء ؟ قال : بلى ، قال : فأكلت أنت ثمانية أثلاث وإنما لك تسعة أثلاث ، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثاً أكل منها ثمانية وتبقى سبعة وأكل لك واحداً من تسعة فلك واحد وله سبعة ، فقال الرجل : رضيت الآن .

ومن كلام عليّ : أول ما يرى الحليم من بركة حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل .

وأما شجاعة علي فيكفي في إثباتها مبارزته لعمرو بن وُدّ الذي بلغ النهاية في الشهرة بالشجاعة وقتله إياه . وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن وُدّ خرج يوم الخندق فنادى هل من يبارزني ؟ فقام علي بن أبي طالب وهو مقنع بالحديد ، فقال : أنا له يا نبي الله ، فقال : « إنه عمرو اجلس » ونادى عمرو ألا رجل يبارزني وهو يؤنبهم ويقول : أين جنتكم ألا تزعمون أن من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون لي رجلاً ؟ فقام علي رضي الله عنه ، فقال : ألا أبرز يا رسول الله ، فقال : « اجلس إنه عمرو » ، ثم نادى الثالثة فقال :

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن المناجِزْ
وكذاكَ إني لَمْ أزلْ مُتَسرّعاً قبل الهزاهِزْ
إن الشجاعة في الفَتَىٰ والجودَ مِنْ خيرِ الغرائز

فقام عليٌّ فقال : يا رسول الله أنا له ، فقال : إنه عمرو ! فقال : وإن كان عَمْراً ، فَأَذِن له رسولُ الله ﷺ ، فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول :

لا تَعْجَلن فَقَدْ أتاكَ مجيبُ صوتِكَ غيرَ عاجِزْ
ذو نِيّة وبصيرةٍ والصدقُ مَنْجَى كلِّ فائِزْ
إني لأرْجُو أنْ أقيمَ عليكَ نائحةَ الجنائِزْ
مِنْ ضربةٍ نَجْلاءَ يبقىٰ ذِكرُها عِنْدَ الهزاهِزْ

فقال عمرو من أنت ؟ قال : أنا علي ، قال : ابن عبد مناف ؟ ـ وهو اسم أبي طالب ـ قال : أنا علي بن أبي طالب ، قال : غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك ، فإني أكره أن أريق دمك ، فإن أباك كان صديقاً لي ، فقال له علي : لكنني والله ما أكره أن أريق دمك ، فغضب عمرو ونزل فَسَلَّ سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو علي مُغْضَباً ، ويروى أنه ما نزل عن فرسه إلا بعد أن قال له علي رضي الله عنه : كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ ولكن انزل معي ، فنزل عن فرسه ، ثم أقبل نحوه فاستقبله علي رضي الله عنه بدرقته وضربه عمرو فيها فقدَّها ، وأثبت فيها السيف وأصاب رأس علي فَشَجّه وضربه علي رضي الله عنه على حبل العاتق فسقط وثار العجاج ، وسمع رسول الله ﷺ التكبير فعرف أن علياً قد قتله ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ وهو متهلل ، فقال عمر بن الخطاب : هَلاَّ سلبته دِرْعَهُ فإنه ليس في العرب دِرْعٌ خيرٌ منها ، فقال علي : إني حين ضربته استقبلني بسوءته ، فاستحييت أن أسلبه ، ثم خرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت الخندق ، فمن هنا لم يأخذ علي سلبه ، وقيل تنزّه عن أخذها ، وقيل إنهم كانوا في الجاهلية إذا قتلوا القتيل لا يسلبونه ثيابه ، وكذا قصته عند فتح خيبر لما قال النبي ﷺ : « لأعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، يفتح الله على يديه ليس بفرّار » فأعطاه الراية ، فكان كما قال النبي ﷺ .

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، خرجنا مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده ، فتناول عليٌّ باباً كان عند الحصن ، وكان ذلك الباب من حديد فترس به ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه وراء ظهره من يده حين فرغ ، فكان بعده عنه حين ألقاه ثمانين شبراً ، قال أبو رافع : فلقد رأيتني في نفر معي سبعة أناس منهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه .

وعن جابر أنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون .

وفي رواية البيهقي فاجتمع عليه بعده سبعون رجلاً ، فكان جهداً أن أعادوا الباب إلى مكانه .

وفي شرح المواقف قال علي : ما قلعت باب خيبر بقوة جثمانية ولكن بقوة إلهية .

وكان علي إذا استعلى الفارس قَدَّه ، وإذا اعترضه قطّه ، وكانت درعه صدراً بلا ظهر فقيل له في ذلك ، فقال : إذا وليت فلا وألت أي لا رجعت ؛ يعني أنه كان لا يولي ظهره أبداً ، والموئل المرجع .

وفي حديث آخر كانت ضربات علي أبكاراً إذا استعلى قَدَّ وإذا استعرض قَطّ ، وقوله أبكاراً يقال ضربة بِكر أي لا تثنى .

ومن شجاعته أنه يوم خيبر قتل أخا مرحب ثم مرحباً ، وكلٌّ منهما كان شجاعاً مشهوراً ، وذلك أنه بارز أوّلاً أخا مرحب فقتله ، فخرج إليه مرحب ، ولم يكن في أهل خيبر أشجع منه ولم يقدر أحد من أهل الإسلام أن يقاومه في الحرب ، وقد خرج وهو يقول :

قد علمت خيبر أني مَرْحَبُ ... شاكي السلاح بطل مجرّبُ
أضربُ أحياناً وحيناً أُضْرَبُ ... إذا الحروبُ أقبلتْ تَلَهَّبُ
إنّ حمامي للحمى لا يقربُ

وكان قد لبس درعين وتقلد سيفين واعتم بعمامتين ولبس فوقهن مغفراً وحجراً قد ثقبه قَدَّ البيضة على رأسه ، وله رمح سنانه ثلاثة أسنان ، فبرز عليٌّ كرّم الله وجهه وهو يقول :

أنا الذي سَمَّتْني أمي حَيْدَرَهْ ... ضِرغامُ آجامٍ وليثُ قَسْوَرَه

وفي رواية بدل هذا المصراع :

كليث غابات كريهِ المنظره ... عَبْلِ الذراعين غليظِ المقْصَرَهْ
أوفيهم بالصاع كيل السندره

وفي رواية : أكيلكم بالصاع كيل السندره .

قوله عَبْلُ الذراعين : أي ضخمهما ، والمقصرة : أصل العنق ، والسندرة : ضَرْبٌ من الكيل كبير واسم امرأة كانت تبيع الحنطة ، وتُوْفِي الكيل .

والنكتةُ في ارتجاز عليّ بهذا الرجز أن مرحباً كان قد رأى في المنام أن أسداً يفترسه فلعل علياً أطلعه الله رؤيا مرحب فأراد أن يقذف في قلبه الرعب ، فلما اختلط أراد

مرحب أن يضرب علياً ، فسبقه عليٌّ بالسيف ذو الفقار فترس مرحب ، فوقع السيف على الترس فَقَدَّه وقَدَّ الحجر والمغفر والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ في الأضراس ، فقتله ، ثم حمل المسلمون على الكفار وقتلوا ثمانية من رؤسائهم ، وفرّ الباقون إلى الحصن وتبعهم المسلمون ، وكان ضرار بن حمزة الصدائي من أولياء علي فكان لما تمت البيعة لمعاوية بنزول الحسن له عن الخلافة تباعد عنه معتزلاً يعبد الله تعالى ، ثم ألجأته ضرورة فوفد على معاوية[1] فقال له معاوية : صِفْ لي علياً ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، قال : أقسمت عليك لتصفَنَّهُ ، قال : كان والله بعيدَ المدى شديد القوى يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وينطق بالحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير العبرة طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربنا منه لا نكاد نكلمه هيبة له ، يعظم أهل الدين ويقرب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، أي اللديغ ، ويبكي بكاء الحزين ويقول : يا دنيا غِرّي غيري ، إليَّ تعرضتِ أَمْ إليَّ تَشَوَّفْتِ هيهاتَ هيهات قد طلَّقتُكِ ثلاثاً لا رجعةَ لي فيكِ ، فعمركِ قصير وحظك قليل ، آه آه من قلة الزاد وبُعْدِ السفر ووحشة الطريق ، فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ فقال : حزن من ذُبح ولدها في حجرها .

وسُئِل الحسن البصري عن علي فقال : كان والله سهماً صائباً من مرامي الله عزّ وجَلَّ على عدوه ، وربّانيّ هذه الأمة وذا فضلها وذا سابقتها وذا قرابتها من رسول الله ﷺ ، لم يكن متراخياً عن أمر الله ولا باللومة في دين الله ولا بالسرقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة ، ذلك علي بن أبي طالب .

وقال ﷺ : « علي مَعَ القرآن والقرآنُ مع علي لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض »

---

(١) قد تقدم قريباً وصف سيدنا ضرار رضي الله عنه لسيدنا علي رضي الله عنه بسؤال سيدنا معاوية رضي الله عنه مرة أخرى ولكن ببعض تغيير ، فلينظر اهـ .

وقال ﷺ : « النظر إلى عليّ عبادة » وقال ﷺ : « علي إمام البررة وقاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله » وقال ﷺ : « حبُّ علي يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب » وقال ﷺ : « إن السعيد كل السعيد حق السعيد من أحبَّ علياً في حياته وبعد مماته » وقال ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ علياً فقد أحبني ومن أحبني فقد أحبَّ الله ، ومن أبغضَ علياً فقد أبغض الله » وقال ﷺ : « علي يزهر في الجنة ككوكب الصبح لأهل الدنيا » .

قال ابن عباس : نزل في علي ثلاثمئة آية من آيات القرآن منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم : ٩٦] .

قال محمد بن الحنفية : لا يبقى مؤمن إلا وفي قلبه وُدٌّ لعلي وأهل بيته ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحاقة : ١٢] قال النبي ﷺ : « اجعلها أُذُنَ علي » قال علي : ما نسيتُ بعد ذلك شيئاً .

وفضائل علي وبقية الخلفاء الراشدين كثيرة مفردة بالتأليف ، والقصد من ذلك كله بيان عدلهم في بيت المال ، وأنهم إنما فتحوا الفتوحات حتى اتسع الإسلام بالعدل في بيت المال ، وقصة استشهاد علي رضي الله عنه مشهورة لا حاجة لنا بذكرها ، وكان استشهاده سابع عشر رمضان سنة أربعين من الهجرة ، وعمره ثلاث وستون سنة .

ومما ينبغي أن يلحق بالخلفاء الأربعة في العدل في بيت المال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فإن كثيراً من الأئمة ألحقوه بالخلفاء الراشدين .

ذكر ما كان لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه من الاقتصادِ في الدنيا وحسن السيرة

كان رضي الله عنه زاهداً عادلاً في بيت المال ، كانت نفقته التي يأخذها من بيت المال كل يوم درهمين ، وقال رجاء بن حيوة : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة باثني عشر درهماً لفة وقميصه ورداؤه وقباؤه وسراويله وعمامته وقلنسوته وخفاه ، وكان يلبس القميص مرقعاً كما كان يفعل عمر بن الخطاب .

قال سعيد بن سويد : صلى عمر بن عبد العزيز بالناس الجمعة وعليه قميص مرقوع مجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن الله أعطاك فلو لبست ، فنكس ملياً ثم رفع رأسه ، فقال : إن أفضل الزهد القصد عند الجِدَة وأفضل العفو عند القدرة .

وقال عمر بن المعتمر : دخل عمر بن عبد العزيز يوماً على امرأته فاطمة بنت عبد الملك ، فقال : يا فاطمة عندك درهم أشتري به عنباً ؟ قالت : لا ، ثم قالت : وأنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري به عنباً ؟! قال : هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غداً في جهنم .

وقال أبو أمية الخصي غلام عمر : دخلت يوماً على مولاتي فغدتني عدساً ، فقلت لها : كل يوم عدس ؟ فقالت : يا بني هذا طعام مولاك أمير المؤمنين .

ولما أَفْضَت الخلافةُ إليه وفرغ من دفن ابنِ عمه سليمان بن عبد الملك قربوا إليه من الخيل مراكب الخلافة يركب ما شاء منها ، وكانت مراكب كثيرة مزينة بأنواع الزينة فأبىٰ أن يركب شيئاً منها وقال : تكفيني بغلتي ، وباع تلك المراكب وما كان عليها من أنواع الزينة ، وجعل ذلك الثمن في بيت المال وكذا ما كان يصرف عليها من النفقات وما يصرف على خدمها القائمين عليها جعل ذلك كله في بيت مال المسلمين .

وأمر بالستور فهتكت والفرش التي كانت تَبَعاً للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال ثمنها في بيت مال المسلمين ، قال مالك بن دينار : الناس يقولون : مالك زاهد

إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز .

وقال عبد الله بن المبارك لما قيل له زاهد قال : لست بزاهد إنما الدنيا زهدتني وتركتني ، الزاهدُ عمر بن عبد العزيز ، جاءته الدنيا فزهد فيها وتركها .

وكان ابن سيرين إذا سئل عن الطلا قال : نهى عنها الإمام المهدي يعني عمر بن عبد العزيز .

وقال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه الذي توفي فيه فإذا عليه قميص وسخ ، فقلت لأختي فاطمة بنت عبد الملك : ألا تغسلينه ، ثم رجعت مرة أخرى فوجدت القميص بحاله لم يغسل ، فقلت : ألا تغسلين قميصه ، فقالت : والله ماله غيره .

وقال قيس بن جبير : مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية مثل مؤمن آل فرعون .

وقال ميمون بن مهران : إن الله كان يتعهد الناس بنبي بعد نبي ، وإن الله لعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز .

وقال حسن القصاب : رأيت الذئاب ترعى مع الغنم في البادية في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقلت : سبحان الله ذئب في غنم لا يضرها ! فقال الراعي : إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس .

وقال مالك بن دينار : لما ولي عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاه : من هذا الصالح الذي قام على الناس خليفة عدل تكف الذئاب عن شياهنا ؟ فقيل لهم : وما علمكم بذلك ؟ فقالوا : إذا قام على الناس خليفة عدل تكف الذئاب عن الشياه ، وكانت الشياه والذئاب ترعى في مكان واحد ، فبينما هم كذلك ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاة فقالوا : ما نرى الرجل الصالح إلا هلك ، وكان ذلك في زمان موته ، فلما بلغهم خبر موته بعد نحو شهر حسبوا ذلك فوجدوا موته في تلك الليلة .

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه أن مدينتنا قد خربت ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به ، فكتب إليه عمر : إذا قرأت كتابي هذا فحَصّنْها بالعدل ونَقِّ طرقها من الظلم ، فإنه مرمّها والسلام .

وكانت زوجته فاطمة بنت عمه عبد الملك بن مروان عندها حُلِيّ وجواهر لم ير

مثلها ، أمر لها بها أبوها حين زوجها به ، فلما أَفْضَت الخلافةُ إليه قال لها : اختاري إما أن تردي حُلِيَّكِ إلى بيت المال لأنه أخذ بغير حق ، وإما أن تأذني لي في فراقكِ فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهذا الحليّ في بيت واحد ، فقالت : بل أختارك عليه وعلى أضعافه ، فأمر به فحمل حتى وضع في بيت المال ، فلما مات عمر واستخلف أخوها يزيد بن عبد الملك قال لأخته فاطمة : إن شئت رددته عليك لأن عمر أخذه منكِ بغير حق وأدخله بيت المال ، فأَبَتْ أن تردّه وقالت : لا أَطِيبُ به نفساً في حياته وأرجع فيه بعد موته ! فأخذه يزيد فقسمه بين أهله .

ولما ولي عمر الخلافة أخذ من بني عمه وقرابته أموالًا كثيرة وضياعاً وعقارات وأدخلها بيت المال ، وقال : إنهم أخذوها بغير حق وسمى ذلك مظالم ، ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان وسألوها أَنْ تكلمه وتراجعه في ذلك ، فأتته فقالت له : تكلمني أنت يا أمير المؤمنين ، فقال : إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة ، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شُرْبُهم منه سَواء ، ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم عمر فعمل عملهما ، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر إليَّ وقد يبس النهر الأعظم فلم يروا أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه ، فقالت : حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً ، فرجعت إليهم فأخبرتهم بكلامه ، وقيل إنها قالت له : إن بني أمية يقولون كذا وكذا ، فلما قال لها هذا الكلام قالت : إنهم يحذرونك يوماً من أيامهم تعني أنهم يخرجون عليه ويقاتلونه ، فغضب وقال : كل يوم أخافه غير يوم القيامة قد أمنت شره . فرجعت إليهم فأخبرتهم ، وقالت : أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر فجاء يشبه جده ، فسكتوا ؛ أي لأن أم عمر بن عبد العزيز هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب واسمها حفصة ، وكان رضي الله عنه بوجهه شجة ضربته فرس في جبينه وهو غلام فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : إن كنت أشج بني مروان لسعيد .

وكان عمر بن الخطاب يقول : من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلًا ، فكان هو عمر بن عبد العزيز ، وفي رواية كان عمر بن الخطاب يقول : ليت شعري من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلًا كما ملئت جوراً .

وكان عبد الله بن عمر يقول : كنا نتحدث أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمر ، فكان بلال بن عبد الله بن عمر بوجهه شجة فكانوا يظنون أنه ذو الشين الذي ذكره عمر فلم يكن هو ، وما عرفوا ذا الشين حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز فولي الخلافة وسار بسيرة عمر بن الخطاب .

وعن عبيد الله بن مسلم عن أبيه قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده كاتب يكتب وشمعة تزهر وهو ينظر في أمور المسلمين ، فلما فرغ الكاتب وخرج أطفئت الشمعة وجيء بسراج إلى عمر من ماله ، وكان سراجه على ثلاث قصبات فوقهن طين ، ولما ولي الخلافة أمر منادياً ينادي : من كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى . قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك غصبني أرضي ، والعباس جالس ، فقال : ما تقول يا عباس ؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلاً ، فقال عمر : ما تقول يا ذمي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبدالملك ، قم فاردد إليه يا عباس ضيعته ، فردها عليه وجعل لا يدع شيئاً مما كان في يده ويد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز كان عمر بن الوليد بن عبد الملك غائباً ، فسمع أن عمر بن عبد العزيز أخذ أموالاً من بني عمه وعشيرته وردها إلى بيت المال ، فكتب كتاباً لعمر بن عبد العزيز يقول : إنك قد أزريت على من قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضاً لهم وشيناً لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً ، ولن تترك على هذا ، أي فلا بد أن يخرجوا عليك ويقاتلوك ، فلما قرأ كتابه كتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، أما بعد :

فإنه بلغني كتابك وسأجيبك بنحو منه ، فأنا أول سائل ، فإن كنت ابن الوليد كما

زعم فأمك بنانة بنت السكن كانت تطوف في سوق حمص وتدخل حوانيتها ، ثم الله عز وجل بها أعلم فاشتراها ذبيان من فيء المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك ، فبئس المحمول وبئس المولود ، ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً تزعم أني من الظالمين لما حرمتك وأهل بيتك فيء الله الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإنَّ أَظْلَمَ مني وأَتْرَكَ لعهد الله سبحانه وتعالى مَن استعملكَ صبياً سفيهاً على جيش المسلمين تحكم فيهم برأيك ، ولم يكن له في ذلك نية إلا حب الوالد ولده ، فويل لك وويل لأبيك ما أكثر خصماءكما يوم القيامة ، وكيف ينجو والدك من خصمائه ، وإن أظلمَ مني وأترك لعهد الله تعالى من استعمل قرةَ بن شريك أعرابياً جافياً على مصر وأذن في المعازف واللهو والشرب ، ومن جعل العالية البربرية سهماً في خمس العرب فرويداً ابن بنانة ، فلو التقت حلقتا البطان ورد الفيء إلى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتكم على المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق ، ومن وراء هذا ما أرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكلٍّ فيك حقاً والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ولا ينال سلام الله الظالمين .

وكان عمر بن عبد العزيز قبل أن يلي الخلافة على خير وعلم وصلاح وعبادة إلا أنه كان متنعماً في مأكله ومشربه وملبسه ، فلما ولي الخلافة اخشوشن وترك ما كان عليه من التنعم ، وكان قبل أن يلي الخلافة لا يأكل إلا أحسن الطعام ولا يلبس إلا أحسن الثياب ، وكان يُشْترىٰ له الحلة بألف دينار ، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها ، وكان يؤتىٰ له بالثوب الحسن الناعم فيلمسه بيده فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه ، فلما جاءته الخلافة واخشوشن فكان يؤتى له بالقميص الخشن الذي لا قيمة له فيلمسه بيده فيقول : ما أحسنه لولا نعومة فيه ، فسئل عن ذلك فقال : إن لي نفساً تواقة لا تنال شيئاً إلا تاقت لما هو أرفع منه ، فلما نالت الخلافة اشتاقت إلى الجنة .

وحدث الهيثم بن عدي قال : كان لفاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز جارية حسناء ، وكان عمر بن عبد العزيز يهوى تلك الجارية ، فطلبها من زوجته فاطمة لنفسه قبل أن يلي الخلافة فامتنعت من إعطائها إياه ، فلما ولي الخلافة أرادت فاطمة التقرب إليه والحظوة عنده ، فأمرت بإصلاح الجارية وأدخلتها عليه وأعطته إياها في أحسن صورة ، وقالت : هي لك قد طِبْتُ بها نفساً ، فَسُرَّ بقولها وظهر الفرح في

وجهه ، ثم لما خلا بالجارية لم يمسها بل سألها وقال لها : لمن كنت ومن أين أتيت لفاطمة ؟ فقالت : كان الحجاج أغرم عاملاً كان له بالكوفة مالاً ، وكنت في رِقّ ذلك العامل ، فأخذني الحجاج فبعثني إلى عبد الملك بن مروان وأنا صبية ، فوهبني عبد الملك لابنته فاطمة ، قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وترك ولداً ؟ قالت : بلى ، قال : فما حاله ؟ قالت : سيىء ، فكتب عمر إلى عامله أن سَرّح إليّ فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم عليه قال له : ارفع إليّ جميع ما أغرمه الحجاج أباك ، فما رَفَعَ شيئاً حتى دفعه له ، ثم دفع إليه الجارية وقال له : إياك وإياها ، ولعل أباك قد وطئها فحرمت عليك ، فقال الغلام : هي لك يا أمير المؤمنين ، وأراد إعطاءه إياها ، قال : لا حاجة لي فيها فابتعها مني ، قال : إذَنْ لست ممن ينهى النفس عن الهوى ، فمضى بها الفتى ، فقالت الجارية لعمر : فأين وَجْدُكَ ومحبتك لي ؟ فقال : على حاله ولقد ازدادت ، قيل : فما زالت في نفس عمر حتى مات .

وكان مسلمة بن عبد الملك بن مروان متنعماً ينفق كل يوم على مائدته ألف درهم ، فبعث إليه عمر بن عبد العزيز يوماً أن يتغدى عنده ، فهيأ له طعاماً وأمر أن يحبس الطعام وأن يقدّم إليه قبل ذلك العدس ، لكن أخروا تقديمه حتى جاع مسلمة جوعاً طويلاً ، فقال عمر لخادمه : ويحك أبو سعيد لا يصبر على الجوع فَأْتِنا بما عندك ، فأتاه بالعدس ، فأكل مسلمة من ذلك أكلاً عنيفاً منكراً لشدة جوعه حتى شبع ، ثم جيء بالطعام الذي هيأه فقال عمر : كُلْ يا أبا سعيد ، فقال : قد اكتفيت ، فقال عمر : يا أبا سعيد تكفيك أكلة بدانقين وعلى مائدتك ألف درهم كل يوم ، فتاب وأعطى الله عهداً ألّا يعود لمثل ذلك ، ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي توفي فيه ، فقال : ألا توصي ؟ قال : وهل من مال أوصي فيه ؟ فقال مسلمة : هذه مئة ألف أبعث بها إليك أوص فيها ، فقال له عمر : أو غير ذلك يا مسلمة ، قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : تردها من حيث أخذتها ، فبكى مسلمة وقال : رحمك الله يا أمير المؤمنين لقد ألنت مِنّا قلوباً قاسية وزرعت في قلوب الناس لنا مودة وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً ، ثم قال مسلمة : فأوص إلى بنيك ، فقال عمر : أُوصي بهم إلى الله عز وجل وهو يتولى الصالحين ، وفي رواية أنَّ بنيَّ أحد

رجلين : إما رجل يتقي الله تعالى فسيجعل الله له مخرجاً ، وإما رجلٌ مكبٌّ على المعاصي فإني لم أكن لأقويه على معاصي الله ، وفي رواية إن كانوا صالحين فالله يتولى الصالحين ، وإن كانوا مجرمين فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

ولما مات بلغت تَرِكَتُه سبعة عشر ديناراً كُفّنَ منها بخمسة دنانير ، واشتري موضعُ قبر له بدينارين ، وكان بنوه أحد عشر ابناً فأصاب كل واحد من بنيه تسعة عشر درهماً .

ومات هشام بن عبد الملك وخلَّف أحد عشر ابناً فأصاب كل واحد من تَرِكَتِهِ ألف ألف ، ثم رؤي واحد من ولد عمر بن عبد العزيز جهز في يوم واحد مئة فارس ، ورؤي واحد من ولد هشام يسأل الناس ويُتَصَدَّق عليه .

وكان سليمان بن عبد الملك يقتل الخوارج كثيراً ، فكان عمر بن عبد العزيز يشير عليه بحبسهم حتى يتوبوا وينهاه عن قتلهم ، فجاء خارجي مرة لسليمان بن عبد الملك وقال له : يا فاسق يا ابن الفاسق ، فقال سليمان : عليَّ بعمر بن عبد العزيز ، فلما جاء قال له سليمان : اسمع مقالة هذا ، فأعاد الخارجي قوله يا فاسق يا ابن الفاسق ، فقال سليمان لعمر : ماذا ترى ؟ فسكت عمر ، فقال له سليمان : عزمت عليك لتخبرني بما ترى ، قال عمر : أرى أن تشتمه كما شتمك ، فقال سليمان : ليس إلا هذا ؟ قال : نعم ، ثم أمر سليمان الخارجي فأمر بضرب عنقه ، فلما خرج عمر أدركه خالد بن الريان صاحب حرس سليمان ، فقال يا عمر : كيف تقول لأمير المؤمنين : ما أرى عليه إلا أن تشتمه كما شتمك ، والله لقد كنتُ متوقعاً أن يأمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك ؟ قال : ولو أمرك لفعلت ؟ قال : أي والله .

فلما أَفْضَتِ الخلافةُ إلى عمر جاء خالد فقام مقام صاحب الحرس ، فقال له عمر : يا خالد ضع هذا السيف عنك ، ثم قال : اللهم إني وضعت لك خالد بن الريان فلا ترفعه أبداً ، ثم نظر إلى وجوه الحرس فدعا ابن مهاجر الأنصاري وقال : يا عمرو والله ليعلمن الله أن ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام ولكن قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ورأيتك تصلي في موضع تظن أنه لا يراك أحد إلا الله ورأيتك تحسين الصلاة وأنت رجل من الأنصار ، فخذ هذا السيف فقد وليتك حرسي ، فوضع الله ذكر خالد بدعوة عمر بن عبد العزيز حتى كان لا يذكر ولا يدرى أحيٌّ هو أم ميت ، قال يحيى بن يحيى : فما

رأيت شريفاً خمل ذكره حتى لا يذكر مثل خالد بن الريان ، حتى إن كاد الناس يقولون ما فعل خالد أحي هو أو قد مات ؟ لخمول ذكره بدعوة عمر بن عبد العزيز .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قال لميمون بن مهران : كيف لي بأعوان على هذا الأمر أثق بهم ، فقال : لا تشغل قلبك بهذا فإنك سوق وإنما يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيه ، فإذا عرف الناس منك النصح لم يأتوك إلا بالنصح ، فكان الأمر كذلك .

وكان رضي الله عنه يجمع الفقهاء عنده كل ليلة فيذكرون الموت والقيامة ويبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة ، وكان رضي الله عنه يقول : مالي في الأمور هوى سوى مواقع قضاء الله فيها وما كنت على حالة من حالات الدنيا فَسَرَّني أني على غيرها .

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابناً له اشترى فصّاً بألف درهم وتختّم به ، فأمره أن يبيع الفصّ ويتصدق بثمنه وأن يشتري فصّاً وينقش عليه : رحم الله أمْرَأً عَرَفَ نفسه .

وعن الأوزاعي قال : قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه : من صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال : يدلني من العدل على ما لا أهتدي له ، ويكون على خير عوناً ، ويبلغني حاجة من لا يستطيع بلاغاً ، ولا يغتاب عندي أحداً ، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس ، فإذا كان كذلك فَحَيّهلا به ، وإلا فهو في حرج من صحبتي والدخول علي .

وعن الزهري قال : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة .

وقال ميمون بن مهران : عمر بن عبد العزيز معلم العلماء ، أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه .

ولما ظهر من عدله ما ظهر وضع له جماعة من بني أمية من سقاه السم ، فقيل له : تدارك نفسك ، فقال : والله لقد عرفت الساعة التي سقيت فيها ، ولو كان شفائي أن أَمَسَّ شحمة أذني ما فعلت ، وسأل الذي سقاه السم فأقرَّ ، فقال له : كم أعطوك ؟ فقال : ألف دينار ، فقال : ائتني بها ، فأتاه بها ، فوضعها في بيت المال وقال له : غَيِّبْ وجهك عني ولم يعاقبه .

وجاء رجل إلى هشام بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جَدّي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى استخلف عمر رحمه الله نزعها مني ، فقال

هشام : أعد مقالك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أَقْطعَ جَدّي قطيعة فأقرّها الوليد وسليمان حتى استخلف عمر رحمه الله نزعها مني ، فقال هشام : والله إن فيك لعجباً أنك تذكر من أقطع جَدَّك القطيعة ومن أقَرّها فلا تترحم عليه وتذكر من انتزعها منك فتترحم عليه وإنّا قد أمْضَيْنا ما صنع عمر رحمه الله .

وقال سفيان الثوري والشافعي وكثير من الأئمة : الخلفاء خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز .

ولما عهد إليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة امتنع من القبول فأكرهوه على البيعة ، فلما فرغوا من البيعة صعد المنبر فقال : يا أيها الناس قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي مني ولا مشورة من المسلمين وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم ، فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك في أمرنا باليُمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضوا به جميعاً حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، وقال :

أوصيكم بتقوى الله ، إلى أن قال : إن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدنانير والدراهم ، والله لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقاً ، ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال : أيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني إن أطعت الله تعالى فإذا عصيت الله تعالى فلا طاعة لي عليكم ، ثم نزل فدخل داره .

وكانت فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب تكثر من الترحم على عمر بن عبد العزيز ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : دخلت عليه وهو أمير المؤمنين فأخرج عنه كلَّ خصي حتى لم يبق في البيت غيري وغيره ، ثم قال : والله ما على وجه الأرض أهل بيت أحبّ إليَّ منكم ، ولأنتم أَحَبُّ إليَّ من أهل بيتي ، وما ترك لي حاجة إلا قضاها .

وقال الإمام محمد الباقر بن زين العابدين : إن عمر بن عبد العزيز نجيب بني أمية وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده .

وعن حماد أن عمر بن عبد العزيز لما استخلف بكى ، فقال : يا فلان تخشى عليَّ ؟ قلت : كيف حبك للدراهم ؟ قال : لا أحبه ، قلت : لا تخف فإن الله سيعينك .

وقال في بعض خطبه : أيها الناس إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد ﷺ ، وإني لست بقاض ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقال بعض علماء التابعين : إن عمر بن عبد العزيز هو المهدي الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه يملأ الأرض عدلاً ، لكن الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أنه مهدي من جملة المهديين ، وأما المهدي المنتظر فإنه من ولد فاطمة ، ويجتمع بعيسى عليه السلام ، ويكون خروج الدجال في أيامه ، وذلك من أعظم علاماته ، ومما استدل به القائلون بأن عمر بن عبد العزيز هو المهدي كثرةُ المال في زمانه وزهد الناس في الدنيا ، وذلك من علامات المهدي .

قال معمر بن أسيد : والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون ، فما يبرح حتى يرجع بماله كله ، وقد أغنى عمر الناس ، وقد علمت أنه مهدي من جملة المهديين وليس هو المهدي المنتظر وإنْ وجد كثير من علامات المهدي المنتظر في زمانه .

وكان عمر بن عبد العزيز كثير العبادة والزهد والخوف والبكاء ، قال عطاء بن أبي رباح : حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز أنها دخلت عليه وهو في مصلاه تسيل دموعه على خَدّيه ، فقالت : يا أمير المؤمنين أشيء حدث ؟ قال : يا فاطمة إني تقلدت أمر أمة محمد ﷺ أسودِها وأحمرِها ، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والعادي المجهود والمظلوم المقهور والغريب الأسير والشيخ الكبير وذي العيال الكثير والمال القليل وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، فخشيت ألّا تثبت لي حجتي فبكيت .

قال عطاء الخراساني : أمر عمر بن عبد العزيز غلامه أن يسخن له ماء فانطلق فسخن قمقماً في مطبخ بيت المال ، فلما علم عمر أمر الغلام أن يشتري حطباً بدرهم ويجعله في مطبخ بيت المال ، وأهدى إليه رجل من أهل بيته تفاحاً طيب الطعم والريح ، فقال عمر : ما أطيب ريحه وأحسنه ادفعه يا غلام للذي أتى به وقل له : إن

هديتك عندنا وقعت بحيث نحب ، وكان عنده عمر بن مهاجر فقال : يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ، فقال : ويحك إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية وهي اليوم لنا رشوة .

وقال مكحول : لو حلفت لصدقت ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز .

وقال سعيد بن أبي عَروبة : كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله ، واجتمع بنو مروان يوماً وقالوا لعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز : قل لأبيك إن من كان قبلك من الخلفاء يعطوننا ويعرفون لنا مواضع حقوقنا ، وإن أباك قد أحرمنا ما في يده ، فدخل على أبيه فأخبره ، فقال : قل لهم : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر : ١٣] .

وقال أرطاة بن المنذر : قيل لعمر بن عبد العزيز : لو اتخذت حرساً واحترست في طعامك وشرابك ، فقال : اللهمَّ إن كنت تعلم أني أخاف شيئاً دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي .

وكتب إليه عامل خراسان أن أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم ولا يصلحهم إلا السيف والسوط ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك ، فكتب إليه عمر أما بعد : فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط فقد كذبت ، بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام .

وكان رضي الله عنه إذا أملى على كاتبه يقول : اللهمَّ إني أعوذ بك من شر لساني .

وبكى رضي الله عنه مرة فبكت لبكائه فاطمة زوجته فبكى أهل الدار لبكائها ، ولا يدري أحد منهم ما سبب البكاء ، فلما تجلى عنهم قالت له فاطمة : بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين مِمَّ بكيت ؟ قال : ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله عز وجل فريق في الجنة وفريق في السعير ، ثم صرخ وغشي عليه .

ورفع مرة بيده كفّاً من تمره ، وقال لمسلمة بن عبد الملك : إن الماء على التمر طيب ، أرأيت لو أن رجلاً أكل هذا ثم شرب عليه الماء كان يجزيه إلى الليل ؟ قال : نعم ، قال : فعلام تدخل النار ؟ قال مسلمة : فما وقعت مني موعظة موقعها .

وجاء ابن سليمان بن عبد الملك إلى مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز وحاجبه ، فقال : إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر ، فاستأذن له فأذن ، فلما دخل قال له : يا أمير المؤمنين رد عليَّ قطيعتي التي أخذت مني ، فقال عمر : معاذ الله أن أرد قطيعة أصبحت في الإسلام ، فقال : هذا كتابي وأخرج كتاباً من كمه ، فقرأه عمر فقال : لمن كانت هذه الأرض قبلك ؟ قال : للفاسق ابن الحجاج ، فقال عمر : فهو أولى بدعواها ، قال : فإنها من بيت مال المسلمين ، قال : فالمسلمون أولى بها ، قال : يا أمير المؤمنين رُدّ علي كتابي ، قال : لا أفعل لو لم تأت به لم أسألكه ، فأما إذا جئتني به فلم ندعك تطلب باطلاً ، فبكى ابن سليمان ، فقال مزاحم : يا أمير المؤمنين ابن سليمان تصنع به هذا ؟ قال : ويحك يا مزاحم إنها نفسي أجادل عنها ، وإني لأجد له من الشفقة ما أجد لولدي .

وكتب سالم بن عبد الله بن عمر لعمر بن عبد العزيز بعضاً من سيرة عمر بن الخطاب لما طلب منه ذلك عمر بن عبد العزيز ، ثم قال سالم : إن عمر بن الخطاب عمل في غير زمانك وكان له مساعد ومعين على ما يريد من الحق ، فإن عملت في زمانك بمثل ما عمل في زمانه كنت أفضل منه .

وأرسل مرة عمر بن عبد العزيز غلاماً له يشوي له لحماً فعجل الغلام بها ، فقال عمر له : أسرعت بها ، فقال : شويتها في نار مطبخ بيت مال المسلمين ، وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم منه ، فقال عمر لغلامه : اذهب فَكُلْها يا بني فإنك رُزِقتها ولم أرزقها .

وكان لعمر بن عبد العزيز سفط في دراعة من شعر وغل ، وكان له بيت في جوف بيت يصلي فيه لا يدخل عليه فيه أحد ، فإذا كان في آخر الليل فتح ذلك السفط ولبس تلك الدراعة ووضع الغل في عنقه ، فلا يزال يصلي ويناجي ربه ويبكي حتى يطلع الفجر ثم يعيده في السفط .

وقال الإمام الغزالي في الإحياء : دخلتْ مولاةٌ لعمر بن عبد العزيز على عمر فسلمت عليه ، ثم قامت إلى المسجد في بيته فصلّتْ فيه ركعتين ثم غلبتها عيناها فرقدت واسترسلت في منامها ، ثم استيقظت وقالت : يا أمير المؤمنين إني والله رأيت

عجباً ، قال : وما ذاك ؟ قالت : رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جيء بالصراط فوضع على متنها فقالت هيهِ ، فقالت : فجيء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه ، فما مضى إلا يسيراً حتّى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال هيه ، قالت : ثم جيء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط فهوى في جهنم ، فقال عمر : هيهِ ، قالت : ثم جيء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه يسيراً حتى انكفأ به الصراط فهوى في جهنم ، فقال عمر : هيهِ ، قالت : ثم جيء بك يا أمير المؤمنين ، فصاح عمر صيحة وخَرَّ مغشيّاً عليه ، فقامت إليه فجعلت تنادي في أذنيه يا أمير المؤمنين إني والله رأيتك تمرّ حتى نجوت ، قال : فما زالت تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله وهو عدي بن أرطاة ، وكان قد ولّاه البصرة ، فلما أراد عزله كتب له بعزله ، وقال له في كتابه : أما بعد : فإنك غررتني بعمامتك السوداء وإرسالك طرفها من ورائك ومجالستك القراء ، وإنك أظهرت لي الخير فأحسنت بك الظن وقد أظهرني الله على ما كنت تكتم والسلام .

وذكر الفضيل بن عياض أن بعض عمال عمر بن عبد العزيز شكا إليه مشقة القيام بعمله ، فكتب إليه عمر : يا أخي سَهَرُ أهل النهار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله عَزّ وجل فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء ، فلما قرأ العامل الكتاب ترك عمله وانصرف وطوى الأرض حتى قدم على عمر ، فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل .

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن كعب وهو كئيب حزين ، فقال لأحدهما : عظني ، فقال : يا أمير المؤمنين إنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل أحداً من خلقه فوقك فلا ترضَ لنفسك أن يكون أحد أطوع منك ولا تَرضَ أن يكون أحد أولىٰ بالشكر منك ، فبكى عمر رحمه الله حتى غشي عليه ، ثم أفاق فقال : هيه يا أبا خالد لم يرض أن يكون فوقي ، فوالله لأخافنّهُ خوفاً ولأحذرنّه حذراً ولأرجونّه رجاء ولأحبنّه محبة ولأشكرنّه شكراً ولأحمدنّه حمداً يكون ذلك كله غاية طاقتي ، ولأجتهدنَّ في العدل والنصفة والزهد في الدنيا والرغبة في باقي الآخرة ودوامها حتى ألقى الله عز وجل لَعلّي أنجو مع

الناجين وأفوز مع الفائزين ، ثم بكى حتى غشي عليه .

وقال له ألآخر : اجعل الناس ثلاثة : الكبير بمنزلة الأب والوسط بمنزلة الأخ والصغير بمنزلة الولد ، فبرَّ أباكَ وَصِلْ أخاكَ واعطف على ولدك .

قال زياد مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألدُّ ، قال : فسيّىء الحال ، قال : فإن كانا خصمين ألَدَّين ، قال : ذاك حاله أسوأ ، قال : فإن كانوا ثلاثة ، قال : ذاك حين لا يهنأه عيش ، قال : فوالله يا أمير المؤمنين ما حد من أمر قلت له : وعن نعيم قال : قلت لعمر بن عبد العزيز وقد رأيته قاعداً : يا أمير المؤمنين ما يقعدك ههنا ؟ قال : أنتظر ثيابي تغسل لأصعد بهما المنبر ، قلت : وما هي ؟ قال : قميص وإزار قيمتهن أربعة عشر درهماً .

وقال إسماعيل بن عياش : قلت لعمر بن المهاجر : ما كان يلبس عمر في بيته ؟ قال : جبة سوداء مبطنة .

وكان رضي الله عنه يقول : ما تركت شيئاً من الدنيا إلا عقبني في قلبي ما هو أفضل منه ، يعني بالزهد ، وما أنعم الله عليّ في ديني أفضل .

وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان الداراني وأبا صفوان يتناظران أن عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس ، فقال له : ولِمَ : قال : لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها ، فقال له أبو صفوان : وأويسٌ لو ملكها لزهد فيها مثلما فعل عمر ، فقال أبو سليمان : لا تجعل من جَرّب كمن لم يجرب إنَّ من جرت الدنيا على يديه وليس لها في قلبه موقع أفضل ممن لم تجر على يديه وإن لم يكن لها في قلبه موقع .

وكان في دار عمر بن عبد العزيز درجة فيها لبنة تتحرك ، فكان كلما نزل أو صعد ارتاع منها ، فعمد مولى له فشدها بطين ، فلما صعد عمر لم يرها فسأل عنها ، فقال له مولاه : رأيتك ترتاع منها فشددتها ، فقال له عمر : أعدها إلى حالها فإني أعطيت لله عهداً إن وليت هذا الأمر ألّا أضع لبنة ولا آجُرّة على آجُرّة ، وكان يقول : ليس لي في الأمور هوى إلا مواقع القضاء أي ما يقضيه الله عليّ ، وفي رواية : ما كنت على حالة من حالات الدنيا فسرني أني على غيرها .

وفي دعائه : اللهمَّ إني أطيعك في أحبِّ الأشياء إليك وهو التوحيد ، ولم أعصك

في أبغض الأشياء إليك وهو الشرك ، فاغفر لي ما بينهما .

ومن كلامه : ذِكرُ الله عزّ وجل عظيم ، والفكرُ في نعم الله عزّ وجل أفضل العبادة .

ومن دعائه اللهمَّ أَصْلِحْ من كان في صلاحه صلاحٌ لأمة محمد ﷺ ، وأَهْلِكْ من كان في هلاكه صلاح لأمة محمد ﷺ .

ولما سُقِيَ السمَّ قيل له : تداركْ نفسك ، فقال : والله لقد عرفت الساعة التي سقيت فيها ، ولو كان شفائي أن أَمَسَّ شحمة أذني ما فعلت .

وكان يبغض الحَجّاجَ على ظلمه بغضاً كثيراً ، كان يقول : ما حسدت الحجاج على شيء إلا على حبّه القرآن وإعطائه أهله وقوله حين حضرته الوفاة : اللهمَّ اغفر لي فإنَّ عبادك يزعمون أنك لا تفعل .

ولما حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز قال : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : أنا الذي أَمَّرْتَني فقصَّرتُ ، ونهيتني فعصيتُ ، ولكنْ لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه وأَحَدَّ النظر ، فقيل له : إنك لتنظر نظراً شديداً ، قال : إني لأرى أناساً ما هم بإنس ولا جنّ ، ثم قال : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص : ٨٣] ثم قال : لا إله إلا الله لمثل هذا فليعمل العاملون .

وقال يوسف بن ماهك : بينما نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا رِقٌّ من السماء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمانٌ من الله تعالى لعمر بن عبد العزيز ووفاء .

واستُشهِد رجل بالشام فكان يأتي إلى أبيه كل ليلة جمعة في المنام فيحدثه ويأنس به ، فغابَ عنه جمعة ثم جاء في الجمعة الأخرى ، فقال : يا بني لقد تأخرت عني وشقّ علي تخلُّفك ، فقال : إنما شغلني عنك أن الشهداء أمروا أن يتلقوا عمر بن عبد العزيز .

وكانت وفاته سنة إحدى ومئة ، وعمره تسع وثلاثون سنة وأشهر ، ومدة خلافته سنتان وخمسة أشهر ، ومناقبه كثيرة أفردت بالتأليف رضي الله عنه .

وقد تقدم في مناقب السلطان **صلاح الدين الأيوبي** أنه كان زاهداً مقتصداً في الدنيا ، وأنه لما مات لم يخلف سوى سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً ، وقد خلَّف سبعة عشر ولداً ذكراً وأنثى .

وتقدم أيضاً في مناقب **السلطان نور الدين محمود بن زنكي** أنه كان يقول في أموال بيت المال : إنما هي أموال المسلمين وإني خازن لهم فلا أخونهم فيها ، وإن زوجته قَلَّت النفقة عنها فلم يعطها من بيت المال وأعطاها ثلاث دكاكين بحمص كانت له اشتراها من ماله الذي خصّه من الغنيمة ، وقد عُلِمَ من ذلك كله أنَّ الزهدَ في الدنيا والاقتصاد فيها هو مِلَاكُ الأمر كله ، وأن الخلفاء الراشدين والسلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين إنما فتح كلٌّ منهم ما فتح من البلاد ومكّن الله لهم في الأرض بين العباد بالزهد في الدنيا والاقتصاد فيها والعدل في بيت المال .

قال العلامة القطبي في تاريخه : لما أراد الله بأهل الأرض إحساناً وإفضالاً ، وقدّر ظهور العدل والفضل فيهم إكراماً لهم وإجلالاً ، وقضى بإطفاء نيران الظلم والفتن ورفع مواد الفساد والمحن وتأييد دين الإسلام وتقوية أهل السنة السنية المتمسكين بسَنَنِ سُنَن سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وإقامة الشرع الشريف على رغم المُلْحِدة اللئام أطلع في أفق الخلافة العظمى شموس الإيالة العثمانية ، وأسطع من أَوْج أسماء السلطنة الكبرى كمال المعدلة الخاقانية ، وأجلسهم على سرير الملك وملكهم أعظم ممالك الإسلام ، وفتح على أيديهم الممالك العظام ، ونشر بهم جناح الأمن والأمان ، لا زالت دولتهم باقية إلى آخر الزمان اهـ .

ثم ذكر في تراجمهم ما يبهر العقول من محاسن الصفات ومن الزهد والعدل والجهاد وفعل الخيرات ، وقد تقدم في هذا الكتاب كثير من ذلك ، ومن تأمّل في سيرة الملوك والسلاطين الذين كانوا بعد الخلفاء الراشدين يحصل له كمالُ اليقين بأن الدولة العثمانية أحسن الدول الإسلامية بين العالمين بعد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ؛ لأنهم اتصفوا بصفات لم يتصف بها كثير من دول الإسلام ، وجمعوا فضائل لم تكن لغيرهم على ممر الليالي والأيام :

فمنها أن لهم كثيراً من الفتوحات الواسعة والغزوات الشهيرة في الأقطار الشاسعة ،

حتى اتسع بفتوحاتهم الإسلام ، وانتشر العلم والأمن والأمان بين الأنام .

ومنها أن عقائدهم صحيحة مطابقة لعقيدة أهل السنة والجماعة ليس فيهم مبتدع ولا خارج عن الطاعة .

ومنها أنهم ناصرون لمذهب أهل السنة وقائمون بشعائر الدين كافة في مدن الإسلام ولا سيما في الحرمين الشريفين اللَّذَيْن هما منبع الدين وأساسه ومطلع نوره ونبراسه ، فإنهم موظفون لأهل الحرمين والوظائف التي بها قوام الدين ، ومظهرون شعائر الأئمة الأربعة الذين انحصر فيهم مذهب أهل السنة والجماعة ، ومرتبون للقائمين بوظائف الدين أعظم المرتبات ، ومنعمون عليهم بأنواع كثيرة من أصناف البرّ الذي به تكثر الحسنات ، ومرتبون أيضاً للأشراف والسادات والعلماء والصلحاء الأبرار ما يقوم بكفايتهم في المعيشة التي عليها المدار ، فأعانوا الجميع على القيام بالعبادة والاشتغال بالعلم النافع ، فقاموا بأداء الشكر لله تعالى وبذل الدعوات الخيرية للدولة العلية العثمانية في كل مسجد وجامع .

ومن محاسنهم الجليلة ومناقبهم الأثيلة أنهم دافعون كيد الكفرة الفجار والمبتدعة الأشرار بعساكرهم وخزائنهم في سائر الأقطار ، ومؤمّنون الطرقات للحجاج والزوار والتجار والمسافرين ، باذلون غاية جهدهم في نصرة الإسلام وصيانة الدين ، فيجب على المسلمين كافة السّعْي في تشييد دولتهم وتثبيت قواعد سلطنتهم والدعاء لهم بدوام التوفيق والنصر الذي يكون به تأييد مملكتهم ، اللهمّ وفّقهم لكل خير ، وادفع عنهم كل مكروه وضَيْر ، ووَفّق سائر الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء والعمال للعدل ونصرة الدين ، وقد مَنَّ الله على أهل هذا العصر الحميد بسلطنة واسطة عقد الدولة العثمانية الفريد من تشرّفت بذكره في الحرمين الشريفين المنابر والمنائر وعمر مساجدهما فصدق عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨] ، السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم خير خلف خلفاء الرحمن أشرف سلف آل عثمان السلطان بن السلطان بن السلطان الملك المنصور المظفر المعان مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان بن المرحوم مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان متع الله المسلمين بوجوده وأفاض عليهم سحائب فضله وجوده وأدام له النصر والتمكين وأيّده بروح القدس الأمين ، فكان له من حين ولايته إلى هذا الزمان من محاسن الصفات

وفعل الخير ما يعجز عن بيانه اللسان ، فمن ذلك أنه عمر عمارة فائقة في الكعبة المعظمة ، وفرش باطنها بالرخام على أعجب الأوصاف المنظمة ، وبذل على ذلك كثيراً من الأموال ، وأنعم على مباشريها بما لا يخطر بالبال ، وكان ذلك في سنة تسع وتسعين بعد المئتين والألف من هجرة من له العز والشرف ﷺ .

ومن مآثره وخيراته الجليلة صدور أمره الكريم بوضع مطبعة في مكة المشرفة تطبع فيها كتب العلوم ، ليكثر انتشار العلم في موضع مهبط الوحي الذي هو مرجع الخصوص والعموم ليحصل له بذلك ثواب نشر العلم وتأييد قواعد الدين اللذين هما من أقوى أسباب التأييد والتمكين ، فكان وضع المطبعة المذكورة سنة ثلاثمئة بعد الألف من هجرة من له العز والشرف ﷺ ، فامتثل أمره وقام بوضعها واجتهد غاية الاجتهاد وبذل وسعه حتى كملت واشتهرت بين العباد الوزير المعظم والمشير المفخم دولتلو السيد عثمان نوري باشا والي ولاية الحجاز وشيخ الحرم المحترم ، لا زال فعله مبروراً وسعيه مشكوراً ، وأقام في المطبعة المذكورة مديراً شويكي زاده السيد عبد الغني أفندي الدمشقي ، فصارت الناس تهرع إليها من جميع الجهات لطبع كتب العلوم فيها ، ويطبع فيها باللسان العربي والتركي والجاوي ، ففاقت بذلك جميع المطابع ، فنسأل الله تعالى أن يديم هذه السلطنة السنية ويوفقها لكل خصلة مرضية ويزيدها توفيقاً على ممر الزمان حتى تكون أهل هذه الملة بهذه الدولة في أعلى مقامات الاستقامة والإحسان ، ويتحقق بها ما تقدم عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه من قوله : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ونسأل الله للجميع التوفيق والإعانة والإخلاص والقبول وحسن الختام بجاه سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه الكرام وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وكان التمام للفتوحات الإسلامية في أول شهر رمضان المعظم سنة أربع وخمسين بعد الثلاثمئة والألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة